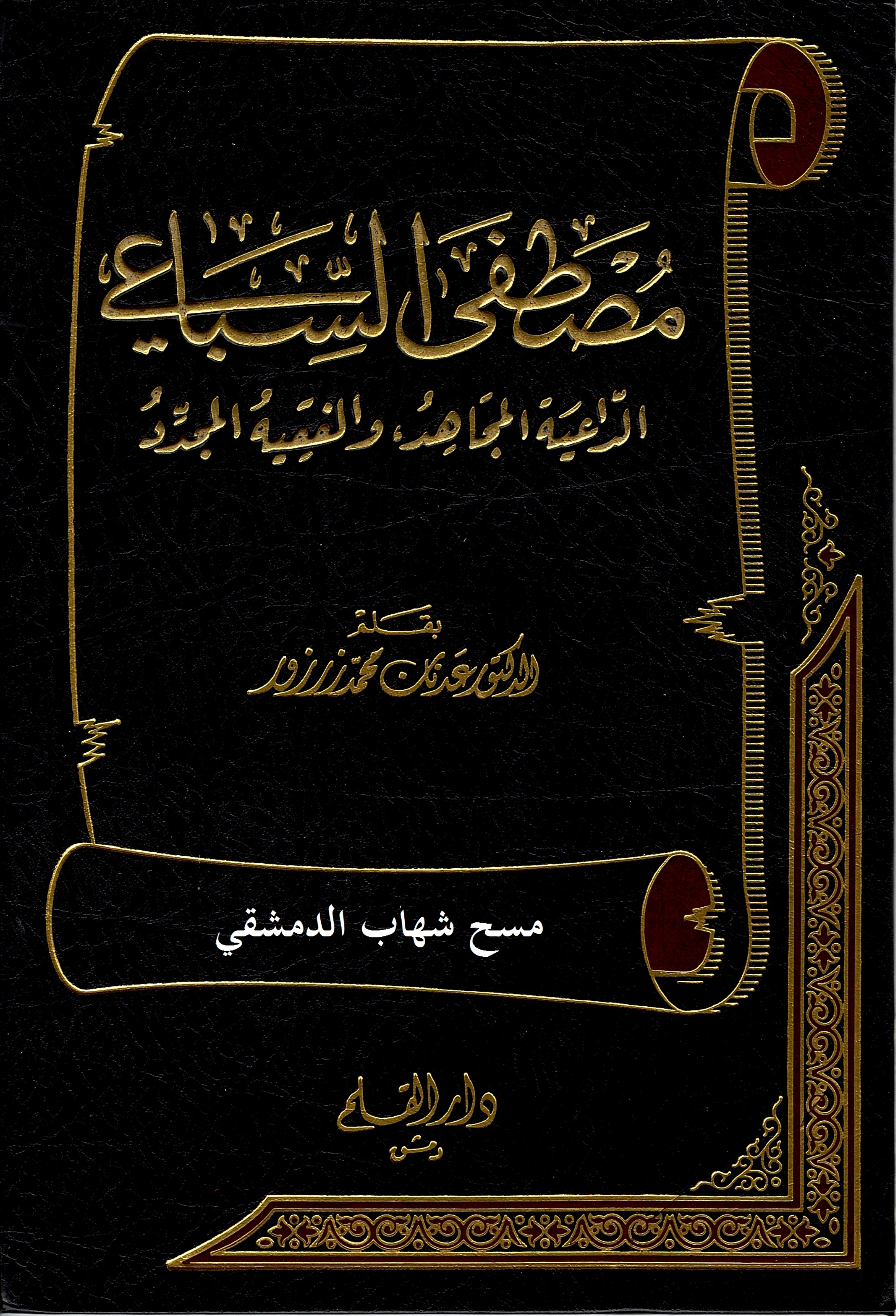

مصطفى السباعي
الداعية المجاهد، والفقيه المجدد
بقلم
الدكتور عدنان محمد زرزور
مسح شهاب الدمشقي
دار القلم
دمشق

مُصْطَفَى السِّبَاعِي

الدَّاعِيَةُ المجَاهِدُ، والفَقِيهُ المجَدِّدُ

الطَّبْعَةُ الثَّانِيَةُ
طبعة مزيدة ومنقحة
١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م



تُطلب جميع كتبنا من :
دار القلم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق
دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١



مصطفى السباعي

الداعية المجاهد، والفقيه المجدد

١٣٣٤ - ١٣٨٤هـ

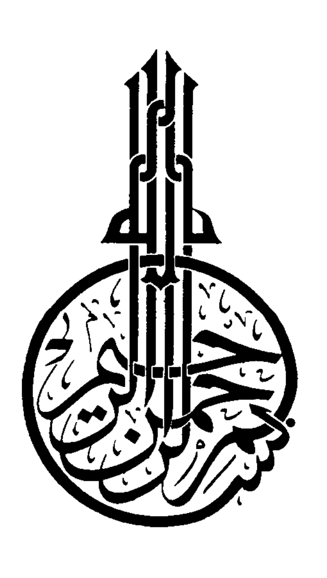
١٩١٥ - ١٩٦٤م

بقلم

الدكتور عدنان محمد زرزور

دار القلم

دمشق





إلى روح والدي

الشيخ محمد بن الشيخ ياسين زرزور

الذي غاب عني منذ نحو عقدين وجهه..

ولم تغب يوماً ذكراه.

والذي كان شغوفاً بالعلم والعلماء، والدعوة والدعاة.

أسأل الله تعالى أن يرفع مقامه عنده.

وأن يجعلني من حسناته يوم الدين

عدنان

رَبِّ يَسِّرْ وأَعِنْ

فتًى لا يضمُّ القلبُ هِمَّاتِ قلبِه ولو ضَمَّها قلبٌ لما ضمّها صَدْرُ

أبو الطيب المتنبي

يا سائلي عنه لمَّا جئتُ أسألُه فإنَّه الرَّجلُ العاري عن العارِ

لو جئتَه لرأيتَ النَّاسَ في رَجُلٍ والدَّهْرَ في ساعة، والأرضَ في دارِ

أبو العلاء المعري

وقد سئل عن الشريف المرتضى

بعد أن حضر مجلساً من مجالسه

تَشَرَّفُ عدنانٌ به لا ربيعةٌ وتفتخرُ الدُّنيا به لا العَوَاصِمُ

أبو الطيب المتنبي

قلبٌ يُطِلُّ على أفكارِه، ويَدٌ تمْضِي الأمورَ، ونفسٌ لهوُها التَّعَبُ

البحتري

فابكوا لما سَلَبَ الزَّمانُ ووطِّنوا للدَّهْرِ أنفُسَكُم على ما يَسْلُبُ

وأرى لكم أن تكتبوا أنفاسَه إنْ كانتِ الأنفاسُ ممَّا يُكْتَبُ

ابن الجواليقي

مَن يبلغ (الحنفاءَ) أنَّ صفوفَهم منْ بعدِه صلَّتْ بغيرِ إمَامِ!

ومدارسَ الفقهاءِ أنَّ فصيحَها عادتْ عروبتُه إلى الإعْجَامِ

ودِعايةَ الإصلاحِ أنَّ لسانَها قعَدَ الكَلالُ بهِ عن الإفْحَامِ

محمد النجمي

من رثائه للسيد محمد رشيد رضا



هذا العلم

● لقد كان السباعي أستاذ جيل، وقائد رعيل، وباعث نهضة، وكان خطيب جماهير، ومصلحاً كبيراً، وكاتباً أديباً، ومؤلفاً منتجاً. وقلما تجتمع هذه الصفات في رجل واحد، وقد جمعها الله فيه.

أ. محمد المبارك

● لقد كان الفقيد الراحل من الأفذاذ النادرين في تاريخ القرون والأجيال... قلَّ أن يجود بمثله الزمان. وقد لا يجود!.

أ. محمد خير الجلاد

● كان يجمع إلى عاطفة جهاده القوية: علماً غزيراً، وأدباً جمّاً. وقد أعطاه الله قلباً جريئاً، وقلماً سيالاً، ولساناً مخرساً لكل من ناصب الإسلام والمسلمين العداء.

أ. أبو الأعلى المودودي

● إنه نموذج العالم الديني، والداعية الإسلامي، في هذا العصر القلق الذي أصبح لا يطيق جفاف الفقه، وخشونة الدعوة، وضيق الأفق، وجمود الثقافة.

أ. أبو الحسن الندوي

● لقد تعرَّفت بالفقيد في صيف عام ١٩٥٨م.. ومنذ الكلمات الأولى شعرت بأنني تعرفت على رجل يحمل في أحشائه ناراً!.. نار القضية المقدسة التي عاش من أجلها مصطفى السباعي. إن شخص السباعي قد انتقل، ولكن عمله سيبقى مفعوله جارياً في تشييد حضارة الإسلام.

أ. مالك بن نبي

● ما أكبرَ هذه الهمة المتسعة المتشعبة التي أوتيها! إنها لو قسمت عـزماتُها ومقاصدها على عشرين شاباً من ذوي الجد لضاقـوا بأدائها والنهوض بها ذرعاً، وناؤوا بها ثقلاً.

أ. الشيخ: عبد الفتاح أبو غدة

● لقد عاش للإسلام في أوضح معانيه، وعمل للإسلام في زمن من أحلك أزمانه.

أ. د. عمر فروخ

● عرفته أول مَقْدَمي حلب الشهباء، بل إلى ديار الشام كلها قبل تسعة عشر عاماً (عام ١٩٤٥م) فكان أول ما لفت نفسي إليه: ذلك المزيج العجيب من وداعة سمته وسكون ملامحه... ثم من زئيره ساعة وقف خطيباً، زاده فيها إلى بأس الشكيمة: أصالة المعدن، وعنفوان العزم، ونذير التمرد على كل عاديات البغي في طريق دعوة الإسلام.

د. سعيد رمضان

● إذا ذكرتم فضيلة الأستاذ الدكتور مصطفى السباعي، فاذكروا رجلاً سـار في مقدمة الرعيل الأول من فرسـان اليقظة الحديثة في دنيـا العرب، حيث المسالك وعرة، والعقبات في وجه المصلحين أكثر من أن تحصى؛ فما لـوى عنان جواده يمنـة أو يسـرة، ولا ارتدَّ منهوكـاً من المقدمة إلى المؤخرة، بل ظل طيلة حياته ضميراً حراً لا يُسخَّر، وجبيناً عالياً لا يعفَّر.

أ. د. محمد الفاضل

● وإنكم لتكبرون معي رجلاً ملئت نفسه إيماناً، وعقله علماً، وروحه فيضاً، وجرى في الحياة جاداً لا هازلاً، وعاملاً لا متراخياً، وكريمـاً لا بخيلاً، وقويـاً لا ضعيفاً، وإنسـاناً لا جلفاً، على أحسـن ما يكون الجدّ، وخير ما يكون العمل، وأجود ما يكون الكرم، وأشد ما تكون القوة، وأرفق ما تكون الإنسانية.

أ. د. يوسف العش

● إنّ القائـد يُبكى إن فُقد بين القادة، فكيف لا يُبكى وقـد نـدر القادة؟ والقائد يُبكى إذا خلا مكانه، فكيف لا يُبكى إذا كان فريداً بين أقرانه؟ فالحزن عليك يا أبا حسّان: حزنٌ على فقد القائد، وندرة القائد، ونوعية القائد.

د. طبيب حسن هويدي

● سيظل مصطفى السباعي رمزاً بارزاً، وعلامة مضيئة في مسيرة الخير والبر. وستظل أجيال من الشباب تتجه إليه، وتغترف من فكره وعلمه، وتستهدي به كنموذج عالٍ للقائد الملهم، والمجاهد المؤمن. ويوم يزول الزيف، وتنحسر أمواج الباطل، وتنهار الكيانات الدخيلة؛ سيتبين لأجيال قادمة أن السباعي قد عمل لهذه النتيجة الباهرة ميتاً بقلمه وفكره، كما عمل لها حياً بعقله ومواهبه وحركته الدائبة.

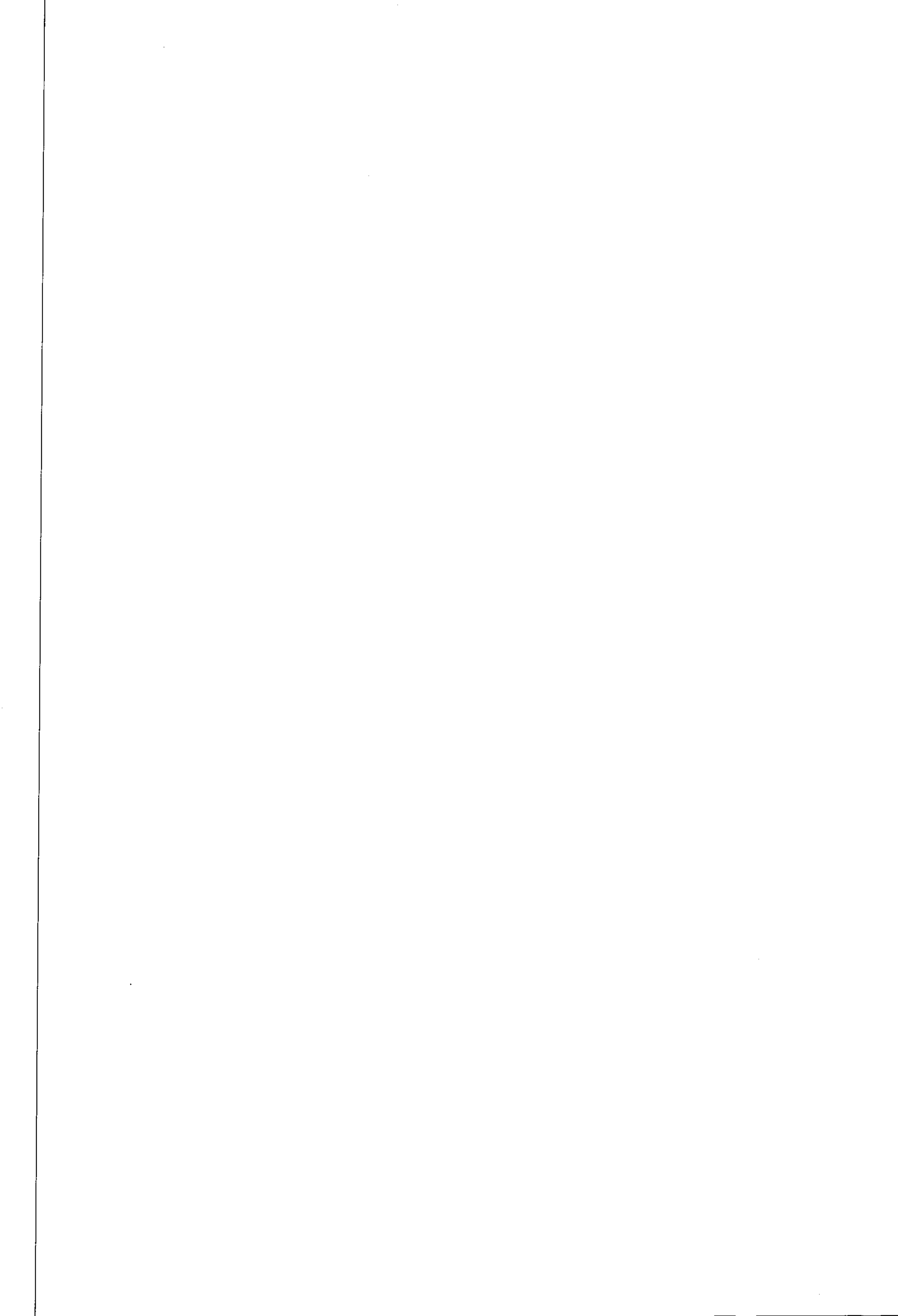
أ. كامل الشريف

● وحسبك أن تعلم أن السباعي لم يعتصر من عمله القيادي شراباً ينتشي به في ظلال الطمأنينة والرخـاء، وإنما ترك القيادة نفسـها هي التي تعتصر شـبابه وحياته. وأن جرأته أمام جيـوش الباطل لم تكن حلماً يداعب خياله، بل عزيمة تملأ حياته.

أ. د. محمد سعيد رمضان البوطي

● إن المشعل الذي أوقده مصطفى السباعي من نور عقله وقلبه وروحه، سوف يبقى مناراً هادياً للأجيال المسلمة. ولسوف يبقى السباعي أبد الدهر ملء عقول هذه الأجيال وملء قلوبها.. تحفزها ذكراه للمضي في طريق الإسلام العظيم، والله غالب على أمره.

أ. محمد بسام الأسطواني



مقدمة الطبعة الأولى

-١-

في الكلمة التي رثى بها الداعية المربي الأستاذ محمد خير الجلاّد أخاه وصديقه الأستاذ مصطفى السباعي ـ رحمهما الله تعالى ـ قال:

«ومهما يكن من شيء فإن شخصية الفقيد الراحل تحتاج إلى مؤلَّف خاص تبرزُ فيه مزاياه وصفاته التي أهَّلته ليكون مرشداً وموجهاً وقائداً، شريطة أن يكون الأسلوب الذي يُكتب فيه المؤلَّف مقصوداً به توجيه الأجيال الإسلامية الصاعدة؛ لتكون حياته قدوة وأسوة في مجال السلوك الإسلامي، لعلهم ينتهجون سبيله، ويستارون بسيرته؛ فتكون الجهود المبذولة لإخراج هذا المؤلَّف مباركة طيبة، وقبساً للأجيال المؤمنة في طريقها المحفوف بالحواجز والأشواك».

لا أدري إن كان هذا الكتاب الذي أضعه بين يدي القرّاء عن أستاذنا العلاّمة الداعية المجدِّد الشيخ مصطفى السباعي يفي بهذا الذي أشار إليه الأستاذ الجلاّد، أو ببعضه على أقل تقدير.. على أن الذي علمته وأنا أكتب فصول هذا الكتاب أن مؤلَّفاً واحداً لن يفي بشخصيته رحمه الله.

وقد أشرت في مواطن عدّة إلى جوانب هذه الشخصية التي تحتاج إلى أن تفرد بالبحث والدراسة. علماً بأن هذا الأمر كان قد تراءى لي عام ١٩٧٦م حين قدمت لكتابه: (عظماؤنا في التاريخ) فقلت: «الفصل الكتاب أو الكتاب السفر الكبير الذي لم يكتب بعد في حياة الأستاذ السباعي وأثره ومآثره ربما كتبه واحد أو أكثر من أبناء ذلك الرعيل»، وقد وصفت هذا الرعيل بأنه: «الرعيل الأول الذي صحب الأستاذ الرائد وأصغى إليه، ولبّى نداءه وتتلمذ عليه» حتى إذا قمت بذلك ـ وأنا لست من ذلك الرعيل ـ أيقنت أن الحاجة ماسّة إلى أكثر من كتاب.

ولا يعدو كتابي هذا أن يكون تعريفاً عاماً بنشأته ومراحل حياته. وبأهم إنجازاته في ميدان الدعوة الإسلامية في بلاد الشام، وإن شئت قلت: في ميادين

الجهاد والسياسة والعلم والقلم، وهي الميادين الرئيسة التي شملتها أو انطوت عليها الدعوة الإسلامية التي خاض غمارها وعاش تجربتها منذ أن كان طالباً وله من العمر ثلاثة عشر عاماً. . . إلى أن حمل لواء هذه الدعوة وقادها ولمَّا يبلغ من عمره الثلاثين. . وقد قُدِّر له أن يتوفَّى وهو في التاسعة والأربعين. . رحمه الله.

ـ٢ـ

ويشاء الله تعالى أن يتأخر هذا الكتاب هذه السنوات الطوال؛ فقد مضى على المقدمة المشار إليها ـ التي تضمنت شذراتٍ من سيرة السباعي ومحاولةً لتفسير شخصيته ـ ربع قرن، كما مضى على وفاته رحمه الله ست وثلاثون سنة. وقد حملت هذه السنوات بالنسبة لكاتب هذه السطور فرق التجربة، إضافة إلى فارق السن. كما مثلت بالنسبة للأستاذ السباعي المدى ـ القريب ـ الذي شهد بعض توقّعاته أو نظراته المستقبلية.

وأرجو أن تكون هذه العوامل قد ساهمت في إعطاء الكاتب القدرة على تجلية هذه الشخصية، ومحاولة فهم نوازعها وما انطوت عليه من صفات الرجولة والكمال، بالإضافة إلى استعراض ما قامت به من أعمال. مع قناعتي بأن هذه الشخصية لا يمكن لها أن تقرأ قراءة واحدة، وأن يكون العنوان الذي يجمع صفاتها ومزاياها ـ أو المفتاح الذي ندخل به إلى رحابها ـ واحداً في نظر جميع الكتّاب والباحثين، نظراً لتعدد جوانب هذه الشخصية من جهة، ولأنه رحمه الله أصاب تفوقاً ملحوظاً في كل جانب من هذه الجوانب من جهة أخرى.

لقد شعرت بالسموّ وأنا أكتب عن السباعي، في الوقت الذي لا أخفي أن الدمع قد غلبني أمام بعض كلماته ومواقفه! كما أن مرارة الفجيعة بموته عادت لتحيا في نفسي من جديد. ولكنني لا أعتقد أن شيئاً من هذا أخلّ ـ أو يخلّ ـ بموضوعية الكاتب وبحياد المؤرخ أو الباحث، بل لعله من الأسباب المعينة على التفسير الصائب والتأريخ الصحيح. . لأن هذا يتيح الفرصة لفهم الشخصية والوقوف على بواعثها وأغراضها وأسباب تصرّفاتها. إنه (التفاعل) الذي يرتقي بالكاتب إلى مستوى التحليل والتعليل، وليس (الانفعال) الذي يحول بينه وبين صواب الرأي وصحة التفسير.

وهذا هو الفرق بين من يكتب عن الدعاة والقادة والثائرين

والمصلحين، وبين من يتعامل مع الأرقام والوثائق ومواد التاريخ، أو من يحاول دراسة الشخصيّات، كما تدرس معادلات الرياضة وقوانين المادة! بل لعل تجدد الشعور بتلك المرارة كلما عاد المرء لدراسة شخصية من الشخصيات يعد من أوضح البراهين على ما تنطوي عليه هذه الشخصية من أسباب العظمة والنبوغ، وبخاصة إذا كان مكانها ما يزال شاغراً، أو أن العصر بات يطلبها من جديد.

ـ٣ـ

ولد مصطفى السباعي عام ١٣٣٤هـ ـ ١٩١٥م وتوفي عام ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤م. وجاء عمله الدعوي وريادته الإصلاحية في بلاد الشام في سياق حركات التجديد والإصلاح التي بعثها السيد جمال الدين الأفغاني، وقادها وتعاقب عليها كل من الإمام محمد عبده والشيخ طاهر الجزائري، والشيخ عبد الرحمن الكواكبي، والسيد رشيد رضا والإمام حسن البنا وغيرهم، وإذا أخذنا بعين الاعتبار ظروف بلاد الشام، والموقف السلبي لعلمائها ـ ودعاتها ـ على وجه العموم من تلك الحركات وهؤلاء الروّاد؛ فإننا ندرك معنى الريادة التي قام بها السباعي. فإذا أضفنا إلى ذلك: موقف الحركة الوطنية والأحزاب القومية والاشتراكية من الدين والدعوات الدينية على وجه العموم؛ فإننا ندرك كذلك العقبات التي قامت في وجهه، ومحاولات التشويه والتشكيك التي تعرض لها، والتي عرضنا لها في هذا الكتاب.

جاءت ولادة السباعي بعد وفاة كلٍّ من الشيخ عبد الرحمن الكواكبي (ت١٩٠٢) والإمام محمد عبده (ت١٩٠٥)، فكان خير خلفٍ لهذين المصلحين الكبيرين اللذين انطلق أولهما من بلاد الشام، والثاني من أرض الكنانة! بل جاء في قدره المقدور ليصل ـ فكرياً وعلى أرض الواقع ـ مدارس الإصلاح ببلاد الشام بمدرسة الإصلاح في مصر. وربما كان أثره في سورية وبلاد الشام يضارع أثر محمد عبده في مصر والعالم الإسلامي. بل إن ما قاله السباعي في محمد عبده ـ كما سيرى قارئ هذا الكتاب ـ ينطبق في جملته على السباعي نفسه، مع الإشارة إلى أنه تردد في مصر على الشيخ رشيد رضا ـ تلميذ الإمام محمد عبده ـ وأفاد كما قال: «من علمه وفهمه للشريعة ودفاعه عن السنة» قال السباعي:

«أما الشيخ محمد عبده رحمه الله فلا شك أنه كان من أكبر روّاد الإصلاح في عصرنا الحديث، وأنه كان في عصره فيلسوف الإسلام ولسانه الناطق، وعقله

المفكر وسلاحه الذائد عن حماه كل عدو وكل مفترٍ من الغربيين وخاصة المستعمرين منهم، ونوره المشرق تجاه الجمود الذي ران على العالم الإسلامي من مئات السنين».

أما الكواكبي فقد التقى معه السباعي في كراهته الشديدة للطغيان ومحاربته للاستبداد. وتأثر بأسلوبه في الكتابة، وبخاصة في كتاباته الأولى التي نسج كثيراً منها على منوال كتابه (أم القرى) فضلاً عما كتبه السباعي عن الطغاة والطغيان.. وما نهض به من مقارعة الاستعمار والاستبداد.

ـ ٤ ـ

اشتملت هذه الدراسة على (مدخل تاريخي) صوَّرتُ فيه ـ باختصار ـ الوضع السياسي والحالة الثقافية في سورية في العقود الأولى من القرن العشرين، وأشرت إلى مدى مشاركة السباعي في الحياة العامة في العقد الرابع. ثم تسلسلت أقسام الكتاب على النحو التالي: (البلد والنشأة ومدرسة «الفتح»، السباعي في مصر، الداعية والدعوة، المجاهد والصحفي، السياسي والبرلماني، تحديات وأخطاء، العالم والمؤلف، الكاتب والأديب، الرجل والإنسان، وأخيراً: الرحيل).

وقد جاء هذا التبويب أو التقسيم تاريخياً وموضوعياً في الوقت نفسه، لأن كل مرحلة من مراحل حياة السباعي كان لها عنوان بارز أو غلب عليها جانب معيّن من جوانب حياته أو لون خاص من ألوان نشاطه. وربما لم يخرج عن ذلك إلا بعض المراحل الثانوية، مثل الحديث عن خروجه إلى لبنان ونشاطه فيه، فقد جاء في سياق الحديث عن التحديات التي واجهته، والأخطاء التي وقعت في تاريخه وتاريخ الدعوة الإسلامية في سورية أيام قيادته لها... وقد ساعد على ذلك أن خروجه إلى لبنان كان في غمرة هذه التحديات والعقبات، أو في سياق هذه المرحلة.

ونأمل أن يكون هذا العرض قد نجح في تسليط الضوء على الجوانب المتعددة في شخصية السباعي، وإن شئت قلت: على السباعي المجاهد والداعية والسياسي والعالم.. فضلاً عن الحديث عن خصائصه ككاتب، وصفاته وسجاياه كرجل وإنسان.. والتي جاءت في آخر الكتاب قبل الحديث الموجز عن رحيله رحمه الله.

وإذا كانت شخصية السباعي الداعية هي الغالبة، أو هي الأساس والقاعدة، لأن سائر الجوانب الأخرى يمكن أن تعود إليها أو تقرأ في ضوئها؛ فإن الذي نود التأكيد عليه هنا أن سمات الدعوة التي نهض بها السباعي أو أبعادها كانت إصلاحية، ولم نقف في سيرته وأقواله كلّها على ما يشير إلى أي بُعد انقلابي أو ثوري ـ كما يقال ـ في هذه الدعوة. لقد تحدث عن إصلاح الفرد والأسرة والمجتمع، وعن الإصلاح الفكري والثقافي، والإصلاح الاجتماعي، والإصلاح السياسي. في الوقت الذي أكد على كفاح الاستعمار وكفاح أعوان المستعمرين من طغاة ومستبدين..

لقد عمل السباعي في وسط (ديمقراطي) وفي مناخ التنافس الحزبي الحقيقي، وشارك ـ كما تحدثنا في هذا الكتاب ـ مع الإخوان وبعض الجمعيات الإسلامية الأخرى في الحياة السياسية والبرلمانية السورية، وبقي وفياً مخلصاً لهذه الحياة الدستورية،.. ومن هنا كان تبرمه وسخطه وإدانته لسياسة الانقلابات العسكرية، والعدوان على الحريات العامّة، من جهة. وإطلاقه اسم (الخصم) لا العدو على جميع أولئك الذين خالفوه في الرأي والاتجاه والممارسة، من جهة أخرى. قال رحمه الله: «لا تطلق لفظ (العدوّ) إلا على الأجنبي المحارب، أما المواطن الذي تختلف معه فهو (خصم)».

بل ارتقى في فهم حق (المواطنة) هذا إلى الحد الذي برئ معه من العصبية الحزبية والطائفية فضلاً عن القومية والدينية! أليس هو القائل: «إن الارتفاع فوق مطامع الدنيا يحتاج إلى جناحي نسر لا إلى جناحي فراشة»! لقد حلّق هذا النسر في سماء الوطن العربي السوري، وارتفع بجناحي عروبته وإسلامه فوق الحزبية العمياء والطائفية البغيضة..

لقد دعا إلى الوحدة الوطنية في بعض خطبه البليغة التي ألقاها في كنائس دمشق.. وسار إلى فلسطين على رأس فوج من المجاهدين، تصحبه ثلّة أخرى بقيادة ضابط مسيحي، وبات في الطريق في قرية (البيرة) في بيت خوري القرية. ودعا تحت قبة البرلمان إلى العناية بجميع مناطق الوطن ومدنه وقراه وأحيائه! وتشهد له بذلك مذاكرات الجمعية التأسيسية (البرلمان) التي دخلها نائباً عن مدينة دمشق، والتي شغل فيها منصب نائب الرئيس.

لقد كان كبيراً، وكانت هامته تظلل الوطن كله بجميع فئاته وطوائفه، وملله ونحله.. لم ينحز لفئة دون فئة، ولا لطائفة دون طائفة... بل كان انحيازه للحق والعدل. وإذا جاز عليه في جميع مراحل حياته أن ينحاز إلى أحد؛ فلقد انحاز للضعفاء والفقراء والمساكين، حتى إن في وسعنا أن نقول في وصفه: إنه كان رجل العدالة الاجتماعية الأول في هذه البلاد، وإن (اشتراكية الإسلام) التي دعا إليها في محاضرته التي ألقاها عام ١٩٥٨م لم تكن مجرد شعار يرفع، بل لقد دخل الجمعية التأسيسية التي أشرنا إليها، بما أطلق عليه (الجبهة الاشتراكية الإسلامية) وكان ذلك في أواخر عام ١٩٤٩م ـ قبل محاضرته المذكورة بنحو تسعة أعوام ـ الأمر الذي يدل على تبنّيه المبكر لمسألة العدل الاجتماعي ومدى قناعته بإمكانية ـ وضرورة ـ تحقيقه من خلال العمل السياسي الذي تصدّى له في هذا الوقت على هذا النحو الواسع والمباشر. وقد تحدثنا في هذا الكتاب عن الجبهة المذكورة، وعن أثرها الفاعل في الدستور السوري، في باب العدل الاجتماعي بوجه خاص، والوجهة الإسلامية بوجه عام.

ـ٦ـ

ولا نعتقد أن الأبعاد الإصلاحية، البعيدة عن أي معنى ثوري أو انقلابي، للدعوة التي قادها السباعي، تجلت في شيء كما تجلّت في رفضه الشديد للعنف، أو استعمال اليد والسلاح، حتى في مواجهة استفزاز بعض الحزبيين الاشتراكيين وعدوانهم المسلح على بعض شباب الدعوة في شهر كانون الثاني (يناير عام ١٩٥٦م). بل إن في هذا الموقف ما يدل دلالة واضحة على مدى حرصه على تأكيد **(الروح الدعوية)** القائمة على التسامح والتسامي، وعلى تفريقه الحاسم بين الدعوات البنّاءة والحزبيات الهدّامة.

لقد قام هؤلاء باستفزاز الإخوان في حلب وحماه وحمص، واعتدوا على بعضهم في (خان شيخون) وأحرقوا باب دار الجماعة في (المعرّة) وحاولوا إثارة فتنة عمياء في (درعا) ـ كما تحدثت جريدة (الشهاب) ـ.. فما كان من السباعي إلا أن وجّه الخطاب التالي ـ الذي نثبته هنا للتاريخ ـ إلى رؤساء مراكز الإخوان في المحافظات والأقضية، والذي حاول فيه أن يمتص غضبهم، ويحجزهم عن الرد بالمثل، قال:

«السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد: فأرجو أن تذيعوا هذا الكتاب على الإخوان في مراكزكم وتطلبوا من الإخوان التقيد بما فيه:

«تعلمون أن الإسلام دعوة حق وخير، وقد أمر الله أن ندعو إليه بالحكمة والموعظة الحسنة، ودعوتنا الآن لا تزال في مراحلها الأولى، ومن أجل ذلك كانت في حاجة إلى توفير الجهود لإبلاغ الدعوة إلى النـاس في جوٍّ بعيد عن المشـاكل، مطبوع بطابع الحكمـة والموعظة الحسـنة. وبلادنا الآن في أخطر مرحلـة من مراحل تاريخها الحديث، تتعرض للمؤامرات الاستعمارية، ولخطر الغزو الصهيوني ما بين عشية وضحاها؛ فليس من الجائز في دين الله أن تنشغل الأمة في هذا الوقت العصيب بالخصومات الحزبية العنيفة التي تفرق شمل شباب البلاد، وتوقد نيران العداوة والبغضاء فيما بينهم. وشباب الإخوان أحرى الناس بأن يحملوا لواء الدعوة إلى وحدة الصف واجتماع الشمل وتناسي الأحقاد والضغائن، فإذا اعتدى على دينهم وفكرتهم معتد جادلوه بالحسنى والموعظة الحسنة، وإن اعتدى على بعض شبابهم معتد حزبي طائش لا يرعى الله في هذه الأمة، فليكن الإخوان أضبط أعصاباً، وأوسع صدراً، وليعلموا أن النزول إلى ميدان المهاترات والخصومات الحزبية رداً على من يعتدي عليهم، يهبط بالدعوة إلى مستوى الحزبية العمياء المخرّبة للبلاد والأمة. فإذا نسي غيرنا واجبه في هذه المرحلة، فليكن الإخوان دائماً متذكرين لواجبهم نحو أمتهم ودعوتهم، مؤمنين بتأييد الله لدينه، وانتصار الخلق الكريم في النهاية على كل منحرف أثيم. والله أكبر ولله الحمد.

(دمشق: ١ من جمادى الثانية ١٣٧٥هـ ـ ١٤ من كانون الثاني ١٩٥٦م). أخوكم مصطفى السباعي

وبهذه المناسبة، فإن في وسعنا أن نصف هذا الاستفزاز ـ وعلى الرغم من هذه الحدّة! ـ بالسياسي والهامشي؛ لأنه جاء في إطار الخصومة والمنافسة الحزبية التي كانت قائمة في ذلك الحين، والتي كانت تتسع في واقع الأمر لتعدد الأحزاب الحقيقي الذي يمثل تنوع الأفكار والبرامج. ولم تكن سورية تعرف الاستفزاز الناجم عن محاولة فرض شعارات ومبادئ حزب واحد من هذه الأحزاب على الشعب والأمّة، بغض النظر عن مدى تعبير هذه المبادئ عن هوية الأمة وثقافتها وأهدافها وطموحاتها، وبغض النظر كذلك عما يسـتتبعه هذا الفَرْض من التطرف وردود الأفعال!

علماً بأن (تحويل) شعارات ومبادئ حزب من الأحزاب إلى (أهدافٍ) للأمة ـ العربية أو الإسلامية ـ لا بد أن يتم عبر انتخابات نزيهة تشارك فيها شعوب الأمّة كافة، وبخاصة إذا كانت (الحرية) إحدى هذه الشعارات!!

-٧-

لا تتسع سطور هذه المقدمة للحديث عن الحقائق التي كشفت عنها هذه الدراسة أو النتائج التي انتهت إليها. ولكن علينا أن نذكر هنا أن المقالات التي كتبها السباعي في مجلة (الفتح) القاهرية عندما كان طالباً يدرس في الجامع الأزهر، وما كتبه منها بخاصة عن الأوضاع في بلده سورية؛ قد أعانتنا كثيراً في فهم شخصيته والوقوف على الأبعاد المبكرة لهذه الشخصية، وهي الأبعاد التي وجدنا أنها صاحبته حتى آخر أيام حياته رحمه الله، علماً بأنه قد بدأ تلك المقالات (النفيسة) ـ كما وصفها بحق السيد محب الدين الخطيب صاحب مجلة (الفتح) ـ ولما يكمل العشرين من عمره! لقد اجتمع في شخص السباعي وتجلى في عمله وجهاده: **البعد الوطني والعروبي والإسلامي**، ولهذا فقد وصفناه في هذا الكتاب بأنه كان رجل الوطنية والعروبة والإسلام.

وقد دلّنا استعراضنا لجهاده على أرض فلسطين: على أنه هو الذي قرر مصير معركة القدس الكبرى بين العرب واليهود ـ قبيل فرض الهدنة ـ، فحال بذلك دون سقوط القدس الشرقية بأيدي اليهود عام ١٩٤٨م.

ولا بد لنا من الإشارة هنا إلى أن فصول هذا الكتاب لم تتسع للحديث عن آرائه العلمية على الرغم من تعريفنا بمكتبته أو بكتبه ومؤلفاته، لأن هذا التعريف لم يتجاوز الاستعراض والإشارة إلى ملابسات التأليف ـ وبخاصة كتابه: السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي. وكتابه: اشتراكية الإسلام ـ وذكر بعض الآراء والملاحظات، ولكن طبيعة هذا التعريف أو الاستعراض اقتضى بيان رأيه في: الاستشراق، والتشيّع، والتصوّف؛ على وجه الخصوص.

والملاحظة المهمة التي نذكرها في هذا السياق: هي أن بعض آراء السباعي أو اجتهاداته التي ربما انتهى إليها أحدنا اليوم أو تنبّه لها وذهب إليها، قد سبق للسباعي أن جهر بها محاضراً وكاتباً قبل نصف قرن، نحو مسائل الرق والجزية وتطبيق الحدود على سبيل المثال. وهذا أحد الأسباب الدالّة على ريادته الفكرية، أو موقعه الفكري المتقدم الذي ما كان له أن يحتله لولا صلته الوثيقة بالمجتمع

والنـاس، وخوضـه لمعركة الدعوة، وجرأتـه العقلية والعلمية، إلى جانب تمكنه من ناصية الفقه، وفهمه العميق لمقاصد الشريعة ورسالة الإسلام.

ـ ٨ ـ

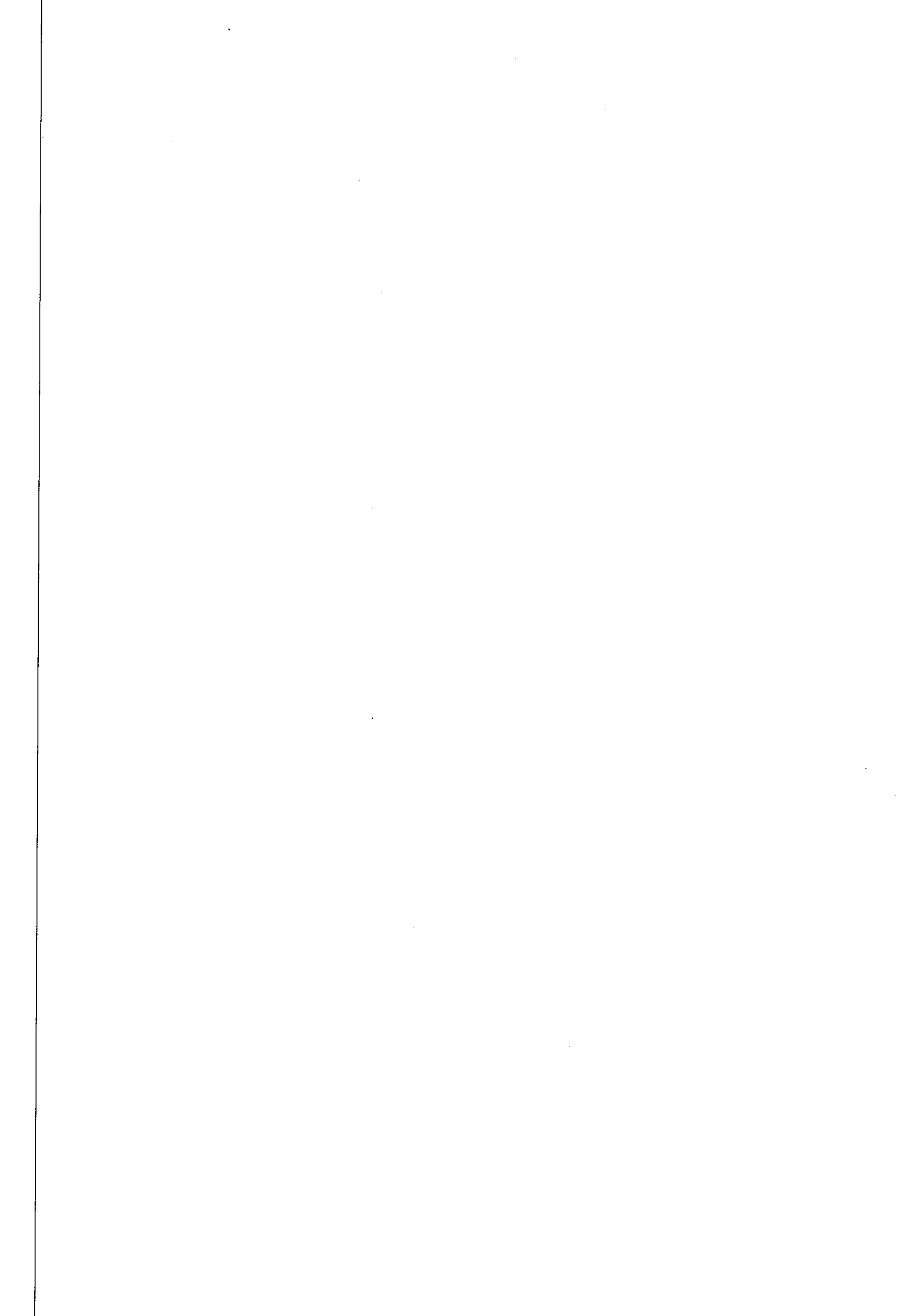
وبعد، فإنني أضع هذا الكتاب بين أيدي القرّاء، وقد يكون عند بعضهم ـ ممن صحب الأستاذ السباعي في وقت مبكر، أو كانت له معه تجربة أو واقعـة ـ تصحيح لبعض الوقـائع أو تفسـير ـ آخـر ـ لبعض الأحداث. علماً بأنني عوّلت على المصادر المطبوعة من كتب وصحف ومذكّرات، وعلى ما شاهدته بنفسي، أو حدثني به الشيخ أو سمعته منه، وقد صحبته في شطر من أيام مرضه رحمه الله. ولهذا فإنني آمل ممن عنده إضافة مهمة أو تصحيح لازم أن يتكرم بإعلامي، أو أن يقوم بنشره بأي وسيلة يراها مناسبة، حتى أتمكن من استدراك ذلك ـ أو مناقشته ـ في طبعة أخرى قادمة إن شاء الله تعالى.

ولا يسعني أخيراً إلا أن أتوجه بالشكر إلى الأخ الناشر الأستاذ محمد علي دولة صاحب (دار القلم) الذي ما زال يحثّني على وضع هذا المؤلَّف منذ زمن طويل، وإلى الأخ الأستاذ هاني طايع، الذي أمدّني بطائفة من المصادر والدوريات التي كان لها أكبر الأثر في رسم جوانب مهمة من هذا الكتاب.

راجياً أن يجد الباحثون والمؤرخون في هذا العمل بعض الحقائق، وداعياً المولى عزّ وجل أن تجد أجيال المسلمين في سيرة السباعي نبراساً يضيء لها الطريق، ومثلاً يحتذى في الإخلاص والزهد، والحماسة والتجرد، وفي الصبر والمصابرة، والعمل الدائب لخدمة الإسلام والمسلمين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الدَّوحـة ـ قطـر
لِسَبْع بقين مِن المحرّم الحرام ١٤٢١ لِلهجْرة
الموافق ٢٧ نيسَان (ابريل) ٢٠٠٠ للميلاد

عَدْنَانْ بنْ مُحَمَّدْ زَرْزُورْ



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه. وبعد:

- ١ -

فهذه هي الطبعة الثانية من كتاب: (مصطفى السباعي: الداعية المجاهد، والفقيه المجدد) تأخذ طريقها إلى أيدي القرّاء والباحثين، بعد الزيادات الكبيرة التي أضفناها إلى الطبعة السابقة، وما أجريناه عليها من تعديل وتصويب. لقد حاولت في الطبعة الأولى أن أؤرخ لحياة السباعي وأعماله، ولم أقف من آرائه وأفكاره إلا عند النزر اليسير، ولا أزعم الآن أنني قمت بالتأريخ لهذه الأفكار والآراء، لأن هذا لا يتسع له مؤلَّف واحد. ولكنني توسّعت في بعضها من جهة، وأضفت إليها بعض آرائه ـ ومواقفه ـ الأخرى التي قدرت إسهامها في الوقوف على آفاقه، وفي جلاء صورة كتبه ومحاضراته.. من جهة أخرى. وقد وجدت الفرصة سانحة ـ في الوقت نفسه ـ لبعض الإضافات المهمة عن مراحل حياته الأولى، والتي وقفنا عليها ـ بوجه خاص ـ من خلال مراجعة شاملة لمجلة (الفتح) التي يمكن عدّها من أهم وثائق الربع الثاني من القرن الميلادي العشرين[(١)]. وبخاصة في

---

(١) بدأ السيد محب الدين الخطيب بإصدار مجلة (الفتح) في القاهرة في ٢٩ ذي القعدة ١٣٤٤هـ ـ ١٠ حزيران (يونيه) ١٩٢٦، وقد رجعَ الفضل في هذا الإصدار للعلاّمة المحقق أحمد تيمور باشا، قال السيد محب الدين: «لولا تيمور باشا لما وجد الفتح، وأقول مقتنعاً: لولا وجود الفتح لما وجدت هذه الصحف الإسلامية بعده..» وقد نعته بعد سبع سنوات من وفاته بـ«المسلم الكامل، والعلاّمة المحقق المنقطع النظير، السريّ الخلق، النبيل النفس، الملائكي المنهج، الذي عاش ما عاش في طاعة الله والتزام =

نطاق التأريخ لتأسيس الأحزاب والجمعيات الإسلامية في مصر وبلاد الشام، والوقوف على النشاط الإسلامي الدعوي والثقافي، وعلى المعارك (الفكرية) التي شهدتها هذه الحقبة بين مختلف التيارات إلى جانب فضحها لأساليب المبشّرين وما كانت تروّج له الصحافة المشبوهة ـ وبخاصة في مصر ـ من انحلال خلقي وانصياع ثقافي و(عمالة) حضارية! بالإضافة إلى كشفها للممارسات الاستعمارية البشعة في طرابلس الغرب والجزائر وسائر بقاع العروبة والإسلام، ومواكبتها وتأريخها للقضية الفلسطينية والجهاد الفلسطيني، وجهود الجمعيات الإسلامية في إنقاذ فلسطين والدفاع عنها. وكذلك مواكبتها للحقبة الكمالية وأصدائها في مصر وبعض البلدان العربية، وعنايتها بشؤون المسلمين في الهند والصين وسائر بلدان العالم.

ـ ٢ ـ

لا يتسع المجال لتفصيل القول في التعديلات والزيادات التي لحقت بمعظم أقسام الكتاب، وعن دورها ـ الإضافي ـ في تجلية شخصية مصطفى السباعي وتاريخه، وأثره في الحياة الفكرية والاجتماعية والسياسية في سورية. وبحسبنا الإشارة إلى أننا دقّقنا في بعض جوانب المشهد السياسي والثقافي، وأضفنا عليه بعض الشروح والتعليقات، كما أشرنا إلى (شروط) الدعوة التي كانت تستدعيها الأوضاع السائدة في ذلك السياق التاريخي الخاص ببلاد الشام.

= سبيله»، ولا نحسب أن المجاهد السيد محب الدين الخطيب في هذا الذي وصف به تيمور باشا كان من المغالين. انظر العدد (٦٥١) من الفتح تاريخ ١٧ ربيع الأول ١٣٥٦هـ (٢٧/ ٥/ ١٩٣٧م) فاتحة العام الثاني عشر (وسنة المجلة ٥٠ عدداً). وانظر نعي السيد محب الدين (فقيد الإسلام المغفور له أحمد تيمور باشا) في افتتاحية العدد (١٩٧) من الفتح تاريخ ٢ ذي الحجة ١٣٤٨هـ ـ أول مايو ١٩٣٠م، السنة الرابعة، ص٧٣٧. أما مجلة (الزهراء) التي سبق لمحب الدين الخطيب إصدارها قبل نحو عامين فكانت شهرية وأدبية. وكان من شروط امتيازها ـ كما قال السيد محب الدين ـ «ألا تتعرض للسياسة والدين» انظر ص١٧ من العدد (٨٦١) من الفتح (العام الثامن عشر) ذو القعدة ١٣٦٧هـ ـ من أواخر أعداد الفتح ـ مقالة له رحمه الله بعنوان: (ذكريات شاهد عيان ـ لمناسبة مرور عشرين عاماً على تأسيس جماعة الإخوان المسلمين).

وقمنا باستعراض طرفٍ من أعمال (لجنة الشؤون الإسلامية بالأزهر) نظراً لدلالتها على مدى انخراط السباعي في العمل العام عندما كان طالباً في مصر، ومدى ما وقف عليه ـ وعرف بواعثه ـ من معارك الأوربة والتغريب، ومحاولة إقصاء الدين ومحاربة الإسلام! والتي كانت تتم يومذاك تحت عنوان حرية الفكر والمدنية والتحضّر! لقد عمل السباعي في نطاق هذه اللجنة، أو قادها وعبّر عنها بقلمه، في الوقت الذي كان يكتب في مجلة (الفتح) إلى جانب نخبة من كبار العلماء والكتّاب أمثال الأمير شكيب أرسلان، والشيخ محمد الخضر حسين، والدكتور عبد الحميد سعيد، والأستاذ تقي الدين الهلالي، والشيخ أحمد شاكر، والشيخ مصطفى أحمد الرفاعي اللبان، والأستاذ عبد الحميد السيد، والأستاذ محمد صادق عرنوس، والأستاذ عجاج نويهض... وغيرهم.

كما وقفنا في هذه الطبعة عند واقعة الانشقاق والخروج على مصطفى السباعي، في ضوء الاطلاع على بعض المصادر، ومراجعة بعضها الآخر من جديد، فأشرنا إلى ما لقيه السباعي من تأييد من قيادات الإخوان في سورية، وإلى ما ذهب إليه بعض الباحثين المهتمين بالتأريخ للحركات الإسلامية من تحليل لهذه الواقعة.

وقد توسّعنا في بيان رأي الأستاذ السباعي في قضية التقريب بين السنة والشيعة، وإلى شروطها الموضوعية؛ ونقلنا في ذلك رداً موجزاً له على بعض الذين اتهموه بإثارة الطائفية والوقوف في وجه التقريب.. على الرغم من أن هذا الاتهام كان على خلاف المعهود من سيرته وأقواله هو والإمام حسن البنّا جميعاً.

ونقلنا أيضاً بقلمه بضع صفحات حول الأسباب التي كانت وراء محاربة القوميات في أوروبة للدين، إمعاناً في شرح موقفه الإيجابي من قضية العروبة والقومية، لأنه بيّن كيف أن تلك الأسباب لا وجود لها في الوطن العربي، أو في العلاقة الخاصة التي لا تنفصم بين العروبة والإسلام.

وحين عُدنا إلى (جواب الإسلام على الشيوعية) الذي قدّمه السباعي في أحد المؤتمرات، رأينا أن من حقنا بل من واجبنا إثبات هذا النصّ المهم، بوصفه وثيقة تاريخية، وقد قمنا بالتقديم له، وتحليل بعض جوانبه.. لنرى فيه جواباً كذلك ـ أو قبل ذلك ـ على الصهيونية والاستعمار. وقد وجدنا أنفسنا أمام بعض

القراءات والمراجعات مضطرين لوقفة إضافية أمام كتاب الأستاذ السباعي: (اشتراكية الإسلام) ـ على الرغم من التعريف الطويل السابق بهذا الكتاب ـ فقد ذهب الرئيس الإيراني السيّد محمد خاتمي في التعليق على الكتاب، ـ أو على هذه التسمية (اشتراكية الإسلام) ـ مذهباً يحتاج إلى مراجعة وتدقيق؛ على الرغم من أن السياق الأصلي الذي كان يتحدث فيه الرئيس المفكّر صحيح ولا غبار عليه.

وعرَّفنا أخيراً بكتاب الأستاذ السباعي: (أحكام الصيام وفلسفته) وكنّا قد ذكرناه في الطبعة السابقة، ولكن فاتنا التعريف به. كما عرَّفنا ببعض بحوثه أو مذاعاته الأخيرة، والتي ذكر في سياق بعضها أنه يرغب في تأليف كتاب بعنوان: (حقوق الحيوان في الإسلام) «لبيان أن هذه الحقوق في الإسلام أوسع وأسمى من حقوق الإنسان في هذه الحضارة!» على حدّ قوله رحمه الله.

ـ ٣ ـ

رأى بعض الإخوة القرّاء أن القسم الذي يحمل عنوان: (الدعوة والداعية) شديد الإيجاز. وقد شفع لنا في ذلك ـ أو حَمَلنا عليه ـ أننا في هذا الكتاب لم نؤرّخ لدعوة الإخوان المسلمين أو للحركة الإسلامية في بلاد الشام، ولكننا حاولنا التأريخ لمصطفى السباعي. ولهذا فقد اكتفينا من تاريخ الحركة الإسلامية ـ كما أشرنا سابقاً ـ بالقدر الذي أوضح أثر السباعي في هذه الدعوة، ومكانته في تطويرها وقيادتها. ومع ذلك فقد أعدنا النظر في هذا القسم أو الجزء، واستعرضنا فيه النشأة المبكرة ـ والمستقلة ـ للجمعيات الدينية التي أُسست ببلاد الشام، وتاريخ تأسيس رابطة شباب محمد ﷺ وأسبابه ـ كما جاءت على لسان المؤسّسين أنفسهم ـ قبل أن يتم تغيير لافتتها أو عنوانها بعد عقدٍ من الزمان إلى اسم (الإخوان المسلمين) وقد حاولنا تحقيق تاريخ هذا التغيير، وما تبعه من الارتباط والتنظيم مع إخوان مصر. ورأينا أنه لم يتم عام ١٩٤٥م كما ذكر بعض الباحثين، في حين أثبتنا ما أخبرنا به الأستاذ عادل كنعان[١] الذي عاصر تلك الأحداث من أنه كان

---

(١) الأستاذ عادل كنعان: أحد رجال التربية الأفاضل، من مواليد مدينة حلب عام ١٩٢٥م تخرّج في معهد الحقوق بدمشق عام ١٩٤٩، وعُيّن مدير ناحية في وزارة الداخلية لعدة سنوات، افتتح بعدها مدرسة خاصة باسم (ثانوية الغزالي) بحلب، وكان مديراً لها حتى=

عام ١٩٤٧م. أما الخلاصة التي قدّمناها عن أهداف الدعوة وأبعادها، وعن أعمالها وإنجازاتها؛ فلم نجد أنها بحاجة إلى التوسع أو الشرح؛ اللهمَّ إلا فيما يتعلّق بتأييد الإخوان للقضية المصرية (الجلاء ووحدة وادي النيل) والقضية الجزائرية؛ فقد أشرنا ـ على نحو عابر ـ إلى أحد بيانات الإخوان أو نداءاتهم المتكررة فيما يتصل بهذه القضية الثانية. أما القضية المصرية فقد أشرنا أولاً إلى موقف إخوان مصر الرافض لاتفاقية الجلاء التي وقّعتها حكومة الثورة مع الإنجليز عام ١٩٥٤. وذكرنا أسباب هذا الرفض، ثم تحدّثنا عن الموقف السوري المماثل الذي عبّر عنه السباعي في بعض تصريحاته، واستنكر فيه بقاء الألوف من إخوان مصر في السجون والمعتقلات!

أما الإضافات التي وجدنا أنها ضرورية ـ في هذا القسم ـ فتلك التي جاءت تعقيباً على التعاون والارتباط بإخوان مصر. فقد كتبنا على هامش هذا الارتباط أبرز النقاط الجامعة أو المشتركة بين الدعوتين، إلى جانب الحديث عن موقف الإمام البنّا من الحزبية والأحزاب، لأن هذا الموقف ربما لم يكن واحداً عند الفريقين، ولو من بعض الوجوه على الأقل! وعلينا أن نسجّل هنا أننا حين عدنا لاستعراض خطب البنّا ومحاضراته وأحاديثه، وحين تأمّلنا مرة أخرى أعماله وإنجازاته في ذلك الوسط السياسي والثقافي والاجتماعي الذي نهض فيه بأعباء الدعوة والإصلاح.. لم يفارقنا الشعور بأن حسن البنّا كان نابغة المصلحين وإمام الدعاة، وأن العالم الإسلامي لم يشهد نظيراً له منذ قرون!

ـ ٤ ـ

ولكن إذا كنا هنا لا نؤرّخ للدعوة التي أسّسها حسن البنا في مصر، ولا للدعوة

= عام ١٩٦٦، ثم انتقل للعمل في الدوحة مديراً لمدرسة قطر الإعدادية، ثم مسؤولاً في التفتيش الإداري والمالي حتى أحيل على المعاش. وهو من الرعيل الذي صحب الأستاذ السباعي، ولم ينقطع عن العمل في صفوف الدعوة الإسلامية من أيام (دار الأرقم) بحلب. وهو كثير القراءة، واسع الاطلاع وقد أفدتُ من ملاحظاته في بعض المراجعات والتصويبات، كما أفدتُ كذلك من ملاحظات الأخ الأستاذ هاني طايع الذي لم يبخل عليَّ هذه المرة أيضاً بالمزيد من المراجع والدوريات. شكر الله تعالى للأخوين الكريمين، وجزاهما كل خير.

التي قادها مصطفى السباعي في سورية؛ فإن التجارب التي كانت هنا وهناك جديرة بأن تجعل العاملين في الحقل الإسلامي يعيدون النظر ـ بعد هذه السنوات الطوال ـ في مفهوم عالمية الدعوة، ومدى ضرورة الارتباط التنظيمي بين فروعها؛ في ضوء اختلاف مواقع العمل الإسلامي، وتعدد التجارب التي يعيشها كل قطر من الأقطار العربية والإسلامية؛ وفي ضوء الضرورة الملحّة للارتقاء الفكري والدخول في باب التنظير، بدل تقليب الصفحات وتبرير التاريخ!

إن موقع مصر متقدم دون أدنى ريب، بل هي دليل العالم العربي والإسلامي إلى المستقبل، كما أشرنا في هذا الكتاب ـ وكما بسطنا فيه القول في مناسبات عدّة ـ ولكن هذا لايعني نقل الشيخوخة وتعدية الأخطاء! وحين يقف الحرس القديم على قمة الدعوة الشائخة ـ أي دعوة ـ ليحولوا دون التجديد، أو دون ولادة دعوة جديدة، تحت أي عنوان، فإنهم لا يفعلون أكثر من إحالة التاريخ والأوعية التنظيمية إلى قيود فكرية! أو إلى قيود تغلّ الفكر والعمل معاً أو في وقت واحد، وفي هذه الحال قد تنقلب الجماعات والدعوات أحزاباً أو أسواراً حزبية ضيّقة تتعامل مع الأفراد والأشخاص، وليس مع المبادئ والأفكار! وربما حملها ذلك ـ بدوره ـ على أن تتعامل مع المفكرين والمنظرين وسائر العاملين في الحقل الإسلامي نفسه بمنطق (التطفيف) الذي يُعلي من شأن مَن ينضم إلى الحزب، أو يشاركها العمل داخل تلك الأسوار، حتى وإن كانت هامته في باب العقل والفكر، بل في باب الدعوة إلى الإسلام الذي ينتسب إليه الجميع ويدافعون عنه، متواضعة أو مصطنعة! وفي المقابل فإن المفكرين والمنظّرين لا مكان لهم داخل تلك الأوعية! وربما كان لطغيان الحركة على الفكر أثر في ذلك، لا في الأحزاب والجماعات الإسلامية فحسب، بل في كافة الأحزاب والجماعات بوجه عام.

وحتى في حال المواءمة بين الحركة والفكر؛ فإن آفاق الفكر لها سقف لا تتعداه داخل الأسوار الحزبية، وهو السقف الذي لا يهيّئ الفرصة لوجود مفكّرين ومنظّرين على المستوى المطلوب في كل مرحلة من مراحل البناء والتقدم[1]!

---

(١) قد يطول تعليل هذه النقطة، وبحسبنا القول باقتضاب شديد: إن مبدأ الالتزام أو الفكر الملتزم هو المسؤول فيما يبدو عن هذه الحالة، لأنه غالباً ما يترجم ـ على أرض الواقع ـ بالحفاظ على الأفراد من جهة، وبالارتهان لأفكار ـ وكتّاب ـ الحزب أو الجماعة من =

على عكس ما كانت عليه الحال أيام السباعي والبنّا، أو في تلك المرحلة من مراحل التحول وإعادة اكتشاف الإسلام؛ لأن الحزبية ـ بوجه عام ـ لم تكن في تلك المرحلة سوراً للتسلّق أو لإعلاء شأن الضعفاء[1]! ولكن محضناً للتربية، وحصناً للالتجاء وإعادة البناء . . في الوقت الذي ارتاد هذان الرجلان العظيمان ـ وبعض الدعاة الآخرين ـ أبعد الآفاق الفكرية الممكنة أو المحتملة. والتي قد يفاجأ المرء حين يرى أن بعضها قد تم التراجع عنه بعد سنوات أو عقود؛ بدلاً من تطوير هذه الآفاق والامتداد بها في نطاق تلك الدعوات على وجه الخصوص. وعلى صعيد الفكر الإسلامي على وجه العموم.

ـ ٥ ـ

افتتحتُ مقدمة الطبعة الأولى بكلمة الأستاذ الداعية المربّي محمد خير الجلاّد ـ من أعلام مدينة دمشق ـ التي قال فيها: إن شخصية السباعي «تحتاج إلى مؤلَّف خاص تبرز فيه مزاياه وصفاته التي أهّلته ليكون مرشداً وموجّهاً وقائداً».

وأرى من الضروري في هذه الطبعة أن أصل هذه الكلمة بكلمة الأستاذ الداعية المحامي عبد القادر السبسبي ـ من أعلام مدينة حلب ـ التي قال فيها: إن السباعي «ما كان يفكر أن تكون له ترجمة تُكتب، أو سيرة تُدوَّن؛ لأنه كان

= جهة أخرى، في الوقت الذي يقع التداخل ـ والخلط ـ بين الفكر الذي يدعو إلى الالتزام بالإسلام، والفكر الذي يدعو إلى الالتزام بالجماعة، أيّ جماعة عاملة في حقل الدعوة إلى الإسلام. وفي ظل هذا وذاك تسود النمطية والتكرار، ويكون الركود الذي لا يلبث أن يتحول إلى انغلاق وجمود.

وغني عن البيان أن الأفكار تولد وتنمو وتتطور من خلال المقارنات والقراءات المفتوحة، في إطار الفكر الإسلامي نفسه، خارج كتّاب وباحثين بأعيانهم، وفي إطار الكتّاب المشتغلين بقضايا العقل والمعرفة، والباحثين في العلوم الإنسانية والاجتماعية، والمهتمين بدراسة الواقع وتحليل نظمه السياسية وتعليل ظواهره الاجتماعية، ويصعب التجديد وتوليد الأفكار بدون هذه المقارنات، فإذا انعدمت فإن الفرصة لظهور المفكرين ـ والمنظّرين ـ تضعف أو تحول!

(١) لم نقصد إطلاق القول إنها أضحت كذلك فيما بعد، ولكننا أردنا أن نشير فقط إلى وجود المناخ الذي يسمح بذلك، وربما بما هو أسوأ منه في بعض الأحيان.

يستصغر عظائم أعماله، لتوجه همته إلى ما هو أعظم منها! ولا أعظم منها إلا غاياتها وثمراتها. وأما علمه وأخلاقه وشمائله فقد كانت محجوبة عنه بتواضعه، فلا يخطر بباله ما في إظهارها للناس من المثل الكامل والأسوة الحسنة»[1].

قلت: ألا ما أصدقه من قول، وأدقّه من تعليل!..

لقد صحب الأستاذ السبسبي أخاه وصديقه الأستاذ السباعي ـ عليهما الرحمة والرضوان ـ نحواً من ثلاثين عاماً، حتى إذا فقده لم يقوَ على الكتابة عنه إلا بعد سنتين! وحين استطال هو هذه المدة وحاول أن يكتب عنه غلبه الأسى والبكاء حتى استطاع أن يتحامل على نفسه ويتغلّب على عاطفته وشيخوخته! قال رحمه الله: «مضت هذه المدة الطويلة على وفاة فقيد العالم الإسلامي الأستاذ الجليل والمجاهد الكبير المرحوم مصطفى السباعي ولم أكتب شيئاً عنه، لا خوراً ولا ضعفاً، ولكن قلمي يعجز عن تعداد تلك المآثر التي تستند إلى مواهب عظيمة أسبغها الله تعالى عليه وجمعها فيه. وكلّما جاش في خاطري ما أريد أن أكتبه حشرجت نفسي وغلبني البكاء والأسى على فقيد العلم ورمز الإنسانية، بل على إنسان عين الفضائل والكمال».

وأضاف: «ولما كان لا بد لي أن أكتب شيئاً عن حياته، صبّرت نفسي وتغلّبت على عاطفتي وشيخوختي، فأخذتُ يراعي وشرعتُ أكتب فأقعدني اليراع! لأنني كلما فكّرت أن أصف زاوية من زوايا مزاياه شعرت بالعجز...»[2]، ثم تحدّث عن خطابته وعلمه وكفاءته وشجاعته وقيادته ـ وهي الصفات التي تحدّثنا عنها في هذا الكتاب ـ كما تحدث عن اجتماعه به في السجن في أواخر عام ١٩٥٢م في عهد أديب الشيشكلي بعد أن أمضى سبعة أيام في غرفة مفردة (زنزانة) كان يسمع خلالها من الزنزانة المجاورة تلاوة القرآن الكريم ليلاً ونهاراً.. حتى ضمتهم غرفة واحدة بعد ذلك، وكانوا أربعة (من مبدأ واحد، وعملٍ واحد...) فعلم منه أنه كان في تلك الزنزانة يتلو القرآن بصوت جهور ليعرفه جيرانه، ويعرف من بجواره. قال رحمه الله: «وكان علينا كالأخ الشقيق

---

(١) مجلة حضارة الإسلام، العدد (٤) من السنة السابعة، ص٣٩، مقالة بعنوان (في ذكرى فقيد الإسلام الأستاذ السباعي).

(٢) المصدر السابق نفسه.

الأكبر . . فكان لا يأكل حتى نجتمع كلنا على مائدة واحدة، وكنا نتدارس القرآن سوية، وقد استعاد حفظه غيباً. وقد كان عفيف النفس، طيب الأريحية، قانتاً لله، كثير القيام يوقظني تهجّده، ويؤنسني صوته حين يتلو القرآن. . . »[1].

لقد أشرنا في ختام حديثنا عن أخلاقه وسجاياه، إلى دلالة هذه السجايا ـ إلى جانب تاريخه ـ على امتلاك السباعي لصفات القيادة، وذكرنا طرفاً من عمله القيادي في السجون والمعتقلات لأناس عرفهم وعرفوه في السجن لأول مرة! ولم يكونوا جميعاً على فكرته ومنهجه وعمله، وربما لم يكن فيهم أحد على هذا العمل وذلك المنهج.

ويضاف الذي ذكره الأستاذ السبسبي إلى هذا في باب التأكيد على تلك الصفات القيادية. . ولكنْ هذه المرة من أناس ضمّهم وإيّاه (مبدأ واحد، وعمل واحد، وفكرة واحدة). . فوق ما حدثنا به الأستاذ السبسبي رحمه الله من سائر أخلاقه في السجن. . من عفّة النفس، وطيب الأريحية، وكثرة التهجّد والقنوت، وتلاوة القرآن ومدارسته واستعادة حفظه! أما اليأس والضجر، أو الخور والجزع. . فلم يكن لشيء منها إلى نفسه من سبيل. . ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾.

ـ ٦ ـ

الجزء الذي تحدّثنا فيه عن السباعي المجاهد جاء خاصاً بالقضية الفلسطينية، لأننا تناولنا فيه جهاد السباعي على أرض فلسطين عام ١٩٤٨م، علماً بأنه حمل السلاح قبل ذلك عام ١٩٤٥م في وجه الاستعمار الفرنسي. عندما هبّت المدن السورية ضد عدوان ٢٩ أيار (مايو)، فقام السباعي بقيادة المقاومة المسلّحة في مدينة حمص. قال السيد قاسم الشاغوري زميله القديم في جمعية (الدعوة إلى الحق) ثم في جمعية (الرابطة الدينية لشباب محمد ﷺ) مخاطباً إياه:

«لقد حملتَ السلاح في سنٍّ مبكرة من حياتك القصيرة، وقد أطلقتَ الرصاصة الأولى في وجه الفرنسيين عام ١٩٤٥م. . يا أبا حسان! لقد عرفتك فتًى يافعاً، وقد كنّا في جمعية واحدة، جمعية (الدعوة إلى الحق) وقد كنتَ من أخلصنا غاية، وأعلانا تربية، وأنبلنا مقصداً، وأشدنا حماسة، وأقوانا شكيمة. وعرفتك

(١) المصدر السابق، ص٤١.

عندما كنا في جمعية (الرابطة الدينية لشباب محمد ﷺ) وقد كنتَ في مقدمة المتحمّسين، وفي طليعة الثائرين، وفي قيادة المناضلين. وقد وهبتَ نفسك وعقلك وفتوتك منذ ذلك التاريخ للدفاع عن بلادك، والنضال في سبيل عقيدتك، والكفاح في سبيل أمّتك»[1].

مع الإشارة إلى أن هذا الأخ والزميل القديم اتخذ لنفسه بعد ذلك طريقاً في الدعوة أقرب إلى التصوّف، لأنه قال بعد هذا: «ثم افترقنا، وكلٌّ منّا يعمل وفق ما يراه، ويسير وفق منهاج...» وأضاف: «لقد كنت أتحدّث عنك منذ مدّة، فقلت: الحمد لله الذي أبعدك عن السياسة..» وأشاد به بقوله: «وقلنا إنك فوق علمك وفوق ثقافتك وفوق مؤلفاتك. فقد أصبحت من أهل الذكر».

ـ٧ـ

أبدينا في تعليق عابر عدم الارتياح لتخلّي (الشيخ مصطفى) ـ كما اشتهر وعُرف في الأوساط العامة ـ عن زيّ (المشايخ) المعهود في بلاد الشام، مع التذكير بالكلام المكرور من أن الإسلام فيه علماء وفقهاء، وليس فيه رجال دين! ولكن السباعي حين نزل إلى معترك السياسة والعمل العام لم يعد مجرّد عالم أو فقيه تقتصر علاقته على كتبه أو طلابه ومريديه وبعض الناس من حوله.. بالإضافة إلى أن الجماهير الواسعة التي صوّتت له في انتخابات عام ١٩٤٩ عرفته بذلك الزيّ الذي كان يزيد من هيبته وبهائه! فوق جمال الخلقة الذي حباه الله به، وقد أشرنا إلى أن (أعداءه) حاولوا استغلال ذلك في الانتخابات التكميلية التي جرت عام ١٩٥٧م.. بل ربما كان ذلك سبباً في تقاعس نفرٍ قليل من العامة ومن العاملين في الحقل الإسلامي من (المشايخ) وغيرهم عن النهوض لتأييده ومناصرته!! وإن كان من الملاحظ أن شيئاً من (اللّغط) حول هذا الموضوع لم يعرف خارج بعض

---

(١) من مقالته في مجلة (حضارة الإسلام) ـ العدد الخاص ١٩٦٤م ـ بعنوان (في جوار الرحمن يا أبا حسان. إن خسارتنا فيك لا تُعوَّض)، ص٢٢١؛ وانظر حول قيادته لهذه المقاومة المسلّحة في حمص: العدد المشار إليه من حضارة الإسلام، ص٢٤٣ نقلاً عن مجلة (التربية الإسلامية) التي تصدر في بغداد، ونرجّح أن كاتب المقال فيها هو الشيخ الداعية محمد محمود الصوّاف رحمه الله. وانظر كذلك ص١٣٠ مقالة الزميل محمد بسام الأسطواني، وص١٧٨ مقالة الأستاذ فتحي يكن.

الأوساط في مدينة دمشق؛ لأن أحداً لم يقف عنده في المدن والمحافظات السورية الأخرى فيما يبدو، فضلاً عن سائر بقاع العروبة والإسلام!.

وعلى أية حال فإنني لا أزال أذكر المرة الأولى التي رأيت فيها صورة الأستاذ السباعي ـ وكانت بالزيّ المشار إليه ـ حين كان مرشح دمشق في انتخابات ١٩٤٩م، وكنت في الصف الخامس الابتدائي.. فقد حمل أحد رفاقي في المدرسة واحدة من تلك الصور التي كانت توزعها في حي الميدان رابطةُ العلماء، وقد كتب تحتها: الدكتور مصطفى السباعي! وجلسنا معاً على باب المنزل نتأمل هذه الصورة ونفكر في معنى كلمة (دكتور) بالنسبة لشيخ يلبس الجبّة والعمامة، وكانت هذه الكلمة بدأت تطلق في ذلك الوقت على الطبيب بدل كلمة (حكيم) أو بدأت تزاحمها لأن هذه الكلمة ـ حكيم ـ لم تكن قد سقطت من هذا الاستعمال بعد!.. حتى فتح الله على أحدنا بالقول إن السباعي (دكتور) في الشريعة والدين، وأن هذا اللقب شهادة عالية يأخذها الدارس في الأزهر في مصر، ولا وجود لهذه الشهادة في بلاد الشام!

وحين حضر الأستاذ السباعي إلى الحي المذكور[1]، وألقى في سياق نشاطه الانتخابي خطبة في جامع الدقاق؛ أذكر أنني لمحته وهو يخطب بحماسة بالغة، ولا أذكر ـ وأنا في تلك السن ـ أنني وقفت للاستماع في ذلك الحشد الجماهيري، ومن ثم فإنني لا أذكر شيئاً مما قال. وقد كنتُ ـ مع فتيان الحيّ ـ لا نتردد كثيراً على هذا المسجد الكبير من مساجد الحي، لأن المسجد القريب الذي اعتدنا على التردد عليه كان مسجداً آخر.

ـ٨ـ

تحدّثنا في الكتاب عن المرض الذي استبدّ بالأستاذ السباعي سبع سنوات عجاف، وأشرنا إلى صبره الذي عوّل فيه على الإيمان والرضا والتسليم بقضاء الله

---

(١) قال الأستاذ السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي: «والميدان معروف في دمشق بكونه مركزاً دينياً علمياً، وحمًى وحصناً للآداب الإسلامية والتقاليد الشرقية. وأكثر علماء دمشق من الميدان، أو انتقلوا منه في مدّة قريبة». مذكرات سائح في الشرق العربي، ص٣٠٤، مؤسسة الرسالة، ط٣: ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م بيروت.

وقدره. . بل قلنا إن أستاذنا الدكتور يوسف العش فسّر بهذا الإيمان (الذي بلغ ذروته عند السباعي حياته وعلمه وعمله) جميعاً. وقال: إنه كان يعيش به في ساعات غبطته، وفي ساعات مرضه.

ونضيف هنا ما كتب إلينا به أحد الإخوة الأطباء بعد أن اطّلع على الطبعة الأولى من الكتاب. تحدّث الأخ الطبيب الجرّاح أولاً عن أن الأستاذ السباعي كان السبب في متابعته للدراسة والحصول على درجة التخصص بعد تخرّجه في الطب العام، هو وعشرات من زملائه الذين اقتفوا أثره من بعده، وتحدّث عن الأسلوب العملي الناجع الذي سلكه الشيخ مصطفى السباعي في ذلك. ثم ذكر أنه صحبه حين قدم للمعالجة والاستشفاء في ألمانية عام ١٩٦٣م، وذهب معه إلى (بروفسور له شهرة كبيرة في الأمراض العصبية) وقال: إن هذا البروفسور بقي يطرح الأسئلة على الأستاذ السباعي مدة ساعة تقريباً: ذكر خلالها أن الآلام التي يتعرّض لها المصاب بمرضه (وهو الشلل التشنجي في كامل الطرف الأيسر) شديدة جداً، وأنها تفوق في بعض الأحيان كل تصور! وأخيراً توجّه إليه بالسؤال التالي: «بعد أن مضت عدة سنوات على مرضك، كم حقنة من المورفين تحتاج إليها يومياً لتغطية بعض الآلام التي تنتابك؟» يقول الأخ الطبيب الفاضل: وكأن البروفسور، وبحسب خبرته، يجزم بأن كل مريض بهذه المواصفات، وهذه المدة من المرض، لا بد أن يتعاطى المورفين! فأجاب السباعي وقد غمرت وجهه تلك الابتسامة الهادئة العذبة قائلاً: إنني والحمد لله بما أُعطيت من إيمان وعزم لا أتناول سوى بعض حبّات من الإسبرين! فصاح الطبيب الألماني: لا يمكن. . لا يمكن. . وهل يمكن للإيمان أن يخفف الألم أكثر من المورفين؟ لقد تعلّمت الآن شيئاً جديداً لم أسمعه من قبل!

نعم، لقد صدق الطبيب الذي لم يسمع بهذا من قبل! لأن هذا الذي لا يمكن في طبّه كان في (إيمان) السباعي من الممكنات. . ولم يعلم الطبيب أي صنف من الرجال كان يقف أمامه في تلك الساعة! . . وحُق له ذلك؟ فإن هذا في عالم الإيمان والصبر والمصابرة وعزمات الرجال. . قليل.

-٩-

والآن، وبعد هذه الرحلة مع أستاذنا السباعي رحمه الله، وقد قرأت فيها ما

قرأت، وكتبت عنه ما كتبت، فضلاً عما سمعته منه وشاهدته من أمره.. لا أجد خيراً من الكلمة الجامعة التي قالها فيه صديقه الأستاذ الدكتور محمد معروف الدواليبي، الأستاذ السابق في كلّيتي الحقوق والشريعة بجامعة دمشق ـ والسياسي البارز وأحد رؤساء الوزارات السورية في الخمسينيات ـ: «**السباعي كان أمةً في فرد**» رحم الله شيخنا السباعي، وبارك في عمر أستاذنا الدواليبي، ومتّعه بالعافية.

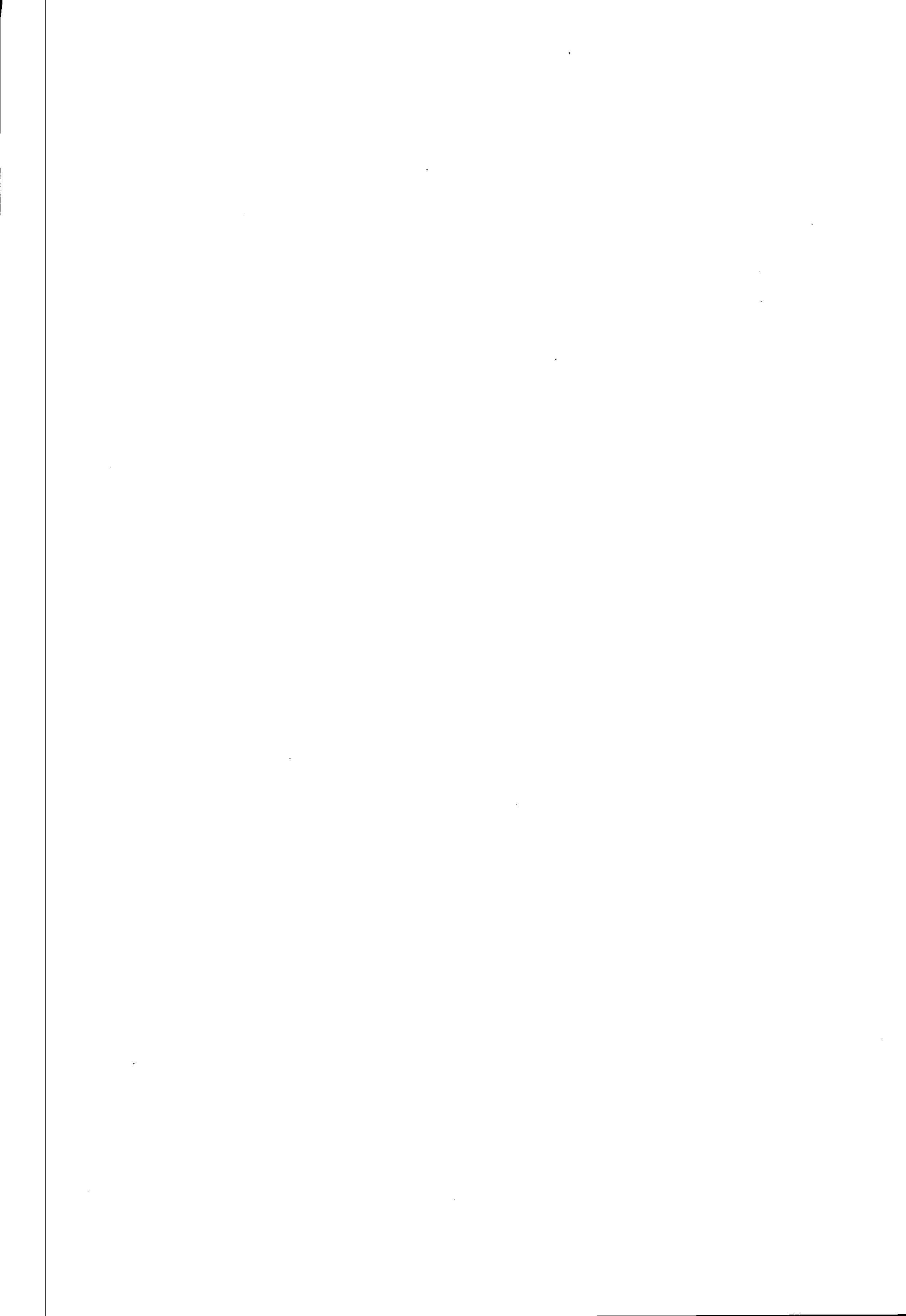
وأخيراً: هل نجحت هذه الطبعة في تسليط الضوء على شخصية الداعية المجدد المجاهد مصطفى السباعي بأكثر من سابقتها؟ وهل أبرزت في سيرته مواضع أخرى من مواضع العبر والأسوة للأجيال التي ما تزال تسمع عن السباعي، وتقرأ له، وتودّ أن تقرأ عنه؟

أرجو ذلك.. مع الاعتذار عما يصاحب عمل المرء من نقصٍ، وما يشوبه من خطأ، وقد علم كل أحدٍ أن إصابة وجه الحق أو الصواب فيما يفسّر به الأحداث، أو يقرأ في ضوئه الشخصيات.. لا سبيل إليه على الدوام.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

عَدْنَانُ بنُ مُحَمَّدٍ زَرْزُورٌ

١٨ صَفَر الخَيْر ١٤٢٢ لِلهِجْرَة
١٢ أيّار (مايو) ٢٠٠١ لِلمِيلاد



بسم الله الرحمن الرحيم

إضافة وتعقيب

مقدمة ثانية للطبعة الثانية

كنت قد فرغت من إعداد هذه الطبعة بزياداتها الكبيرة وتعديلاتها اليسيرة ـ منذ أكثر من عام، ولم أنقطع خلال هذه المدة ـ ريثما يتم طبع الكتاب ـ عن المزيد من المراجعات، وتدوين بعض الملاحظات. وحين وصلتني تجربة الطبع الأخيرة منذ نحو ثلاثة أسابيع، ضمّنتها بعض هذه الملاحظات، وألحقت بها بعض الزيادات. غير أن بعض الملاحظات والتعقيبات يصعب تداركها أو إضافتها لاعتبارات شتى، الأمر الذي حملني على تدوين ما أقدر أهميته أو ضرورة اطلاع القارئ عليه في هذه الإضافة أو التعقيب الذي جاء بمثابة مقدمة ثانية لهذه الطبعة الثانية، على خلاف المعهود في تعدد طبعات الكتب.

ـ ١ ـ

أحلتُ في طبعة الكتاب الأولى إحالات كثيرة على العدد الخاص بفقيد الإسلام الدكتور السباعي من مجلة (حضارة الإسلام) ـ وقد شمل الأعداد: الرابع والخامس والسادس عام ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م ـ وقد تضمن هذا العدد جملة من المقالات والكلمات التي تناولت شخصية السباعي، وبعضها كان قد ألقي في حفل التأبين الذي أقامته له جامعة دمشق على مدرّجها الكبير، الذي طالما شهده محاضراً في أكثر من مناسبة، وكان يغصّ على اتساعه بالحضور. ويأتي في مقدمة هذه الكلمات ـ أي التي أُلقيت في الحفل المذكور ـ كلمة الأستاذ الدكتور محمد الفاضل عميد كلية الحقوق، الذي شغل وزارة العدل، وأضحى فيما بعد رئيساً لجامعة دمشق. وكلمة الأستاذ الدكتور يوسف العش عميد كلية الشريعة، رحمهما الله تعالى.

وبعد أن أخذ الكتاب طريقه إلى المطبعة ـ وربما الظهور ـ اطّلعت بتاريخ ٢٤ من جمادى الآخرة ١٤٢١هـ ـ ٢٤/ ٨/ ٢٠٠٠م على كتابٍ بعنوان: (مصطفى السباعي بأقلام محبّيه وعارفيه) من إعداد الشاب الفاضل السيد محمد مصطفى السباعي (الابن الأصغر للأستاذ السباعي)، فوجدته عبارة عن العدد الخاص من المجلة مضافاً إليه عدد من المقالات الجديدة التي شارك في كتابتها بعض تلاميذ الأستاذ السباعي وإخوانه وعارفي فضله، وقد ألحق بالكتاب مجموعة مهمة من صور الأستاذ ـ في مناسبات شتى ـ وصور بعض رسائله الأولى أيام اتصاله بمجلة (الفتح) القاهرية. ولم تكن التعريفات والتعليقات على صور هذا الملحق ـ الذي يقع في ستين صفحة ـ دقيقة، وبعضها لا يخلو من أخطاء.

وقد رجعت إلى هذا الكتاب في مقالاته الجديدة، وقمت بالإحالة عليها في مواضع قليلة، أما مقالات العدد الخاص من المجلة التي انطوى عليه، أو أعيد نشرها فيه؛ فقد ترددت في (تحويل) إحالاتي السابقة التي كانت في الطبعة الأولى عليه، . . ثم رأيت إبقاءها على ما كانت عليه، بوصفها إحالة على الأصل، وإن كان لا يصعب الرجوع إليها في هذا الكتاب من خلال أسماء الكتّاب والباحثين، علماً بأن مقالاتهم مقتضبة في الغالب، ولا أشير إلى ما فيها من تكرار في هذا السياق؛ لأنني لم أحفل به.

وبهذه المناسبة، فقد اطّلعت أيضاً يوم الجمعة بتاريخ ١٠ صفر ١٤٢٢هـ ـ ٤/ ٥/ ٢٠٠١م على كتاب (مصطفى السباعي: الداعية الرائد والعالم المجاهد) تأليف الأخ الأستاذ عبد الله محمود الطنطاوي. وقد حمل إليَّ هذا الكتاب بعد عصر اليوم المذكور الأخ الناشر الأستاذ محمد علي دولة ـ متَّعه الله بالعافية ـ مع الكتب الأربعة التي تقدمته في السلسلة التي بدأ بإصدارها تحت عنوان: (علماء ومفكرون معاصرون: لمحات من حياتهم وتعريف بمؤلفاتهم) ولم يكن قد اتصل علمي بهذه السلسلة بعد. وقد قمت بقراءة الكتاب وأحلت عليه في إحدى النقاط في سياق الحديث عن مكانة السباعي في فن الخطابة. وأحب أن أنوّه بالفصل الذي كتبه الأخ الطنطاوي تحت عنوان: (السباعي خطيباً) وبالوصف الذي رسم به صورة جسمية ونفسية للأستاذ السباعي؛ تحت عنوان: (صفاته وشمائله). ولا يخفى على قارئ الكتاب: العاطفة الجيّاشة نحو إمام الدعوة الإسلامية في

بلاد الشـام أستاذنا الدكتور السـباعي، إلى جانب الاختصار في التعريـف، على ما تقتضيه طبيعة السلسلة المذكورة، والقصد والبيان في العبارة على النحو المعهود من كتابات الأخ الأديب الناقد الأستاذ عبد الله الطنطاوي.

-٢-

في المراجعة التي قمنا بها لمجلة (الفتح) لفت نظرنا عدد من المقالات المنشورة بقلم (خالد بن الوليد)، وقد تناولت هذه المقالات موضوعات تخص مدينة (حمص) وبلاد الشام، وتدور حول موضوعات قريبة من التي كان يعالجها السباعي في ذلك الحين، وحين دقّقنا في أسلوب هذه المقالات، وقارنّا بينها وبين مقالات الأستاذ السباعي لم يخامرنا الشك في أنها له، وربما لم يصرح باسمه في هذه المقالات، حتى لا يجتمع له مقالان في المجلة في وقت واحد في بعض الأحيان؛ ففي العدد (٤٨٤) تاريخ ٢٠ ذي القعدة ١٣٥٤هـ مقالة بعنوان: الشام في جهادها بقلم خالد بن الوليد (العام العاشر، ص٨١٠ـ ٨١١) وهو العدد الذي نشر فيها مقالته ـ التي أشرنا إليها في الكتاب ـ (واجب الشباب نحو بلادهم) ص٨١٨ ـ ٨١٩. أو لأن النقد الذي يكتبه لا يحب أن يُعرف أنه بقلمه، كما هي الحال في مقالة مهمة بعنوان (هل أدّى الأزهر الحديث واجبه نحو الإسلام؟) افتتاحية العدد (٦٥٩) ٤ جمادى الآخرة: ١٣٥٨هـ العام ١٤ (ص٢١١ ـ ٢١٣) والتي كتبت تعقيباً على قصة الطالبين الألبانيين الأحمديّين اللذين (لا يزالان مسموحاً لهما ـ إلى الآن ـ بالانتساب إلى الأزهر) وقد تحدثنا عن قصة هذين الطالبين ـ بشيء من التوسع ـ في هذه الطبعة الثانية؛ وقد جاء في هذه المقالة قول الكاتب: «أنا أزهري كرعت من حياض الأزهر زمناً طويلاً. . .» وربما كانت هنالك أسباب أخرى حملته على ذلك، وبخاصة في المقالات التي كانت تتحدث عن المظاهرات التي كانت تقع في حمص، بمناسبات عدّة[1]، والتي لم تكن تحمل أي اسم أو توقيع في بعض الأحيان، وهي تحمل أمارات أسلوبه واهتماماته جميعاً.

---

(١) راجع العدد ٤٨٦ في ٤ ذي الحجة ١٣٥٤هـ، والعدد ٥٩٩ في ٢٧ صفر ١٣٥٧هـ.

لم نفرد لمعارك السباعي الفكرية، أو للردود والمناقشات التي كانت تجري بينه وبين بعض الكتّاب والباحثين، فقرة خاصة؛ اكتفاءً بما تحدثنا عنه أو أشرنا إليه في مناسبات شتى، وبخاصة عند الحديث عن كتابه (اشتراكية الإسلام) مع التأكيد على ما كان يتمتع به من موضوعية ونزاهة ورحابة صدر، حتى إنه أفرد (للردود والمناقشات) باباً خاصاً في مجلّته (حضارة الإسلام) وقد شهد هذا الباب مساجلات كثيرة، كان هو طرفاً فيها في بعض الأحيان، وكان سائرها بين الكتّاب والباحثين والقرّاء.. إن ما يجري الحديث عنه في هذه الأيام حول (الرأي.. والرأي الآخر) أو ما بات يُدعى بهذا الاسم، أو يوضع عليه هذا العنوان.. لم يفت مصطفى السباعي رحمه الله، ولا إخاله فات معظم المجلاّت الفكرية والأدبية التي عرفتها سورية ومصر في ذلك الحين.

ولكن الذي قد نكون بحاجة إلى التأكيد عليه ـ في هذا السياق ـ أن السباعي رفض التستّر وراء حرية البحث العلمي وتعدد الآراء، لتحقيق أهداف مشبوهة! قال رحمه الله:

«أما البحث العلمي بحرية ونزاهة، فذلك ماندعو إليه ونعتبره من الضرورات الكبرى لنهضتنا العلمية والفكرية، ولكننا ننكر التستر وراءه لتحقيق أهداف تنافي السمعة القومية والمصلحة القومية» وأضاف: «ومثل هذه الحرية المشبوهة لا مكان لها مع المتطفّلين على العلم، ولا في الروايات المكذوبة التي استبان كذبها وافتراؤها».

وقد جاء هذا القول في سياق ردّه على الدكتورة عائشة عبد الرحمن رحمها الله حين نشرت مقالاً لها بجريدة (الأهرام) حول كتاب الأستاذ السباعي: (السنّة ومكانتها في التشريع الإسلامي) انتقدت فيه اتهام الأستاذ السباعي لأحمد أمين بتأثره بالمستشرقين.. وادّعت أن إنكار نشر الأكاذيب على صحابة الرسول واعتبار ذلك نبشاً للقاذورات.. يعتبر «**إثماً علمياً وخيانة قومية**»!!. وكان المقال تالياً لمقال سابق أشادت فيه بنت الشاطئ بالكتاب المذكور «وبمنهجه العلمي في مناقشة آراء المستشرقين وأتباعهم»!! وكان بين نشر المقالين أسبوعان؛ فأرسل إليها الدكتور السباعي ـ وكان ينتجع الراحة في (مرسي مطروح) ـ بمقالة علمية يرد

عليها، وقد شفعها برسالة كذلك. وحين لم تنشر هذه المقالة، أو كما قالت مجلة حضارة الإسلام: «وقد أبت عليها (أمانتها) العلمية نشرهما، فاضطررنا لنشرهما في هذه المجلة»[1]. وقد تأخر رد الأستاذ السباعي بعض الوقت، لأنه كان يشارك ـ حين صدور مقالة بنت الشاطئ ـ في المؤتمر الثاني للمجتمع العربي والدراسات الإنسانية الذي دعت إليه جامعة الإسكندرية، حتى إذا انصرف بعده إلى (مرسي مطروح) كتب لها الرد المذكور.

لقد عدَّ السباعي أخطر ما في مقالة بنت الشاطئ أنها أنكرت عليه اتهامه مؤلف كتاب (أضواء على السنّة المحمدية) بنقل الأكاذيب التي روّجها الشعوبيون على كرام الصحابة، ووصفت ذلك بأنه نبشٌ للقاذورات، واعتبرته أمراً خطيراً و«غليظاً» بحجة أنه يصادر حرية البحث العلمي!! وأن عدم السماح بمناقشة تاريخنا يعتبر «إثماً علمياً وخيانة قومية»!.

قال السباعي: «إن الموضوع الذي أنكرتُه على ذلك المؤلف: أنه حشا كتابه بالروايات المكذوبة التي دسّتها الشعوبية من مجوسية ويهودية على عظماء حضارتنا كأبي بكر وعمر وعثمان وخالد ومعاوية وأبي هريرة وأنس وعبد الله بن عمر وغيرهم، لقد تلقف تلك الأكاذيب وملأ بها كتابه من غير تمحيص ولا «فحص علمي واع» ونحن نعرف الظروف التي قيلت فيها تلك الروايات، والبواعث الشعوبية اللئيمة التي أدّت إلى ترويجها، لتهديم سمعة عظمائنا الذين كانوا على رأس ذلك المجد الحضاري من فتوحات وعلوم. ولا شك في أن سلفنا قد تنبّه لذلك كله، فوضع تلك الأخبار في موضعها اللائق بها من الزراية والإهمال، ثم جاء من فنّدها وبيّن تهافتها، فإذا جاء اليوم من ينبش ذلك الخلاف المذهبي البغيض، ويروّج تلك الإهانات الموجهة إلى عظمائنا، ويثير الفتن المذهبية من جديد؛ لم يكن لكل غيور على أمّته، حريص على استقامة نهضتها إلا أن ينكر نبش تلك (القاذورات) وينبه الرأي العام إلى خطرها.. أما البحث العلمي بحرية ونزاهة، فذلك ما ندعو إليه ونعتبره من الضروريّات الكبرى لنهضتنا العلمية والفكرية... إلخ».

---

(١) حضارة الإسلام، العدد الرابع ـ السنة الثانية، ص٦٣ ـ ٦٨. تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٦١م.

ثم أكد على أن الإثم العلمي والخيانة القومية هي تهديم سمعة أكرم جيل عرفه تاريخ الإنسانية. . وقال في هذا الجيل: إن لهم من الفضائل النفسية والخلقية ما لم يكن لجيل آخر غيرهم في التاريخ! قال:

«فمن جاءنا يهدم هذه الفضائل الثابتة باسم العلم فهو جاهل، أو باسم الحرية فهو مستعبَد، أو باسم الحق فهو مضلل. . .».

ـ ٤ ـ

أشرنا، وربما في أكثر من موضع، إلى أن دعوة الإخوان لم ترزق بعد السباعي بقيادة مماثلة أو قريبة. ولا يعنينا في هذا السياق تعليل هذه الظاهرة التي يمكن عدّها ظاهرة عامة تنسحب على الأحزاب والجماعات في البلاد العربية والإسلامية، بل في نطاق العالم الثالث ـ كما يُدعى ـ على وجه العموم؛ حيث لا تتمتع القيادات التي تخلف جيل المؤسسين والروّاد بالمواصفات والخصائص التي يتمتع بها هذا الجيل، وإن كانت الأحزاب والجماعات الدينية لها في هذا الإطار مشكلاتها وأسبابها الخاصة أو الإضافية؛ الأمر الذي جعل معاناتها والهزّات التي تتعرض لها ـ بعد رحيل قادتها الأوائل ـ أشد.

أردتُ فقط الإشارة إلى هذه القضية ـ دون الدخول في تحليلها وبيان أسبابها ـ وذلك بين يدي القول: إن الآفاق الإصلاحية و(الأحكام الفقهية أو الشرعية) التي ارتادها السباعي أو ذهب إليها؛ أصابها قدر من الانحسار والتراجع! بل لعل بعضها في حال حياته لم تكن موضع عناية أو التفات. . أي أنها لم تؤدِّ دورها وتحدث أثرها في فكر الأفراد أو على أرض الواقع. . وقد لا أملك تعليلاً لهذه القضية الأخيرة سوى غلبة الجماهيرية وروح الخطابة أو (عقليّتها) على جمهور الإخوان وسواهم من الإسلاميين! الأمر الذي ساهم بدوره في (قبول) قيادات أو زعامات في صفوف هؤلاء ربما كان كل حظها من هذه الصفة: تلك الخطابة الجماهيرية أو هذه الظاهرة الحماسية، (فصورة) السباعي الخطيب خلفتها صورة خطيب آخر، أو خطباء آخرين! أما السباعي السياسي والمجتهد والمصلح والمفكر والمنظر فقد بقي مجهولاً أو متواري الأثر إلى حد كبير. .

لقد تعامل السباعي مع الفضاء السياسي والثقافي بكل تعقيداته وشروطه الداخلية والخارجية، بالاجتهاد والانفتاح اللازم، وبكل جرأة واقتدار.. وكان من حق هذا التعامل أن يتم استيعابه أولاً من قبل الجمهور.. قبل أن تتابعه و(تمتدّ) به القيادات! ولكن يبدو أن هذا كله لم يتم. وربما كان شطر كبير من أوقات هذه القيادات (مشغولاً) في تثبيت أركان زعامتها أو الدفاع عن (شرعيتها) في المقام الأول!

أدع هذه النقطة التي فرضت نفسها في هذا السياق لأعود إلى مسألة الانحسار والتراجع! فقد جاء في كتاب (الأحزاب والحركات والجماعات الإسلامية) أن الإخوان في برلمان ١٩٦٢م، وقد حملت كتلتهم البرلمانية اسم (الكتلة التعاونية الإسلامية) اتخذوا «مواقف يمينية وسطية من قانون تعديل الإصلاح الزراعي الذي كان في حقيقته تصفية للقانون ـ في حين كان موقف الإخوان في برلمان ١٩٤٩م راديكالياً ـ ومن هنا استنكفوا عن التصويت، وساهموا بتمرير مشروع التعديل..» ويقارن الكاتب بين مواقف الكتلة التي أبرزت «مفاهيم وأفكاراً فقهية محافظة وتقليدية» وبين مرونة مفاهيم السباعي الفقهية وانفتاحها. ويقول: «لقد عكست مواقف الكتلة التعاونية، أي الإخوانية، سيطرة قيادة يمينية مدينية دمشقية على سلطة القرار التنظيمي والسياسي في الجماعة»[1].

ونقف هنا عند القيادة (المدينية) لنذكر بأننا قسمنا الأحزاب ـ في مدخل الكتاب ـ إلى أحزاب مدينية، وما أسميناه أحزاب الجيل الجديد التي قدمت نفسها بوصفها أحزاب الطليعة! وقلنا إنها كانت تعبّر بوجه عام عن تطلّعات الأقليات والريف السوري. والذي نضيفه الآن أن (الحزب الديني الإسلامي) ـ لِنُطْلق هذه التسمية في هذا السياق ـ الذي قاده السباعي لا يمكن تصنيفه في واحد من هذين النوعين، لأنه كان مدينياً، ريفياً من جهة، وليس (رجعياً) ولا طائفياً أو (أقلّوياً) من جهة أخرى. وفي الفصل الذي عقدناه تحت عنوان: (الدعوة والداعية) نقلنا

---

(١) الأحزاب والحركات والجماعات الإسلامية، الصادر عن (المركز العربي للدراسات الاستراتيجية: ١/ ٢٦٤ الطبعة الثالثة سنة ٢٠٠٠، دمشق.

موقف السباعي من مسألتي الرجعية والطائفية؛ وسوف يتضح لقارئ الكتاب من خلال ما عرضناه من اهتمام السباعي بالريف وسائر المناطق المهمّشة مدى تبنّيه لقضية العدل الاجتماعي كأبرز شخصية في تاريخ سورية الحديث. إن مصطفى السباعي لم يقاوم فقط ـ من خلال قيادته لحزب ديني كما قلنا ـ العلمنة والتأورب والتغرّب أو الاستغراب، في سبيل الحفاظ على وجه سورية العربي الإسلامي، ولكنه قاوم على نحو مماثل الإقطاعية المجرمة ـ كما وصفها ـ وطغيان رأس المال. ولهذا فإن حركة الإخوان شهدت توسّعاً في الريف قريباً لذلك التوسع (المديني) الذي كان بدوره أو في حقيقة الأمر توسعاً في الطبقة الوسطى التي كانت تمثل ـ كما أشرنا ـ السواد الأعظم للشعب السوري في ذلك الحين.

وفحوى ذلك أن هذه الحركة كان في وسعها، لو تصدى لقيادتها بعد السباعي علماء (مجتهدون)، أو زعماء لا يتصفون بالهروب والسلبية، أو بالغوغائية وقصر النظر، أن تحقق العدل الاجتماعي والسلام الاجتماعي على أفضل الوجوه، أو بأفضل مما ادّعته وسعت إليه أحزاب الجيل الجديد، أو الأحزاب (التقدمية) على أقلّ تقدير!.

ـ ٥ ـ

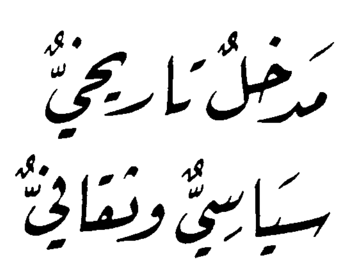
أشرنا في الفقرة السابعة من مقدمة الطبعة الأولى إلى سبق السباعي في بعض مسائل الاجتهاد، مثل الرق والجزية وتطبيق الحدود، ثم عرضنا في الكتاب لطرفٍ من رأيه في مسألتي الرق والجزية، أما مسألة تطبيق الحدود فلم نعرض لها اكتفاء بما ورد على لسانه رحمه الله في بيانه التاريخي حول الدين والدولة، والذي أثبتنا نصّه في كلا الطبعتين، فقد أوجز السباعي القول في هذه المسألة في سياق ردّه على (اعتراض الحقوقيين) على قضية دين الدولة، والذي قال فيه: «فنحن لا نفكر قطعاً بالدعوة إلى تطبيق الحدود، لأن الإسلام لا يظهر صلاحه إلا في مجتمع متكامل...» وقال فيه أيضاً: «على أن الإسلام قد حفّ تلك الحدود بشروط شديدة جداً يكاد يكون من المتعذر تنفيذ الحكم في حادثة واحدة من بين ألف حادثة! مما يدل على أن **قصد الإسلام** من ذلك: الإرهاب والتخويف، وحسبكم القاعدة المشهورة: (ادرؤوا الحدود بالشبهات)». ثم نفى أن يكون هذا «الذي صرّح به علناً» من باب المجاملة أو المواربة! يشير بذلك إلى أنه رأي

واجتهاد يعتقده وينادي به ويدعو إليه . وكأنه رحمه الله كان يرى في الأوضاع السائدة الاقتصاية والاجتماعية والثقافية ـ في المناخ العلماني ـ (شبهة) عامة تدرأ معها الحدود؛ فضلاً عن إشارته إلى (فلسفة) الحدود في شريعة الإسلام . وقد عرضنا هذه المسألة ـ بشيء من التفصيل ـ في بحثنا : (منهجية التعامل مع علوم الشريعة في ضوء التحديات المعاصرة) وذهبنا فيها إلى نحوٍ مما ذهب إليه أستاذنا الدكتور السباعي رحمه الله .

وأخيراً، فربما بقيت بعض النقاط تستحق وقفة إضافية، أو أن يلقى عليها مزيد من الضوء، ولكن الأمر لا يتسع في هذا التقديم الإضافي! وحسبي أن أقول : أرجو من بعض مَن يطّلعون على هذا الكتاب أو يقلّبون أوراقه، أن يُعنوا بقراءته أو قراءة بعض فصوله على الأقل . . وألاّ ينظر أحدهم إلى حظه منه، أو حظ من يؤثر ويقدم! بل ينظر إلى حظ الكتاب نفسه من الموضوعية والاستقصاء، ومحاولة الربط والتعليل . والحمد لله أولاً وآخراً .

المنامة ـ البحرين
ضحى يوم الجمعة في ٢٣ جمادى الأولى ١٤٢٣ للهجرة
٢ آب (أغسطس) ٢٠٠٢ للميلاد

عدنان بن محمد زرزور


مَدخلٌ تاريخيٌّ
سياسيٌّ وثقافيٌّ

أولاً : المشهد السياسي

ولد مصطفى السباعي ـ كما أشرنا ـ في منتصف العقد الثاني من القرن الميلادي العشرين. وقد شهد النصف الأول من هذا القرن أخطر التحولات السياسية والاجتماعية في بلاد الشام وسائر البلاد العربية والإسلامية؛ بوصفها حلقات أو دوائر في (المسألة الشرقية). كما شهد هذا القرن أبرز الحركات والتنظيمات والمدارس الفكرية الجديدة أو غير المعهودة من عشرات السنين.

لقد (تشظّت) الدولة العثمانية في أوروبة وآسية، ونشأت القضية الفلسطينية، وتم تقسيم سائر بلاد الشام ـ أو سورية الطبيعية ـ إلى عدّة دول! وكان وجه الخطورة يكمن في سرعة هذه التحولات من جهة، وفي تكريسها يوماً بعد يوم من جهة أخرى، فنحن لا نزال نعيش هذه التحولات في نهاية القرن العشرين. بل يبدو أن القضية الفلسطينية ـ التي عبّر عنها الأستاذ السباعي بأنها قضية العرب الأولى ـ في طريقها إلى مزيد من التعقيد. . في ظل التفكك والتجزئة. . بل إن الدولة القُطرية التي ولدت في أعقاب انحلال الرابطة العثمانية في طريقها إلى المزيد من التجذّر. . علماً بأن سيرة مصطفى السباعي وأعماله التي قام بها على أكثر من صعيد تؤكد أنه ما كان يتصور ـ ولا يطيق ـ الحالة التي انتهت إليها القضية الفلسطينية وقضية الوحدة العربية قبل أربعين عاماً من الآن.

ولو بدأنا ـ خلافاً لتاريخ الوقائع ـ بالعام الذي ولد فيه مصطفى السباعي (١٩١٥م) لوجدنا هذا العام قد شهد في أواسطه مفاوضات سياسية بين روسية وفرنسة وإنكلترة على اقتسام ميراث الدولة العثمانية. ـ وهي الدول الثلاث صاحبة الامتيازات المشهورة في الدولة العثمانية ـ وقد انتهت هذه المفاوضات بمعاهدتين سريتين، عقدت الأولى منهما بين روسية وفرنسة وبريطانية (آذار ـ مارس ١٩١٦م)، والثانية بين فرنسة وإنكلترة إتماماً للأولى وتنفيذاً لأحكامها (أيار ـ مايو ١٩١٦م).

وقد جاءت هاتان المعاهدتان على خلفية دخول الدولة العثمانية الحرب

العالمية ـ بجانب ألمانية والنمسة ـ ضد الدول الثلاث المذكورة؛ الأمر الذي «هيأ لهذه الدول الفرصة لتحقيق أطماعها في البلاد العثمانية بوجه عام، وفي البلاد العربية ـ التابعة لها ـ بوجه خاص، ولاسيما فرنسة، فإنها وجدت في ذلك فرصة ثمينة لا لتحقيق أطماعها في سورية فحسب، بل لتوسيع تلك الأطماع نحو الشمال الإفريقي أيضاً»[1].

وفي أواسط هذا العام أيضاً ـ ١٩١٥م ـ دخلت مخابرات الإنكليز مع أمير مكة الشريف حسين في طور جدّي وفعّال عندما تولاها السير (هنري ماكماهون) نائب ملك بريطانية في مصر. وكانت هذه المفاوضات تدور ـ كما هو معلوم ـ حول استقلال البلاد العربية. وقد أعلنت **الثورة العربية** ـ في سبيل تحقيق هذا الاستقلال ـ في العاشر من حزيران ـ يونيو ١٩١٦م في أواخر السنة الثانية من الحرب العالمية. في حين تم توقيع اتفاقية (سايكس ـ بيكو) حول اقتسام فرنسة وإنكلترة لبلاد الشام والعراق بتاريخ ٢٦ أيار (مايو) ١٩١٦م وقد نسبت هذه الاتفاقية إلى المفاوض الإنكليزي مارك سايكس والمفاوض الفرنسي جورج بيكو.

المسألة الشرقية والحروب الصليبية:

وإذا عدنا ـ فقط ـ إلى عام ١٩١٢م لأمكننا القول إنه كان عاماً حاسماً بالنسبة للمسألة الشرقية، ـ كما دعتها أوروبة ـ أي بالنسبة للدولة العثمانية وقضية الإسلام والمسلمين بوجه عام. ففي هذا العام هزمت الدولة العثمانية في البلقان وخرجت من شرق أوروبة. وفيه أكدت فرنسة على توجهها نحو سورية ولبنان بوجه خاص؛ ففي الخطاب الذي ألقاه (بوانكاره) رئيس وزراء فرنسة ووزير خارجيتها في المجلس النيابي في ٢١ كانون الأول (ديسمبر) من العام المذكور قال:

«إن المسألة الشرقية التي ارتسمت أمام الأنظار منذ عصور عديدة كلغز مخيف، والتي دخلت ـ على الرغم من جهودنا ـ في طور جديد، ستحل الآن في اتجاهٍ أكثر تطابقاً مع الآراء الإفرنسية». ثم بحث في وضع الدولة العثمانية، وبعد أن صرح بأنها (ستخسر أراضيها الكائنة في أوروبة) قال: «ولست بحاجة إلى

---

(١) ساطع الحصري: يوم ميسلون، ص٥٢؛ منشورات دار الاتحاد: طبعة جديدة (بدون تاريخ)، بيروت.

القول إن لنا مصالح تقليدية في سورية ولبنان بوجه خاص. وإننا مصمّمون على حمل الجميع على احترام هذه المصالح»[1].

إن ما عبر عنه (بوانكاره) ـ الذي أصبح رئيساً للجمهورية فيما بعد ـ على أنه مصالح تقليدية، ليس أكثر من أطماع فرنسية لها تاريخ (ترجع منابعه الأصلية إلى الحروب الصليبية) كما يقول الأستاذ ساطع الحصري، الذي أوجز القول في هذا التاريخ أو هذه الأطماع على النحو التالي:

«لقد تعود الفرنسيون أن ينظروا إلى الحروب المذكورة كأثر من آثار (أسلافهم العظام)، وأن يعتبروا الإمارات اللاتينية التي قامت على بعض الأراضي السورية خلال تلك الحروب جزءاً من أجزاء (تاريخهم المجيد)، ولذلك كان من الطبيعي أن يتولد في نفوسهم نزوع إلى إتمام عمل تلك الحروب، وإعادة عهود تلك الإمارات.

«إن هذا النزوع جعل الإفرنسيين ينصّبون أنفسهم حماة للمسيحيين في الشرق، ليتخذوا من هذه الحماية وسيلة للاستيلاء على بلاد الشام في يوم من الأيام».

«وهذه السياسة حملت فرنسة على الإكثار من الإرساليات، لتأسيس المعاهد الدينية والتعليمية المتنوعة، في مختلف أنحاء الشرق الأدنى بوجه عام، والشرق العربي بوجه خاص».

ويضيف الأستاذ الحصري قائلاً:

«وقد استمرت فرنسة في اتباع هذه السياسة باهتمام كبير، حتى بعد ما قررت فصل الدين عن الدولة وجعل التعليم (علمانياً) في بلادها، وحتى بعد ما ضيّقت الخناق على (الإكليروس) وصادرت أملاكهم، وحظرت عليهم الاشتغال بالتعليم داخل فرنسة نفسها.

«وقد اتبعت بهذه الصورة سياسة ذات وجهين: سياسة مكافحة الإكليروس داخل البلاد، وحمايتهم خارج البلاد؛ عملاً بالمبدأ الذي عبّر عنه (غامبتّا) الشهير بكلمة سارت مسرى الأمثال: «**إن عداوة الإكليروس ليست من المواد التي يسوغ**

---

(١) يوم ميسلون، ص٤٩ ـ ٥٠.

تصديرها إلى خارج البلاد»[1] . اهـ.

وبهذه المناسبة فقد ذيّل الجنرال (غوابه) الذي قاد الحملة التي زحفت على دمشق يوم ميسلون؛ ـ بأمر الجنرال غورو[2] ـ مذكراته بحاشية قصيرة دوّن فيها بعض ما جال في خاطره من ذكريات وملاحظات بعد استقراره في دمشق الشام ـ كما يقول الأستاذ ساطع الحصري ـ الذي نقل هذه الحاشية، وقدم لها بقوله: «من المفيد أن نقرأ وأن نتأمل ما كتبه بهذه المناسبة هذا القائد الذي زعم أنه قاد الحملة العسكرية على دمشق ـ تنفيذاً لقرار عصبة الأمم، بغية تمدين سورية والسوريين ـ»!!. قال الجنرال: «أنا في دمشق! إن هذا الاسم كان يمثل لي شيئاً خرافياً عندما كنت أقرؤه في سجلات عائلتي، وأنا بعد في سنّ الطفولة. إن جان مونغوليه، الجد البعيد لجدتي من جهة أبي لويز، كان قد وقع في الأسر خلال الحروب الصليبية الثانية، سنة ١١٤٧ ونقل إلى مدينة دمشق.

إنه كان من السواد الأعظم، ولذلك لم يعامله (السرّاقون) المعاملة الحسنة التي كانوا يختصون بها الفرسان اللامعين. وأهل دمشق جعلوا منه في ذلك الحين عبداً يشتغل في أحد المصانع التي يصنع فيها الورق من القطن. فاشتغل جان المسكين هناك شغلاً شاقاً خلال ثلاث سنوات، وبعد ذلك فرّ من دمشق، وتمكن من الالتحاق بالجيش الصليبي، بعد اجتياز آلاف المخاطر! وعندما عاد إلى مسقط رأسه، بعد غياب دام عشر سنوات، **أسس أولى طواحين الورق التي عرفتها أوروبة»**.

«أوليست (العدالة العليا) هي التي سمحت لحفيد أسير الحروب الصليبية أن يدخل المدينة المقدسة ظافراً منصوراً؟»[3].

ليست هذه المقدمة فصولاً في التاريخ القريب أو البعيد، ولكننا قصدنا إلى

---

(١) يوم ميسلون، ص ٢٥ـ٢٦.

(٢) وصف غورو دمشق في خطاب نشر في ٩آب ـ أغسطس ١٩٢٠م بأنها «لؤلؤة الإسلام المرصَّعة بزمرد فراديسها الغنّاء»، المصدر السابق نفسه، ص٣٤٢. وجاء في بلاغ من مديرية المطبوعات الإفرنسية نشر في اليوم نفسه ـ ٩/٨/ ١٩٢٠ ـ «. . . فكما أن فرنسة لا تتسامح في إرجاع الأمير فيصل إلى بلاد هو غريب عنها، فإنها لن تخرج من دمشق ألبتّة»، المصدر السابق، ص٣٤٣.

(٣) يوم ميسلون، ص٣٦٧ـ٣٦٨.

بيان (الخلفية) التي انطلقت منها فرنسة في احتلالها العسكري لسورية الذي بدأ يوم ميسلون في ٢٤ تموز (يوليو) ١٩٢٠م، والذي استمر ـ مع ما تبعه من الانتداب أو الإدارة الانتدابية ـ مدة ربع قرن وتسعة أشهر حتى ١٧ نيسان (إبريل) ١٩٤٦م[١].

السياسة الطائفية والثقافة التبشيرية:

وقصدنا كذلك إلى بيان أثر هذا البعد الديني/ الحضاري ـ إن صح التعبير ـ في **السياسة الطائفية** التي اتبعتها في حكم البلاد، **والثقافة التبشيرية** التي أشاعتها. حتى نفهم دوافع الأستاذ السباعي بوجه خاص، ودوافع سائر رجالات الوطن بوجه عام، في الحرب التي شنوها على الطائفية وعلى سائر ضروب التفرقة والكيد الاستعماري في بلاد الشام. وتكفي الإشارة في هذا السياق إلى أن الأراضي السورية التي وقعت تحت الاستعمار الفرنسي ـ بعد أن تركت فلسطين وشرق الأردن تحت تصرف بريطانية العظمى ـ أنشأ فيها الجنرال غورو، بصفته مندوباً سامياً لفرنسة، وبعد مرور بضعة أسابيع على ميسلون: دولة لبنان الكبير ودولة أخرى في القسم الشمالي من سورية باسم دولة حلب، وثالثة باسم دولة دمشق، كما أقام في اللاذقية حكومة مستقلة ومنفصلة كذلك باسم (حكومة العلويين) وكذلك فعل في جبل الدروز، فقد أعلن عن تكوين (حكومة جبل الدروز) ثم قرر للإسكندرون عام ١٩٢١ نظاماً خاصاً يشبه إلى حد كبير (الحكم الذاتي) بعد أن كانت الإسكندرون في العهد العثماني قائمقامية تابعة لولاية حلب، فضم إليها إنطاكية وسماها باسم (سنجق الإسكندرون).

---

(١) يوم ميسلون، ص٤٠٣. قال محب الدين الخطيب: «أما جلاء الفرنسيين عن ديار الشام، وخروج ساقتهم من أبواب قلعة غورو في مطار المزّة ـ ضاحية دمشق ـ في ساعة الضحى من يوم الإثنين ثالث عشر جمادى الأولى سنة ١٣٦٥هـ وهم يتلفتون إلى عَلَمهم ليروه وهو ينزل للمرة الأخيرة عن سارية تلك القلعة التي زهق الباطل بإزالة اسم غورو الغريب عنها، وإطلاق اسم ابن دمشق البار الشهيد يوسف العظمة عليها، فكان وسيظل غصة لا تُسيغها حلوقهم أبد الآبدين ودهر الداهرين، وحرقة لا تُشفى منها صدورهم إلى يوم الدين». وقد ذكر أن الاحتلال الفرنسي كان من ضحى يوم الإثنين المشؤوم ١٠ ذي القعدة سنة ١٣٣٨هـ ـ ٢٦تموز (يوليو) سنة ١٩٢٠م إلى ضحى يوم الإثنين المبارك من التاريخ المذكور الموافق ١٥إبريل ١٩٤٦م. مجلة الفتح، العدد ٨٣٤، العام ١٧، ص٥٣١ ـ ٥٣٢. جمادى الأولى، ١٣٥٦هـ.

وإذا كان الجنرال غورو قد اضطر ـ بعد أن مُحي اسم سورية من الخريطة السياسية ولأسباب أخرى كثيرة ـ أن يقرر سنة ١٩٢٢م إنشاء (اتحاد بين الدول السورية المستقلة ـ أي بعضها عن بعض ـ والمؤلفة من دولة حلب ودولة دمشق وأراضي العلويين) فإنه اضطر على أثر الانتخابات التي جرت في حلب أواخر سنة ١٩٢٤م وقرر فيها المجلس النيابي ـ المنتخب ـ بالإجماع الاندماج بدولة دمشق لتكوين الجمهورية السورية. . اضطر إلى إلغاء (الاتحاد السوري) وإلى إصدار قراره ـ السامي ـ بتوحيد دولتي دمشق وحلب اعتباراً من بداية سنة ١٩٢٥م، وهكذا عاد اسم (الدولة السورية) أو دولة سورية إلى الظهور بعد اختفاء استمر نحو أربع سنوات[١].

وقد حاولت فرنسة تكريس القطيعة والانفصال بين أجزاء القطر السوري، أو ما تبقى من سورية الطبيعية دستورياً، أو عن طريق القوانين الأساسية التي سنّتها لكل من حكومة اللاذقية المنشأة بتاريخ ٣١ آب ـ أغسطس ١٩٢٠م وحكومة جبل الدروز المنشأة بتاريخ ٢٤ تشرين الأول ـ أكتوبر ١٩٢٢م، ودستور دولة سورية المنشور بقرار من المفوض السامي بتاريخ ١٤ أيار ـ مايو ١٩٣٠م وهو نفس التاريخ الذي نشر فيه المفوض (النظام الأساسي للواء الإسكندورن)[٢].

وكانت هذه القوانين ذات بعد مذهبي يراد منه تكريس هذه القطيعة ليس دستورياً أو سياسياً فحسب، بل عن طريق تكريس الطائفية ذاتها، أو على قاعدتها؛ ففي الوقت الذي نصّت المادة (١٩) من دستور دولة سورية على أن: «التعليم حرٌّ ما لم يخل بالنظام العام أو يتنافى مع الآداب أو يمس كرامة الوطن أو

---

(١) راجع المصدر السابق، ص٤٠٨. ويؤخذ من الإحصاء الذي وضعته المفوضية الفرنسية في بيروت أن مساحة البلاد الشامية الواقعة تحت الانتداب الفرنسي هي ١٥٠ ألف كيلومتر مربع، منها ١٢٧ ألفاً في الجمهورية السورية و١٠٥٠٠ في لبنان و٦٥٠٠ في دولة العلويين و٦٠٠٠ في جبل الدروز. ويقسم السكان إلى ٦٢ في المئة من القرويين و١٣ في المئة من القبائل الرحّل، و٢٥ في المئة من سكان المدن. ونسبة عدد السكان في كل كيلو متر هي ٨٥ في لبنان و٣٧ في اللاذقية و١٢ في جبل الدروز و١١ في الجمهورية السورية. مجلة (الفتح) العدد ٤٢٩ في ١٢ شوال ١٣٥٣هـ (يناير ١٩٣٥) العام التاسع، ص٧٠٢.

(٢) د. ذوقان قرقوط: المشرق العربي في مواجهة الاستعمار: الصفحات ٣٤٢ ـ ٣٦٣. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧، القاهرة.

الأديـان» نصَّت المواد المماثلـة في قانوني حكومة اللاذقية وحكومة جبل الدروز على هذه الحرية (ما لم تكن ماسّةً بكرامة المذهب. .) أي إن فرنسة أرادت تكريس الطائفية عن طريق **السياسة** وعن طريق **التعليم**. كما فعلت ذلك أيضاً عن طريق الاستيلاء على **الأوقاف الإسلامية** وحدها دون سواها في دولة سورية، أو دون أوقاف (بقية الطوائف غير المسلمة) التي بقيت تدار (بمعرفة الطائفة نفسها) كما جاء في المضبطة التي قدمها (الوفد السوري) إلى المفوض السامي الجنرال ساراي في ١٧ كانون الثاني ـ يناير ١٩٢٥م فقد جاء في الفقرة رقم (٧) من هذه المطالب ما يلي:

«لما كانت الأوقاف والمؤسسات الخيرية الدينية المحضة للأعمال الخيرية والشعائر الدينية، وكانت أوقاف بقية الطوائف غير المسلمة تدار بمعرفة الطائفة نفسها. وكانت الإدارة السابقة قد ضمت الأوقاف الإسلامية إلى المفوضيّة العليا، فلم تحترم بذلك إرادة الواقفين، حتى إنها استولت على الخط الحديدي الحجازي الذي هو أعظم وقف إسلامي وسلّمته إلى شركة أجنبية رغماً عن احتجاج الأهلين؛ فإنا نطلب إعادة هذه الإدارة إلى الطائفة الإسلامية، وإرجاع الخط الحجازي إلى استقلاله السابق»[1].

ويأتي في هذا الإطار ـ أخيراً ـ **نظام الأحوال الشخصية للطوائف** الذي أراد أن يجمع الطوائف فيما يجب أو يجوز فيه الافتراق! في الوقت الذي ما زالت فرنسـة تفرق بين أبناء الشـعب الواحد في كل عـوامل الاجتماع! ولكن القصد من هذا الجمع في قانون الطوائف تكريس الفرقة وإثارة الحزازات والنعرات لأن أحداً ـ وبخاصة المسلمين ـ لن يوافق على هذا القانون![2].

وقد شنّ الأستاذ السباعي حملة على هذا القانون في أكثر من عدد من أعداد

---

(١) المصدر السابق، ص٢٢١، ومعلوم أن «السكة الحديدية الحجازية كانت دائماً ملكاً خالصاً للمسلمين ولم تضعها الحكومة التركية في يوم من الأيام تحت سلطتها» ولكنها كانت تدار بوصفها وقفاً إسلامياً «أنشئ بتبرعات خيرية من مسلمين مقيمين في عدة ممالك مختلفة» انظر مقالة بعنوان: «اغتصاب الفرنسيين للسكة الحديدية الحجازية» في مجلة (الفتح) العدد ٤٤٦، العام التاسع، بتاريخ ٢٠صفر ١٣٥٤هـ (٢٠/ ٥/ ١٩٣٥).

(٢) راجع للوقوف على دسائس الإفرنسيين المبكرة حول تحريك المسيحيين وتخويفهم من المسلمين: ساطع الحصري: يوم ميسلون، ٩١ ـ ٩٢.

مجلة (الفتح) التي كان يكتب فيها وهو ما يزال طالباً في مصر ـ كما ستتحدث عن ذلك فيما بعد ـ وألّب عليه الأزهر الذي كان يدرس فيه في ذلك الحين. وجاء في إحدى البرقيات التي وقع عليها اثنان من علماء الأزهر واثنان من الطلاب وتوجهوا بها إلى رئيس الوزراء الفرنسي في باريس، وإلى المفوضية الفرنسية في كل من بيروت ومصر؛ جاء في هذه الأخيرة ما يلي:

«جُرح **الظهير البربري** لم يندمل بعد في قلوب المسلمين. إصدار السلطة الفرنسية في سورية نظام الأحوال الشخصية للطوائف يراه المسلمون مقدمة لظهير آخر في بلاد الشام[1]. الأزهر ـ كعبة الإسلام والحفيظ على تراثه ـ يعتبر

---

(١) (الظهير) في الاستعمال الرسمي في المغرب العربي بمعنى المرسوم (السلطاني) وقد قامت فرنسة عام ١٩٣١م ـ إبان احتلالها للمغرب ـ بإعلان ما أسمته (الظهير المغربي) الذي كان يقضي بتطبيق العرف والتقاليد دون الشريعة الإسلامية ـ أو قبل أحكام الشريعة ـ في الأحوال الشخصية في مناطق البربر، كما يقضي بتعليم اللغة أو اللهجات البربرية في المناطق التي بقي أهلها يتحدثون بهذه اللهجات، وكانوا يسكنون الجبال ـ سواء في الريف أو في الأطلس المتوسط أو في الأطلس الأعلى ومنطقة السوس ـ وكانوا يشكلون قريباً من نصف سكان المغرب (الأقصى). علماً بأنهم كانوا يدينون بالإسلام ويتحدثون العربية. فما كان منهم إلا أن أصروا على عروبتهم وعلى التزامهم بأحكام الشريعة الإسلامية، ورفضوا الظهير المذكور.

ويذكر بعض المؤرخين أن هذه المحاولة الاستعمارية من قبل فرنسة للتفريق بين أبناء الشعب الواحد كانت بداية جديدة للكفاح السياسي الوطني المغربي ضد فرنسة ـ بعد أن كانت حركة جهاد أبطال الريف قد توقفت ـ وبخاصة أن هذه المحاولة جاءت تأكيداً أو مساندة لجهود (الآباء البيض) الذين كانت فرنسة تحاول بهم تحويل جزء من رجال القبائل إلى الدين المسيحي وجذبهم نحو فرنسة!

وقد اضطرت فرنسة إلى التراجع حين أعلنت أن مسألة تطبيق الظهير المذكور أمر اختياري يعود إلى رجال القبائل البربرية أنفسهم! في حين مثّل هذا التراجع انتصاراً مهماً لصالح كتلة العمل الوطني التي بدأت تتبلور بقيادة بلافريج في الرباط، وعلال الفاسي في مدينة فاس.

انظر الجزء الرابع من: تاريخ المغرب الكبير، للدكتور جلال يحيى، ص٢٦١ ـ ٢٦٣، دار النهضة العربية ـ بيروت، ١٩٨١م.

وكتب الأستاذ محب الدين الخطيب تحت عنوان: (تنازل جلالة ملك المغرب الأقصى للحكومة الفرنسوية عن حق التدخل في شؤون البربر الدينية) مايلي:

«نشرت الجريدة الرسمية للدولة الشريفية (دولة المغرب الأقصى) في عددها ٩١٩ الظهير =

هذا القانون اعتداء واضحاً على كيان المسلمين في بلاد الشام وعقائدهم، وموجباً لسخط كل مسلم. نرجو إبلاغ حكومتكم هذا الاحتجاج». عن الطلاب: **خلف السيد، مصطفى السباعي عن العلماء: محمد الأودن، محمود عيسوي**[1].

أما حملة الأستاذ السباعي على هذا القانون في العدد الذي نشرت فيه هذه البرقيات، فكانت جزءاً من حديثه عن الأوضاع المتردية في سورية في ظل الاحتلال الفرنسي.. حتى إنه جعل عنوان هذه المقالة: (البلد المنكوب)، وضمنها اعتراضه على نظام الأحوال الشخصية المذكور.

ويمكن القول: إن هذه المقالة ـ وغيرها كثير ـ تعكس مجمل الأوضاع التي أشرنا إليها فيما سبق، فبعد أن تحدث عن فقر الخزينة وتراجع الاقتصاد، قال: «ماذا تقول في بلد دخله أوصياؤه وهو شعب واحد وأمة واحدة، فما لبثوا أن جعلوه موزعاً بين عرب مسلمين ومسيحيين ويهود ونصيرية ودروز وإسماعيليين وشيعة وأكراد وتركمان وشركس وداغستان وغجر، ثم زادوا عليها الأرمن والآشوريين فأسكنوهم أخصب البقاع وأغنى الأراضي؟.

«ماذا تقول في بلد دخله أوصياؤه وهو غني بالنبغاء والقواد والعلماء والأدباء؛ فإذا هم اليوم موزعون في الأقطار، مشتتون في الممالك، لا تخلو منهم بلد ولا قرية؟.

«ماذا تقول في بلد دخله أوصياؤه وله أوقاف كبيرة رصدت على البر ونشر العلم، فما زالوا بها حتى جعلوها تحت تصرفهم يؤكلون منها من شاؤوا ويحرمون من شاؤوا، ويولون عليها من شاؤوا ويُقصون من شاؤوا؟.

«ماذا تقول في بلد دخله أوصياؤه وله محاكم تحكم بما أمر الله، فما زالوا

= السلطاني الشريف المؤرخ يوم ١٧ ذي الحجة سنة ١٣٤٨ (١٦مايو ١٩٣٠) المؤذن بإنشاء محاكم عرفية للبربر تنظر في كل شؤونهم المدنية والجنائية. وأما الأحوال الشخصية فإن مرجعها إلى مراقب الناحية الفرنسي، فهو الذي يعقد أنكحتهم ويفسخها، ويقوم بسائر أحكام أحوالهم الشخصية!!! ويقول المغاربة: إن هذا قسم من ظهير سلطاني استصدرته الإدارة الفرنسية وطوته حتى تنشره تدريجياً بحسب الظروف...».
العدد ٢٠٩ من مجلة (الفتح) ٢٨صفر ١٣٤٩ السنة الخامسة، ص١٢٩.

(١) مجلة (الفتح)، العدد (٦٤٣) الصادر في ١١ من المحرم ١٣٥٨هـ (٢/ ٣/ ١٩٣٩).

يهدمون منها شيئاً بعد شيء حتى غدت هياكل تتداعى للسقوط، وتنتظر النهاية ساعة بعد أخرى؟.

«ماذا تقول في بلد دخله أوصياؤه وله دين يعتصم بعروبته، وخلق يعتز برفعته، فما زالت عرى دينه تنفصم، وما زالت أخلاقه تنحط في عهد أوصيائه، حتى أصبح اليوم مرتعاً خصباً للإباحية والشيوعية والماسونية والفاشيستية وما شاكل هذه المذاهب الهدامة الخطرة على الأديان والقومية والأخلاق؟»...

وأما **نظام الطوائف** فقد وصفه بأنه: «مهزلة المهازل في عهد هؤلاء العلمانيين»، ويعني بهم هؤلاء «الأوصياء اللادينيين» من الفرنسيين؛ قال: «زعموا أن رؤساء الطوائف من غير المسلمين شكوا إليهم ما في نظام الأحوال الشخصية المعمول به في سورية ولبنان من غبن فاحش بطوائفهم؛ فوضعوا لهم نظاماً جديداً يفتح باب الارتداد عن الإسلام على مصراعيه، ويجيز للمسلمة أن تتزوج من غير المسلم، ويمنع المسلم المتزوج في بلد أجنبي من تطليق امرأته، ويجيز للورثة الكفرة أن يرثوا أباهم المسلم، ويلحق الأولاد الصغار بأبيهم المرتد». وقد قال في هذه الأحكام: «إنها لم توضع إنصافاً للأقلية من الأكثرية، وإنما وضعت اعتداء على دين الأكثرية لإرضاء فريق من رؤساء الطوائف المتعصبين»[1].

ولا يحسن إنهاء الكلام عن محاولات تكريس الطائفية والفرقة ـ ومن ثم التناحر والاختلاف ـ بهذه الوسائل والأساليب، دون الإشارة إلى دور التبشير أو تعليم الإرساليات في ذلك.

مدارس الإرساليات:

ولا أجد في هذا السياق أوجز مما عبر عنه جمهور العلويين أنفسهم في المذكرة المهمة التي قدموها إلى وزارة الخارجية الفرنسية في ٢٧ تموز ـ يوليو ١٩٣٦م، والتي أكدوا فيها رفضهم للانفصال عن سورية بعد أن جربوه ستة عشر عاماً! فقد جاء في هذه المذكرة في الفقرة: ثالثاً: «إن هذا الانفصال الذي يتغنى بحماسته بعض العلويين النفعيين ليس سوى سُلَّم للتبشير اليسوعي، وبالتالي

---

(١) مجلة الفتح العدد (٦٤٣) تاريخ ١١ من المحرم ١٣٥٨هـ (٢/ ٣/ ١٩٣٩م).

لإفناء العلويين التدريجي». ونصت الفقرة: رابعاً على: «أن هذا الانفصال يحول دون تحقيق وحدتنا القومية، هذه الوحدة التي هي حجر الزاوية في تحريرنا واستقلالنا».

ومما جاء في هذه المذكرة مما نحن بصدده أيضاً قولهم: «وكأن الصدف يا معالي الوزير ساقت بتبشير الآباء اليسوعيين إلى جبالنا، وأخذ هذا التبشير يتسرب إلينا منذ عام ١٩٣٠م. ومن المفيد إحاطة معاليكم علماً أن الكثيرين من الموظفين الفرنسيين الإداريين يرون بعين الارتياح أعمال الآباء اليسوعيين. وبعدة مناسبات منذ عام ١٩٣٠م استلفتنا نظر السلطات العليا في باريس وبيروت إلى هذه الحوادث التبشيرية التي تكون معذورة لو أن الدافع لها اليقين والإيمان، إلا أن الشيء المشين في هذه الحوادث، وهنا موضع استيائنا، وعليه احتجاجنا، هو استثمار واستغلال فاقة شعب فقير، وشراء ضمائر ضعيفة، كما تشترى السلع، لتمرقَ من دين إلى دين آخر»[1].

ثم أضافت المذكرة في إيجاز معبّر قائلة: «إن أشد أنصار الانفصال بين الموظفين الفرنسيين هم أشد أنصار التبشير اليسوعي». ثم صرحت المذكرة بأن طلب استبقاء (الأوتونومي) أي الاستقلال الإداري أو الداخلي إنما صدر «من بعض الشخصيات العلوية المطواعة لأوامر هؤلاء الموظفين لأنها تملك كل ما لديها منهم، فليس الدافع إليه سوى خشيتها فقدان النعم التي يتمتعون بها متى أذن تبدل النظام الحاضر بذهاب هؤلاء الموظفين»[2].

---

(١) المشرق العربي في مواجهة الاستعمار، ص٤٠٠ ـ ٤٠١.

(٢) د. ذوقان قرقوط، مرجع سابق، ص٤٠٠. وجاء في التقرير المطول الذي وضعته اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني عن الحالة السياسية والاقتصادية في سورية فصل عن تنشيط فرنسة للمبشرين. قال التقرير في الصفحة ١١: «لا نرى بدأً هنا من الإشارة إلى مسألة التبشير، ويقلق أمرها بال السوريين كافة؛ فقد ظهر أن المفوضية العليا تشجع حركة التبشير اليسوعي في جبال العلويين، وتحمي المبشرين، وتمدهم بالمساعدات المادية والأدبية، مما هو مخالف لمبدأ حرمة الأديان.
«وقد عقد زعماء العلويين مؤتمراً عاماً يوم ٨نيسان (إبريل) سنة ١٩٣٣ في قرية بيت الشيخ يونس من مقاطعة صافيتا قرروا فيه الاحتجاج بشدة على أعمال المبشرين وتصرفاتهم، وندبوا وفداً ذهب إلى اللاذقية وقابل الحاكم العام محتجاً، وطلب وقفها». =

وقد أشار الأستاذ السباعي نفسه في تصويره للحالة السياسية العامة في سورية إلى مدى تأثير معاهد التبشير في بعض الأوساط الاجتماعية إلى الحد الذي حسبوا معه «أن انتظام أبناء الأمة في سلك هذه المعاهد من تمام الرقي وكمال التمدن»[1]! . قال: «ومن أعجب ما في الأمر أن يعقد مؤتمر الامتيازات في مدينة (مونترو) ـ في سويسرة ـ ويكون أول ما تطلبه الدول من وفدنا: الضمانات اللازمة لحماية المؤسسات العلمية والدينية التابعة لها. . . ومن قبل هذا طلب مثل ذلك من العراق حين رغب في الانضمام إلى عصبة الأمم». ثم تساءل رحمه الله قائلاً: «ولا ندري أهذه المعاهد هي التي تحتاج إلى الحماية خوفاً عليها منّا، أم نحن المحتاجون إلى الحماية خوفاً على أبنائنا منها؟»[2].

بل إن البرلمان الفرنسي بعد أن صدّق المجلس النيابي السوري على المعاهدة الفرنسية ـ السورية عام ١٩٣٦م تلكأ في التصديق عليها في سبيل الحصول على المزيد من الشروط والتنازلات السورية، وقد عدّها الأستاذ السباعي ستة شروط، وذكر منها: «إعطاء ما يسمونه ضمانات كافية بالحريات الدينية للأقليات والطوائف غير المسلمة على شكل واسع جداً، بحيث يفتح الأبواب للمبشرين وللمعاهد الأجنبية. . .»[3].

الأحزاب السياسية:

أما الأحزاب السياسية التي كانت قائمة قبل الاستقلال ـ الصوري أو

= قالت اللجنة التنفيذية: «والواقع أن حركة التبشير الجزويتي التي يشجعها الفرنسيون في جبال العلويين ويؤيدونها سراً وجهراً تشبه الحركة التي يقوم بها المبشرون الجزويت في بلاد البربر في المغرب الأقصى، وقد ضجّ منها المغاربة. وهي تدل على وحدة أساليب الاستعمار الفرنسوية في كل مكان». الفتح، العدد ٣٥٨ في ٢٥ربيع الآخر ١٣٥٢هـ (١٧/ ٨/ ١٩٣٣م) العام ٨، ص١٦١.

(١) مجلة الفتح العدد (٥٤٧) في ١٥ صفر ١٣٥٦هـ ـ (٢٧/ ٤/ ١٩٣٧م).

(٢) المصدر السابق. وقد تم عقد مؤتمر (مونترو) عام ١٩٣٦م، ونجح فيه وفد مصر في إلغاء المحاكم المختلطة، على أن ينفذ هذا الإلغاء بعد عشر سنين. انظر نص الخطاب الذي ألقاه بدوي الجبل في البرلمان السوري في الجلسة السابعة في ٢٨تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٦م. .

(٣) مجلة الفتح العدد (٦٣٣) في ٣٠ شوال ١٣٥٧ (٢٢/ ١٢/ ١٩٣٧م).

المنقوص عام ١٩٤١[١] والناجز أو التام في ١٧ نيسان (أبريل) عام ١٩٤٦ ـ فيمكن التمييز فيها بين نوعين من الأحزاب: الأحزاب (التقليدية) إن صح التعبير، أو الأحزاب الوطنية التي نشأت في العشرينيات، والتي أخذت على عاتقها قيادة البلاد نحو عصر السيادة والاستقلال.. وكانت في تشكيلها أقرب إلى التحالف بين طائفة من النبلاء والأعيان والوجهاء الذين ولدوا في نهايات القرن الماضي، والذين تكوّن وعيهم وعالمهم مع التحولات الكبرى التي شهدتها الدولة العثمانية، وما أفضت إليه الثورة العربية ـ مع المكر الاستعماري الذي أشرنا إليه ـ من وقوع البلاد تحت السيطرة الفرنسية وتجزيئها إلى عدة (دول) أو حكومات. ويمكننا أن نسمي هذه الطائفة أو هذا الجيل **بالجيل الفيصلي**.

ولم يكن لدى هذه الأحزاب مذهب اجتماعي أو فلسفة سياسية تشكل محور نشأتها أو نشاطها.. مع ملاحظة تأثر كثير من قادتها بالأوضاع (العلمانية) ـ إن صح التعبير ـ التي صاحبت الاستعمار الفرنسي أو بدأت تمشي في ركابه، وقد ساعد على ذلك أن عروبة الثورة التي قادها الشريف حسين، وعروبة الحكم أو الاستقلال الذي أعلنه ابنه الأمير فيصل ـ والذي تراجع عن طموحات الأمة العربية إلى الأمة السورية ـ لم تكن ذات مضمون اجتماعي أو فلسفي كما حصل في الفكر القومي بعد سنوات.. بل هي أقرب من بعض الوجوه إلى المقولات العلمانية ـ مع اختلاط المفاهيم الذي لا ينكر في مرحلة التحول هذه ـ[٢] الأمر الذي ساعد كذلك على تأثر كثير من زعامات الأحزاب المذكورة

---

(١) كان ذلك بتاريخ ٢٧ أيلول (سبتمبر) وكان ذلك من جانب واحد، وقد قام الجنرال كاترو بتعيين الشيخ تاج الدين الحسني رئيساً للجمهورية، وقد ناط الشيخ تاج تأليف الوزارة بالسيد حسن الحكيم! وسوف نشير في صفحات قادمة إلى تعريض الأستاذ السباعي بالشيخ تاج، واتهامه له بأنه كان أداة بيد الاستعمار الفرنسي. وقد جاء إعلان الاستقلال المذكور في سياق تلك المرحلة التي شهدت الصراع بين الحلفاء والنازيين، من جهة، وبين الحلفاء بعضهم مع بعض من جهة أخرى. وقد كان للجنرال ديغول الذي قاد حكومة فرنسة الحرة ضد حكومة فيشي الفرنسية التي تعاونت مع هتلر.. أثر في هذا الإعلان الذي لم يعترف به أحد حتى السوريون أنفسهم!

(٢) قال الأمير فيصل في الخطاب الذي ألقاه في مدينة حلب في ١١ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٨: «إنني أكرر ما قلته في جميع مواقفي: بأن العرب هم عرب قبل عيسى وموسى ومحمد، إن الديانات تأمر في الأرض باتباع الحق والأخوة، وعليه فمن يسعى لإيقاع الشقاق بين المسلم والميسحي والموسوي فما هو بعربي. أنا عربي قبل كل شيء..»=

بالقيم العلمانية الفرنسية؛ خصوصاً وأن التجزيء الذي مارسته فرنسة كان على أساس (طائفي).. وقد جاءت هذه الأحزاب لتحقيق وحدة البلاد السورية واستقلالها. وربما استقر في وعي بعض هؤلاء الزعماء اقتران الدين بالطائفية أو التسوية بينهما؛ الأمر الذي جعل (تدين) هؤلاء موضع نظر.. وربما كان هذا الوضع أحد الأسباب التي كانت وراء تأسيس الجمعيات والجماعات الدينية كما سنرى بعد قليل.

الكتلة الوطنية:

نتحدث هنا كما هو واضح عن **(الكتلة الوطنية)** ـ قبل أن يتوزع رجالاتها إلى حزبين هما حزب الشعب والحزب الوطني ـ وقد أخذت الكتلة طابع الحزب عام ١٩٢٨م، ورفعت شعار: الجلاء والاستقلال التام والناجز، وشعار (الدين لله والوطن للجميع). أما قانونها الأساسي فقد أُقر بمدينة حمص عام ١٩٣٢. ونصّت مادته الأولى على أن: «الكتلة الوطنية هيئة سياسية غايتها تحرير البلاد السورية المنفصلة عن الدولة العثمانية من كل سلطة أجنبية، وإيصالها إلى الاستقلال التام والسيادة الكاملة، وجمع أراضيها المجزّأة في دولة ذات حكومة واحدة».

كانت الكتلة الوطنية تمثل حزب الأغلبية أو تجمع الأغلبية، وذلك على النحو المعهود أو المماثل في البلاد التي وقعت في قبضة الاستعمار؛ حيث تنضوي المقاومة (الوطنية) الساعية إلى تحريره من (الغريب الواغل) في تجمع عريض تحت راية أو لافتة (الوطن)، وغالباً ما كان هذا التجمع يسمّي نفسه (الحزب الوطني) وغالباً ـ أيضاً ـ ما يتسرب إليه التفسخ أو يشهد بعض الانشقاقات، فضلاً عما يشوبه في بعض مراحل الكفاح المتقدمة من المطامع والمنافع بعد (احتكار) هذا الكفاح لمدة تقصر أو تطول[1]. حيث تبدأ مرحلة أخرى أو مراحل أخرى من نشوء الأحزاب.

= يوم ميسلون للأستاذ ساطع الحصري، ص٢١٤.

(١) نصت المادة الثالثة من القانون الأساسي للكتلة الوطنية على ما يلي: «من الواجب المحتم جمع قوى الأمة وتوجيه جهودها لتحقيق الآمال الوطنية، ولذلك تعتبر الكتلة الوطنية تأليف الأحزاب السياسية مخالفاً لوحدة الجهود» كتاب المشرق العربي للدكتور ذوقان قرقوط، ص٤١٧.

وهكذا حملت المعارضة التي نشأت بعد أن رفضت فرنسة إبرام معاهدة ١٩٣٦م بذور الانشقاق عن الكتلة الوطنية من قِبَل بعض سياسيي مدينة حلب. . حيث انفصل في عام ١٩٣٩م سياسيان طامحان هما رشدي الكيخيا وناظم القدسي عن سعد الله الجابري أبرز رجالات الكتلة الـوطنية في حلب. وشـكّلا تكتلاً بعيداً عن التنظيم الحزبـي بالمفهـوم المعهود. . وكان حالهما في ذلك دون حال الكتلة ذاتها، والتي قلنا قبل قليل إنها كانت أقرب إلى التحالف السياسي بين وجهاء ورجال متنفذين. . كان يسهم كل منهم بمن لديه من أصدقاء، ويقدم رعايته وحمايته للتكتل أو التنظيم[١].

وقد ضعف أمر الكتلة وتسرب الخلاف إلى صفوفها بعد أن تناوب على رئاسة الحكومة ثلاثة من أعضائها البارزين في فترة الرئاسة الأولى لشكري القوتلي (١٩٤٣ ـ ١٩٤٧) هم سعد الله الجابري وجميل مردم وفارس الخوري. وكان الجابري يعارض رغبة القوتلي بتعديل الدستور بشكل يمكنه من تجديد انتخابه رئيساً للجمهورية خمس سنوات أخرى. وقد تلقت الكتلة بموته في حزيران (يونيو) ١٩٤٧م ضربة أخرى بوصفه من أكثر رجالها شجاعة واستقامة.

وفي ربيع هذا العام، وقبل الانتخابات ببضعة شهور، توحد شتات الجناح الحاكم من الكتلة ـ ومعظمهم من مدينة دمشق ـ في حزب أسموه (الحزب الوطني)[٢] وقد عكس الحزب السياسة الدمشقية إلى حد كبير. وكانت قوته الانتخابية «لا تعتمد على الخصائص الفردية التي يتحلى بها قـادته على الرغم من قدرات بعضهم، بمقدار اعتمادهـا على سجلّهم الـوطني. . .» بالإضافـة إلى اعتمادهـا على الأحوال العائليـة وعلـى الارتباطات بالأحياء الشعبية وزعمائها من الوجهاء (والقبضايات)[٣].

---

(١) راجع: الصراع على سورية تأليف باتريك سيل، ص٤٧، ترجمة سمير محمود فلاحة، طلاس للدراسات والترجمة والنشر ـ دمشق ١٩٨٣م.

(٢) ولهذا قيل: إن هذا الحزب أسس على أنقاض الكتلة الوطنية بدعم من الرئيس شكري القوتلي. وكان من أبرز قادته: نبيه العظم وعبد الرحمن الكيالي ولطفي الحفار وصبري العسلي وميخائيل إليان. بالإضافة إلى سعد الله الجابري نفسه الذي توفي بعد قيام الحزب بوقت قصير.

(٣) الصراع على سورية لباتريك سيل، ص٤٨.

حزب الشعب:

في فترة الانتخابات هذه لم يكن المنشقون عن الكتلة عام ١٩٣٩م قد نمت بينهم درجات من الترابط تحيلهم إلى حزب سياسي على غرار (الحزب الوطني) الذي ورث الكتلة ونظّم صفوفه على النحو المشار إليه. ولكن حضور هؤلاء المنشقين وأنصارهم في البرلمان بوصفهم تجمعاً أو كتلاً برلمانية كان واضحاً. وقد قاد هذا التجمع في البدء زعماء من مدينة حلب أمثال ناظم القدسي ورشدي الكيخيا ومصطفى برمدا، حتى إن بعض المعلقين سماه (حزب ناظم ورشدي) وكانوا يتمتعون، نظراً لنزاهتهم، بسمعة طيبة تفوق ما كان يتمتع به منافسوهم من زعماء الحزب الوطني الذين تقلبوا في الحكم طيلة حكم الكتلة. ثم ما لبثت هذه المعارضة أن اتحدت في شهر آب (أغطس) ١٩٤٨م وشكلت (حزب الشعب) الذي انضم إليه عدد من كبار الملاك الزراعيين والمحامين وبعض أساتذة الجامعة. وبات يمثل المصالح التجارية في حلب والمنطقة الشمالية ويحظى بتأييد عائلة الأتاسي ذات الأملاك الشاسعة[١].

أحزاب مدينية:

وعلى أية حال، فقد كانت الكتلة الوطنية أو الحزب الوطني وحزب الشعب أحزاباً (مدينية) ـ نسبة إلى المدينة ـ لأنها مثّلت كبرى المدن السورية: حلب ودمشق وحمص وحماه.. ومعلوم أن هذه المدن تمثل السواد الديني المذهبي الذي عوّلت عليه الدولة العثمانية منذ عشرات السنين ـ بل إن معظم رجالات الكتلة نشأوا في العهد العثماني ويمكن عدهم امتداداً لهذا العهد من بعض الوجوه ـ وعلينا في هذا السياق ملاحظة الانقسام الثنائي الريفي المديني في سورية، الذي كان بدوره أو إلى حد كبير اقتصادياً وذا بعد طائفي في الوقت نفسه؛ يقول الدكتور نيقولاس ڤان دام: «إن البعد الطائفي للانقسام الثنائي الريفي المديني في سورية لجدير بالملاحظة، فبينما تتركز الأقليات الدينية المتماسكة أساساً في المناطق الريفية الفقيرة المحرومة؛ نجد أن المناطق الأكثر ثراء، والمدن الأكبر، يسيطر عليها سنيّون»[٢].

---

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) كتاب: الصراع على السلطة في سورية: الطائفية والإقليمية والعشائرية في السياسة =

ملامح الأحزاب الجديدة:

وهكذا جاءت معظم الأحزاب الجديدة ـ أو الشابّة ـ تعبيراً عن تطلعات الأقليات بوجه عام، وأقرب إلى الإلحاد مرة، وإلى العلمانية وإهمال شأن الدين أو الالتفاف عليه مرة أخرى؛ في الوقت الذي أكدت فيه هذه الأحزاب جميعاً على الدور المركزي للحزب بوصفه عصبية جديدة من جهة، وموطن النخبة التي تتمتع بحق الريادة والطليعة من جهة أخرى.

ونعني بالعصبية الجديدة أن باب العضوية فيه مفتوح لكل من يؤمن بمبادئ الحزب وأهدافه، وربما لم يكن الأمر على هذا النحو في الكتلة الوطنية على سبيل المثال، ومع ملاحظة إمكانية إحياء العصبية القديمة ـ (الأقلويّة) أو الطائفية ـ في سياق هذه العصبية (التقدمية) الجديدة! أما الطليعية والريادة فقد آمنت بها هذه الأحزاب أو اعتقدتها ـ وإن شئنا قلنا (توهمتها) ـ من خلال طروحاتها الحديثة أو المعاصرة، والتي كانت منقولة عن الأحزاب الأوروبية القومية والاشتراكية ـ حتى على مستوى الأسماء في أغلب الأحيان ـ وبالمفاهيم العقائدية والاجتماعية التي كانت قائمة في الغرب.

يقول الدكتور نيقولاس ڤان دام: «إن أعضاء الأقليات لا بد وقد جذبت انتباههم فكرة إمكانية التخلص من الهيمنة السنية المدنية التقليدية على الحياة السياسية السورية، وذلك عن طريق تكوين نظام سياسي اشتراكي علماني.. خال من التعصب السياسي والاجتماعي الاقتصادي ضد من هم من غير السنيين...»[1]، وينقل عن السيد مطاع الصفدي قوله: إن الأقليات الدينية، وعلى رأسها العلويون ويليهم الدروز والإسماعيليون والمسيحيون كانوا «الأكثر طموحاً إلى غزو هرم المجتمع القديم التقليدي الذي تسيطر عليه طبقات المدن الإسلامية السنيّة»[2].

إن اللجوء إلى الماركسية أو القومية بالمفهوم الألماني أو الفرنسي، والعناية بآراء (نيتشه) على سبيل المثال.. لم يعد يستعصي على التفسير؛ لأن (تفكيك)

= ١٩٦١ ـ ١٩٩٥، ص٣٥ مكتبة مدبولي ـ الطبعة الثانية. حزيران يونيو ١٩٩٥م.

(١) الصراع على السلطة في سورية، ص٤١.

(٢) المصدر السابق نفسه.

البُنى العقائدية والفكرية للأقليات المذهبية . . وحتى الدينية أمر واقع لا محالة في ظل نظام التعليم المدني الفرنسي وسياسة الابتعاث إلى الغرب، ومع الاطلاع على المذاهب والتيارات الفكرية العالمية[1] . ولم يكن في وسع هذه الأقليات ـ فيما نقدر ـ أن ترتاد آفاق الثقافة العربية الإسلامية أو تعود إلى رحابها ورحابتها، أو تبحث في قيم الإسلام الإنسانية والحضارية ـ على أثر انحلال الرابطة العثمانية ـ ظناً منها أن هذا قد يعني الدخول في هيمنة السنة العرب بعد هيمنة السنة الأتراك! ونحن لانستطيع أن نفهم (رد الفعل) الشديد الذي وقع فيه السيد زكي الأرسوزي ـ على سبيل المثال ـ إلا من خلال هذا التفسير!! وإلا فكيف نفهم أنه نادى بالعودة إلى العصر الجاهلي قبل الإسلام، وأنه سمى هذا العصر عصر البطولة والعصر الذهبي. . وأنه تبنى من الإسلام ماكان جاهلياً فقط[2]!!.

وتبرز هنا أو في هذا السياق أهمية الدعوة الدينية التي نهضت بها جمعية الشبان المسلمين بدمشق وجمعيات شباب محمد ﷺ في سائر المدن السورية، وجمعية العلماء، وجمعية الهداية الإسلامية، وسائر الجمعيات الدينية التي سوف نتحدث عنها فيما بعد. كما تبرز أهمية حركة التجديد والإصلاح الديني والاجتماعي والسياسي التي قادها مصطفى السباعي لمدة ثلاثة عقود. وأهمية دفاعه عن العلويين داخل البرلمان وخارجه، ومطالبته الحكومة بضرورة العناية بجبالهم وبسائر المناطق الريفية أو المهمّشة، كما سنعود لبيانه من الصحف ومن مذاكرات الجمعية التأسيسية السورية (البرلمان).

كلمة لا بد منها: الدائرة الجامعة:

وقبل أن نوجز القول في هذه الأحزاب، لا بد لنا أن نعقب على هذا الذي

---

(١) يقول الدكتور سامي الجندي، الذي شارك في تأسيس (البعث العربي) عام ١٩٤٠ ـ واصفاً اللقاءات الأولى مع زكي الأرسوزي: «كنّا عرقيين معجبين بالنازية، نقرأ كتبها ومنابع فكرها، وخاصة (نيتشة): (هكذا تكلم زرادشت) وفيخته: (خطابات إلى الأمة الألمانية) وتشمبرلين: (نشوء القرن التاسع عشر) وداره: (العرق)، وكنا أول من فكر بترجمة (كفاحي) لهتلر». انظر كتابه (البعث) ص٢٧.

(٢) راجع كتابنا: جذور الفكر القومي والعلماني، ص٩٩، الطبعة الثالثة ـ المكتب الإسلامي بيروت: ١٩٩٩. يقول الدكتور سامي الجندي: **كان الأرسوزي «يرى الجاهلية مَثله الأعلى، يسميها المرحلة العربية الذهبية. . . بل ذهب إلى أبعد فتبنى ما كان جاهلياً في الإسلام فقط»**. انظر كتابه (البعث)، ص٢٨.

ذكرناه بالقول: إن ما حدث كان فيما نقدر رد فعل موقوتاً ـ أياً كـان أمده ـ وإن الإلحاد والعلمانيـة والقوميـة الجاهلية والاشـتراكية الماركسية. . ليست أكثر من مرحلة عابرة أو مرحلة من المراحل، وإن الدائرة الحضارية لكافة الطوائف المذهبية والدينية والعرقية لن تكون سوى الدائرة العربية الإسلامية في نهاية المطاف. وأعتقد أن جمهور الطائفة العلوية ـ على سبيل المثال ـ كان على وعي بهذا الذي نقول، حين رفض الشغب الذي قام به فريق من أبناء الطائفة عام ١٩٣٦م ضد الانضمام إلى الدولة السورية. وحين فهموا الخصوصيّة الطائفية أو المذهبية على أنها تنوع ضمن وحدة الإسلام الجامعة؛ فقد جاء في مذكرتهم التي قدموها إلى وزارة الخارجية الفرنسية ـ والتي أشرنا إليها في صفحات سابقة ـ قولهم:

«إن العلويين شـيعة مسلمون، وقد برهنوا طوال تـاريخهم على امتناعهم عن قبول كل دعوة من شأنها تحريف عقيدتهم، فهم يحتفظون بشـدة بالعقيدة الشـيعية الإسـلامية. . . إن القرآن الشـريف هو كتاب العلويين سواء كانوا طلاب وحدة أم طلاب انفصال، ومن كان القرآن الكريم كتابه فهو مسلم، أحب أم كره، إلا أن يرتد عن الإسلام. وإن إخواننا الانفصاليين يضعون أنفسهم بين أمرين لا ثالث لهما؛ فإما أن يعترفـوا بأن القرآن هو كتابهم، وعندها لا يمكن لهم إلا أن يكونـوا مسلمين علويين، وإما أن ينكروا القرآن الشريف؛ وعندها لا يمكن لهم أن يكونوا مسلمين علويين، ولا أن ينتسبوا لأي فرقة من فرق الإسلام»[1].

أما هذه الأحزاب فهي:

١ ـ **الحزب الشـيوعي**: لا يوجد حزب ترجع بداياته الأولى إلى ما قبل المرحلة التي نتحدث عنها سوى الحزب الشيوعي الذي اعتمد في الأصل، وعلى نحو شبه كامل، على عناصر طائفية وعرقية ـ يهوديـة وأرمنية وسـواها ـ وبخاصة أن الحزب كـان يحمل في سنواته الأولى الهويـة السـورية ـ اللبنانيـة. فمنذ عـام ١٩١٩م بدأت تظهر حلقات ماركسية صغيرة، كان أهمها (البلشفيين الأرمن) الذين دعوا حلقتهم أو حزبهم باسم (عصبة سبارتكوس) بزعامة: أرتين مادويان، وهيكازون بوياجيان[2].

---

(١) المشرق العربي في مواجهة الاستعمار للدكتور ذوقان قرقوط، ص٤٠١ـ٤٠٢.

(٢) إلياس مرقص: الأحزاب الشـيوعية في البلاد العربيـة، ص١٥؛ وعبد الجبار حسـن الجبوري: الأحزاب السياسية في القطر السوري، ص١٧٩.

وفي (٢٨ تشرين الأول ـ أكتوبر) عام ١٩٢٤ أسس في لبنان حزب شيوعي باسم (حزب الشعب اللبناني) وكان من أبرز مؤسسيه: يوسف إبراهيم يزبك، وفؤاد شمالي، وإلياس قشعمي، وفريد طعمة، وبوغر اليهودي. أما طلب الترخيص للحزب فقد قدم إلى الحاكم الفرنسي بتاريخ ٣٠ نيسان ـ إبريل ١٩٢٥، وجاء فيه أن الحزب قد تألف باسم حزب الشعب اللبناني، وأن مركزه (بكفيّا)، وأنه يعمل لتنظيم العمال والفلاحين في نقابات للدفاع عن حقوقهم ورفع مستواهم، ولوضع الأوقاف تحت إشراف الحكومة، وأنه يعمل على تحرير المرأة[١].

ثم جرت اتصالات بين الحزب والبلشفيين الأرمن انتهت إلى حل الحزبين، وتأسيس: (الحزب الشيوعي السوري اللبناني) الذي عقد مؤتمره الأول في أيلول ـ سبتمبر من العام المذكور (١٩٢٥) وألف لجنة مركزية، وانتخب آغوب بيتر سكرتيراً عاماً للحزب باسم (الرفيق شامي) وهو يهودي روسي قدم من فلسطين إلى بيروت!![٢]

وتمكن الحزب بعد هذا التاريخ من تأسيس أول حلقة شيوعية في دمشق على يد الرفيق شاتيلا، قبل أن ينضم إليه في عقد الثلاثينيات بعض العناصر الشابة، منهم خالد بكداش[٣] وفوزي الزعيم (من الأكراد السنّة) ورشاد عيسى. بينما انضم إليه في لبنان: رفيق رضا وفرج الله الحلو، ونقولا شاوي وفؤاد قازان. وفي عام ١٩٣٧ اختفى القادة اليهود الثلاثة الذين كانوا يشرفون على الحزب، وهم بيتر وأبو زيام وبوغر[٤]. وتمكن خالد بكداش ـ من مواليد دمشق ١٩١٢ ـ في هذا العام من أن يصبح السكرتير العام للحزب. وهو المنصب الذي احتفظ به حتى عام ١٩٦٩. ويقول بعض الباحثين في تاريخ الأحزاب الشيوعية في البلاد العربية: إن خالد بكداش «تولى زعامة الحركة الشيوعية في سورية ولبنان في

---

(١) الجبوري، ص١٧٧ـ ١٧٨.
(٢) المصدر السابق، ص١٧٩.
(٣) يقول خالد بكداش: إن عدد الشيوعيين في الشام ـ حين انخرط هو في الحزب عام ١٩٣١ ـ كان خمسة أشخاص. كتاب: خالد بكداش يتحدث: إعداد عماد ندّاف، ص٢٣.
(٤) مرقص، ص١٥؛ والجبوري، ص١٨٠.

ظروف غامضة»[1]. علماً بأنه قد تم فصل الحزب إلى حزبين سوري ولبناني في المؤتمر الثاني الذي عقده الحزب في بيروت في ٣١ كانون الأول (ديسمبر) و٢٢كانون الثاني (يناير) عام ١٩٤٤، حيث انتخب خالد بكداش رئيساً للحزب الشيوعي السوري، وفرج الله الحلو رئيساً للحزب الشيوعي اللبناني.

وبعد جلاء فرنسة عن سورية ولبنان تحوّلت تبعية الحزبين من الحزب الشيوعي الفرنسي[2] إلى الاتحاد السوفييتي مباشرة عن طريق سفارته في بيروت، كما يقول بعض الباحثين الذين عاشوا تجربة الحزب في سورية[3]. ولهذا فقد تبنى الحزب قرار تقسيم فلسطين الذي أيده الاتحاد السوفييتي، كما وقف خالد بكداش موقفاً سلبياً من الوحدة بين سورية ومصر عام ١٩٥٨، حيث امتنع عن حضور جلسة المجلسين النيابيين: السوري والمصري، والتي أعلن فيها قيام الوحدة[4]. أما موضوع فلسطين فقد حددت إحدى نشرات الحزب ما أسمته (الموقف النظري أمام القضية الفلسطينية) قال السيد سعدون حمادي: «ومن المهمات الرئيسية الموضوعة أمام الحزب كما قررت اللجنة المركزية: إيضاح مسألة فلسطين من الوجهة المبدئية.. فإذا كان اليهود في العالم لا يؤلفون قومية؛ فإن اليهود الذين تركزوا في فلسطين أخذوا يؤلفون أمة في طريق التكوين؛ فلهم مثل ما لجميع الأمم والقوميات حق تقرير مصيرهم، بصرف النظر عن الاتجاهات الرجعية الممالئة للاستعمار الأمريكي التي تتميز بها البرجوازية اليهودية الصهيونية»[5]!!!

وقد أشار الأستاذ السباعي إلى مناوئة الحزب الشيوعي للحكم الوطني، في وقت مبكر، في مقالة كتبها من مدينة (حمص) بعد تأليف الوزارة السورية الوطنية برئاسة السيد جميل مردم، في أعقاب المعاهدة السورية الفرنسية عام ١٩٣٦، وبعد انتخاب مجلس نيابي، وانتخاب السيد هاشم الأتاسي (رئيس

---

(١) الجبوري، ص١٨٠.
(٢) مرقص: المصدر السابق؛ والصراع على سورية لباتريك سيل، ص٢١٤.
(٣) قدري قلعجي: تجربة عربي في الحزب الشيوعي، ص١٠١؛ وانظر الجبوري، ص١٨٦.
(٤) الجبوري، ص١٨٨. قلت: وهذا ما حمل الرئيس جمال عبد الناصر على مهاجمة الشيوعيين وخالد بكداش صراحةً في بعض خطبه التي ألقاها في دمشق أيام الوحدة.
(٥) نقلاً عن كتاب حمادي: نحن والشيوعية، ص٨٧؛ راجع كتاب الجبوري، ص١٨٧.

الكتلة الوطنية ورئيس الوفد السوري) رئيساً للجمهورية. قال رحمه الله:

«على إثر تخفيض قيمة الفرنك للمرة الثانية اضطربت المعاملات التجارية وارتفعت أسعار الحاجيات مما جعل الناس يشعرون بشدة الأزمة المالية أكثر من قبل. وفي ذات يوم شاهد الناس في (حمص) عدداً من النسوة لا يتجاوزن الثلاثين يحملن على أيديهن أولادهن، وعلى أكتافهن ثياباً رثّة وهنّ يندبن ويصرخن: (نريد خبزاً، نريد قوتاً) ثم شاهد النـاس أطفالاً لا يتجاوز أكبرهم العاشـرة يهجمون على بـائعي الخبز والمطاعم وهم ينادون: (نحن جياع، نريد أن نأكل) ثم أخذوا يرشقون المحلات التجارية بالأحجار لإرغامها على الإضراب. وسرعان ما انتشر الخبر في البلدة وأشاع المغرضون أن الفقراء قد هجموا على مستودعات الدقيق والحنطة، فاضطربت الأفكار وأقفل الناس متاجرهم، وتجمهر فريق من الصبية والنساء والغوغاء أمام دار الحكومة، وإذا بمعتمد الحزب الشيوعي في البلدة يخطب فيهم، متظاهراً بالعطف على الجياع، محرّضاً على الإضراب، مهدداً للحكومة. ولولا حكمة مدير البوليس والدرك لسالت الدماء. ثم هدأت العاصفة وأخذت الحكومة في التحقيق حيث تبين أن المسألة من أولها إلى آخرها مدبّرة من قبل أشخاص يناوئون الحكم الوطني، بالاتفاق مع الحزب الشيوعي وبعض الأحزاب الضئيلة»[1].

---

(١) مجلة الفتح، العدد ٥٦٦، بتاريخ ٤رجب ١٣٥٦هـ (٩/ ٩/ ١٩٣٧)، ص٧. والطريف بمناسبة ما نقلناه عن موقف الأستاذ السباعي من قضية لواء اسكندرون ـ أن الحزب الشيوعي دافع في هذه القضية عن فرنسة، وقال: «إن فرنسة ليست هي التي خيّبت آمال اللواء وآمال العرب. . وليست هي التي تراجعت أمام الاستعمار التركي وتخلّت عن تعهداتها الدولية، ورضيت بدوس قرارات عصبة الأمم نفسها. . كلا! لم تفعل فرنسة ذلك، بل فعل ذلك بعض الدبلوماسيين الفرنسيين»!! الصراع على سورية لباتريك سيل، ص٢١٥؛ والجبوري، ص١٨٢ ـ ١٨٣. قلت: وربما كان الشيوعيون في سورية أول من أطلق كلمة (الاستعمار) على الحكم العثماني الطويل لمعظم البلاد العربية؛ فبرهنوا بذلك على شعوبيتهم الشديدة وغير المسبوقة في العصر الحديث، لأن هذا الوصف ينطوي على اتهام العرب بأنهم أمة لا تستحق الحياة! لأنهم رضوا بأن يُستعمروا خمسة قرون! ويبدو أن الذي حمل الشيوعيين على الوصف المذكور للحكم العثماني كراهيتهم للإسلام، ولكن تبين من هذا الزعم أن كراهيتهم للعروبة لا تقل عن كراهيتهم للإسلام! وقد كان عليهم أن يتذكروا ـ فقط ـ المقاومة والثورات العديدة التي قامت في وجه (الاستعمار) الفرنسي لسورية الذي لم يكمل ستاً وعشرين سنة!

هذا، وقد انتخب خالد بكداش عضواً في البرلمان السوري عن مدينة دمشق في انتخابات عامي ١٩٤٩ و ١٩٥٤ تحت لافتة نصرة العمال والفلاحين! ومستفيداً من عصبية الأقليّة الكردية التي تتمتع بأصوات انتخابية مؤثرة، وفي ضوء بعض الاعتبارات السياسية المحلية والدولية[١].

٢ ـ الحزب السوري القومي الاجتماعي:

أسسه السيد أنطون سعادة (١٩٠٤ ـ ١٩٤٩) مع مجموعة منهم جورج عبد المسيح وفخري المعلوف ووديع تلمون في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٣٢. وبقي الحزب يعمل بصورة سرية حتى عام ١٩٣٥ وشمل نشاطه سورية ولبنان. وكان من شخصياته البارزة السيد عصام المحايري الذي انتخب نائباً عن مدينة دمشق في الجمعية التأسيسية عام ١٩٤٩. والذي رأس معظم الصحف التي أصدرها الحزب والتي وصفت جميعها بالجديد! (الجيل الجديد ـ النظام الجديد ـ حضارة الجيل الجديد ـ البناء الجديد).

ويؤمن الحزب بفكرة الأمة السورية، ورفع شعار (سورية للسوريين، والسوريون أمة تامة)، وشعار (الأمة السورية هيئة اجتماعية واحدة) وعرّف الوطن السوري بأنه (البيئة الطبيعية التي نشأت فيها الأمة السورية، وهي ذات حدود طبيعية جغرافية تميزها عن سواها). ويخلط سعادة في تعريفاته بين الوطن ـ أو الجغرافية ـ والأمة أو الشعب! نتيجة لإيمانه بوجود (ارتباط عضوي) بين الأمة وحدودها الجغرافية (الوطنية)! وحدود سورية ممتدة من سلسلة جبال طوروس في الشمال الغربي، وجبال زاغروس في الشمال الشرقي، إلى قناة السويس والبحر الأحمر في الجنوب ـ وتشمل شبه جزيرة سيناء وخليج العقبة ـ ومن البحر السوري (الأبيض المتوسط) في الغرب بما فيها جزيرة قبرص، إلى قوس الصحراء العربية والخليج (الفارسي) في الشرق. وتدعى هذه المنطقة أيضاً الهلال السوري الخصيب، على أن تكون جزيرة قبرص نجمته!.

أما (الوحدة العضوية) للمجتمع السوري فلا تستند على العرق أو الدم، فضلاً عن عدم استنادها على العروبة والإسلام! ولكنها تستند إلى التاريخ بدءاً بشعوب العصر الحجري! مروراً بالأكاديين والكنعانيين والكلدانيين والأشوريين

---

(١) راجع كتاب الصراع على سورية لباتريك سيل، ص٢١٤ و٢٤٤؛ والجبوري، ص١٨٨.

والآراميين والعموريين والحثيين[١].

قلت: ما عدا العرب والمسلمين! بل إن أنطون سعادة يشير في كتابه (نشوء الأمم) إلى أن المسيحية الشرقية - وينتمي هو إلى طائفة اليونان الأرثوذكس - هي هوية الأمة السورية التي لم تحسن الدفاع عن نفسها أمام غزو (الجزيريين) أي العرب المسلمين الفاتحين. وربما كانت الرسالة الحقيقية للحزب إعادة هذه الأمة إلى تلك الهوية، أو إعادة هذه الهوية لها مرة أخرى!.

يقول الأستاذ حازم صاغية في بحث بعنوان: (الحداثة والأصالة في مختبر محدد: أنطون سعادة نموذجاً) وفي سياق حديثه عن (الديانة القومية التي شاء سعادة إطلاقها بحيث ينطوي فيها «دينا الأمة السورية» الأساسيان - المسيحية والإسلام -) يقول:

والقليل من التدقيق في نظرة سعادة إلى كل من الدينين، كاف لبيان مدى تشاؤفه على الإسلام، وللإفصاح عن درجة تمثل المسيحية في هذه (الديانة) الجديدة، حتى ليجوز القول: **إن علمنته وتحديثه أقرب إلى مداورةٍ أيديولوجية لاستبعاد الإسلام وتمكين المسيحية**».

ويضيف: «والحق أن المسيحية المضمرة في دعوته لا تتجسد فقط في العلمنة الراديكالية، بل تتجسد خصوصاً في الرغبة بإرجاع سورية الطبيعية إلى ما كانت عليه قبل الفتح الإسلامي - حينما كانت مسيحية الشرق هي هي المسيحية».
ثم تحدث الأستاذ صاغية عن تحسّر سعادة على هزيمة (سورية) أمام العرب في اليرموك... إلخ[٢].

قلت: وربما كان الحزب غير مسبوق في هذا، خارج نطاق الاستشراق والتبشير، كما أنه غير مسبوق فيما يبدو في صيغة (القَسَم) الذي يجب أن يؤديه أعضاء الحزب، لأن هذا القسم ليس بالله تعالى، ولكن بشرف العضو وحقيقته

---

(١) راجع كتاب: الصراع على سورية لباتريك سيل، ص٩٤.
(٢) انظر ص٧٧ من البحث المشار إليه، والمنشور في مجلة (أبواب) ص٤٥ - ٩٩، العدد ١٤، خريف ١٩٩٧، بيروت. وارجع إلى كتاب أنطون سعادة: الإسلام في رسالتيه المسيحية والمحمدية. منشورات الحزب السوري القومي الاجتماعي، بيروت، ط٤، ١٩٧٧، وكتابه: (نشوء الأمم) الذي يعد عمدة الثقافة في الحزب المذكور.

ومعتقده!!: (أنا.. أقسم بشرفي وحقيقتي ومعتقدي على أنني أنتمي إلى الحزب السوري القومي بكل إخلاص وكل عزيمة صادقة. وأن أتخذ مبادئه القومية إيماناً لي ولعائلتي وشعاراً لبيتي. وأن أحتفظ بأسراره...»إلخ. وهو قسم طويل[1].

أما شعار الحزب فكان الحرية والواجب والنظام والقوة، التي ترمز إليها أربع أطراف الزوبعة الحمراء الممثلة في علم الحزب القريب من العلم الهتلري. وللحزب لباس رصاصي ونجمة خاصة، وشارة معينة (الزوبعة). ويمكن عد الحزب بنظامه وتكوينه صدى للنازية والفاشية اللتين بدأتا صعوداً في ألمانية وإيطالية في الثلاثينيات[2]، حتى إن بعض المجلات نعتته بالحزب النازي السوري[3].

٣ ـ عصبة العمل القومي:

أسست عام ١٩٣٢م في سورية ولبنان، من الشباب المثقف الذين انشقوا عن الكتلة الوطنية، وكان السيد صبري العسلي[4] أمينها العام، ومن أبرز شخصياتها السيد زكي الأرسوزي الذي أشرف على الجريدة التي أصدرها الحزب أو العصبة (باسم جريدة العمل القومي) في مدينة حلب عام ١٩٣٨م. وأخذت ـ أي العصبة ـ على عاتقها مقاومة كل من يناوئ القومية العربية، وعدّت نفسها وريثة الثورة العربية وحركات الاستقلال. وفي عام ١٩٣٦م خرج

---

(١) انظر مجلة (الفتح) العدد ٤٧٥، العام العاشر، ص٦٠٦، تاريخ ١٦رمضان ١٣٥٤هـ (١٢/١٢/١٩٣٥).

(٢) الأحزاب والجمعيات السياسية في القطر السوري لعبد الجبار الجبوري، ص١٧٢.

(٣) العدد المشار إليه من مجلة (الفتح) وعنوان المقالة: النازي السوري أكبر هزيمة للاستعمار الفرنسي في الشرق!!

(٤) كان أمينها العام الأول: الأستاذ عبد الرزاق الدندشي، الذي كان دكتوراً في الحقوق، وأحد خطباء سورية المعدودين، ولما مات خلفه السيد صبري العسلي. ويذكر الدكتور الجندي أن موت الدندشي أصاب العصبة بعطب كبير، قبل أن يفصل أمينها الثاني، لأنه قبل بدخول المجلس النيابي. ويقول: إن العصبة تلقت أقسى ضرباتها بانسحاب الأرسوزي عام ١٩٣٩. راجع (البعث) للجندي، ص٢٠. وانظر وفاة الدكتور الدندشي، مجلة (الفتح) القاهرية، العدد ٤٥٧ (العام العاشر)، ص١٦٥، تاريخ ٩جمادى الأولى ١٣٥٤هـ(٩/٨/١٩٣٥م).

منها السيد العسلي وانضم إلى الكتلة الوطنية. وقد أدّى فشل هذه العصبة إلى حلها في نهاية هذا العقد. يقول سامي الجندي: «ثم جاء فشل عصبة العمل الذي تلاه حلّها ليجعل المؤمنين بالقومية العربية ينشطون لتأليف حزب جديد»[1].

٤ ـ الحزب العربي الاشتراكي:

انتسب السيد أكرم الحوراني (١٩١١ ـ ١٩٩٦) إلى الحزب السوري القومي عام ١٩٣٦ وانهمك مع قريبه عثمان الحوراني في تأسيس حزب أو حركة الشباب الحموي في نفس العام (١٩٣٦م)[2] وبقي الارتباط قائماً بين الحركة والحزب حتى عام ١٩٤٨م تقريباً، حيث تم فصل أكرم من الحزب السوري القومي. ويبدو أن (الشباب الحموي) لم يكن أكثر من فصيل محلّي في إطار القوميين السوريين، قاده السيد أكرم الحوراني على نطاق سياسي خاص بمدينة حماة. قبل أن يقوم بتحويله رسمياً إلى حزب في ٥/ ١/ ١٩٥٠ عندما أقام الحوراني مهرجاناً (فلاحياً) كبيراً في مدينة حلب، وسمّى هذا الحزب الذي عد التاريخ المذكور تاريخ تأسيسه بـ (الحزب العربي الاشتراكي)، ثم دمج هذا الحزب مع (حزب البعث العربي) في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٥٢م تحت اسم: حزب البعث العربي الاشتراكي. أما (البعث العربي) ـ بدوره ـ فقد مرّ قبل هذا الدمج بعدة مراحل.

ونشير هنا قبل الحديث عن هذه المراحل إلى أن السيد أكرم الحوارني ـ الذي حقق المكاسب السياسية للحزب الجديد ـ انتخب نائباً في المجلس النيابي عام ١٩٤٣م في أول انتخابات برلمانية تجري في سورية بعد الاستقلال

---

(١) جريدة الحياة العدد (١٢٣٤٦)، تاريخ ١٤/ ١٢/ ١٩٩٦م، ص١٩.

(٢) راجع كتاب: أكرم الحوراني: دراسة حول السياسة السورية ما بين عامي ٤٣ ـ ١٩٥٥م تأليف جوناثان أوين، ص٤٤ فما بعدها. ويقول باتريك سيل: إن أكرم الحوراني تسلم في عام ١٩٣٩ زعامة حركة الشباب التي كان ابن عم له قد أسسها قبل نحو عامين. وقال إن الحوراني «قوّى هذه الحركة حين ربطها سراً بالتشكيل شبه العسكري المتين التنظيم، والمدعو بالحزب السوري القومي». الصراع على سورية، ص٦١. ويقول الأستاذ سامي الجندي: «إن حزب الشباب تأسس عام ١٩٣٨ بقيادة عثمان الحوراني.. وأن أكرم الحوراني انتسب عام ١٩٣٦ إلى الحزب القومي وانسحب منه سنة ١٩٣٨ لينضم إلى حزب الشباب...» البعث، ص٦٢.

ـ الصوري ـ الذي أعلنته فرنسة في ٢٧ أيلول (سبتمبر) عام ١٩٤١م. واحتفظ بمقعده في هذا المجلس في جميع العهود البرلمانية السورية.

ونشير أيضاً إلى أنه استطاع أن يؤلف أو يواءم بين هذين النوعين من الأحزاب أو استطاع أن يقف خارجهما إن صح التعبير؛ لأنه لم يكن صاحب مذهب اجتماعي أو عقيدة فلسفية خاصة أو مناوئة[1]! على الرغم من (اشتراكيته) المعلنة، لأن هذه الاشتراكية يمكن تفسيرها أو فهمها على أنها محاولة لتحقيق العدل الاجتماعي كما تراءى للسيد الحوراني، وذلك عن طريق تحطيم احتكارات الأملاك ـ والسلطة ـ التي كانت تسيطر عليها حفنة من العائلات، وفي ريف مدينة حماه على وجه الخصوص. وعلى أية حال فإن الحوراني لم يخلف وراءه مثل تلك العقيدة أو الفلسفة. وإذا أخذنا بعين الاعتبار علاقته الوطيدة بريف حماه ـ فقد كان يصوّت له في الانتخابات على نحو واسع ـ أمكننا القول إنه جمع كذلك بين الانتمائين المديني والريفي في وقت واحد، وأنه لم يخضع لذلك لمقتضيات مربّع معيّن من هذه المربعات. وقد ساعده على ذلك: تقلّبه وإتقانه فن المراوغة! حتى كأنه صاحب عقيدة سياسية أو لعبة سياسية إن صح التعبير. وربما فسّر هذا وقوفه وراء جميع الانقلابات العسكرية التي شهدتها البلاد (١٩٤٩ ـ ١٩٥٤) أو تعاونه معها ومساندته لها على أقل تقدير، في الوقت الذي كان عضواً في البرلمان!!

٥ ـ الإحياء العربي ـ البعث العربي:

ولد السيد ميشيل عفلق عام ١٩١٠م وحصل على منحة لدراسة التاريخ في فرنسة (جامعة السوربون) عام ١٩٢٨م، ومارس مع السيد صلاح الدين البيطار ـ وكلاهما من أبناء مدينة دمشق ـ نشاطاً فكرياً تحت اسم (حركة الإحياء العربي) وكان ذلك في عام ١٩٤١م[2]. وفي عام ١٩٤٢ استقال ميشيل عفلق وصلاح

---

(١) يقول باتريك سيل: إن من المشكوك فيه أن يكون الحوراني، وهو رجل عمل لا فكر، قد اعتنق تماماً النظرية السورية القومية التي بشّر بها أنطون سعاده. راجع الصراع على سورية، ص٦١.

(٢) راجع كتاب الأحزاب والجمعيات السياسية في القطر السوري من أواخر القرن التاسع عشر إلى سنة ١٩٥٨م تأليف عبد الجبار حسن الجبوري، ص٢٠٦.

البيطار من مدرسة التجهيز بدمشق، وتفرغا للعمل الحزبي[1].

أما حركة (البعث العربي) فقد أسسها في دمشق عام ١٩٤٠م السيد زكي الأرسوزي أحد أبناء لواء اسكندرون بعد أن تم سلخ اللواء عن سورية ولجوء الأرسوزي إلى دمشق[2].

وتذكر بعض المصادر أن عفلق والبيطار استقرا على اسم (البعث العربي) عام ١٩٤٣، وأن الحزب أصدر في ٢٤ تموز (يوليو) البيان الأول لحركة البعث العربي بمناسبة الانتخابات التي عقدت في العام المذكور، وتقدم لها عفلق وأخفق.

كما يذكر الأستاذ سامي الجندي أن هذا الاسم كان مستخدماً منذ البدء ـ من عام ١٩٤١ ـ مع اسم (الإحياء) في الحركة القومية التي أسسها كل من ميشيل عفلق وصلاح البيطار. وأن زكي الأرسوزي حين اطلع على بيانٍ مطبوع على الحجر سنة ١٩٤١ وكان يحمل توقيع البعث العربي، قال: «بدأت دسائس الاستعمار. إنه يقطع علينا الطريق إلى الشعب بحركة تحمل اسمنا نفسه»[3].

ويذكر الشاعر سليمان العيسى أحد أبناء اللواء أيضاً ـ والذي تتلمذ في دمشق على كل من ميشيل عفلق وصلاح البيطار ـ أنه شارك السيد الأرسوزي في تأسيس (البعث العربي) قبل أن يتساءل شباب الحركتين لماذا لا تضم الحركتان معاً في حركة واحدة أو حزب واحد، وقد تم ذلك على الرغم من الحساسية التي أبداها الأرسوزي نحو العمل مع ميشيل عفلق وصلاح البيطار، يقول سليمان العيسى: «وقد استطعنا إقناع ميشيل عفلق وزكي الأرسوزي لاستلام كل شيء، وعندما اجتمعنا غضب الأرسوزي وتركنا، ولم يعمل بعدها في أي عمل حزبي.

---

(١) المصدر السابق. ويذكر الدكتور سامي الجندي أن «البعث هو وارث عصبة العمل القومي إلى حد بعيد» وأن هذه العصبة استطاعت خلال عمرها القصير الذي امتد بين ١٩٣٢ و١٩٤٠ أن تجمع شمل أكثر الشباب القومي العربي في سورية، وأنها حظيت عند قيامها بتأييد الكتلة الوطنية. وأن زكي الأرسوزي عمل فيها خلال الفترة الممتدة بين ١٩٣٣ ـ ١٩٣٩ حيث منحها الكثير من القوة خلال هذه الفترة قبل أن ينسحب منها في العام المذكور. قال: وفي بداية الحرب أوقفت نشاطها. راجع كتاب البعث، ص٢٠.

(٢) انظر كتاب (البعث) للدكتور سامي الجندي، ص٢٦.

(٣) انظر الجبوري، ص٢٠٧؛ و(البعث) للدكتور الجندي، ص٣٠ ـ ٣١.

أما نحن فقد أكملنا الطريق واستلم ميشيل عفلق الحزب باسم حزب البعث العربي سنة ١٩٤٧م»[١]، وانعقد المؤتمر التأسيسي لحزب البعث العربي من ٤ ـ ٦ نيسان (إبريل) ١٩٤٧م بدمشق. ثم تم دمجه مع حزب أكرم الحوراني ـ كما أشرنا ـ في سنة ١٩٥٢م إبّان حكم العقيد أديب الشيشكلي[٢]، ولم يمنح الترخيص إلا بعد زوال الحكم العسكري للعقيد عام ١٩٥٤م في انقلاب أبيض لم يكن بعيداً عن السيد أكرم الحوراني.

تعقيب حول الكتلة الوطنية وسائر الأحزاب:

في مقالة للأستاذ مصطفى السباعي مؤرخة في مدينة حمص ـ في زيارة لها أيام دراسته في مصر ـ في الرابع من شهر رجب ١٣٥٦ (٩ / ٩/ ١٩٣٧م) ومنشورة في مجلة (الفتح) القاهرية[٣] يقول: «إن أكثرية البلاد (كتلوية) تؤيد الحكومة القائمة ـ أي حكومة الكتلة الوطنية ـ وهناك حزب (عصبة العمل القومي) تأسس منذ سنين وأنصاره في حمص وأنطاكية أكثر منهم في دمشق، ولا وجود له في حلب وحماه وبقية البلدان. وهناك أحزاب ضئيلة يؤلفها نفر من الرجعيين الذين كانوا السبب الأكبر في نكبة البلاد في حريتها واستقلالها وثرواتها»[٤].

---

(١) انظر الحوار الذي أجرته معه جريدة الخليج ـ الإماراتية ـ في ملحقها: الخليج الثقافي، ص٢ العدد (٧٠٦٤) في ٢١/ ٩/ ١٩٩٨م.

(٢) يقول أكرم الحوراني: «فحزب البعث لم يسجل أهمية وانتشاراً إلا بعد اندماجه بالحزب العربي الاشتراكي، ولولا قبولي ـ وهذا خطأ سياسي يضاف إلى خطأ الاندماج ـ بأن يكون ميشيل عفلق أميناً للسر في الحزب الجديد، تقديراً لظروف القمع والحكم العسكري خلال عهد أديب الشيشكلي الذي تم فيه الاندماج، لما أمكن لعفلق أن يبقى في أمانة الحزب لو تم في ظروف مغايرة. ولا سيما أن الحزبيّين من الطرفين كانوا لا يزالون يذكرون الوثيقة المكتوبة التي قدمها عفلق إلى حسني الزعيم بعد فترة قليلة من سجنه، والتي يتخلى فيها عن الحزب ومبادئه وعن العمل السياسي». مذكرات أكرم الحوراني الحلقة ١١١ جريدة القدس العربي العدد (٣١٥٤) في ٢٩ حزيران ١٩٩٩م.

(٣) العدد (٥٦٦) في ٤ رجب ١٣٥٦هـ (٩/ ٩/ ١٩٣٧م).

(٤) يشير فيما يبدو إلى بعض الأحزاب التي توصف بالمعتدلة! والتي كانت تدعو إلى التفاهم مع فرنسة، وربما إلى بقائها في سورية، بوصفها أكبر دولة عسكرية ـ بريّة ـ في العالم، وليس في وسع السوريين مقاومتها. ولكن هذه الأحزاب لم يكتب لها الحياة، لأنها لم تصادف أي شعبية تذكر، وبقي زعماؤها أمثال حقي العظم والشيخ تاج الدين الحسني=

ويمكن أن يضاف إلى هذه الأحزاب أو يلحق بها: (حركة اليقظة العربية) وهي حركة هامشية أسست في النصف الثاني من الثلاثينيات، وقد تقدمت بـ(نداء للشعب) انتقدت فيه أعمال الكتلة الوطنية انتقاداً حاداً، واتهمتها بأنها (قتلت الروح الوطنية وخدّرت الأعصاب والمشاعر) وأنها ارتكزت في سلطتها على (الأوباش والرعاع). وقد صبّت جام غضبها بوجه خاص على كل من السيد جميل مردم والسيد سعد الله الجابري، واتهمتهما بارتكاب الخيانة العظمى[1]!.

أُقر القانون الأساسي للكتلة الوطنية ـ كما أشرنا ـ في مدينة حمص في ٤ تشرين الثاني (أكتوبر) عام ١٩٣٢م، وتصدّرت الأسماء السبعة التالية مجلسها الذي ضم نحواً من أربعين شخصية: (هاشم الأتاسي، إبراهيم هنانو، سعد الله الجابري، عبد الرحمن الكيالي، لطفي الحفار، شكري القوتلي، نسيب البكري).

هاشم الأتاسي ومصطفى السباعي:

وكان أبرز شخصيات الكتلة وأبرز شخصية سياسية في البلاد لمدة تزيد على خمسة وثلاثين عاماً السيد هاشم الأتاسي رحمه الله (١٨٦٩ ـ ١٩٦٠) وذلك من عام ١٩٢٠م حين انتخب رئيساً للمؤتمر السوري الأول، وحين ألّف الوزارة السورية ـ الأولى ـ التي حاربت دخول فرنسة إلى سورية، وحتى عام ١٩٥٥م حين أخلى مقعد رئاسة الجمهورية السورية للسيد شكري القوتلي[2].

وبقي الأستاذ السباعي يشيد به وبمواقفه الوطنية حتى تاريخ وفاته عام ١٩٦٠م حين تحدث عن مآثره في الكلمة التي رثاه بها على صفحات مجلّته: (حضارة الإسلام). وكان قد أشار إلى زيارة ـ مبكرة ـ له في خريف عام ١٩٣٨م في كلمة ألقاها في القاهرة عام ١٣٦٠هـ في حفل التأبين الذي أقيم للدكتور

= لا تدعمهم أية قاعدة شعبية. راجع كتاب: النكبات والمغامرات للصحفي السيد بشير فنصة، ص٦١.

(١) المشرق العربي في مواجهة الاستعمار، ص٤٥٣ ـ ٤٥٥. ولم نقف على أسماء مؤسسي هذه الحركة!. وانظر كذلك: الأحزاب والجمعيات السياسية في القطر السوري لعبد الجبار حسن الجبوري، ص١٦٥.

(٢) كان ذلك في ١٨ المحرم عام ١٣٧٥هـ و٥ أيلول (سبتمبر) ١٩٥٥م.

عبد الحميد سعيد رئيس جمعية الشبان المسلمين في مصر، فقال: «حتى إنني لأذكر أنني زرت منذ ثلاثة أعوام فخامة الرئيس الجليل هاشم بك الأتاسي زعيم الكتلة الوطنية ورئيس الجمهورية المستقيل، وجرَّنا الحديث إلى مصر وأهلها، فإذا بالرئيس الجليل يفيض قلبه إعجاباً بنهضة مصر، ويثني الثناء المستطاب على المركز العام لجمعيات الشبان المسلمين، ويقدر في الرئيس الفقيد صفات البطولة والإخلاص والرجولة التي كانت تملأ جوانب نفسه الكريمة»[١].

أما كلمته المشار إليها في مجلة (حضارة الإسلام) فقد صدّرها الأستاذ السباعي بقوله:

«انطفأت شعلة من شعل الجهاد العنيد النبيل الذي أضاء للعرب عامة ولأبناء الإقليم السوري خاصة طريقهم إلى الحرية قرابة سبعين عاماً منذ تولى العمل الحكومي بعد تخرجه من حقوق إستانبول عام ١٨٩٤م إلى أن لقي ربه في الشهر الأخير من عام ١٩٦٠م.

«تاريخ أمّة، وأمجاد شعب، وعنوان كفاح، ورمز استقامة، ومثل نزاهة.. ذلك هو الفقيد العظيم: هاشم الأتاسي.

«قاد هاشم الأتاسي معركة الكفاح ضد الاستعمار الفرنسي في سورية مع عدد من إخوانه.. في وقت كان فيه الاستعمار يرمي بأثقاله على البلاد، والأمة تغلي غليان المحموم من وطأة الطغاة المستعمرين وأذنابهم، فوجدت فيه القائد الأمين، والربّان الماهر، والزعامة الحكيمة التي لا تضطرب عند اصطراع الأهواء، ولا تجبن عند اشتداد الأنواء، وسلّمت له برئاسة الجمعية التأسيسية عام ١٩٢٨م ثم برئاسة الجمهورية عام ١٩٣٦م، فاشتد إيمانها بقيادته وزعامته للقضية الوطنية وللحكم الوطني، من حيث تزعزعت ثقتها في كثيرين ممن كانوا يتعاونون معه في الكفاح السلبي، ثم في دور البناء الإيجابي. وما كاد يغادر منصّة رئاسة الجمهورية

---

(١) مجلة الفتح العدد (٧٥٣)، تاريخ ٢٧ ربيع الأول ١٣٦٠هـ (٢٤/ ٤/ ١٩٤١). وقد أقيم الحفل المذكور بتاريخ ١٤ ربيع الأول (١١/ ٤/ ١٩٤١م) وكانت وفاته بتاريخ ٣٠/ ٥/ ١٩٤٠م، وسوف نعرّف بهذه الشخصية العظيمة في صفحة لاحقة. والزيارة التي أشار إليها الأستاذ السباعي للرئيس الأتاسي كانت أثناء زيارة السباعي لبلده حين كان يدرس في مصر. وسوف يأتي الحديث عن هذه الزيارة في فصل: الداعية والدعوة. ويبدو أن السباعي هو الذي بدأ الحديث عن الشبان المسلمين في مصر، وعن الدكتور عبد الحميد سعيد رحم الله الجميع.

طائعاً مختاراً عام ١٩٣٩م بعد ما بدا من سوء نوايا الفرنسيين وتصميمهم على جعل استقلال سورية أمراً شكلياً يخفي وراءه أبشع مطامع الاستعمار الفرنسي وأخسّها، حتى أصبح هاشم الأتاسي زعيم الأمة غير منازع، وبطل القضية الوطنية غير متهم ولا مغموز في سيرته وإخلاصه»[1]

وأضاف رحمه الله: «لقد قُدّر لي أن أعرف الفقيد العظيم، وما تنطوي عليه نفسه الكبيرة من شمم ونقاء خلال السنوات التي انقضت بين وضع الدستور السوري في الجمعية التأسيسية عام ١٩٤٩م وبين انتهاء رئاسته الثانية للجمهورية عام ١٩٥٥م، وشهد الله ما رأيت أنبل منه نفساً، ولا أصفى منه وطنية، ولا أبعد منه بصيرة، ولا أعفّ منه يداً ولساناً» رحمه الله.

ونحن نقول: لقد قُدر لمدينة حمص، واسطة العقد في بلاد الشام، أن تهب لهذه البلاد في أخطر مراحل تاريخها الحديث: رجلَ الوطنية والعروبة الرئيس هاشم الأتاسي، ورجل الوطنية والعروبة والدعوة الإسلامية الشيخ مصطفى السباعي.

* * *

---

(١) مجلة حضارة الإسلام: السنة الأولى ـ العدد السابع ـ كانون الثاني (يناير) ١٩٦١م.
قلت: وكان الرئيس الأتاسي قد انتخب من قبل المجلس النيابي السوري بتاريخ ٢١ كانون الأول (ديسمبر) عام ١٩٣٦م في أول جلسة عقدها المجلس بعد المعاهدة التي عقدت بين سورية وفرنسة في العام المذكور. وقد تقدم باستقالته من رئاسة الجمهورية في ٨ تموز (يوليو) ١٩٣٩م للأسباب التي أوجزها الأستاذ السباعي. وكان رئيس المجلس النيابي يومذاك الأستاذ فارس الخوري، ورئيس مجلس الوزراء السيد نصوح البخاري. ولم تُجد حنكة السيد رئيس المجلس النيابي ـ الذي تقدم إليه السيد نجيب الأرمنازي مدير مكتب رئيس الجمهورية بكتاب استقالة الرئيس الجليل ـ وسرعة تصرّفه وفق ما أسماه (المقتضيات الدستورية) في حمل المندوب السامي الفرنسي على عدم التدخل في شؤون السلطتين التشريعية والتنفيذية! فقد قام هذا بإيقاف العمل بالدستور، ثم قرر إدارة البلاد عن طريق (مجلس مؤلف من مديري مختلف المصالح برياسة مدير الداخلية) وقد حل هذا المجلس محل مجلس الوزراء، وعرف بمجلس المديرين! وكان لايفعل شيئاً إلا بإيعاز من المفوض الفرنسي وأعوانه.

ثانياً: المشهد الثقافي

نعرض لهذا المشهد بالقدر الذي يمهد للوقوف على أبعاد العمل الذي نهض به مصطفى السباعي في الدعوة وميادين الإصلاح المتعددة، وغني عن البيان أن الثقافة والفكر قاعدة الإصلاح ومنطلقه في جميع الأحوال. أو كما قال السباعي نفسه رحمه الله: «لن تنهض أمة إلا بعد أن تكون متحدة في الفكر والثقافة والغاية. أما أن تكون موزعة الأهواء، مختلفة في الغاية التي تسعى إليها فستبقى أبد الآبدين محطَّ أنظار الطامعين والجائعين!».

لقد كتب السباعي هذا في شهر شعبان من عام ١٣٥٦هـ ١٩٣٧م بعد أن أفزعته الحالة الثقافية التي وجد عليها الشباب في هذا الوقت العصيب من أيام الكفاح ضد المستعمر! والتي صوّرها بعد معاهدة ١٩٣٦م مع بداية العهد الوطني الجديد على النحو التالي: قال رحمه الله: «إن الفتن التي نشبت في سورية في مستهل عهدها الوطني الجديد استغرقت جهد زعمائها[1]، وحالت بينهم وبين التفكير في وقاية الشباب وتنظيم صفوفهم، فكان هذا باعثاً لنشاط الدعايات الخبيثة وانتشارها في محيط الشباب انتشاراً ينذر بأوخم النتائج! وأنت إذا اختلطت بالشباب واستمعت إليهم في مجالسهم أفزعك ما تراه من تباين أفكارهم وتضارب ميولهم وتنوع الدعايات بينهم؛ فهذا شيوعي يمجد ستالين ويدعو

---

(١) تحدث عن هذه الفتن والمشكلات في أكثر من مقالة من مقالات (الفتح) منها مقالة سابقة للمقالة المذكورة بنحو أربعين يوماً كتبها بتاريخ ٤ رجب ١٣٥٦هـ تحت عنوان (الحالة السياسية في سورية) تحدث فيها عن مشكلة (لواء الإسكندرون التي انتهت باقتطاع هذا الجزء العزيز من الوطن السوري) وعن مشكلة منصب (المحافظ) التي ثارت في جبل الدروز. ثم مشكلة العصابة التي عبثت «بالأمن في ربوع العلويين لتعكير صفو العهد الوطني الجديد، وإثبات أن العلويين غير راضين بانضمامهم إلى الدولة السورية» ـ وهم الذين انتقدهم الفريق الآخر من العلويين ووقفوا ضدهم، وقدموا في ذلك المذكرة التي نقلنا عنها في الصفحات السابقة ـ ويضيف السباعي قائلاً: «ثم ثارت فتنة قوية في (لواء الجزيرة) أثارها بعض اللاجئين من آشوريي العراق... إلخ». مجلة الفتح السنة ١٢ العدد (٥٦٦) في ٤ رجب ١٣٥٦هـ (٩/ ٩/ ١٩٣٧).

لمبادئه، وهذا فاشيستي يرفع من شأن الدوتشي ويشيد بفضائله، وهذا قومي يدعو إلى اطراح الأديان ووجوب تزوج المسلمة من غير أبناء دينها ليتم التعاون بين أبناء الملل المختلفة، وهذا إباحي يرى إطلاق الأمة من قيود الفضيلة والدين ليفعل ما يشاء من المنكرات، ويعاشر من تعجبه من الفتيات، ويدعو إلى ما يراه من المعتقدات ولو كان فيها الهدم والفساد! إلى غير هذا وذاك مما يبعث فيك العجب والدهشة، ويحملك على أن تستبعد أن يكون هؤلاء الشباب ـ مع ما هم عليه من اختلاف المشارب ـ أبناء وطن واحد وأمة واحدة ولغة واحدة! . . .» ثم قال عبارته السالفة الذكر: «هذا خطر بلا ريب، فلن تنهض الأمة إلا أن تكون متحدة في الفكر والثقافة والغاية . . .»[1].

العهد الـوطني الجديد مسـؤول إذن عن هذه الحالة من التمزق الثقافي إن صح التعبير . . ولكن السباعي يشير كذلك إلى مدى مسؤولية الأحزاب عن هذه الحالة البائسة، ويتنبه ـ في هذا الوقت ـ إلى الخطر الشيوعي، وإلى خطورة القضية الفلسطينية على الوطن العربي كله! فقد (ألقى خطبة في مكتب الكتلة الوطنية بحمص على ممثلي الأحـزاب والجمعيـات بعنوان: **من لم يكن في بـلاده حراً فخير له أن يمـوت: واجبات الأمة في عهد الاستقلال**) قال فيها:

«لقد بحثت طويلاً لأرى مبلغ ما قمنا به من واجبات هذا العهد الجديد،

---

(١) الفتح السنة ١٢، العدد (٥٧٢) تاريخ ١٦ شعبان ١٣٥٦هـ (٢١/ ١٠/ ١٩٣٧) ص١٢ من مقالة بعنوان: (إلى الجمعيات الإسلامية في سورية). وقال بعد ذلك في مقالة بعنوان (نكبة الإسلام في تعليم أبنائه): «فإذا ألقيت نظرة على المثقفين من أبنـاء المسلمين فلن ترى هنالك كتلة واحدة تشترك في ثقافـة واحدة وغاية واحدة يعتمد عليها المستقبل في إقامة بنائه كما هو شأن الأمم الأخرى، وإنما ترى مجموعة متخاذلة القوى، منحلّة العزائم، متضاربـة الميول والأهواء؛ فهذا فرنسي في ثقافته، وذاك بريطاني في تربيته، وآخر إيطالي في عقليته، وآخر شيوعي في آرائه، فليس بغريب أن ينكر الأول دينه، ويجحد الثـاني قوميتـه، ويكفر الثالث بحضارتـه، ويثور الرابع على نظم الإسلام وتقاليده» وأضاف:
«وما هذا الذي نراه من بعض المتصرّفين في شؤون الأمة من جحود للدين وتباعد عن خدمته، وعمل على إضعافه أو إماتته في نفوس أبنائه، إلا أثر من تلك الثقافات أو السخافات الأجنبية التي اختزنوها في أدمغتهم يوم كانوا طلاباً في معاهد التبشير!!».
العدد ٥٨١ من (الفتح) في ٢٠ شوال ١٣٥٦هـ (٢٣/ ١٢/ ١٩٣٧).

فرأيت ما آلمني وأحزنني حقاً! فما كدنا ننعم بلذة الاستقلال حتى بعدت الشقة بيننا وبين الله جلَّ جلاله، وقام فينا نفر من المغرورين يبثّون الدعاية للمذهب الشيوعي القائم على إنكار وجود الله ومحاربة الرسل والشرائع . . . ».

ثم خاطب ممثلي الأحزاب والجمعيات بقوله:

«أيها القوم، لم هذا الاختلاف بين أحزابكم والبلاد بلادكم جميعاً لا لحزب منكم دون آخر، والأخطار التي تهدد بلادكم تهددكم جميعاً لا فئة دون أخرى، أفيجوز في دين الله أن تؤججوا في نفوسكم نار التفرقة والبغضاء، وبلادكم تشكو ضياع ما ليّتها وفقدان جزء كبير من أراضيها، وتئن من دسائس الدخلاء والأعداء على السواء».

«أيها القوم، إننا لا نرى والله هذا الاختلاف فيما بينكم إلا انتحاراً وقتلاً للوطن وتخلياً عنه في أشد أوقاته خطراً. لا تقولوا إن هذا تهويل ومبالغة، فوالله ما مرّ على بلادكم وبلاد العرب قاطبة وقت عصيب تحفّكم فيه الأخطار كوقتكم هذا . . . » ثم استعرض الأخطار التي تتهدد سورية ومصر واليمن والجزائر وتونس وطرابلس الغرب . . ومما قاله للسوريين: «**ها هي بلاد لكم يريد ملاحدة أنقرة أن يختطفوها من وطنكم . . وها هي فلسطين الجزء السوري الجنوبي يريد المستعمرون أن يخرجوا فيه للوجود أول مملكة يهودية على ظهر الأرض ليجعلوها شوكة في جسم الوطن العربي الأكبر . . .**»[1].

بين المدارس الحديثة ومدارس الإرساليات:

نعود لرسم الخطوط العامة للمشهد الثقافي، فنذكّر بما سبقت الإشارة إليه من الإرساليات الدينية ومدارس التبشير وأثرها الذي لا ينكر في رسم هذا المشهد . . حتى إن (دالاديه) وكان أبرز المعارضين في البرلمان الفرنسي لسياسة الحكومة إزاء القضية السورية، لم يسعه إلا الإشادة بأعمال هذه الإرساليات والمدارس، فقال: «إنني لا أنكر جلال العمل الذي تم في سورية، سواء على يد المبشّرين المسيحيين أو على يد الرجال العلمانيين»[2].

وليس في وسعنا ـ ولا من همّنا ـ استقصاء آثار هذا (العمل الجليل)! في

---

(١) مجلة الفتح السنة ١٢ العدد (٥٧٠) في ٢ شعبان ١٣٥٦هـ (٧/ ١٠/ ١٩٣٧).
(٢) يوم ميسلون للأستاذ ساطع الحصري، ص٣٤٥.

الصورة السابقة للشباب التي رسمها الأستاذ السباعي، وإن كنا لا نُبعد تأثيرها الشديد على معظم قيادات العمل الحزبي السابق؛ وربما كان تأثر الأرسوزي بالمسيح عليه السلام ـ على سبيل المثال ـ يعود إلى هذه المدارس، في الوقت الذي قال فيه في الجاهلية والإسلام ما قال مما لا يتسع المجال لعرضه الآن[1].

قال الأستاذ سامي الجندي: «كان الأرسوزي متأثراً بالمسيح يتحدث دائماً عنه وعن رسله، والتفنا حوله عدة أشخاص يحدونا الرجاء في أن نكون مثل رسل المسيح تضحية وذوباناً في القضية، وصرنا نحلم بأكاليل الشهداء أكثر مما نحلم بغار المنتصرين، وبتنا نؤمن أن القضايا الكبرى تبدأ بالشهداء، وبعدهم يأتي الغزاة».

ويضيف: «لقد شرح لنا (نيتشه) وألحّ على كتاب فيخته (خطابات إلى الأمة الألمانية) وتوسع وفصّل ودقّق، طلب إليَّ أن أترجمه ففعلت...»[2].

فإذا أضفنا إلى مدارس الإرساليات ـ بوصفها مدارس حديثة أصابت حالة الركود الثقافي السائدة وأساليب التعليم القديمة بصدمة شديدة ـ إذا أضفنا إليها (المدارس الحديثة) أيضاً التي تم افتتاحها في ظل الوصاية الفرنسية، ولاحظنا أن هذه المدارس كانت تعكس على وجه العموم التوجهات العلمانية في الكتب الدراسية ومناهج التعليم؛ أدركنا معنى وسبب سريان الفكر القومي والعلماني بين المتعلمين والمثقفين.

القومية العربية وحكم الاتحاديين:

وفي الوقت الذي عبرت فيه القومية عن نفسها في نطاق الإرساليات أولاً، وفي ظل الرعاية الأجنبية عموماً، في منتصف القرن التاسع عشر[3]؛ فإن نطاقها قد اتسع بعد ذلك حين أحكم (الاتحاديّون) سيطرتهم على الدولة العثمانية في

---

(١) راجع كتابنا: جذور الفكر القومي والعلماني، ص٢٣ و٩٩.

(٢) جريدة الحياة العدد (١٢٣٤٦) تاريخ ١٤/ ١٢/ ١٩٩٦م في المقابلة الأخيرة مع الجندي التي نشرت بعد عام من رحيله رحمه الله. وقد سبق أن أشار إلى هذا في كتابه (البعث) قال: «كان الأستاذ يتحدث كثيراً عن المسيح، وأظنه تأثر بكتاب نيتشه (منشأ التراجيديا اليونانية)، ص٢٧.

(٣) راجع كتاب يقظة العرب تأليف جورج أنطونيوس، ترجمة الدكتور ناصر الدين الأسد والدكتور إحسان عباس الصفحات ٧١، ٩٧، ١٤٩ الطبعة السابعة. وانظر (عوامل نشأة القومية العربية) في كتابنا: جذور الفكر القومي والعلماني، ص٤٧ ـ ٥٧.

نهايـة العقد الأول من هذا القرن عقب خلعهم للسلطان عبد الحميد الثاني رحمه الله عام ١٩٠٩م، وشروعهم في سياسة التتريك ـ أي محاولة صبغ جميع شـعوب الدولـة أو الإمبراطوريـة بالصبغـة التركية ـ بكل ما حملته هذه السياسة من ردّة وسفاهة وتآمر على العروبة والإسلام.

وقد أشـار الشريف حسين أمير مكة في أكثر من مناسـبة إلى أن أعمـال الاتحاديين لم تعد تحتمل التأويل في دلالتها على اسـتخفافهم بالإسلام وحربهم عليه، قال الشريف حسين رحمه الله: «... وأما نحن فكنّا كلما سمعنا أو رأينا شيئاً من هجماتهم على الإسلام ندفعه بالتأويل إلى أن أعيانـا التأويل! وكلما علمنـا بجناية منهم على الدولة أو على العرب قلنا: لعله ذنب عارض يرجعون عنه بعد قليل...».

وقد أشار في (منشور الثورة) إلى الحقد الذي أظهره الاتحاديون على العرب واللغة العربية. وقال: إنهم أغرقوا في القومية ـ الطورانية ـ وفي معاداة الإسـلام، فكان من ينتقد جمعيتهم أو تصرفهم يعاقب بـالقتل والنفي والسجن، وكان من يطعن في الإسلام يُعزَّز ويكرَّم، ولهذا سمحوا بنشر الكتب والمجلاّت التي تطعن على الإسلام وتستهزئ بأركانه وفرائضه، مثل كتاب (قوم جديد) ومجلة (اجتهاد)! وقال: إنهم جعلوا الصلاة في الجيش اختيارية، وأجبروا الجنود على الإفطار في رمضان. وذكر أنهم أنشؤوا سجلات المستشفعين، أي بيع الشفاعة النبوية لطالبها بليرة عثمانية، وكتابة أسماء هؤلاء المشترين لهذه الشفاعة في سجلات تودع في الحرم النبوي الشريف» (قلت: على طريقة صكوك الغفران التي ثار عليها مارتن لوثر)! والغرض منها ابتزاز الأموال من العوامّ السذّج، وربما إظهار (التديّن) المزعوم أمام هؤلاء.. مع أن هذا من أبسط ما ينافي الإسلام. ونشير أخيراً ـ بهذه المناسبة ـ إلى أن الشريف حسين اتّهم الاتحاديين باغتصابهم للسلطة العثمانية من أيدي السلطان الشرعي. قال: «ثم وضعوها في أيدي زعانف ليس لأكثرهم في الشـعب التركي الإسـلامي أصل راسـخ، ولا في الإسـلام علم صحيح ولا عمل صالح كأنـور باشـا وطلعت بك...»[1].

---

(١) انظر كتاب الثورة العربية الكبرى لأمين سعيد: ١/ ١٥٥؛ وكتاب تجديـد التاريخ للدكتور عمر فروخ رحمه الله، ص٣٠٥ـ٣٠٦.

ثم تـوّجت أعمال الاتحاديين هذه بحركة مصطفى كمال الذي لقب نفسـه (أتاتورك) ـ أي أبو الأتراك ـ[1] و(إصلاحاته)!!! . الدينيـة أو الثقافية التي طالت ـ في أحقادها وردة فعلها ـ حتى الحرف العربي والأذان بالعربية. . فضلاً عن (علمانيته) التي كانت في جانبها النظري أقرب إلى الإلحاد، وفي جانبها التطبيقي أقرب إلى محاكم التفتيش! وقد عرفت حركتـه في بلاد الشام ـ آنذاك ـ بالحركة الكمالية، وأتبـاعه أو أنصاره بالكماليين[2] .

وعلى الرغم من تعدد مفاهيم القومية ـ العربية ـ في بلاد الشام في مرحلة النشأة أو التوسع هذه مع غلبة المضمون الإسلامي إلى حد كبير؛ فإن صلتها بهذا المضمون بدأت تضعف مع الروح العلمانية التي أشاعتها المدارس المشار إليها ـ وما تقدمها ومشى في ركابها من البعثات العلمية والثقافية ـ وبعد وقوف (العلماء) ـ أو القادة الدينيين ـ موقفاً سلبياً من طروحات الكواكبي العروبية، والإسلامية والإصلاحية على سبيل المثال ـ بل من إصلاحـات محمد عبـده ودعوة جمال الدين ـ ومع اعتقاد الكثيرين أن العروبة والدعوة القومية سوف تمزق الرابطة العثمانية! علماً بـأن هذه الرابطة قد مزّقها (الاتحاديون) شر ممزّق حين انحدروا من السياسـة العثمانية الإسـلامية إلى السياسـة القوميـة الطورانية. . أي (الجاهلية) التي اتخذت من (الذئب الأغبر) الذي كان معبود الأتراك قبل دخولهم في الإسلام شعاراً لهم! .

الدين بين الأحزاب والحكومات:

بل يمكننا القول إذا أعدنا النظر في خريطة الأحزاب السياسية التي سبقت الإشارة إليها: إن تجاوز الإسلام صار كأنه قدَرٌ واحد أو قَدْر مشترك! بين هذه الأحزاب، وذلك على النحو التالي:

---

(١) كان مصطفى كمال متصلاً بحركة تركية الفتاة، ويغلب على الظن ـ كما يقول الدكتور عمر فروخ ـ أنه كان من الدونمة. وهو من مدينة (سلانيك) موطنهم في حوض البلقان. انظر تجديد التاريخ للدكتور فروخ، ص٢٨٥؛ والدونمة هؤلاء يهود منافقون. راجع كتابنا: جذور الفكر القومي والعلماني، ص٥٠ .

(٢) راجع مقالـة للأستاذ السباعي بعنوان: الدعاية الكمالية في سورية: مجلـة الفتح السنة ١٣ العدد (٦٣٤)، بتاريخ ٧ من ذي القعدة ١٣٥٧هـ (٢٩/ ١٢/ ١٩٣٨م).

١ ـ لقد تجلّى هذا التجاوز في أحزاب الطليعة أو أحزاب الجيل الجديد! وصار قدراً مشتركاً بين دعاة القومية (السورية) كما تجلّت في دعوة أنطون سعادة، ودعاة القومية (العربية) كما تجلت في طروحات زكي الأرسوزي بشكل بارز، وكتابات ميشيل عفلق بوجه من الوجوه أو بشكل من الأشكال! مع الإشارة إلى النشاط الملحوظ الذي أبداه الأرسوزي في هذه الحقبة على وجه الخصوص.

وربما كان المدخل إلى فهم أو تفسير هذه الحالة: رد الفعل على الحقبة العثمانية ـ الإسلامية ـ ومحاولة التعفية عليها أو الانتصاف منها، ومن هنا كان هذا التنوع أو الاختلاف بين التطلعات الدينية لأنطون سعادة، والمذهبية للأرسوزي، وبحيث اقتصر الأول على الدائرة السورية، وتوسع الآخر إلى الدائرة العربية[1]. . . ونعتقد في هذا السياق أن الإحباط الذي أصاب الحركة العربية ـ أو الثورة العربية ـ والتراجع الذي تم في شعاراتها عن المملكة العربية إلى المملكة السورية: ساعد إلى حد كبير في غلبة القومية السورية في المرحلة الأولى ـ بغض النظر عن طموحات سعادة (الدينية)!! ـ حتى وجدنا الكثيرين من دعاة القومية العربية أو الذين انتهوا إلى الفكر القومي العربي قد بدؤوا حياتهم أو نشاطهم الفكري في نطاق القوميين السوريين.

٢ ـ أما الأحزاب الأخرى، وبخاصة الكتلة الوطنية التي كانت في سدة الحكم، فإن توجه زعمائها ـ وزعماء الحركة الوطنية عموماً ـ نحو العمل السياسي أفضى بهم إلى صورة قريبة من وضع أحزاب الجيل الجديد، لأن استغراقهم في هذا العمل كما أسلفنا لم يتسبب فقط في عدم عنايتهم بالجانب

---

(١) وصف الأرسوزي العرب بأنهم أمة واحدة. ولكنه لم يقل: أمة عربية واحدة. يقول الدكتور سامي الجندي: «ذلك أنه عرقي يؤمن بالأصالة والنبالة، ارستقراطي النزعة والفكر. العرب عنده قوم، الفردية عندهم نزعة إنسانية. أما الأمة فمزيج تضيع فيه ملامح الإنسان التي تسمو على قدر ما تصفو الأعراق». ولكنْ للعرب عنده زعيم واحد. يقول الدكتور الجندي: «يعطي الأرسوزي الزعامة معنى صوفياً متأثراً بنشأته العلوية. الزعيم ليس سياسياً فقط وإنما هو تجلٍّ إنساني، قمة فضائل الأمة، يعبّر عن كل طاقتها على العطاء الروحي والبطولي. إنه صورة علمانية لإمام الزمان الذي يُقتدى به في الصلاة، ويطاع فيما يقضي فيه، فهو الحاكم السياسي الديني. الزعيم مبدع أفكار ودولة» كتاب (البعث)، ص٢٣.

الفكري، أو الجانب الثقافي/ الديني؛ بل لأن صلتهم بهذا الجانب كانت (علمانية) أو من ذلك النوع المعهود في فرنسة ذاتها أو في المناخ (العلماني) السابق. ويبدو لنا أن سياسة التقسيم والسياسة الطائفية التي مارستها فرنسة ـ والتي أشرنا إليها فيما تقدم ـ جعلتهم يتخوّفون من البعد الطائفي إن هم تحدثوا في الإسلام أو دافعوا عن الدين! ومن المفارقات في هذا السياق أن هذه الطوائف كانت تعبر في الوقت نفسه عن طموحاتها أو آمالها الفكرية والثقافية كما أشرنا قبل قليل.

وكانت النتيجة لهذا كله أن جمهور المثقفين والسياسيين باتوا في موقع واحد بعيد عن تطلعات الشعب وهموم الأمة، خصوصاً وأن الدين كان الدافع لسوادها الأعظم لمقاومة الاحتلال وللجهاد والاستشهاد، حتى باتت مواقف السياسيين أو الزعماء الوطنيين تستعصي على الفهم والتفسير!! فالصحف السورية بأجمعها ـ على سبيل المثال ـ قامت بالدعاية للكماليين لمناسبة موت مصطفى كمال (أتاتورك)! (فسوَّدت الصحائف الطوال بتزويق تاريخه وتعداد إصلاحاته) كما يقول مصطفى السباعي الذي أضاف: «وتناست ـ هذه الصحف ـ ما يخالفنا به في ديننا وقوميتنا. وآخر ذلك إساءة حكومته إلى الشعب السوري في قضية الإسكندورن، تناسوا هذا وأغفلوا ما يوجبه عليهم الدين والوطنية والمصلحة العامة من الكف عن تزويق المناقب لجماعة وقفوا من الإسلام موقفاً سيحاسبهم الله عليه، وسيلقون منه جزاءهم كما يستحقون. وأساؤوا إلى الوطن باقتطاع جزء غالٍ من أراضيه اعتماداً على قوة السلاح وغدر الأوصياء من الأوروبيين المستبشرين الشامتين بما كان للإسلام على أيدي الكماليين»[1].

---

(١) مجلة الفتح العدد (٦٣٤)، ص٦ في ٧ ذي القعدة ١٣٥٧هـ، العام الثالث عشر. وانظر تلخيصاً وافياً لقضية لواء إسكندرون ومراحل تطورها حتى انتهت إلى ما انتهت إليه في مقالة للسباعي في مجلة الفتح العدد (٦٣٣) في ٣٠ شوال ١٣٥٧هـ (٢٢/ ١٢/ ١٩٣٨) وقد عرض لها في أكثر من مقالة من هذه المقالات رحمه الله. ومن العجيب ـ بهذه المناسبة ـ أن ما فعلته تركية الكمالية بهذا الجزء السليب من الوطن السوري كان إحدى حجج القوميين العرب في توهين الرابطة الإسلامية أو التهوين من شأنها، بحجة أن تركية دولة إسلامية! علماً بأن الكماليين كانوا يكرهون الإسلام والعروبة جميعاً، وأن علمانيتهم ـ التي لم تكن بعيدة عن القوميين أنفسهم بأي مفهوم كان! ـ كانت أقرب إلى الإلحاد، إن لم تكن تحمل أسوأ صور الإلحاد والطعن على الإسلام خاصّة. أما =

= إبرام الاتفاق الذي تم بموجبه اقتطاع (سنجق اسكندرون) وتسليمه إلى تركية ـ آخر الأمر ـ فقد كان في أنقرة بعد ظهر يوم الجمعة في ٥ جمادى الأولى ١٣٥٨هـ ـ ٢٣حزيران (يونيه) ١٩٣٩ . بتوقيع السفير الفرنسي ووزير الخارجية التركي . . راجع مجلة (الفتح) العدد (٦٦٠) ١١ جمادى الأولى ١٣٥٨هـ (٢٨/ ٦/ ١٩٣٩) العام ١٤ ، ص٢٤٣ .
وتذكّرنا هذه (المأثرة الاستعمارية)!! الفرنسية بسابقتها البريطانية في وعد بلفور! حيث يتصرف أو يعطي من لا يملك من لا يستحق! كما تفرض علينا أن نذكر ـ باقتضاب شديد ـ الملاحظات التالية :
١ ـ تكررت الأطماع العسكرية التركية في الوطن العربي، أولاً في العراق حين حاولت تركية نزع ولاية الموصل عند اتفاق العراق مع بريطانية. وثانياً في سورية حين عقدت سورية معاهدة ١٩٣٦ مع فرنسة، بعد أن سكتت أو رضيت ببقاء اسكندرون تحت الاحتلال الفرنسي لأكثر من عشرين عاماً! واختلف الأمر في لواء اسكندرون من حيث وجود أقلية تركية في اسكندرونة وأنطاكية (٤٠٪) ومن حيث قدم الأطماع التركية التي ظهرت في معاهدة لوزان التي عقدتها حكومة أنقرة مع اليونان وبعض الدول الأوروبية عام ١٩٢٣، والتي خيّرت سكان اللواء أو السنجق بين الجنسية السورية والجنسية التركية.
٢ ـ في ضوء ما قام به أتاتورك من إلغاء الشريعة الإسلامية والحروف العربية اختارت «الأكثرية الساحقة من الأقلية التركية بأن تبقى تابعة للبلاد السورية لأنها تطبق أحكام الإسلام في الأحوال الشخصية والعقود والالتزامات المدنية» ـ كما يقول الأستاذ محب الدين الخطيب. ولهذا فإن الأتراك الكماليين ما إن دخلوا اللواء حتى «قامت الحكومة التركية بإلغاء المحاكم الشرعية الإسلامية، وطردت علماءها وموظفيها. وأمرت بأن يكون الأذان باللغة التركية» كما يقول الأستاذ السباعي. الذي أضاف قائلاً: «وأنزلت بالعرب أفظع أنواع البطش والانتقام لتلجئهم إلى الاستتراك، فاضطر عدد كبير منهم إلى هجر ديارهم وأموالهم واللجوء إلى الأراضي السورية». العدد (٥٣٣) من الفتح، ٨ ذي القعدة ١٣٥٥هـ (٢٠/ ١/ ١٩٣٧)؛ العام الحادي عشر، ص٧٧٥ ، والعدد (٦٣٣) في ٣٠ شوال ١٣٥٧هـ (٢٢/ ١٢/ ١٩٣٨) العام ١٣ ، ص٨٠٥ .
٣ ـ أشرنا في المدخل إلى أعمال المبشّرين التي احتجّ عليها العلويون، والعجيب أن هذه الأعمال واكبتها مزاعم دعاة أنقرة أن العلويين في اللواء من الترك لا من العرب! وأن عقائدهم مستمدة من الوثنية التركية قبل الإسلام!! انظر محب الدين الخطيب: افتتاحية العدد (٦٣٢) من الفتح في ٢٣ شوال ١٣٥٧هـ العام ١٣ ، ص٧٧٧؛ وراجع كذلك (الفتح) العدد (٥٣٥) في ٢٢ ذي القعدة ١٣٥٥هـ العام ١١ ، ص٨٣٠ ـ ٨٣١، وص٨٣٤. ففي هذه الصفحات مقالتان: الأولى بعنوان (وثنية الترك في دين الإسلام:

بل إن واحداً من أبرز أعضاء الكتلة الوطنية ـ من دمشق ـ وهو الدكتور الطبيب **عبد الرحمن الشهبندر** هوّن ـ في مقالٍ له ـ من شأن الرابطة الدينية بدليل أن (كمال أتاتورك رغم موقفه من الإسلام لا يزال كثير من المسلمين المتنورين!! يعجبون بإصلاحاته!!، ويغتفرون له ما فعل في سبيل رقي بلاده وتحريرها من كل ما يعوق نهضتها!) كما أنه كتب بعد موت أتاتورك مقالاً آخر أبدى فيه إعجابه الشديد بشخصية الراحل وخطواته الجريئة في تحرير أمته من قيود الرجعية!![1].

يقول الأستاذ السباعي: «وهؤلاء الذين يرددون أساليب الاستحسان لنهضة الكماليين يعلمون تمام العلم أن تركية تطمع منذ زمن بعيد في بلاد الشام وترغب في تجريدها من قوميتها وإسلامها، وأن الاستيلاء على الإسكندرون مقدمة لهذا، وأن أي مدح أو ثناء على الكماليين ونهضتهم! سيكون من أمضى الأسلحة التي يتذرّعون بها للوصول إلى ما يريدون».

ويضيف: «فإن لم تدفعهم العقيدة إلى تذكير الأمة بما أساء به أولئك الطامعون في البلاد إلى دينها، فلتدفعهم الوطنية التي يتبجحون بها إلى تذكير الأمة بما أساؤوا به إلى وطنها وكرامتها، وإن لم يحملهم هذا ولا ذاك على ذكر مساوئهم وعيوبهم فليعذرونا إذا اعتبرناهم سماسرة يتجرون بالوطنية على حساب هذا الشعب المسكين»[2].

ويبدو أن صدمة الجمهور بموقف الحكومة الوطنية من المسألة الدينية أو من (الوضع) العلماني المشار إليه كانت شديدة؛ يقول الأستاذ السباعي: «وشاء

= الجنسية التركية وعلويّو آتاي) وهي مترجمة عن جريدة (جمهوريت) التركية، العدد ٤٥٤٣، الصادر بتاريخ ٥كانون الثاني ـ يناير ١٩٣٧، والمقالة الثانية تعليق ورد من مجلة (الفتح) بقلم محب الدين الخطيب.

وربما كان هذا أحد الأسباب التي دعتهم إلى تأكيد هويتهم الدينية الإسلامية الشيعية ـ على نحو ما أشرنا إليه في المدخل ـ رداً على هذه المزاعم التي أراد بها الأتراك الاتحاديون والكماليون التمهيد لسلخ اللواء عن سورية، بل إن بعض العلويين الذين احتجوا في وقت سابق على الانفصال طالبوا ـ عبر الإبراق إلى السلطات الفرنسية ـ «بالانضمام إلى الدولة السورية، واعتبارهم مسلمين سنيين». مجلة الفتح العدد (٢٠٦) في ٧صفر ١٣٤٩هـ ـ ٣تموز (يوليو) ١٩٣٠، السنة ٥، ص٨٢.

(١) العدد السابق من مجلة الفتح (٦٣٤). وكان الشهبندر يجاهر بعلمانيته الشديدة.

(٢) المصدر السابق نفسه.

الله أن ينتهي كفاح سورية السلبي بمعاهدة وقع عليها ممثلو سورية وفرنسة، ورضيتها سورية بعيوبها رجاء أن تتولى شؤونها حكومة دستورية تحت إشراف (الكتلة الوطنية) التي انتهت إليها ثقة الأغلبية العظمى من جمهور الأمة.

وتسلّم رجال الكتلة الحكم فتقدمت إليهم الأمة بمطالب منها: جعل التعليم الديني إجبارياً في جميع أدوار التعليم، وإصلاح الأوقاف الإسلامية، وإنشاء كلية دينية يتخرج منها القضاة والمفتون، وإصلاح القضاء الشرعي إصلاحاً يتفق مع مكانته في نفوس الأمة، فأجابت الحكومة الوطنية على هذه المطالب بالوعود المعسولة، والخطب المملوءة بالغيرة على الدين وأهله...»[1]!! أي بالكلام.

وكانت الصدمة الأشد حين تبين أن الحكومة كانت على علم بنظام الأحوال الشخصية للطوائف المشار إليه في الفقرة السابقة، بل إنها شاركت في وضعه؛ فقد طلبت المفوضية الفرنسية منها إرسال مندوبين ليشتركوا في سَنِّه ووضع موادّه، فأرسلت السادة: نعيم الأنطاكي مدير الخارجية السابق، وعارف نكدي مدير العدلية، وعبد الرحمن الكيالي وزير المعارف والعدلية السابق! فاشتركوا مع المندوبين الفرنسيين في وضع ذلك النظام الممقوت الذي أثار حفيظة المسلمين من أقصى البلاد إلى أقصاها.

وبغضّ النظر عن مدى معرفة هؤلاء بالشريعة وأحكام الإسلام ـ علماً بأن الأول مسيحي ـ فإن الثاني درزي، وهو (بطل القانون الذي تقدمت به الحكومة السورية للإسراع في القضاء على المحاكم الشرعية). أما الثالث فكان صاحب موقف سلبي معروف من التعليم الديني والبعثات العلمية للأزهر. يقول الأستاذ السباعي:

«فإذا كان هؤلاء هم الذين وكل إليهم الاشتراك مع الفرنسيين في وضع نظام يتعلق بدين البلاد وعقائدها وأحوالها الشخصية، فماذا تنتظر أن يكون هذا النظام؟ وكيف نرجو أن يقف هؤلاء موقف المدافعين عن دين الأمة وعقائد أبنائها أمام الفرنسيين الطامعين في نقض بناء الإسلام في بلاد الشام كما أرادوا أن ينقضوه في المغرب؟»[2].

---

(١) مجلة الفتح العدد (٥٧٦) في ١٥ رمضان ١٣٥٦هـ (١٨/ ١١/ ١٩٣٧).

(٢) مجلة الفتح، السنة ١٣، العدد (٦٤٥)، تاريخ ٢٥ المحرم ١٣٥٨هـ=

وأسوأ من هذا أن رجال الأحزاب ـ أو بعضهم على الأقل ـ كانوا يتخذون الدفاع عن الدين وسيلة للنيل من خصومهم، حتى إذا تمكنوا من الحكم كانوا أشد منهم عدواة له ونيلاً من كرامته. يقول السباعي: «وهذا سلاح خطير جداً وإن أفاد الدين في بعض الأحيان، لكنه يخلق في النفوس شكاً في كل من يدافع عن الدين من رجال السياسة والحكم، من غير تفرقة بين المخلصين والمهرّجين!» ويضيف قائلاً:

«وهذا هو ما حدث أخيراً من رجال بعض الأحزاب في حمص، فإنهم ما كادوا يرون النقمة عظيمة جداً على نظام الطوائف حتى استغلوا هذا الشعور البريء فدعوا الناس إلى إقفال المتاجر وتعطيل الأعمال والتظاهر احتجاجاً على ذلك النظام، فاستجاب الناس لندائهم وقاموا بمظاهرات عظيمة أزهقت فيها روح شاب طاهر بريء، وجرح ما يزيد على مئة وعشرين من قوى الحكومة والأهلين. وسرعان ما تبين للناس ـ والأسى يملأ قلوبهم ـ أن الغرض الحقيقي للمحرِّضين هو تعكير صفو الأمن، وحمل الحكومة على الاستقالة لأغراض حزبية معلومة!..».

وقال رحمه الله: «وبلغني أن كبيراً من زعماء المعارضة في دمشق أخذ يشنّع في المجالس حين كانت أزمة الطوائف مشتدة أن الحكومة أخطأت كل الخطأ في عدم الرجوع إلى العلماء قبل إقرار النظام، وأنه لو كان هو في الحكم وطلب منه الفرنسيون إرسال مندوبين يشتركون في وضع القانون لما استشار إلا علماء الدين، ولما أناب إلا من يرضونه منهم! أجل هكذا قال ذلك الرجل، وهو هو الذي قال لي حين كان في مصر وكنت أتباحث معه في شأن الوحدة الإسلامية والوحدة العربية: «إن الواجب علينا إرضاء الأقليات كيفما كان، حتى لو طلبوا منا أن نجعل العطلة الرسمية للحكومة والمدارس يوم الأحد بدلاً من الجمعة لفعلنا، ولو طلبوا أن يكون التعليم في المدارس علمانياً (لا دينياً) لأجبناهم إليه بلا تردد فقارن بين هذا القول وبين ما سبق، ثم قل: رحمة الله على أخلاق الرجال في هذا الزمان»[1].

= (١٦/٣/١٩٣٩).

(١) المصدر السابق نفسه. ويتحدث الأستاذ السباعي فيما يبدو عن الدكتور عبد الرحمن الشهبندر خريج الجامعة الأمريكية في بيروت والذي كان يقيم في القاهرة إقامة قسرية، والذي اغتيل بعد ذلك في دمشق عام ١٩٤٠. انظر لمحة عنه في كتاب الأحزاب =

هذا، وقد اجتمعت مسائل كثيرة تركت انطباعاً عاماً عند الناس أن حكومتهم الوطنية لم تكن عند حسن الظن بها من الوجهة الدينية! ونشير من هذه المسائل ـ على سبيل المثال ـ إلى محاولة إلغاء القضاء الشرعي تدريجياً، وإلى حلّ الأوقاف الأهلية، وأخيراً إلى المشكلة التي أثارها السيد ميشيل عفلق الذي كان يدرّس التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية في مدرسة التجهيز الأولى ـ أو ثانوية دمشق ـ وذلك بالمعنى القومي ـ الجاهلي ـ الذي فسّر به الرسالة المحمدية، وبما قاله حول (السجع) في الآيات المكية، وأنه من المعروف عند عرب الجاهلية وبعض كهانهم! وما علّل به اختلاف أسلوبها عن الآيات المدنية بأن (الرسول كان في أول دعوته في حالة عصبية، يشعر شعوراً مبهماً. . وأنه كان مضطرباً، فلذلك أتى أسلوب السور الأولى، أي المكية عنيفاً منقطعاً مبهماً. .) إلى غير ذلك من المسائل التي ألقاها على مسامع الطلاب، والتي حملت الأستاذ الشيخ علي الطنطاوي على وصفه ـ بهذه المناسبة ـ بأنه (مسيحي شيوعي لا يؤمن بدين ولا يقرّ بإله)[1]! في حين اتهمه الأستاذ السباعي بأن ما قاله لم يكن أكثر من

= والجمعيات السياسية في القطر السوري لحسن الجبوري، ص١٥٥. وفي الجلسة التي عقدتها المحكمة العسكرية لمحاكمة المتهمين بقتل الدكتور الشهبندر قال المتهم الأول أحمد عصاصة: «إنه قبل حادثة الاغتيال اجتمع بزملائه المقبوض عليهم. وتذاكروا حالة الوطن وما وصلت إليه، واستعرضوا بذاكرتهم الخطب التي كان يلقيها الدكتور وفيها كثير من العبارات المخالفة للدين، والتي تشعر بأنه لو وسدت إليه الأمور لسار في سورية على طريقة الكماليين، يضاف إلى ذلك انشقاق كلمة الأمة بسبب اختلاف الأحزاب وتطاحن رجالها» قال: «فقررنا فيما بيننا أن الخير كل الخير في إراحة البلاد من ثلاثة أشخاص، وهم الدكتور الشهبندر وجميل مردم بك وبهيج بك رئيس مجلس المديرين، وأن نبذل أنفسنا للوصول إلى هذا الغرض، ولو لم يقبض علينا لأكملنا برامجنا. .» مجلة (الفتح) العدد ٧٤٢ في ١٠ المحرم ١٣٦٠هـ (٦/ ٢/ ١٩٤١م) العام ١٥، ص٦٨٣.

(١) كتب الأستاذ الطنطاوي مقالة ـ افتتاحية ـ في العدد ٥٧٩ من (الفتح) بعنوان: «عدوان فظيع. . ودعوة صالحة!) عرض فيها مطاعن (الخواجه) ميشيل عفلق وشبهاته حول أسلوب القرآن وجمعه وتدوينه ـ ومنها قوله: «ولما ازدادت هذه الخلافات بين هذه الأقطار بشأن النص الأصلي للقرآن، صمم عثمان على وضع نصٍّ لا خلاف فيه»! ـ وحول فواتح السور، والقراءات وتعريف البدعة والفقه، وحول التاريخ الأموي والعباسي، وصلة الفقه الإسلامي بالقانون الروماني. . . إلخ.

قال الطنطاوي: «والعبرة في هذا العدوان السخيف أن آباء هؤلاء الطلاب لا يعلمون بأن=

ترديد لافتراءات بعض المستشرقين المغرضين! وتعكس حدّة المقالة التي كتبها الأستاذ السباعي ـ بالإضافة إلى الاتهام الطنطاوي المشار إليه ـ مدى الصدمة العامة التي أحدثتها آراء ميشيل عفلق، حتى إن الحكومة تدخلت ومنعته من التدريس، وأسندت تدريس التاريخ الإسلامي إلى أستاذ مسلم[1]!!.

= معلم التاريخ الإسلامي لأبنائهم مسيحي شيوعي لا يؤمن بدين، ولا يقرّ بإلـه، يصرح بذلك في دروسه على طلابه!...». انظر العدد المذكور من (الفتح) ـ العام الثاني عشر، ص٧٠٣ ـ ٧٠٥ ـ تاريخ ٦ شوال ١٣٥٦هـ (٩/ ١٢/ ١٩٣٧)، وقد نشرت المجلة في العدد نفسه نص الكتاب الذي بعثت به لجنة التربية والتعليم في جمعية الشبان المسلمين بدمشق إلى معالي وزير المعارف بعنوان: (ميشيل عفلق يحارب المسلمين في دينهم)، وأشارت فيه إلى (ما لقنه للطلاب من طعن في القرآن الكريم، وجرح للأحاديث الشريفة، وإخراجها عن صفتها المقدسة إلى صفة وضعية!» وطالبت بإقالته وإحالته إلى المحاكمة «نظراً لما تعرض له من الملاحظات التي من شأنها أن تدخل الشك والريب في نفوس طلاب لم يتغلغلوا بعد في حقائق الإسلام، وليس لهم قوة تساعدهم على رد هجماته على الدين الحنيف، فيصدوا بالبرهان مطاعنه على كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ...» ص١٨ (٧١٨). وانظر كتابنا: مدخل إلى القرآن والحديث لتفنيد الكثير من هذه الشبهات.

(١) هو السيد عارف العارف، الذي وُصف باختصار بأنه: (ربيب اليسوعيين وصديق للمستشار الفرنسي)، قال الأستاذ السباعي في مقالة أخرى مهمة: «إن البلاد عانت في عهد الاحتلال من وزارة المعارف نكبات لا تزال آثارها ماثلة في أخلاق الشباب وعقائدهم، فلما تنسّمت الأمة نسيم الحرية أهابت برجالاتها الذين أولتهم الحكم أن يحوّلوا دفّة المعارف إلى وجهة هي أقرب إلى المحافظة على الأخلاق والوفاء للإسلام من أي وجهة أخرى. فنحن نسأل وزراة المعارف ونريد أن تجيبنا بكل صراحة: هل من الوفاء للإسلام أن يدرس تاريخه ميشيل عفلق، فيطعن في الإسلام ونبيّه وصحابته بما هو كفيل بتقديمه إلى محكمة الجنايات في كل قانون من قوانين العالم، ثم لا يكون من وزراة المعارف إلا أن تنقله من وظيفته إلى وظيفة أخرى؟ ثم تعمد إلى آخر أخبث منه طوية وأعمى قلباً ليخلف ميشيل عفلق في وظيفته، متسترة بما يحمله من اسم إسلامي مزّيف» مجلة الفتح العدد (٥٩٠) تاريخ ٢٣ من ذي الحجة ١٣٥٦هـ (٢٣/ ٢/ ١٩٣٨).
وعارف العارف ولد في قرية من ضواحي طرابلس الشام، حاول الالتحاق بالجامعة السورية فلم يفلح، فتوجه إلى بيروت ودرس عند الآباء اليسوعيين «وأكثر من التردد على المسيو بوفور مستشار المعارف في لبنان، فاطلع على اضطراب دينه وسوء عقيدته» فأرسله للدراسة في فرنسة على حساب الحكومة اللبنانية. ومهّد له قبل عودته من السوربون بدعاية عريضة ـ كالعادة! ـ فاستقبلته «الصحف بالترحيب، وأخذت تضفي =

قال الأستاذ السباعي: «دعونا من التعصب للدين والتعصب للقومية، أفلا تتعصبون للحق والتاريخ، مطلقاً من أي اعتبار.. لو أن هذا الجاهل الدساس قال ما قاله عن بحث وتحقيق لكان هنالك مجال للاعتذار عنه بأنه بحث فأخطأ، ولكنه هو وأشباهه إنما يتخبطون في مثل هذا الهذيان ترديداً لافتراءات بعض المستشرقين المغرضين على الإسلام...»[1].

في مثل هذه الأجواء بدأت الثقافة الدينية، (التقليدية) السائدة أو الموروثة من العهد العثماني تتلمس طريقها إلى التجديد، وبدأت (الدعوة) الإسلامية خطواتها في المقاومة والإصلاح.. وهكذا بدأت المؤسسات الأهلية محاولات النهوض بما تخلّت عنه الحكومات أو بما تدعو إليه الحاجة. كما سنرى عند الحديث عن السباعي الداعية رحمه الله.

الدعوة الإسلامية وهذه الأوضاع:

ولكن قد يكون من واجبنا أن نشير هنا إلى (شروط) **الدعوة التي تستدعيها هذه الأوضاع في هذا السياق التاريخي**، لقد كان هذا السياق في البلاد العربية ـ والعالم الإسلامي ـ يستدعي بناء ثقافة معاصرة تتجاوز ثقافة عصر الركود التي

= عليه الألقاب الفخمة الطنانة، حتى سمته أحداها بالمعرّي الثاني، وأخرى بطه حسين سورية!» كما قال الأستاذ السباعي في عدد (الفتح) المشار إليه. كما نشرت الفتح في عددها السابق (٥٨٩) مناظرة قصيرة جرت في بيروت بينه وبين الأستاذ علي الطنطاوي ليلة الرابع من ذي القعدة ١٣٥٦هـ (٥/ ١/ ١٩٣٨) بحضور نحو عشرين من أعلام بيروت. وكان الطنطاوي في هذا الوقت مدرساً في الكلية الشرعية ببيروت، وقد ذكر أن فضيلة الأستاذ العلاّمة الشيخ صالح المدهون انبرى لهذا الجاهل «فدمغ باطله بالحجج الثابتة، وأكله أكلاً، حتى صار بين يديه مثل الأرنب بين يدي الأسد»! ويبدو أن وزارة المعارف السورية تدخلت مرة أخرى، فأزاحته، وعينت مكانه الأستاذ عبد الوهاب الأزرق الذي كان عضواً في دار الأرقم ـ إحدى جمعيات شباب محمد ﷺ ـ. انظر مقالة للأستاذ السباعي حول شباب محمد في العدد (٦٣٩) من الفتح تاريخ ١٣ ذي الحجة ١٣٥٧هـ (٢/ ٢/ ١٩٣٩) علماً بأن السيد عارف العارف كان قد حلّ محل ميشيل عفلق حين ناظره الأستاذ علي الطنطاوي عام ١٩٣٨.

(١) راجع مجلة (الفتح) العدد (٥٨١) في ٢٠ شوال ١٣٥٦هـ (٢٣/ ١٢/ ١٩٣٧).

ورثناها من الحكم العثماني، من جهة. ولا تنحني أمام عواصف التغريب التي بدأت تهب على العالم الإسلامي، والتي بدأت في سورية وبلاد الشام مع طروحات أحزاب الجيل الجديد أو الأحزاب (العقائدية) الشابّة التي أشرنا إليها.. من جهة أخرى. **بالإضافة إلى الشرط التاريخي الخاص بالمجتمع السوري**، المتمثل في رفض الطائفية بكل صنوفها وألوانها.. ومحاولة تحقيق العدل الاجتماعي ـ في هذا السياق نفسه ـ بأفضل صوره، وعن طريق القانون وتكافؤ الفرص وبناء دولة المؤسسات، وبروح الأخوّة الحقيقية البنّاءة التي تشيع السلم الاجتماعي وترفض صراع الطبقات.. ونعتقد أن هذا ما نهض به مصطفى السباعي، أو بدأ به في الشارع والمسجد والجامعة والبرلمان.. وعلى الرغم من أن معظم الذين قادهم أو انضموا إليه كانوا من أبناء الطبقة الوسطى التي كانت تمثل أكبر شرائح المجتمع السوري؛ فإن برنامجه (الاشتراكي) وعناية الدعوة بالطلاب والعمال والفلاحين ـ كما سنرى ـ لم يكن ملبياً فقط لتلك الشروط التي تحدّثنا عنها، بل جعل هذه الدعوة كذلك مهيأة ـ دون سائر الدعوات والأحزاب ـ للتعفية على الانقسام المديني/ الريفي الذي تحدّثنا عنه، وبكلّ ما ينطوي عليه من وجوه المفارقة والاختلاف.. ومن ثم تحقيق الوحدة الداخلية، والتأليف بين قلوب أبناء الشعب والأمّة.

الحركة الصهيونية والقضية الفلسطينية:

وأخيراً فإن **القضية الفلسطينية** ـ وأعرض لها هنا من الوجهة الفكرية أو الثقافية ـ إذا كانت قد دخلت في طور حاسم مع قرار التقسيم والحرب وتوقيع اتفاقيات الهدنة، فإن الفترة الممتدة ما بين عامي ١٩١٩م و١٩٤٨م قد شهدت ذهولاً عن أبعاد هذه القضية، ومدى خطورتها على حاضر العرب والمسلمين ومستقبلهم ـ خصوصاً في ظل الاستعمار الفرنسي ـ بل شهدت ذهولاً عن طبيعة الحركة الصهيونية في المناخ القومي السائد، حتى إن بعض القادة بشّروا بالتعاون بين القوميتين أو الحركتين الصهيونية والعربية[(١)]، وربما كان ذلك محاولة جديدة

(١) انظر نص المذكرة التي قدمها الأمير فيصل إلى مؤتمر الصلح الذي عقد في باريس في أعقاب الحرب العالمية الأولى، د. ذوقان قرقوط: المشرق العربي في مواجهة الاستعمار، ص٤٩ فما بعدها. ونشير بهذه المناسبة إلى أن صحيفة (بالستين بوست) نشرت خطاباً من (إسرائيل روسوف) في أواخر يوليو أو أوائل أغسطس سنة ١٩٤٧ زعم=

لكسب الغرب بعد أن قام بخيانة الحركة العربية في اتفاقيات (سايكس ـ بيكو) التي تحدثنا عنها، وما تبعها من الزراية بكل مطامح العرب في الوحدة والاستقلال . . ويفسر هذا من بعض الوجوه: الجهد الخارق الذي بذله مصطفى السباعي للتعريف بالقضية الفلسطينية، والجهاد الموصول الدائم الذي لم ينقطع ـ على كل صعيد ـ في سبيلها كما سنتحدث عن ذلك فيما بعد .

لقد توصلت الحركة الصهيونية في أواخر العهد العثماني «إلى إيجاد التعاون في بعض المناطق بين ممثلي الحركتين في انتخابات عام ١٩٠٩م إلى مجلس المبعوثان، وإلى قبول المؤتمر العربي الأول الذي عقد في باريس عام ١٩١٣م بحضور ممثل الحركة الصهيونية حيث نجح في إقناع المؤتمرين بعدم التعرض للهجرة اليهودية إلى فلسطين»[١] .

وجاء في نص اتفاقية: فيصل ـ وايزمن التي عقدت في لندن بتاريخ ٣/ ١/ ١٩١٩ ـ وكان فيصل بن الحسين قد ذهب إلى لندن للمطالبة بعرش له في سورية ـ ما يلي:

« . . . عند إنشاء دستور إدارة فلسطين تتخذ جميع الإجراءات التي من شأنها تقديم أوفى الضمانات لتنفيذ وعد الحكومة البريطانية المؤرخ في اليوم الثاني من شهر نوفمبر سنة ١٩١٧[٢] .

= فيه أنه حضر مأدبة أقامها (وايزمن) للملك فيصل بفندق بلازا في باريس، وأن فيصلاً خطب في هذه المأدبة فأثنى على اليهود والصهيونية . وأنه وقع رسالة أو بطاقة بهذا المعنى . وقد اجتمع مندوب مكتب الأنباء الفلسطيني في القاهرة بالسيد عوني عبد الهادي الذي كان سكرتيراً لفيصل في تلك الرحلة إلى باريس، وسأله عن حقيقة هذه المزاعم، فأجاب بقوله: لقد كنت سكرتيراً خاصاً للأمير فيصل من أوائل سنة ١٩١٩ حتى أواخر سنة ١٩٢٠ ولم أفارقه مطلقاً لا في باريس ولا في لندن. وإني أؤكد أن الأمير فيصلاً لم يحضر أي اجتماع صهيوني، وبالتالي لم يحضر هذه المأدبة المزعومة، ولم يوقع تلك البطاقة المزوّرة. وكل ما قيل عن محادثات أو اتصالات بين الأمير فيصل والصهيونية كذب وافتراء. انظر مجلة (الفتح) العدد ٨٤٦، شعبان ١٣٦٦هـ (٩/ ١٩٤١) العام السابع عشر، ص٧٩٣.

(١) ذوقان قرقوط: المصدر السابق، ص٤٦؛ وراجع ص٢٢؛ وانظر كذلك: جورج أنطونيوس: يقظة العرب، ص٥٩٤.

(٢) وعد بلفور لإنشاء وطن قومي يهودي في فلسطين.

«ويجب أن تتخذ جميع الإجراءات لتشجيع الهجرة اليهودية إلى فلسطين على مدىً واسع، وللحث عليها وبأقصى ما يمكن من السرعة لاستقرار المهاجرين في الأرض عن طريق الإسكان الواسع والزراعة الكثيفة. ولدى اتخاذ مثل هذه الإجراءات يجب أن تحفظ حقوق الفلاحين والمزارعين المستأجرين العرب[1]، ويجب أن يساعدوا في سيرهم نحو التقدم الاقتصادي. . .»[2].

* * *

---

(١) معنى هذا ـ كما يلاحظ الدكتور عمر فروخ رحمه الله: أن السكان العرب أصحاب المزارع سيكونون مستأجرين عند اليهود، لأن الأرض نفسها (وكلها) ستعطى لليهود. انظر كتاب تجديد التاريخ للدكتور فروخ، ص٣٠١، دار الباحث ـ بيروت ١٩٨٠.

(٢) المصدران السابقان: قرقوط وأنطونيوس.

البلدة والنّشأة ومصر ومدرسة الفتح



البلد والنشأة ومصر ومدرسة (الفتح)

حمص:

ولد مصطفى السباعي بمدينة حمص عام ١٣٣٤هـ ـ ١٩١٥م، وحمص في أوهام الناس أو في أمثالهم التي ترددت يوماً بين الجد والهزل، قبل أن تصير إلى الهزل الذي لا جدّ فيه: بلد الغفلة! ويبدو أنها قد وصفت بذلك أول ما وصفت خروجاً مما رماها به ياقوت ـ الحموي ـ من الحماقة، وقد علّل ذلك بفساد هوائها وتربتها اللذين يفسدان العقل! على حد قوله[١].

وإذا كان هذا التعليل في ميزان العلم ليس بصحيح، بل هو إلى الجهل أقرب، فلم يبق إلا أنها تهمة (حموية) أو تحامل حموي.. من ذلك التحامل المعهود بين هاتين المدينتين: حمص وحماه.. وإن كان هذا التحامل بدوره دخل في باب المزاح في نهاية المطاف.

وقد أشار الأستاذ السباعي نفسه رحمه الله إلى طبائع بعض المدن السورية. فقال إن طابع دمشق: الدماثة والاستئثار، وطابع حمص: الصفاء والإيثار، وطابع حماه: الحمية واللدد... إلخ وعلّق قائلاً: إن (البساطة) هو التعبير الصحيح عن وصف الحمويين للحمصيين تحاملاً بالغفلة (أو الجذبة) وإن (اللدد) ـ أي العنف في الخصومة ـ هو التعبير الصحيح عن وصف الحمصيين للحمويين بالحقد أو اللؤم[٢].

---

(١) معجم البلدان: ٢/ ٣٠٤، دار صادر ١٩٨٤م.

(٢) هكذا علّمتني الحياة ـ القسم الأول، الفقرة رقم (٨٧١). وقال السيد محب الدين الخطيب: «في الشام مدينة تعد الطبقة الأولى من بلاد الله إخلاصاً للإسلام وأمانة لرسالته إلى هذه الساعة، وهي مدينة حمص المدفون فيها سيف الله خالد بن الوليد رضي الله عنه. وكانت وقت الفتح الإسلامي مدينة مسيحية شديدة التمسك بأرثوذكسيتها». مجلة (الفتح) العدد ٧٥٨ في ٣ جمادى الأولى ١٣٦٠هـ (٢٩/ ٥/ ١٩٤١) العام ١٦، ص١٢٤.

أما سائر ما ذكره ياقوت عن أهل حمص من أنهم كانوا أشد الناس على عليّ رضي الله عنه يوم صفّين، فلما (انقضت تلك الحروب، ومضى ذلك الزمـان صاروا من غلاة الشيعة)! فإننا لا نعلم له سنداً من التاريخ أو الواقع. وإن صح فليس فيه أكثر من الدلالة على عاطفتهم الشـديدة وسرعة تأثرهم! أو الرجوع على أنفسهم ولا يبدو أن ذلك من باب البساطة أو التقلب، وهما الوصفان اللذان وصف بهما الأستاذ السباعي: اللاذقية. . وليس في وسعنا تأكيد هذا أو مناقشته في هذا السياق.

ولعل (حمص) التي بالأندلس أدلّ على طبيعة أهل حمص الشام؛ قال ابن بسام: دخل جند من جنود حمص إلى الأندلس فسكنوا إشبيلية فسميت بهم، وكان بنو أمية قد سموا عدة مدن بالأندلس بأسماء مدن الشام؛ قال محمد بن عبدون يذكر حمص الأندلسية هذه:

هـل تـذكـر العهـد الـذي لـم أَنْسَـه ومـودَّةً ممـزوجـةً بصفـاء
ومبيتنا في أرض حمصٍ والحِجى قـد حُـلَّ عقـدُ حُبـاه بـالصهبـاء
ودمـوع طـلٍّ الليـل تخلـق أعيُنـاً تـرنـو إلينـا مـن عيـون المـاء!

ليسـت المودة والعاطفـة والخيال وحب الجمـال في حمص الأندلس بعيداً عن حمص الشام. . . علماً بأن إشبيلية سكنها جند من جنود حمص وليس قوماً من الأدباء والشعراء!

وأيّاً ما كان الأمر فقد كان السباعي رحمه الله مفطوراً على الصدق والصراحة ورهافة الحس وقوة العاطفة. . بل إن هذه القوة حين التقت بعزيمة الإيمان وقوة الاعتقاد، فجّرت في نفس الشيخ رحمه الله أقصى درجات الحماسة والثورة ضد المستعمرين والطغاة والمستبدين، في الـوقت الذي كانت تنكسر هذه النفس وتدمع عيناها لمنظر من مناظـر البؤس والفاقـة. . حتى لكأن البطل الثائر يرنو إلى الدنيا بعيني شاعر. ويبدو أن صفاء النفس وقوة العاطفة لم يحتجبا في أي مرحلة من مراحل حياة الشيخ رحمه الله. . ولكنهما عادا في أيام مرضه الأخيرة ليظهرا كأشد ما يكون الظهور على صفحة تلك النفس الكبيرة. . كما تهدأ الأنهار العظيمة وتترقرق مياهها في السهول وبين يدي دخولها في البحار بعد صخبها وتدافعها في منابعها ومسيرة رحلتها بين الجبال والوديان. . . وهي في كلا الحالتين مياه صافية عذبة كما تفجرت من صخور المنبع لم تغير الرحلة الطويلة من صفائها وعذوبتها من شيء!.

الأسرة:

السباعي[1] سليل أسرة عريقة وبيت علمي منذ مئات السنين، كان أجداده يتولون الخطابة في الجامع الكبير بحمص جيلاً بعد جليل، وكان لأبيه مجالس علمية مع لفيف من فقهاء المدينة يجتمعون فيها و(يتدارسون الفقه ويتناقشون في أدلة مسائله) على تعدد مذاهبهم. يقول الشيخ: «وكان أبي رحمه الله يحضرني معه هذه الحلقات على صغر سني مما حبّب إليَّ هذه الأجواء» ويضيف: «حتى إذا تهيأت للدراسة العلمية وجهني إلى دراسة علوم الشريعة، وبخاصة دراسة الفقه المقارن ومسالك الأئمة في اجتهادهم»[2].

وندع السباعي يحدثنا عن أبرز صفات والده التي تركت أكبر الأثر في حياته واتجاهاته على أكثر من صعيد. والواقع الذي تنبئ عنه حياة الابن أنه ورث تلك الصفات من أبيه وتربّى عليها حتى صارت أبرز صفاته هو. وكأنه يتحدث عن نفسه رحمهما الله تعالى.

قال عن والده: «وكان يرحمه الله قوي الشكيمة مع أعداء البلاد، مسارعاً إلى الجهاد.. مؤيداً للحركات الوطنية قولاً وعملاً. ولا أزال أذكر وأنا ابن ست سنين كيف رأيته مع أكثر علماء حمص ـ وهو أصغرهم سناً ـ يطوفون في شوارع المدينة وأسواقها وقد تمنطقوا بأحزمة الرصاص، وبأيديهم البنادق، يمشون على مهل صفوفاً منتظمة، مكبّرين مهلّلين، داعين الشعب إلى مقاومة الإفرنسيين حين اقتربوا من حمص عند احتلالهم لسورية، وقد تقدمهم الشيخ عبد الغفار عيون السود... فاستجاب الناس إلى دعوتهم للجهاد. واشتروا السلاح والذخيرة، واستعدوا لمقاتلة الجيش الفرنسي الذي كان قادماً من طريق طرابلس. ولا أزال أذكر تلك الليلة التي غاب فيها أبي عن البيت ليخرج مع المجاهدين، وكيف سهرنا الليل كله مع أخي نسمع أزيز الرصاص وطلقات المدافع. وأمي تضمني وأخي إلى صدرها وهي تدعو الله أن ينصر المجاهدين».

ويضيف: «ولما نشبت الثورة السورية في حمص عام ١٩٢٧م كان والدي رحمه الله يجتمع بكثير من الثوار سراً في بعض البيوت ليسلمهم ما جمع لهم من

---

(١) هو الابن الأكبر في أسرة ضمت ستة ذكور، وخمس إناث.

(٢) مجلة حضارة الإسلام ـ دمشق، العددان السادس والسابع ـ كانون الأول وكانون الثاني ١٩٦١م.

إعانات مع بعض إخوانه. وكان يرسل معي إلى بعضهم جريدة المقطم التي كانت تنشر أنباء معارك الثورة بالتفصيل، وكان الفرنسيون قد منعوا دخولها...».

هذا طرف من حديث الأستاذ السباعي عن روح الجهاد التي كانت تسري في بيته، ويشهد واقعها في أسرته وبلده... وقد تحدث كذلك عن تحدي والده - بعد ذلك - للأحكام العرفية التي فرضتها فرنسة، وللمستشار الفرنسي في بعض حوادث الإضراب التي شهدتها حمص.

أما الصفة الثانية فحب الخير والإسهام في تأسيس الجمعيات الخيرية ورعاية الأيتام، وفي جمع الأموال والتبرعات لأصحاب الفاقة، يقول الشيخ: «ولما حصل الإضراب العام ضد الفرنسيين في سورية عام ١٩٣٦م واستمر ستين أو سبعين يوماً أصابت العمال منها ضائقة شديدة، فألّف - أي والده - لجنة من إخوانه لجمع التبرعات لهم.. وطافوا على التجار فجمعوا من الأقمشة آلاف الأمتار، ومن الرز والسمن مقادير كبيرة وزّعت كلها على العمال المتضررين».

وأخيراً وصف الشيخ والده بأنه (كان يحب دعوة الإصلاح ويشجع عليها) قال: «وإني لا أذكر في حياتي التي قمت فيها بدعوة الإصلاح - وقد بدأت ذلك في سن مبكرة - أنه انتهرني مرة أو ثناني عن طريقي، ولقد كان يستقبل سجني واعتقالي بهدوء. حدثني أخي الشيخ محمد الحامد أنه قابل أبي بعد اعتقالي في مصر في أوائل الحرب العالمية الثانية ونقلي إلى معسكر صرفند في فلسطين - وكان أبي لم يعلم بالخبر بعد - وأخبره بأمر اعتقالي فتبسم وقال: «لا بأس فالسجن للرجال!»[1].

ما كان لهذه الأسرة إلا أن تُعد الرجال وتخرج الأبطال! ولهذا فإن الأستاذ السباعي حين هبّ للجهاد على أرض فلسطين - وله من العمر ثلاثة وثلاثون عاماً - لم يجد من والده سوى الدعاء بالنصر والتأييد في وقت كانت فيه (الجندية) مغرماً ثقيلاً لا يُسعى إليه بعد ما كان من أمرها في أواخر العهد العثماني ما كان! وهذا الموقف من الوالد الكريم يستحق التسجيل بقلم الابن الذي عاش يحمل روح الشهادة بين جنبيه طيلة حياته. قال رحمه الله:

«ولما قامت معركة فلسطين بعد قرار التقسيم عام ١٩٤٨م وهبّت سورية مع

---

(١) مجلة حضارة الإسلام - السنة الثانية، العدد السادس والسابع ١٩٦١م.

البلاد العربية للتطوع في الحرب إلى جانب إخواننا أبناء فلسطين، كنت قد مررت بحمص عائداً من محافظات الشمال مع نفر من شباب الإخوان المسلمين بأسلحتهم وذخيرتهم ونحن في طريقنا إلى دمشق، فلم أخبر أبي بعزمي على الجهاد في فلسطين مع هؤلاء الشباب المؤمنين لخوفي من أن يحاول صرفي عن الجهاد معهم لما يعلم فيَّ من مرض (ارتفاع ضغط الدم) قد يؤدي ذهابي إلى فلسطين للقتال فيها إلى تفاقمه وخطره على حياتي. واتفق أن أصرّ أحد إخواني الصغار على التطوع في هذه القافلة فلم يستطع والدي إقناعه بأنه صغير لا يصلح لذلك، وتابعنا سيرنا إلى دمشق، وفي اليوم الثاني قرأ والدي في بعض صحف دمشق أني سأذهب على رأس تلك القافلة إلى فلسطين. فحضر إلى دمشق من حمص وسألني عن صحة الخبر فأجبته بأنه صحيح. ففكر قليلاً ثم قال: ألا ترى أن سفرك يعرض حياتك للخطر دون أن تقاتل فكيف إذا قاتلت؟ قلت له: أنت تعلم يا أبي أن الآجال بيد الله، ولأن يموت الإنسان شهيداً خير من أن يموت مريضاً! فقال: إني لا أحاول أن أثنيك عن الجهاد، فوالله لو كنت مستطيعاً القتال لكنت أول من يقاتل معكم، ولكنك تعلم أن أخاك صغير، وأمك لا تتحمل أن تذهب أنت وأخوك معاً إلى فلسطين لتقاتلا، فهلا نصحت أخاك بالعدول عن السفر معكم؟ قلت له: فعلت فلم يستمع، فما تمالك أن فاضت من عينيه دمعتان، ثم قال لي: سلمتكما إلى الله، والله يحفظك وإخوانك المجاهدين، أيدكم الله وأعانكم. ثم عاد إلى حمص»[١].

محب الدين الخطيب ومدرسة (الفتح):

لم تعد أبرز صفات الشيخ بعد هذه النشأة تحتاج إلى بيان، ولكن الإحاطة بهذه الصفات ومحاولة فهم منابعها في نفسه لا يكمل فيما نقدر دون الإشارة إلى مدى تأثره بمجلة (الفتح) وشخصية صاحبها الداعية المجاهد السيد محب الدين الخطيب، لأن هذا التأثر فعل فعله على نحو قريب أو مماثل للأسرة المجاهدة النبيلة... بل جاء مكملاً له ومضافاً إليه في الوقت المناسب.. فقدح في نفسه الشرارة. **في الوقت الذي كان ما يزال في بداية طلبه العلم يحاول ملء الوعاء..** وهذا سر نهوضه بأعباء العمل العام في سنٍ مبكرة جداً لم تكن تتجاوز الثلاثة عشر ربيعاً!.

---

(١) مجلة حضارة الإسلام ـ السنة الثانية، العدد السادس والسابع ١٩٦١م.

كتب في عام ١٣٥٦هـ ١٩٣٧م يقول:

«لا أعرف أن لأحد فضلاً عليَّ فيما أجده في نفسي من غيرة على الإسلام وحمية في الدفاع عنه، وآلام بالغة مما وصلت إليه حالة المسلمين، إلا لرجل واحد أحببته قبل أن أراه، ثم لم تزدني معرفتي به إلا حباً فوق حبي له، وإكباراً لا يدانيه إكباري لأحد من رجالات المسلمين اليوم. ذلك هو المسلم الذي فهم الإسلام حق فهمه، وخدمه حق خدمته: **الأستاذ محب الدين الخطيب**.

«منذ بضع سنوات كنت أتلقى العلم في إحدى دور العلم في مدينتي (حمص) وكان شأني كشأن إخواني من طلبة العلم لا نعلم عن الإسلام إلا أنه دين لا يتبعه المسلمون اليوم، ولا نعلم عن المسلمين إلا أنهم في ذلة واستكانة، ولا نقرأ من الصحف إلا الصحف السياسية ذات الغايات المختلفة، أما الصحف الإسلامية فما كانت أيدينا تصل إلى شيء منها إذ لم تكن قد خلقت بعد! فكنا في عزلة تامة عن العالم الإسلامي: لا نعلم من حوادثه إلا ما تتكرم به علينا صحفنا السياسية بعد أن تلوّن تلك الحوادث باللون الذي تشاؤه. وحسبك أننا كنا نعد أعمال الكماليين في تركيا إصلاحاً ونهوضاً! وأعمال أمان الله خان رقياً وتمدناً! ونعجب كيف يثور الأفغان على إصلاحات مليكهم!».

وهنا تقع المفاجأة ويحدث التحول، يقول الفتى: «في هذه الفترة اطلعت على صحيفة (الفتح) وكانت في سنتها الثالثة[1]، فما تصفحتها حتى غدوت إلى إخواني أبشرهم بها، وكنت في فرحي **كأنما هُديت إلى شيء ثمين كنت أنشده منذ زمن بعيد**، وفرح إخواني بالفتح كما فرحت، وغدونا نبشر به كل مجلس، حتى أصبح له أحباء كثيرون يكنّون له من الحب والحرمة أوفر نصيب».

ويضيف: «وما كدنا نتصل بالفتح حتى بدأنا نعرف واجبنا في الحياة كشبّان مسلمين. وأخذنا ندرك خطر ما يبيته الاستعمار من وسائل الكيد للمسلمين. وتأجّجت في أفئدتنا نار الحمية لدين الله، والنقمة على أعدائه، وشعرنا بأن الفتح هو همزة الوصل بيننا وبين أقطار الإسلام».

---

(١) أي في عام ١٣٤٧هـ ١٩٢٨م، وكان طالباً في نهاية مرحلة التعليم الإعدادي (صدر العدد ١٠١ فاتحة السنة الثالثة في ٣ المحرم ١٣٤٧هـ الموافق ٢١ يونيو (حزيران) ١٩٢٨م).

ووصف (الفتح) مرة بأنه «خادم الإسلام، ومحطم الأصنام. . وعدو الاستعمار، وخاذل الفتنة، وقاصم ظهور الملاحدة والمفتونين»[1].

ثم عاد لتأكيد جملة هذه المعاني وبيان المزايا التي اجتمعت في (الفتح) وجعلتها تفوز بإعجاب (الغيورين من شباب الإسلام وقادته) وذلك في مستهل عام المجلة الرابع عشر. . وكان مما قال: «ولا أزال أذكر كيف تفتحت عيناي لحقائق المجتمع الإسلامي بعد أن اتصلت بها، وكيف كانت تلاوتها تلهب في فؤادي حمية الشباب وعصبية الإسلام، فإذا أنا ثائر هائج، وإذا أنا بين جدران السجون تارة، وفي غرف التحقيق تارة أخرى. . . »[2].

---

(١) مجلة الفتح العدد ٥٤٣ في ١٩ المحرم ١٣٥٦هـ (٣١/ ٣/ ١٩٣٧م).

(٢) مجلة الفتح العدد (٦٥١) في ٨ ربيع الأول ١٣٥٨ (٢٧/ ٤/ ١٩٣٩م) ويضيف قائلاً:
«ولا أزال أذكر كم كنت أعاني من الشوق إلى الأستاذ الخطيب، والرغبة في لقائه، حتى بلغ بي الأمر أن رأيته في أحلامي مرات متعددة. وما كان اللقاء بعدها حقيقة ويقظة إلا ليزيدني به حباً، وبجهاده وخلقه إكباراً وإعجاباً».
وقد خاطبه في افتتاحية العدد الذي استهلت به (الفتح) عامها الخامس عشر بقوله:
«سيدي الأستاذ (الخطيب)
لن أحاول إطراءك الآن فهذا شيء يؤلمك ويؤذيك، ولكن سأحاول أن أحمل إليك رجاء قرّائك من شباب محمد ﷺ في مصر والشام ومن الصفوة المختارة من أبناء الإسلام في أقطاره المختلفة بأن تثابر على جهادك الهادئ في سبيل الإسلام والمسلمين، متابعاً تقوية (الفتح) وتنمية مادتها ليدوّي صوتها في الآفاق أقوى مما كان، ولتشق طريقها بين تلك الصحف القوية بماليتها وبأحزابها، ولتؤدي رسالتها السامية إلى أكبر عدد ممكن من شباب الإسلام وعلمائه. . .».
مجلة الفتح العدد (٧٠١) في ٣ ربيع الأول ١٣٥٩ (١٠/ ٤/ ١٩٤٠)
وكان يخاطبه في رسائله بـ(سيدي الأستاذ الفاضل) و(سيدي الأستاذ الجليل) و(سيدي الأستاذ المجاهد). انظر صورة من هذه الرسائل في كتاب السباعي بأقلام محبيه، ص٥١٢ـ٥١٩.
ونشير بهذه المناسبة إلى المنزلة الرفيعة التي كان يحتلها الأستاذ محب الدين في الدعوة والإعلام والفكر الإسلامي، وفي العروبة والقومية البريئة من أي معنى من معاني الجاهلية والنازية. وحين كتب في العدد (٢٤٥) من مجلته الرائدة (الفتح) مثنياً على بعض أعمال جماعة الإخوان المسلمين في مختلف أنحاء القطر المصري؛ كتب إليه الأستاذ (حسن أحمد البنا رئيس الجمعية بالإسماعيلية) رسالة مؤرخة في ١٩ ذي القعدة=

كتب هذا بعد أكثر من عشر سنوات مرت على أول عدد وقع في يده من مجلة (الفتح) الأمر الذي يدل على مدى تأثره الذي لم ينقطع بهذه المجلة، بل الذي كانت وتيرته ترتفع مع الأيام، كما تشير هذه الكلمات الأخيرة!

ونقف هنا عند أول رسالة خطها للسيد محب الدين الخطيب، نظراً لما تحمله من دلالات إضافية على شخصية السباعي، أو على تفسير هذه الشخصية في هذا الوقت المبكر، لقد كتب هذه الرسالة من بلده (حمص) بتاريخ ٢٢ شعبان ١٣٤٧هـ (١/ ٢/ ١٩٢٩م) وأشار فيها إلى ثلاث مقالات نشرت في (الفتح) وكانت تحمل الأرقام ـ والتواريخ ـ التالية: العدد ١٢٨ بتاريخ ١٥ رجب ١٣٤٧هـ (٢٧/ ١٢/ ١٩٢٨م)، والعدد ١٣١ بتاريخ ٦ شعبان ١٣٤٧هـ (١٧/ ١/ ١٩٢٩م) والعدد ١٣٢ بتاريخ ١٣ شعبان ١٣٤٧هـ (٢٤/ ١/ ١٩٢٩م)، وكانت عناوينها ـ على هذا الترتيب ـ (البيعة على الجهاد) و(المثل الأعلى في الأخلاق والعمل في سبيل الله) و(الجهاد في سبيل الله ومنزلته من الإسلام).

فقد ذكر في هذه الرسالة أنه حين قرأ هذه المقالات (أخذته الغيرة الدينية والنعرة الإسلامية) قال: «فأرسلت هذا الكتاب معاهداً ربي على أن أكون مستعداً لكل خدمة دينية وأمر ديني، **واقفاً نفسي في خدمة الدين والوطن جميعاً**».

إن سيرة السباعي التي نتحدث عنها تقف شاهد صدق على هذا العهد الذي قطعه على نفسه في هذه السنّ! فقد (وقفها) في خدمة الدين والوطن.. ولهذا فإننا

= ١٣٤٩هـ (٧/ ٤/ ١٩٣١) نشرت في العدد التالي من أعداد الفتح (٢٤٦) أبدى فيها رغبته في عدم الإعلان عن هذه الأعمال، و«المفاخرة بجهود هي أقل مما أوجبه الله على كل مسلم» وقد استهل الأستاذ البنا هذه الرسالة التي جاءت على درجة عالية من الحصافة وإنكار الذات بخطاب الأستاذ الخطيب بقوله: «سيدي الأستاذ الأجلّ السيد محب الدين الخطيب صاحب الفتح الأغر. أحييك وأحيي روحك الطيب الذي يشع نور الهداية على قلوب المؤمنين، فيضيء لهم سبيل العمل لخدمة العروبة والإسلام والشرق المحبوب، وأشكر لك جهاداً متواصلاً شكره الله لك قبل خلقه، وعرفه منك قبل أن يعرفه الناس...». انظر العددين المشار إليهما من الفتح، العام الخامس، ص٧٠٧ و٧٢٨.
ونعت علامة الشام أستاذنا الشيخ محمد بهجة البيطار السيد محب الدين الخطيب بـ(الأستاذ المجاهد فخر العرب). انظر العدد ٦٥٩ من (الفتح) في ٤جمادى الأولى ١٣٥٨هـ (٢١/ ٦/ ١٩٣٩) العام الرابع عشر، ص٢٢٠.

لم نبعد حين قلنا في وصفه ـ بعد أن استعرضنا هذه السيرة ـ إنه كان رجل الوطنية والعروبة والإسلام.

ويبقى علينا أن نذكر هنا أن المقالة الثالثة المشار إليها، والتي كان بين تاريخها وتاريخ هذه الرسالة أسبوع واحد.. كانت لمدرس اسمه: حسن أحمد البنّا! ألا ما أعجب هذه المصادفات أو الموافقات ـ بتعبير أدق ـ فلسوف يرتبط اسم السباعي ودعوته باسم حسن البنا ودعوته، في مرحلة من أهم مراحل حياة السباعي وجهاد واجتهاده.. رحمهما الله تعالى.

مع الإشارة أخيراً إلى أن هذه المقالة ـ الافتتاحية ـ استهلّها الأستاذ البنا بقوله: «أما آن للمسلمين أن يعلموا هذه الحقيقة من دينهم، ويفهموا أن المسلم الصادق هو الذي جعل نفسه وماله **وقفاً على نصرة الحق والدعوة إليه**، وأن الجهاد في سبيل الله أول الواجبات الإسلامية وأقدسها».

والجواب: نعم، ولقد كان مصطفى السباعي أول من استجاب فوقف نفسه وماله على نصرة الحق، وعلى الدعوة إليه، وعلى الجهاد في سبيل الله.

ويستدرك البنا قائلاً: «وليس معنى ذلك أن الإسلام لم ينتشر إلا بالسيف كما يتوهمه بعض المبطلين، ولكن معناه أن الحق لا ينتصر إلا بالدعوة إليه، والتضحية في سبيله، وإحاطته بسياج من العزة، وتلك سنّة الله في خلقه»[1].

نعود إلى السباعي الفتى الذي فرح بمجلة الفتح وملكت عليه مشاعره عام

(١) قال السيد محب الدين الخطيب: «إن الأستاذ حسن البنا أمة وحده، وقوة كنت أنشدها في نفس مؤمن، فلم أجدها إلا يوم عرفته في تلك الغرفة المتواضعة من دار المطبعة السلفية سنة ١٣٤٦هـ (آذار ـ مارس ١٩٢٨) وكنت (ابن صنعة) يوم اكتشفت بيني وبين نفسي حاجة الإسلام إلى هذا الداعية القوي الصابر المثابر الذي يعطي الدعوة من ذات نفسه ما هي في حاجة إليه من قوة ومرونة ولين وجلد وصبر وثبات إلى النهاية» وأضاف: «وكان أول ما نشرته له، ولعل ذلك أول شيء نشره هو، مقالة (الدعوة إلى الله) في خاتمة السنة الثانية من الفتح (٢٥ذي الحجة ١٣٤٦هـ ـ ١٤حزيران (يونيه) ١٩٢٨) ـ العدد ١٠٠ ـ ثم مقالة (على من تجب الدعوة؟) في عدد ١٧ المحرم ١٣٤٧هـ (٥/ ٧/ ١٩٢٨) العدد ١٠٣ من الفتح. ثم رجوته أن يحاضر الشبان المسلمين في دارهم الأولى التي كانت بشارع مجلس النواب فملأ قلوبهم من قلبه ما شاء الله له من توفيق...» الفتح، العدد ٨٦١ (العام الثاني عشر) ص١٨، ذو القعدة ١٣٦٧هـ (أيلول/ سبتمبر ١٩٤٨).

١٣٤٧هـ (١٩٢٨م) كأنما اهتدى إلى شيء ثمينٍ كان ينشده من زمن بعيد . . ولكن أيُّ زمن بعيد هذا كان قد مضى عليه وهو لم يتجاوز الثالثة عشرة من عمره؟ وما الذي كانت تنشده هذه النفس الأبية من ذلك الزمن البعيد؟ اللهمَّ إلا أن تكون قد فُطرت على معالي الأمور، وأن تكون الثورة الكامنة فيها هبة من هبات الخلق والتكوين! **وهكذا جاء معول الفتح ليفجر النبع القريب بضربة واحدة!** فكان فتحاً جديداً مبيناً في دنيا العروبة والإسلام، ولهذا فإن السيد محب الدين لم يجد بأساً بأن يعهد لهذا الشاب بعد أن التحق بالأزهر طالباً في كلية الشريعة عام ١٣٥٢هـ بأن يكتب الكثير من (افتتاحيات) الفتح بدءاً من عام ١٣٥٤هـ وأن يكون من أبرز كتَّابها، بل أن يزيّن أحد أعدادها بصورة هذا الشاب البهيّ الطلعة، الذكي النظرات، بعمته وجبّته الشاميتين، وأن يكتب تحتها ما يلي: «الشيخ مصطفى حسني السباعي منشئ المقالات النفيسة التي نالت إعجاب أهل الفضل»[1]. رحم الله الأستاذ الخطيب فقد كان من هؤلاء.

---

(١) مجلة الفتح العدد (٥٥١) في ١٧ ربيع الأول ١٣٥٦هـ (٢٧/ ٥/ ١٩٣٧) فاتحة العام الثاني عشر. ويبدو أنه بدأ يتردد على (الفتح) بعد وصوله إلى مصر مباشرة، أو بوقت جدّ قصير، وقبل أن يبدأ الكتابة فيها بنحو عامين. فقد جاء في العدد (٣٧٢) في ٥ شعبان ١٣٥٢هـ (٢٢/ ١١/ ١٩٣٣م) حول البراءة من القاديانية ما يلي: «وقد زارنا في إدارة الفتح أثناء كتابة هذه الكلمات الشاب الفاضل السيد مصطفى السباعي من أدباء حمص، وأخبرنا أنه بالرغم من منع دخول الفتح إلى الديار الشامية فإن العدد الذي كنا نشرنا فيه مقالة (رابطة قاديانية لا رابطة إسلامية) وصل إلى هناك، وكان وصوله أثناء زيارة صاحب مجلة (الرابطة الإسلامية) مدينة حمص، فأطلعه شبابها على مقالة الفتح، وذكروا له أن الأحمديين أعلنوا اسم مجلته في عِداد مجلاتهم، فاعتذر بأنه لم يعلم أن الأحمدية هم القاديانية، وأنه خدع بدعواهم خدمة الإسلام، وأعلن براءته منهم ومن غلام أحمد القادياني، وكفّ من ذلك الحين عن نشر شيء للأحمدية.
قلت: والعدد المشار إليه يحمل الرقم (٣٣٢) وصادر بتاريخ ٢١ شوال ١٣٥١هـ ـ السنة ٧، ص٥٠٦. وكاتب المقالة هو السيد طه فياض العاني من مدينة البصرة؛ يقول الكاتب: «قرأت العدد الأول من مجلة الرابطة الإسلامية التي عادت إلى الانتشار في دمشق، فوجدتها حاملة لواء الأحمدية (القاديانية). . .» ثم أكد ذلك الأستاذ تقي الدين الهلالي، فكتب من مدينة لكنو بالهند بتاريخ ١٧ من ذي القعدة ١٣٥١هـ مقالة بعنوان: (بل هي قاديانية وإن كنا عن ذلك غافلين) العدد (٣٤٠) من الفتح في ١٨ ذي الحجة، السنة ٧، ص٦٢٨.

أما تلك المقالات النفيسة حقاً، والتي استشهدنا بشذرات منها فيما تقدم ـ في المشهد السياسي والثقافي ـ فقد بدأها الشاب ولما يكمل العشرين من عمره رحمه الله.

سائر نشأته وحياته في حمص:

كان لهذا النبع رفد من أسرة عريقة ووالد كريم ـ أشرنا إليه ـ ورفد آخر من حفظ القرآن الكريم وطلب العلم، وإذا كانت بدايات هذا الرفد الثاني تمت على يدي والده نفسه قبل أن تؤهله سنّه للالتحاق بالمدرسة الابتدائية، فإنه ما لبث أن التحق بالمدرسة المسعودية، وهي مدرسة خاصة أسسها الشيخ طاهر الرئيس بالمدينة، ثم التحق بالثانوية الشرعية (إعدادي وثانوي) وتخرج فيها عام ١٩٣٠م[1]. . وكانت نفسه الطلعة قد التقت بالفتح ومدرسة محب الدين الخطيب قبل ذلك بنحو عامين. . كما حدثنا هو رحمه الله. ولهذا فإننا نستطيع أن نقدر معنى كلماته عن الفتح إذا علمنا أن دراسته الشرعية التي كان قد قطع فيها أربع سنوات قبل التقائه بالفتح أتاحت له الفرصة للإلمام بمحاسن الإسلام وبطرف من الثقافة الإسلامية وعلوم الشريعة، قام بمقارنته بأوضاع المسلمين وبعدهم عن الشريعة. على الرغم من أن هذه العلوم تراثية أو يغلب عليها الطابع التراثي الذي تواضع عليه المسلمون أو انحدر إليهم عبر عشرات السنين. ولكن فهم تلك الأوضاع أو تفسيرها على وجهها الصحيح لم يكن في وسعه أن يقف عليه وهو يتلقاه عبر الصحافة ـ السياسية ـ السائدة أو القائمة. . حتى إذا ظفر بمجلة الفتح وقع على ما كان بأمسّ الحاجة إليه. . ولهذا عبّر عن فرحه الشديد بهذه المجلة الرائدة بقوله الذي أشرنا إليه: «كأنما هديت إلى شيء ثمين كنت أنشده منذ زمن بعيد»!.

لعلَّ من نافلة القول أن نذكر هنا ما قيل عن شغفه بالمطالعة وعدم الاقتصار على كتب المدرسة ومناهج التدريس. . وعن مدى تقدير أساتذته ومعلّميه لهذه الموهبة الواعدة. . التي ما لبثت أن عبرت عن نفسها ليس بالنجاح الباهر والتفوق

---

(١) الأستاذ محمد بسام الأسطواني: مجلة حضارة الإسلام، ص١٢٦، الأعداد: ٤ ـ ٦ (العدد الخاص) ١٣٨٤هـ؛ وانظر مقالة الأستاذ مشهور الضامن في كتاب (مصطفى السباعي بأقلام محبيه وعارفيه) بعنوان: الذكريات الخالدة مع الأخ الكريم العالم الجليل الدكتور الشيخ مصطفى حسني السباعي رحمه الله، ص١٩٩.

على الأقران على مقعد الدرس.. فحسب، ولكن بالانطلاق أيضاً في ميدان العمل العام.. خطيباً على منبر أبيه في المسجد الجامع.. ومقاوماً للثقافة التبشيرية ومدارس الإرساليات.. ومحرّضاً شديد المراس والتأثير على الاستعمار والاحتلال.. ليس فقط ضد سياسة فرنسة في بلده سورية.. بل كذلك ضد سياتها في المغرب العربي[1].

وبهذه المناسبة فإن الناظر في خطبه وأقواله.. بل المتتبع لسيرته وحياته سوف يلاحظ أن السباعي في مراحل حياته جميعاً، وبدءاً من هذه المرحلة المبكرة التي نتحدث عنها، كان يكافح في سبيل القضايا الوطنية والعربية والإسلامية، وأنه كان ـ على الدوام ـ رجل الوطنية والعروبة والإسلام: ويعكس هذا مدى فهمه لشمول الدعوة الإسلامية في وقت مبكر من جهة، ومدى تأثره الشديد بالأستاذ محب الدين الخطيب الذي احتلت العروبة والفكرة القومية ـ البريئة من أي معنى من معاني التعصب والجاهلية ـ مكاناً بارزاً في كتبه ومقالاته ومنهجه الإصلاحي، من جهة أخرى.

وقد انتسب السباعي في حمص إلى جماعة (الرابطة الدينية) التي أسسها بعض العلماء ـ وعلى رأسهم الشيخ محمود جنيد ـ رحمه الله ـ وقد ذكر هو ذلك بمناسبة حديثه عن المؤتمر الأول الذي عقده (شباب محمد) مما سنفصل فيه القول فيما بعد؛ قال رحمه الله: إنه لم يكن يعرف قبل هذه الجمعية ـ جمعية شباب محمد ـ سوى إخوانه جماعة الرابطة الدينية في حمص[2]، قال: «وكنت وأنا في مصر على صلة بهم عن طريق المراسلة»[3]، علماً بأن الأخ الفاضل الأستاذ محمد بسام الأسطواني الذي أوجز في مقالته الجامعة التي كتبها عن السباعي بعد وفاته، ذكر فيها أن أول عمل قام به السباعي في حمص كان (تأليف جميعة سرية لمقاومة مدارس التبشير الأجنبية التي أنشئت بمساعدة وحماية

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص١٣٢.

(٢) لم يلبث هذا الاسم أو العنوان (شباب محمد) أن أضحى هو العنوان الجامع الذي انضوت تحته اللافتات والأسماء على تعددها في مختلف المدن. مثل الرابطة الدينية في حمص، والشبّان المسلمين بدمشق، ودار الأرقم بحلب، والإخوان المسلمون في حماه.. وكانت دار الأرقم أقدم هذه الجمعيات في بلاد الشام.

(٣) مجلة الفتح ـ العدد (٦٣٩)، ص٤ تاريخ ١٣ ذي الحجة ١٣٥٧هـ (٢/ ٢/ ١٩٣٩).

السلطات الاستعمارية الفرنسية أيام الانتداب. .)[1]. وأنه كان يتولى بنفسه كتابة المنشورات التي تحذر الآباء والأسر من هذه المدارس. ثم يتولّى توزيعها مع زملائه أعضاء الجمعية. وسواء أكان هذا العمل مستقلاً عن (الرابطة الدينية) أم جزءاً ـ خاصاً به ـ منها، وإن كنا لا نستبعد أن يكون هذا العمل مستقلاً، وأنه جاء بعد اتصاله بمجلة (الفتح)؛ فإن من الراجح أن السباعي قام بالتحذير من هذه المدارس، وبيان مدى خطورتها على أجيال المسلمين. . بل لا نبعد أن يكون هذا العمل فاتحة مشاركته في العمل العام أو فاتحة نزوله إلى ميدانه. . نظراً لمدى خطورة هذه المدارس ومدى تعويل الاستعمار الفرنسي عليها. . كما عرضنا لذلك في المشهدين السياسي والثقافي[2].

والذي يؤكد ذلك أن السباعي بعد نحو عامين من اطّلاعه على مجلة (الفتح) كتب إلى صاحبها السيد محب الدين الخطيب يستأذنه في طبع كتاب (محاسن الإسلام) لتوزيعه مجاناً في (حمص) من أجل الوقوف في وجه المبشرين، والرد على أباطيلهم.

قال في رسالته هذه للسيد محب الدين، والمؤرخة في ٣٠ ذي القعدة ١٣٤٩هـ (١٦/ ٤/ ١٩٣١) ـ وكان في الخامسة عشرة من عمره ـ: «كان لعمل المبشرين في بلدتنا حمص أثر سيِّئ في نفوسنا ـ والله يعلم مبلغه ـ وداعٍ كبير إلى التشمير عن ساعد الجد، وتنبيه المسلمين من سوء نوايا هؤلاء المُبشرين، وتحذيرهم من عاقبة غفلتهم ورقدتهم. لذلك عزمنا ـ نحن فئة من شباب حمص ـ على أن نرسل لحضرتكم هذا الكتاب، نطلب فيه منكم بأن تسمحوا لنا بطبع (محاسن الإسلام) لكي نوزعها مجاناً في البلدة. ونطلب الإذن أيضاً من مؤلفها الأستاذ مصطفى الرفاعي. ولا نخالكم إلا فاعلين إن شاء الله، ومحققين أملنا، لما نعهده فيكم من الغيرة على هذا الدين، والتفاني في خدمته. ولا نظن أيضاً

---

(١) مجلة حضارة الإسلام ـ العدد الخاص بالسباعي الأعداد (٤ ـ ٦)، ص١٣٢، دمشق ١٣٨٤هـ.

(٢) ربما كانت الجمعية المشار إليها هي التي تحدّث عنها الأستاذ قاسم الشاغوري، فقد خاطب السباعي في كلمته الموجزة التي رثاه بها، فقال: «لقد عرفتك يافعاً، وقد كنا في جمعية واحدة جمعية (الدعوة إلى الحق) وقد كنتَ من أخلصنا غاية، وأعلانا تربية، وأنبلنا مقصداً، وأشدنا حماسة، وأقوانا شكيمة» المصدر السابق، ص٢٢١.

إلا أن حضرتكم ستكونون مشجعين لنا على هذا العمل النافع، وللمعين على الخير ثواب كثواب فاعله. . ».

أما أعمال هؤلاء المبشرين فقد رأى فيها سبباً ليقظة المسلمين، وحافزاً لهم للرجوع إلى دينهم، قبل أن يثبوا وثبة الأسود ليقضوا على كل من يسومهم سوء العذاب! وربما دلَّت كلماته على ربطه المبكر بين التبشير والاستعمار، **في الوقت الذي عبرت عن فهم دقيق لأسباب اليقظة والنهوض. . وعن قبول التحدي الذي كان ومازال سمة من سمات القادة والمصلحين**. وتظهر كلماته كذلك مدى الثورة الكامنة في نفسه ـ والتي أشرنا إليها قبل قليل ـ من جهة، ومدى قناعته بأن عواقب تبشير هؤلاء ستكون وبالاً عليهم، من جهة أخرى.

إنه مصلح الغد الثائر. . قال رحمه الله:

«وبعد، فإن الله إذا أراد أمراً هيأ أسبابه وأعدَّ دواعيه. . ولقد أراد الله بالمسلمين خيراً، فأرسل عليهم جيوش المبشرين، كي يكون ذلك سبباً في يقظتهم وانتباههم ورجوعهم إلى دينهم، حتى إذا تم ذلك وثبوا وثبة الأسود من مكامنها، فقضوا على كل من كان يسومهم أنواع العذاب! وأبانوا للأمم جمعاء أنهم ليسوا كما كانوا يظنونهم من أنهم أمة قضي عليها بالفناء والدمار، وإنما هم لا يزالون أحياء، ولكن الدهر قد خانهم وغدر بهم، والدهر ـ كما قيل ـ يومان: يوم لك، ويوم عليك»[1].

أما عواقب تبشيرهم فلن تكون إلا وبالاً عليهم «وسيتحققون بعد ذلك أنهم إنما كانوا بتبشيرهم يسعون إلى حتفهم بظلفهم، وأنهم هم الجانون على أنفسهم. ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

وقد بقي أمر هذه المدارس ـ وبخاصة في ظل الاحتلال ومرحلة المقاومة هذه ـ يقضّ مضجعه، فكتب عنها في (الفتح) بعد أن ذهب إلى مصر، بل كانت كتابته عنها من أوائل ما كتب في هذه المجلة عام ١٣٥٤هـ. . حتى لكأن هذه الكتابة استمرار لكتاباته السابقة في حمص ـ وربما دفعه إلى ذلك: ما رآه من انتشار هذه المدارس في مصر ـ، ومن ذلك قوله:

«قد يكون لبعض الناس العذر في وضع أبنائهم في هذه المعاهد قبل أن

---

(١) السباعي بأقلام محبيه، ص٥١١.

ينكشف الستار عن مقاصدهم الخبيثة! أما وقد اتضح الأمر لكل ذي عينين، وأتوا من الأعمال ما ضجّت منه البلاد على اختلاف طبقاتها، فلن يصح لأحد بعد هذا أن يلقي بثمرة فؤاده في هذه البؤر من الجحيم إلا إذا كان ممن ماتت فيه العاطفة، وفقد حنان الأبوة ورحمتها، وادّعى الإسلام دعوى يشهد الله ببطلانها!».

ثم توجه إلى الآباء قائلاً:

«أيها الآباء، إن هؤلاء الأجانب لم ينفقوا الأموال الطائلة على معاهدهم في بلادنا حبّاً بنا، وشغفاً بسواد عيوننا! ولم ينفقوها خدمة للعلم ورحمة بالإنسانية؛ فإن بلادهم وأمّتهم أحق بذلك منّا، ومتى كانوا للإنسانية خدماً ونحن نرى من فظائعهم ما تشيب لهوله الإنسانية ويتفطر له قلب الحليم؟.

«وإنما أنشأوا هذه المعاهد رغبة في نشر دينهم وثقافتهم، وتلقيح عقول أبنائكم بها، فهل ارتضيتم لأبنائكم أن ينقش زعانفة الكفر والباطل في عقولهم مبادئ الإلحاد والضلال؟ وكيف تستبدلون بنور الإسلام: ظلام الشرك، وبهدى الله: ضلال البشر؟»[1].

وعلى أية حال، فقد أتبع السباعي تلك المنشورات في مدينة حمص - وفي ظل الاحتلال والأحكام العرفية - بمنشورات وصفت بأنها نارية[2] ضد سياسة فرنسة في المغرب، فألقي القبض عليه لأول مرة، وكان ذلك في عام ١٩٣١م - وهو ابن ستة عشر عاماً - وبعد أن تم الإفراج عنه تابع ثورته عبر خطبه - النارية حقاً - على المنابر وعلى رؤوس المظاهرات الصاخبة التي كان يقودها بعد صلاة الجمعة في معظم الأحيان. ومن الملاحظ هنا أن خطبه كانت **سياسية - إن صح التعبير - ضد الاحتلال الفرنسي. وإصلاحية ضد الجهل والخرافة..**

خميس المشايخ:

ويبدو أن الذي لفت نظره إلى هذا البُعد الثاني أن الفرنسيين أنفسهم كانوا

---

(١) مجلة الفتح، ص٧، السنة العاشرة، العدد (٤٦٥)، تاريخ ٥ رجب ١٣٥٤هـ (٢/ ١٠/ ١٩٣٥).

(٢) محمد بسام الأسطواني، مصدر سابق، ص١٣٢.

يحاولون توظيف هذا الجهل لتبرير الاحتلال وتكريسه! فقد دعا مرة في إحدى هذه الخطب إلى إلغاء ما كان يسمى (خميس المشايخ) وعلى طريقته الحماسية الحادة! وقد وصف هو هذا الخميس فيما بعد ـ في المقالة التي رثى فيها أباه ـ بأنه: «موسم يقع في شهر نيسان (إبريل) من كل عام كانت تخرج فيه مواكب مشايخ الطرق بطبولهم وأعلامهم، ويقع فيه من المنكرات والشعوذة باسم الدين ما يخجل منه كل مسلم، وكان الفرنسيون يلتقطون لهذا الموسم أفلاماً يعرضونها في أوروبة لتشويه سمعة الشعب السوري خاصة والمسلمين عامّة»[1].

ونظن أن هذا التوظيف من قبل الفرنسيين هو الذي ضاعف من شعوره نحو خميس المشايخ أو خميس الشعوذة هذا! فثار عليه فتألبت عليه العامّة، يقول: «حتى كان بعضهم يبحث عني ليسفك دمي تقرباً ـ في زعمه ـ إلى الله بحجة أني كافر أريد القضاء على أمجاد الإسـلام وهيبته»!![2] وكان ذلك على الرغم من الإعجاب الشديد الذي لقيه من جمهور المصلّين عقب أول خطبة ألقاها مكان أبيه في المسجد الجامع بحمص ـ ربما في عام ١٩٢٨م أو ١٩٢٩م ـ فقد حدثني مرة أنه بعد أن ألقى هذه الخطبة في هذه السنّ وخرج من المسجد بعد انقضاء الصلاة كان العرق يتصبب منه، فأخذه أبوه وبعض إخوانه وجلسوا في بعض الحوانيت القريبة من المسجد، فكان الناس يمرون ويشير بعضهم إلى بعض إلى الخطيب الفتى الذي ألهب مشاهرهم وأسال عبراتهم!.

ويبدو أن محاربتـه للبدع وثورته على الخرافـات، وحتى على الخميس المشار إليه! لم تقتصر على خطبة أو اثنتين، ولكن خطبته المشار إليها عن خميس المشايخ كانت بالغة العنف حتى وصل الأمر عند العامة إلى ما وصل، ولهذا تقدم منه أبوه ـ على إثرها ـ قائلاً: «يا بني! إنك على حق فيما تدعو إليه، ولكنك كنت عنيفاً في محاربة هذه البدعة، أتظن أن بدعة مضى عليها أكثر من خمسة قرون تستطيع أن تقضي عليها نهائياً في بعض خطب ومحاضرات تلقيها؟ أشفق على

---

(١) مجلة حضارة الإسلام، ص١٠٦ ـ السنة الثانية ـ العددان السادس والسابع ١٩٦١م. وانظر مقالة مقتضبة حول هذا الخميس، وموقف العامّة والخاصة منـه، بعنوان (للعبـرة والتاريخ) في سلسـلة رسائله: هذا هو الإسـلام. المجموعة الثانية: الصفحات الأخيرة من هذه المجموعة ١٠ ـ ١٢. المكتب الإسلامي ـ الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ ـ١٩٨٨م.

(٢) مجلة حضارة الإسلام، العدد السابق.

نفسك، وحسبك أنك نبّهت الأذهان إلى أضرارها، ولا بد من أن يُحدث ذلك أثره في المستقبل القريب. . » يقول الأستاذ السباعي: وقد كان[1].

مقارعة الاستعمار الفرنسي:

أما السياسة، بمعنى مقارعة الاستعمار الفرنسي، فقد كانت محور خطبه ومحاضراته بوجه عام، ولكن الأمر في هذه الخطب كالأمر في خميس المشايخ. . توالى بعضها في إثر بعض حتى كانت خطبة ألقاها في الجامع الكبير بحمص عام ١٩٣٢ «ألهب فيها الشعور وهيج الجماهير»[2] غير عابئ بالأحكام العرفية وأوامر المفوض السامي! فألقت السلطات الإفرنسية القبض عليه وأودعته السجن لبضعة شهور. ولم يلبث حين تم الإفراج عنه أن غادر حمص والتحق بالدراسة بالأزهر عام ١٩٣٣، ليدخل في مرحلة جديدة من مراحل حياته التي اختلط فيها الكفاح بطلب العلم! لأنه لم يكن في مصر أقل ثورة على الاستعمار البريطاني منه على الاستعمار الفرنسي في سورية. . وقد حمل على عاتقه هموم العرب والمسلمين. . بل إن خطبه ومقالاته عن الوحدة العربية بوجه عام ـ وعن مدى التشابه والتقارب بين السوريين والمصريين بوجه خاص كقاعدة لهذه الوحدة ـ لم تنقطع . . كما سنرى في الفقرة التالية:

السباعي في مصر:

التحق مصطفى السباعي طالباً بكلية الشريعة بالأزهر الشريف (تخصص الفقه والأصول) بين يدي التجربة التي كان يقوم بها هذا المعهد العريق لتجديد أنظمته والانتقال من حياة الأروقة إلى نظام الكليات، ولم يمض على السباعي عام واحد حتى كان هو المعبر عن حاجات الطلبة غير المصريين، ومطالبهم في

---

(١) المصدر السابق نفسه. وغني عن البيان أن السباعي حارب الخرافة ودفع بها عن طريقه الذي سلكه في الدعوة والجهاد والاجتهاد والتجديد، وفي الإصلاح السياسي والاجتماعي. ولم يكن محاربة البدع شغله الشاغل أو همّه الوحيد كما يفعل كثير من (الدعاة)! علماً بأن بعض هؤلاء قد يفعلون ذلك إيثاراً للسلامة، أو مداراة للعجز، أو هروباً من معركة الإصلاح الشامل والحقيقي، أو قصوراً عن إدراك أبعاد هذه المعركة التي مايزال الإسلام يخوضها منذ أكثر من قرنين، والتي خاضها السباعي مجدِّداً للدّين، ومدافعاً عن الإسلام والمسلمين في جميع الميادين.

(٢) المصدر السابق، ص١٣٣.

الأزهر الجديد قال المحرر في مجلة (الفتح) وهو يتحدث عن (الحركة المباركة في الأزهر): «ولعل أصح ما يعبر عن ذلك خطبة ألقاها النجيب الفاضل الشيخ مصطفى السباعي بطلب من إخوانه الطلبة غير المصريين في الأزهر»[1]، بحسب عبارة الفتح التي لم يكن قد بدأ الكتابة بها بعد.

وقد ألقى هذه الخطبة (أثناء قيام الأزهريين ـ المصريين ـ بالإعراب عن مطالبهم في الأسابيع الأخيرة) تقول المجلة: «فأراد أبناء الأزهر الذين شدوا إليه الرحال من مختلف أقطار العالم الإسلامي أن يعربوا هم أيضاً عن ملاحظاتهم وما قد لا يعرفه الجمهور من دخائل علاقتهم بالأزهر»، فجاءت خطبة مصطفى السباعي تعبيراً عما يريده هؤلاء ـ الغرباء ـ من الأزهر.

وقد استهل هذه الخطبة بالإشادة بمصر ـ وقد أشاد بها في مناسبات كثيرة بعد ذلك ـ فقال: «بوركت يا مصر! مهد الحضارة، وموئل العلم، ومنبعث العرفان، موطن العظماء، ومحط رحال العلماء، وحاملة لواء الإسلام» ثم وصف الأزهر بأنه: «مهد النبوغ، وكعبة العلماء، وقبلة أنظار المسلمين في الشرق والغرب، ما زال يجالد الدهر ألف عام ناشراً العلم، باثاً للمعارف، غير عابئ بصروف الأيام ومصائب الحدثان..» وتوجه إلى الطلبة المصريين قائلاً: «إنكم يا إخواني الطلبة المصريين اجتمعتم هنا لترفعوا الصوت عالياً ببيان ما ترونه من مواطن الضعف في حالتكم العامة، ونحن معاشر الغرباء أولى منكم ببيان ما أصيبت به أواصر الأزهر بالعالم الإسلامي، حتى غدت مهددة بالانفصام، ومن حق الأمانة والإخلاص أن لا يكتم هذه الأمور من يعرفها» ثم بعد أن انتقد بعض المسائل الإدارية والعلمية.. لم يتردد في أن يقول: «والغريب أن الدوائر الأزهرية حينما تسمع بشكايات الغرباء على صفحات الجرائد!! تبادر إلى تكذيبها بدعوى أن للغرباء حقوقاً كثيرة ليست للمصريين، فأين هي هذه الحقوق؟ وأين العناية بهم؟».

وأخيراً ختم كلمته بقوله: «فباسم ألف طالب غريب أضم صوتي إلى أصواتكم راجياً ضم أصواتكم إلينا حتى يتم الإصلاح المنشود، ويد الله مع الجماعة»[2].

---

(١) مجلة الفتح، العام التاسع، العدد (٤٢٣) في ٢١ شعبان ١٣٥٣هـ (٢٨/ ١١/ ١٩٣٤).
(٢) المصدر السابق، ص٢٣.

وسرعان ما قادت هذه الموهبة طلبة الأزهر ـ في العام نفسه ١٩٣٤م ـ في مظاهرة ضخمة ضد الاحتلال البريطاني، فألقت السلطات الاستعمارية القبض عليه وأودعته السجن[١]. وليس بين أيدينا معلومات عن المدة التي قضاها في السجن، وعن ظروف الإفراج عنه.. ولكن من الراجح أن هذه المدة لم تكن طويلة. وأن بعض شيوخه في الأزهر عمل على تحقيق هذا الإفراج؛ لأنه قال في أكثر من مناسبة إن بعض أساتذته في الأزهر وقفوا إلى جانبه في (المحن) التي تعرض لها في مصر.

ومضت بضع سنوات حتى عام ١٩٤١م حيث اتهمته القيادة البريطانية بتشكيل جمعية سرية لتأييد ثورة رشيد عالي الكيلاني في العراق، وبتحريض المصرين على الثورة، فألقت عليه القبض وسجنته لمدة أربعة أشهر[٢]، ومعنى ذلك أنه لم يدع العمل العام في الفترة المذكورة ـ حتى إذا وجد رياح الثورة قد هبت من العراق سارع إلى المناصرة والتأييد ـ ولكنه وجد في الكتابة والخطابة وسيلة للتعبير عما يجيش في نفسه من آلام وآمال.. فقد بدأ الكتابة على صفحات مجلة (الفتح) في العام التالي مباشرة لاعتقاله الأول السابق عام ١٣٥٣هـ. وقد تم ذلك بعد شهور قليلة، لأن بين أيدينا مقالين كتبهما في العام التاسع من أعوام المجلة في العددين (٤٤٥) و(٤٤٨) في شهري صفر وربيع الأول ١٣٥٤هـ. وكانت الأولى بعنوان: (لغة الأمة مظهر عزها وعنوان استقلالها) ـ وهي أقرب إلى الخاطرة ـ أما الثانية فكانت عن فلسطين، وعنوانها: (مأساة فلسطين) بتاريخ ٦/٦/ ١٩٣٥م.

ثم توالت كتاباته في العام العاشر بدءاً من العدد (٤٥٢) تاريخ ٣ ربيع الثاني ١٣٥٤ هـ (٤/٧/ ١٩٣٥م) في مقالة بعنوان: (المسلمون وحفلات المولد)، وقد نشر هذا المقال والمقالين التاليين: (قوة الحق وحق القوة) و(أبناؤنا) تحت عنوان جانبي إضافي: (من صور الحياة)، ثم تخلّى عن هذا العنوان في مقالته

---

(١) محمد بسام الأسطواني: مجلة حضارة الإسلام: مرجع سابق، ص٤٩١.

(٢) مجلة حضارة الإسلام ـ جمادى الآخرة ـ شعبان ١٣٨٤هـ. وقد وصفت هذه الثورة أو دُعيت بالحركة على لسان بعض المؤرخين، وفي بعض الأدبيات. وبدأت في ١ نيسان (إبريل) ١٩٤١ وانتهت في الحادي والعشرين من أيار (مايو). راجع كتاب (البعث) للدكتور سامي الجندي، ص٢٩.

الرابعة وكانت بعنوان: (فلسطين تستيقظ ولكنها لا تسلك سبيل النجاة) في العدد (٤٦٨) في ٢٦ رجب ١٣٥٤هـ.

وقد بلغت مقالاته في هذا العام ـ العاشر ـ عشرة مقالات، وكانت المقالات الثلاث الأخيرة تحمل العناوين التالية: (واجب الشباب نحو بلادهم ـ مهمة شباب العرب ـ دورة من دورات الفلك) الأعداد رقم ٤٨٤، ٤٨٩، ٤٩٠.

ونقف في هذا السياق عند واحدة من مقالاته الأولى السابقة، وهي المقالة التي تحمل عنوان: (قوة الحق وحق القوة) نشرها في الثاني من جمادى الأولى من العام المذكور (العدد رقم ٤٥٦) فقد جاء في هذه المقالة قوله المعبر الذي ما زلنا نعيش ما أشار إليه من مأساة حتى الآن بعد نحو خمسة وستين عاماً!.

قال: «لم يبق بعد هذا شك في سوء مقاصد المستعمرين، وأن عهودهم إنما كانت حبراً على ورق اتخذوها شباكاً وحبائل! فكان ضربة لازب علينا بعد هذا كله أن نعمل على ما يصون كرامتنا ويرد إلينا حقوقنا، وأن نسيء الظن بكل ما يقدمه إلينا هؤلاء مهما زيّنوه بشتى الزخرفة والبهرجة.

«ولكن المؤسف المؤلم أن الجمهرة من هذه الأمة ما برحت تعتقد أنه لايزال في الدنيا عدل ورحمة، فكلما أصابتهم شدة من دول الاستعمار لجؤوا إلى أساليب النساء فأبرقوا واحتجوا، ولكن إلى من؟ إلى عصبة الأمم!.. إلى وزارة الخارجية!.. إلى المندوب السامي! إلى الصحف والمجلات. والمستعمرون يقابلون هذا كله بابتسامة طويلة عريضة فيها كل معاني الهزء والازدراء... ثم يضحكون علينا بتأليف لجان للتحقيق وما أشبهها حتى تهدأ ثورتنا الكلامية وتخف حملاتنا الثرثارة»[1].

رجولة وإقدام:

أرأيت إلى الرجولة المستعلية التي تمقت أساليب النساء! وإلى الثورة الحقيقية التي تفضح ثورات الكلام! وحملات الثرثرة!.

وهكذا جاءت مقالاته في مجلة (الفتح) التي فجّرت في نفسه هذه الطاقات والمواهب.. ثم اتسعت صفحاتها ـ بعد ذلك ـ لاحتضانها والتعبير عنها!.

---

(١) مجلة الفتح، السنة العاشرة، العدد (٤٥٦) في ١/ ٨/ ١٩٣٥، ص٦.

وقد تحدث هو نفسه عن هذه الرجولة في الكلمة التي ألقاها في ٢٩ من شهر شوال من العام نفسه (١٣٥٤) في الاجتماع الذي عقده الطلبة السوريون والفلسطينيون لتأسيس نادٍ لهم! وتدل بعض مقاطع هذه الكلمة على أنه كان وراء تأسيس هذا النادي، وقد قال في وصفه بعد ذلك: «نحن لا نريد هذا النادي للسهر والسمر، ولا نريده للّهو والعبث، فحرام على شباب أمة مضطهدة معذبة أن يسمروا وبلادهم في عناء، وقومهم في شقاء. وحرام على شباب أمة علقت عليهم الآمال أن يخيبوا لها الرجاء. ولكننا نريد هذا النادي لنؤكد بيننا أواصر الإخاء، ونوطد دعائم الثقة، ونتعرف مواضع العلل في نفوس أمتنا، ونتمرن على القيادة كما يتمرن الجندي على أساليب القتال».

ثم تحدث عن الرجولة الناضجة في سائر مقاطع هذه الكلمة، فتوجه إلى زملائه قائلاً:

«أي إخواني جنودَ اليوم وقادة المستقبل! إن رجولتنا اليوم في كفة الميزان، فإما أن نثبت أننا أهل لأن نتولى تربية النشء وقيادة الأمة والأخذ بيدها إلى طريق الفلاح والسعادة، وأننا أهل لثقة أمّتنا بنا فنقوم بإنشاء هذا النادي غير وكلين ولا متوانين ولا آبهين لما يعترضنا في طريقنا من عقبات، وأما أن نثبت أن رجولتنا لم تنضج بعد! وأننا لم نقم بالأمانة التي وكلنا بها فنبوء بالخزي والإثم، وذلك عار لا أظنكم ترضون به مطلقاً.. إننا الآن على مفترق الطرق:

- فإما رجولة ترفع شأن الديار.

- وإما طفولة تطأطئ الرأس وتغض الأبصار».

ثم ختم كلمته بمناشدتهم ومناشدة: «كل شاب ينوي القيام بخدمة أمته أن يضع بين عينيه هذه المبادئ الثلاثة: الإقدام، والإخلاص، والثبات»[1].

لم يعد تقديم (الإقدام) ورفع شعار الإخلاص والثبات بحاجة إلى تعليل في هذه الموهبة القيادية الشامخة برجولتها والمتحملة لمسؤولياتها.. وهي لم تتجاوز العشرين بحساب السنين!.

---

(١) مجلة الفتح السنة العاشرة العدد (٤٨٤) في ٢٠ من ذي القعدة ١٣٥٤هـ (١٣/٢/١٩٣٦).

حامل هموم الأمة:

كان في الثانية والعشرين من عمره حين كان شعوره الطاغي بأنه يحمل آلام أمّته يسيطر عليه، فقد استهلّ المقالة التي تعرض فيها لميشيل عفلق ـ وكان عنوانها (نكبة الإسلام في تعليم أبنائه) ـ بقوله:

«لمن يشكو الحزين إن تملّكَه الأسى، وامتلأ فؤاده بالحسرات؟ لمن يبث المحزون ما يلقاه من تكاثر الهموم وتدافع الآلام؟ فقد والله آدتني هذه الآلام حتى ما أكاد أطيق لها احتمالاً، ولطالما تساءلت في نفسي: لئن كان هذا هو مبلغ ما أعانيه من الأحزان وأنا في ميعة الصبا وعنفوان الشباب، فكيف تكون الحال إذا امتدّت بي الحياة حتى بلغت زمن المشيب؟

«لا تحسبن أيها القارئ الكريم أنني أشكو آلاماً كهذه التي يشكوها مرضى الأجساد والقلوب! ولا كتلك التي يضج منها أصحاب الأموال والأعمال، ولا هي كالتي يتوهّمها أهل الحبّ والغرام! فأنا بحمد الله لست أجد من هذا كله قليلاً ولا كثيراً.

«**وإنما أشكو آلاماً تتصل بحياة هذه الأمة وسيرتها وسمعتها، آلاماً مبعثها هذه الدسائس على دين الله**، الآخذ بعضُها برقاب بعض. مع ما نراه من استسلام الحماة، ونوم الذّادة، وإهمال القادة. آلاماً صبرت عليها وحملت نفسي على تحمّلها، فما كنت أزداد كل يوم بما أرى وأسمع إلا ألماً على ألم، وأسىً فوق أسى؛ حتى فاض الإناء ولم يبقَ في قوس الصبر منزع، فما بدٌّ من أن ألقي إليك هذه الآلام في كلمات متعاقبة[1]، أقتطعها من فؤادي، وأنتزعها من قرارة نفسي، لا لأندب وأنوح كما يفعل أهل اليأس والجزع، بل لأستثير فيك لواعج الألم وحرقة الفؤاد، عسى أن تجتمع الآلام فتنبعث منها الآمال فتقوى بها العزائم، فتكون من ورائها الأعمال، فتنفرج بعدها الكربة إن شاء الله»[2].

ولم يفارقه هذا الشعور، بل تأكد وقوي وحكم نظرته إلى المستقبل؛ حتى ختم مقالةً له كتبها بعد شهر ونيّف ـ بين يدي عيد الأضحى ـ بقوله:

«عليَّ عهد الله وميثاقه أن لا أفرح في عيد، ولا ألبس له الجديد، حتى أرى

---

(١) ولهذا كانت هذه المقالة فاتحة مقالات نشرها تحت هذا العنوان الجانبي (آلام وآمال).

(٢) الفتح، العدد ٥٨١، في ٢٠ شوال ١٣٥٦هـ (٢٣/ ١٢/ ١٩٣٧).

أمّتي تملأ يديها بقوة الدين والخلق والحديد! أو ألقى الله عزّ وجلّ وإنه لعلى هذا العهد شهيد.

فهل تبلغ كلمتي هذه أسماع شباب المسلمين»[1].

لجنة الشؤون الإسلامية:

ألّف السباعي مع نفر من زملائه الأزهريين لجنة باسم (لجنة الشؤون الإسلامية بالأزهر) في أوائل عام ١٣٥٨هـ ـ منهم محمد نايل وسيد الحكيم ومحمد عبد الوهاب بحيري وعبد المعز عبد الستار ومحمد الحسيني عبد الغفار ـ غايتها أو من غايتها: ١ ـ رفع صوت الأزهر عالياً بالدفاع عن الإسلام وتشريعه، ورد كيد أعدائه. ٢ ـ تتبع نهضات المسلمين وأخبارهم وإذاعة ذلك على أبناء الأزهر. ٣ـ احتجاج الأزهر واستنكاره لكل عدوان يقع على أمة مسلمة في بلد إسلامي...

ولا شك في أن اللجنة ـ كما عبرت عن نفسها ـ «فتحت صفحة جديدة من تاريخ الأزهر الناصع، وجهاده في خدمة دين الله وشعوب المسلمين»[2].

وتضاف هذه الصفحة الجديدة إلى صفحات مصطفى السباعي الناصعة في أرض الكنانة.

ولا بد لنا هنا من الإشارة إلى بعض أعمال هذه اللجنة، لمعرفة مدى النجاح الذي أصابته في تحقيق غاياتها تلك، من جهة. ومدى تعبيرها ـ من خلال كتبها ورسائلها كما لحظنا ـ عن فكر السباعي وأسلوبه معاً؛ من جهة أخرى. وربما أمكننا القول: إن مراكز المسؤولين الذين توجهت اللجنة بالكتابة إليهم؛ تنبيهاً لهم على بعض المثالب والأخطاء؛ أو نقداً لمواقفهم المنافية للعقيدة وشريعة الإسلام؛ أو شكراً وثناءً على مواقف المدافعين منهم عن الإسلام، وتبنّيهم لقضايا المسلمين ـ في ذلك الزمن الأغبر! ـ إن مراكز هؤلاء كان لها أثرٌ

---

(١) الفتح، العدد ٥٨٨، يوم عرفة ١٣٥٦هـ (١٠/ ٢/ ١٩٣٨).

(٢) انظر مقالة بعنوان: حركة مباركة في الأزهر الشريف. مجلة الفتح السنة ١٣ العدد (٦٤٧) في ٩ صفر ١٣٥٨هـ (٢٩/ ٣/ ١٩٣٩). وكان قد شارك قبل ذلك ـ وبعد وصوله إلى مصر ـ في تأسيس (جماعة التعارف الإسلامي) وقد عبر بعض شباب حمص عن سرورهم بتأسيس هذه الجماعة عندما أطلعهم الأستاذ السباعي على قانونها الأساسي. راجع مجلة الفتح العدد (٣٩٤) في ٢٦ المحرم ١٣٥٣هـ (١٠/ ٥/ ١٩٣٤).

بيّنٌ في أسلوب الكتابة وطريقة العرض. وأعتقد أن ما أسميناه في صفحات قادمة بالأدب السياسي في كتابات السباعي يمكننا أن نقف على بواكيره أو جذوره في كتب هذه اللجنة ورسائلها..

وكانت الرسالة التي وجهتها اللجنة إلى (الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر) من أوائل هذه الرسائل؛ لأنها استهلتها بالقول: «وبعد، فإن لجنة الشؤون الإسلامية بالأزهر التي تألفت حديثاً لرفع صوت الأزهر في خدمة الإسلام والمسلمين تتشرف بأن تعرض على مسامع فضيلتكم الحديث التالي، راجيةً أن يكون له ما يستحقه من عناية وتقدير»[1].

وموضوع الرسالة: المواقف المخزية التي اتخذها (شيخ رواق الجبرت) بالأزهر، والتي مالأ فيه الاستعمار الإيطالي لليبية، على الرغم من كل ما ارتكبه (هذا الاستعمار من فظائع بحق هذا القطر العربي الإسلامي) وقد عددت اللجنة أربعة من هذه المواقف تظهر مدى ضلوع (الشيخ محمد نور بكر شيخ رواق الجبرت بالأزهر الشريف) مع الاستعمار الإيطالي. وأولها أن نجل السنيور (موسوليني لما مرَّ ببور سعيد في طريقه إلى الحبشة أثناء الحرب الحبشية لإيطالية، أجبر طلاب الرواق على السفر إلى بور سعيد لاستقباله! وأخذ التحية له بزيّهم العلمي على ملأ من جماهير المسلمين الذين تقطّعت قلوبهم حسرات حين رأوهم يمرّون في موكب نجل الزعيم الإيطالي..).

أما آخر هذه المواقف؛ فهو أنه «هدد كل طالب طرابلسي بالفصل والطرد

---

(١) مجلة الفتح، العدد ٦٥٢، ص٨، العام الرابع عشر، ص٤٨، تاريخ ١٤ ربيع الأول ١٣٥٨هـ (٤/ ٥/ ١٩٣٩). أما «باكورة أعمالها» بعد التشكيل فقد كانت برقية أرسلتها إلى كل من جلالة الملك ودولة رئيس الوزراء باستنكار (العدوان الجريء على الإسلام في كلية الآداب) وهذا نصها: «باسم حرية الفكر الكاذبة يطعن في نبي الإسلام العظيم وديانته الخالدة. كرامة الإسلام وحرمة نبيّه تأبيان أن نقر هذه المهانة في معاهد التعليم في دولة دينها الرسمي الإسلام، والأزهريون المضربون عن الدراسة احتجاجاً على هذا العدوان يرجون حماية عقائد الشباب ممن يلوّثونها تحت ستار العلم الحرّ والثقافة الحرة، ويطلبون إنزال العقوبات بهؤلاء العابثين الباغين على دين الله وقدسية رسوله». وسوف نشير إلى هذا العدوان في الصفحات القادمة، مع الإشارة إلى أن عميد كلية الآداب، كان وقتذاك الدكتور طه حسين. يراجع العدد (٦٤٧) من الفتح في ٦ صفر ١٣٥٨هـ (٢٧/ ٣/ ١٩٣٩) العام ١٣، ص١١٤١ ـ ١١٤٢.

والإبعاد إلى طرابلس إن هو اتصل بجمعية الشبان المسلمين أو الإخوان المسلمين، أو أية جمعية إسلامية أخرى، أو كتب في مجلة إسلامية، أو اجتمع مع طلبة مسلمين عرفوا بعداء إيطالية، وكان ذلك بناءً على إشارة تلقاها من أسياده الإيطاليين. . . ».

ثم ذكرت اللجنة أن (الألم من مواقف هذا الرجل ليس راجعاً إلى انطماس بصيرته؛ ففي الدنيا كثيرون مالؤوا أعداء الله على المسلمين، وكانوا أعواناً لهم ومطايا لتنفيذ مآربهم. ولكن الألم أن يكون منتسباً إلى العلم أولاً، وشيخاً لرواق من أروقة الأزهر ثانياً، ومجاهراً بانحيازه إلى أعداء الإسلام ثالثاً).

وأخيراً خاطبت شيخ الأزهر ـ الشيخ المراغي ـ قائلة: «وإن اللجنة يا صاحب الفضيلة ليتولاها العجب والدهشة من سكوت الدوائر الأزهرية العليا سابقاً عن أحواله مع ما فيها من إساءة إلى سمعة الأزهر في أوساط العالم الإسلامي لا تعدلها إساءة قط! . . . » ثم ناشدته «باسم الإسلام وباسم محمد ﷺ العمل السريع على ما يراه ماحياً لهذه السبّة الشنيعة في تاريخ الأزهر والأزهريين!»[1].

ثم أثارت اللجنة بعد نحو أسبوعين مسألة انتساب طالبين قاديانيين إلى الأزهر، ببيان نشر في مجلة (الفتح) ـ ولا ندري إن كان قد نشر في مجلات أخرى ـ وبكتاب أرسلته إلى الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر، وبكتاب آخر أرسلته إلى شيخ رواق الأتراك[2] ـ لأن الطالبين كانا ألبانيين ـ وذكرت في كتابها

---

(١) المصدر السابق، ص٨ و١٣ (٤٨ و٥٣). وانظر نداءً وجّهه (طرابلسي) إلى جمعيات الشبان المسلمين والإخوان المسلمين بعنوان: (في طرابلس الغرب أمة مسلمة تساق إلى الفناء فأين المسلمون؟) الفتح، العدد التالي رقم ٦٥٣، ص١٢، تاريخ ٢١ ربيع الأول ١٣٥٨هـ.

وقد كتب تحت العنوان المذكور بضع عشرة مقالاً أو نداءً (يراجع الفتح، العام الثالث عشر) قال: «ثلاث نكبات في ثلاثة أشهر: الأولى: ضم طرابلس الغرب إلى روما في ٢٥ أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٣٨م وعدّها داخلة في حدودها، وجزءاً لا يتجزأ منها. والثانية: هجرة عشرين ألف إيطالي إليها في ٣ نوفمبر (تشرين الثاني). والثالثة: فرض الجنسية الإيطالية على الطرابلسيين في أول ديسمبر (كانون الأول) ١٩٣٨. الفتح العام ١٣، ص٨٥٨. ولعل الكاتب أو صاحب النداء الذي وقعه بـ(طرابلسي) هو السيد أحمد السويحلي.

(٢) انظر في ذلك (الفتح) العدد ٦٥٤ (العام الرابع عشر) ٢٨ ربيع الأول ١٣٥٨هـ (١٨/ ٥/ ١٩٣٩)، ص١٠٣ ـ ١٠٥.

إلى شيخ الجامع الأزهر أن الطالبين يقومان بالدعاية إلى نحلتهما بين الطلاب، في الوقت الذي لم «يخشيا التصريح بعقيدتهما في غلام أحمد أمام جمع كبير من الفضلاء، ومنهم فضيلة الشيخ عبد العزيز خطاب وكيل كلية أصول الدين، وفضيلة الأستاذ الجليل السيد الخضر حسين، وعطوفة الأمير شكيب أرسلان، بل فعلا ما هو أنكى من ذلك، وهو أنهما طمعا في تضليل علماء الأزهر، فأهديا إلى بعضهم كتباً من كتب الغلام الكذاب».

وقد أخذ الموضوع جدلاً ومساجلات على صفحات مجلة (الفتح)[1] وقام شيخ القسم العام بالأزهر بالكتابة إلى السيد محب الدين الخطيب، ونشر مقاله في (الفتح)[2] وردت اللجنة بكتابين مهمّين إلى فضيلة شيخ القسم العام، وفضيلة شيخ رواق الأتراك، بعد أن تحامل عليها شيخ القسم العام لاتهامها إياه بالغفلة حين قبل أوراق هذين الطالبين. قالت اللجنة: «وأما محاولتكم الغض من قيمة مجهودنا وتجاهل مركزنا وكيان لجنتنا، فنحن لا نستغرب ذلك أبداً لاعتقادنا بأن الحامل لكم على ذلك هو الثأر منا على كلمة (الغفلة) التي وردت في بياننا السابق، ورأيتم أنها ماسّة بكرامتكم، مع أن فضيلتكم لو أمعنتم النظر قليلاً لرأيتم أننا لم نجد خيراً من الغفلة، فنعتذر بها عن تسلّلهما إلى الأزهر، مع ما يعرفه المسلمون جميعاً من كفر رئيسهما والفريقين من أتباعه، أفكنتم تودّون منا أن نقول عن فضيلتكم إنكم وقّعتم على انتسابهما إلى الأزهر وأنتم عالمون بكفرهما، واتباعهما لذلك الغلام الأحمق الملعون؟!».

وقد كانت هذه القضية سبباً في كتابة العديد من المقالات والبحوث حول غلام أحمد وعقائد القاديانيين! شارك فيها كل من مسعود عالم الندوي وعبد الحميد السيد ـ الذي كتب على مدى أربعة أعداد متتالية من (الفتح) بحوثاً قيّمة ـ ومحمد علي أحمدين ومحب الدين الخطيب. كما تم التنويه بالعديد من المؤلفات حول هذه النحلة لكل من محمد أنور شاه الكشميري ومحمد الخضر حسين ومحمد تقي الدين الهلالي[3].

---

(١) راجع العدد التالي ٦٥٥، ص١٣٢ ـ ١٣٥.

(٢) العدد ٦٥٦، ص١٤٤ ـ ١٤٥.

(٣) انظر في مجلد العام الرابع عشر من الفتح ـ في الأعداد: ٦٥٧ ـ ٦٦٢ الصفحات: ١٦٥، ١٨٢، ٢٠٠، ٢٠٤، ٢١٦ ـ ٢١٧، ٢٢٦ ـ ٢٣٠، ٢٤٠ ـ ٢٤١، ٢٧٦ ـ ٢٧٧، ٢٨٧ ـ ٢٨٩، ٢٩٢...

بين حرية البحث العلمي وحرية الاستهزاء بالإسلام:

وقبل أن تطوى صفحة هذه القضية التي شهدت تلك المساجلات والردود بين اللجنة والمسؤولين في الأزهر؛ قامت في البرلمان ضجة كبيرة شغلت الرأي العام حول كتابين في الأدب الإنجليزي كانا يدرّسان لطلبة كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة فيما بعد). وهي الضجة التي حملت السيد محب الدين الخطيب على أن يكتب افتتاحية العدد (٦٥٨) حول هذا الموضوع تحت عنوان: (حرية البحث العلمي وحرية الاستهزاء بالإسلام!) والتي تساءل فيها بقوله:

«وهل آداب اللغة الإنجليزية لم يبقَ فيها كتاب واحد يليق بأن يوضع بين أيدي طلبة كلية الآداب غير كتاب برناردشو الذي فيه ذلك الكلام الشنيع عن سيد الخلق محمد ﷺ بلسان قسّيس متعصّب من قسّيسي عصر جان دارك؟»[1].

---

(١) وهذا هو العدوان الذي أشارت إليه اللجنة في البرقيتين للملك ولرئيس الوزراء، والذي أشرنا إليه قبل قليل. والرواية الإنجليزية عن (جان دارك) اسمها (سان جوان) مقررة على طلبة قسم اللغة الإنجليزية في السنة الثالثة. وقد جاء في الصفحة ١٥٧ منها الحوار التالي: «كوشون ـ دعني أقل لك إن أمثال هذه الرسائل التي تبعث بها (جان دارك) إلى الملوك والوزراء، كان محمد الملعون عدو المسيح يلجأ إلى مثلها! وبهذا الكفر استطاع ذلك الجمّال العربي طرد المسيح من بيت المقدس، والقضاء على كنيسته، واتخذ سبيله كالوحش المفترس حتى بلغ جبال البرانس، وقد أنقذ الله فرنسة من هذه النار، ولو أن هذا الجمّال دخلها هل كان يفعل إلا ما تفعله الراعية للغنم؟ يقول (يعني محمداً ﷺ) إن الوحي الإلـهي ينزل عليه بواسطة جبريل، وهي (أي جان دارك) تقول إن وحي الله ينزل عليها بواسطة ميكائيل والقديستين كاترين ومرغريت، وزعم هو (أي محمد ﷺ) أنه رسول الله، وكتب باسم الله إلى جميع ملوك الأرض، وها هي خطابات تلك الفتاة (أي جان دارك) تصدر عنها كالسيل. وسيستقبلنا عالم من الدماء والرعب والخراب، وسنرجع إلى الوحشية الأولى؛ فنحن أمام محمد ومن حوله الحمقى، وأمام جان دارك ومن حولها الأغرار، وماذا يكون مصير الدنيا لو أن كل فتاة اعتقدت ما تعتقده جان دارك في نفسها، وكل رجل اعتقد ما اعتقده محمد في نفسه. . .»إلخ. ولما طيّر الجامعيون البرقيات إلى الصحف احتجاجاً على هذا الطعن والهراء. . اتصل محرر مجلة (المصري) بعميد كلية الآداب طه حسين فأجاب بقوله: «نحن نعلّم آداب اللغة الإنجليزية، فهل من أجل عبارات طعنٍ في الإسلام تمنع تدريس هذه الرواية؟ وليس الدين الإسلامي من الضعف إلى حدّ عدم احتماله مثل هذه العبارات». راجع مجلة (الفتح) العدد (٦٤٥) في ٢٥ المحرم ١٣٥٨هـ (١٧/ ٣/ ١٩٣٩)، العام ١٣، ص١١٠١.

أثار بعض الأعضاء في مجلس النواب المصري هذه الواقعة في جلسة الإثنين الواقع في الخامس من حزيران (يونيه) ١٩٣٩، وقدم كل من الدكتور عبد الحميد سعيد والشيخ عبد الوهاب محمد سليم مرافعتين مهمتين. وقد علّق على هذه الجلسة الشيخ عبد الوهاب النجار في (الفتح) في العدد الذي كتب فيه السيد محب الدين الخطيب افتتاحيته المشار إليها. وكان عنوان مقالته: (محمد رسول الله.. والذي هجاه!) وقد استهلّها بهذا البيت من شعر حسّان بن ثابت رضي الله عنه:

أتهجوه ولست له بكفؤ فشرّكما لخيركما الفداء[1]

وقد افتتح المناقشة عن (ضرورة حماية الدين الإسلامي في الجامعة) وعن سياستها الدينية (النائب المحترم الدكتور عبد الحميد سعيد) فقدم في ذلك مرافعة قيّمة يمكن عدّها نموذجاً رفيعاً للمرافعات البرلمانية سواء من حيث المحتوى أو الأسلوب. وقد قوطعت كلمته بالتصفيق عدة مرات. وحين قاطعه عباس محمود العقاد[2] محتجّاً باسم الدستور الذي يقرر أن الناس أحرار في

---

(١) انظر الصفحتين ١٩٠ ـ ١٩١ (العدد الرابع عشر)، العدد ٦٥٨ تاريخ ٢٧ ربيع الآخر ١٣٥٨هـ (١٤/٦/١٩٣٩م).

(٢) من الإنصاف للأستاذ الكبير عباس محمود العقاد ـ الذي شهد فكره تطوراً مهماً باتجاه الدفاع عن حقائق الإسلام وكشف شبهات المبشرين وأشباه المبشرين ـ أن نذكر له موقفاً آخر في قضية جامعية قريبة أو مشابهة، حدثت بعد نحو ثمانية أعوام، حين تقدم معيد بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول ـ وأحد خريجي دار العلوم ـ يدعى محمد خلف الله برسالة جامعية عنوانها: (الفن القصصي في القرآن) أوهمَ فيها ـ دساً وتلميحاً على الطريقة الطّهسينية القديمة ـ أن القرآن من تأليف محمد ﷺ «وأن ما فيه من القصص عمل فني خاضع لما يخضع له الفن من خلق وابتكار من غير التزام بصدق التاريخ والواقع. وأن محمداً فنان بهذا المعنى، وأن الأنبياء أبطال ولدوا في البيئة وتأدبوا بآدابها، وخالطوا الأهل والعشيرة، وقلّدوهم في كل ما يُقال ويُفعل، وآمنوا بما تؤمن به البيئة من عقيدة، ودانوا بما تدين به من رأي».

فقد كتب الأستاذ العقاد مقالاً في مجلة (الرسالة) فرّق فيه بين حرية الرأي المكفولة لكل إنسان، ويعني به الرأي الذي يسأل عنه الباحث، وبين الرأي الذي يشرك فيه غيره، أو الذي يطلب من هذا (الغير) تزكيته أو إجازته كما هي الحال في الرسائل الجامعية التي تمنح بموجبها الألقاب والشارات!

عقائدهم! أجابه الدكتور سعيد بقوله: «إن هناك حدوداً للقانون إذا تجاوزناها انقلب الوضع وانقلب الدستور»! قبل أن يحتج الدكتور سعيد على هذه المقاطعة! فقاطعه ـ بعده! ـ علي عبد الرازق قائلاً: «يجب أن يكون هذا المجلس هو آخر مكان تصادر فيه حرية الفكر»! فقال له الدكتور سعيد: «أنا لا أسمح لحضرة النائب المحترم أن يقاطعني، إن حرية الرأي ليس معناها الاعتداء على الدين. . . ».

وحين أشار الدكتور سعيد إلى أن التقارير الرسمية التي وضعتها اللجان

= قال العقاد رحمه الله: «حرية الرأي مكفولة لكل إنسان. ولكن لا حرية بغير تبعة، فكل ذي رأي مسؤول وحده عن رأيه، وعليه وحده أن يحمل جميع تبعاته، وليس له أن يلقي هذه التبعات على غيره، لأن حريته تنتهي عند انتهاء التبعة التي يحملها باختياره. . فلا اختيار له في حريات الآخرين. ذلك هو الحد الفاصل بين الرأي الذي يسأل عنه الباحث أو الكاتب وحده، وبين الرأي الذي يشرك فيه غيره. ومن حقه بلا نزاع أن يبدي ما يشاء في حدود القانون، ولكن ليس من حقه أن يحمل غيره على تزكية رأيه وترويجه، أو الإذن بإجازته ونشره، ولا سيما إذ يكون ذلك (الغير) هيئة رسمية مفروضة بقوة الدولة على جميع أبناء الأمة، كالجامعة المصرية وما جرى مجراها».

وأضاف: «الجامعة المصرية جامعة حكومية، ومعنى أنها جامعة حكومية أن إلزامها لطلابها هو إلزام يقوم به القانون، وتحميه الدولة، وليس فيه للطالب أو لولي أمره خيار كالذي يملكه الطلاب وأولياء الأمور في الجامعات الأهلية. فهم يملكون أن ينتقلوا منها إلى غيرها إذا لم توافقهم دروسها، وليس في وسعهم أن يستغنوا عن شهاداتها وإجازاتها، لأن مستقبلهم في الوظائف أو المزاولات العلمية مرتبط بها، فليس لأحد أن يطلب من هذه الجامعة أن تجيز دروساً تحتاج إلى احتمال تبعة، وليس له أن يلقي عليها تبعاته وينتظر منها أن تقرّها وتزكّيها وهو يزعم أنه حرٌّ فيما يصنع، وأنها هي المقيدة أمامه فلا حرية لها في رفض هذا الصنيع.

«من شاء أن يقدر حريته فليقدر تبعته قبل تقديره لحريته. ومن تقدير التبعة أن يفهم ما يجوز له عرضه للإقرار والإجازة، وما ينفرد به أو يشرك فيه سواه، فإن لم يفهم ذلك فليس هو بأهل لتقدير الحريات ولا لتقدير التبعات!

«. . . لا خلاف على حرية الرأي كائناً ما كان في حدود القانون، وإنما الخلاف في احتمال التبعة وتقديرها، وفي موضع التبعة وتمييزه، وليس بأهل لحرية الرأي، ولا بقادر على أمانته من يفوته هذا التمييز». انظر: الفتح: العدد ٨٥٠: خاتمة العام ١٧، ص٨٩٠ ذو الحجة ١٣٦٦هـ (أكتوبر ١٩٤٧) وانظر فقرة بعنوان: القصة القرآنية حقيقة تاريخية (ص١٨٨ ـ ١٩٦)وفقرة أخرى بعنوان: التشبيهات القرآنية والبيئة العربية (ص١٥٤ ـ ١٥٩) من كتابنا: فصول في علوم القرآن: المكتب الإسلامي، بيروت ١٤١٩هـ ـ١٩٩٨م.

التي ألفت لبحث كتب طه حسين وأعماله ـ قبل ثلاثة عشر عاماً ـ أثبتت «أن كتباً منها ملأى بالكفر والإلحاد. . » عاد الشيخ علي عبد الرازق للمقاطعة محتجّاً (لأنه لا يصح ذكر الأسماء) فقال الدكتور سعيد: «كنت أظن أن الشيخ علي عبد الرازق آخر من يحتج في هذا المجال!» فاحتد الشيخ عبد الرازق قائلاً: «إني أول من يحتج، وآخر من يحتج، لأن هذا المجلس. . . فقال الدكتور سعيد: «هذا المجلس لا يسمح بالاعتداء على الدين، وما كنت لأنتظر من الشيخ علي عبد الرازق ابن المرحوم حسن عبد الرازق باشا القدوة الطيبة في الأخلاق والدين أن يقف هذه الوقفة! . . »

وقد ختم الدكتور عبد الحميد سعيد مرافعته الجامعة بقوله:

«وما أريده فقط هو أن أردد من فوق هذا المنبر تلك الكلمة التي رددها في المجلس صديقي المرحوم الأستاذ عبد الخالق عطية، وهذا نصّها: (فعلى الذين يريدون أن يحرقوا بخور الإلحاد أن يحرقوه في قلوبهم لأنهم أحرار في عقائدهم، أو أن يحرقوه في منازلهم لأنهم أحرار في بيئاتهم الخاصة، أما أن يطلقوه في أجواء العلم ومنابر الجامعة، فهذا ما لا يمكن أن نفهمه بحال من الأحوال)»[1] .

ربما نكون قد أطلنا في هذه القضية، وفي الحديث عن لجنة الشؤون الإسلامية بالأزهر، ولكن الذي حملنا على ذلك: بيان مدى الحضور العلمي والدعوي الذي كانت تتمتع به هذه اللجنة، ومدى مشاركتها في القضايا الإسلامية التي عرفتها الحياة المصرية في ذلك الحين. **وبخاصة أن أثر السباعي في هذه اللجنة ـ كما دلّت عليها أعمالها، وكما حدّثنا أحد أعضائها وهو الشيخ عبد المعزّ عبد الستار متّعه الله بالعافية ـ كان كبيراً**، بل كاد السباعي أن يكون هو اللجنة، على حد قول الداعية المربّي الشيخ عبد المعزّ، الذي أخذته الحماسة في هذه السنّ وهو يحدثنا عن الشيخ مصطفى، وعن عمله وجهاده، ويصف لنا كذلك حماسته وثورته وعاطفته المتأجّجة في الدعوة والخطابة. بين يدينا الآن صورة عن الرسالتين اللتين بعثت بهما هذه اللجنة ـ بخط السباعي رحمه الله ـ إلى كلٍّ من الداعية الأستاذ الدكتور عبد الحميد سعيد والشيخ علي عبد الرازق. ونصّ الرسالة الأولى ما يلي:

---

(١) انظر نص الكلمة في الفتح العدد المشار إليه ٦٥٨ (العام الرابع عشر) الصفحات: ١٩٥ ـ ١٩٧ و٢٠٤ ـ ٢٠٧، وقد قوبلت في ختامها (بتصفيق حاد).

حضرة المجاهد الكبير الدكتور عبد الحميد سعيد وفّقه الله وأيّده:

تحية وسلاماً، وبعد: فقد قرأت اللجنة ما دار في جلسة الإثنين الماضي لمجلس النواب عند النظر في ميزانية جامعة فؤاد الأول، وتتبعت بكل سرور خطواتكم الموفقة في الدفاع عن الدين، والغضب لكرامة رسول الله ﷺ، وقد ملأها طرباً تلك الصيحات المدوّية التي أرسلتموها في وجه الباطل وأنصاره، فردّتهم على أعقابهم متخاذلين.

لقد كانت الأمة وهي تتلو صحف الثلاثاء كأنها تشهد معركة حامية بين جيشين متكافئين، وكانت أفئدتها جزلة منشرحة إذ استطاع فريق من نوابها الأبرار - وعلى رأسهم حضرتكم - أن تسمعوا صوتها داخل قبة البرلمان التي حشد إليها نوّابها ليعبّروا عن شعورها أصدق تعبير؛ فإذا فريق منهم يخونون الأمانة، ويغضون على القذى، ويتناسون في سبيل الصداقة والمجاملة أقدس واجب عليهم نحو دينهم وأمتهم وبلادهم، ولئن كان أنصار الحق قليلين، فلقد كان صوته مدوياً عالياً يقرع الأسماع، ويهز أوتار القلوب، ويحرك أهل الغفلة ممن أسلموا زمام أبنائهم وبناتهم إلى قوم لم يراعوا فيهم إلاً ولا ذمّة، ولم يعرفوا للدين والأخلاق عهداً ولا حرمة.

لكم شكر الإسلام والمسلمين عامة، وشكر الأزهر والأزهرين خاصة، على هذه المواقف الحميدة التي سيسجّلها لكم التاريخ بمداد من نور، وثقوا بأن الغلبة للحق دائماً، وأن الله مع الذين أخلصوا لدينه النصح، ولرسوله الطاعة والحب، وأن حزب الله هم الغالبون. وتفضّلوا بقبول أسمى التحيات. لجنة الشؤون الإسلامية بالأزهر[1].

أما **الرسالة الثانية** فقد صُدّرت بعبارة: (إلى الأستاذ علي عبد الرازق: من لجنة الشؤون الإسلامية بالأزهر) وهي رسالة تقع في بضع صفحات، ردّت فيها على علي عبد الرازق ما قاله واحتج به في مجلس النواب، واستهلتها اللجنة بما يلي: «قرأت اللجنة في الصحف تفاصيل المناقشات التي حدثت في مجلس النواب يوم الإثنين الماضي عند البحث في ميزانية جامعة فؤاد الأول، وتتبعت مجرى المناقشة بين أنصار الدين ومعارضيهم في تلك الجلسة التاريخية؛ فساءها

---

(١) السباعي بأقلام محبيه، ص٥٢٢.

أن تقفوا من الدفاع عن الدين وحرمته موقفاً عدائياً شديداً، متسترين بستار الدستور وحرية الفكر، متناسين واجبكم نحو الدين والأزهر والمحاماة الشرعية التي ترأسونها. . . ».

ثم قالت اللجنة أو أكّدت «أن الإسلام دين العقل بلا ريب» ـ وهي العبارة التي ردّدها علي عبد الرازق في مجلس النواب ـ ولكن لا على معنى أن «يتحكم العقل فيه فيقبل ما يشاء ويرفض ما يشاء، ولكن معناه أنه لم يرد فيه ما يصادم العقل ويتنافى مع التفكير السليم أبداً. . . ».

ثم وقفت أمام مسألة (الدين والدستور) التي كان علي عبد الرازق (بطلها في مجلس النواب)! على حدّ قول اللجنة، فقالت:

«إن الدين هو الدستور الوحيد الذي يلزم المسلم تقديسه واحترامه، وأما ما عداه من الدساتير فهي قابلة للتبديل والتحوير، وللنقض والاعتراض. فيجب أن يرجع فيها إلى ذلك الدستور الإلـهي العادل الحكيم؛ فما وافقه منها قُبِل، وما خالفه رُفض وضُرب به عُرض الحائط».

وأضافت في خطاب الشيخ عبد الرازق:

«وهذا الدستور الذي تفتخرون بالدفاع عنه؛ إما أن يكون متفقاً مع الدين أو متعارضاً معه. فإن كان الأول فلا معنى لقولكم: إننا ندافع عن الدستور كما ندافع عن الدين! وإن كان الثاني فشأن المسلم إسلاماً صحيحاً مطابقاً لإسلام رسول الله ﷺ وصحابته والسلف الصالح من بعده أن ينحاز إلى جانب الدين ويدافع عنه، ويرفض الوقوف بجانب المخالفين له مهما كانت مكانتهم سامية! ومهما كانت صلته الشخصية بهم قوية ووطيدة!!».

واضافت الرسالة قائلةً في إيجازٍ حادّ النبرة ـ بعد هذا التعريض ـ «موقف غريب لم ترضوا فيه الله ورسوله، ولم تراعوا فيه شعور المسلمين، ولم تحرصوا على كرامة الشرع وحرمته!».

وتابعت الرسالة مذكّرة الشيخ بما جرى له يوم نشر كتابه أو رسالته (الإسلام وأصول الحكم):

«ولقد كان الناس يوم دخلتم مجلس النواب فريقين: فريقاً يحسن الظن بكم، ويرى أنكم رجعتم إلى الحق بعد أن تجنبتموه سابقاً، مما أدى إلى

حرمانكم من شهادات الأزهر وحقوقه، فلن تقفوا بعد هذا إلا موقف المناضل عن الدين، المدافع عن كرامة رسول الله ﷺ، الحريص على صيانة عقائده في نفوس شباب هذا الجيل. وفريقاً يرى أنكم لا تزالون كما كنتم، ولكنكم ستكونون أشد حذراً من قبل، وأكثر تظاهراً في الانحياز إلى الدين من غيركم، لا سيّما وقد انتخبتم بعد ذلك لرئاسة المحامين الشرعيين؛ فجاء موقفكم الأخير في المجلس مخيّباً لآمال الفريقين! منبّهاً لهم إلى الحقيقة التي لا ينبغي أن يختلف فيها اثنان، وهي **أن في هذا البلد رجالاً أخذوا على عاتقهم محاربة هذا الدين، أو تشكيك الناس به، أو حمل الناس على الخروج عليه، متسترين آونةً باسم حرية الرأي، وآونة باسم العلم، وتارة باسم الدستور!** بينما الحرية والدستور والعلم... كل هذه تبرأ إلى الله ممن يتّخذها أداة غير شريفة ليصل بها إلى ما يريد من مقاصد خفية مستورة...» إلخ الرسالة[1].

---

(١) انظر صفحات هذه الرسالة في كتاب (السباعي بأقلام محبيه وعارفيه) ص٥٢٠ ـ ٥٢١. ويبدو أن علي عبد الرازق لم يختلف في سوء فهمه للنصوص وكلام العرب، وفي جرأته ـ مع هذا ـ على الحق والدين.. منذ زمن طويل. لقد نشر في جريدة السياسة في ١٢ ربيع الأول ١٣٤٦هـ مقالاً تحت عنوان (محمد) ـ هكذا مجرداً من أي كلمة أو وصف قبله أو بعده ـ زعم فيه أن محمداً ﷺ «أبى أن يكون في الناس عظماء وغير عظماء!» لأنه جعل الناس سواسية كأسنان المشط. ولم يفهم أن المراد بهذه السواسية أنها أمام الشريعة وأحكام القضاء! وأنها لا تعني نسخ أصناف الناس من حيث العظمة والعقل والمواهب. كما خلط خلطاً قبيحاً بين الكبرياء والجبروت والعظمة.. وقد ردّ عليه الأستاذ محمود محمد شاكر وغيره. انظر رداً بتوقيع (مؤمن) على حلقات في العدد ٦٣ من مجلة (الفتح) بتاريخ ٢٦ ربيع الأول ١٣٤٦هـ (٢٢ أيلول ـ سبتمبر ـ ١٩٢٧)، ص١٩٦ من مجلد السنة الثانية، وكذلك في الأعداد التالية: ٥٤، ٦٥، ٦٦، ٦٧، ٦٩، ٧٠، ٧١. وانظر في العدد السابق نفسه ٦٣ (ص٢٠٢ ـ ٢٠٣) ردّ الأستاذ شاكر بعنوان: (محمد ﷺ) وكذلك في العدد التالي ٦٤ مقالة أخرى له تحت العنوان نفسه (ص٢١٨ ـ ٢١٩) وقد ختمها بقوله: (قال سيد فاضل وعالم جليل: «**إن علي بن عبد الرازق أظهر من القحة والسفه أكثر مما أظهر من الخبل والجهل**»). وانظر في العدد ٦٨ نص المحاضرة التي ألقاها السيد محمد الخضر في دار جمعية مكارم الأخلاق بعنوان (العظمة) والتي تضمنت رداً بليغاً على علي عبد الرازق الذي قال في التعريض بوجوه العظمة المحمدية ما قال!! وقد وصفه أحد الكتّاب بـ(لوثيروس مصر وقائد البروتستانتية النيلية)! في سياق مقال بعنوان: (الرابطة الشرقية تكشف النقاب عن وجهها) انظر العدد ٩٦ من مجلة الفتح تاريخ ٢٧ ذي القعدة ١٣٤٦هـ (١٧ مايو ١٩٢٨) العام الثاني، ص٧٢٤. أما رسالته =

مثلت هذه اللجنة كما قلنا صفحةً من صفحات السباعي الناصعة في أرض الكنانة.

مصر والشام والقضية الفلسطينية:

ولكن **الصفحة المهمة** التي سوف يقف عندها المؤرخون هي تعريفه **بالقضية الفلسطينية** ومحاولة الوصول بها إلى مختلف طبقات الشعب المصري، بوصفها قضية هذا الشعب وقضية سائر العرب والمسلمين. أقول إن التاريخ سوف يذكر لمصطفى السباعي أنه واحد من أبرز الرجال - في تاريخ مصر الحديث - الذين عرّفوا المصريين بهذه القضية ووصلوهم بها، لأن صلات مصر بالعالم العربي في ذلك الحين لم تكن كما هي عليه الآن.. وربما أيضاً لأن عروبة مصر - وبخاصة في الطبقة الحاكمة وفي أوساط كثير من المثقفين وقادة الفكر - لم تكن قد حسمت على هذا النحو الذي لا رجعة فيه! حتى إن السباعي يذكر بمرارة ظاهرة أن فلسطين حين «نكبت بحوادث الثورة الأخيرة ثلاث سنوات متلاحقة أتت على الطريف والتالد من أموالهم وأقواتهم، وأوقعتهم في مجاعة شاملة عامة، لم يبلغ عطف مصر على شقيقتها مبلغ عطفها على فنلندة وبولندة، فضلاً عن الحبشة وتركية!»[1].

ويضيف: «نحن لا نجحد الجميل، ولا ننكر ما في الأمر من أسباب وبواعث، ولكننا نعتقد أن مصر التي اتخذتها الأقطار العربية شقيقة كبرى لها، والتي حفزها باعث الشفقة والرحمة بالإنسانية المعذَّبة إلى مساعدة فنلندة المجاهدة مع ضعف الصلة بينهما، كان يرجى أن تتجلى شفقتها ورحمتها بالطفولة المشردة في شوارع فلسطين، وباليتم المتجلّي في ثلاثين ألفاً من أبناء عربها المشتتين

= (الإسلام وأصول الحكم) فقد أراد بها من منطلقات حزبية إجهاض مشروع الملك فؤاد إعلان نفسه خليفة للمسلمين، بعد أن أعلن كمال أتاتورك إلغاء الخلافة الإسلامية. ويرى الأستاذ الدكتور محمد فتحي عثمان أن الكتاب يعكس كذلك «النزعات السياسية في مصر» آنذاك، وقدم في ذلك تحليلاً قيماً. راجع كتابه: من أصول الفكر السياسي الإسلامي، ص٤٩ - ٥٠، ط١، مؤسسة الرسالة ١٩٧٩.

(١) مقالة بعنوان: بين مصر والشام، مجلة الفتح، ص٩ العام الرابع عشر، العدد (٦٩٣) في ٧ المحرم ١٣٥٩هـ (١٥/ ٢/ ١٩٤٠).

المساكين، ومع قربها منهم واتصالها بهم بمواثيق خالدة من اللغة والجوار والدين. . . »[1].

وقد جاءت هذه الملاحظات في سياق حديثه عن الروابط التي تربط بين القطرين الشقيقين مصر والشام بوجه عام، وعن مآخذ الشاميين على إخوانهم المصريين بوجه خاص. قال رحمه الله:

«**مصر والشام قطران شقيقان تربط بينهما روابط الدين واللغة والجوار والقومية منذ قرون طويلة**. . . بيد أن الاتصال بين البلدين لم يكن قبل الحرب العامة ـ الأولى ـ كشأنه الآن، فقد كانت الآستانة دار الخلافة ومركز العلم والملك والثقافة، فكان أبناء الشام حينئذٍ أشد ارتباطاً بها منهم بالقاهرة. حتى إذا وضعت الحرب أوزارها وانقطعت العلاقات بين الآستانة والبلاد العربية والإسلامية أخذت القاهرة تحتل مركز الآستانة من قبل رويداً رويداً، وما هي إلا سنوات معدودة حتى أصحبت محطّ رحال أبناء العربية والإسلام بأزهرها وجامعتها وصحافتها ومطابعها واتساعها وغناها وتقدمها الاجتماعي والعمراني، فازداد اتصال الشام بمصر وتطلعت إليها أنظار المتعلمين والمثقفين والمشتغلين بالمسائل العامة. . . ».

أما العتب فقد عبَّر عنه بقوله: «يتمنى الشاميون على إخوانهم المصريين أن تزداد عنايتهم بتتبع أخبارهم ومعرفة أحوالهم والوقوف على مدى ثقافتهم وتقدمهم، كما يفعل الشاميون فيما يتعلق بمصر إذ لا تكاد تخفى عليهم صغيرة ولا كبيرة من أحوالها وتقلباتها ومدى نهضتها. وقد شاهد ذلك واختبره كل من زار الشام أدناها أو أقصاها من أعيان المصريين في العشرين سنة الأخيرة. وإنك لتختلط برجل الشارع في الشام فتبهرك إحاطته الشاملة بشؤون مصر دقيقها وجليلها، حتى ليعرف أسماء زعمائها ووزرائها وتاريخ حياتهم ومواقفهم من القضية الوطنية ويحفظ من أقوالهم ما يحتمل أن يكونوا هم أنفسهم قد نسوه، ويعرف أسماء البلدان المصرية والمشهور منها وما تمتاز به كل منها على غيرها. . .

وتختلط بالرجل المثقف فتراه واقفاً على حركة التعليم. . .

---

(١) المصدر السابق نفسه.

وتجتمع برجل السياسة فيقصّ عليك من سياسة مصر الداخلية والخارجية وحوادث الأحزاب . .

وتلقى رجال الجمعيات الإسلامية فيحدثونك عن الجمعيات الإسلامية في مصر وعن رؤسائها وأعمالها، حتى ليخيل إليك أنهم من أعضائها العاملين فيها المبرّزين في خدمتها. وتستمع إلى رجال الأدب . . وتصغي إلى رجال الشرع . . . إلخ»[1].

ويتساءل السباعي في المقابل عن موقف (إخوانهم المصريين منهم ومن بلادهم وحركاتهم) ثم يقول: «أنا لا أريد التبسيط في هذا الجواب، فقد يعزّ على بعض إخواننا المصريين أن يسمعوه كاملاً على وجهه الحق! وحسبي أن أشير الآن إلى أننا كثيراً ما نُسأل ونحن في مصر عن سورية وأين موقعها؟ وما الفرق بينها وبين لبنان، ومن يحكم فلسطين وسورية، ومن هو ملك الشام! بمثل هذا تعلم مبلغ إحاطة بعض إخواننا في مصر بشؤون الشام. ولست أزعم أن هذا صنيع الجمهرة منهم، ولكنه بلا ريب هو صنيع الكثير من متعلميهم، فما بالك بالعامة والدهماء؟».

ويضيف رحمه الله: «قد يكون هناك أسباب كثيرة حملت أبناء الشام على العناية بشؤون مصر وتتبع أخبارها ليست موجودة عند أبناء مصر، ولكن مهما يكن الأمر، ومهما يكن غنى مصر وسعتها ورقيّها، ومهما تكن حاجة الشام إلى ثقافتها ومعاهدها، فهذا لا يصحح أبداً أن يكون بين الشعبين مثل هذا التفاوت

---

(١) المصدر السابق نفسه.

يقول السيد محب الدين الخطيب: «لما زرت بلاد فلسطين قبل سنتين أنا والأستاذ عبد الحميد بك سعيد الرئيس العام لجمعية الشبان المسلمين، وجدنا شباب فلسطين يعرفون القضية المصرية أكثر - نعم أكثر - من الشبان المصريين، ورأيناهم مراقبين لجميع حركات زعماء مصر وسكناتهم، ويحفظون أقوالهم وتصريحاتهم في مجلس النواب والشيوخ، ومناقشات الصحف، ويزِنون أقدار قادة الحركة الفكرية، ويعرفون مرامي كل منهم، ولا تخفى عليهم دائرة السعي التي يجول فيها كل كاتب معروف، وأين تنتهي حدودها».

من افتتاحية العدد (٢٣٢) مجلة الفتح (السنة الخامسة) ١٢ شعبان ١٣٤٩هـ (١/ ١/ ١٩٣١)، ص٤٩٨، بعنوان: الجامعة القومية والجامعة الإسلامية. مع الإشارة إلى أن الزيارة المذكورة كانت بمناسبة الاحتفال بانتهاء عمارة المسجد الأقصى.

الكبير في معرفة أحدهما بالآخر، لأن هذا النوع من المعرفة يتوقف عليه التعارف الإسلامي والتعاون المنشود»[1].

أطلنا في هذا النقل والاقتباس لبيان المناخ الثقافي السائد الذي لم يكن يتيح لإخواننا المصريين معرفة بطبيعة القضية الفلسطينية أو معرفة دقيقة وواسعة النطاق على أقل تقدير.. ومن هنا كان تعريف السباعي بها في مقالاته ومحاضراته؛ وبخاصة في ذكرى وعد بلفور، وبمناسبة بعض الحوادث التي كانت تقع على أرض فلسطين، والتي يبدو أن الصحافة المصرية في ذلك الحين لم تكن تسلط عليها الأضواء بأكثر مما ينقله المراسلون الأجانب ووكالات الأنباء!

حتى إن السباعي في مقالة له بعنوان: (**أنقذوا فلسطين قبل أن تبيد**)[2] ينقل وقائع التنكيل التي أقدم عليها الإنكليز بحق الشعب الفلسطيني من (كتاب ورد من فلسطين لصديق له في القاهرة يبين له فيه شيئاً مما ينالهم من أذى وإعنات) وكان ذلك بمناسبة حوادث اللد والظاهرية والخليل.. وقد قتل في هذه الحادثة الأخيرة حاكم الجليل ومرافقه البريطانيين.. فقام الإنكليز بنفي الزعماء وحل الهيئات السياسية وتجريد المفتي الأكبر من رئاسته الدينية. وزج قضاة الشرع وعلماء المسلمين في السجون[3] وإذا كان هذا مما تحدثت عنه الصحافة، فإن

---

(١) المصدر السابق نفسه. علماً بأن السباعي كان قد أشار قبل أربع سنوات إلى الأثر البارز الذي تركته الثورات التي قامت في مصر والشام في وقت واحد «في تقوية روابط الإخوة بين الأقطار العربية والإسلامية». كما أشاد بعروبة مصر التي تجلّت في الحفلات التكريمية التي أقامتها مصر للطلبة العراقيين أولاً ثم للزعماء والشباب السوريين والفلسطينيين ثانياً، ولوفد العراق البرلماني ثالثاً. قال: «**وبرزت عروبة مصر في هذه الحفلات واضحة جليّة ترغم أنوف الشعوبيين الذين يودّون قطع كل صلة فيما بين مصر وشقيقاتها من الأقطار العربية**» الفتح، العدد ٤٩٠، غرة المحرم ١٣٥٥هـ (٢٤/ ٣/ ١٩٣٦)

هذا وقد تحدث الأستاذ محمد علي علّوبة باشا وزير المعارف عن عروبة مصر، وقال: إن رابطة اللسان كان لها في التاريخ شأنها، ولا يزال لها على القلوب سلطانها. ووصف اللسان بأنه يلد العاطفة، قال: والعاطفة تلد الفكر، والفكر يلد التاريخ. انظر الفتح العدد ٤٨٩ في ٢٥/ ١٢/ ١٣٥٤هـ (١٨/ ٣/ ١٩٣٦م)، ص١٢.

(٢) مجلة الفتح، السنة ١٢ العدد (٥٧٥)، تاريخ ٨ رمضان ١٣٥٦هـ (١١/ ١١/ ١٩٣٧).

(٣) المصدر السابق، ص١١.

صاحب الرسالة يقول: «إنهم ساقوا الناس إلى السجون بالعشرات دون أن يستطيع أحد المراجعة أو المجادلة أو المدافعة أو حتى رفع الصوت».

ولكن علينا أن نذكر أن السباعي ـ مع هذا ـ وجد السبيل أمامه ممهدة لمثل هذا النشاط في سبيل القضية الفلسطينية، من خلال مناخ الحرية السائد، وعبر المنابر التي كانت تتبنى التعريف بهذه القضية والدفاع عنها، مثل مجلة (الفتح) كما رأينا، وكذلك الجمعيات الدينية التي شكل معظمها لجاناً لإنقاذ فلسطين. وبخاصة جمعية الشبان المسلمين والإخوان المسلمين.

وعلى سبيل المثال، فقد عقدت جمعية الشبان المسلمين مؤتمراً إسلامياً كبيراً لنصرة فلسطين في مقرّها العام بتاريخ ٢٩ صفر ١٣٥٧هـ ـ ٣٠ نيسان (إبريل) ١٩٣٨م شهده «عدد كبير من أعضاء مجلس الشيوخ والنواب والعلماء والأعيان والمحامين والأطباء والتجار وغيرهم ورجال الجاليات الإسلامية في القطر المصري» ورفع رئيس المؤتمر ورئيس اللجنة العليا للدفاع عن فلسطين الدكتور عبد الحميد سعيد كتاباً لرئيس الوزراء المصري قال فيه:

«إن الشعب المصري بجميع أفراده قام بما يجب عليه من إظهار شعوره نحو فلسطين في هذا الظرف العصيب» وطالبه بعمل حاسم «**تنقذون به سمعة مصر من أن تصبح عرضة لسخط العالم الإسلامي جميعه، وتنقذون به تلك البلاد الإسلامية الشهيدة من براثن الاستعمار والصهيونية**»[1].

كما قام الأستاذ حسن البنا بتوجيه عدة بيانات للرأي العام المصري والإسلامي حول القضية الفلسطينية، منها بيان بعنوان: (بيان وذكرى إلى المسلمين عامة: ليكن يوم المولد النبوي الشريف يوم ذكرى لفلسطين). وقد استعرض في هذا البيان (الحالة الدامية في فلسطين الشهيدة، وما آلت إليه بعد جهاد استمر عشرين عاماً، وكيف أنها باتت على شفا التهويد، بعد أن أعمل فيها الاستعمار المسلح الحديد والنار) وختمه بقوله: «هذه صرخة من أعماق القلوب، يوجهها المركز العام لجمعية الإخوان المسلمين في القطر المصري إلى كل مسلم ومسلمة في العالم، بل إلى كل رجل ذي وجدانٍ حي وضمير شريف؛ ليساهم على قدر طاقته في يوم المولد النبوي الشريف في إنقاذ فلسطين مما يحيق

---

(١) الفتح، العدد ٦٠١ (فاتحة العام الثالث عشر) في ١٢ ربيع الأول ١٣٥٧هـ (١١/٥/١٩٣٨)، ص٣٠ـ٣١.

بها من أذىً وبلاء»[1].

وعلى أية حال، فإن صلة الشعب المصري بالقضية الفلسطينية وتبنّيه لها ولسائر قضايا العرب والمسلمين، ارتقت وتعمّقت مع اتساع تلك الجمعيات والجماعات. وسوف نشير في صفحات قادمة إلى موقف الإمام حسن البنا من العرب والعروبة، وإلى جهاد جماعة الإخوان المسلمين على أرض فلسطين عام ١٩٤٨.

وانتهت مصر أخيراً إلى أن أضحت دليل العرب والمسلمين إلى المستقبل.

أيامه الأخيرة في مصر:

إذا بقينا في إطار جهود السباعي في الدفاع عن القضية الفلسطينية والتعريف بها في مصر، قبل أن نعود لمتابعة الحديث عن اعتقاله عام ١٩٤١م من قبل السلطات البريطانية وسجنه، ثم ترحيله من أرض الكنانة، فإننا ندع الحديث في هذا كله لكل من **فضيلة الشيخ مشهور الضامن وسماحة الأستاذ الدكتور عبد العزيز الخياط** اللذين شهدا هذه المرحلة مع الأستاذ السباعي وشاركا في أحداثها.

يقول سماحة الأستاذ الشيخ عبد العزيز الخياط: «لم يكن الشعب المصري على وعي عميق بالقضايا العربية، وعلى سبيل المثال فإن محمود باشا وعلي ماهر باشا كانا واعيين بتلك القضايا، لكن مصطفى النحاس باشا لم تكن لديه معلومات كافية عن القضية الفلسطينية. وهكذا رأى الطلاب العرب ضرورة التوعية بما يجري سواء في العراق حيث ثورة رشيد عالي الكيلاني أو بالحرب العالمية الثانية، خصوصاً بعد ما وصل (رومل) إلى العلمين وكان الشعب المصري يهتف: إلى الأمام يا رومل!»[2].

وقد تحدث عن هذه التوعية بثورة رشيد عالي الكيلاني، وكيف قام بها نفر من هؤلاء الطلبة، وذلك في سياق حديثه عن الأستاذ السباعي، ومعرفته به، وإفادته منه وتعاونه معه في الأزهر[3]. يقول سماحته:

---

(١) الفتح، العدد ٦٠٠، العام ١٢، ص١٧٠٩.
(٢) مجلة الوسط، ص٣٠، العدد (١٨٠) في ١٠/ ٧/ ١٩٩٥م.
(٣) في مقابلة أجراها معه في عمان بتاريخ ٢١/ ٣/ ١٩٩٤م. الأستاذ حسني أدهم جرار. انظر: الدكتور مصطفى السباعي قائد جيل ورائد أمة، ص٧٧ فما بعدها؛ دار البشير ـ عمان ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م.

«عرفت المرحوم الشيخ مصطفى السباعي في القاهرة عام ١٩٤٠م ١٣٥٩هـ مع زمرة طيبة كانت تجتمع كل أسبوع أو أسبوعين في بيت أحدهم، منهم الشيخ إبراهيم القطان من الأردن، والشيخ محمد الحامد ونصوح السباعي ـ شقيق الدكتور مصطفى ـ من سورية، والشيخ مشهور الضامن وواصف عبده وممدوح الخياط من فلسطين. وكانت تدور في الجلسة أحاديث علمية، وتطرح قضايا سياسية، وتلقى أشعار، وتقرأ أدبيات يعدّها الإخوة الطلبة ويجري عليها النقاش، وكنا نستفيد من الطلبة القدامى في الدراسة كالشيخ مصطفى رحمه الله.

«وفي عام ١٩٤١م حدثت ثورة رشيد عالي الكيلاني بالعراق، وعلى الرغم من التكتيم الإعلامي عن تطورها فإن أخبارها كانت تصلنا أولاً بأوّل.. وثارت مشاعرنا باعتبارنا طلاباً عرباً مسلمين، وقررنا أن نعمل من أجل قضية إخوتنا في العراق.. وماذا يمكن أن نعمل أكثر من إثارة الشعب المصري وتنويره بما يحدث في العراق لنصرته. وكانت قبضة البوليس المصري والمخابرات البريطانية مشدّدة محكمة، والمطابع والصحف مراقبة، ولم يكن يسمح بطبع منشور أو كتاب إلا بتصريح رسمي من الجهات المسؤولة».

ولكن (الأربعة الكبار) كما يصفهم سماحة الخياط قرروا إعداد المنشورات وتوزيعها، وهم (الشيخ مصطفى السباعي الذي صار رئيساً للإخوان المسلمين في سورية، والشيخ إبراهيم القطان (الذي أصبح وزيراً وقاضياً للقضاة في الأردن) والشيخ هاشم الخزندار من غزة (اغتالته حركة فلسطينية في الثمانينيات) والشيخ مشهور ضامن بركات (أصبح نائباً في البرلمان الأردني في الخمسينيات)[1].

وقام بتوزيع هذه المنشورات الشيخ الخياط والشيخ واصف عبده وصغار الطلبة، يقول سماحة الشيخ الخياط: «فكنّا نتدلى بواسطة حبل من إحدى الغرف إلى سطح الجامع الأزهر، ونلقي المنشورات من فتحات السقف على المصلين في الركعة الأخيرة من صلاة الجمعة، ثم نرجع إلى الغرفة، ونذهب إلى جامع صغير خلف الأزهر دون أن يشعر بنا أحد» وربما اتفقوا مع إمام هذا المسجد على إطالة خطبة الجمعة[2].

ويضيف الشيخ الخياط قائلاً: «وكان الشيخ مصطفى رحمه الله يكتب هذه

---

(١) مجلة الوسط، مصدر سابق، ص٣١.

(٢) المصدران السابقان.

المنشـورات التي أذكر من عناوينها عنـوان: (**الشعب العراقي جزء من الأمـة الإسلامية: دماؤه دماؤنا، وحريّـته حريّتنا**)، وتتـالت المنشـورات، وتوالى التوزيع. أما كيفية طباعتها مع وجود الرقابـة الشديدة، فلذلك قصة رائعة بطلها الشيخ هاشم الخزندار، إذ كان يتفق مع صاحب مطبعة وطني، ومع أحد حرسها المناوب على أن يلبس لباسه ويحل محلّـه فترة المناوبـة، وتسـتغرق عادة ثلاث ساعات، وتطبع المناشير، ويعود الجندي الحارس، في آخر الفترة، وكان إذا مرّ به ضابط التفتيش يسأله عن الأمور، فيقول له: «تمام يا افندم» وتمر المسـألة بسلام، وأعصاب الشيخ الخزندار ثابتة هادئة كالحديد».

ثم يصف سماحة الشيخ الأستاذ السباعي بقوله: «وكان الشيخ مصطفى ـ بخاصة ـ على اتصال مع جماعة الإخوان المسلمين ومع الشيخ حسن البنا رحمة الله عليـه، كمـا كـانـت صلتـه بجمعيـة الشبـان المسلميـن قـويـة، وكـان يلقـي المحاضرات في دور الإخوان وبعض النوادي والمسـاجد، وكانت حرية الكلمة في مصر على الرغم من الاحتلال البريطاني أكثر منها في أي بلد عربي»[1]. كما وصفه كذلك بأنه: «**كان دائم الحركة والعمل.. يحاضر ويخطب، وكان أسلوبه أسلوباً حماسياً، بالإضافة إلى علمه وفقهه**».

أما فضيلة الشيخ مشهور ضامن ـ أحد الأربعة الكبار كما وصفهم الأستاذ الدكتور الخياط ـ الذي روى كذلك حادثة توزيع المنشورات بعد ثورة رشيد عالي الكيلاني على نحو مماثل، فقد قال: «كنا ونحن ندرس في الأزهر نخطب في المساجد ونتكلم ضد الاحتلال الإنكليزي.. وبعد ثورة رشيد عالي الكيلاني في العراق، اتفقنا مع السباعي أنا وهاشم الخازندار وإبراهيم القطان على إصدار **بيان للشعب المصري للتعريف بالقضية الفلسطينية**، ومهاجمة السياسة البريطانية في فلسطين والمنطقة العربية.. وقررنا توزيعه يوم الجمعة من أسطح المساجد.. وقام عدد من الشباب بإلقاء البيان على المصلّين...

وثارت ثائرة الإنكليز، وبدؤوا يفتّشون عن الذين خططوا لهذا العمل وقاموا بتنفيذه. وكان أحد المخبرين واسمه: عزت العطار يحضر إلى الأزهر كطالب ويتابع تحركاتنا وينقل أخبارنا.. وقد اكتشفه الأستاذ محمد علي الطاهر وكتب عنه مقالاً في جريدته (الشورى).

---

(١) حسني أدهم جرار؛ المصدر السابق، ص٧٩.

«وكنا نسكن في خان الخليلي . . وبعد ثلاثة أيام من توزيع البيان، دخل علينا في الليل ستة عشر رجلاً من المباحث واعتقلوني واعتقلوا السباعي والخازندار والقطان ووضعونا في سجن (التخشيبة) في باب الخلق، وهو أسوأ سجن في مصر، وكان تحت الأرض»[1] وكان ـ كما وصفه الأستاذ الشيخ الخياط ـ سجناً مؤقتاً ينقل منه المجرمون إلى السجون الدائمة بعد الحكم عليهم.

ويتابع فضيلة الشيخ مشهور قائلاً: «واستدعاني مدير المباحث العامة واسمه (محمد يوسف) وسألني من أين أنت؟ فقلت: من نابلس. . قال: من بلد محمد علي الطاهر[2] . . لقد عملت معه معروفاً وساعدته على الخروج فهرب من السجن. . وإن دلّيتوني عليه أساعدكم على الخروج من السجن. فقلت له: لا أعرف أين هو ـ وكنا نلتقي معه سراً في مكانٍ ما قبل دخولنا السجن ـ فأمر بإعادتي إلى السجن. . وانفرد بي الشيخ مصطفى في زاوية من زوايا السجن وسألني عما حدث معي، فرويت له القصة، فقال لي: **اثبت على وفائك، ولا تخبر أحداً عنه لأنه رجل مخلص، وجريدته (الشورى) لها دور كبير في خدمة قضايانا الوطنية**»[3]

ويضيف: «وبقينا في السجن ثلاثة أشهر، وتدخَّل الشيخ المراغي في موضوعنا، واتفقوا على أن نخرج من مصر[4] . . واستلمتنا السلطات البريطانية في فلسطين، ووصلنا غزة وبصّمونا، وكان الدم ينزف من أنف السباعي من شدة الحر في ذلك اليوم» فقد كنا نركب سيارة مكشوفة، محاطين بجنود شاكي السلاح، وسارت بنا صباحاً من غزة، حتى وصلنا معتقل صرفند مساءً، وبقينا في هذا المعتقل مدة أربعة أشهر.

---

(١) حسني أدهم جرار: (الدكتور مصطفى السباعي): مرجع سابق، ص٧٦.

(٢) الأستاذ محمد علي الطاهر رحمه الله من أعلام العمل السياسي العربي في القاهرة، اعتقل في أعقاب ثورة رشيد عالي الكيلاني. يقول سماحة الشيخ الخياط: «وكنت واحداً من الذين تولّوا تهريبه من المعتقل بعدما نقل إلى مستشفى الدمرداش في حي العباسية». انظر العدد السابق من مجلة الوسط، ص٣٠.

(٣) حسني أدهم جرار: (الدكتور مصطفى السباعي)، (عن مقابلة معه في عمان بتاريخ ٦/ ١/ ١٩٩٤م؛ وكتاب: مصطفى السباعي بأقلام محبيه، ص٢٠٥ـ٢٠٦.

(٤) كان للشيخ مصطفى المراغي شيخ الجامع الأزهر الفضل قبل ذلك أيضاً في السماح لهم بأداء الامتحان النهائي في السجن ـ بمناسبة انتهاء العام الدراسي ـ فقد وقع الاعتقال فيما يبدو في أواخر شهر نيسان (أبريل). انظر مصطفى السباعي بأقلام محبيه، ص٢٠٥.

«وتدخل أخي الأمير عبد الله الضامن عميد عشيرة المساعيد، وكان له منزلة في منطقته، وطلب من المندوب السامي إخراجي من المعتقل، فأرسل من يخرجني فرفضت إلا مع إخواني الستة الذين دخلوا السجن معي[1]، فاتصلوا بالمندوب السامي فجاء الجواب بالإفراج عنا جميعاً، وذهب السباعي معي إلى نابلس وبقي عندي يومين ثم سافر إلى الشام».

وتَحْسُن الإشارة هنا إلى أن الشيخ الخياط مع المرحوم الشيخ محمد عبده هاشم كانا يطوفان على (التجار الشوام) ـ أو بحسب عبارة الأستاذ الخياط المعبّرة: «كنا نتسوّل من التجار الشوام في مصر» ـ للإنفاق على المعتقلين وتأمين الطعام اليومي لهم قبل ترحيلهم إلى معتقل صرفند[2].

التأثير السياسي للأزهر:

كما تحسن الإشارة ـ أخيراً ـ إلى أمر مهم تحدث عنه سماحة الدكتور الخياط، وهو أن التأثير السياسي للأزهر كان ـ آنذاك ـ كبيراً، وكان شيخ الأزهر محمد مصطفى المراغي ـ الذي تدخل للإفراج عن المعتقلين ـ شخصية بارزة، يقول الأستاذ الخياط: «وأذكر أنه عندما ساءت الأحوال الاقتصادية وارتفعت الأسعار، بسبب توريد معظم المحاصيل المصرية للحلفاء مساهمة في الحرب العالمية الثانية التي قررت مصر دخولها مع الحلفاء، على إثر قرار لمجلس النواب برئاسة أحمد ماهر باشا (شقيق علي ماهر وكان على النقيض منه!) سيَّر الأزهر بتظاهرة حاشدة خرجت من الجامع الأزهر قبل صلاة الجمعة، وكان الملك فاروق يصلي ومعه رئيس وزرائه حسين سرِّي باشا، وطالب المتظاهرون من داخل الجامع بإقالة رئيس الوزراء، ثم خرجوا إلى ساحة سراي عابدين بعد ما انضم إليها عشرات الآلاف. . .

«أكثر من عشرة آلاف كانوا يرتدون العمائم، وعشرات الآلاف من المواطنين، وعندما حاولت الشرطة التعرض للتظاهرة نزع الشبان عمائمهم

---

(١) اعتقل مع الأربعة أيضاً كل من الشيخ فارس حمدان والشيخ عبد الحي الدويك بالإضافة إلى طالب من الكويت هو السيد يوسف مشاري. انظر الدكتور الخياط في المصدر السابق، ص٨٠.

(٢) مجلة الوسط، مصدر سابق، ص٣١.

واستخدموها لرشق الشرطة بالحجارة في ساحة قصر عابدين، ولم يتفرقوا حتى استجاب الملك فاروق وحلّ الوزارة»[١].

تعقيب: السباعي والقضية الفلسطينية:

شاء الله تعالى أن يكون ترحيل السباعي إلى فلسطين قبل أن يفرج عنه ويعود إلى سورية.. فقد استلمته مع زملائه وإخوانه السلطات البريطانية في فلسطين كما حدثنا فضيلة الشيخ مشهور الضامن الذي كان لأخيه الأمير عبد الله الضامن الفضل في الإفراج عنه وعن السباعي وسائر المعتقلين، بعد أن قضوا في معتقل صرفند أربعة أشهر. ولكن الإنكليز بعد أن أفرجوا عن السباعي أسلموه إلى الفرنسيين في الشام ـ بتنسيق أو بغير تنسيق ـ فما أن وطئت قدماه أرض الشام حتى اعتقلته السلطات الفرنسية وزجّت به في السجن لمدة تقرب من سنتين ونصف السنة متنقلاً بين سجون حمص وبيروت، ومعتقل (الميّة وميّة) وقلعة راشيّا بلبنان[٢].

وقد تعرض في بعض هذه السجون والمعتقلات للتعذيب.. أملاً في إطفاء شعلة الكفاح التي لم تهدأ في صدر هذا الشاب في حمص والقاهرة.. ولكن هيهات، فقد ضاعفت قسوة التنكيل الذي عاناه من اندفاعه وحماسته وعزمه وتصميمه على متابعة الجهاد والكفاح[٣].

لقد ساقته الأقدار إلى فلسطين التي حمل همها في قلبه طيلة حياته.. دخلها معتقلاً[٤].. وهو ما زال ـ وسيبقى ـ يجاهده جهاد النبيل الطويل ليفك

---

(١) مجلة الوسط ـ المصدر السابق.

(٢) أشار الأستاذ السباعي إلى أنه كان في سجن (قلعة راشيّا) الواقعة في سفح جبل الشيخ من الجهة الغربية الواقعة في لبنان.. في الحرب العالمية الثانية، وقد ذكر ذلك في سياق حديثه عن الصوم. انظر: افتتاحية العدد التاسع من السنة الثانية من مجلة حضارة الآلام رمضان ١٣٨١هـ آذار من مارس ٩١٦٢م بعنوان: (المدرسة الاجتماعية العملية).

(٣) محمد بسام الأسطواني: حضارة الإسلام ـ مصدر سابق، ص١٣٤ ـ ١٣٥. وقد أشار الأستاذ السباعي إلى أنه أفرج عنه في أواسط الحرب العالمية الأخيرة. راجع (السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي)، ص٢١ الطبعة الثالثة ١٩٨٢م، بيروت.

(٤) بل إن الاعتقال في مصر، قبل الترحيل والحبس في معتقل صرفند، كان كما نقلنا قبل عن الشيخ مشهور الضامن، زميل الأستاذ السباعي في المعتقل، بسبب البيان الذي أعدوه هم الستة، وكان (يتضمن شرح قضية فلسطين.. وواجب العالم الإسلامي تجاه هذا=

قيودها ويطلق حريتها في دنيا العروبة والإسلام. لقد جاهد فيها بقلمه ولسانه، وجاهد على أرضها بدمه وماله. ولو جمعت المقالات التي كتبها عنها في مصر لبلغت مجلداً.

أما الخطب التي ألقاها في هذه المرحلة ـ وبين عامي ١٩٤٣م ـ ١٩٤٥م عقب الإفراج عنه فتبلغ مجلّدات. . نعم قد يكون سماحة مفتي فلسطين الأكبر الحاج أمين الحسيني هو المحرك الأول لشعور الأمة. . ولكن مصطفى السباعي طاف المدن السورية وذرع البلاد من أقصاها إلى أقصاها يعرّف بالقضية الفلسطينية ويحذّر وينذر، ويلهب بخطبه الحماسية الجماهير المؤمنة. . ويأخذ عليها العهود والمواثيق بأن تبذل لفلسطين كل غال ورخيص.

وبقيت فلسطين بعد ذلك همّه الوطني والقومي والإسلامي الأول لم يشغله عنها شيء. . كما تشهد مساجد سورية وأنديتها وبرلمانها وصحفها. . وأخيراً مجلته التي أصدرها في دمشق ـ حضارة الإسلام ـ حيث أفرد لأخبار فلسطين باباً ثابتاً تحت عنوان: (الدرّة المغتصبة) بالإضافة إلى بعض (الافتتاحيات) التي خصّها بالحديث عن هذه الكارثة! وكان من آخرها افتتاحية العددين السادس والسابع من السنة الثانية تحت عنوان: (دروس الكارثة). . والتي ختمها بقوله:

«والآن يجب أن نصحح خط السير الذي بدأناه في معالجة القضية الفلسطينية فنسلّم بالقيادة لأبنائها، ونرفع مستوى المشردين منهم روحياً وخلقياً ومادياً لتجنيدهم لخوض المعركة المقبلة، ونترفع عن استغلالهم واستغلال قضيتهم لأغراضنا الخاصة، وأن نرفدهم بكل إمكانياتنا من مال وسلاح، ونستمر على تبني قضية فلسطين في المحافل الدولية بتضامن وتنظيم دقيقين.

«كما يجب أن نعدّ شعوبنا لخوض المعركة المقبلة مع إخواننا أهل فلسطين، وذلك إنما يكون بتحرير شعوبنا من مختلف أنواع العبودية والمهانة، وتربيتها تربية الأحرار الذين تفيض نفوسهم بالإيمان بالله، وترتفع رؤوسهم

= البلد المقدس. . والدعوة إلى مقاومة الاحتلال البريطاني. وبسبب الخطب التي ألقاها السباعي على جماهير الشعب المصري في المساجد شارحاً قضية فلسطين، داعياً إلى الجهاد في سبيل الله تعالى لإنقاذ الأرض المقدسة غير هيّاب ولا وجل) كما يقول الشيخ مشهور. وفحوى ذلك أن هذا الاعتقال كان بسبب القضية الفلسطينية في المقام الأول. انظر كتاب: مصطفى السباعي بأقلام محبيه وعارفيه، ص٢٠٢ ـ ٢٠٤.

بـالخلق الكريم، وتهوى أفئدتهم مصارع الشـهداء لينعموا بالخلـد في جنـات النعيم.

«إن معركة الحرية لا ينتصر فيها إلا الأحرار، فلنعمل لتظلل الحرية الكاملة سماء وطننا الكبير»[1].

نكتفي هنا بهذه الإلماعة السريعة عن (السباعي والقضية الفلسطينية) التي جاءت بمثابة تعقيب على خروجه من مصر وسجنه في فلسـطين.. على أن نعود للحديث عن جهاده في سبيل هذه القضية في فصل خاص.

* * *

---

(١) جمادى الآخرة ورجب ١٣٨١هـ، كانون الأول وكانون الثاني (ديسمبر وينابر) ١٩٦٠ - ١٩٦١م.

الدَّاعِيَةُ وَالدَّعْوَة

الدّاعية والدعوة

الموهبة الشابّة.. ودعوة الشباب:

لقد عبّرت هذه الموهبة القيادية الشابّة عن نفسها خلال بضعة عشر عاماً من الكفاح الوطني والدعوة الدينية . . بدءاً من مقاومته لمدارس التبشير في حمص، وانتهاء بخروجه من المعتقلات الفرنسية ليبدأ عملاً تنظيمياً في نطاق الشباب على وجه الخصوص، بعد أن فقد الأمل منذ بعض الوقت في جيل القادة الذي كان قائماً في ذلك الحين . . مع ما كان يشعر به من أن هموم القيادة سوف تلقى على كاهله في نهاية المطاف . .

وإذا كان في عام ١٣٥٨هـ ١٩٣٩م قد توجه بخطابه أو وضع آماله في جماعة مثل (شباب محمد) التي كانت قائمة في البلاد في ذلك الحين، والتي جاءت ولادتها استجابة للتحديات التي شهدها العصر ـ والتي رسمنا بعض ملامحها في المشهدين السياسي والثقافي، وفي المشهد الثاني منهما بخاصة ـ فإنه ما لبث أن أدرك بعد قليل أنه لا بد من عمل ديني ثقافي ينتظم البلاد من أقصاها إلى أقصاها، بل يتطلع إلى التعاون والتنسيق مع مصر بوجه خاص، ومع سائر بقاع العروبة والإسلام بوجه عام.

قال في مقال له يعكس مدى فقدانه الأمل في الزعامات القائمة في البلاد ـ والتي بقي يثق بها ويهيب بها، ويتلمس لها الأعذار مدة طويلة ـ في الوقت الذي «ضحّى فيه الشعب وناضل وجاهد تحت ألوية الوحدة منذ عشرين عاماً دون أن يتأخر عن تلبية نداء الخير مرة واحدة» على حد قوله، قال في ختام هذا المقال الذي وضع له عنوان: (الجهاد الضائع): [(١)].

«والآن وقد استحكم الخلاف بين القادة، واستيقظت أنانية بعضهم، وتعذر جمعهم تحت راية الوطن، فإننا نضع الرجاء في رجال المستقبل من شباب محمد ﷺ وشباب الجامعة والمعاهد، وشباب الجيل الحاضر ممن

---

(١) مجلة الفتح العام الرابع عشر، العدد (٦٦٥)، في ٦ ربيع الآخر ١٣٥٨هـ (٢٤/ ٥/ ١٩٣٩م).

سـمت أرواحهم، وقويت عقائدهم، وحسـنت أخلاقهم.

«بهؤلاء نضع الثقـة في أن يحملوا الزعماء والكبـراء حملاً على الاتحاد، واطراح الشخصيات والعمل للمصلحة العامة، لعلهم يقلعون عما هم فيه، خشية أن تفلت من أيديهم مقاليد الزعامة، التي شغفوا بها حبـاً، وإن لم يفعلوا، فسـيبقى هذا الشـعب المسكين ضحية الأهواء والشـهوات، حتى يقيض الله له الرجل الذي يقوده إلى مواطن النصـر والمجد!.

«أيها الشباب عزمة من عزماتكم الجبارة، وصرخة من صرخاتكم المدويّة، تنصر الحق وتخذل الباطل، ولن تعجزوا ـ وأنتم مجتمعون ـ عن أن يكون منكم ما كان من الفاروق، وهو منفرد وحده، حين زأر زئير الآساد في بطاح مكة يتحدى الباطل وزعماءه، فكانت صرخة أخزى الله بها جموعهم، وألقى الرعب في قلوبهم، وأعلى بها كلمة الحق ونصر بعدها أهله!.

«أيها الشباب إن صحائف التاريخ تنشر اليوم بيضاء، ليدونَ فيها ما دُوّن لأسلافكم فتية الإسلام الأطهار عند انبثاق نوره. فحققوا فيكم أمل الإسلام، وأمل الأجيال من قبلكم، والأجيال من بعدكم.

«واحرصوا على أن تلقوا على من يأتي بعدكم من الشباب دروساً يتعلّمون فيها كيف يذود الفتيان عن الحق إذا تخلّى عنه الرجال، وكيف يثور الأبناء للمجد إذا دبّ دبيب التخاذل في صفوف الآباء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٤]». اهـ.

شباب محمد ﷺ:

إنها دعوة للشباب بوجه عام، ولشباب محمد بوجه خاص.. وكان قد أشـار في مناسبات سابقة منذ أكثر من عام إلى شـباب محمد بوصفهم (قرة عين الإسلام) في بلاد الشام، أو (في تلك الديار) على حد قوله، لأنه كان يكتب من مصر كما جاء في مقالة له بعنوان: (الدعاية الكمالية في سورية)[1]، وكما تحدّث

(١) مجلة الفتح العام الثالث عشر، العدد (٦٣٥)، بتاريخ ١٤ ذي القعدة ١٣٥٧هـ (١٩٣٩/١/٥).

عن بعض عناصرهم المبرزة في مقالة أخرى مثل (الأخوين الصالحين النشيطين: الشيخ مصطفى الزرقا والشيخ معروف الدواليبي) اللذين تخرجا في المدرسة الخسروية الشرعية في حلب، ثم نالا شهادة البكالورية السورية بجدّهما ونشاطهما، ودخلا الجامعة السورية، فنالا إجازة الحقوق فيها. قال:

«وأولهما الآن محام ومدرس في المدرسة الخسروية، وقائد الحركة الإسلامية في الشهباء.

وثانيهما في باريس، أوفدته الحكومة السورية منذ شهرين لدراسة التشريع الروماني والمدني»[1].

والواقع أن حديثه عن هذين الشيخين ـ وقد تتلمذنا عليهما فيما بعد في كلّيتي الشريعة والحقوق ـ جاء في سياق حديثه عن (جمعيات العلماء ومؤتمرهم الأول) الذي عزا فيه الفضلَ للأستاذ الشيخ محمد كامل القصاب، وأشار فيه إلى «تعاون شيوخ العلماء، مع الشباب منهم بإخلاص ينشرح له الصدر» فكأن الشيخين الشابّين ـ كما وصفهما ـ شهدا المؤتمر مع العلماء أو بصفتهم هذه، في حين أن حديثه المسهب عن (شباب محمد) جاء بعد ذلك في عدد آخر من (مجلة الفتح) بعد أسبوعين فقط من المقالة السابقة. وقد استهلّه بهذه العبارات التي تدل على مدى تأثره بهؤلاء الشباب، وانفعاله بأخلاقهم وأعمالهم: قال رحمه الله:

«روحي الفداء لمشرق النور ومبعث الهدى وصفوة خلق الله محمد بن عبد الله ﷺ، وبنفسي أفدي أولئك الشباب الذين كان لهم من خلق رسول الله نصيب، ومن هدايته حظ، ومن نوره قسط، ومن النسبة إليه شرف كبير، فكانوا بحق شباب محمد ﷺ لا انتحالاً ولا ادّعاء».

ثم قال: «وإذا تحدثتُ اليوم عن هذه الفئة العاملة من شباب المسلمين فإنما أتحدث عن أول هيئة مسلمة فتيّة فيما أعلم، تعمل لدين الله بقلوب لا تعرف

---

(١) مجلة الفتح العام الثالث عشر، العدد (٦٣٧)، بتاريخ ٢٨ ذو القعدة ١٣٥٧هـ (١٩/ ١/ ١٩٣٩). مقالة بعنوان: (الحالة الدينية في سورية: جمعيات العلماء ومؤتمرهم الأول).
مع الإشارة إلى أن الأستاذ الزرقا الذي أضحى فيما بعد عالم حلب ومرجعها الديني، لم يكن قائداً للحركة الإسلامية فيها، على النحو الذي توحي به عبارة الأستاذ السباعي. اللهمّ إلا ما كان من عضويته ـ أي الأستاذ الزرقا ـ في جمعية البر والأخلاق الإسلامية، وهي جمعية خيرية ثقافية (من ملاحظات الأستاذ الفاضل عادل كنعان).

الرياء، وبأفئدة لا تحب الفخر، وبنفوس قوية لا يداخلها وهن ولا يأس ولا فتور».

وبعد أن أشار إلى التربية الإسلامية الصوفية[1] التي أخذ هؤلاء النفر من الطلبة الجامعيين ـ سبعة أو ثمانية ـ أنفسهم بها، وكيف أنهم «مدّوا الأيدي متعاهدين على أن ينزلوا إلى الميدان لينافحوا عن دين الله الذي تكاثرت عليه السهام، وعن خُلق الإسلام الذي شوّهته صروف الحدثان، وليبثوا في الأمة روح اليقظة والحمية والعزة» قال:

«وما هي إلا برهة من الزمن حتى كانت دار الأرقم في حلب، وجمعية الشبان المسلمين في دمشق، وجمعية الرابطة الدينية في حمص، وجمعية مكارم الأخلاق الإسلامية في بيروت، وجمعيات عديدة في القدس ولندن وباريس.. كلها تنضوي تحت رابطة شباب محمد ﷺ.

«ومنذ ذلك الحين أخذ الناس يشعرون بجهود هذه الكتلة المنظمة في سبيل الدين والأخلاق، مما أحلّها في نفوسهم مقاماً سامياً، وبوّأ رجالها في بعض البلدان مقام الزعامة الدينية رغم حداثة سنّهم».

وفي وسعنا أن نلاحظ هنا أن هذه الجمعيات أسست في النصف الثاني من عقد الثلاثينيات أو (هذه الكتلة المنظمة) ـ بحسب عبارة الأستاذ السباعي ـ تعدّ خطوة لاحقة أو مرحلة متقدمة لتأسيس جمعيات إسلامية عديدة في النصف الأول من هذا العقد، وفي عام ١٩٣١ على وجه الخصوص؛ ففي رسالة مبكرة بعث بها الأستاذ السباعي إلى السيد محب الدين الخطيب، ومؤرخة في ٢٢ من ذي الحجة ١٣٤٩هـ (٥/٩/١٩٣١) قال: إن بوادر النهوض في المسلمين قد بدأت والحمد لله (ففي سورية مثلاً نرى أن الجمعيات الإسلامية قد كثر تأليفها، والرجال العاملين قد كثروا؛ ففي دمشق قد تألفت جمعية الهداية الإسلامية حديثاً، وفي بيروت ثلاث جمعيات إسلامية: جمعية اتحاد الشبيبة الإسلامية، وجمعية المقاصد الخيرية الإسلامية، والمجلس الإسلامي. وفي طرابلس جمعية إسلامية أيضاً، وهي جمعية التعاون الخيري. وفي حلب قد تألفت حديثاً جمعية

---

(١) علّق الأستاذ كنعان بالقول إن مؤسسي (شباب محمد) لم يكونوا متصوفة أبداً. ويبدو أن الأستاذ السباعي قصد بهذا الوصف: ما أخذوا به أنفسهم من التربية الروحية وجهاد النفس، قبل النزول إلى ميدان الدعوة والعمل العام.

البر والأخلاق الإسلامية. وفي حماه من مدة ٤ أيام تألف فرع لجمعية الهداية الإسلامية بدمشق. وها أننا نسعى الآن في حمص لإنشاء جمعية إسلامية، وعسى أن يكلل مشروعنا بالنجاح. وقد كان لهذه الجمعيات المذكورة فضل كبير في إيقاظ الشعور الإسلامي، وتنبيه المسلمين إلى ما يجري في طرابلس الغرب...)[1].

أما تاريخ تأسيس (رابطة شباب محمد ﷺ) وأسبابه ـ كما جاءت على لسان

---

(١) السباعي بأقلام محبيه وعارفيه، ص٥١٨. وكان من أبرز وجوه نشاط جمعية الهداية الإسلامية منذ تأسست في دمشق في ٢٩/ ١١/ ١٩٣٠ الطلب الدائم إلى «وزارة المعارف للعناية بالدروس الدينية، وجعل الامتحان إجبارياً»، حتى يتمكن شباب الأمة من معرفة واجباتهم الدينية مثلما يعرفون واجباتهم الدنيوية، وحتى يسلكوا بها المنهج السويّ يوم تلقي إليهم الأمور مقاليدها.
«وقد سلكت الجمعية في ذلك شتى المسالك، ولم تألُ جهداً في تتبع الطرق المنبهة لأولي الأمر، والمذكرة لهم بما يترتب على ذلك من الفوائد للحكومة وللطلاب ولأوليائهم، بل لأبناء الوطن كافة. ولكن الوزارة في غفلة عن هذا كله! فهي لا تحب أن تسمع، ولا تود أن يقول لها الناس شيئاً عن هذا ألبتة. وأوضح برهان لنا على ذلك أن الحال لم يتحول، وأن الأمر لم يزل على ما هو عليه من مجافاة هذه الدروس، وعدم المبالاة بها وبمعلّميها! رغم هذه المنبهات المتنوعة والنصائح المتعددة».
انظر مقالة بعنوان (كتاب مفتوح إلى وزارة المعارف في الجمهورية السورية) كتبها من دمشق الأستاذ الشيخ محمود ياسين. مجلة (الفتح) العدد رقم ٤٤٧ (العام التاسع)، ص١١٤٤ ـ ١١٤٥ في ٢٧ صفر ١٣٥٤هـ. وانظر نص قانون الجمعية الأساسي في العدد ٢٣٢ من الفتح (العام الخامس)، ص٥٠٣. ونصت المادة الأولى على أن الجمعية تألفت في غرة ربيع الأول سنة ١٣٤٩هـ. ونصت المادة الثانية على أن الجمعية لا دخل لها بالسياسة ألبتة.
أما جمعية البر والأخلاق في حلب فقد أسست في مطلع العام المذكور (١٩٣١) لأن السيد محب الدين الخطيب قال في مجلته (الفتح) العدد (٢٣٥) الصادر في ٣ رمضان ١٣٤٩هـ إنه تلقى من حلب النظام الأساسي لهذه الجمعية التي «أسست هناك في الشهر الماضي، لتثبيت العقائد الإسلامية وتقويتها في نفوس المسلمين، والعمل بأحكام الكتاب والسنة». راجع العام الخامس من الفتح، ص٥٥٥. مع الإشارة إلى أن رئيس الجمعية كان العالم المؤرخ الشيخ محمد راغب الطباخ رحمه الله، وأن أمين سرّها ـ في بعض السنوات ـ كان الأستاذ محمد معروف الدواليبي. انظر العدد (٥٧٤) من الفتح غرة رمضان ١٣٥٦هـ العام ١٢، ص٥٩٧.

المؤسسين أنفسهم ـ فقد تحدث عنها كل من عبد الوهاب الألتونجي وعمر صدقي بهاء الأميري في مقالة بعنوان: (رابطة شباب محمد ﷺ ومؤسساتها في العالم الإسلامي) نشرت في مجلة (الفتح) في عددها الصادر بتاريخ ٢ شعبان ١٣٥٦هـ (٧/ ١٠/ ١٩٣٧)[١] قالا فيها:

«قبل ثلاث سنوات خلت، شعر بعض طلاب الجامعة السورية بحالة البلاد المنحطة من الناحية الخلقية والدينية، وكيف أن الدين لم يبق منه عند الجمهور غير مظاهر فارغة ليست من جوهر الإسلام في شيء. وتنبهوا إلى تقصيرهم في هذا المضمار، وعرفوا أن عليهم واجبات نحو أنفسهم والبلاد، أجلّها وأعظمها صيانة الأخلاق، فقاموا فيما بينهم بتأسيس حلقات يجتمعون فيها لتهذيب النفس، وتقوية روابط الأخوة، والتبشير بفكرتهم هذه بين الشباب. وجعلوا ينظمون الصالح أو القابل للصلاح في سلك عقدهم. وقد اتسعت الدائرة مع الأيام، وبرز إلى الوجود بدل الحلقة الواحدة حلقات عدة متصل بعضها ببعض اتصالاً قوياً، فهي في مراسلة دائمة من جهة، وتقوم بالرحلات المتنوعة في سبيل التعارف والاجتماع وتمكين أواصر الإخاء، من جهة أخرى. وتجتمع لتتعاون في البأساء والضراء، وتدرس شؤون العالم الإسلامي المختلفة».

وأضافا: «وكانت مناسبة رأى أفراد الحلقة فيها ضرورة مقابلة أحد كبار الزعماء في سورية، ومباحثته في بعض الأمور الإسلامية، وفيما هم يتحدثون مع ذلك الزعيم سألهم عن اسم الرابطة التي تجمع هؤلاء الشبان، فأجاب أحدهم على البداهة: «نحن شباب محمد ﷺ» فانتشر هذا الاسم في الأوساط انتشاراً سريعاً، وأصبح له دوي في الآذان، مما دعا لجعله اسماً عاماً يطلق على مجموع الحلقات في جميع الجهات».

«وما أشرقت شمس سنة ١٣٥٦ الهجرية (آذار/ مارس ١٩٣٧م) إلا وكان شباب محمد ﷺ قد انتشروا في الآفاق، وأصبحت لهم مراكز في دمشق وحلب وحمص وحماه وبيت المقدس وشرقي الأردن وباريز وبرلين ومراكش. وهم يسعون بفضل الله لجعل رابطتهم تشمل أكثر البلاد الإسلامية».

---

(١) العدد رقم ٥٧٠ (العام الثاني عشر). ووقع الأستاذ الألتونجي باسم: رئيس النادي. والأستاذ الأميري باسم: رئيس لجنة الشؤون الإسلامية.

وأخيراً جاء في المقالة أو البيان المذكور ما يلي:

«ولما كانت رابطة محمد ﷺ رابطة روحية أخوية لا تتقيد بقيد رسمي، فقد صحت العزيمة في بعض مراكز الحلقات ـ لما رأت في نفسها الأهلية الكافية ـ أن تستعين بالله تعالى في تأسيس أندية رسمية تحقق أهدافها وغاياتها بالطرق النظامية والوسائل القانونية، فأسست في حلب (دار الأرقم) وأسست في دمشق (جمعية الشبان المسلمين) وفي حمص (رابطة الطلاب الدينية) وهلمّ جرا...»[1].

قلت: وهذه الإشارة إلى التأسيس المشترك تحت لافتة (شباب محمد ﷺ) **لا يتعارض مع تأسيس الشبان المسلمين بدمشق في وقت سابق؛** لأن جمعية هؤلاء الشبان جاءت في سياق جمعيات الشبان المسلمين التي أسست في مصر عام ١٣٤٦هـ ـ ١٩٢٧م، والتي حذت المدن الفلسطينية حذوها، فقام فيها جمعيات تحمل نفس العنوان في نابلس وحيفا ويافا وعكا وصفد وخليل الرحمن واللد والرملة وخان يونس وسلوان ـ وكان لها نشاط ملحوظ ـ وانتقل الأمر إلى سورية، فقد عقد في دمشق في تشرين الأول ـ نوفمبر ١٩٢٨ اجتماع في منزل السيد ياسين بك الجابي تلا فيه الشيخ عبد القادر المغربي قانون جمعية شباب محمد ولائحتها الداخلية.

---

(١) الفتح، العدد ٥٧٠، ص٧ (العام الثاني عشر، ص٤٩١). وكان قد أسس في دمشق في عام سقوط الخلافة (١٩٢٤) جمعية الخلافة الإسلامية. كما أسس فيما بعد في سياق تأليف جمعيات شباب محمد المشار إليها: جمعية التمدن الإسلامي على يد الأستاذ المجاهد أحمد مظهر العظمة وابن شهيد ميسلون الأستاذ محمد بن كمال الخطيب. إلى جانب جمعية العلماء التي أسست بدمشق عام ١٩٣٧، وكذلك الجمعية الغراء التي عدت تكريساً وامتداداً لحركة التثقيف والإصلاح الديني التي قادها الشيخ علي الدقر رحمه الله.

وقد نشطت الجمعية الغراء في تأسيس المدارس والمعاهد الدينية، والتي درس كاتب هذه السطور في مدرستها الابتدائية ـ في حي الميدان بدمشق ـ وكانت تدعى مدرسة وقاية الأبناء للجمعية الغراء، وفي معهدها الإعدادي والثانوي الذي كان يدعى معهد العلوم الشرعية. رحم الله الشيخ علي الدقر وأستاذنا الشيخ أحمد الدقر، وسائر رجالات الجمعية وأساتذتنا في المعهد الذين لم يألوا جهداً في الدعوة والتعليم والتربية والتهذيب.

انظر كلمة حول تأسيس جمعية العلماء بقلم الشيخ محمد كامل القصار ـ أحد أعضاء المجلس الإداري لهذه الجمعية ـ، في مجلة (الفتح) العدد ٥٨٨ في ٩ ذي الحجة ١٣٥٦هـ (٩/ ٢/ ١٩٣٨) العام ١٢، ص٩٣٥.

وقد وافق الحاضرون بالإجماع على تأسيس جمعية على مبادئ هذا القانون. ثم انتخبوا بالاقتراع السري لجنة من «حضرات السيد مسعود الكواكبي ومحمد بك النحاس وزكي بك الخطيب، والسيد بدر الدين عيسى الصفدي والسيد سعيد حمزة و السيد مسلم السيوفي والسيد مهدي مرتضى والدكتور حمدي بك الخياط لتتولى تقديم طلب رسمي إلى الحكومة بتشكيل الجمعية مصحوباً بالقانون الأساسي واللائحة الداخلية». وقد قرر المؤسسون «وضع لائحة داخلية بهم تلائم أحوال البلاد السورية» لأن الذي تلاه الشيخ المغربي كان قد وضع في القاهرة. ولا شك في أنه كان على مثال جمعية الشبان المسلمين في مصر، فوافق المؤسسون على القانون الأساسي وأقرّوا تعديل اللائحة الداخلية. ثم قاموا بإخطار السيد الأستاذ محب الدين الخطيب بذلك، فأفرد له افتتاحية العدد (١٣٨) من مجلة (الفتح) وكانت بعنوان: (إلى إخواني شباب دمشق: بمناسبة تأسيس جمعية الشبان المسلمين فيها) وقد استهلها بقوله: «حمل إلي البريد في هذا الأسبوع نسخة من قانون جمعية الشبان المسلمين الأساسي، ونظامها الداخلي، مطبوعين في دمشق، فكان لذلك أثر بليغ لم أشأ أن أكتمه عن أبناء العاصمة التي كتب الله لها في تاريخ الإسلام أن تسير منها جيوش الفتح إلى مشارق الأرض ومغاربها، وأن تصدر منها دعاية الهداية الإسلامية، والسيادة العربية إلى القارات الثلاث: أوروبة وآسية وإفريقية»[1].

---

(١) انظر العدد المذكور الصادر بتاريخ ٢٥رمضان ١٣٤٧هـ ـ ٧ آذار (مارس) ١٩٢٩؛ وانظر القانون الأساسي لجمعية الشبان المسلمين بمصر: الفتح: العدد (٧٣) تاريخ ٧ جمادى الثانية ١٣٤٦هـ ـ ١ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٢٧م؛ وانظر وقائع اجتماع دمشق في العدد (١٢٢) من الفتح تاريخ ٨ جمادى الثانية ١٣٤٧هـ ـ ٢٠ تشرين الأول ـ نوفمبر ١٩٢٨م (السنة الثالثة)، ص٣٤٥. وقد يفهم من هذا كله أن جمعية الشبان المسلمين التي أسست في دمشق في هذا الوقت المبكر لم يكن لها نشاط ملحوظ، أو أن هذا النشاط لم يستمر طويلاً.. حتى عد إعادة التأسيس أو الإفادة من التأسيس الأول ـ بعنوانه وقانونه الأساسي ـ تأسيساً جديداً جاء في سياق تأسيس دار الأرقم ورابطة الطلاب الدينية وجمعية الأنصار ـ في دير الزور ـ وغيرها في سائر البلاد السورية.
وبعد أن كتبنا هذه الملاحظة وقفنا في مجلة (الفتح) على السبب الحقيقي لعدم قيام هذه الجمعية بأي نشاط. وهو المنع الذي قامت به السلطات الفرنسية، لأنها رفضت الموافقة على وجود هذه الجمعية، وكان على رأسها الأستاذ زكي بك الخطيب. ثم عاد=

مؤتمر جمعيات العلماء ومؤتمر جمعيات شباب محمد:

كان السباعي في الشام في زيارة استمرت أربعة أشهر، شهد خلالها المؤتمر الأول لجمعيات العلماء، الذي انعقد بدمشق خريف عام ١٣٥٧هـ (١١-١٣ رجب) الموافق (٦ ـ ٨ أيلول ـ سبتمبر) ١٩٣٨، والمؤتمر الأول كذلك **لجمعيات شباب محمد** الذي انعقد في ٢٤ شعبان المعظّم من العام نفسه. ثم كتب عن كل واحد من المؤتمرين مقالاً في مجلة (الفتح) بعد عودته إلى القاهرة[١].. وأثنى في مقاله هذا من هؤلاء الشباب على كلٍّ من الأستاذ عمر صدقي بهاء الأميري ـ أمين سر المؤتمر ـ والأستاذ عبد الرؤوف الأسطواني، والأستاذ عبد الوهاب الأزرق، الذي قال فيه:

«ولما ثار الرأي العام السوري على وزارة المعارف لتعيينها الخواجه ميشيل عفلق مدرساً للتاريخ الإسلامي في تجهيزية دمشق، بعد أن تطاول على الإسلام وأئمته، لم تجد الحكومة السورية فيمن يملأ هذا الكرسي خيراً من الأخ الأستاذ الأزرق، فعهدت إليه بذلك».

كما أشار إلى غيرهم من الإخوة الأفاضل الأبرار كالشيخ عمر خياطة، وصلاح الدين الشاش، وصلاح الدين دعدوش، وجمال العش، وعزت المرادي، وإسماعيل المرادي، وعبد الفتاح الحمصي، وحيدر حجار وغيرهم[٢]. قال: «أما **إخواني شباب محمد ﷺ في حمص** فأخشى أن أُتهم إن

= شباب محمد ﷺ إلى تحقيق هذه الأمنية بعد المعاهدة السورية ـ الإفرنسية عام ١٩٣٦م واختاروا لرياسة الجمعية الأستاذ عبد الرحمن رضا الخاني، فوافق وزير الداخلية السيد سعد الله الجابري على تأسيسها بشرط (عدم التدخل بصورةٍ ما في الأمور السياسية). راجع الفتح، العدد ٥٧١ (العام الثاني عشر) تاريخ ٩ شعبان ١٣٥٦هـ ـ ١٤ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٣٧، ص٥١٩.

(١) مقال شباب محمد بعنوان (شباب محمد ﷺ: جمعياتهم ومؤتمرهم الأول) العدد (٦٣٩) من الفتح، بتاريخ ١٣ ذي الحجة ١٣٥٧هـ (٢/ ٢/ ١٩٣٩).

(٢) قال الشيخ: وسمعت الثناء الجزيل على كثيرين لم يسعفني الحظ بلقائهم كالأخ الأستاذ عبدالوهاب ألتونجي، والأستاذ عبدالقادر السبسبي وغيرهم».
يقول الأستاذ المربّي عادل كنعان: إن الفضل في تأسيس دار الأرقم ـ أول مركز من مراكز شباب محمد في بلاد الشام ـ يعود إلى الأستاذ النابغة الشيخ عبد الوهاب الألتونجي، قاضي حلب الأول، ثم قاضيها الممتاز. وإلى بعض إخوانه الذين شاركوه في هذا التأسيس=

ذكرت واحداً دون آخر، أو ذكرتهم جميعاً وذكرت ما أعرف عنهم من نبل وفضل، فهم رفاق الصبا وزملاء الطلب وفّقهم الله وأعانهم».

وأبرز ما تمخض عنه هذا المؤتمر: «تنظيم الشباب المسلم تنظيماً ثقافياً عسكرياً، وتوحيد جهود المراكز المتعددة لشباب محمد ﷺ واتخاذ مركز رئيسي لها» قال: **«وقد انعقد الإجماع على أن تكون دار الأرقم ـ في حلب ـ هي المركز الرئيسي»**.

ولهذا فقد ضمت لجان هذا المركز إلى جانب اللجان الداخلية والعلمية والعامة والمركزية بعض اللجان (الخارجية)[1]. وهما لجنتان: (لجنة الشؤون الإسلامية) و(لجنة إذاعة أخبار العالم الإسلامي) وكانتا نشيطتين في أعمالهما، «إذ راقبت الأولى سير الحركة الإسلامية في العالم، وكانت على اتصال بأمهات المؤسسات الإسلامية في مختلف الأقطار» كما قال الأستاذ عمر صدقي بهاء الأميري أمين سرّ دار الأرقم. أما لجنة الإذاعة فقد قال الأميري إن أعمالها اتسعت، وإنها «ثابرت على إصدار تقريرها الأسبوعي الذي أصبحت تطبع منه ما يقارب مئة نسخة، وطلبته منها كثير من الجرائد والمجلات والجمعيات في العالم، حتى إن بعض محطات الراديو الأجنبية طلبت من الدار السماح لها بنشر هذه الإذاعة، فأبت الدار ذلك لبعض الملاحظات»[2]. ثم تعددت لجان الشؤون الإسلامية في مختلف جمعيات شباب محمد. وقد قامت هذه اللجان ـ على سبيل المثال ـ باستقبال بعثة الإخاء الصينية «التي دفعتها الإخوة المحمدية لجوب أقطار العالم الإسلامي والتعرف برجالاته، تمكيناً للرابطة الإسلامية بالتعارف،

= عام ١٩٣٧، وأبرزهم الشيخ المجاهد عادل الدباس، الذي قام بإيواء مجموعة المجاهدين الفلسطينيين الذين شاركوا مع سماحة مفتي فلسطين الأكبر الحاج أمين الحسيني في ثورة رشيد عالي الكيلاني في العراق، ثم التجؤوا إلى سورية بعد فشل هذه الثورة. حيث قام الشيخ الدباس رحمه الله بإخفائهم عن الأنظار في بساتين حلب وفي بعض البيوت، حتى تمكنوا من الهرب إلى تركية. ولما علم الفرنسيون بذلك قبضوا عليه وعذّبوه عذاباً شديداً في سجن (خان إستانبول) بحلب رحمه الله.

(١) كانت دار الأرقم تضم تسع لجان. انظر العدد ٥٨٧ من (الفتح) تاريخ ٣ ذي الحجة ١٣٥٦هـ، العام ١٢، ص٩١٤.

(٢) انظر مجلة (الفتح): العدد ٦٩٩ (العام الرابع عشر) تاريخ ١٩ صفر ١٣٥٩هـ (٢٨/ ٣/ ١٩٤٠)، ص٨.

وإبلاغاً لتحية خمسين مليوناً ممن يدينون بالإسلام».

قال الأستاذ الأميري رحمه الله: «وما أن وصلت البعثة الكريمة حتى توسطوا لدى وزارة الخارجية السورية لإحلالها على نفقة الحكومة والترحيب بها، وقد لبت الوزارة الكريمة رغبتهم». وقد أقام شباب محمد ﷺ للبعثة حفلة تكريمية في مدرج الجامعة السورية «حضرها كبار رجالات البلاد من العلماء والوجهاء والنوّاب والموظّفين.. ألقى فيها الأستاذ عبد الرؤوف الأسطواني أمين سر جمعية الشبان المسلمين كلمة ترحيبية تفيض بالعواطف النبيلة والشعور الحي.. وألقى الأستاذ عبد الوهاب الأزرق رئيس ديوان المجلس النيابي محاضرة ملؤها القوة والإيمان. كما ألقى الأستاذ السيد سعدي أحد أعضاء البعثة محاضرة باللغة العربية» تحدث فيها عن حالة الإسلام والمسلمين في الصين.. كما اشترك في إلقاء الكلمات كل من علاّمة الشام الشيخ محمد بهجة البيطار، وأحد أفراد البعثة، ومندوب دار الأرقم من شباب محمد الأستاذ عمر صدقي بهاء الأميري[(١)].

وقد كانت دار الأرقم معروفة لدى رجالات العالم الإسلامي، وبخاصة أولئك الذين كانوا يقودون الأحزاب الوطنية وحركات الاستقلال في بلادهم. وكان هؤلاء على اتصال بالأستاذ الأميري، وقد قام بعضهم بزيارة دار الأرقم وألقوا فيها محاضرات، ومنهم الحبيب بورقيبة الزعيم التونسي[(٢)].

وقد يكون من المفيد أن نشير إلى أمرين آخرين من الأمور التي أقرها المؤتمر المذكور. وهما: «**العمل على إسعاف فلسطين بطرق أقرها المؤتمر.. وتأييد مؤتمر العلماء في مسائل الأوقاف والتعليم والقضاء الشرعي والسكة الحجازية...**».

ملاحظات حول هؤلاء الشباب:

وها هنا ملاحظات:

---

(١) مجلة (الفتح) العدد ٦٠٦ في ١٧ ربيع الثاني ١٣٥٧هـ (١٦/٦/١٩٣٨) العام ١٣، ص١٥٣.

(٢) من حديث الأستاذ عادل كنعان ـ حفظه الله ـ وكان على اتصال بدار الأرقم، وشارك في حضور هذه المحاضرات.

الأولى: أن هؤلاء الشباب على الرغم من تأييدهم المشار إليه لمقررات مؤتمر العلماء الذي سبق مؤتمرهم بنحو شهر أو خمسة أسابيع، فإن اهتمامات الفريقين ووسائل عملهم لم تكن واحدة. . وربما جاز لنا أن نقول إن مسافة معينة باعدت بينهما أو بقيت تفصل أحد الفريقين عن الآخر. ولسوف يعاني الدكتور السباعي رحمه الله من هذا الوضع في قادمات الأيام معاناة تضعف أو تشتد! وربما ساهمت حماسة السباعي الشديدة، وتحرّقه على أوضاع المسلمين في (تضخيم) الحالة السلبية التي كان عليها (العلماء) في هذا الوقت، ومن ثم: النقد الشديد الذي وجهه لهم. وسنفرد لهذه المسألة المهمة فِقْرة خاصة بعد قليل.

الملاحظة الثانية: أن مسافة أخرى فصلت من الآن. . بين هؤلاء الشباب ـ وإن شئت قلت: بين الحركة الإسلامية عموماً ـ وبين الحكومة! فإن (هذه الهيئة الفتية المنظمة) كما وصفها الأستاذ السباعي (لم يقدرها الزعماء ورجال الحكومة قدرها)! بل إن الأمر كان على العكس من ذلك «حتى إن الحكومة كانت قد اعتزمت إلغاء دار الأرقم، لأنها أرسلت إليها احتجاجاً على تعطيل فريضة الجمعة في يوم الاحتفال بذكرى الزعيم المغفور له إبراهيم هنانو!» وفحوى ذلك أن المسافة ـ أو المشكلة ـ كانت من قبل الحكومة! أو كما عبّر الأستاذ السباعي نفسه حين قال: «وكثيراً ما أقيمت في سبيل هذه الهيئة العراقيل لأسباب لا حاجة إلى ذكرها»!.

الملاحظة الثالثة: إن اسم (**شباب محمَّد**) كما ظهر من هذا المؤتمر كان يعبر عن المنهج الديني، والتوجهات الإسلامية، التي جمعت بين هؤلاء الشباب في مختلف المدن. . مع تعدد الأسماء واللافتات الفرعية. . والدمشقيون من الأسماء التي ذكرها الأستاذ السباعي هم المؤسسون **لجمعية الشبان المسلمين** بدمشق، أو كانوا من هؤلاء المؤسسين ـ وكانت هذه تسميتهم الخاصة أو الفرعية تحت ذلك العنوان الجامع: (شباب محمد) ـ. وقد بقي السباعي على صلة بهم بعد أن عاد إلى القاهرة وقد استأثروا بفؤاده، واحتلوا حبّته كما قال: «فما فيه إلا حبّهم، وما في النفس إلا إكبارهم والإعجاب بغاياتهم»، ويترجح عندنا أنه رحمه الله عدّ نفسه واحداً منهم، حتى إنه تحدث باسمهم أو مثّلهم في حفل تأبين الأستاذ عبد الحميد سعيد رئيس جمعية الشبان المسلمين في مصر عام ١٩٤١، فقد وُصفت كلمته التي ألقاها بهذه المناسبة بأنها «باسم جمعية

الشبان المسلمين بدمشق» في الوقت الذي كان فيه السباعي في مصر شديد الصلة بهذه الجمعية هناك. **بل إنّه عدّ جمعية الشبان المسلمين بدمشق وسائر جمعيات شباب محمد ثمرة من ثمار جمعية الشبان المسلمين بمصر**؛ قال رحمه الله في الكلمة المشار إليها:

«ذلك أن الفقيد الكريم كان له أثر كبير في قيام الحركات الإسلامية المنظمة في سورية، وما جمعية الشبان المسلمين بدمشق مع أخواتها من جمعيات شباب محمد ﷺ المنبثة في أنحاء بلاد الشام إلا ثمرة من ثمار هذه الجمعية المباركة، التي كان يغذّيها الفقيد بقوة إيمانه وصدق بلائه. وبهذا أفاد الفقيد الحركة الإسلامية قوة وتنظيماً، كما رفع شأن مصر المسلمة في تلك البلاد وفي بلاد الإسلام الأخرى»[1].

---

(١) راجع نص هذه الكلمة الجامعة في (الفتح)، العدد (٧٥٣) في ٢٧ ربيع الأول ١٣٦٠هـ (٢٤/ ٤/ ١٩٤١). وأضاف الأستاذ السباعي: «بينما خصوم الإسلام يحاولون قطع كل صلة بينها وبين سائر البلاد الإسلامية، وإحياء روح العصبية الجاهلية التي جاء الإسلام لمحوها والقضاء عليها. ولكن خيّب الله آمالهم وأحبط مساعيهم، فظلت مصر وفيّة لرسالة الإسلام، خادمة أمينة لمبادئه السامية. وستظل كذلك إلى ما شاء الله رغم كل ملحد، وكل شعوبي، وكل منافق يتظاهر بالإسلام وهو له من أشد المبغضين والمناوئين».
ويمكننا عدّ الداعية عبد الحميد سعيد ـ دكتور الحقوق ـ من أبرز الشخصيات الإسلامية في تاريخ مصر الحديث، علماً بأنه انتخب رئيساً لجمعية الشبان المسلمين في القاهرة في ١٥ جمادى الآخرة ١٣٤٦هـ ـ ٩ كانون الأول ـ ديسمبر عام ١٩٢٧ ـ عند التأسيس ـ ثم أعيد انتخابه بدءاً من ١٠ حزيران ـ يونيو ١٩٢٨ مدى الحياة. وأنه تفرغ لعمله الإسلامي عام ١٩٣٦ حيث استقال من عضوية الحزب الوطني، الذي كان يمثله في البرلمان. وتشهد «مرافعاته» ومواقفه البرلمانية على أنه كان من أنشط الأعضاء وأشدهم تأثيراً وأبلغهم قولاً. وقد أشارت مجلة (الفتح) في عددها (٧٥٢) الصادر بتاريخ ٢٠ ربيع الأول ١٣٦٠ (١٧/ ٤/ ١٩٤١) العام ١٦، ص٣٢ إلى حفل التأبين الذي أقيم له يوم الجمعة في ١٤ ربيع الأول ـ وعددت أسماء المتحدثين من علماء ودعاة ومفكرين وشعراء، وأشارت إلى الجانب الذي تناوله كل منهم في شخص الفقيد. وقد بلغوا خمسة عشر من أكثر من بلد من البلاد العربية، وقالت إنه أقيمت بعد ذلك «حفلات أسبوع الذكرى، فألقيت في كل يوم محاضرة في موضوع إسلامي نافع».
وكان السيد محب الدين الخطيب قد نعاه في (الفتح) في العدد (٧١٣) الصادر يوم الخميس في ٢٨ جمادى الأولى ١٣٥٩هـ (٣/ ٦/ ١٩٤٠) العام ١٥، ص٢١٧ ـ قال رحمهما الله تعالى: «ولقد اختاره الله إليه ليلة الإثنين الماضي بعد مرض لازمه نحو عشرة=

كانت هذه الكلمة آخر أو من أواخر ما كتب أو خطب السباعي في مصر . . حيث تم بعد ذلك اعتقاله وترحيله من مصر، كما تحدثنا عن ذلك فيما سبق. وعندما خرج من المعتقلات والسجون الفرنسية في سورية ولبنان كان قد مضى على عمل هذه الجمعيات بضع سنوات. وهكذا جاء تأسيسها تالياً لتأسيس بعض الأحزاب القومية ومواكباً لتأسيس بعضها الآخر . . وفي جميع الأحوال: جاء في ظل المناخ العلماني والأفكار والشعارات القومية والاشتراكية التي أشرنا إليها في المشهد الثقافي.

أما اسم (الإخوان المسلمين) الذي غلب على هذه الجمعيات، وعلى الحركة الدينية الإسلامية في سورية آخر الأمر فقد تم فيما يبدو في صيف عام ١٩٤٦ بعد جلاء الاستعمار الفرنسي عن بلاد الشام. وإن كان هذا الاسم سبق أن

= أشهر، عجز فيها نُطُس الأطباء عن استئصال دائه العياء، فكان لنعيه أشد الحزن وأبلغه في نفس كل وفيّ للإسلام، ومحبٍّ للصادقين من رجاله». وقال إن ترجمة الفقيد العظيم جديرة بأن تفرد في أحد أعداد (الفتح) القادمة. علماً بأنه قد سبق لهذه المجلة أن رصدت أعمال عبد الحميد سعيد، وأشادت به وبأعماله عبر مسيرتها الطويلة. وقد تحدث عنه ـ أو عرَّف به ـ السيد محب الدين الخطيب في العدد (٥٥١) فاتحة العام الثاني عشر تحت عنوان: (سيف من سيوف الإسلام) فقال: «نشأة طاهرة في وسط من الحضارة والسّعة يُغري أبناء الزاهدين المتقشفين ببهرج مُغرياته. وإنه لمَثَل ضربه الدكتور عبد الحميد سعيد للحياة العفيفة؛ حياة الشهامة والديانة وحب الجهاد والتضحية. منذ كان يافعاً يعيش بين طلبة المدرسة التوفيقية بالقاهرة، إلى أن انتقل إلى باريس يطلب الحقوق في جامعتها، إلى أن التحق بوزارة الحربية العثمانية مدة الحرب العظمى مصاحباً جواده وسلاحه بين حائل ودمشق والقسطنطينية» وبعد أن تحدث عن انتخابه رئيساً لجمعية الشبان المسلمين بالإجماع أو بما يقرب من الإجماع، قال: «ومن ذلك الحين إلى يومنا هذا ما حزب المسلمين أمرٌ إلا كان عبد الحميد سعيد في مقدمة من ينتدب لرفع صوت المسلمين فيه، وما وقعت واقعة إلا كان أسبق من يهرع إلى القيام فيها بالواجب، ولا اعتدى معتد على حرمات الإسلام إلا كان له بين أيدي الناس بيان فيها أشد من مقامع الحديد، يثبت الله به أهل الحق على نصرة الحق، ويزلزل به صفوف المعتدين. وهو فوق ذلك كله خطيب مصقع . . .إلخ». انظر العدد المذكور تاريخ ١٧ ربيع الأول ١٣٥٦هـ ـ ٢٦/ ٥/ ١٩٣٧؛ وانظر العدد (٩٩) في ٧ يونيه ١٩٢٨؛ وانظر خبر اعتزاله السياسة في العدد (٥٠٧) في ٤ جمادى الأولى سنة ١٣٥٥هـ (٢٣/ ٧/ ١٩٣٦) العام ١١، ص١٥٨.

أُطلق على إحدى تلك الجمعيات التي أُسست في مدينة حماه عام ١٩٤١ .

علماً بأن الدكتور إسحاق موسى الحسيني ـ في كتابه العلمي الموثق : (الإخوان المسلمون كبرى الحركات الإسلامية الحديثة) ـ رجع بهذه التسمية إلى عام ١٩٤٤ في المؤتمر ـ الخامس ـ الذي عقدته الجمعيات المذكورة في مدينة حلب في دار الأرقم . فقد قررت في هذا المؤتمر (إلغاء المركز الرئيسي في حلب ، وتأليف لجنة مركزية عليا في دمشق ، مشكّلة من ممثل عن كل مركز ، لها مكتب دائم . وعلى رأسها الشيخ مصطفى السباعي ، وتعقد اجتماعات دورية)[1] قال الدكتور الحسيني : «وحضر هذا المؤتمر مندوب من الإخوان المسلمين في مصر ، وتم الاتفاق ـ بعد الاتصال مع مؤتمر الإخوان في مصر وفلسطين ـ على توحيد أسماء الجمعيات باسم (الإخوان المسلمين) وعلى توحيد النظم» .

وأضاف الدكتور الحسيني : «وفي سنة ١٩٤٦ عقد المؤتمر السادس في يبرود لمراكز الإخوان في سورية ولبنان ، بعد أن توحّدت الجماعة اسماً وأهدافاً مع الإخوان في مصر . وسبق المؤتمر إقامة معسكر تدريب للفتوة في يبرود نفسها . وبعد ختام المؤتمر دعت اللجنة المركزية طائفة من رجال دمشق إلى ناديها ، وتلت عليهم المقررات التي اتُّخذت . . »[2] .

وقد استعرض أهم المقررات ، ومنها (أهداف الجماعة) التي تَصدَّرها هدف (تحرير الأمة وتوحيدها ، وحفظ عقيدتها ، وبناء نظمها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية على أساس الإسلام) إلى جانب أهداف أخرى لا يخلو بعضها من الحديث عن (طبيعة) الجماعة في الوقت نفسه ؛ مثل النص على أن الإخوان (ليسوا حزباً كسائر الأحزاب ، وهدفهم إصلاح المجتمع . . إصلاحاً منبعثاً من ذاتية الأمة وعقائدها المقدسة) وعلى أنهم (**يدعون إلى التعاون بين أبناء الأمة كلها . . وينقمون على كل محاولة ترمي إلى تفريق الصفوف باسم الأديان والطوائف ، ويرونها حركة هدامة تخدم مآرب المستعمرين**)[3] .

---

(١) الدكتور الحسيني ، ص١٣٨ من المصدر المشار إليه : الإخوان المسلمون ، الطبعة الثانية ، دار بيروت ، ١٩٥٥ .
(٢) المصدر السابق ، ص١٣٩ .
(٣) نفس المصدر ، ص١٤٠ .

قلت: ولكن إذا قارنـا هذا الذي ذكره الدكتور الحسـيني بما كتبه بعض الباحثين الآخرين، بل إذا تأملنا مقررات المؤتمر السادس وقارناها بمقررات المؤتمر الخامس، أمكننا القول إن اسم (الإخوان المسلمين) لم يتم الاتفاق عليه في المؤتمر الخامس عام ١٩٤٤ ـ سواء أشهده بعض إخوان مصر أم لا ـ في حين أن ما أشـار إليه من تأليف لجنـة مركزيـة عليا ـ في المؤتمر الخامس ـ صحيح ودقيق. وفي هذه الحالة يكون السباعي قد أضحى رئيساً للجنة المركزية العليا لجمعيات شباب محمد، أو مراقباً عاماً لهذه الجمعيات، قبل أن يصبح المراقب العام للإخوان المسلمين عام ١٩٤٦، ولهذا انتقل في العام المذكور ـ ١٩٤٤ ـ من بلده (حمص) بعد أن عمل فيها مدرّساً في إحدى المدارس الثانويـة ليعيش في دمشق ويعمل فيها مديراً للمعهد العربي الإسلامي (مؤسسـة تربوية وتعليميـة خاصة).

يؤيد ذلك أن السباعي ألقى محاضرةً في (جمعية الشبان المسلمين) بدمشق عام ١٩٤٥ أشاد فيها بصوت (الشباب المسلم الحديث ممن تضمهم رابطة شباب محمد ﷺ)[١]، وهذا يشير إلى أن اسم (الإخوان المسلمين) لم يكن وارداً، أو لم يُطرح حتى الآن. وما ذكره الدكتور الحسيني من (وقائع) المؤتمر السادس الذي عُقد في يبرود عام ١٩٤٦ قد يؤيد هذا، لأن (اللجنة المركزية) التي تحدَّث عما قامت به في هذا المؤتمر هي في الحقيقة اللجنة المركزية لجمعيات شباب محمد، ولأن هذه اللجنة كما قال قامت بدعوة طائفة من رجال دمشق لتتلو عليهم مقررات المؤتمر المذكور، ولم تفعل ذلك فيما يبدو إلا لأنها مقررات تضمنت طبيعـة الدعوة وأهدافها بثوبها الجديد، أو بعد تغيير اللافتة والتعديل الجديد!. ونعتقد أن الوفد الذي حضر من إخوان مصر ـ برئاسة الشيخ عبد الحكيم عابدين ـ لم يحضر للمشـاركة في المؤتمر الخامـس عام ١٩٤٤ ولكن للمشاركة في مؤتمر يبرود عام ١٩٤٦ حيث تم التنسيق والارتباط والتعاون بين إخوان سورية وإخوان مصر[٢]. هذا، ويرجح الأستاذ عادل كنعان أن الارتباط التنظيمي وتغيير العنوان

---

(١) انظر الرسالة السابقة من سلسلة (هذا هو الإسلام) للسباعي ـ المجموعة الثانية، ص٣ـ ٥، وص٨.

(٢) وقد افتتح الإخوان في العام المذكور ـ ١٩٤٦ ـ مركزاً لهم في كل محافظة من المحافظات السورية، وفي دمشق تم افتتاح المركز العام في السنجقدار ـ وسط المدينة ـ أما مركزهم=

تم في العام التالي ١٩٤٧ حين حضر الشيخ عبد الحكيم عابدين سكرتير الجماعة في مصر على رأس وفد لتقديم المشورة في الانتخابات التي جرت في سورية في شهر تموز (يوليو) من هذا العام، والتي تقدم لها كل من الشيخ مصطفى الزرقا والأستاذ المحامي عبد القادر السبسبي عن مدينة حلب، مع تأكيده على أن الاتصالات

= الثاني في باب الجابية فكان خاصاً بالفتوة وحركة الإخوان الكشفية. ثم نقل المركز العام إلى (الشهداء) في طريق الصالحية عام ١٩٥٤م ومن إحدى نوافذه المطلة على طريق السكة - أو الطريق العام - ألقى الأستاذ السباعي في ٥/ ١٢/ ١٩٥٤م واحدة من أعنف خطبه في الجماهير المحتشدة في أضخم مظاهرة عرفتها البلاد. . بمناسبة الحكم بإعدام ستة من قادة الإخوان في مصر، وقد دبّت الحماسة - على وجه الخصوص - في الشيوعيين الذين شاركوا في هذه المظاهرة - مع سائر الأحزاب والهيئات النقابية - حين هاجم السباعي سياسة الأحلاف، وأشار إلى التأثير الأمريكي في السياسة المصرية. وعندما قامت الوحدة بين سورية ومصر في شهر شباط (فبراير) عام ١٩٥٨م قام الإخوان بحل تنظيمهم - أسوة بباقي الأحزاب - في كتاب بعث به السيد عصام العطار، وتلي في إذاعة دمشق، وتمَّ نشره في الصحف.

ونذكّر - بهذه المناسبة - بأن سبع هيئات إسلامية في الباكستان. وهيئات مختلفة في سورية ولبنان والأردن والسودان وغيرها، حاولت التدخل لدى حكام مصر لوقف تنفيذ أحكام الإعدام، ولكن دون جدوى. وعلى الرغم من أن الإخوان لم يشاركوا في برلمان ١٩٥٤ - بعد رحيل الشيشكلي - فقد أعربت الأحزاب المختلفة في البرلمان، وكذلك الحكومة السورية، عن أملها في عدم تنفيذ هذه الأحكام، وذلك عبر برقيتين أرسلتا إلى مجلس قيادة الثورة، الأولى باسم المجلس النيابي السوري، والثانية باسم الحكومة.

راجع كتاب الدكتور إسحاق موسى الحسيني: الإخوان المسلمون كبرى الحركات الإسلامية الحديثة، ص٢٦٩.

حتى إن الشيخ مصطفى الزرقا، أحد نواب حزب الشعب في البرلمان عن مدينة حلب - والأستاذ في كلية الحقوق - خطب في المتظاهرين المحتشدين في حرم الجامعة السورية، ونصحهم بتأجيل مظاهرتهم إلى الغد انتظاراً لرد (حكام مصر) على برقيتي الحكومة والبرلمان. ولأن (كل ما تريدون فعله اليوم يمكن فعله غداً) على حد قوله. . ولكن ما إن ورد على لسانه عبارة (حكام مصر) حتى قاطعه أحد الطلبة صائحاً: (ليس في مصر حكّام بل جلاّدين)! وقد ألقى أحد طلاب كلية الآداب كلمة حماسية بليغة، ختمها بهذين البيتين من شعر أحمد شوقي:

زمان الفرد يا فرعون ولّى ... ودالت دولة المتجبّرينا
وأصبحت الرعاة بكل أرض ... على حكم الرعيّة نازلينا!

والزيارات بين شباب محمد والإخوان بدأت في وقت سابق، وأن الشيخ عبد الحكيم والأستاذ سعيد رمضان زارا حلب وبلاد الشام أول مرة عام ١٩٤٥. وأن عبد الحكيم عابدين جاء في هذا العام على رأس بعثة طبية لتقديم العون بمناسبة العدوان الفرنسي على المدن السورية الذي بدأ في ٢٩/ ٥/ ١٩٤٥، والمعروف بعدوان أيار.

ويؤكد الأستاذ كنعان أن موضوع الارتباط (بإخوان) مصر ـ والتسمية بهذا الاسم ـ حين طُرح في إحدى اللقاءات عام ١٩٤٧ مع الشيخ عبد الحكيم عابدين سكرتير الجماعة، كان من رأي أحد الحاضرين التريث في هذا الأمر حتى يتم التعرف على منهاج الحركة في مصر على نحو أشمل.. وكذلك على أهداف وشخصية الأستاذ البنا ـ الذي سوف يصبح في حال الارتباط المسؤول الأعلى أو المرشد العام للجماعة في بلاد الشام كذلك! وعندها غضب الشيخ عبد الحكيم، وأبدى استغرابه ودهشته وتعجبه من هذا السؤال عن البنا.. قبل أن ينخرط في البكاء بسبب هذا الذي لا يليق بالبنا في مقامه الذي هو فيه، وإخلاصه الذي لا يشك فيه أحد... حتى إن بعض الحضور رأى في هذا الذي فعله الشيخ عبد الحكيم مبالغة وخروجاً عن المألوف... ربما في أحسن الأحوال!!

ونثبت هنا أخيراً طرفاً مهماً من محاضرة الأستاذ السباعي المشار إليها ـ في جمعية الشبان المسلمين بدمشق ـ والتي ألقاها في شهر ربيع الثاني ١٣٦٤هـ (آذار/ مارس ١٩٤٥) وعنوانها: (أصدق الاتجاهات الفكرية في الشرق العربي) وقد تحدّث في هذه المحاضرة عن (الأسس التي ترتكز عليها الدعوة الإسلامية الحديثة) في وسط الاتجاهات القومية واليسارية التي عرفها الشرق العربي في ذلك الحين. وقال: «في وسط هذه المذاهب الفكرية يرتفع صوتٌ قويٌّ من أعماق نفوس مؤمنة، يدعو إلى اتخاذ الإسلام أساساً **لنهضتنا وحركتنا التجديدية**، والاستفادة من العناصر القوية التي يفيض بها مجتمعنا الحاضر، والتثبت في كل ما نأخذه عن أمم الحضارة، فلا نقتبس إلا ما ثبت صلاحه واستقام أمره».

ثم وصف هذا الصوت بقوله: «هذا الصوت القوي الذي بدأ خافتاً ضئيلاً، وما زال يقوى وينتشر حتى أصبح بعيد المدى، قوي الأثر، هو صوت الشباب **المسلم الحديث ممن تضمهم رابطة شباب محمد ﷺ**».

وأضاف ـ وهو طالب العلم الشرعي والأزهري الذي نهل من معين الثقافة العربية الإسلامية، أو ثقافة الكتب الصفراء كما كانت تدعى في ذلك الحين ـ:

«ومما يدعو إلى الاهتمام بهذه الحركة أن القائمين بها شباب **نهلوا من معين الثقافتين الإسلامية والأوروبية**، **ودرسوا الحضارتين العربية والغربية**. ومن ثم كان حتماً لزاماً أن تنال هذه الدعوة الجديدة حظاً كبيراً من التوسع والانتشار»[1].

وتشير هذه الملاحظة إلى مدى قناعته بضرورة دراسة الحضارة الغربية، والاطلاع على الثقافة الأوروبية السائدة.. إلى جانب الحضارة العربية والثقافة الإسلامية، بل ربما كانت المقارنات بين هاتين الثقافتين. وبين هاتين الحضارتين تمثل من وجهة نظره أحد ركائز التجديد والتحديث، والبحث عن مزايا الإسلام التي يجب إبرازها في هذا العصر. أو من أجل اتخاذه أساساً (لنهضتنا وحركتنا التجديدية) بحسب عبارته التي نقلناها عنه قبل قليل رحمه الله.

* * *

(١) المصدر السابق، ص٤٨.

القائـد

كان السباعي في نحو التاسعة والعشرين من عمره حين انتهت إليه قيادة العمل الإسلامي في سورية . . وإن شئت قلت قيادة حركة التجديد والبعث الإسلامي في بلاد الشام . . وقد جاءت هذه القيادة في موعدها المقرر أو قدرها المقدور بعد سبعة عشر عاماً من الكفاح الوطني والعمل الإسلامي على أكثر من مستوى وفي أكثر من قُطر، لم تقعد بصاحبها همّة، ولم تضعُف له عزيمة . . أو تلن له قناة . ولم ينقطع خلال تلك الفترة عن أخبار سورية، وأخبار البلاد العربية والإسلامية، منذ أن وقعت عينه ـ وهو ابن ثلاث عشرة سنة ـ على مجلة (الفتح) التي فتقت مواهبه وفتحت أمامه الآفاق .

وقد برزت موهبته القيادية أو الطابع القيادي لهذه الشخصية في جميع مراحل هذا العمل وخطوات ذلك الكفاح: قاد المظاهرات في حمص، وكتب لإخوانه الفتيان المنشورات قبل أن يشاركهم بتوزيعها ضد مدارس الإرساليات ومعاهد التبشير . . وكان الناطق باسم الطلبة غير المصريين في الأزهر . . قبل أن يقود طلبته جميعاً في مظاهرة صاخبة ضد الاحتلال البريطاني . . وانخرط في الكتابة في مجلة (الفتح) على هذا المستوى الرفيع من الفكر والنقد والتحليل وتحمل المسؤولية . وأسس في القاهرة (جماعة التعارف الإسلامي) وكان اللسان الناطق والقلم المعبّر لـ (لجنة الشؤون الإسلامية)، وقام بتأسيس نادٍ للطلبة السوريين والفلسطينيين في القاهرة . . ولم يفته أن يتحدث في أول كلمة تلقى في هذا النادي عن قيادة الأمة، والأخذ بيدها إلى طريق الفلاح والسعادة . . وكتب المنشورات التي انتصر فيها للعراق ودافع عن ثورة رشيد عالي الكيلاني، وتعرض للسجن والاعتقال . . . وهو في ذلك كله عالي الهمة، موفور الكرامة، شامخ الرأس . . يقول لأخيه في السجن: **اثبت على وفائك** . . ولا تدل على فلان فإنه في جريدته يدافع عن القضايا الوطنية! .

لقد كانت القيادة وتقدم الركب هبة من هبات الخلق والتكوين في هذا الشاب الثائر، الذي كانت نفسه تعاف الدنايا، وتترفع عن الصغائر . وفي الوقت الذي صقلت فيه التجارب والمعارك هذه الموهبة ؛ فإنها دلّت أيضاً على مدى

إيمانه بالعمل الجماعي المنظم والمسؤول. . ولهذا وجدناه حين فقد ثقته بجيل القادة والزعماء ـ في مقالته: (الجهد الضائع) التي أشرنا إليها ـ يضع ثقته بجيل الشباب الذين لن يعجزوا إذا كانوا مجتمعين عن أن ينصروا الحق ويزهقوا الباطل.

ويقول: «إن هذا الشعب المسكين سوف يبقى ضحية الأهواء والشهوات حتى يقيض له الرجل الذي يقوده إلى مواطن النصر والمجد».

إنه الجهد المجتمع أو المنظم والقائد السابق والمسؤول.

حسن البنا ومصطفى السباعي:

من الطبيعي ـ أو مما لا يحتاج إلى تفسير ـ أن يتم هذا العمل بالتنسيق مع مصر. . بل بالعمل في ظلها أو تحت لوائها: بعدما قرأنا من إكباره لمصر وحبّه لأهلها وإيمانه بمكانتها في القيادة والريادة. . ولكن الذي يحتاج إلى تفسير انحيازه لجماعة الإخوان المسلمين وليس لجمعية الشبان المسلمين، على الرغم من عمله المبكر مع هؤلاء الشبان، وعدّة الجمعيات الإسلامية في سورية ـ التي انضوت تحت قيادته ـ من آثار جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة. ويعود ذلك في تقديرنا لأمرين:

الأول: الفهم الشمولي والمتميز للإسلام في دعوة الإخوان، وسعة انتشار هذه الدعوة في مختلف الأوساط، وبخاصة في أوساط الشباب والمثقفين.

والأمر الثاني: تأثره الشديد بشخصية الأستاذ حسن البنا، وإعجابه بمواهبه وقيادته للجماعة. . وما انطوت عليه هذه الشخصية من معاني التضحية والإيثار، والإخلاص والتفاني، والإقدام. . وسائر الصفات التي وجد صداها في نفسه، والتي جعلته فيما يبدو يرجح جانب (دعوة البنا) ـ إن صح التعبير ـ على سائر الدعوات، ويكفي أنه قال في حسن البنا: «فوالله ما رأيت إنساناً أروع في الفداء، وأخلص في النصح، وأنبل في التربية، وأكرم في النفس، وأعمق أثراً في الإصلاح، من حسن البنا رحمه الله»[1].

---

(١) عظماؤنا في التاريخ، ص٢٤٧. ويجدر بنا أن نشير في هذا السياق إلى أن حسن البنا نفسه أثنى على جمعية الشبان المسلمين، وألقى في نادي الجمعية العديد من المحاضرات. منها محاضرة ألقاها بتاريخ ٢٧ المحرم ١٣٤٧هـ/ ١٤ تموز (يوليو)=

لقد كان البنّا شخصية قيادية فذّة، وكان السباعي شخصية قيادية نادرة! وحريٌّ بكل واحد من هذين الرجلين أن يفهم الآخر ويقدّره حقَّ قدره. . ولهذا فإن جريدة (الإخوان المسلمون) حين نشرت صورة تجمع بين البنّا والسباعي، وكتبت تحتها: (قائد وجندي) كتب الأستاذ البنا إلى رئيس التحرير يقول: «. . كما قرأت كذلك تحت الصورة التي نشرتموها بالأمس أيضاً تقديماً لي ولفضيلة الأخ الأستاذ مصطفى السباعي، وفي نهايتها هاتان الكلمتان: (قائد وجندي) فإن

= ١٩٢٨ وكانت بعنوان (أضرار المقامرة ـ ومشروع ساحل الفيروز) وقد نشرتها مجلة (الفتح) على ثلاثة أعداد متوالية (العدد ١٠٥ تاريخ ٢ صفر ١٣٤٧هـ ـ ١٩ يوليو ١٩٢٨. فما بعده ـ العام الثالث، ص٦٥، ٩٣، ١٠٩).

وكان البنا في هذا الوقت، بين يدي تأسيس جماعته في الإسماعيلية، قد برز كواحد من أبرز دعاة الإصلاح: لأن مجلة (الفتح) وصفته بما لم تصف به غيره من المحاضرين الكثر الذين نشرت لهم عبر تاريخها الحافل. فقالت تحت عنوان المحاضرة المذكورة: «محاضرة ألقاها في نادي جمعية الشبان المسلمين مساء السبت الماضي: حضرة الأستاذ المخلصِ العملِ لله والفضيلة والإصلاح حسن أفندي أحمد البنا».

وقد استهلّ البنا محاضرته ـ الدينية الوطنية القيمة ـ بالثناء على جمعية الشبان المسلمين، فقال رحمه الله: «. . . بالأمس كنا نتمنى أن يهيئ الله لنا تلك الأمة التي تدعو إلى الخير، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتعين على نوائب الحق، وتكون مثابة لتلك القلوب الخافقة إشفاقاً على الدين والفضيلة، ورابطة لتلك الأرواح التي تهفو إلى الحق والاستقامة على طريقه. واليوم نحمد الله سبحانه إذ حقق تلك الأماني في (جمعية الشبان المسلمين) وجعلها رمزاً لتلك النهضة الدينية. وإني لأراها أفصح معبّر عن عواطف الداعين إلى الله، ومحقق لما يرجوه المصلحون الحقيقيون لهذه الأمة».

أما المشروع المذكور فأبرز أعماله: «إنشاء كازينو على مثال مونت كارلو على أطلال مدينة بالقرب من أبي صير. .» وقد تحدث البنا عن أضرار هذا المشروع الوطنية والاقتصادية والاجتماعية. قبل أن يبين (واجب الأمة نحوه) ويختم محاضرته باقتراح سبل الوقاية من الميسر.

وبهذه المناسبة فإن بعض المصادر تذكر أن الإمام البنا شكل أول نواة لجماعة الإخوان المسلمين في شهر ذي القعدة ١٣٤٧هـ ـ آذار (مارس) ١٩٢٨م، ولكن التاريخ الهجري المذكور يوافق عام ١٩٢٩ (١ ذو القعدة ١٣٤٧ يوافق ١١/ ٤/ ١٩٢٩) ويبدو أن تاريخ التأسيس بالهجرة هو الصواب. ويكون البنا في هذه الحال قد قال في الثناء على جمعية الشبان المسلمين ما قال قبل تشكيل أول نواة لدعوته بنحو عشرة شهور. راجع كتاب: حسن البنا: مبادئ وأصول، ص٣؛ وكتاب موجز تاريخ جماعة الإخوان المسلمين في سورية، ص٢٠١.

أردتم بالقائد فضيلة الأستاذ مصطفى السباعي، وبالجندي هذا الضعيف الذي ما اعتبر نفسه يوماً من الأيام إلا أصغر جنود دعوة الحق، فقد أحسنتم وصفاً وشكراً لكم. . وإن كنتم تقصدون ما تبادر إلى الأذهان من أول وهلة، وحين يرون مرشداً ومراقباً؛ فإلى الله أبرأ مما صنعتم، وإلى الإخوان أعتذر عما وضعتم. . . »[1].

وإذا كان هذان الرجلان العظيمان قد اشتركا في الريادة والتجديد، وقيادة حركات النهوض والإصلاح، ونجحا في إيقاظ الشعوب وتربية الأفراد والجماعات؛ الأول في أرض الكنانة، والثاني في بلاد الشام؛ فإن حسن البنا يمكن إفراده أو نعته بالإمام المعلّم، في حين يمكن أن نخص السباعي بوصف المصلح الثائر.

وقد لا نتردد في فهم عظمة البنا على أنها عظمةٌ (إنسانية)، وفي نعت عظمة السباعي بأنها عظمةُ (رجولة). وذلك على نحو قريب أو مماثل لما ذهب إليه الأستاذ عباس محمود العقاد حين قال في وصف النبي الأكرم ﷺ إنه (إنسان عظيم) وفي وصف خليفته الثاني عمر بن الخطاب إنه (رجل عظيم)[2].

تحدثنا هنا عن جملة الأسباب التي أهّلت السباعي لقيادة الإخوان المسلمين أو العمل الإسلامي الحديث في سورية في السياق التاريخي لهذه الأسباب، أي من خلال الأعمال التي قام بها قبل تسلّمه هذه القيادة.

أما صفاته التي أهّلته لذلك فسوف نعرض للحديث عنها عند الحديث عن صفاته وأخلاقه. . أو عبقريته رحمه الله.

* * *

---

(١) ولهذا فإننا لا نستبعد إطلاقاً ما قيل من أن الإمام البنا رشحه لخلافته، وطلب منه البقاء في مصر. كما نقل السيد حسني جرار عن الأستاذ الفاضل السيد عادل كنعان في مقابلة معه بتاريخ ٢٠/ ١٢/ ١٩٩٣م. راجع كتاب الأستاذ حسني: الدكتور مصطفى السباعي، ص٤٨. ويقول الدكتور إسحاق موسى الحسيني: «وعندما صودرت جمعيات الإخوان في مصر واغتيل حسن البنا اتجهت الأنظار إلى جمعيات الإخوان المسلمين في سورية، ولاسيما إلى الشيخ مصطفى السباعي نفسه باعتباره من أقوى المرشحين للقيادة»؛ انظر: من أعلام الحركة والدعوة الإسلامية المعاصرة للمستشار عبد الله عقيل، ص٥٣٤.

(٢) عبقرية عمر للعقاد، ص١٩٤، نهضة مصر للطباعة ١٩٩٨، القاهرة.

بين السباعي والعلماء (أو الإخوان والمشايخ)

كان مصطفى السباعي وهو يدرس في مصر متابعاً للقضية الوطنية والشأن السوري أو بلاد الشام، فقد كان هذا الشأن همّه الأول بطبيعة الحال، وكل ما استشهدنا به من مقالاته في الصفحات السابقة ـ حول هذا الشأن وكما هو معلوم ـ كتبه في القاهرة. بل إنه كتب بعض هذه المقالات (على الطبيعة) كما يقال، أي من خلال زيارته لبلده، ومتابعته المباشرة لما يجري على الأرض! وقد كتب مرة خمس مقالات عن أحوال البلاد السياسية والدينية وغيرها تحت هذا العنوان الجانبي الثابت: «أربعة أشهر في بلاد الشام» وهي المدة التي قضاها في تلك الزيارة، واجتمع فيها كما لاحظنا ببعض المسؤولين، وألقى بعض الخطب، وحضر بعض الاجتماعات والمؤتمرات، منها المؤتمر الأول لجمعيات العلماء (المقالة الرابعة) والمؤتمر الأول لجمعيات شباب محمد (المقالة الخامسة).

العلماء القادة:

وقد فرّق في صدر مقاله عن مؤتمر جمعيات العلماء بين الزعماء والقادة. **حيث خصَّ الزعماء بالسياسة أو قصرهم عليها، في حين جعل القيادة للعلماء؛** قال: «ولست أعرف فئة أحق بقيادة المسلمين منهم كما بينت ذلك في مقالات سابقة في الفتح»، ثم نقدهم بعد ذلك، لأنهم تخلوا عن هذه المسؤولية. وقبل أن نقف على هذا النقد لابد لنا أن نذكر أن مقالاته السابقة التي أشار إليها حول العلماء كانت قبل نحو عام واحد من المقالة المذكورة؛ فقد نشرت هذه المقالة بتاريخ ٢٨ ذي القعدة ١٣٥٧هـ (١٩/ ١/ ١٩٣٩)[1] في حين أن المقالات الثلاث السابقة نشرت في ١١ و٢٥ من ذي القعدة، والثالث من ذي الحجة ١٣٥٦هـ[2]. وكانت على التوالي بالعناوين التالية: (نكبة الدين في أخلاق علمائه) ـ (نكبة الدين في انحراف علمائه) ـ (العلماء والسياسة). وما كتبه في هذه المقالات الثلاث

---

(١) العدد (٦٣٧) العام الثالث عشر.

(٢) وأرقامها ٥٨٤ و٥٨٦ و٥٨٧ العام الثاني عشر: في ١٢/ ١/ ١٩٣٨ و٢٦/ ١/ ١٩٣٨ و٣/ ٢/ ١٩٣٨.

ـ وله من العمر ثلاث وعشرون عاماً ـ جدير بالتأمل والرجوع إليه مرة بعد آخرى! وتكفينا من هذه المقالات الثلاث: السطور التالية التي استهل بها المقالة الأولى:

قال: «إذا أراد الباحث في تاريخ الإسلام والمسلمين أن يكشف الستار عن الداء الذي كان مبعث تشتت المسلمين وخذلان أمرهم في العصور الأخيرة، فسيبدو له أن لعلماء المسلمين النصيب الأوفر في ذلك» ثم يؤكد على أنه لا يقول هذا جزافاً، وأنه عندما يقوله أو يقرره لا يلتفت إلى ما يلحقه من ذلك من تحامل! لأن الذي يعنيه هو تشخيص الداء، وقول كلمة الحق، فيقول:

«ونحن نقول هذا بعد تتبع لوقائع التاريخ، غير آبهين بما سيَلمِزنا به بعضهم من تحامل أو تجاهل، فما كنّا لنقول غير الحق، وما كنّا لندعو إلا إليه. ولئن كان في الجهر بالحق بعض الألم؛ فإن في السكوت عليه كل الألم وكل البلاء. وما نحسب أحداً يرضى من الشيء بأكثره وهو كارهٌ لأقلّه، أو يتحمل من العناء أشده وهو متبرم بيسيره، غير مكترثين بنفرة المريض من الدواء، ولا بحزن أهله من تفاقم الداء، وإلا كانوا غاشّين مخادعين»[1].

الشيخ كامل القصاب وتحرك العلماء:

نعود إلى نقده ـ الموجز ـ الذي صدّر به مقالته عن جمعيات العلماء ومؤتمرهم الأول الذي عقد كما أشرنا في دمشق (من ١١ ـ ١٣ رجب) من عام ١٣٥٧هـ (٦ ـ ٨ أيلول/ سبتمبر ١٩٣٨) قبل أن يثني الثناء كله على الشيخ محمد كامل القصاب رحمه الله، وعلى التحرك الذي قام به العلماء آخراً أو في نهاية المطاف.

قال رحمه الله: «وأما القادة ـ وأعني بهم العلماء. . ـ فقد تخلّوا عن المسؤولية، وقبعوا في البيوت والمعابد، ومكّنوا الفوضى والإباحية أن تجوس خلال الديار! ولم يكن منهم إلا قول في مسجد لا يتجاوز الآذان، وأنّةٌ في درس لا يسمعها إلا العجزة والشيوخ، وحوقلة واسترجاع هما عُدّة العاجز وتُكأة المهزوم! . .».

وتابع يقول ـ وهو يعلم شدة هذا الحكم ـ: «قد يكون هذا الحكم قاسياً،

---

(١) مجلة الفتح العدد (٥٨٤) بتاريخ ١١/ ١١/ ١٣٥٦هـ (١٢/ ١/ ١٩٣٨).

ولكنه الواقع، وقد يكون مؤلماً، ولكن الألم في السكوت عنه أشد. وكيف لا يذوب القلب أسًى حين يرى أشد الناس صلة بالدين، وأحقهم بالدفاع عن عقائد المسلمين، ينزوي كل واحدٍ منهم في وظيفة أو مسجد أو بيت، بينما تشاد معاهد التبشير، وتؤسس بيوت الدعاية الأجنبية، وتحارب أحكام الله عمداً يوماً بعد يوم من قبل الحاكمين على شؤون البلاد، ولا يرتفع للعلماء صوت، ولا يرى لهم أثر، ولا يحس لهم بوجود؟ وإذا لقيتَ أحدهم فذكرت له ما يعانيه المسلمون اعتذر لك بفساد الزمان وضعف الدين، وأنبأك أن هذا من علامات قرب الساعة، والسعيد من لزم بيته وحفظ نفسه!».

وقال: إن هذا كان شأنهم حتى زمن قريب «ثم شاء الله أن يبعث الحمية في نفوس أفراد منهم فألّفوا عدّة جمعيات، كان صوتها ضعيفاً وعملها قاصراً، ولكنها كانت خيراً من العدم على كل حال. وبقي الأمر على هذا حتى عاد إلى دمشق فضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد كامل القصاب، فرأى في تفرق العلماء وسكوتهم ما يؤذن بخطر كبير، فعمل على تأليف جمعية تضم صفوفهم، وتدافع عن كرامتهم، وتسعى إلى رفع كلمة الله، وإبلاغ صوت الدين إلى القلوب».

الذي كان وراء تأليف هذه الجمعية إذن هو الشيخ محمد كامل القصاب، أما مهمتها فقد حددتها هذه الكلمات. وقد وصف الأستاذ السباعي فضيلة الأستاذ القصاب بأنه «أمة وحده! لا تكاد تحدّثه وتخالطه حتى ترى فيه همة الشباب وحكمة الشيوخ، ودهاء الساسة وعلم الفحول، وإيمان السلف الصالح من علماء المسلمين: يعمل فلا يكلّ، ويهاجم فلا يتراجع، ويدعو فلا يسكت، ويجاهد فلا يفتخر. وهو في كل هذا يبذل من حرّ ماله في سبيل الله ما يضنّ عن بذل أقله كثير من أغنياء المسلمين المعاصرين..»[1].

وقد وصف الأستاذ السباعي الذين استجابوا لدعوة الشيخ القصاب بأنهم «طائفة كبيرة من خيرة العلماء»[2] وذكر أن هذه الجمعية ـ التي رأسها فضيلة الأستاذ

---

(١) انظر طرفاً من مزايا الشيخ محمد كامل القصاب، وتاريخه الحافل بالدفاع عن قضايا العرب والمسلمين، في الكلمة المقتضبة التي كتبها عنه السيد محب الدين الخطيب في العدد الممتاز من مجلة (الفتح) العدد ٥٥١ ـ فاتحة العام الثاني عشر ـ ص١١، ١٧ ربيع الأول ١٣٥٧هـ (١٨/ ٥/ ١٩٣٨).

(٢) ووصف المؤتمر بأنه (كان بعثاً جديداً لنشاط العلماء) قال: «وأظنه أول مؤتمر من نوعه=

الجليل الشيخ القصاب ـ «استهلّت تاريخها الناصع بعملين عظيمين. . . : **الحيلولة دون إلغاء القضاء الشرعي تدريجياً، ومعارضة حلّ الأوقاف الأهلية**».

نجاح مؤتمر العلماء، والسباعي ينتصف لهم من رئيس الوزراء:

ويهمنا في هذا السياق: التأكيد على أن هذا المؤتمر ـ كما ذكر الأستاذ السباعي ـ «نجح نجاحاً كبيراً، وكان له صدى عظيم في مختلف الأوساط، وحضره أركان الحكومة في ليلته الأولى، كما افتتحه رئيس الحكومة بإيفاد نائب عنه، وعُنيت الصحف على اختلاف نزعاتها بنشر أخباره ومقرراته» كما يهمّنا التأكيد على أن من أهم نتائج المُؤتمر التي عدّدها: «تضامن العلماء وعزمهم على افتتاح عهد جديد من النشاط والعمل المستمر لمصلحة العلم والدين»[1].

قال رحمه الله: «وقد ظهر هذا التضامن جلياً في مقررات المؤتمر وفي جلساته التاريخية. وأشد ما كان ظهوراً **في الحفلة التي أقامها رئيس الوزراء لتكريمهم**، فقد كانت حفلة مشهودة في تاريخ العلماء؛ إذ لم يكد دولة الرئيس يرحب بهم حتى أخذ يلمح ـ عن طيب سريرة ـ بالغض من جهود العلماء، فانبرى له أول وثان وثالث يدافعون عن كرامة العلماء، ويذكرون جهودهم في القديم والحديث، وينوّهون بمقدار خدماتهم للدين والأمة، ويعلّلون ما ظهر على العلماء من تقصير بإعراض الحكام عن تشجيعهم في الإخلاص والنهوض». قال الشيخ: «وكانت كلمات مملوءة بقوة الحق وعزة العلم، فعلت في النفوس فعل السحر. وكانت معركة أدبية خرج منها العلماء موفوري الكرامة، حتى قال رئيس الحكومة لبعض من حضر من الوزراء والكبراء: ما كنت أظن أن في العلماء مثل هذه القوة». اهـ.

= شهدته البلاد السورية منذ بضعة قرون، وربما كان أول مؤتمر يعقده علماء الإسلام في أقطار الأرض في شؤون إسلامية بحتة».

(١) ذكر من هذه النتائج: (تعارف علماء الساحل والداخل، وتقوية أواصر الإخوة بينهم) قال: «بل تعدى ذلك إلى تعارف علماء السنة والشيعة بحضور الأستاذ الكبير الشيخ عبد الكريم الزنجاني، فقد خطب فضيلته في وجوب تعاون علماء المسلمين جميعاً على دفع الخطر الخارجي عن الإسلام، وتوحيد الجهود لتقوية أصوله في نفوس أشياعه، فأيد فكرته غير واحد من الخطباء. ثم وضع المؤتمر قراراً لتأييد اقتراحه والعمل على تنفيذه. . .».

قلت: ولم تكن هذه الكلمات المملوءة بقوة الحق وعزة العلم، غير كلمات المتحدث الثالث الشيخ مصطفى السباعي الذي هاله أن المتحدث الأول والثاني لم يبلغا في الرد على دولة رئيس الوزراء ما يشفي الصدور، وقد عرّض بالعلماء تعريضاً شديداً كان أقرب إلى التجريح والتقريع.. حتى وقع في نفوس الحاضرين أنه لم يَدْعُهم إلا لهذا!! فنهض السباعي بخبرته وبلاغة قلمه وحماسته فكال له الصاع صاعين، وحقق فوزاً باهراً على دولة الرئيس.. ببيان ساحر وأدب جم وجرأة أدبية عالية.. حتى شفى صدور الحضور، وكأنه إنما كان يعبر ـ في هذا الموقف الحرج ـ عما يريد كل واحد منهم أن يقوله أو يبلغه من الانتصاف لنفسه وإخوانه.

هذا الذي أكتبه ليس من عندي، ولكنه مما حدّثني به **شيخنا الجليل العلاّمة فضيلة الشيخ حسن حبنكة الميداني رحمه الله رحمة واسعة**، وكان من أبرز العلماء الذين حضروا الحفل المذكور.

وإذا كان السباعي لم ينسب شيئاً من ذلك لنفسه في ذلك اليوم المشهود ـ على عادة العلماء الدعاة المخلصين ـ فما أعجب المقادير التي جعلت الأستاذ الجليل الشيخ حسن حبنكة يحدثني بهذا الحديث.. ليذكر كل امرئ بعمله، أو لتوضع الأمور في نصابها ولو بعد حين.

كان فضيلة الشيخ حسن يتعاهد والدي بالزيارة بين الحين والحين، وكان والدي ـ تغمده الله بواسع رحمته وغفرانه، وجزاه عني أحسن ما يجزي عباده الصالحين ـ يَعدُّ نفسه من (مريدي) الشيخ، إذا استعملنا مصطلحات الصوفية في هذا المقام، وكنت أعدّ نفسي من طلابه وتلاميذه.. وبقيت لنحو عشرة أعوام أصلّي الجمعة في مسجده الذي كان يخطب فيه بحي الميدان بدمشق ـ جامع مَنْجك ـ وكان خطيباً مفوّهاً مهيب الطلعة جليل القدر، عالماً بأحوال المجتمع والناس.. ومشاركاً في السياسة وصنع الأحداث..

وفي ضحى أحد الأيام من عام ١٩٦٠م ـ وكنت في العام الأخير من دراستي في الجامعة ـ شرّفنا الشيخ بزيارته بعد خروجه من زيارة لشيخ القرّاء بدمشق فضيلة الأستاذ الشيخ حسين خطاب رحمه الله أحد تلامذة الشيخ حسن البارزين ـ وكان بيته ملاصقاً لبيت الوالد رحمه الله ـ وشاء القدر أن يكون كتاب (اشتراكية

الإسلام) للأستاذ السباعي في غرفة الضيوف، وكنت قد اقتنيته منذ بعض الوقت.. فدار الحديث حول اجتهاد السباعي في عنوان الكتاب وحول بعض الآراء والاجتهادات التي تضمّنها، والتي لم تكن محل موافقة من الشيخ حسن رحمه الله.

وكانت حماستي للكتاب شديدة، خصوصاً وأنني كنت قد استمعت إليه عندما كان ـ في أصله ـ محاضرة حاشدة ألقاها الأستاذ السباعي على مدرج جامعة دمشق، وقوبلت بعواصف من الهتاف والتصفيق! فما كان مني وقد شعرت ـ أو توهمت ـ أن نبرة حديث الشيخ عن الأستاذ السباعي كانت حادّة بعض الشيء، إلا أن فتحت الكتاب على ملحق فيه بعنوان: (مع المعترضين: خطتان مختلفتان) وطلبت من الشيخ أن يقرأه أو يطلع عليه! لأن فيه كما زعمت رداً على اعتراضات الشيخ أو ملاحظاته! وفي هذا الملحق يذكر الأستاذ السباعي أو يتَّهمُ «أكثر فقهاء الشريعة وعلماءها بأنهم بعيدون كل البعد عن تفهم مشكلات المجتمع الإسلامي الحديث..!» ولا أعتقد أني كنت موفقاً يومها في هذا الذي فعلت لأسباب كثيرة لا تخفى.. ولكن الشيخ حسن رحمه الله بعد أن تصفح الفصل أو الملحق المذكور في دقائق لم يبد عليه أي انفعال، وكأنه عدّ ذلك من حماسة الشباب التي لا يوقَف عندها أو لا يلتفت إليها، أو لا تستحق المساءلة والعتاب.. ثم قال لي: أحدثك أولاً عن ذكاء الشيخ مصطفى ومواهبه وجرأته في الحق.. وقصَّ عليَّ ما كان منه في أول مؤتمر عقده العلماء في دمشق.. وقال قريباً مما ذكرت قبل قليل. بل إنه أفاض في الثناء على هذا الشاب بأكثر مما قلت. وسماحة الشيخ هو الذي شرح الموقف الحقيقي لرئيس الوزراء على النحو المذكور قبل قليل.. رحم الله الجميع.

قلت: هذه المواهب كانت عند عالم جليل مثل الشيخ حسن حبنكة موضع إطراء وإعجاب.. لأنه كان يرى فيها دفاعاً عن الإسلام وقوة للإسلام والمسلمين.. ولكنها كانت عند آخرين موضع حسد، وباعثاً على تصيّد الأخطاء والبحث عن المثالب... وقد تصل عند نفر قليل إلى محاولة الإساءة والتشويه.. وليس هذا عالم النفوس البشرية فحسب، بل هي كذلك طبيعة الفروق بين العالم الحقيقي ومن لم يكن له من الانتساب إلى العلماء سوى حفظ بعض المسائل مرة! أو اتخاذ شاراتهم ولبس ثيابهم بعيداً عن أي تحصيلٍ علمي

مرة أخرى. وما تزال مثل هذه النماذج موجودة في جميع العصور[1].

السباعي والمشايخ: التقارب والتباعد:

وعلى أية حال فقد بقيت تجربة الأستاذ السباعي مع العلماء بوجه عام قاسية، وقد تقترب المسافة بين جماعته وجماعة العلماء مرة وتبتعد أخرى. وبقي السباعي يعبر على وجه العموم عن حاجات الجيل الجديد ويجيب عن تساؤلاته ويتجاوب مع تطلعاته. وإن كنا لا نستبعد السبب السياسي، بوصفه أحد الأسباب الفاعلة أو المؤثرة في هذه التجربة. ولا أعني بذلك الموقف السلبي للعلماء والمشايخ من السياسة والعمل السياسي بوجه عام، ولكن أعني أن بعضهم عندما اتخذ من السياسة سلّماً للوصول إلى المال والمناصب لم يجد من العلماء الآخرين، أو من جمهورهم، سوى المناصرة والتأييد أو السكوت ـ الذي يفضي إلى هذه المناصرة ـ في أحسن الأحوال.

لقد عرّض السباعي فيما نعتقد بالشيخ تاج الدين الحسني، وتحدث عن ممالأته للاستعمار الفرنسي، وسلكه في «العلماء الذين اتخذ منهم أعداء الإسلام أطوع أداة لتنفيذ مآربهم وإنجاح خططهم» قال: «ألم يكن في بلاد الشام واحد من هؤلاء بلغ أقصى مرتبة في الوظائف الدينية، فما هو إلا أن انغمس في السياسة، حتى تواطأ مع المستعمرين على امتصاص دم أمته وإفساد عقائدها وأخلاقها، فتسنّى له بذلك أن يصل إلى أسمى مرتبة في الدولة؟»[2].

---

(١) قال السباعي في كتابه: هكذا علمتني الحياة: «كلما عظم نفع الرجل لقومه كثر حاسدوه، وكثر محبّوه أيضاً» وقال: «الشجرة المثمرة تهفو إليها النفوس، وتتطلع إليها الأنظار، وتتساقط عليها الأحجار». وقال أيضاً: «ما يلقاه الرجل من حسد أقرانه أشد مما يلقاه من كيد أعدائه» الفقرات ٧١٩، ٧٢٠، ٧٢١.

(٢) هو تاج الدين بن محمد بدر الدين الحسني، مراكشي الأصل ومن مواليد دمشق عام ١٨٩٠. أبوه محدّث الشام، بل حافظ العصر، شيخ العلماء، وعالم الزاهدين.
أما الشيخ تاج الدين فقد بدأ حياته مدرساً للعلوم الدينية في المدرسة السلطانية عام ١٩١٢، ثم انصرف إلى السياسة والحكام، فكان من أعضاء المجلس العمومي لولاية سورية في العهد العثماني ـ التركي. ولما أصدر الجيش الرابع (العثماني) جريدة الشرق عام ١٩١٦ جعله أحد صاحبيها. وكان في العهد الفيصلي من أعضاء (المؤتمر السوري) ثم من أعضاء مجلس الشورى... وعمل قاضياً شرعياً للعاصمة دمشق، وقام بتدريس (أصول الفقه) في معهد الحقوق. تولى رئاسة الوزارة السورية في عهد التسلط الفرنسي=

ثم تساءل الأستاذ السباعي قائلاً: «ألم يكن هناك من العلماء من يشدّون أزره، ويدعون الناس إلى تأييده، ويحاولون أن يصرفوا الأنظار عن جرائمه وسيئاته؟»[1].

فإذا تذكرنا موقف الأستاذ السباعي من الكتلة الوطنية ومناصرته لاتجاهاتها العامّة ودفاعه عنها، وبخاصة في أيام الكفاح الأولى.. أو في الثلاثينيات.. أدركنا طرفاً مهماً من الأسباب السياسية ـ الإضافية ـ التي باعدت بينه وبين المشايخ في وقت مبكر.

وعلى الرغم من التقارب والتعاون الذي حصل في بعض المراحل أو المواقف، أو على الرغم من إقامة الجسور وهدم الحواجز الذي حصل فيما بعد، فإن مناهج التفكير ووسائل العمل بقيت متعددة أو متغايرة. وما كتبه السباعي في كتاب (اشتراكية الإسلام) المشار إليه بعد عشرين عاماً مضت على مقالاته النقدية التي تحدثنا عنها تشير إلى ذلك. فقد تحدث في هذا الكتاب عن فئة تؤمن بأن في الإسلام حلاً لمشكلات الأمة والمجتمع، «ولكنها لا تعرف كيف يحلها، وتظن أن من الممكن تطبيق الإسلام بنفس الأشكال التي طبقت في عصر الخلفاء

= مرتين: الأولى ١٩٢٨ـ١٩٣١ والثانية: ١٩٣٤ـ ١٩٣٦ حيث استقال بعد فتنة كبيرة واعتقالات، فسافر إلى باريز وأقام فيها حتى عاد عام ١٩٤١ حيث تم (تعيينه) من قبل الفرنسيين ـ الجنرال كاترو ـ رئيساً للجمهورية السورية التي تم الإعلان ـ الفرنسي ـ عن استقلالها (الصوري) في ٢٧ إيلول (سبتمبر) من العام المذكور. الموافق ٥ رمضان عام ١٣٦٠هـ. وبقي في هذا المنصب حتى توفي عام ١٩٤٣.
«وبسبب المكانة التي كانت لأبيه في العلم والزهد» ـ كما تقول مجلة (الفتح) ـ «استطاع الشيخ تاج أن يتسلّق على رقاب أمّته أيام جمال باشا، ثم في أيام الفرنسيين» ساعده على ذلك: ذكاؤه ودهاؤه وحسن تودّده إلى الناس.
تقول (الفتح): «فكان نكبة على الوطن في حياة أبيه، بقدر ما كانت وفاة أبيه نكبة على الوطن لفقد هذا الطود العظيم في العلم والزهد». وكان يدعى في دمشق جهاراً بالمسيو تاج! انظر الأعلام للزركلي ٧/ ٨٢ (ط٧: أيار ١٩٨٦) ومجلة (الفتح) العدد ٤٥٢ (العام العاشر) ص٤٨ في ٣ ربيع الثاني ١٣٥٤هـ (٤/ ٧/ ١٩٣٥)؛ والعدد ٤٨٧ من العام نفسه، ص٨٨٤ في ١٠ ذي الحجة ١٣٥٤هـ (٣/ ٣/ ١٩٣٦).

(١) مجلة الفتح ـ العدد السابق المشار إليه: (العلماء والسياسة) رقم (٥٨٧)، تاريخ ٣ ذي الحجة ١٣٥٦هـ (٣/ ٢/ ١٩٣٨).

الراشدين» ثم قال: «هؤلاء هم أكثر فقهاء الشريعة وعلمائها، وهم بعيدون كل البعد عن تفهم مشكلات المجتمع الإسلامي الحديث، ويقفون منها دائماً موقفاً سلبياً، وكل ما يقدمونه للناس قولهم: إن الرجوع إلى الإسلام هو الذي ينقذنا من مشكلاتنا.. ولكنْ كيف؟ وإلى أي مدى؟ وما هو رأي الإسلام في المشكلات التي لم يعرفها السلف في عصور الخلفاء الراشدين فما بعدهم؟».

وأضاف: «وأبعد من هذا أنهم يحاربون كل اتجاه لحل هذه المشكلات في ضوء مبادئ الإسلام ومقاصده العامة، بل على ضوء تطبيق الرسول ﷺ نفسه لهذه النصوص، وفهم علماء السلف في عصور الاجتهاد لها فهماً نيِّراً صادقاً، يلتقي مع روح الإسلام وأهدافه العامة. **إنهم يحاربون هذه الحلول في هذا الاتجاه، مستمسكين بنصوص للفقهاء أو لبعضهم حين جَمُد العقل الإسلامي، ورانت البدع على المجتمع الإسلامي، ونُسيت مقاصد التشريع**، بل تُنوسي تاريخ الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين وتطبيقهم العملي الرشيد لتلك النصوص.

«إن الشريعة عندهم هي هذه (النصوص) والآراء الفقهية التي وضعت في عصور متأخرة، والتي لا يتلاءم كثير منها مع مشكلاتنا الحاضرة، ولا ينسجم مع روح الشريعة السمحة التي جاءت بالعدل والحق وسعادة الناس في دنياهم وأخراهم».

* * *

الروح الدعوية والبعد السياسي

يصعب عليناالإحاطة بآفاق الدعوة التي نهض بها الداعية مصطفى السباعي، فضلاً عن الصعوبات التي واجهها، والعقبات التي اعترضته في الطريق.. وقد لا يكون ذلك جميعه من مهمتنا في هذه الدراسة، ولهذا فإننا سوف نحاول الإشارة إلى تلك الآفاق، أو إيجازها من خلال التعريف، أو المقدمات التي كتبها هو بقلمه رحمه الله، بالإضافة إلى تقديم بعض الإيضاحات أو التفسيرات التي تضع تلك الآفاق في موضعها أو سياقها التاريخي، وتجعلها من ثم مفهومة أو مبرّرة في عالم الأسباب والمسببات. غير مغفلين أو غافلين في ذلك كله عن أثر الشخصية أو العامل الشخصي في ارتياد هذه الآفاق، وفي ملاحظة ذلك السياق الذي نعتقد جازمين أن مصطفى السباعي فهمه وأحسن التعامل معه.

ونحن لا نرتاب في أن السباعي رحمه الله طبع دعوة الإخوان في سورية بطابعه الخاص، وترك بصماته على أفكارها ومنهجها الإصلاحي ومسيرتها التاريخية بوجه عام أو حتى واقعة مرضه في أواخر عام ١٩٥٧م؛ أي مدة أربعة عشر عاماً أو تزيد.

فإذا تذكرنا أنه كان في الثالثة عشرة من عمره حين تعرّف على مجلة (الفتح)، وبدأ مسيرة الإصلاح والعمل العام؛ علمنا أنه حين تصدّى لقيادة حركة الإخوان، أو عندما ألقت المقادير على عاتقه مهمة القيادة والتأسيس، أو إعادة التأسيس ـ بعبارة أدق ـ كان قد أمضى حياة حافلة بالعمل، ارتقت به إلى تلك الدرجة العالية من النضج الفكري والدعوي والسياسي كما أشرنا إلى طرف من ذلك قبل قليل.

أقول (إعادة التأسيس) وأنا ألاحظ أن تأسيس (الجمعيات) التي (وحّدها) وقادها كان سابقاً لهذه القيادة بنحو عقد من الزمان، كما أوضحنا فيما سبق..

إن السياق التاريخي الذي أشرنا إليه يذكّرنا بالتحديات والأفكار السائدة في عصر السباعي أو التي واجهها وحاول التصدي لها وبيان الموقف منها..

وإذا لاحظنا أن أبرز تلك الأفكار كانت القومية أو الأفكار القومية والاشتراكية التي كانت تستبطن العلمانية بشكل عام، أو: (الحداثة الغربية)

بشروطها العلمانية الإقصائية للدين، أو مناصبته العداء في كثير من الأحيان؛ فإن عبئاً كبيراً ومهمة جليلة وقعت على كاهل زميل الأستاذ السباعي وأخيه في حقل الدعوة والعمل العام الأستاذ محمد المبارك رحمه الله. ونحن لا نبعد إذا قلنا: إن أستاذنا المبارك هو الوحيد الذي شارك الأستاذ السباعي في مهمة النقاش العلمي الموضوعي والمعمّق للأفكار القومية، وقام في الوقت نفسه أو بوجه عام بقسط كبير في بناء القاعدة الفكرية لشباب الإخوان.. بهدوئه وأناته وما كان يتمتع به رحمه الله من ذكاء وقّاد، وسياسة حكيمة، واطلاع واسع على الأفكار والثقافات من خلال صلاته بمختلف التيارات، وتمكنه من ناصية اللغة الفرنسية.

نعود للحديث عن (**الروح الدعوية**) كما يمكن أن تدعى، لنقول: إن الأستاذ السباعي رحمه الله خط بقلمه ألوف الصفحات في الصحف والمجلات، وألقى مئات الخطب والمحاضرات. كما قام بتأليف العديد من الكتب والرسائل في حقول العلم والحضارة والاجتماع. ولا يصعب على الناظر في هذا كله.. أو المتتبع له أو المتابع أن يلمس روح الداعية تسري في كل جانب من جوانبه، وطرف من أطرافه.. ولا استثناء في ذلك لكتاب مثل (السنّة ومكانتها في التشريع الإسلامي) الذي نال به درجة العالمية من درجة أستاذ (الدكتوراه) من الأزهر.. أو لشرح قانون الأحوال الشخصية (السوري ـ المقارن) وحتى لكتابه في الوصايا والفرائض أو أحكام المواريث..

ويعود السبب في ذلك إلى مهمة الإصلاح الذي ندب نفسه له، و(التحدي) الذي كان يحسّ به في ذلك العصر المضطرب الذي تتنازعه الأهواء والتيارات.. والذي كان عليه أن يدافع فيه عن الحضارة الإسلامية والمجتمع الإسلامي ـ في مقابل الحضارة الغربية والمجتمعات الأوروبية على وجه الخصوص ـ وأن يعمل على تثبيت عقائد الإسلام وقيمه ومبادئه وأحكامه في النفوس والعقول، ويزرعها في تربة الشباب أو الجيل الذي سوف يقع على عاتقه عبء البناء والنهضة والتقدم، بل كان يتوجب عليه ـ قبل ذلك ومعه ـ أن(يصحّح) صورة الإسلام في عقيدته وأحكامه، على النحو الذي انتهت إليه في أواخر العهد العثماني، أو في أعقاب هذا العهد، الذي شاع فيه الجبر والتواكل، وجمدت فيه الثقافة الإسلامية عند حدود موروثات فقهية بيئية محدودة وأخرى قاصرة منذ أن دخل المسلمون في عصر الركود أو (الفتور) ـ إذا استعملنا مصطلح عبد الرحمن الكواكبي رحمه الله ـ من سنوات طوال.

ومن هنا كان الحديث عن السباعي الداعية ميسوراً أو سهلاً، لأن الكاتب سوف يجد **(الداعية)** حيث نظر في أي طرفٍ من تلك الكتب والمقالات، لكن الأمر ليس كذلك لمن أراد الجمع والاستقصاء، وملاحظة مراحل الكتابة وزمن التأليف؛ لأنه سوف يجد نفسه أمام بحر زاخر من المعارف والتجارب، وبخاصة إذا حاول أن يمتحن أو يفسر الحِكَمَ التي ضمّنها كتابه: (هكذا علمتني الحياة) في ضوء التجارب الطويلة المديدة التي مرّ بها أو عصفت به، أو ـ كما قلنا في مقدمتنا لكتابه (عظماؤنا في التاريخ) ـ التي «عاشها بكل جوارحه وأحاسيسه، وآلامه وآماله، اهتدى بنورها مرة، واكتوى بنارها مرة، وعاش في دخانها وظلالها مرات ومرات»[1]. ولكن أيُّ طول هذا وقد توفي وهو في الخمسين أو التاسعة والأربعين؟ ويأتي الجواب في واحدة من هذه الحكم ذاتها حين قال: «**الحياة طويلة بجلائل الأعمال قصيرة بسفاسفها**»!.

وأعتقد أن استعراض أعمال السباعي الداعية، في مختلف الحقول التي أشرنا إليها، ومن أي منظور كان، سوف يكون موضع دراسة أو دراسات جامعية معمّقة تتناولها بالتصنيف والدراسة والنقد والتحليل، وبخاصة من قبل طلبة كليات الدعوة وأقسامها في الجامعات.

ونكتفي برسم ملامح دعوته أو (دعوة الإخوان) على النحو الذي خطه بقلمه أو أسسه نظرياً، وترك ما استطاع منه ماثلاً في واقع التطبيق.. مع الإشارة أو التأكيد على أن انتقال السباعي بتلك الجمعيات الدينية التي كانت قائمة إلى دعوة الإخوان، صحبه نقلة مهمة لا على مستوى القيادة المتميزة فقط، ولكن كذلك على مستوى أبعاد الدعوة التي كانت تنهض بها هذه الجمعيات. وأخص منها **البعد السياسي** الذي جاء في نطاق منظومة الشمول التي ميّزت فهم الإخوان للإسلام أو ميّز دعوتهم في العصر الحديث.

وهكذا اشتغل الإخوان بالسياسة، لا على أنها كل عملهم، ولكن على أنها جزء من دعوة الإسلام، أو وسيلة لإشاعة قيمه وتطبيق أحكامه في واقع المجتمع والناس؛ يقول السباعي: «ليس الإخوان المسلمون حزباً سياسياً بالمعنى المفهوم من كلمة (حزب) في عرف الناس، وإنما دعاة إسلام، آمنوا به على أنه رسالة

---

(١) من مقدمتنا لكتابه (عظماؤنا في التاريخ)، ص٦؛ المكتب الإسلامي ـ الطبعة الرابعة ١٩٨٥م.

الانقاذ والتحرر والقوة والحضارة، واعتنقوها على هذه الأسس، ونادوا بها في الناس بهذا المفهوم، ونذروا أنفسهم لتحقيقها في المجتمع كرسالة سامية لأبناء الوطن جميعاً، **وبذلك لم يسعهم إلا أن يساهموا في الحركات السياسية، لا غاية يسعون إليها، بل وسيلة لتحقيق فكرة الإسلام التي آمنوا بها**».

بل إن السباعي يذهب إلى القول: إن هذا الفهم للإسلام هو جوهر المشكلة بين الإخوان والأحزاب السياسية جميعاً، قال: «وهذا النزاع ينحصر في نقطة جوهرية ـ هي بالنسبة لدعوة الإخوان كالأساس من البناء وكالعمود الفقري من جسم الإنسان ـ وهي أن الإخوان يرون بحق أن الإسلام دين وسياسة، عبادة وقيادة، مصحف وسيف؛ نظام شامل كامل يهيمن على جميع مرافق الحياة» وأضاف: «والأحزاب تنكر على الإخوان هذا الفهم الصحيح للإسلام، وتريد أن تحصر هذا الدين في الصوامع والمساجد، وتفصل بينه وبين السياسة والحكم ونظم الحياة! كما فعلت أوروبة، متجاهلة الفرق بين المسيحية والإسلام..»[1].

* * *

(١) دروس في دعوة الإخوان المسلمين، ص١٧٨؛ منشورات قسم الطلاب ـ دمشق ١٩٥٥م.

الدعوة: ضرورات وشبهات

هذه الحركة التجديدية التي قامت على هذا الفهم (الشمولي) للإسلام - والذي جاء كما قلنا في أعقاب عصر الركود والفهم المغلوط للإسلام، ولدور الدين في المجتمع والسلطة - كان لا بد أن تثار في وجهها الشبهات وتوضع في طريقها العقبات من أطراف شتى..

وقد وصف السباعي هذه الأطراف - على اختلاف نزعاتها ومشاربها - بالخصوم، ورفض أن يطلق على أي ممن اختلف معهم في نطاق الوطن بالأعداء! لأن هذا الوصف عنده خاص بالعدو (الخارجي) الذي يهدد الوطن وراء الحدود[1].. وكما يخاصم الولد أباه والأخ أخاه، والزوجة زوجها - في ساحة القضاء - تحدث السباعي عن الخصومة التي قامت - في ساحة الوطن - بين دعوة الإخوان وسائر الأحزاب التي قلّصت دور الدين في حياة المجتمع والدولة، أو حاولت في بعض الحالات الشاذّة - الحالة الشيوعية حصراً أو على سبيل المثال - إلغاء هذا الدور! وقد اشتدت هذه الخصومة، أو اشتطت مع النجاحات الباهرة التي حققتها الدعوة، والمد الجماهيري الذي أصابته، أو وصلت إليه بعد أحد عشر عاماً أو بضعة عشر عاماً مرّت على التأسيس والانطلاق.

في الثاني من شهر جمادى الآخرة ١٣٧٤هـ الموافق ٢٥/ ١/ ١٩٥٥م كتب السباعي يقول: «لقد نشأت دعوة الإخوان المسلمين في سورية منذ بضعة عشر عاماً، وتطورت حتى بلغت ما بلغت إليه اليوم من سعة وقوة، وحتى غدت محط آمال المسلمين في الدفاع عن دينهم، وتحرير مجتمعهم من الفساد والانحطاط، وتحرير وطنهم من الضعف والاستعمار. وهذه الدعوة التي برزت على الناس، في سورية ومصر وبلاد العرب والإسلام منذ ربع قرن تقريباً، وما تزال شغلهم في

---

(١) قال: «لا تطلق لفظ (العدو) إلا على الأجنبي المحارب؛ أما المواطن الذي تختلف معه فهو (خصم)، والعدو لا تنفع معه إلا الشدة، والخصم يفيد معه كثيراً حسن الخلق، والإغضاء عن الإساءة، وترك الفرصة ليفهمك»؛ الفقرة رقم (١٠٧) من كتابه: هكذا علمتني الحياة - القسم الثاني.

الحديث عنها حتى اليوم؛ جديرة بأن يزاح عنها ستار الأضاليل التي أقامها أعداء الإسلام حولها! فلقد زعموا أنها دعوة رجعية تريد أن ترجع بالمسلمين إلى الوراء عشرة قرون أو تزيد، وزعموا أنها دعوة طائفية تثير النعرات بين أبناء الوطن الواحد، وزعموا أنها دعوة استغلالية تقصد استغلال السذّج في عواطفهم الدينية البريئة. . وهكذا ذهبوا في الزعم طرائق قدداً».

ثم قال: «والله يعلم أنها بريئة من كل ما اتهموها به. وقد أثبت تاريخها الحافل بجلائل الأعمال أنها فوق مستوى الشبهات في أهدافها ووسائلها، وأنها أصدق حركة إسلامية في العصر الحديث، وكان لها من التأثير في المجتمع الإسلامي ما لم يكن لحركة ما في التاريخ الإسلامي كله. وعلى قدر نجاحها في إيقاظ المسلمين، وإظهار عظمة الإسلام، ومقاومة الضلال والفساد والطغيان والاستعمار، كانت ـ وستكون ـ أكاذيبُ أعداء الإسلام نحوها، وعملهم على محاربتها بكل وسيلة ممكنة»[1].

ولابدّ قبل إيجاز القول في أهداف الدعوة ووسائلها، وفي أعمالها وإنجازاتها. . من الإشارة إلى أن السباعي رأى في هذه الدعوة ـ في ظل الأوضاع السائدة ـ ضرورة ملحّة، ولكنها ليست ضرورة دينية واجتماعية ووطنية فحسب، بل رأى فيها كذلك ضرورة قومية وإنسانية[2]. . إنها إذاً ضرورات عدّة.

فالضرورة الدينية من أجل إعادة المسلمين إلى صفاء الإسلام وقوته وسعة آفاقه، والعمل على كشف وجوه الخير فيه، ونواحي القوة والصفاء والروعة في عقيدته ونظامه.

والضرورة الاجتماعية لأن كل ما نحاوله من إصلاح الحقل الداخلي في المجتمع سيذهب عبثاً ما لم يستند إلى جذور عميقة في نفوس الشعب. . وهذه الجذور لن تكون بالعلم وحده، ولا بالتربية الوطنية وحدها، ولا بالتربية القومية. . «ولا بغير ذلك من كل ما يلهج به دعاة المذاهب الفكرية والسياسية في عصرنا الحاضر. . وإنما يكون بالدين حين يفهم على وجهه الصحيح».

أما الضرورة الوطنية فلأن المعاني النبيلة الكثيرة التي يتطلبها الوطن من

---

(١) دروس في دعوة الإخوان المسلمين، ص٧.

(٢) انظر تفصيل القول في هذه الضرورات في المصدر السابق، ص١٤٤ ـ ١٥٢.

أبنائه إنما تدور حول أمرين رئيسين:

١ ـ الوحدة في العاطفة والشعور بين أبنائه قاطبة على اختلاف أديانهم وأعمالهم.

٢ ـ التضحية في سبيل المصلحة العامة بما يحرص عليه كل إنسان من نفس ومال وراحة ولذة.

ولا خلاف على أن الدين هو الذي يغرس هذه التضحية في نفس المؤمن خالصة لوجه الله.

أما الوحدة في العاطفة والشعور فإنها لا تتجلى في شيء كما تتجلى في عمل الدين، لأنه «يغرس في أتباعه وجوب التعاون مع الناس على الخير ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢]. ولأنه هو الذي يضع مقاييس التفاضل في المجتمع لا على أساس الجاه والحسب والثراء والقوة، بل على أساس التفاضل في التقوى. وهي عمل الخير للنفس وللناس جميعاً: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، وقال النبي ﷺ: «الخلق كلهم عيال الله فأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله».

ولم يفت السباعي أن يشير في هذا السياق إلى أن هذه التربية الدينية العميقة تغرس التسامح غرساً بين أبناء الديانات المختلفة، فلا يكون اختلاف الناس في الأديان أداة من أدوات التفرقة[(١)].

ونقف قليلاً عند **الضرورة القومية** لنرى السباعي يقرُّ المعنى القومي، ويشيد بخصائص العروبة، ويتحدث عن الأمة العربية، في الوقت الذي ينفي عن هذه القومية معنيين اثنين هما:

المعنى الجاهلي، والمعنى النازي والفاشي. . أو بحسب عبارته: «قومية الجاهلية وقومية العدوان». وقال: إن قومية الجاهلية يراد بها «الاعتزاز بالجنس إلى درجة تؤدي إلى انتقاص الأجناس الأخرى، والعدوان عليها، والتضحية بها في سبيل عزة أمةٍ وبقائها. . .»[(٢)]. وكأني به في هذا وذاك يرفض

(١) المصدر السابق، ص١٤٨.
(٢) المصدر السابق، ص٦٦.

طروحات كلٍّ من ميشيل عفلق وزكي الأرسوزي.

وهو مع ذلك لا يتنكر لخصائص العروبة ولا ينكرها، ولطالما ندّد بالشعوبية والشعوبيين في مقالات ومواقف كثيرة؛ قال: «ولسنا مع ذلك ننكر خصائص الأمم ومميزاتها الخلْقية، فنحن نعلم أن الشعوب في هذا تتفاوت وتتفاضل، ونعتقد أن العروبة لها من ذلك النصيب الأوفى..»[1] إنما تعني القومية عنده وحدة شمل الأمة الواحدة وتحررها ونهضتها؛ قال: «وأمّتنا العربية اليوم تكافح في سبيل وحدة أجزائها المبعثرة، وتحررها من الاستعمار والطغيان، ونهوضها حتى تكون أمة قوية عالمة تعيد سيرتها في التاريخ».

وأضاف: «**والإخوان المسلمون يتبنّون مثل هذه الأهداف، ويعملون لها، فهم يؤمنون بوحدة العرب وتحررهم ونهضتهم، كما يؤمن بذلك دعاة القومية، ويزيدون عليهم ربط العرب حين يتحررون وينهضون بشعوب العالم الإسلامي**».

والقومية بهذا المعنى ليست فقط لا تتعارض مع الإسلام، بل هي بحاجة إليه من ناحيتين: مادية ومعنوية. قال: «أما حاجة القومية العربية إلى الإسلام من الناحية المعنوية فهي أنها لا تستطيع إلا أن تتبنى نظام الإسلام كفلسفة لها ونظام يجعلها بين القوميات ذات رسالة إنسانية كاملة كريمة.

وأما حاجتها إلى الإسلام من الناحية المادية فهو أن الإسلام يجمع حولها خمسمئة مليون مسلم يعدُّون تاريخ العرب تاريخاً لهم، وأبطال العرب أبطالهم؛ وتراث العرب تراثهم»[2].

وقد احتلت قضية العرب والعروبة مكاناً بارزاً في فكر السباعي ودعوة الإخوان ـ في وسطٍ تناول هذه القضية تناولاً مغلوطاً، أو اتّخذ منها سلّماً لتوهين العقيدة ورباط الإسلام ـ حتى إنّه عدّ (توحيد العرب والمسلمين) أحد أهداف دعوة الإخوان، وقد حدّد هذه الأهداف في خمسة. ونورد فيما يلي رأيه في هذا الهدف استكمالاً لما أسماه الضرورة القومية، قبل أن ننتقل للحديث عن سائر هذه الأهداف في الفقرة التالية:

---

(١) المصدر السابق، ص٦٧.

(٢) المصدر السابق، ص١٥٠.

قال السباعي: «هذا الوطن العربي الكبير واحد في جغرافيته ولغته وعقائده وأخلاقه وتاريخه وخصائصه؛ فيجب أن يكون كذلك في واقعه السياسي. هكذا آمن الإخوان بوحدة الوطن العربي، وهكذا يعملون لتوحيد الأمة العربية في هذه الكيانات المجزأة المبعثرة التي أقامها الاستعمار لتكون لقمة سائغة لمطامعه وعدوانه»[1].

«وهذا العالم الإسلامي الذي يضم ما يزيد على خمسمئة مليون.. ويحتل أخصب الأرض وأهمها في كل من آسية وأفريقية، يشكل وحدة عقائدية لا مثيل لها في الكيانات السياسية القائمة على وحدة العقيدة في عصرنا الحديث.. وهو يشكل قوة سياسية هائلة تستطيع أن تكون مركز الثقل في الصراع السياسي العنيف بين الشرق والغرب، وهو في حد ذاته قوة كبرى للأمة العربية، يمنحها نفوذاً سياسياً واقتصادياً وفكرياً.. وليس فيه أي ضرر بمصالحها وكيانها الخاص بها».

قال: «ومن أجل ذلك يؤمن الإخوان المسلمون بوجوب تكتل العالم الإسلامي في اتحاد سياسي واقتصادي كالاتحاد السوفييتي ـ على سبيل المثال ـ وفي ظل هذا الاتحاد يستطيع العرب، وكل شعب من شعوب العالم الإسلامي أن يعملوا لبلادهم ولكياناتهم الخاصة في إطار من التعاون العملي، الذي يجعل منهم أمة مرهوبة الجانب، محترمة الكيان، تلعب دوراً خطيراً في صيانة السلام في العالم، وتوفير الرغد والأمن لشعوبه».

ويخلص أخيراً إلى تقرير الملاحظة أو النتيجة التالية في هذا الرابط أو الاتحاد بين الأمة العربية والعالم الإسلامي؛ فيقول: «**إنّ تعاون العرب مع العالم الإسلامي لا يضرهم، بل يجعلهم في مكان القيادة لهذا العالم الفسيح. وهي قيادة لا يستهين بها إلا من جهل قدر نفسه وأمّته، وناءت كواهله بحمل أعباء المجد، ودفع ثمن الخلود!**»[2].

ولانعتقد أن تعريضَه هذا بمن حاول الانتماء إلى (العالم الاشتراكي) أو منظومة الدول الاشتراكية أو عدَّ الدائرة الاشتراكية هي التي تلي الدائرة العربية أو القومية.. لا نعتقد أن هذا يحتاج إلى تعليق[3].

---

(١) المصدر السابق، ص١٤.

(٢) المصدر السابق، ص ١٤ ـ ١٥.

(٣) انظر في الصفحات القادمة مقالة للدكتور السباعي بعنوان (لماذا حاربت القوميات=

أهداف الدعوة وأبعادها الإصلاحية:

حدد السباعي مهمة الإخوان المسلمين بالأمور الثلاثة التالية:

١ ـ تربية جيل تتمثل فيه أخلاق الإسلام وعقيدته، ويحمل في الحياة رسالة الإسلام ويسعى إلى تحقيق نظامه.

٢ ـ الدفاع عن الإسلام كدعوة ودولة ونظام، ورد عادية المعتدين على الوطن الإسلامي، وكفّ أذى الظالمين حكاماً أو أفراداً.

٣ ـ رفع مستوى الشعب في عقيدته وتربيته وثقافته ومعيشته حتى يصل إلى المستوى الإنساني الكريم الذي يريده الإسلام، وإقناعه أن سعادته به[١].

وقد جعل السباعي السبيل إلى تحقيق هذه الأهداف: إصلاح الفرد والأسرة والمجتمع. بالإضافة إلى الكفاح ضد الاستعمار، وتوحيد العرب والمسلمين الذي أشرنا إليه قبل قليل. وشرح نواحي الإصلاح وآثاره في الأهداف الثلاثة الأولى، ونشير من ذلك إلى طرف من رأيه في الأسرة والمجتمع:

قال في إصلاح الأسرة: **«وإنما يتم ذلك بتربية المرأة وتعليمها تعليماً يهيئها لتنهض برسالتها في المجتمع كزوجة عفيفة مخلصة، توفر لزوجها وأطفالها الراحة والسعادة، وكأم مربية فاضلة تمد الأمة بأكرم نشء وأقومه أخلاقاً، وأصلبه عوداً»**.

وقال: **«وعلاقة الزوج بزوجه، والأولاد بأبيهم وأمهم، علاقة متكاملة تقوم على التوازن بين الحقوق والواجبات»**.

وقال في إصلاح المجتمع: إن الإسلام يتشدد في بناء المجتمع على الأسس التالية:

١ ـ التحرر من الجهل والخوف والرذيلة والجوع والمرض والمهانة[٢].

= الدين في أوروبة؟).

(١) دروس في دعوة الإخوان المسلمين، ص١٦٤.

(٢) قال: «وهذا هو هدف اشتراكيته المتميزة عن مختلف أنواع الاشتراكية بواقعيتها واتزانها وروحانيتها».

٢ ـ النظام القائم على الشورى، والذي يجمع ـ في توازن محكم ـ بين القوة والرحمة، والعدالة والتسامح، ويحفظ فيه حق الفرد وحق الجماعة، قال: «فإذا تعارضا كان حق الجماعة أرجح، ورعاية مصلحتها أوجب».

٣ ـ أما الأساس الثالث فهو «القوة التي تحفظ الأمة في داخل المجتمع، وتصد العدوان عن حدوده وسيادته، وتحارب الظلم والطغيان أينما كان، وتمد يد الإنقاذ لكل مضطهد مظلوم»[1].

كانت الدعوة إذاً ذات أبعاد إصلاحية، ولم يشر السباعي إلى أي بعد ثوري أو (كفاحي) إلا عند حديثه عن (كفاح الاستعمار). . بل إنه ـ كما سنرى بعد قليل ـ لمّا تحدث عن أعمال الإخوان أو الإنجازات التي حققوها على أرض الواقع عبر عنها كذلك بـ (الإصلاحات) التي شملت عدة ميادين[2] وهذا أمر طبيعي في وسط التنافس الحزبي الديمقراطي، ومشاركة الأستاذ السباعي والإخوان في الحياة السياسية والبرلمانية السورية. وبقي الأمر على هذا النحو طيلة فترة قيادة السباعي، بل طيلة استقرار الخط العام للدعوة.

ولكن **السباعي الثائر** الذي عرفناه في فتوته السابقة وكفاحه ضد الاستعمار والاحتلال في مصر والشام. . يعود ليجعل من هذا الكفاح المستمر أحد أهداف الإخوان المسلمين.

ولكن الجديد الآن أنّ السباعي يضيف إلى كفاح الاستعمار كفاح آثاره وأعوانه من طغاة ومستبدين. . ملاحظاً أن الطغيان والاستبداد كان دائماً في خدمة الاستعمار والاحتلال.

يقول السباعي: «والإخوان المسلمون لا يرون لكفاح الاستعمار حداً يقفون عنده، حتى تتحرر أمتهم من كل آثاره العسكرية والسياسية والاقتصادية والفكرية. وهم لا يرون استعماراً أولى بالمهادنة من استعمار؛ فكل عدوان على بلادهم وعلى عقائدهم وعلى كرامتهم وأموالهم يعد استعماراً تجب محاربته بكل

---

(١) المصدر السابق، ص١٢ ـ ١٣؛ وانظر حول أصول هذا الأساس وأسبابه مقالاته في مجلة الفتح القاهرية: العدد ٤٥٦ بتاريخ ٢ جمادى الأولى ١٣٥٤هـ بعنوان: (قوة الحق وحق القوة)؛ والعدد (٥٧٨) بتاريخ ٢٩ رمضان ١٣٥٦هـ بعنوان: رمضان يحاضر.

(٢) الدروس: مرجع سابق، ص١٥٣.

وسيلة، حتى تكون مقدراتهم بـأيديهم، وثرواتهم تحت تصرفهم تستعمل لمصلحتهم وخير بلادهم».

ويضيف: «ويرى الإخوان أن كفاح أعوان المستعمرين من طغاة ومستبدين ومستثمرين هو كفاح للاستعمار ذاته، لا يهادنون فيه أحداً! فمن استبد بشؤونهم، وامتصَّ دماءهم، ونعم بالترف والرفاهية على أشلائهم وشقائهم وجهالتهم، كان ظالماً باغياً يجب كفاحه حتى يفيء إلى أمـر الله، وينزل عند إرادة الشـعب، ويطهر يده من دمائه وأمواله وأعراضه».

ثم يجمع بين الفريقين ـ المستعمرين وأعوانهم ـ في أن كفاحهم عبادة يتقرب بها إلى الله وتشترى بها الجنة، فهي كالصلاة والصوم «بل إن الله لا يقبل صلاة ولا صياماً ممن يفرط في جهاد أعداء الأمة أو يقبل سلطانهم على أمته وبلاده» على حد قوله.

ويستدل على هذا الحكم أو هذا الاجتهاد بقياس رائع على حديث نبوي شريف؛ «فقد قيل لرسول الله ﷺ: إن امرأة تقوم الليل وتصوم النهار ولكنها تؤذي جيرانها! فقال هي في النار!». فلم تشفع لها صلاتها ولا قيامها من عذاب الله وهي تؤذي جيرانها. قال السباعي: «فكيف بمن يؤذي أمّته بممالأة المستعمر، وتأييد الطاغي، وتملّق الظالم؟»[1].

* * *

(١) دروس في دعوة الإخوان المسلمين، ص١٣.

الداعية والدعوة: الأعمال والإنجازات[1]

أشرنا قبل قليل إلى أن السباعي عبّر عن هذه الأعمال والإنجازات بالإصلاحات. وقد شملت هذه الإصلاحات الميادين الثقافية والاجتماعية والسياسية. ونحاول تلخيص القول في هذه الميادين بأقل قدر ممكن من السطور والكلمات:

أ ـ في ميدان الإصلاح الفكري والثقافي:

لم يتردد السباعي في القول: إن أول ما عنيت به الجماعة إصلاح العقيدة الإسلامية مما علق بها من آثار الجهالات والخرافات، وفي القول إن الدعوة أصابت في ذلك نجاحاً ملحوظاً «فتقلّص نفوذ الخرافيين والمدجّلين والمرتزقين باسم الدين، كما تقلّص نفوذ الزعماء المستغلّين والأغنياء المستثمرين».

ثم نجحت الدعوة في بَلْوَرة المفهوم الحقيقي للإسلام ـ بعد غياب طويل ـ فبعد أن كان جمهور المسلمين يفهم الإسلام عبادات ظاهرية، وأنه بُعدٌ عن الحياة وتخلٍّ عن الدنيا، في الوقت الذي كانت تسري بينهم «روح تعصبية عمياء، تسيء إلى جمال الإسلام وسماحته وتعاليمه.. جاءت الدعوة تبين للمسلمين أن حقيقة الإسلام في ذاته: سماحة في التعامل، وصدق في القول، ورغبة في نفع الناس جميعاً، ثم نظام شامل لشؤون الحياة، يصلح الفرد والأسرة والشعب والحكومة».

كما «أعلنت الدعوة وجوب تحرير التعليم من آثار الاستعمار وتوجيهه، بحيث يكون الهدف منه إنشاء جيل مؤمن قوي منتج يبني مجد أمته على أساس من الإيمان والعلم الناضج، والأخلاق النبيلة..».

في الوقت الذي أسست (المعهد العربي بدمشق) على إثر حوادث العدوان الفرنسي، وقد انضمّ إليه فيما بعد: مدرسة التمدن الإسلامي ـ بناء على اتفاق بين القائمين على المعهد ومدرسة التمدن[2] ـ وأصبح اسم المعهد بعد ذلك:

---

(١) راجع في هذه الفقرة المصدر السابق، ص١٥٣ ـ ١٦٣.

(٢) مدرسة التمدن أسستها جمعية التمدن الإسلامي بدمشق التي كان يرأسها الأستاذ المجاهد=

(المعهد العربي الإسلامي)، وكان له نظراء وفروع مماثلة في كل من درعا وحمص وإدلب وحلب، وتشمل الدراسة فيه مراحل التعليم الأساسي كافة.

ب ـ في ميادين الإصلاح الاجتماعي:

١ ـ أول ما تجب الإشارة إليه: تبنّي حركة العمال، وإنشاء المدارس لتعليمهم، ومحاربة الأميّة في وسطهم، وقد تمَّ افتتاح هذه المدارس في كل مركز من مراكز الدعوة في المحافظات، وفي كل الفروع الكبيرة في القرى.

ويمكن القول هنا: إن دعوة الإخوان عنيت أكثر ما عنيت بالطلاب والعمال، بل إنها أقامت عملها في ميدان الدعوة والإصلاح العام على دعامتين كبيرتين هما **الطلاب والعمال** ـ وفي هذا تأكيد على الأبعاد الإصلاحية للدعوة كما قلنا قبل قليل ـ يقول الأستاذ السباعي: «لقد حملت الدعوة عبء توجيه العمال إلى الخير، وإفهامهم حقوقهم وواجباتهم، فأنشأت لهم المدارس.. وألقت عليهم المحاضرات، وشجعتهم على تأليف النقابات.. كما تبنت مطالبهم العادلة، ودافع عنها نواب الإخوان في المجلس النيابي، **وكان لهم فضل كبير في النص على حقوق العمال في الدستور السوري**».

ويضيف الأستاذ السباعي قائلاً: «وقد كانت مدارسنا قبل عهد الطغيان الذي حلَّ الجمعية وصادر مؤسساتها تضم ما يزيد على خمسة آلاف عامل يتعلم أكثرهم بالمجان، وتؤخذ من بعضهم في بعض المدارس رسوم بسيطة».

ويشير السباعي بعهد الطغيان إلى عهد أديب الشيشكلي الذي كان للأستاذ معه مواقف سوف نشير إلى بعضها فيما بعد.

٢ ـ وقد وجهت الدعوة كذلك **عنايتها إلى القرية، وعملت على رفع مستوى الفلاح فيها**، فأخذت تطالب بإنصاف الفلاح، ورفع مستواه وتحقيق العدالة الاجتماعية في محيطه، يقول الأستاذ السباعي أو يضيف: «ولنواب الدعوة وخطبائها وكتّابها مواقف مشهورة في الدفاع عن كرامة الفلاحين وحقوقهم. كما نظمت الدعوة رحلات أسبوعية إلى القرى يتوجه فيها أطباء الإخوان وعلماؤهم

= أحمد مظهر العظمة رحمه الله. وهي إحدى الجمعيات الدينية التجديدية على أصول السلف، وكانت تصدر مجلة باسم (التمدن الإسلامي)، وكان الأستاذ أحمد مظهر العظمة مثالاً للنزاهة والفضل، وأحد الدعاة الأعلام في بلاد الشام.

وطلابهم وفتيانهم في كل مركز إلى القرى المحيطة به، ويرشدون الفلاحين إلى الطرق الصحية التي تحفظ لهم صحتهم، وتدفع عنهم الأمراض، كما ترشدهم إلى ما يجب أن يكونوا عليه من خلق وتعاون ووئام»[١].

٣ ـ دعا الإخوان إلى «**إنصاف الطبقات المظلومة**، وإلى تنفيذ أحكام الإسلام في نظامه المالي، كما وقفوا في وجه **الإقطاعية المجرمة** التي تعيش على بؤس الجماهير وشقائها، وقد وفّقوا في ذلك إلى حد كبير، واستجابت الجماهير لدعوتهم»[٢].

وقد علل الأستاذ السباعي هذه الاستجابة بأن «اشتراكية الإخوان المسلمين تقوم على أساس الإسلام الذي تؤمن به الجماهير وتقدسه» بل لقد جعل الدعوة إلى «الاشتراكية الإسلامية» أحد إنجازات الإخوان في الحقل الاجتماعي، وتنبأ بأن هذه الاشتراكية «هي التي سوف تشقُّ طريقها في المستقبل إلى الخلود، وهي التي تحقق ما تصبو إليه الجماهير من حياة رغدة كريمة دون فتنٍ أو ثورات أو إراقة دماء»[٣].

وقد عبر السباعي بلفظ أو مصطلح «الاشتراكية» عن النظام المالي في الإسلام، وعن مبادئ التملك، ونظرة الإسلام إلى المال. وسوف نفرد لهذا الاجتهاد من قبل الشيخ رحمه الله فقرة خاصة فيما بعد، نظراً لما أثير حوله من تساؤلات، ووُجِّه إليه من انتقادات.

٤ ـ ونكتفي هنا بالإشارة إلى أن (**أعمال التعاون الخيري**) التي قامت بها مراكز الإخوان كانت منطلقة من روح العدالة الاجتماعية في الإسلام أو (من الروح الاشتراكية الإسلامية) بحسب عبارة الأستاذ السباعي. قال رحمه الله: «بهذه الروح تأسست لجان في كلِّ مركز لجمع **الإعانات** والتبرعات من أعضاء الجماعة وأصدقائهم، وتوزيعها على المحتاجين من المرضى والمنقطعين، ورفع مستوى المعيشة لبعض العائلات الفقيرة.. كما نظموا في بعض المراكز أياماً في السنة باسم (**يوم الفقير**) ألّفوا فيه لجاناً طافت على الأسواق والأحياء

---

(١) دروس في دعوة الإخوان المسلمين، ص١٥٦ ـ ١٥٧.
(٢) المصدر السابق نفسه.
(٣) المصدر السابق نفسه.

لجمع الإعانات للفقراء في بدء مواسم الشتاء، وكان لها أثر محمود في تأمين المواد اللازمة في فصل الشتاء للعائلات المحتاجة . . »[1] .

٥ ـ ولا يمكن أن نغفل ـ أخيراً ـ من أعمال الإخوان في حقل الإصلاح الاجتماعي : **الفتوّة**، **والأندية الرياضية**، فقد كان في أكثر مراكز المحافظات أندية رياضية قوية، تعنى بمختلف وسائل الرياضة وأنواعها .

أما الفتوة فقد كانت «العصب الحساس للدعوة» كما وصفها الأستاذ السباعي «لأنها المدرسة التي تخرج للأمة جيلاً قوياً مؤمناً تملؤه الرجولة، وتشيع في جنباته روح التضحية والطاقة والنظام». وقال : «وفي كل مركز من مراكز الإخوان في المحافظات وفي أكثر فروع الإخوان في القرى والأقضية : فرق للفتوة تتدرب على الأعمال الرياضية، وتقوم بمختلف الرحلات . ولها في كل عام معسكر عام يجتمع فيه فتيان الإخوان أياماً متتالية . . » .

ويتحدث بعض من شهد هذه المعسكرات عن مدى نجاحها في تنمية مشاعر الأخوة والالتزام، وعن جو الألفة والمحبة والحياة الروحية التي كان يعيشها الأخوة المشاركون. إلى جانب ما كانت تشهده هذه المعسكرات من أنشطة رياضية وثقافية متنوعة، حيث تلقى المحاضرات، وتقام التمثيليات ومسابقات الأدب والشعر. ولطالما أثار الحديث عن هذه المعسكرات شجون هؤلاء المتحدثين . . وصورةُ الشيخ المهيب عادت لترتسم في أذهانهم بعد عقود وعقود . . وليتذكروا معها أحاديثه المحبّبة ولهجته الآسرة، ومدى انفعالهم وتأثرهم بقراءته للقرآن وهو يؤمهم به في الصلاة، أو يراجعه مع بعضهم في وقت السحر أو في سائر الأوقات .

جـ ـ في ميدان الإصلاح السياسي:

تجلّت في هذا الميدان شخصية السباعي الثائر الذي أدرك خطورة الإصلاح السياسي في وقت مبكر، كما عهدناه في بلده حمص، وفي مصر بعد أن انتقل إليها للدراسة. ولا شك في أن مصر صقلت موهبته وطموحاته، وعمّقت الأبعاد الوطنية والعروبية والإسلامية في شخصيته، ووسعت ـ على وجه الخصوص ـ آفاقه واهتماماته السياسية .

---

(١) المصدر السابق، ص١٥٨ .

وبما أن القضية الوطنية في سورية كانت موضع اهتمام جمعيات شباب محمد وسائر الجمعيات الإسلامية؛ فإن انضواء الجميع تحت راية الإخوان المسلمين، وفي ظل قيادة السباعي، جعل مشاركتهم في هذه القضية متميزة! يقول السباعي: «**إن الإخوان ساهموا بقسطهم من النضال الوطني حين وقوع العدوان الفرنسي على سورية**»[1]. بُعيد نشأتهم أو تجمعهم المذكور «فقد وقفوا وقفة رائعة أثناء حوادثه في كل من دمشق وحمص وحماه وحلب وغيرها من المدن السورية» وهو العدوان الذي بدأ في ٢٩/ ٥/ ١٩٤٥م. «فكانت فتوتهم تحمل الطعام والسلاح إلى جنود الدرك، وتنقذ الجرحى من الدرك والمساجين، وتحملهم إلى مقرها تحت وابل الرصاص والقنابل. كما كانت مراكزهم مبعث حماس الجماهير في مقاومة العدوان الفرنسي، وكان أعضاؤهم في مقدمة المناضلين من أبناء الشعب، فاستشهد منهم من استشهد وجرح من جرح»[2].

ثم تابعوا نضالهم الوطني بعد جلاء الاستعمار عن سورية في **الدعوة إلى إقامة حكم صالح**، يزيل مساوئ الاستعمار «فوجهوا النصح إلى الحكومات الوطنية المتعاقبة، وقاوموا كل انحراف عن الخطة الوطنية المثلى في الحكم والإدارة والسياسة، ولم يجاملوا في ذلك رئيساً ولاحكومة ولا زعيماً ولا كبيراً».

ويقول الأستاذ السباعي: «إن المحافظة على النظام الجمهوري، وصيانته

---

(١) المصدر السابق. وانظر خلاصة عن هذا العدوان في كتاب: (يوم ميسلون)، للأستاذ ساطع الحصري، ص٤٢٩ ـ ٤٣١، وفي مجلة (الفتح) العدد (٨٢٣) جمادى الآخرة ١٣٦٤هـ، ص٣٥٩ـ٣٦١، العام السابع عشر.

(٢) دروس في دعوة الإخوان، ص١٥٩، وقد أوفد الإمام حسن البنا بعثة من الإخوان المسلمين إلى سورية، تضم نفراً من الدعاة والأطباء لإسعاف الجرحى ومواساة المنكوبين. كما دعا في مصر إلى إضراب عام شمل أنحاء القطر، وطالب فيه الحكومة بالتدخل، كما طلب أن تسمح الحكومة للإخوان بإرسال خمسة آلاف من المتطوعين لشد أزر النضال ضد القوات الفرنسية المعتدية، وتدخلت الحكومة المصرية، واحتجَّ رئيس الوزراء ـ وكان آنذاك مصطفى النحاس ـ ببرقيات شديدة اللهجة على العدوان الفرنسي، ولكنه رفض السماح لمتطوعي الإخوان بالسفر إلى سورية. انظر مقالة بعنوان (بعض الذكريات عن الإمام الشهيد حسن البنا) للكاتب الأستاذ عمر عودة الخطيب في مجلة حضارة الإسلام. عدد شوال ١٣٨٢هـ الموافق آذار (مارس)١٩٦٣م.

من الزوال ومن كل طغيان من أبرز ـ وأهم ـ النقاط التي تجلّى فيها النضال الوطني للإخوان، ولهذا قاوموا مشروع (سورية الكبرى) لأنه مشروع استعماري، يقضي على الروح الشعبية التي تتجلّى في الحكم الجمهوري.

بل إن الأستاذ السباعي تحدث عما هو أخطر من ذلك حين قال: «**إن الإخوان المسلمين لن يتساهلوا أبداً في محاربة كل حركة تقضي على الحكم الشعبي الجمهوري الدستوري في سورية**»[١]. وهذا ـ فيما نرى ـ موقف جدير بالاهتمام والملاحظة؛ لأنه لا يعني فقط أن الإخوان لا يؤمنون بسياسة الانقلابات والوصول إلى الحكم على ظهور الدبابات.. بل يعني أن الإخوان مستعدون للوقوف في وجه من يحاول ذلك، أو يحاول القضاء على الحياة الدستورية في البلاد.

ويعكس هذا الموقف مدى إيمان الأستاذ السباعي والإخوان بالحرية والديمقراطية والحياة النيابية، ومدى إدانتهم للطغيان، ورفضهم للعنف والانقلابات العسكرية[٢]، كما يعكس إيماناً عميقاً بأنهم يعبّرون عن أماني الأمّة، ويتحدثون بلسان الأكثرية.. أو أنهم يعتقدون أنهم قادرون على تحقيق ذلك على أقل تقدير.

وسوف نتحدث عن مواقف السباعي من الطغيان والاستبداد السياسي.. والأذى الذي ناله من حكم أديب الشيشكلي، عند الكلام على السباعي السياسي والبرلماني في فصل قادم.

نذكر بعد هذا النضال الوطني الذي قام به الإخوان وقادوه أيام العدوان الفرنسي، وفي ظل الحكم الوطني بعد ذلك، نذكر **تأييدهم للقضايا العربية والإسلامية**. وتأتي في مقدمة القضايا العربية: القضية الفلسطينية وقضية مصر. **أما القضية الفلسطينية**، فسنفرد لها فقرة خاصة، نتحدث فيها عن جهاد السباعي الذي لم ينقطع في سبيل هذه القضية، وبكل وسائل الجهاد المادّي والمعنوي،

---

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) انظر الفقرات التالية من كتاب: هكذا علمتني الحياة ـ القسم السياسي للأستاذ السباعي: ٦، ١٠، ١٢، ١٣، ١٧، ١٨، ١٩، ٢٠.. حول الطغيان والطغاة والانقلابات المذكورة، بغض النظر عن التسميات.

مكتفين هنا بقوله ـ الذي صدّقته الأرقام والوقائع والسجلات، التي لن تنسى في الدنيا وعند الله تعالى في الآخرة ـ قال رحمه الله: «نستطيع أن نؤكد بأن هيئة أو حزباً أو جماعة ما في بلادنا لم تساهم بنشاط عملي شعبي واسع في سبيل نصرة فلسطين وإنقاذها كما ساهم الإخوان المسلمون».

قلت: هذا على الرغم من أن الأحزاب والجماعات الأخرى تبنّت هذه القضية أو رفعت شعاراتها بشكل أو بآخر؛ ويذكر الدكتور سامي الجندي ـ في هذا السياق ـ أن حزب البعث بنى بريقه على هذه القضية، بغض النظر عما انتهت إليه عام ١٩٦٧. يقول الدكتور الجندي: «لقد بنى البعث الاشتراكي كل بريقه على القضية الفلسطينية وانتهى به المطاف إلى أفدح وأذل هزيمة في التاريخ العربي عبر العصور»[١].

أما **قضية مصر** فقد أيد الإخوان المسلمون ـ في سورية بالطبع ـ مطلبيها الرئيسين: الجلاء ووحدة وادي النيل «بوسائل مختلفة من التأييد كالبرقيات والمحاضرات والمقالات والمؤتمرات في الأندية والمساجد، والاجتماعات الشعبية في المدن والقرى، والاقتراحات في الندوة النيابية».

ولما وُقعت اتفاقية الجلاء عام ١٩٥٤م بين الإنكليز وحكومة الثورة[٢]، ورأى الإخوان أنها ليست أحسن حالاً من معاهدة ١٩٣٦م بين الإنكليز وحكومة الوفد ـ مع اختلاف الظروف ـ بل رأوا فيها «غلاً جديداً يوضع في عنق مصر والبلاد العربية»[٣] سارعوا إلى استنكارها، وتحذير حكومة مصر من أضرارها. وكانت

---

(١) كتاب (البعث) ص١٢، دار النهار للنشر، بيروت، ١٩٦٩.

(٢) تم توقيع هذه الاتفاقية ـ التي بلغت مع ملحقاتها ١١٠ صفحات! ـ بتاريخ ١٩/ ١٠/ ١٩٥٤. وكان التوقيع بالأحرف الأولى في أول أيلول (سبتمبر) ١٩٥٤.

(٣) بعد توقيع الاتفاقية بالأحرف الأولى (فار الإخوان فورة عنيفة، وضغطوا على الحكومة لتعدل عن الاتفاق) ولكنها لم تفعل! ثم قاموا بشن حملة عنيفة على رجال الثورة بعد توقيع الاتفاقية. ولخصوا اعتراضهم عليها في عدة نقاط، أبرزها: ١ ـ شرط نفاذ الاتفاقية بعد سبع سنوات يليها تشاور مع إنكلترة يربط مصر بها بنوع من التحالف أو الارتباط قد يمتد إلى ما بعد هذه السنوات. ٢ ـ تعطي المادة الرابعة إنكلترة حق العودة إلى القنال واحتلال القاعدة، وتشترط على مصر وضع جميع الموانئ والمطارات المصرية تحت تصرف القوات البريطانية لمجرد حدوث هجوم عسكري على مصر أو على دولة عربية أو على تركية. قال الإخوان: وفي هذا دخول بالأحلاف الغربية وقبول=

هذه المعاهـدة ـ استطراداً ـ أحد أسباب الخلاف الجوهرية بين الثورة والإخوان في مصر . . ولـم تجد حكومة الثورة ما تتهم به إخوان مصر ـ في هذه المرحلة ـ سـوى أنهم (وطنيون متطرفون) لأنهم رفضوا الاتفاقية المذكورة![1] . علماً بأن بعض الأوساط القومية اتهمت حكومة الثورة ـ أو رجال الانقلاب ـ بتقديم تنازلات للإنجليز في هذه المعاهدة .

قال الأستاذ السباعي : «لقد انتقد الإخوان المسلمون المحالفة المصرية ـ الإنجليزية لأنها ربطت مصر بتركية، واعتبرت الهجوم عليها مبرراً لعودة الجيوش البريطانية لاحتلال مصر! أليس هذا هو نص الحلف العراقي التركي؟» ثم تساءل قائلاً : «أوَلا يقيم جمال عبد الناصر الدنيا ويقعدها الآن ضد هذا الحلف؟ أوَلا يندد بكل ارتباط بالغرب؟ أولا يدعو إلى تحرير العرب من كل قيد؟ فعلى أي أساس يظل الإخوان المسلمون في السجون والمعتقلات، وجريمتهم التي استحقوا العقاب عليها أصبحت اليوم موضع فخار الحاكم واعتزازه؟ إن الرئيس جمال عبد الناصر لا معدى له إزاء هذه الحالة من أحد فرضين لا ثالث لهما : إما أنه وهو

= بجلاء مشروط. وهذا ما استندت إليه حكومة العراق حين أبرمت الاتفاق التركي ـ العراقي (حلف بغداد) واعتبرته تكملة للتعاون مع الغرب الذي بدأته حكومة مصر!
٣ ـ تعتبر المادة الثانية قناة السويس ممراً مائياً دولياً. وتؤكد احترام اتفاقية ١٨٨٨ التي تكفل حرية الملاحة في القناة، وهذا الوضع يفيد إسرائيل! . . . .
وأعلن الإخوان أنهم «يصرّون على أنّ اتفاقاً بين الحكومة وأية دولة أجنبية لا يجوز أن يتم دون أن يعرض على برلمان منتخب انتخاباً حراً نزيهاً يمثل إرادة الشعب المصري أصدق تمثيل، كما يجب رفع الرقابة على الصحافة حتى يقول كل إنسان رأيه في هذه الاتفاقية دون حدٍّ من إرادته وحريته» وأعربوا عن رأيهم بأن الحل الصحيح هو وقف المفاوضات، والمطالبة بجلاء غير مقيّد ولا مشروط، وإعداد الشعب وتربيته تربيـةً عسكرية، وبثّ روح الجهاد وتنظيمه لإجلاء الغاصبين.
كتاب الإخوان المسلمون للدكتور إسحاق موسى الحسيني، ص٢٤١ ـ ٢٤٢، ط٢، دار بيروت ١٩٥٥، وانظر فيه الهامش رقم ٤١٥ .

(١) لقد ذبح من أجلها ستة من قادة الإخوان، على حد تعبير الصاغ صلاح سالم، واعتقل أكثر من خمسين ألفاً. وكان هذا في الفترة الممتدة من حادثة ميدان المنشية بالإسكندرية ليلـة الأربعاء في ٢٦/ ١٠/ ١٩٥٤م حتى الإعدامات التي تمت في ٧ / ١٢/ ١٩٥٤ مروراً بإقالة محمد نجيب في ١٤/ ١١ واعتقال الهضيبي مرشد الإخوان في ٣٠/ ١١ ؛ راجع العدد (٢٤) من جريدة الشهاب بتاريخ ٢٣/ ١١/ ١٩٥٥ .

يشنق الإخوان المسلمين وينكل بهم كان يعتقد في سريرة نفسه أنهم على حق فيما يقولون في محاربة الأحلاف الأجنبية والارتباط بتركية، ومع ذلك فقد أراد أن يزيحهم من الطريق حتى يستأثر بالحكم دون العالمين!! وإما أنه كان يؤمن بخطئهم ولذلك شنقهم، ويكون ما يقول به اليوم ويدّعيه من كراهيته للأحلاف قول غير صادق، ولا يكشف عن حقيقة نواياه»[1].

ولم يكن تأييد الإخوان لنضال الشعب العربي المغربي ضد الاستعمار الفرنسي بأقل من تأييدهم لمصر. وربما كان هذا التأييد بحاجة أن يفرد بفصل مستقل، لأنه لا يقل عن جهود السباعي والإخوان في سبيل القضية الفلسطينية وبيان الخطر الصهيوني، بل إن الإخوان ربطوا في بعض نداءاتهم وبياناتهم بين القضية الجزائرية ـ من بين سائر **قضايا الجزائر ومراكش وتونس التي كانوا يتبنونها جميعاً** ـ ومستقبل الاستعلاء اليهودي على العرب والمسلمين، فقد تناول نص النداء الذي وجهه المكتب التنفيذي إلى الشعب ـ بناءً على مقررات الهيئة التشريعية التي اجتمعت بمدينة حلب في ٢ و٣ شعبان ١٣٧٥هـ الموافقين ١٥ و١٦ آذار (مارس) ١٩٥٦ ـ ست قضايا منها: الخطر الصهيوني، وقضية فلسطين، والجزائر. ومما جاء بشأن الجزائر ما يلي:

«إن الحكومات العربية والإسلامية تستطيع أن توقف المجزرة لو وقفت من فرنسة موقفاً صلباً لا مساومة فيه! وإن شعوبنا العربية والإسلامية تستطيع أن تحمل حكوماتها على المبادرة لنجدة الجزائريين في نضالهم الدامي، فليتّرك الشعب نحو نصرة إخوانه، ولتهتك الحكومات قناع التمدّن الفرنسي أمام العالم على قسوته وغلظته وجرائمه.

«ولنعلم أن معركة الجزائر ستقرر مصير ثلاثين مليوناً من أكرم أبناء أمتنا رجولة وإيماناً وفداءً. بل إن معركة الجزائر ستقرر مصير العالم العربي كله. فإذا

---

(١) من مقابلة صحفية مع السباعي في جريدة (الشهاب) تحت عنوان: (السباعي يتحدث عن مأساة الإخوان) والصفحة التي تضمنت هذه المقابلة هي التي قال فيها الأستاذ السباعي للمحرر: «وأنا من الناحية العملية والرسمية في إجازة غير محدودة المدة من أعمالي في الإخوان..» ومصوّرتها مختلطة عندي ببعض الصفحات الأخرى. ولم أستطع أن أتبيّن على وجه اليقين رقم العدد وتاريخه الذي انطوى على تلك الصفحة. ولعله العدد رقم ٣١ تاريخ ٢٦ ربيع الثاني (١٣٧٥هـ) و١١ كانون الأول ١٩٥٥.

قدر للاستعمار الفرنسي أن ينتصر ـ لا سمح الله ـ فسنرى كيف تستعلي اليهودية العالمية، وتستعدي علينا دول الاستعمار قاطبة»[1].

قلت: قد لا نكون بحاجة إلى البحث عن صور انتصار الاستعمار الفرنسي بعد رحيل عسكره ـ الواغلين! ـ وعن صور استعلاء (دول الاستعمار قاطبة على حد قول البيان.

بل أثار الإخوان المسلمون في مذكرة رفعوها إلى مجلس الجامعة العربية المنعقد في دمشق بتاريخ ٩ شعبان ١٣٧٠هـ الموافق ١٥/ ٥/ ١٩٥١م قضية الإمارات العربية على الخليج الفارسي ـ كما كان يدعى في ذلك الحين ـ وطالبوا الجامعة بوجوب العمل لتحريرها واستقلالها.

أما تأييدهم للقضايا الإسلامية، الذي جاء تأكيداً لروابط الإخاء بين البلاد العربية والأقطار الإسلامية، ومن منطلق «أن إحكام الصلات والتعاون مع هذه الأقطار قوة كبيرة للقومية العربية وللوطن العربي». على حد تعبير الأستاذ السباعي رحمه الله؛ فقد هبّ الإخوان لنصرة هذه الأقطار وتأييدها في قضاياها الاستقلالية والتحررية «وهكذا أيدوا أندونيسية في كفاحها مع هولندة بمؤتمر عام عقدوه في مركز الإخوان بدمشق، كما أيدوا باكستان في كشمير، وكان لهم يد في إرسال برقية المجلس النيابي السوري موقعة من خمسين نائباً من ألمع نواب المجلس ومختلف أديانه وأحزابه إلى مجلس الأمن بتأييد حق الباكستان في كشمير، وهو أول عمل من نوعه في المجالس النيابية في البلاد العربية، مما كان له أجمل الأثر في نفوس أبناء هذه الدولة الإسلامية الكبرى. وقد تجلى ذلك في تأييد الباكستان لسورية في نضالها ضد العدوان اليهودي تأييداً قوياً رائعاً أشاد به رئيس الوزراء في المجلس النيابي. وقد اشترك الإخوان المسلمون في المؤتمر العالمي الإسلامي الثاني في كراتشي، وكان لهم فضل كبير في صياغة قراراته الخطيرة، كما اشتركوا في قيام المؤتمر الإسلامي الشعبي في القدس..»[2].

* * *

---

(١) جريدة الشهاب، العدد ٤٦ في ١٢ شعبان ١٣٧٥هـ و٢٥ آذار (مارس) ١٩٥٦.

(٢) دروس في دعوة الإخوان، ص١٦١ ـ ١٦٢.

على هامش الارتباط بمصر

وبعد، فقد أوجزنا القول في هذا الجزء من أجزاء الكتاب ـ كما قلنا ـ لأننا هنا لا نؤرخ لدعوة الإخوان في سورية، وإذا كنّا قد سلّطنا الأضواء على مراحل نشأة الدعوة الدينية الإسلامية في بلاد الشام بأكثر مما فعلنا مع سائر الأحزاب؛ فلأن هذا وثيق الصلة ـ بطبيعة الحال ـ بحياة السباعي وجهوده في قيادة هذه الدعوة وتطويرها. بالإضافة إلى ربطها أخيراً بدعوة الإمام حسن البنا، كما أشرنا إليه وإلى أسبابه قبل قليل. وربما كان ـ أو بقي ـ بين هاتين الدعوتين أو هذين الجناحين بعض الفروق التي يمكن أن تكون موضع دراسة.

ولكننا لا نستغني في هذا السياق عن بعض النقاط المهمة التي يمكن أن ترد على هامش هذا الارتباط، وأعني النقاط الفكرية ـ بعيداً عن أوضاع الإدارة وأشكال التنظيم ـ وفي مقدمتها فكرة (الشمول) أو مفهوم الشمول ذاته الذي رجحنا أنه كان أحد الأسباب الحاسمة التي جعلت السباعي يربط الدعوة في بلاد الشام بجماعة الإخوان وليس بجمعية الشبان المسلمين. وفي هذه الحال يغدو الحديث عن الشمول حديثاً عن المفهوم الرئيس الجامع بين هاتين الدعوتين.. اللتين غدتا دعوة واحدة! الإمام حسن البنا هو مرشدها العام، والشيخ مصطفى السباعي فيها المراقب العام للإخوان المسلمين في سورية. وحتى رأينا (الوصايا العشر) للإمام البنّا ـ وبعضها وثيق الصلة بالحياة في مصر ـ تتصدر الكثير من بيوت الإخوان في سورية ومكاتبهم ومراكز عملهم. وبغضّ النظر ـ في هذا السياق ـ عن التأثير الثقافي والفكري لكتّاب الإخوان المصريين، مثل عبد القادر عودة ومحمد الغزالي وعبد العزيز كامل وسيد قطب، ومحمد قطب، وغيرهم؛ الذي ضارع تأثير السباعي أو فاقه لدى الكثيرين أو في أحوال كثيرة. والذي انضاف إليه في جميع الأحوال. ومن وجه آخر، فإن الحديث عن هذه النقاط يبدو مهماً في ضوء الأحكام الواحدة التي أضحت تطلق على فكر الإخوان وعملهم من قبل الكتّاب والباحثين، وحتى بات (سحب) أفكار الإمام البنا وأعماله على جميع فصائل الإخوان أو (فروعهم) في البلاد العربية أمراً مفروغاً منه.

١ ـ مفهوم الشمول وأبعاده:

جاءت دعوة البنا ـ مثل دعوة السباعي وقبلها ـ في أعقاب حركة الإصلاح التي قادها الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا، أو على قاعدتها كما يُقال. ولهذا فإن البنـا استأنف إصدار مجلـة (المنار) التي كان يصدرها الشيخ رشيد، وتابع تفسيره من حيث توقف رحمه الله. وقد يصعب عقد مفاضلة بين هؤلاء الأعلام الثلاثة، بل بينهم وبين سائر رموز النهضة كالشيخ طاهر الجزائري، أو الشيخ عبد الرحمن الكواكبي الذي أشرنا في مقدمة الكتاب إلى مدى تأثر السـباعي به، على الرغم من تعدد المناهج أو مناحي الإصلاح، لأن بعضها كـان يكمل الآخر على وجه العموم؛ وبخاصة الإصلاح السياسي ومقاومة الاستعمار الذي نادى به جمال الدين الأفغاني، والإصلاح التربوي واللغوي والثقافي الذي رفع لواءه الشيخ محمد عبده.

وهنا تأتي مزية (الشـمول) الذي طبع دعوة البنـا والسباعي: لأنها جاءت حصيلة نظرة موضوعية وثاقبة في هذه المناهج من جهة، وبما يوازي شمول الإسلام كما تنبّه له الإمام البنا؛ من جهة أخرى. وهذا ما تحدث عنه البنا عام ١٣٥٧هـ في المؤتمر الدوري الخامس للإخوان المسلمين، وفي كلمة له ألقاها في شهر المحرم من هذا العام (آذار/ مارس ١٩٣٨) في مؤتمر طلبة الإخوان. قال البنا أمام هؤلاء الطلاب: «إن الإسلام عقيدة وعبادة، ووطن وجنسية، وسماحة وقوة، وخلق ومادية، وثقافة وقانون»[١] كما تساءل بقوله: **«إذا كان الإسلام شيئاً غير السياسة وغير الاجتماع وغير الاقتصاد وغير الثقافة؛ فما هو إذن؟»**[٢].

أما الشمول في الإصلاح ومنهج العمل فقد تحدّث عنه أمام المؤتمر الخامس المذكور حين قال: «إن الإخوان المسلمين دعوة سلفية، وطريقة سنّية، وحقيقة صوفية، وهيئة سياسية، وجماعة رياضية، ورابطة علمية ثقافية، وشركة اقتصادية، وفكرة اجتماعية» وعلّل هذه الصفة الأخيرة بقوله: لأنهم يعنون بأدواء المجتمع الإسلامي، ويحاولون الوصول إلى طرق علاجها وشفاء الأمّة منها. ثم قال:

---

(١) كتاب: (حسـن البنـا: مبـادئ وأصول في مؤتمرات خاصة)، ص١٠٥، المؤسسة الإسلامية للطباعة والصحافة والنشر، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م.

(٢) المصدر السابق، ص١٠٤.

«وهكذا نرى أن شمول معنى الإسلام قد أكسب فكرتنا شمولاً لكل مناحي الإصلاح»[1]، وقد سبق الحديث عن هذا الشمول على لسان السباعي في الفقرة السابقة التي كانت بعنوان (الروح الدعوية والبعد السياسي) ونذكر منها الآن قوله إن الإخوان «يرون بحق أن الإسلام دين وسياسة، عبادة وقيادة، مصحف وسيف. نظام شامل يهيمن على جميع مرافق الحياة».

ونعتقد أن هذا الشمول أو المفهوم الشامل **للشأن الديني** لم يكن وحده هو الأمر الحاسم الذي لفت نظر السباعي إلى دعوة البنا.. بل ما أضيف إليه كذلك من شمول **الشأن الوطني** الذي كان السباعي يتابعه، بل كان من أبرز المشتغلين به والحاملين لواءه في مصر والشام، أو في مواجهة الاحتلال البريطاني والاستعمار الفرنسي. وكان هذا في الوقت نفسه أحد أسباب ازدياد شعبية حركة الإخوان، وشدة التصاقها بالجماهير، وهكذا التقت في إطار دعوة الإمام البنا آمال الرواد والمصلحين، وطموحات الزعماء وقادة الجلاء في المشرق العربي والمغرب العربي على حدٍّ سواء. يقول الدكتور إسحاق موسى الحسيني: **«إن الإخوان المسلمين كانوا الهيئة المصرية الوحيدة التي تُعنى جدياً بشؤون العرب والمسلمين في خارج مصر، وتشاركهم في بحث أحوالهم، وتنصرهم على خصومهم السياسيين...»**.

ويضيف: «ومما أعانها على النجاح في الخارج: بروز العنصر السياسي على العنصر الديني. فلو كانت حركة دينية محضة لكان أنصارها من طبقة معينة. **ولكن اتجاهها نحو السياسة التحررية، والانحياز إلى جانب الوطنيين في كفاحهم الأجنبي، ودون إثارة النعرات الدينية أو الطائفية، جذب إليها أنصاراً من جميع الطبقات، ومن ذلك طبقة الشباب المتعلمين ورجال السياسة...»**[2] لقد اهتمت صحافة الإخوان بتغطية كفاح الحركات الوطنية، والتنديد بفظائع الاحتلال الفرنسي والطلياني. وكانت حركتهم تمثّل أكبر دعم معنوي ومادي لحركات التحرر، وبخاصة في منطقة المغرب العربي الكبير. ونعتقد نحن - بهذه المناسبة - أن الثورة المصرية إنما ورثت هذا عن دعوة حسن البنا وعمل الإخوان.

ويذكر الأستاذ راشد الغنوشي أن مركز الإخوان في القاهرة كان ملاذاً

---

(١) المصدر السابق، ص٤٤ - ٤٥.

(٢) الدكتور إسحاق موسى الحسيني: الإخوان المسلمون، ص١٥٥.

لرجال الحركة الوطنية المغاربية حتى غير المتدينين منهم ـ مثل الحبيب بورقيبة ـ وأن حسن البنا كان له دور في إقناع الملك عبد العزيز آل سعود بطرح القضية التونسية في الجمعية العامة للأمم المتحدة، بناءً على طلب من زعماء الحزب الدستوري نقله إلى الأستاذ البنّا الشيخ محمد الشاذلي النيفر العضو البارز في الحزب، في الوقت الذي كان بورقيبة نفسه يقيم في القاهرة ضيفاً على الإخوان في بيت ملحق بمقرهم العام[١].

٢ ـ العروبة والقومية:

نعرض بعد ذلك لموقف البنا من العروبة والقومية، وتأكيده على عروبة مصر، وعلى مكانة العرب ومنزلتهم في الإسلام، استكمالاً لموقف السباعي والإخوان في سورية ـ وإن كنا سوف نزيد موقف السباعي شرحاً عند الحديث عنه كعالم ومؤلف ـ وبخاصة في ذلك الوقت الذي كادت عروبة مصر أن تكون محل نسيان أو موضع شك، من جهة، والذي اضطرب فيه معنى العروبة والقومية ومدى صلتهما بالإسلام خارج مصر ـ كما أشرنا إلى ذلك فيما سبق ـ من جهة أخرى.

ونبادر أولاً إلى القول: ليس في وسع أحد أن يقلل من شأن الأزهر ودوره التاريخي في حماية اللغة العربية والثقافة الإسلامية، ولكن الحديث هنا عن عروبة مصر سياسةً وتوجهاً قومياً ودائرة حضارية في تاريخها الحديث والمعاصر. لقد تقررت هذه العروبة من خلال الإسلام، وعلى يد الحزب الوطني والجمعيات الإسلامية العديدة، وبوجه خاص على يد الدعوة الإسلامية التي انطلق بها البنا بعد سقوط الخلافة.. حين أكدت هذه الدعوة على وصل مصر بالبلاد العربية والعالم الإسلامي[٢]. وحين استطاعت بآفاقها الممتدة على أرض الكنانة أن

---

(١) جريدة الشرق القطرية، تاريخ ٣/ ٣/ ١٩٩٩.

(٢) نقلنا قبل قليل ما ذكره الدكتور إسحاق موسى الحسيني. وقد أضاف: «أن من يراجع جريدة الإخوان اليومية ـ التي بدأ صدورها في ٥ أيار/ مايو ١٩٤٦ ـ يجد أنها خصصت قسماً كبيراً من أعمدتها للبلدان العربية» قال: «وكان محرروها يتصلون بالشخصيات البارزة من العرب والمسلمين الذين يزورون القاهرة أو يمرون بها، للتحدث إليهم في شؤون بلادهم. وكان نشر الأحاديث يثير اهتمام قرائهم في البلاد العربية. يضاف إلى ذلك أن كثيراً من كبار الزوار كان يزور المركز العام ويتحدث عن شؤون بلاده، فتنعقد بذلك الصلة بين مصر والخارج» كتاب الإخوان المسلمون، ص١٥٤ ـ ١٥٥.

تعفّي على شعار: (مصر أوروبية) الذي رفعه قادة حزب الأحرار الدستوريين، على وجه الخصوص، وعلى شعار (الأمة المصرية) و(مصر للمصريين) بمفهومه الإقليمي، وليس بدلالته الاستقلالية عن الأجانب من الأوروبيين والمستعمرين.

وحتى إذا أخذنا بعين الاعتبار الدور الذي قام به أمثال عزيز المصري وعبد الرحمن عزام وصالح حرب في هذا الباب ـ أياً كان حجم هذا الدور وأثره ـ فإنه داخل في هذا الإطار؛ لأن عروبة هؤلاء الروّاد كانت جزءاً من الولاء للخلافة العثمانية الإسلامية، أو تعبيراً واعياً عن انتمائهم لدائرة الحضارة الإسلامية، ودفاعهم عن الإسلام. ومن هنا جاء تطوع بعضهم للجهاد ضد الاحتلال الإيطالي لليبية.

وعلى أية حال، فإن حسن البنا كان أكثر حسماً ووعياً لبعد مصر العروبي من جميع الدعوات والسياسات التي شهدها وادي النيل؛ لأن دعوته جاءت **أولاً** بُعيد إلغاء الخلافة العثمانية، فلم يعد ممكناً ولا صحيحاً القول إن الحديث عن عروبة مصر جاء هذه المرة كذلك على قاعدة إسلامية الخلافة، أو على أساس الولاء للدولة العثمانية. كما جاءت **ثانياً** بعد غياب البعد الإسلامي عن الحركة الوطنية في مصر، والذي كان يصلها بالعرب والعروبة بوجه من أبرز الوجوه، ومعلوم أن هذا البعد الإسلامي الذي انطلق منه وأكد عليه أحمد عرابي ومصطفى كامل طغى عليه.. بل ورثه وحل محلّه البعد الوطني المصري أو المناخ المصري الذي أشرنا إليه، والذي حمل لواءه وقاده (زعيم الأمة) ـ كما صار يُدعى ـ سعد زغلول وحزب الوفد. وغني عن البيان أن هذا المناخ الوطني كان هو السائد منذ عقد من الزمان (في أعقاب ثورة ١٩١٩) حين انطلق الإمام حسن البنا في دعوته الإسلامية عام ١٩٢٩، وقد أشرنا فيما سبق إلى شكوى السباعي من هذا المناخ، وبخاصة فيما يتعلق بموقف المصريين من القضية الفلسطينية ومعارفهم عنها وعن أوضاع البلاد العربية.

وأشير بهذه المناسبة إلى عدم اعتداد سعد زغلول بالعروبة وعدم تأييده للوحدة العربية، والذي يقال إنه صرّح به في بعض المناسبات، أو رداً على بعض الأسئلة! على الرغم من (التأويل) الذي سمعته من أستاذنا الشيخ محمد أبو زهرة لكلام سعد[1].

---

(١) قال أستاذنا الشيخ محمد أبو زهرة ـ وكان شديد الإعجاب بسعد زغلول ـ: إن سعداً حين=

يقول الأستاذ البنّا: «ثم إن هذا الإسلام الحنيف نشأ عربياً، ووصل إلى

= وصف العرب بأنهم (أصفار) وإن (جمع) أقطارهم في كيان واحد لا يفيد أو لا يجعلهم (رقماً) من الأرقام!.. إنما قصد به وجوب تحررهم أولاً من قبضة الاستعمار، ولم يقصد به التهوين من شأن العرب والوحدة العربية أو التنكر لعروبة مصر.

ونضيف هنا أن (المناخ الوطني) الذي أشرنا إليه لم يكن بعيداً عن (العلمانية) بل كان يستمدّ منها ويشيع قيمها! لقد كان سعد زغلول وزيراً للمعارف العمومية حين انتقد بشكل حادّالخطبة التي ألقاها أحمد زكي في حفل افتتاح الجامعة المصرية (في نهاية كانون الأول/ ديسمبر ١٩٠٨) لأنه تحدث فيها عن الإسلام! قال سعد: «كانت أثقل الكلمات على السمع وأبعدها عن الموضوع، وأفرغها من حسن الذوق؛ لأنه تكلم فيها عن الإسلام ومجّده بأمور متكلفة، ليس من اللياقة إلقاؤها في افتتاح جامعة لا دين لها إلا العلم»!!

وسياق الإطراء والثناء الذي أورد فيه الأستاذ جابر عصفور هذا النقد أو هذا القول العجيب للوزير المسؤول عن التربية والتعليم في مصر!! يدعو إلى الإشفاق من عدم وضوح الرؤية الذي ما يزال (يتمتع) به الأستاذ عصفور وسائر (المتنوّرين)!! بعد أكثر من تسعين عاماً مرت على افتتاح الجامعة المصرية! التي لم يكن لها حظ من هذه الصفة سوى أنها أقيمت على أرض مصرية، كما يعلم المطّلعون على تاريخ الجامعة.

وقال توفيق الحكيم: «كان المفهوم عند إنشاء الجامعة المصرية أن يقام في مصر هيكل للفكر الحر يعنى فيه بشؤون العلم والفكر مطلقة من كل قيد. فإذا كانت قبة الأزهر تُظلُّ تحتها القلب الحارّ العامر بالإيمان، فإن قبة الجامعة كان يجب أن تُظلَّ تحتها العقل الحرّ مجرَّداً عن كل اعتبار». (جريدة المصري: العدد ١٥٥ تاريخ ٣ المحرم ١٣٥٦هـ - ١٥/ ٣/ ١٩٣٧م).

وقد شكا حسن البنا في مذكراته من أن هذه الجامعة اتخذت منحىً علمانياً واضحاً. كما شكا - بعد أن انتقل من الإسماعيلية إلى القاهرة - من «علو شأن التيار والسلوك المتحرر في المجتمع وبين طبقة المثقفين» ومن الصحف والمجلات والمنظمات والأحزاب والصالونات التي كانت كلها «تروّج للإلحاد والإباحية» بحسب عبارته.

هذا هو الوضع السياسي والثقافي الذي نهض البنا فيه بمهمة الإصلاح، أو بعمليتيّ الهدم والبناء رحمه الله.

راجع مقالة الدكتور جابر عصفور في جريدة (الحياة) العدد الصادر بتاريخ ١٤/ ٢/ ١٩٩٩؛ وانظر بحثاً بعنوان (جامعة القاهرة والمستشرقون) بقلم رونالد مالكولم رايد، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم في دورية (الثقافة العالمية) العدد ٣٨، جمادى الأولى ١٤٠٨هـ - كانون الثاني (يناير) ١٩٨٨، الكويت.

الأمم عن طريق العرب، وجاء كتابه الكريم بلسانٍ عربي مبين، وتوحدت الأمم باسمه على هذا اللسان يوم كان المسلمون مسلمين. . وقد جاء في الأثر: (إذا ذلّ العرب ذلّ الإسلام). **وقد تحقق هذا المعنى حين دال سلطان العرب السياسي، وانتقل الأمر من أيديهم إلى غيرهم من الأعاجم والديلم ومن إليهم، فالعرب هم عصبة الإسلام وحرّاسه**».

ويضيف قائلاً أو داعياً لقيام الوحدة العربية: «ومن هنا كانت وحدة العرب أمراً لا بد منه لإعادة مجد الإسلام وإقامة دولته وإعزاز سلطانه. ومن هنا وجب على كل مسلم أن يعمل لإحياء الوحدة العربية وتأييدها ومناصرتها».

لقد واجه الإمام البنا جميع دعوات التقوقع المصرية والفرعونية، ودعوات التأورب والتغريب بترياق العروبة والإسلام، أو بالدعوة إلى الوحدة العربية تمهيداً لإحياء مجد الإسلام وإقامة دولته؛ علماً بأن مصر لم تشهد القومية الطورانية وسياسة التتريك، أي محاولة صبغ شعوب الإمبراطورية العثمانية بالصبغة التركية، على نحو ما حدث في بلاد الشام على أيدي الاتحاديين الذين أزاحوا السلطان عبد الحميد الثاني عن الحكم في انقلابهم العسكري عام ١٩٠٩م حتى يقال إن البنا ردّ على هذه السياسة بالعروبة والوحدة العربية.

كما لم تعرف مصر الأقليات الدينية التي كانت ترتبط بالدول الأجنبية (بريطانية وفرنسة والروسية) بحق الامتيازات، والتي وجدت في الدعوة إلى العروبة والقومية طريقها إلى التخلص من الرابطة العثمانية، قبل سياسة التتريك وبعدها على حد سواء، وفي الوقت الذي كان بعض رجالاتها يمدّون ببصرهم إلى أبعد من ذلك!

ومن هنا برئت دعوة البنا إلى العروبة والوحدة العربية، وإلى إعادة سلطان العرب السياسي. . من المعنى العرقي وسائر معاني التعصب التي وقع فيها دعاة الفكر القومي في بلاد الشام، كما أشرنا إلى بعضها في مواضع سابقة. قال البنّا في سياق بيانه المذكور الذي ألقاه في المؤتمر الخامس للإخوان المسلمين عام ١٣٥٧هـ (١٩٣٩): «وأحبّ أن أنبّه إلى أن الإخوان المسلمين يعتبرون العروبة كما عرّفها النبي ﷺ، فيما يرويه ابن كثير عن معاذ بن جبل رضي الله عنه: (ألا إن العربية اللسان، ألا إن العربية اللسان)».

إنها عروبة ثقافية، أو ذات بعد ثقافي وحضاري، تنطلق من اللغة واللسان،

ولا تنتهي عند حدود العرق والجنس! بل تتجاوز الأعراق والأجناس إلى دائرة الثقافة الإسلامية وحضارة الإسلام.

وهكذا التقى البنّا والسباعي، واتّحدت النظرة قبل أن تتحد الصفوف. . على الرغم من أن السباعي قاوم بنحو هذا الفهم (قوميّةَ الجاهلية وقوميةَ العدوان) بحسب عبارته، أو قاوم العودة إلى الجاهلية والدعوة إلى النازية والفاشية! في حين قاوم البنّا: التأورب والتغرب، والنزعة الإقليمية والفرعونية.

٣ ـ مستقبل الثقافة في نظر حسن البنا:

ويفرض علينا شعار (مصر أوروبية) الذي رفعه حزب الأحرار الدستوريين ـ والمنحى العلماني والمناخ المروّج للإلحاد والإباحية الذي أشرنا إليه ـ أن نقف وقفة عابرة أمام الجذور (الثقافية) لهذا الشعار، والمتمثّلة فيما كتبه طه حسين في كتابه (مستقبل الثقافة في مصر) علماً بأن (عميد الأدب) كان من أبرز رجالات الحزب المذكور، بالإضافة إلى أحمد لطفي السيد ـ الذي لُقِّب بأستاذ الجيل!! ـ وعبد العزيز فهمي.

لقد حدد طه حسين مستقبل الثقافة في مصر بأنه (متوسطي) نسبة إلى حوض البحر الأبيض المتوسط، أو (أوروبي) نظراً لموقع أوروبة المتقدم في هذا الحوض. وهكذا ترسم معالم المستقبل فناءً في أوروبة أو التطلع إليها كقبلة حضارية، بعد أن تحل الدائرة المتوسطية محل دائرة العروبة، أو دائرة الحضارة العربية الإسلامية. قال طه حسين في كتابه المذكور: «إن علينا أن نسير سيرة الأوروبيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أنداداً، ولنكون لهم شركاء في الحضارة، خيرها وشرها، حلوها ومرّها. . »[1].

---

(١) مستقبل الثقافة في مصر، ص٤٥، قال طه حسين: «لكن السبيل إلى ذلك ليست في الكلام يرسل إرسالاً، ولا في المظاهر الكاذبة والأوضاع الملفقة. وإنما هي واضحة بيّنة مستقيمة ليس فيها عوج ولا التواء، وهي واحدة فذّة ليس لها تعدد، وهي أن نسير سيرة الأوروبيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أنداداً، ولنكون لهم شركاء في الحضارة: خيرها وشرّها، حلوها ومرّها، وما يُحب منها وما يُكرَه، وما يُحمد منها وما يُعاب. ومن زعم لنا غير ذلك فهو خادع أو مخدوع!».

وانظر «استجواباً نيابياً مطولاً بشأن تعيين الدكتور طه حسين بك مراقباً للثقافة العامة» منشوراً بمجلة (الفتح) الصفحات ٤ ـ ١٢، العدد (٦٩٦) من العام الرابع عشر ٢٨ المحرم=

أما المقدمات والأسباب التي توسل بها طه حسين للوصول إلى هذه النتيجة، فنشير منها فقط إلى قوله: إنه ليس ثمة فوارق أساسية بين ثقافات البحر المتوسط، سواء أكانت تقع شرقيّه أم غربيّه. فكل هذه الثقافات تتكون من مقومات أساسية هي: العقلانية اليونانية والقانون الروماني والدين الوحداني! وقد غفل طه حسين أو تغافل عن الفوارق بين الثقافة العربية الإسلامية والثقافة الأوروبية (العلمانية) ذات الجذور المسيحية/ اليهودية! وعن خصائص العقلانية الصلبة التي أسسها القرآن والتي تجعل مساواتها مع العقلانية اليونانية، أو جمعها معها.. ضرباً من الإيهام! وقل مثل ذلك في الشريعة الإسلامية التي أقامت قانونها الخاص الذي لا يلتقي روحاً ولا نصاً مع القانون الروماني!!

وعلى أية حال، فإننا نتحدث هنا عن تصدّي الإمام البنا لهذا المستقبل الذي رسمه طه حسين للثقافة في مصر! كتبت مجلة (الفتح) تحت عنوان (مستقبل الثقافة في مصر) تقول: «حفلت قاعة ابن خلدون بدار جمعية الشبان المسلمين مساء السبت الماضي - ١٦ المحرم ١٣٥٩هـ/ ٢٤/ ٢/ ١٩٤٠ - بجمهور كبير من شباب الجامعة الأزهرية وجامعة فؤاد الأول (الجامعة المصرية سابقاً، وجامعة القاهرة فيما بعد) لاستماع المحاضرة التي ألقاها الأستاذ حسن البنا مرشد الإخوان المسلمين في موضوع (الثقافة المصرية، والصبغة الإسلامية التي يجب أن تصطبغ بها) وقد استهلّ محاضرته هذه بالإشارة إلى عناصر النهضة الحديثة التي تنتظم مصر - آنذاك - في سياستها واجتماعياتها وثقافتها. ثم قال: إن النهوض الثقافي أهم هذه العناصر جميعاً، فهو الذي يلوّنها بألوانه، ويؤثر فيها تأثيره الواضح إلى الغاية التي ينهض بها.

وتناول بالحديث بعد ذلك: المظاهر الثقافية السائدة.. وفصّل القول في اختلاطها وتباين أغراضها وتعارض القوى المحركة لها.. وأثر ذلك كله في تفكك النشء وفي ضعف قوى الشباب، وفي شعور طبقات المتعلمين المتباينة بغموض الهدف الذي ينساقون إليه! حتى كأنهم جميعاً - على اختلاف أعمارهم - يتحركون في حلبة الثقافة حركة اللاعبين (لعبة الاستغماء): بصيرتهم مغلقة،

= ١٣٥٩هـ/ (٧/ ٣/ ١٩٤٠). وجاء في المجلة (ص١٢) أن الأستاذ عباس محمود العقاد «دافع عن الدكتور طه حسَين بك مبيناً ما هو عليه من علم وكفاءة وثقافة بأكثر مما لو تولى الدكتور الدفاع عن نفسه»!.

وآذانهم نهب الأصداء، وأذرعتهم ممتدة إلى الهواء لا ينالون شيئاً[1]!

وعرض بعد ذلك لنوعي الثقافة الواجبة رعايتهما في كل بلد متحضّر، وهما الثقافة الشعبية العامة، والثقافة المدرسية ذات السياسة المحددة والغرض الواضح. ثم ركّز على الطابع الإسلامي المميز لثقافة مصر، وقد عوّل في ذلك على التاريخ، وعلى ما أسماه **(العقلية المصرية من حيث المزاج والتصور)**.. ورسم بذلك صورة لمستقبل هذه الثقافة على نحو مغاير لما رسمه الدكتور طه حسين. قال الأستاذ البنا رحمه الله: «**إن تاريخ كل أمة يكسبها آخر الأمر مزاجاً خاصاً لا فكاك لها منه.** وقد ظلّت مصر مدة أربعة عشر قرناً إسلامية التاريخ والسياسة والمجتمع والثقافة، إلى أن جاءت نظم التربية الحديثة فأرادت أن تنزع عنها هذا اللون المميز، لتميل بمزاجها إلى الشيوع في جميع الثقافات الأخرى».

قال: «ولما كانت التربية الإسلامية في ضوء المنطق وضوء العلم الحديث، تشتمل في أحكامها ومنابعها الثقافية والاجتماعية على جميع عناصر التربية الكاملة؛ أصبح لزاماً أن نخلص من هذا الخلط في سياستنا التعليمية، وأن نشرع في اتخاذ سياسة جديدة أساسها هذا المزاج الإسلامي، ودعامتها هذه الروح الإسلامية». وقد أفاض في شرح قابلية هذا المزاج، الفريدة في نوعها، لكل تطور واحتفالها بالعلم وتقديسه. ثم تحدث عن العقلية المصرية، فأفاض في التدليل على **(طابعها الإسلامي من حيث المزاج والتصور، لا فرق في ذلك بين المتديّنين من المصريين وغير المتدينين)**[2].

قلت: وهذه الإشارة الأخيرة جديرة بالتأمل؛ لأنها تدل على مدى الدقة في ملاحظة البنا للظواهر الاجتماعية، ومدى العمق في فهمها وتحليلها، بل مدى إدراك عمقها هي ورسوخها في وجدان الأمم والشعوب، بغضّ النظر عن مناقضتها وحجم الخروج عليها في بعض المراحل، أو من قبل بعض الأفراد!

وأخيراً: ختم الأستاذ البنا محاضرته بقوله: «إن مصر بتاريخها الإسلامي الباهر تدحض كل زعم بتأثرها بغير هذه العقلية. ولعل تاريخها الحديث ونهضتها

---

(١) مجلة (الفتح) العام الرابع عشر - العدد ٦٩٥، تاريخ ٢١ المحرم ١٣٥٩هـ (١/٣/١٩٤٠).

(٢) المصدر السابق، ص٩.

الحاضرة. . التي قامت على دعامة من فكرها الإسلامي وثقافتها الإسلامية، خير دليل لمن يريدون الميل بها عن الينبوع الذي استمدّت منه مئات السنين مادة قوتها، وتماسكها، وإشراقها الخاص بين دول الشرق والغرب».

مصر إذن ليست أوروبية، ولكنها عربية. وثقافتها ليست متوسطية، ولكن إسلامية. . ولقد دافع البنا عن هذا الانتماء العربي والهوية الإسلامية. وانطلق في ذلك من **(التاريخ)** وعوّل عليه، فحكم له التاريخ القريب والبعيد. أما **(الجغرافية)** التي عوّل عليها الدكتور طه حسين فقد أثبتت ربما للمرة المئة أن على شاطئ المتوسط حضارتين وثقافتين، لا حضارة واحدة، وثقافة واحدة!

حدّثني زميل في مجمع اللغة العربية ـ بالقاهرة ـ كان يقرأ للدكتور طه في بيته، أنه أخبره مرة عن محاضرة الأستاذ البنا هذه، وقال إنه حضرها في غرفة مجاورة ولم يجلس مع الجمهور في القاعة، وأنه بعد انتهاء المحاضرة ـ التي لم يذكر فيها البنا اسم طه حسين ولا مرة واحدة ـ سلّم على الأستاذ البنا وشكره، قائلاً إن ما سمعه منه في تلك الأمسية. يعد أهم ـ وأعفّ ـ نقد علمي وجّه لكتابه (مستقبل الثقافة في مصر) وكان البنّا لا يعلم بوجود طه حسين. رحم الله (عميد) الأدب. . وإمام الدعاة.

وقد يتسع المجال لعبرة نوردها في هذا السياق، وهي أن الدكتور طه حسين الذي كان يتمتع بذكاء حادّ جمع على نحو عميق بين ثقافتين، وكان هذا الجمع جديراً بأن يثير عنده فكرة الأخذ والعطاء، وفكرة التبادل والتكامل، لا فكرة العطاء أو اليد العليا من جانب، والتلقي أو اليد السفلى من جانب!! ويبدو لنا ـ على كل حال ـ أن طه حسين بقي طيلة حياته تصطرع في داخله شخصيتان ـ من خلال الجمع المشار إليه ـ شخصية طه حسين المصري المسلم الأزهري، وطه حسين المتأورب ذي الثقافة اللاتينية و(البيت) الفرنسي. وأرجِّح أن هذا الصراع حسم في نهاية المطاف لصالح طه حسين المصري العربي المسلم، لأسباب ومواقف كثيرة لا يتسع لها المقام.

٤ ـ الأحزاب والحياة الحزبية:

ونقف أخيراً على أمرٍ تبدو فيه المفارقة شديدة ـ للوهلة الأولى ـ بين السباعي والبنا. وهو موقف الإمام البنا من الأحزاب والحياة الحزبية، وبخاصة أن هذا الموقف ـ بهذا المفهوم السلبي ـ سُحب، بل مايزال يجري سحبه، لا على

الإخـوان في سـورية فحسـب، بل على جميع الإسلاميين أو العاملين في حقل الدعوة الإسلامية.

لا نسـتغني أولاً عن الإشـارة إلى أن الإمام حسـن البنـا يقف على رأس المجددين للإسلام في القرن الرابع عشر الهجري أو القرن العشرين الميلادي. ولا نعتقد أن هذا موضع خلاف بين المؤرخين والباحثين الذي يتّصفون بالحيدة والموضوعيـة. ونعتقد نحن كذلـك أن الاتجاه الذي سـار فيه التـاريخ العربي الإسلامي بعد سقوط الخلافة، ما كان له أن يكون على هذا النحو لولا ظهور هذا الداعية الشاب الذي لم يكن قد تجاوز الثالثة والأربعين يوم قتل!

بل إننا نعتقد أن (البنّا) الذي أجاد البناء في فترة قياسية هو المؤسس الأول لمستقبل الإسلام الواعد في القرن الحادي والعشرين. وأن الأخطاء التي وقع فيها، أو السلبيات التي صاحبت دعوته لا يصعب تفسيرها من خلال طبيعة العصر الذي ظهر فيه، أو طبيعة المرحلة التي عاشها والظروف السياسية والاجتماعية والحالة الثقافية التي شهدها.

ففي ظل الاحتلال البريطاني الجاثم على صدر مصر ـ بكل ممارساته ـ وبُعيد سقوط الخلافة على يد (أتاتورك) ـ رجل أوروبة في العالم الإسلامي ـ وتمزيق العرب والمسلمين إلى دويلات.. كان هاجس البنا: الوحدة والوئام والتآلف ـ وليس الفرقة والاختلاف والتناحر ـ أولاً في نطاق الدولة الواحدة أو بدءاً من الإقليم الواحد! ولم ير البنا في الأحزاب التي كانت قائمة في مصر في ذاك الوقت العصيب سوى أحزاب تدور في فلك القصر.. الذي لا يخرج بدوره عن السياسة البريطانية أو السياسة الاستعمارية! وتكفي الإشارة إلى قرار حل جماعة الإمام البنّا نفسه، الذي قامت حكومة النقراشي (بتنفيذه) استجابة للقرار الذي اتخذه سفراء الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانية وفرنسة في مصر في اجتماع لهم بمنطقة فايد بتاريخ ١٠ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٤٨، وتم تنفيذه بالأمر العسكري رقم ٦٣ تاريخ ٨/ ١٢/ ١٩٤٨ وكتائب الإخوان تخوض غمار المعارك على أرض فلسطين[1]، فضلاً عن اغتيال البنّا نفسه في ١٢ شباط (فبراير) ١٩٤٩

(١) انظر مقالـة للكاتب رفعت سـيد أحمد في جريـدة (الحياة) العدد (١٢٧٠٥) تـاريخ ١٢/ ١٢/ ١٩٩٧. وكتاب الإخوان المسلمون للدكتور إسـحاق موسـى الحسـيني، ص٢٢٥ الذي أضاف قائلاً: «على أن الإخوان استمروا على القتال في شهر ديسمبر مع صدور قرار حل جمعيتهم، واستعان بهم الجيش في معارك النقب».

الذي توّج به القصرُ والحكومةِ هذا الحلَّ. الأمر الذي يوحي لنا أو يفرض علينـا ـ بهذه المناسـبة ـ أن ننظر في الجذور الأساسـية أو البعيدة للإرهـاب والتطرف[1].

وقد قال البنا عن رجال الأحزاب وزعمائها: إن المستعمر يفرّقهم بعضهم عن بعض، ويجمعهم عليه؛ فلا يقصدون إلا داره، ولا يجتمعون إلا زوّاره!![2] وقال كذلك: إن الأوضاع الفاسدة للأحزاب ليست مجهولة؛ ففي خطابه أمام المؤتمر الخامس الذي أشرنا إليه، والذي استعرض فيه بشمولية وتركيز (خصائص الإخوان وخصائص دعوتهم، ووسائلهم، وخطوات منهاجهم، وموقفهم من الهيئات المختلفة) ـ وذلك بمناسبة مرور عشرة أعوام على انطلاقة الدعوة (١٣٤٧ ـ ١٣٥٧هـ) ـ قال رحمه الله:

«والإخوان المسلمون يعتقدون أن الأحزاب المصرية جميعاً قد وجدت في ظروف خاصة، ولدوافع أكثرها شخصي لا مصلحي. وشرح ذلك تعلمونه حضراتكم. ويعتقدون كذلك أن هذه الأحزاب لم تحدد برامجها ومناهجها حتى

---

(١) انظر خلاصـة وافية عن (الجهاز الخاص) الذي أسّسـه حسـن البنا ـ والذي قام ببعض (الأعمال الإرهابية) في مقالة بعنوان: (مسار الجهاز الإخواني الخاص بعد خمسين عاماً على حل الجماعة في مصر) للكاتب الأستاذ محمد جمال باروت. وقد أشـار فيه إلى (الأجهزة الإرهابية) التي عرفتها الأحزاب المصرية الأخرى وبعض المنظمات، وحاول تفسير العنف الذي شهدته مصر في ذلك الحين، وبغض النظر عن مدى خروج جهاز الإخـوان عن سيطرة البنا في بعض المراحل، وصلته بجمال عبد الناصر، أو صلـة عبد الناصر به! قال الأستاذ باروت: «وفي هذا السياق نستطيع فهم أول عملية للجهاز الإخواني الخاص، وتمثلت باغتيال رئيس الحكومة أحمد ماهر باشا (٢٤ فبراير ١٩٤٥) وذلك لدوره المباشر في تزوير الانتخابات البرلمانية وإسقاط مرشحي الإخوان، وهي المرة الثانية التي يمنع فيها الإخوان من حق الوصول إلى البرلمان، وإلى تفجير (الجهاز الخاص) لمطابع شـركة الإعلانات الشـرقية اليهوديـة في ١٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٨» جريدة الحياة، العدد ١٣٠٥٨، تاريخ ٤/ ١٢/ ١٩٩٨.

وأشار الأستاذ باروت في مقالة أخرى إلى الانتخابات المذكورة، حيث وصفها بأنها «أكثر الانتخابات زيفاً في التاريخ المصري» وتحدث عن «دورها المهم» في بلورة الشكل «الراديكالي للجماعة واستكماله» انظر مقالة له عن حسن البنا بعد خمسين عاماً علـى اغتيالـه، جـريـدة الحيـاة، العـدد ١٣١٤٧، تـاريـخ ١٨ ذي القعـدة ١٤١٩هـ و٦/ ٣/ ١٩٩٩م.

(٢) الشيخ يوسف القرضاوي، فتاوى معاصرة: ٢/ ٦٦٢، الطبعة الثانية، ١٩٩٣، دار الوفاء، مصر

الآن! فكل منهم سيدّعي أنه يعمل لمصلحة الأمة في كل نواحي الإصلاح، ولكن ما تفاصيل هذه الأعمال؟ وما وسائل تحقيقها؟ وما الذي أعد من تلك الوسائل؟ وما العقبات التي ينتظر أن تقف في سبيل التنفيذ؟ وما أعد لتذليلها؟ كل ذلك لا جواب له عند رؤساء الأحزاب وإدارات الأحزاب. فهم قد اتفقوا في هذا الفراغ، كما اتفقوا في أمر آخر هو التهالك على الحكم، وتسخير كل دعاية حزبية، وكل وسيلة شريفة وغير شريفة في سبيل الوصول إليه، وتجريح كل من يحول من الخصوم الحزبيين دون الوصول إليه. . . »[1].

ويضيف البنا قائلاً: «إن هذه الحزبية قد أفسدت على الناس كل مرافق حياتهم، وعطلت مصالحهم، وأتلفت أخلاقهم، ومزّقت روابطهم، وكان لها في حياتهم العامة أسوأ الأثر»[2].

كما أكد في كلمة أخرى ألقاها في العام نفسه (١٣٥٧هـ ـ ١٩٣٨م) أمام طلبة الإخوان على أن (المهمة والحوادث التي كوّنت هذه الأحزاب قد انتهت) قال: «ويجب أن ينتهي هذا النظام بانتهائها»[3]. وبعد أن شرح المهمة التي تكون من أجلها كل من حزب الوفد، وحزب الأحرار الدستوريين، وحزب الشعب، وحزب الاتحاد. . وكيف أنها انتهت، عقب بقوله: «لقد انتهت هذه الظروف جميعاً، وتجددت ظروف أخرى تستدعي مناهج وأعمالاً، **فلا معنى أبداً لبقاء هذه الأحزاب**»[4].

يتضح من هذه الصورة التي رسمها البنا للأحزاب، أو من هذا السياق الذي تحدث فيه عنها أن الأمر لا علاقة له بقضية احترام الرأي الآخر، أو بمدى

---

(١) كتاب (حسن البنا: مبادئ وأصول) مرجع سابق، ص٦٨.

(٢) المصدر السابق نفسه. وفي تعقيب للأستاذ أبي الحسن الندوي على زيارته لمصر عام ١٩٥١ عبّر عن إعجابه بالكثير من مظاهر الحياة فيها، ثم اعتذر إلى قلبه (الذي أحبّ مصر وأهلها) بين يدي ذكر بعض سلبيات هذه الحياة. وقد عدّ من هذه السلبيات: الحياة الحزبية، قال رحمه الله: إنه لم يعجبه في مصر (وجود الأحزاب السياسية الكثيرة. . . واحتدام الخلاف بينها، واستغلالها للشعب استغلال الأدوات أو الجمادات)!! قلت: وهذا بعد حديث الأستاذ البنا عن هذه الأحزاب بنحو ثلاثة عشر عاماً. انظر مذكرات سائح في الشرق العربي للأستاذ الندوي، ص٢٥٨.

(٣) كتاب (حسن البنا: مبادئ وأصول)، ص١١٣.

(٤) المصدر السابق نفسه.

مشروعيته وقبول الإمام البنّا به . . فضلاً عن توهم أنه من خلال هذا الحديث يقف ضد الحرية والشورى والديمقراطية! على أن البنا نفسه لم يفته ذلك! فقال، أو تابع يقول في المؤتمر الخامس:

«كما يعتقد الإخوان أن هناك فرقاً بين حرية الرأي والتفكير والإبانة والإفصاح والشورى والنصيحة، وهو ما يوجبه الإسلام. وبين التعصب للرأي والخروج على الجماعة، والعمل الدائب على توسيع هوّة الانقسام في الأمة، وزعزعة سلطان الحكام، وهو ما تستلزمه الحزبية ويأباه الإسلام ويحرّمه أشد التحريم»[1].

ومما يؤكد ذلك: دفاع الأستاذ البنا عن النظام النيابي ـ قبل استشهاده بنحو عام ونصف ـ وذلك بمناسبة الانتخابات النيابية التي جرت في سورية عام ١٩٤٧ في نداء وجهه إلى الشعب السوري، وسوف نشير إلى هذا النداء في مناسبة قادمة. ويعنينا منه هنا، أو في هذا المقام، قول البنا رحمه الله: «**إن النظام النيابي في زماننا مظهر من مظاهر هيئة أهل الحل والعقد في عصور سلفنا**»[2].

لقد عدّ البنا النظام النيابي والانتخابات ـ وربما بما تستلزمه من نقابات وأحزاب ومؤسسات ـ الصورة المعاصرة لشورى أهل الحل والعقد في تاريخ الإسلام.

إن حرب البنّا على الحزبية والأحزاب إذن بتلك المستلزمات أو الأوصاف! وهي ـ في جملتها ـ مرفوضة أو موضع نظر لا في عصره وحده، بل في كل عصر. ويكفي أنها أحزاب أشخاص ومصالح، لا أحزاب مبادئ وبرامج. وفحوى ذلك أن الحياة الحزبية حين تبرأ من هذا، وتكون هي القرين أو السبيل للحرية وتحقيق الشورى والديمقراطية، فهي مقبولة بل مطلوبة. ولن يتردد البنا في قبولها في هذه الحال.

ومع ذلك، فإننا نرى أن هذا (الاجتهاد) من قبل الأستاذ البنا قابل للمراجعة،

---

(١) المصدر السابق، ص٦٨ ـ ٦٩.

(٢) وأضاف: «وقد كان سلفنا يوسد مهمة الحل والعقد لرجال من الأمناء على النظام الذي تؤمن به كل أمة إسلامية، والأمة السورية من صفوة الأمة الإسلامية، فجدير بها أن توسد هذه المهمة لمن تأمنهم على النظام الذي يحتل من القلوب شغافها. ولعلهم إن وفقوا إلى ذلك كانوا فيه قدوة لغيرهم من الأوطان الشقيقة». مجلة (الفتح) العدد (٨٤٥) رجب ١٣٦٦هـ (حزيران ١٩٤٧) العام ١٧، ص٧٧٤.

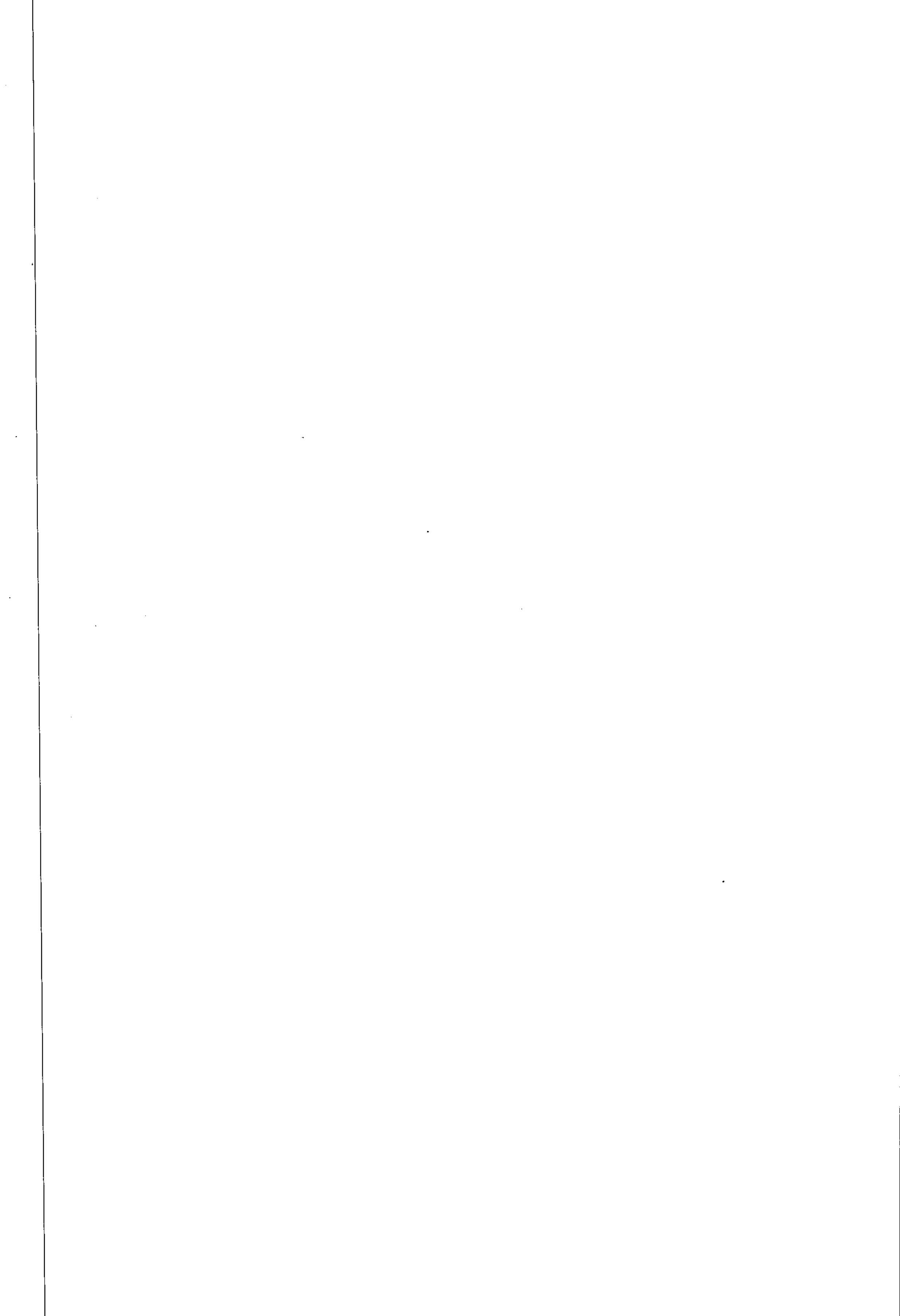
وربما جانبه الصواب، لأن (مقارعة) هذه الأحزاب ونقدها والمطالبة بإصلاحها أولى من المطالبة بإلغائها، لأن البديل في حال الإلغاء لن يكون أفضل بحال، وربما كان ذلك هو الطريق إلى الاستبداد الذي كان ولا يزال هو الطريق إلى تكريس التخلف، ولكل صور العدوان على الحرية والكرامة وسائر حقوق الإنسان! ونعتقد أن الموقف العملي الذي اتخذه السباعي من الأحزاب في سورية ـ وبعضها يحمل أشد صور المناقضة الفكرية مع دعوته الدينية ـ كان أقرب إلى الصواب.. وهو الذي كان جديراً بأن يتخذه إخوان مصر.. لولا أن الأحداث التي مرّت عليهم بعيد قيام الثورة المصرية حالت دون ذلك، وربما لم يكن من قبيل المفارقات أن ما تعرضوا له من الاضطهاد كان بعد إلغاء الأحزاب! بغض النظر عن التسميات التي أطلقت على الوضع الجديد.. سواء أكان حزباً واحداً قائداً! أم هيئة أم اتحاداً.. لأنها كلها لا تعني في نهاية المطاف سوى شيء واحد.. هو تكريس الاستبداد والاضطهاد!

ومن الملاحظ ـ أخيراً ـ أن أشد المنتقدين لموقف الإمام البنا من الأحزاب إنما يفعلون ذلك وصولاً إلى إلصاق معاداة الديمقراطية والتعددية بالإسلاميين كافّة على تعدد مدارسهم، وليس بالإخوان المسلمين خاصة ـ على تعدد مواقعهم واجتهاداتهم ـ بل ربما حاول بعض هؤلاء المنتقدين إلصاق ذلك بالإسلام نفسه في نصوصه وأحكامه! وتشير هذه المحاولة ـ فيما نقدّر ـ إلى أحد الأسباب التي تقف وراء منع ما أُطلق عليه (الأحزاب الدينية) أو الأصولية! وإلا لجاز الترخيص لحزب إسلامي دون حزب؛ وفقاً للاجتهادات والرؤى والبرامج. وبغضّ النظر ـ في جميع الأحوال ـ عما يكرّسه هؤلاء المنتقدون في أعمالهم وممارساتهم من الإيمان بالديمقراطية والتعددية الحقيقية! أو (الديمقراطية) الديكورية أو الزائفة!.

وأختم هذا الحديث عن (الدعوة والداعية) وعن الارتباط بمصر، بالتأكيد على إشارتنا السابقة في الصفحتين ١٠٨ ـ ١٠٩ وهي أن مصطفى السباعي الفتى الشامي الذي لم يكن قد تجاوز الثالثة عشرة من عمره، كان أول من لبَّى نداء الشاب حسن البنا وارتبط به داخل مصر وخارجها على حد سواء.. وقبل أن (يؤسّس) البنا جماعته وينطلق بدعوته.. بنحو أربعة أشهر.

* * *

المُجَاهِدُ
السِّبَاعيّ والقَضِيَّة الفلسطينيَّة



المجاهد

السباعي والقضية الفلسطينية

أشرنا في موضع سابق إلى طرف من موقف الأستاذ السباعي من القضية الفلسطينية. ونحاول في هذا الفصل أو الجزء الإلمام بمراحل جهاده من أجل هذه القضية ـ الذي امتد لثلاثة عقود من الزمان ـ والميادين المتعددة لهذا الجهاد؛ مؤكدين على أنه ليس في وسعنا الدخول في تفصيلات هذا الجهاد أو استقصاء أخباره، لأن ذلك يحتاج إلى أن يفرد بمؤلفٍ مستقل، خصوصاً إذا أردنا جمع مقالاته التي كتبها، والمذكرات التي قدمها، والمحاضرات التي ألقاها حول هذه القضية؛ ناهيك عن الخطب التي لا سبيل لنا إلى الوقوف عليها أو إحصائها؛ وربما كان بعضها منشوراً في الصحف أو مسجلاً على أشرطة في بعض البيوت.

من مقالاته الأولى التي كتبها في مجلة (الفتح) مقالة بعنوان (مأساة فلسطين) يعود تاريخها إلى الخامس من شهر ربيع الأول ١٣٥٤هـ (٦/٦/ ١٩٣٥)[١] بل يمكن عد هذه المقالة فاتحة كتاباته في (الفتح) لأنه لم يتقدمها سوى مقالة (لغة الأمة مظهر عزتها وعنوان استقلالها) التي أشرنا إليها، والتي جاءت أقرب إلى الخاطرة. وقد استهل هذه المقالة عن فلسطين بقوله: «مأساة الأندلس تمثل مرة ثانية على مسرح الحياة في تاريخ العرب والإسلام، تلك هي مأساة فلسطين»! ووصف فلسطين بأنها **قلب العرب النابض، ومفتاح جزيرة العرب، وأن كل ذرة من أرضها امتزجت بقطرة من دماء أجدادنا الطاهرين**[٢]. ثم توالت مقالاته عن فلسطين تحمل العناوين التالية: (فلسطين تستيقظ ولكنها لا تسلك سبيل النجاة ـ صبراً فلسطين ـ أيها المسلمون أنقذوا فلسطين قبل أن تبيد «بمناسبة وعد بلفور» موقف سورية من فلسطين... إلخ)، كما أنه عرض للحديث عنها في سياق

---

(١) العدد رقم (٤٤٨)، العام التاسع.

(٢) المصدر السابق، ص٢.

الكثير من مقالاته الأخرى رحمه الله.

وقد جاء تعبيره بالمأساة في مقالته الأولى المشار إليها بليغ الدلالة على قراءته المبكرة لمستقبل هذه القضية. وقد حمله على ذلك ما رآه من اجتماع اليهود وتقاعس العرب.. بل من تفرقهم وتنازعهم ليس على مستوى البلاد العربية فحسب، بل على المستوى الفلسطيني أو على أرض فلسطين التي كان يجري تهويدها على قدم وساق!

لقد كان اليهود يومها يمثلون ـ على أثر الهجرة إليها بعد الحرب العظمى ـ ربع سكان فلسطين، وكان لهم مئة وثمانون مستعمرة في أخصب البقاع وأجملها.. وكان «كل يهودي على وجه الأرض يحنو على الصهيونية في فلسطين، ويمدها بما يقدر عليه من مال أو نفس أو بيان أو دعاية»[١].

قال: «ثم هم يغرسون مبادئها في نفوس أطفالهم منذ الصغر. ولقد كنت مرة أجتاز كوبري قصر النيل بالقاهرة، فشاهدت ـ كما شاهد غيري ـ فرقة من كشافة اليهود تتجول في تلك الأنحاء، وهي تنشد أنشودة الأمل! ـ أمل الاستيلاء على فلسطين من أيدي العرب ـ ينشدون هذا جهرة، وعلى مسمع من أبناء مصر، وهم أطفال لا يعرفون من الحياة شيئاً. أما العرب والمسلمون فمن كان منهم خارج فلسطين فقلَّ أن تجد منهم من يبلغ عطفه على فلسطين إلى حد أن تكون له نتيجة»[٢].

في حين تعددت مشارب أهل فلسطين وتضاربت أهواؤهم. وقد ركز السباعي على (المعارك) التي كانت قائمة في نطاق الأحزاب والعائلات، أو العائلات والوجهاء بشكل خاصٍّ، حتى قال: إن قضية فلسطين ليست خاصة بهؤلاء الوجهاء، يتصرّفون فيها كما يشاؤون، ولكنها قضية الفلسطينيين كلهم، وقضية العرب والمسلمين.. بل «هي قضية تخصُّ كل مسلم ومسلمة على وجه الأرض، فلا يجوز بحال من الأحوال التغاضي عما يحدث اليوم بين الوجهاء في فلسطين، بل يجب أن ينبّه العالمُ الإسلامي أهلَ الحلِّ والعقد من عرب فلسطين إلى هذا الخطر الداهم، وينذرهم بالعاقبة القريبة لهذه المهاترات التي لا تشرّف أصحابها، ولا تعود على البلاد إلا بالخراب والدمار!».

---

(١) المصدر السابق نفسه.
(٢) المصدر السابق نفسه.

ثم قال: «**إنَّ قضية فلسطين اليوم لعلى أشد ما تكون من الخطورة، وإن حالة أبنائها لعلى غاية ما تكون من الغرابة: المهاجرون اليهود يغزونهم من البر والبحر سراً وعلانية، والسلطة تخرج من أيدي أصحاب البلاد يوماً بعد يوم، والأموال تضيع، والأراضي تباع، والأخلاق تنحط، ومتشرّدو الدنيا يتحكمون اليوم في رقاب من كانوا بالأمس سادة الأرض**»![1].

وكتب بعد ذلك ـ وهو ما يزال في مصر ـ مقالات كثيرة عبّرت كلها عن رؤية مبكرة لطبيعة الصراع مع اليهود والصهيونية، ومدى مسؤولية العرب والمسلمين في كل مكان عن القضية الفلسطينية.. ولا شك في أنه كان يستشعر عظم هذه المسؤولية حين دخل فلسطين مجاهداً على أرضها، ومدافعاً عن القدس والمسجد الأقصى. **كما عبرت تلك المقالات عن فهم عميق لطبيعة السياسة البريطانية الكاذبة والمراوغة والداعمة لليهود في الهجرة إلى فلسطين، ونشير من ذلك إلى توعده لبريطانية وقراءته لمستقبلها السياسي كدولة عظمى في ذلك التاريخ، وإلى نظرة الإنكليز إلى الأعمال الفدائية والمقاومة التي أبداها الفلسطينيون على أنها أعمال عصابات شريرة! قلت:** حتى لكأن التاريخ ـ اليوم ـ يعيد نفسه تحت مسمّى الإرهاب والتطرف!

قال في خطابه للإنكليز: «تقول صحفكم لطمس الحقيقة الناصعة.. إن حوادث فلسطين هي حوادث عصابات شريرة مجرمة تود إراقة الدماء ونهب الأموال! لا ياهؤلاء! فما في عرب فلسطين أشرار ولا مجرمون، وإنما فيهم كل أبيٍّ وكل هُمام. إن من يطالب بحقه ويدافع عن كرامته ليس مجرماً، والذين يذودون عن بلادهم ويريدون استخلاصها من أيدي مغتصبيها سيسميهم التاريخ أبطالاً ومجاهدين.

وأنتم سمّوا بما شئتم أولئك الذين يحاولون أن يبيدوا شعباً أبيّاً كريماً ليقيموا مكانه شعباً طريداً شريداً!

سمّوا بما شئتم أولئك الذين يسفكون دماء الأبرياء، ويهدمون بيوت الآمنين، ويسلبون أموال الناس بغير حق، ويمنعون المؤمنين من دخول أماكن العبادة.

---

(١) المصدر السابق نفسه.

سمّوا بما شئتم أولئك الذين أعطوا عهدين متناقضين لشعبين متباينين . . »[1] .

وحذَّر هؤلاء الإنكليز في مقالة أخرى بقوله: «إن للدول آجالاً كآجال الأفراد، فإذا جاء الأجل لم تنفع الحيل!» ثم خاطبهم قائلاً: «وسيبحث أبناؤكم غداً عن أسباب انحلال دولتهم، وضياع هيبتهم. وسيقول أبناؤنا لأبنائكم يومئذ: تعالوا نخبركم عن السبب؛ إن آباءكم كانوا يلبسون مسوح الرهبان في حرب الحبشة، وينثرون دموع الصيادين في حرب الصين، ولكنهم كانوا يكشّرون عن أنياب الثعالب في مسألة فلسطين»[2] .

وقال في مقالته المهمة بعنوان: «موقف سورية من فلسطين»: إن مؤتمر العلماء الذي انعقد في دمشق أيّد الفتوى القائلة: إن جهاد فلسطين جهاد شرعي يجب على كل مسلم أن يشارك فيه، وهي الفتوى التي كان بعض العلماء قد أطلقها في خطبه على المنابر. قال السباعي: «وكان لهذه الفتاوى والخطب أثر كبير في نفوس العامة، فعقدت الاجتماعات المتتالية لتنظيم الاتصال بالثورة. . وتطوع ألوف الشباب للجهاد في مختلف المحافظات. . وحين وردت الأنباء من مقر الثورة تفيد بأن المجاهدين الفلسطينيين لا ينقصهم الرجال. . تداعى الناس إلى بذل المال، وخصصوا يوم ٢٧ رجب لجمع الإعانات، وأطلقوا عليه (يوم فلسطين) .

يقول الأستاذ السباعي: «وكان يوماً مشهوداً من أيام سورية الباسلة، برهنت فيه على مدى حبّها لشقيقتها المجاهدة وتأييدها لها، ومما هو أبلغ في التأثير أن إقبال الطبقات الفقيرة على التبرع فاق إقبال الأغنياء. ولقد رأيت في ذلك اليوم من الأمثلة التي ضربها الفقراء في الجود والسخاء ما أسال عبرتي وملأ قلبي إيماناً بأن هذه الأمة التي يبلغ عطف بعض أبنائها على بعض إلى هذا الحد لن تموت أبداً!»[3] .

---

(١) مجلة الفتح؛ العدد (٥٧٥) بتاريخ ٨ رمضان ١٣٥٦هـ (١١/ ١١/ ١٩٣٧) .

(٢) مجلة الفتح، ص١٦؛ العدد (٥٧٣) بتاريخ ٢٣ شعبان ١٣٥٦هـ .

(٣) مجلة الفتح، ص٩؛ العدد (٦٣٥) بتاريخ ١٤ ذي القعدة ١٣٥٧هـ (٥/ ١/ ١٩٣٩) .
واليوم المذكور ـ ٢٧ رجب ـ كان بعد أسبوعين من ختام مؤتمر جمعيات العلماء، الذي تحدثنا عنه في موضع سابق. راجع ص١٥٧ .

أشرنا فيما سبق إلى السباعي حين طردته السلطات البريطانية من مصر، جرى سجنه في معتقل صرفند بفلسطين لمدة أربعة أشهر، قبل أن تستقبله السجون الفرنسية في سورية ولبنان.

ونذكر هنا أنه ما لبث حين خرج من هذه المعتقلات أن استأنف نشاطه في سبيل القضية الفلسطينية على الصعيدين الرسمي والشعبي. ويمكن عد هذا النشاط استكمالاً ومتابعة لنشاطه السابق في القاهرة من جهة، واستجابة للوضع الخطير الذي كانت القضية قد بلغته أو وصلت إليه في أواسط الحرب العالمية الثانية من جهة أخرى. وفي هذا يحدثنا السباعي نفسه عليه الرحمة والرضوان فيقول: «**اجتمعت في عام ١٩٤٣م بالأخ المجاهد الشيخ نمر الخطيب** في فندق أمية بدمشق، وكنت أرحّب بزيارته لدمشق قادماً من فلسطين، فحدثني عن استفادة يهود فلسطين من الحرب العالمية الثانية حيث شكلت السلطات البريطانية لهم كتائب تتدرب على القتال، وأمدّتهم بالأسلحة والذخائر.. وقال لي: إن الوضع خطير، ونحن عرب فلسطين يحظر علينا حمل أبسط أنواع السلاح، والعرب والمسلمون غافلون عما يبيّت لفلسطين من شر بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية. فهل لنا أن نعلن صوت النذير والإيقاظ؟».

يقول الشيخ رحمه الله: «**وكان حديثاً دمعت له عينانا، وتعاهدنا على أن نبدأ العمل...**»[1].

لقد توجه سماحة الشيخ الخطيب بهذا الحديث إلى الأستاذ السباعي، وتعاهد معه هذا العهد ـ السوري الفلسطيني ـ وهو يعلم دوره القيادي في الدعوة الإسلامية، ودوره الريادي في حمل أعباء القضية الفلسطينية. وقبل أن نتحدث بإيجاز عن العمل الذي نهض به السباعي في هذا الوقت: نشير إلى أن حديثه مع الشيخ الخطيب أتى على ذكر **الشيخ عز الدين القسّام**، فروى السباعي حين كتب مذكراته عن هذا اللقاء أنه حضر للشيخ القسام درساً في بعض مساجد حيفا ليلة الإسراء والمعراج، وقال: «**لقد أدهشتني قوة روحه وتوجيهه، وما يبثُّه في الناس من آيات الفداء والاستشهاد.. على تقدمه في السن!**».

---

(١) انظر مذكرات الأستاذ الدكتور السباعي عن مشاركته وإخوانه في معركة فلسطين في مقالته(الإخوان المسلمون في معارك فلسطين) مجلة حضارة الإسلام، ص١٦٠ ـ ١٨٣: «العددان (٦ ـ ٧) كانون الأول (ديسمبر) ١٩٦١م؛ وكانون الثاني (يناير) ١٩٦٢م.

لقد كانت هذه الآيات تسكن في نفس الشاب الجريء، وتتردد في خاطره حين سمعها في تلك الليلة المباركة، وهي تُبثّ في جموع المصلّين على لسان الشيخ الشهيد الجليل رحمه الله.

التعبئة والإعداد النفسي:

انطلق السباعي بالعمل من مدينة دمشق، فألقى في مقر (الشبان المسلمين) في باحة مسجد الدرويشية أول محاضرة عن فلسطين.. وانتهت هذه المحاضرة ـ التي نشرتها كاملة جريدة (القبس) الدمشقية ـ بحماسة شديدة من الحاضرين، خرجوا على إثرها ـ كما يروي الأستاذ السباعي نفسه رحمه الله ـ: «في مظاهرة كبرى تهتف لفلسطين، وتدعو إلى العمل من أجلها. حتى إذا وصلت المظاهرة أمام مديرية الشرطة العامة على ضفة نهر بردى خرج مدير الشرطة العام ـ وكان يومئذ الدكتور عبد الكريم العائدي ـ وأبدى دهشته من مثل هذه المظاهرة الليلية، حيث كانت الأحكام العرفية معلنة، والتجمعات ممنوعة بمناسبة الحرب، وحاول فض المظاهرة بالحسنى، فأبى الجمهور إلا أن تصل إلى فندق الشرق، حيث كان يقيم رئيس الوزراء السيد سعد الله الجابري رحمه الله، ولما وصلت إلى ساحة محطة الحجاز حيث فندق الشرق، رغب المتظاهرون في إرسال وفد منهم لمقابلة رئيس الوزراء حتى يشرحوا له خطورة القضية الفلسطينية فأبى استقبال الوفد، وأرسل مدير الشرطة العام ليحمِّله المتظاهرون مطالبهم، ثم تفرّقت المظاهرة»[1].

ثم انتقل السباعي بعد ذلك إلى «جميع المدن السورية» يشرح للجماهير خطورة الوضع الذي آلت إليه القضية الفلسطينية، والمخاوف التي تحيط بمستقبلها، يقول السباعي: **«حتى اتهمني الغافلون عن حقائق الأمور في فلسطين بأني أبالغ كثيراً فيما أسرده من حقائق»**.

ولما وضعت الحرب الثانية أوزارها انتظم عمل الإخوان المسلمين لفلسطين ـ بقيادة السباعي ـ في ثلاثة ميادين:

---

(١) المصدر السابق، ص١٦١ والنقول هنا وفي الصفحات التالية من المقالة أو المذكرات المشار إليها. مع الإشارة إلى أنها طبعت في كتاب بعنوان: «الإخوان المسلمون في حرب فلسطين: الجبهة المصرية: كامل الشريف ـ الجبهة السورية: د. مصطفى السباعي». دار التوزيع والنشر الإسلامية ـ الطبعة الثانية ـ القاهرة ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م.

١ ـ **الصعيد الرسمي** : بتقديم المذكرات للحكومة وللجامعة العربية .

٢ ـ **الصعيد الشعبي**: بالمحاضرات والاجتماعات العامة في المدن والقرى .

٣ ـ **الصعيد العملي** : حيث أرسل الإخوان بعض شبابهم ليزوروا فلسطين ، ويطلعوا بأنفسهم على أحوال اليهود فيها ، فزاروا يافا وتل أبيب وحيفا والقدس وكثيراً من المستعمرات اليهودية .

ثم جاءت أخيراً التعبئة العسكرية والجهاد على أرض فلسطين، كما سنشرح ذلك فيما يلي :

* * *

الجهاد العسكري: ميثاق وعقبات

بدأ التحضير لجهاد السلاح حين وقعت كارثة التقسيم بقرار من الأمم المتحدة في ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩٤٧م وهبَّ الشعب في جميع البلاد العربية يطالب بالتطوع في القتال للإبقاء على عروبة فلسطين ومنع التقسيم.

فقام الإخوان المسلمون بوضع ميثاق أخذوه على الجماهير بتأليف جيش لتحرير فلسطين، يتطوع فيه كل قادر على القتال.. وانطلقوا في الاجتماعات العامة الحاشدة يبيّنون خطر الكارثة، ويعلنون فتح باب التطوع في مراكزهم في جميع أنحاء البلاد.

يقول الأستاذ السباعي رحمه الله: «وأقبل الشعب إقبالاً منقطع النظير على تسجيل أسمائهم كمتطوعين في جيش التحرير المرتقب، ولكنَّ الحكومة فاجأتنا بقرار يمنع أي هيئة من تسجيل المتطوعين ـ وكان واضحاً أننا نحن المقصودون بهذا القرار، إذ لم تكن هناك هيئة أعلنت عن قبول المتطوعين غير الإخوان ـ **ثم اتخذت الجامعة العربية قراراً بتأليف جيش الإنقاذ**، وافتتحت الحكومة مراكز للتطوع، فطلبنا منها أن يكون شبابنا منضمّين في كتائب خاصة بهم تحت قيادة جيش الإنقاذ فرفضت ذلك، مما دعا إخواننا إلى الاندماج في كتائب المتطوعين، ولكن ما سارت أفواج المتطوعين إلى فلسطين حتى جاءتنا رسائل الإخوان المتطوعين من كل مكان تستغيث من الجو الذي يعيشون فيه، ويطلبون إلينا أن تكون لهم كتائب خاصة بهم، ينسجمون فيها مع عقيدتهم وعبادتهم وأخلاقهم»[1]

وقد علّل السباعي هذا الوضع بأن فكرة المسؤولين كانت قائمة على أن المتطوعين يجب أن يكونوا من العامّة وذوي السوابق في الإجرام أو المتعطلين عن العمل! قال رحمه الله: «فقد قال لي مسؤول كبير: إنك تحمّس الشباب المتعلّمين للتطوع في حرب فلسطين، ومن الحرام أن نرسل بهذه الزهرات ليموتوا هناك،

---

(١) حضارة الإسلام: المرجع السابق، ص١٦٣.

وخير منهم العاطلون من القبضايات! (أي الشطّار وأهل الفتوة ممن عرفوا بالجرأة في القتل والضرب) وهؤلاء موجودون بلا عمل فلنرسلهم إلى هناك! فقلت له: إن معركتنا مع اليهود ليست معركة أجسام وزنود بقدر ماهي معركة وعي وتضحية وإيمان، وإننا سنقاتل في فلسطين شباباً من اليهود أعدوا فكرياً وعسكرياً لهذه المهمة منذ سنوات»[1].

يقول: «هذا هو السبب في أننا طلبنا أن يكون لشبابنا كتائب خاصة بهم تحت قيادة جيش الإنقاذ، وأخيراً عدنا إلى الإلحاح مرة أخرى في السماح لشبابنا بتشكيل كتائب خاصه بهم!.

فكان الجواب: إذا أردتم أن تذهبوا في أفواج خاصة فنحن لا نقدم لكم سلاحاً، بل يجب أن يكون سلاحكم منكم، هذا مع أن الجامعة العربية أرصدت لجيش الإنقاذ مبالغ طائلة، وكل المتطوعين عندهم يقدمون لهم أسلحتهم وذخيرتهم وألبستهم، فليس امتناع المسؤولين عن إعطائنا السلاح إلا تحميلنا مالا نقدر عليه، فقد بلغ ثمن البندقية ألف ليرة سورية (مئة جنيه استرليني) وأكثر شبابنا المتحمسين للقتال طلاب وعمال، فكيف نستطيع أن نتحمل ثمن أسلحتهم؟ ولم نجد بداً من عرض الأمر على الإخوان المتطوعين، فكان من حماستهم ما يذهل ويدهش، فمنهم من تبرع بثمن بندقية، ومنهم من اشترك مع أخ أو أخوين في ثمن بندقية»[2].

ويضيف الأستاذ المجاهد الذي دوّن المذكرات حول جهاد الإخوان في فلسطين قبل وفاته بنحو ثلاثة أعوام رحمه الله.. قائلاً: «ولا أستطيع الآن أن أفيض في تسجيل هذه المآثر، وحسبي أن أذكر شيئاً مما تيقّنته بنفسي؛ فقد رأيت بعضهم وكان على أهبة الزواج يبيع إحدى سجّادتيه ـ قطيفتيه ـ اللتين اشتراهما لزواجه، ورأيت منهم من باع بعض ثيابه، ورأيت من استدان، وهكذا..».

«وأخذنا نفتش عن السلاح وكان نادراً وغالياً، واضطرني ذلك لإقامة شهر كامل في محافظة حلب، نتجول في كل يوم في القرى المتاخمة للحدود التركية لشراء البنادق والمسدسات، حتى إذا تم لنا تجهيز السلاح لكتيبة كاملة، انتقينا من

---

(١) المصدر السابق نفسه.
(٢) المصدر السابق، ص١٦٤.

مئات إخواننا المتطوعين في مختلف المحافظات السورية، من نعلم خلوّهم من عوائق القتال في فلسطين، واضطررنا للاقتراع بينهم، فغضب لذلك كثيرون، حتى إن بعضهم قدم استقالته من الإخوان، لأننا حلنا بينه وبين الجهاد في سبيل الله!»[1].

التدريب والالتحاق بالجهاد:

ويذكر الأستاذ السباعي بعد ذلك أن الاتفاق تم مع طه الهاشمي ـ مسؤول جيش الإنقاذ ـ على أن تذهب كتيبة الإخوان للتدرب على أساليب القتال في معسكر قطنا ـ قرب دمشق ـ[2] وأن يكون المكان الذي يقاتلون فيه هو مدينة القدس «وكان القتال فيها من أخطر المعارك» لأنه كان بين بيت وبيت، ولا يفصل بين مواقع المجاهدين العرب وبين اليهود إلا شارع ضيق لا يزيد عرضه عن بضعة أمتار في كثير من الأحيان. .

وقد وصف الأستاذ مشهور حمّود حيمور هذا التدريب بقوله: «شهدته رحمه الله ورافقته وهو يتدرّب في معسكر قطنا مع إخوانه المجاهدين عام ١٩٤٧ على فنون القتال وعلى استعمال أنواع السلاح، وكان يخلط ذلك التدريب العملي بالشحن الروحي والشحذ الإيماني لنفوس شباب الجهاد من كتيبة الإخوان، ويربط العقيدة بالعزيمة، ويوثق الاندفاع إلى الجهاد بحب الاستشهاد»[3].

وبعد شهر ونصف من التدريب التحقت الكتيبة بالمجاهدين العرب على أرض فلسطين على دفعتين: الأولى بقيادة الملازم عبد الرحمن الملوحي وصحبة البطل الشهيد عبد القادر الحسيني، وقد حضر هذا الفوج معه معركة (القسطل) التي استشهد فيها رحمه الله. ثم سافر الفوج الثاني بقيادة مصطفى السباعي. . وهو الفوج الذي تحدث الأستاذ السباعي عن سيره، حتى وصل إلى بيت المقدس، لأنه كان على رأسه وإن كان هو لم يذكر ذلك، واكتفى بالقول: «ثم سافر الفوج

---

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) وقد جاء حسن البنا من القاهرة إلى بيروت فدمشق متفقداً هذه الكتيبة في قطنا. راجع الحسيني: الإخوان المسلمون، ص١٤٠.

(٣) من الكلمة التي ألقاها في تشييع السباعي رحمه الله. والتي مثّل بها إسلاميّي الأردن. انظر نص هذه الكلمة في كتاب: مصطفى السباعي بأقلام محبّيه وعارفيه، ص٤٥٩. وهي بعنوان: علماً مسلماً عزّ نظيره.

الثاني . . وكان معنا مجاهدون آخرون بقيادة ضابط مسيحي من أبناء فلسطين أذكر أن اسمه ـ عيسى ـ واجتزنا جسر اللنبي إلى فلسطين . وتقرر أن نتجه إلى ـ أريحا ـ قرب القدس، ثم ننتقل منها إلى القدس».

قال رحمه الله[(١)]: «وتوزعنا على بيوت قرية مجاورة اسمها ـ البيرة ـ على ما أظن، وكان من نصيبي أن أبيت تلك الليلة في بيت خوري القرية ـ رجل الدين المسيحي فيها ـ وقد لقيت منه ومن أسرته كل ترحاب وإكرام» ثم انتقلوا بعد ظهر اليوم التالي إلى القدس ليجدوا فيها فوجاً من العراقيين المتطوعين يرأسهم المجاهد السيد فاضل رشيد عبد الله، بالإضافة إلى من كان فيها من مجاهدي القدس أو المجاهدين المقدسيين الذين تضمهم منظمة (**الجهاد المقدس**) التابعة للهيئة العربية العليا بزعامة مفتي فلسطين الأكبر الحاج أمين الحسيني رحمه الله.

وقام السباعي بتوزيع الإخوان على مناطق القدس العربية التالية: الشيخ جراح، المصرارة، سعد وسعيد، القطمون، وكانت مسؤولية القيادة فيها موزعة على المجاهدين السادة: عدنان الدبس، وزهير شاويش، وكامل حتاحت. وكان مقر السباعي في غرفة القيادة (بالروضة) المطلة على المسجد الأقصى مع الضابط فاضل عبد الله والملازمين عبد الرحمن الملوحي وجمال الصوفي.

المعارك ضد يهود القدس:

وليس في وسعنا هنا أن نفصل القول في المعارك التي خاضها الإخوان دفاعاً عن القدس والأقصى. وأن نذكر أسماء الشهداء والملاحم التي سطروها؛ فقد كتب في هذا بعض المؤرخين، ونفر ممن كانوا معه في فلسطين[(٢)]، وتأتي مذكرات الأستاذ السباعي في مقدمة هذه الكتابات. ولكننا نكتفي بالحديث عن الاستراتيجية العامة للدفاع عن القدس، وكيف وزعت مهمات هذا الدفاع بين المجاهدين، الذين اندفعوا إلى فلسطين من أكثر من بلد من البلاد العربية، ثم

---

(١) حضارة الإسلام، ص١٦٥.

(٢) راجع كتاب: نكبة بيت المقدس للمؤرخ عارف العارف، وانظر المقابلات التي أجراها السيد حسني جرار مع كل من المجاهد عدنان الدبس والمجاهد محمد أمير العرقسوسي في كتاب: الدكتور مصطفى السباعي. وانظر في مجلة حضارة الإسلام: الأعداد (٤ ـ ٦) عام ١٩٦٤م؛ كلمة السيد أميل الغوري بعنوان: «ذكريات من جهاد السباعي في حرب فلسطين، ص١٠٠ ـ ١٠٣.

نذكر لمحة عن أهم المعارك التي خاضها الأستاذ السباعي، ونقف عند مشكلة السلاح والذخيرة التي واجهتهم في معركة (القدس الكبرى)، قبل أن نعقب بملاحظات السباعي حول هذه الحرب وملاحظاتنا على جهاد السباعي فيها رحمه الله.

قال رحمه الله: «كان من واجبنا أن نضيّق الخناق على يهود القدس الحديثة والقديمة (الغربية والشرقية)، وكان فريق من مجاهدي الإخوان المصريين بإشراف الأخ محمود عبده وقيادة البطل الشهيد أحمد عبد العزيز يرابطون في (صور باهر) القرية العربية الواقعة جنوبي القدس، كما كان فريق من إخواننا الأردنيين بقيادة الأخ الحاج عبد اللطيف أبو قورة يرابطون في (عين كارم) الواقعة غربي القدس. وقد استطاع المجاهدون الفلسطينيون قطع الطريق الموصل من تل أبيب إلى القدس بعد معارك طويلة عند (باب الواد) اشتركت فيها مدفعية جيش الإنقاذ وحضرنا جزءاً منها.

وبذلك أصبح يهود القدس ومستعمراتها القريبة منها مطوّقين تطويقاً تاماً؛ إذ كان العرب أيضاً يسيطرون على طريق القدس الشرقي لأنه طريق أريحا وعمان، كما كانوا يسيطرون على طريق القدس الشمالي، إذ كان طريق نابلس العربية، ويسيطر على مدخله حي الشيخ جراح العربي.

«كانت المعارك بيننا وبين اليهود في أطراف القدس وداخلها مستمرة، لا ينقطع فيها أزيز الرصاص والرشاشات والقنابل ساعة واحدة في ليل أو نهار من خلال نوافذ البيوت أو منعطفات الطرق أو الهجمات المباغتة على مراكزهم أو هجماتهم على مراكزنا، وكثيراً ما كانت ترسل النجدات المتعددة في يوم واحد إلى مراكزنا من المجاهدين الاحتياطيين الموجودين في مقر القيادة».

واشتدت هذه المعارك بعد أن جلا الإنكليز عن فلسطين في ١٥ أيار (مايو) ١٩٤٨م تاركين مراكزهم التي كانوا يحتلونها في منطقة القدس لليهود. وكانت هذه المراكز حاجزاً بين جماهير العرب وجماهير اليهود! فأصبح وضع العرب في القدس محرجاً لقلة المقاتلين والذخيرة عندهم (مما يستحيل معه احتفاظهم بأكثر أحيائهم العربية في القدس الحديثة).. وكان حي القطمون أهم هذه الأحياء، واشترك الإخوان في الدفاع عنه مع المجاهدين الفلسطينين المرابطين فيه بقيادة الشهيد البطل (أبو دية) رحمه الله.

واستشهد عدد منهم وثبتوا فيه حتى اضطر المجاهد أبو دية للانسحاب بعد إصابته واستشهاد معظم إخوانه.

أما معركة الحي اليهودي في القدس القديمة: التي ابتدأت قبل جلاء الإنكليز عن القدس بخمسة أيام فقد كانت ـ كما وصفها السباعي ـ «من أشد المعارك التي خضناها في القدس، أظهر فيها المجاهدون من البطولات ما يعجز عنه الوصف، فقد كانوا يتقدمون لنسف الحي اليهودي بيتاً بيتاً بأيديهم الرشاشات والقنابل تحت وابل من الرصاص والقنابل الذي كان يقذفه اليهود عليهم من نوافذ البيوت..

ولما غادر الإنكليز القدس اشتدت هجمات المجاهدين العرب على الحي، كما اشتدت مقاومة اليهود، ثم اضطروا للتسليم لنفاد ذخيرتهم بعد وقوع معركة القدس الكبرى» ـ التي سوف نشير إليها بعد قليل ـ وقد تولى السباعي المفاوضة مع الوفد اليهودي قبل أن يحضر قائد الجيش العربي ـ الذي حضرت منه مدفعية صغيرة في معركة القدس المذكورة ـ ويتولى أمور المفاوضات مع اليهود. وقد تمّ أسر المقاتلين، فلم يتجاوزوا برأي القائد مئة، مع أن المقاتلين منهم كانوا يزيدون على خمسمئة.. فقد أخرج من بينهم رجال الدين ولو كانوا شباباً والنساء مع أنهن كن مقاتلات.. يقول السباعي: «وانتقلنا إلى المستشفى فوجدناه مليئاً بمن يتظاهرون أنهم من الجرحى، إذ كانوا قد عصبوا أيديهم ورؤوسهم وأرجلهم بعصائب، فأبينا إلا أن نفتش عن كل واحد منهم، وكان معنا طبيب عربي، وتبين بعد الفحص أن أكثر عصاباتهم كانت تمويهاً، فضممناهم إلى الأسرى من الشباب..» يقول السباعي: وغادرنا الحي اليهودي والدمار قد حاق بأكثره، والحرائق التي أشعلها اليهود قبل مغادرتهم قد أتت على الباقي.

معركة القدس الكبرى ومشكلة الذخيرة:

يقول الأستاذ السباعي: «لما تم جلاء الإنكليز عن القدس، وكان الحي اليهودي لم يستسلم بعد؛ أدركنا حرج موقف حامياتنا في القدس الحديثة (الغربية)، وأن اليهود سيبذلون قصارى جهدهم لإنقاذ إخوانهم المحاصرين في الحي اليهودي، وكانت الذخيرة عندنا قليلة، بل إن (فوج اليرموك) وكان فيه إخواننا، وعدده أكثر من خمسمئة مجاهد، كانت بنادقه ورشاشاته كلها من النموذج الألماني، ولم يبق لديهم من الذخيرة إلا نزر قليل جداً، مما حملني على

أن أغادر القدس إلى دمشق طالباً من قيادة جيش الإنقاذ تزويدنا بما نحتاج إليه من الذخيرة استعداداً للمعركة المرتقبة، وقابلت طه الهاشمي، وعرضت عليه ما جئت من أجله، ففاجأني بقوله: إنّ فوج اليرموك قد سحب من القدس إلى مقر قيادة القاوقجي فلماذا تطلب الذخيرة الألمانية؟».

يقول الأستاذ المجاهد رحمه الله: «وهنا أدركت مصير معركتنا التي وضعت بأيدي مثل هذا الرجل! فقلت له: ومتى سحب فوج اليرموك؟ قال: منذ أسبوع! فقلت: إنك أرسلت برقية إلى قائد فوج اليرموك تطلب إليه أن يلتحق شخصياً بفوزي القاوقجي نظراً لتبرم المجاهدين من جهله وغباوته وجبنه! أما فوج اليرموك فلايزال في القدس، وإخواننا فيه، وأنا الآن قادم من القدس، وبنادقنا خاوية من الذخيرة، فأجابني بكل صلف: «ماكو عندنا ذخيرة ألمانية» أي لا يوجد.

فخرجت من عنده إلى رئيس الجمهورية وعرضت عليه الأمر، فاتصل بالهاشمي، وطلب منه أن يعطيني ذخيرة ألمانية، فلما عدت إلى الهاشمي، وجدته مربد الوجه، وخاطبني بقوله: «كيف ننجح وكل شيء عندنا بالوساطات؟..» قلت له: **إنني لا أتوسط لوظيفة عندك، ولكن أتوسط لنموت في المعركة موت الشرفاء!**.. فأجابني: إنني أمرت بإعطائك خمسة آلاف طلقة إكراماً لرئيس الجمهورية!. فقلت له: هذه سينال منها كل بندقية عشر طلقات، ونحن في القدس نتناوش مع اليهود في كل ساعة، فماذا نستطيع أن نقاوم بهذه الرصاصات العشر؟ فألحّ في عناده، وخرجت من عنده مغضباً إلى وزير الدفاع، فعرضت عليه الأمر، فاعتذر بأنه ليس عندهم ذخيرة ألمانية، وفي نهاية الحديث قال: إنه سيتصل بالقيادة العربية العليا للجيوش العربية في عمان، ويطلب منها إجابتي إلى طلبي. وقبل مغادرتي دمشق اتصلت به هاتفياً، فأكد أنه اتصل بعمان ووعدوه بإجابة طلبي. وذهبت إلى عمان في نفس اليوم واتصلت بالقيادة العامة، فكانوا مدهوشين من دعوى وزير الدفاع اتصاله بهم، وقالوا: إنه يعلم أن ذخيرتنا كلها إنكليزية، فمن أين نأتيك بالذخيرة الألمانية[1]؟..

ولما يئست منهم اتصلت بأعضاء **(لجنة الدفاع عن فلسطين)** في عمان، وكلهم من خيرة التجار السوريين والأردنيين في العاصمة، وعرضت عليهم

---

(١) كان رئيس الجمهورية في ذلك الحين فخامة شكري القوتلي، ووزير الدفاع السيد أحمد الشرباتي.

الأمر، وطلبت منهم النجدة فأسرعوا يشترون كل ما وجدوه في السوق من ذلك، وزادوا عليه عديداً من القنابل وبعض الأسلحة، فعدت إلى القدس، وقد حملت من عمان آلاف الطلقات التي تمكننا من الاستمرار في المعركة ساعات، وكان وصولي قبيل الغروب بدقائق، **ووجدت معركة الحي اليهودي مشتدة في ذلك اليوم، وقد جرح فيها الملازم الملوحي، وما يزيد على أربعين من إخواننا، واستشهد فيها ما يزيد على سبعة من شهداء الإخوان،** ووجدت القائد فاضل عبد الله مستلقياً على فراشه، مستغرقاً في نوم عميق من شدة الإعياء والسهر في الليالي الخمس المواضي، حتى إذا كان الوقت الساعة العاشرة ليلاً جاءتنا أنباء من جميع حامياتنا على أبواب مدينة القدس بأن اليهود قد شنوا هجوماً عاماً على مختلف الأبواب، وركزوا هجومهم على باب الخليل الملاصق للحي اليهودي؛ عندئذ بدأتُ أوزّع الرصاص على المجاهدين، ولما اشتد الهجوم الذي شنه اليهود على باب الخليل بما يقرب من عشر مصفحات وآلاف المقاتلين ـ حوالي ستة آلاف من الهستدروت[1] ـ لم أجد بداً من الاستنجاد بإحدى العواصم القريبة، فطلبت كبار المسؤولين باسم قائد حامية القدس، ثم أيقظت القائد فاضل عبد الله، وأخبرته بخطورة الوضع، وأني قد طلبت كبار المسؤولين في العاصمة العربية باسمه، وتم الاتصال بينه وبين كبير منهم، وأعلمه بخطورة الوضع في القدس، وطلب منه إرسال نجدة عسكرية على وجه السرعة، فاعتذر عن ذلك، وقال له وأنا أسمع: إذا وجدتم أنفسكم في موقف حرج فانسحبوا من القدس، فأجابه القائد: إنَّ في القدس عدا أهلها ما يزيد على عشرين ألفاً من اللاجئين إليها بعد مجزرة دير ياسين، فإذا احتلها اليهود فستكون مجزرة لم يسمع بها التاريخ! فأجابه المسؤول الكبير وهويظن أن حامية القدس كلها من بلده: أنا آمرك بالانسحاب وأنتم عندنا أغلى!!!

يقول السباعي القائد المجاهد: «وهنا لم أتمالك من أن أقول له: **إنّ الحامية تقسم أن لا يدخل اليهود القدس إلا على أشلائها، فإما أن تنجدونا وإما أن نقاتل حتى نستشهد جميعاً**، وهنا جاء من يقول لنا: إن اليهود قد اقتحموا باب الخليل، فتركنا الحديث مع تلك العاصمة العربية، وأسرعنا إلى إخراج من كان في القيادة من الجنود حتى الجرحى، ووزعنا عليهم كل ما كنتُ استحضرته من

---

(١) انظر المقابلة المشار إليها مع الدكتور العرقسوسي.

الرصاص والذخيرة من عمان، **وأسرعنا إلى باب الخليل**. . وشاع في البلدة أن اليهود قد اقتحموا باب الخليل، فخرج النساء والأطفال من بيوتهم، وكان الكهرباء منقطعاً، وسمعنا منادياً يقول: يا أهل القدس كلٌّ من عنده سلاح فليذهب إلى باب الخليل، وهُرع الشباب والمقاتلون إلى هناك، حيث تبين لنا أن اليهود لم يستطيعوا اقتحام باب الخليل للدفاع البطولي الذي قامت به الحامية هناك، وتحصّن المجاهدون ومن هُرع من أهل القدس وراء المتاريس عند باب الخليل وفوق أسواره، وابتدأت المعركة الكبرى منذ الساعة الحادية عشرة ليلاً حتى الخامسة صباحاً كان فيها صوت الرصاص والقنابل والديناميت يضج الآذان بلا انقطاع، فلما انبلج الصباح، انسحب اليهود، وردَّهم الله بغيظهم لم ينالوا خيراً، وخلفوا وراءهم مصفحة قد دمرت وبعض القتلى الذين لم يستطيعوا سحبهم معهم، وعاد المجاهدون إلى أماكنهم، والمناضلون المقادسة إلى بيوتهم».

ويضيف الشيخ المجاهد رحمه الله: «وعدنا إلى مقر القيادة، فوجدنا ذلك المسؤول العربي الكبير يتصل بنا هاتفياً، ليسألنا عن أنباء المعركة، فأجابه قائد حامية القدس بأن الله قد نصرنا وأعاننا على صد هجوم اليهود، ولكن ذخيرتنا قد نفدت، فإذا لم تصلنا نجدة عسكرية في هذا اليوم فإننا في خطر شديد إذا عاود اليهود الهجوم. وفي عصر ذلك اليوم وصلت قوة من المدفعية الصغيرة معها بعض الجنود، وبدأت تضرب الحي اليهودي من مشارف القدس، فارتفعت معنويات سكان القدس، ودبّ الهلع في قلوب اليهود المحاصرين، وبعد ثلاثة أيام استسلم الحي اليهودي كما أسلفنا قبل قليل».

بعد انتهاء معركة الحي اليهودي عاد السباعي إلى دمشق، وقابل كبار المسؤولين وحكى لهم قصة القدس، فتعجبوا وقالوا: إن الأخبار التي تذاع وتنشرها الصحف تفيد أن القدس الحديثة قد استسلمت للعرب! فكيف تقول: إنكم محاصرون في القدس القديمة؟ فأجابهم بأنه قادم الساعة من القدس، وأنه يحكي لهم ما حدث! فاتصلوا بأمين عام الجامعة العربية، فأكد لهم صدق ما قاله السباعي، وأن الحالة سيئة، وهنا قال أحدهم: لقد دخلنا معركة فلسطين ونحن لا نعلم حقيقة قوة الأعداء! فقال الآخر مستدركاً: لقد كنا نعلم حقيقتهم تماماً، وهذا تقرير صفوت باشا قد تبيّن لنا انطباقُه على الواقع. يقول الأستاذ السباعي: **«وهنا قلت له: إذا كنتم تعلمون حقيقة استعداد اليهود، فكيف أعددتم جيش**

الإنقاذ لينقذ فلسطين، وهو لا يزيد على أربعة آلاف غير مدرّبين تدريباً كافياً، وليست له قوة جوية ولا مدفعية إلا مدفعية بسيطة جداً، مع أن في القدس الحديثة وحدها عشرة آلاف مقاتل يهودي؟ فأجابني: إننا لم نرسل جيش الإنقاذ ليحارب، بل ليقوم بمهمات مؤقتة!.. فقلت له: ولهذا كان أكثر جيش الإنقاذ يتنزه في مناطق عربية بحتة كنابلس، بينما حيفا ويافا وغيرها تسقط بأيدي اليهود، وكانت مجازر دير ياسين تقع على سمع هذا الجيش وبصره!.. فسكتوا جميعاً..».

وعاد السباعي إلى القدس مع الأستاذ عمر الأميري الذي جاءها لأول مرة. وبعد أيام وقعت الهدنة المشؤومة ـ كما وصفها السباعي رحمه الله ـ قال: «وجاءتنا الأوامر من قيادة جيش الإنقاذ بدمشق بالانسحاب من القدس، وتسليمها للجيش العربي بحجة أننا سنرسل إلى الجبهة السورية»!.

ملاحظات وحقائق:

وهنا وجد السباعي أنّ من واجبه أن يكشف للجماهير التي شرح لها خطورة القضية الفلسطينية وحضها على التبرع والتطوع، أن يكشف لها الحقائق التي تبينّها بنفسه على أرض المعارك..

فقام بإلقاء محاضرات في كل من دمشق وحمص وحماة وحلب واللاذقية ودير الزور وغيرها من المدن السورية. يقول رحمه الله: «وذهل الجمهور لما أبديته من حقائق لم تكن معروفة لديهم تماماً حتى شك بعضهم فيها، ثم انكشف الأمر، وتبين صدق ما أدّعي عن العوامل الخفية والظاهرة التي كانت تسيّر معركة فلسطين..» بل لقد شعر السباعي وهو في قلب معارك القدس **«أن هناك مناورات تجري في الصعيد الدولي، وفي أوساط السياسات العربية الرسمية العليا لجعل التقسيم أمراً مفروغاً منه، ولجعل القدس تخرج من أيدي العرب والمسلمين!»** بحسب كلماته الخطيرة والمعبّرة رحمه الله.

وأبدى بعد ذلك الملاحظات التالية:

١ ـ إن جيش الإنقاذ الذي شكلته الجامعة العربية، ووكلت قيادته إلى فوزي القاوقجي لم يكن إلا تسكيناً لشعور العرب الهائج في كل بلد، وإنه لم يكن يقصد منه جدياً أن يقاتل ويمنع سقوط المدن والقرى العربية بأيدي اليهود.

٢ ـ إن قيادة جيش الإنقاذ لم تخض معركة جدية واحدة في فلسطين،

فـالقاوقجي كان مقيماً قرب نابلس في منطقة عربية بحتة، وصفوت باشا وطـه الهاشمي لم يدخلا فلسطين قط، ولم يكونا يعرفان حقيقة الأوضاع في فلسطين، بل كان مقر الهاشمي في دمشق، وكان صفوت باشا يتنقل بين القاهرة ودمشق.

٣ ـ إن جيش الإنقاذ كانت مهمته تحطيم منظمة (الجهاد اا مقدس) التي انخرط فيها شباب الفلسـطينيين وأبدوا من البطـولات ما سجّله لهم التـاريخ بإعجاب وإكبار. وكان قائدها الشهيد البطل عبد القادر الحسيني يحاول أن يحصل من الجامعة العربية على قدر كاف من الأسلحة، فخاب مسعاه! يقول السباعي أو يضيف: «حتى إنه حين جاء إلى معسكر قطنا ليأخذ الفوج الأول من إخواننا قال: إنني طلبت منهم مدفعاً واحداً فرفضـوا.. وأعطوني مئة بندقيـة لا تصلح إلا لوقود النار، وهذه هي معي في السيارة، ونظرنا فإذا ببنادق من العهد الفيصلي في أعقاب الحرب العالميـة الأولى، وأكثرها معصّب بعصائب من الحديد، ثم تابع الشـهيد قوله: إنني ذاهب إلى فلسطين لأسترد (القسـطل) وسأموت ولن أترك بلادي فلسطين طعمة للأعداء! رحمه الله.

تعقيب وإضافات:

١ ـ هذه صفحة من صفحات جهاد السباعي رحمه الله عوّلنا في خطوطها العامة وفي بعض التفاصيل المهمة على ما كتبه هو بقلمه رحمه الله. ولكننا حين قابلنا بين مذكراته وما كتب عنه سواء كان بأقلام إخوانه أو من عرفه لأول مرة على أرض فلسـطين؛ أدركنا أنه تحدث عن نفسه بالقدر الذي لا فكاك له عنه؛ أو بوصفه مسؤولاً أو قائداً يقع على عاتقه عبء التنظيم وواجب تأمين السـلاح والذخيرة.. ولم يشر من خلال ذلك إلى شيء من مواقفه وبطولاته في ساحة القتال.. بل كان يحاول إهمال حق نفسه أو تجاوزه إن صح التعبير. لاحظنا ذلك عندما تحدث عن الفوج الثاني للمجاهدين الذي غادر قطنا متوجهاً إلى فلسطين بقيادته ـ كما علمنا من المصادر الأخرى ـ أما هو فلم يزد على القول: «ثم سافر الفوج الثاني ـ وكان معنا مجاهدون آخرون بقيادة ضابط مسيحي ـ واجتزنا جسر اللنبي».

ولاحظنا ذلك في قيامه بمفاوضة الوفد الذي قام بهذه المهمة عن سكان الحي اليهودي في القدس الشرقية حين استسلموا.. وحتى عندما قاد ملحمة الدفاع والصمود البطولي عند باب الخليل بعيد وصوله من عمان محملاً بالذخائر.. لم

يزد أن قال: «وسارعنا إلى باب الخليل» وقد وصف السيد أميل الغوري الفوج الثاني المشار إليه بأنه «قوة سورية مؤلفة من نحو (١٥٠) رجلاً، جُلّهم من الشبان، يتحرّقون شوقاً لخوض غمار القتال». قال: «وكان على رأس هذه القوة: المرحوم الشيخ مصطفى السباعي في لباس الميدان، متمنطقاً سلاحه للجهاد في سبيل الله»[١].

فإذا أضفنا إلى هذا: موقفه في المؤتمر الأول للعلماء الذي عقد بدمشق، والذي لم يشر هو إليه عند حديثه عن الكلمات التي جوبه بها رئيس الوزراء، وجاءت تعبيراً عن قوة الحق وعزة العلم.. بل نسبها لبعض المتحدثين؛ أدركنا سبباً مهماً ـ ولعله أهم الأسباب ـ في أنه لم يكتب مذكرات، لأنه لا رغبة لديه في أن يكون محور الأحداث، أو أن يسلط الأضواء على نفسه من خلال ما يختاره أو يركز عليه من الأخبار والوقائع، أو بالقدر الذي يحقق تلك الرغبة! بل الأمر عنده على العكس من ذلك تماماً.. وما تزال معظم المذكرات والسير الذاتية تبعث عليها هذه الرغبة، أو أغراض الكاتب بوجه عام.

أما الصفحات العشرون التي ضمّنها مذكراته عن دور «الإخوان المسلمين في معارك فلسطين» فقد جاءت استثناءً حملت عليه الضرورة. وهذا ما أوضحه في مقدمة هذه الصفحات حين قال: «لم يحن بعد نشر المذكرات التي دوّنتها عما شاهدته في معركة فلسطين بعد قرار التقسيم؛ **لظروف واعتبارات متعددة**[٢].

---

(١) من مقالة للأستاذ أميل الغوري بعنوان: (ذكريات من جهاد السباعي في حرب فلسطين) مجلة الحضارة، ص١٠٠.

(٢) في مقابلة صحفية متأخرة تمت قبيل وفاته رحمه الله، سأله المحرر قائلاً: بمناسبة الحديث عن فلسطين قد عرفنا سيادتكم في طليعة الذين أبلوا في سبيل استعادتها بلاءً حسناً، إلا أننا نحب أن توضحوا لنا كيف تم تراجع العرب منهزمين أمام الصهاينة، والعرب أكثر منهم عدة وأكبر عدداً؟ فأجاب بقوله: «لم أكن وإخواني الذين شرّفنا الله بالجهاد في أرض فلسطين، وشرّف بالشهادة أكرم شباب هذه الأمة، لم نكن إلا قائمين بما يوجبه الإسلام من الجهاد في سبيل الله. أما الهزيمة فحسبي أن ألخّص لك سببها بكلمة واحدة هي (الخيانة)!». حضارة الإسلام، ص٥١ عدد آب (أغسطس) ١٩٦٤م.
وقد أشار إلى هذا في وقت سابق بمناسبة ما وصفه بـ«الحملة المسعورة الظالمة على الهيئة العربية العليا، وعلى رئيسها الزعيم المجاهد المؤمن الصابر الحاج أمين الحسيني». فقال في افتتاحية العدد السادس من السنة الثالثة من مجلّته (حضارة الإسلام): «وهذا ما يدعونا ويدعو كل عاقل مخلص إلى الربط ما بين نشاط إسرائيل=

وإنما أوجز القول هنا في دور الإخوان المسلمين في تلك المعركة وقبلها، لا تبجحاً بما قاموا به من ضروب التضحيات، فقد علّمنا الإسلام كراهية التفاخر بالأعمال، والتحدث عنها إلا لضرورة، ولكن تسجيلاً لتاريخ قد يطمسه بعض المؤرخين والكتّـاب عن سهو أو عدم اطلاع أو سوء نيّـة»[1].

٢ ـ على الرغم من أنه حصر ملاحظاته أو قصرها على جيش الإنقاذ؛ فإن الإشارات التي جاءت في عُرض حديثه وروايته للأحداث والوقائع. تدل على ما كان يبيّت للقضية الفلسطينية. وأقل ما تدل عليه تلك الإشارات: الطبيعة القاصرة لنظرة المسؤولين في ذلك الحين إلى هذه القضية، وعقليتهم (البيروقراطية) في التعامل معها. . في الوقت الذي قدمت الشعوب ـ وفي مقدمتها الشعب الفلسطيني ـ ما تستطيع، وفوق ما تستطيع.

٣ ـ قام السباعي بإنذار اليهود ـ بواسطة مكبرات الصوت ـ أكثر من مرة بأن المجاهدين سوف ينتقمون منهم إذا استمروا في استغلال أماكن العبادة للأعمال العدوانية. وكان اليهود قد اتخذوا من الكنيس القديم الواقع في حيّهم في القدس، والمشرف على المسجد الأقصى، مركزاً حربياً يطلقون منه نيران بنادقهم ورشاشاتهم على المتجولين في حرم المسجد الأقصى. والكنيس عبارة عن بناء ضخم مستدير له قبة عالية، ويعدّ أقدم كنيس في فلسطين وربما في العالم كله.

يقول الأستاذ السباعي: «ولكنهم ازدادوا في العناد، فوضعوا أكياس الرمل على سطح الكنيس حول قبّته، واستمروا يطلقون من ورائها النيران على الحرم القدسي وعلى مقر قيادتنا في الروضة.

حتى إذا بدأت معركة الحي اليهودي، وتمكن المجاهدون من نسف قسم كبير من بيوته، وأصبحوا على مقربة منه قرروا نسف الكنيس. وفي ساعة من ساعات النضال في هذه المعركة، وضعت المتفجرات في أنحاء متعددة من

= وحلفائها، وبين الهجوم والافتراء الرخيص على الهيئة العربية ورئيسها، وبذلك سيثبت التاريخ مرة أخرى أن كارثة فلسطين ما كانت لتقع، لولا ارتباط بعض المسؤولين في البلاد العربية بدول الاستعمار، وخضوعهم التام لها». عدد شعبان ١٣٨٢هـ ـ كانون الثاني (يناير) ١٩٦٣م.

(١) الإخوان المسلمون في معارك فلسطين: مجلة حضارة الإسلام: السنة الثانية: العددان ٦ ـ ٧: كانون الأول ١٩٦١م وكانون الثاني ١٩٦٢م، ص١٦٠.

أسسه، بما يزن أكثر من نصف طن من الديناميت، ثم أشعلت النيران في أسلاك الديناميت، فما أتت دقائق حتى كان هذا الكنيس الضخم تتهاوى جدرانه السميكة، وينقض جزء من قبته، ويملأ الركام أرجاءه. .»[1]. ويضيف قائلاً: «ولما استسلم اليهود. ووقفنا في ساحة الحي نشرف على تنفيذ شروط الاستسلام، قال لي أحد أعضاء وفد الاستسلام اليهودي والمرارة تأكل قلبه: لقد أخطأتم بنسف الكنيس، وستندمون!!. فقلت له: لقد أنذرناكم أكثر من مرة بعدم اتخاذه مركزاً للعدوان فلم تستجيبوا، أما أن نندم فهذه معركة قائمة بيننا وبينكم، ولم يمنعكم إجرامكم من قبلها أن تعتدوا على قبة الصخرة، وتنسفوا المساجد في يافا وحيفا ودير ياسين وغيرها»[2].

قلت: لعل الندم الذي تُوعِّد به الأستاذ السباعي من قبل هذا اليهودي أخص مما توحي به أو تدل عليه هذه الإجابة، وغني عن البيان أن السباعي كان يجاهد عن أمة العرب والمسلمين التي وقع عليها العدوان اليهودي في فلسطين. . أو بوصفه طليعة من طلائع الجهاد في هذه الأمة، ولهذا فقد أجاب بلسانها، وبالوقائع التي ارتكبتها العصابات الصهيونية بحقها، بغض النظر عن الإيقاع بالإخوان والاضطهاد الذي لحق بهم بعد ذلك!.

٤ ـ لقد كان الشيخ المجاهد مصطفى السباعي مثالاً للقيادة المسؤولة والمبادرة، بل كان في قيادته وجنديته مثالاً يحتذى في الشجاعة والإقدام. لقد تحرك للحصول على الذخيرة في الوقت المناسب، وتمكن من الحصول عليها ووضعها بين أيدي المجاهدين في ساعة المعركة الكبيرة والحاسمة مع اليهود. . وربما لم يكن في وسع أحد أن يحصل على هذه الذخيرة بعد أن وقفنا على طرفٍ من ملابسات الحرب التي دخلتها الجيوش العربية في فلسطين. . وبعد أن رأينا السباعي يطرق أبواب كبار المسؤولين وباب كرام التجار، فقد كان موضع ثقة الجميع، وكانت هيبته وحماسته وإخلاصه وترفعه تفرض احترامه وإجابته في طلب ما يريد.

إننا نتحدث هنا بلسان التاريخ، أو نكتب بقلم المؤرخ حين نقول: **إن مصطفى السباعي هو الذي قرر مصير معركة القدس الكبرى ومعركة الحي**

---

(١) المصدر السابق، ص١٧٢.

(٢) المصدر السابق، ص١٧٣.

اليهودي . . فحال بذلك دون سقوط القدس الشرقية بأيدي اليهود عام ١٩٤٨م، وحمى دماء العرب والمسلمين وأعراضهم وأموالهم، نعم، لقد طُهرت القدس من الحي اليهودي والكنيس اليهودي، وحُمي أهلها ومن التجأ إليها بعزيمة المؤمنين وجهاد المجاهدين. . ولكن قبل ذلك بعزيمة وجهاد ذلك القائد الشجاع والبطل الجريء الشيخ مصطفى حسني السباعي رحمه الله وسائر الشهداء والمناضلين.

قال الأستاذ الدكتور محمد الفاضل رحمه الله: «ولقد شوهد السباعي وإخوان السباعي في حومة فلسطين ـ رعى الله فلسطين ـ يتسعّرون بالإقدام، ويتفجرون بالحمية الوطنية، ويهتفون بالتضحية، ويجدعون بالإيمان أنف النكبة. . بينما كان الغواة المضلّلون يلتهمون زاد الأمة العربية مع الوحش! ويُنضِجون شواءهم في حريقها. . »[1].

* * *

---

(١) من الكلمة القيّمة التي ألقاها الدكتور الفاضل في حفل التأبين الذي أقامته جامعة دمشق للدكتور السباعي. انظر هذه الكلمة وعنوانها: «السباعي رائد الطليعة في الإصلاح الديني والاجتماعي والسياسي». في مجلة (حضارة الإسلام) مصدر سابق، ص٥٨ ـ ٦٤. وقد درسنا على الدكتور الفاضل الحقوق الجزائية ـ أو القانون الجنائي ـ في كلية الحقوق، وكان عالماً متمكّناً ومحاضراً بليغاً. وحين أُسندت إليه رئاسة جامعة دمشق كنت أحد أعضاء هيئة التدريس بكلية الشريعة. وكانت فترة رئاسته من أزهى الفترات التي مرت على الكلية والجامعة، وكان واحداً من الرؤساء البارزين الذين شهدتهم جامعة دمشق ـ الجامعة السورية سابقاً ـ في تاريخها الطويل. وقد أشارت بعض الكلمات التي أُلقيت في حفل التأبين الذي أقيم له على أحد مدرجات كلية الهندسة بجامعة دمشق إلى المكانة المرموقة التي كان يتمتع بها في القانون الجنائي على المستوى العالمي. ـ كما كان لعبارة (يا حامل القرآن) التي كانت لازمة الكلمة التي ألقاها سماحة موسى الصدر، وقع خاص ـ وكانت الخسارة بفقده ـ وقد قُتل غيلة ـ كبيرة ومؤلمة. . رحمه الله.

جهاد لا ينقطع (الجهاد بالكلمة)

وضع السباعي السلاح، وقام مع إخوانه المجاهدين بتسليم أسلحتهم إلى جيش الإنقاذ، وإلى الجيش العربي الأردني الذي أنيط به الدفاع عن القدس. ولكنه لم يضع القضية عن عاتقه . .

بل لقد زادت حماسته للتعريف بهاوحمل أعبائها . . إن كان في ذلك زيادة لمستزيد! عاد ليكتب ويخطب ويحاضر، وعاد مع إخوانه ينشرون الوثائق والاحصاءات حول فلسطين حتى تكون قضيتها «**في نظر الشعب قضية قومية واضحة المعالم**»[1] بحسب عبارته الدقيقة. وبوصفها قضية «شديدة الأثر في حياة العرب وخاصة أبناء سورية»[2] على حد قوله.

هل كان السباعي يخشى عليها ـ في ضوء ما رآه ووقف عليه أو شعر به على أرض المعركة ـ أن تفقد هذه الصفة القومية في المستقبل؟ بحيث تصبح في عدٍّ تنازلي جديد قضية الشعب الفلسطيني وحده؟ أو ينظر إليها على أنها قضية لاجئين على سبيل المثال؟ أو نحو ذلك مما يعني القبول بالهزيمة أو تصفية القضية؟ نعتقد أن كلماته السابقة ـ ونحوها كثير ـ واضحة في ذلك! إن النزول بالقضية الفلسطينية عن طبيعتها القومية هذه يمثل من وجهة نظره أولى خطوات الضياع والاضمحلال!.

ولهذا بقي يجاهد في سبيل بقاء هذه القضية المقدسة على هذا النحو . . لأنه كان يرى في ذلك عنوان الصمود ومفتاح التحرير . . ولطالما توجّه ببيانه المؤثر وحماسته المتّقدة إلى الشباب ـ على وجه الخصوص ـ ليذكروا فلسطين، ويذكروا موقعها في قلب العروبة والإسلام! فقال في بعض هذه النداءات: «**هذه فلسطينكم! أضاعتها الأطماع الجائعة، والشهوات الظامئة، والغفلة المسترسلة،**

---

(١) دروس في دعوة الإخوان المسلمين للسباعي، ص١٦٠.

(٢) المصدر السابق.

والأحقاد الصليبية الكامنة، ولن تكون فلسطين بعد كل هذه المؤامرات إلا لنا. . نحن العرب. . نحن المسلمين. . فلسطين لنا.

ياشباب اذكروا فلسطين. . يقظتكم ومنامكم، واذكروها مغداكم ومراحكم، واذكروها في عبادتكم ورياضتكم. . واذكروها لأطفالكم وأمهاتكم. اذكروها فهي قلب وطنكم الكبير الواحد. . اذكروها فهي طريق الإسلام إلى عاصمته (مكة). . . اذكروها فهي ثغر جزيرتكم التي يربض فيها محمد ﷺ. . »[1].

مجالات أخرى لخدمة القضية الفلسطينية:

أما أبرز المجالات والإنجازات في خدمة القضية الفلسطينية ـ بعد توقف القتال المشار إليه ـ فيمكن إجمالها فيما يلي:

١ ـ دعا السباعي إلى تخصيص أسبوع في كل عام باسم (أسبوع مكافحة الخطر الصهيوني) تقام فيه المهرجانات، وتلقى فيها الخطب، وتوزع المنشورات في جميع أنحاء البلاد.

وقد بادر هو إلى إقامة هذا الأسبوع في عامي ١٩٥٥ و١٩٥٦م، ودعا قادة الحركة الإسلامية في الوطن العربي للاشتراك في هذا الأسبوع، وطاف معهم في شتى أنحاء سورية، معرّفين بالخطر الصهيوني لا على فلسطين ومستقبل القضية الفلسطينية وحسب، بل على مستقبل العرب والمسلمين، ومطالبين الحكومات العربية بإعداد الشعوب للمعركة الفاصلة مع اليهود[2].

---

(١) مجلة حضارة الإسلام: مرجع سابق، ص٢٠٧، راجع جريدة الشهاب العددين ٤٥ و٤٦ تاريخ ٥ و١٢ شعبان ١٣٧٥هـ الموافق ١٨ و٢٥ آذار (مارس) ١٩٥٦.

(٢) علقت جريدة الشهاب في عددها الصادر بتاريخ ٢٥/ ٣/ ١٩٥٦ على الأسبوع المذكور بقولها في الصفحة الأولى: «كانت مهرجانات أسبوع مكافحة الخطر الصهيوني التي قام بها الإخوان المسلمون في البلاد السورية موضع إعجاب المواطنين جميعاً. . وقد عبّر كثير من قادة الفكر ورجال الصحافة عن ارتياحه وتقديره لهذه الخطوة التي أيقظت في الشعب روح التوثب والاستعداد، ونبّهته إلى حقيقة هذا الخطر الماحق.

«وكانت (كتائب الإنقاذ) التي انتظم فيها شباب الجامعة إحدى ثمرات هذه المهرجانات الرائعة».

وأضافت: «وفي هذا الجو الحماسي اللاهب الذي تصافحت فيه القلوب، وتشابكت =

ونذكر بهذه المناسبة أن الحكومة أقامت في ١٩٥٥م ـ أسبوعاً دعته (أسبوع التسلح) دعت فيه المواطنين إلى التبرع من أجل الجيش، وألقى الأستاذ السباعي خطبة الجمعة في (مسجد الجامعة السورية) حول هذا الوضوع، وتولت الإذاعة السورية نقلها على جميع محطاتها. . وكان لهذه الخطبة الحماسية الملتهبة وقع السحر في مبادرة المواطنين إلى التبرع. .[1].

وقد استهلَّ هذه الخطبة بقوله: «هذا أسبوع التسلح! وهو أبعد مغزى من أن يكون أسبوعاً تجمع فيه الأموال لتزويد الجيش بالسلاح، فالدولة تستطيع بتشريع يصدره المجلس النيابي أن يجمع أضعاف ما يتجمع في أسبوع التسلح من أموال، ولكن المغزى الاجتماعي البعيد في هذا الأسبوع أنه يقوّي في المواطنين شعور الولاء لوطنهم والفداء لأمّتهم، واليقظة والاستعداد لرد كيد عدوهم. وهو يقيم الدليل على مبلغ ما وصلت إليه الأمة من وعي اجتماعي وشعور عميق بالكوارث ووسائل التغلّب عليها. . .».

= الأيدي، وانطلقت الحناجر تدوي بهتاف جبار واحد: أن لا حياة لإسرائيل، ولا بقاء في البلاد العربية لمستعمر دخيل. . .»إلخ.

وانظر في هذا العدد والعدد السابق (سجل الأخبار المحلية) للوقوف على أخبار أسبوع مكافحة الخطر الصهيوني في المحافظات والأقضية السورية؛ وانظر كذلك خلاصة لكلمات كلٍّ من الأستاذ الشيخ محمد محمود الصواف المراقب العام لجمعية الأخوة الإسلامية بالعراق، والأستاذ محمد عبد الرحمن خليفة المراقب العام للإخوان المسلمين في الأردن، والأستاذ السباعي المراقب العام للإخوان في سورية.

(١) مجلة حضارة الإسلام: مرجع سابق، ص١٤٤ ـ ١٤٥. وانظر فقرات من هذا الخطاب في جريدة (الشهاب) العدد (٣١) السنة الأولى تاريخ ٢٦ ربيع الثاني ١٣٧٥هـ و١١ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٥٥م. وانظر في العدد (٢٨) نص الكتاب الذي سلّمه الأستاذ السباعي ـ بوصفه المراقب العام للإخوان المسلمين ـ لمعالي وزير الدفاع، وقد زاره في مكتبه، وأبلغه قرار الإخوان وضع جميع إمكانياتهم تحت تصرف وزارة الدفاع خلال أسبوع التسلح؛ وانظر كذلك نص النداء الذي توجه به الأستاذ السباعي لشباب الإخوان، والذي حثهم فيه على أن يكونوا: «أسبق إلى البذل. . وأكثرهم قياماً بالواجب، وأشدهم حرصاً على نجاح هذا الأسبوع بدعوة الشعب إلى التبرع، والاشتراك في اللجان المحلية التي تؤلف لهذا الغرض، حتى يضرب شباب الإخوان المثل الطيب في الإسراع إلى كل عمل فيه رضا الله وخير الأمة». جريدة الشهاب العدد ٢٨ في ٢١ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٥.

وقد شهد هذا الأسبوع وقائع ومناظر مؤثرة . . حتى إن أديب العربية في بلاد الشام الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله كتب مقالة بعنوان: (شعب لن يموت): بمناسبة أسبوع التسلح في سورية: أشار فيها إلى بعض هذه الوقائع والمشاهد . . وقد نشرت هذه المقالة في مجلة (المسلمون) التي كان الأستاذ السباعي قد بدأ بإصدارها في دمشق في العام المذكور .

٢ ـ كانت هذه المجلة ـ المسلمون ـ تعد امتداداً أو استمراراً للمجلة التي كان يصدرها في مصر الأستاذ سعيد رمضان، عادت للظهور في دمشق بامتياز حصل عليه الأستاذ السباعي، لأن سعيد رمضان لا يحمل الجنسية السورية التي تجعله ذا حق في طلب رخصة إصدار وفق قانون المطبوعات السوري. وصدر العدد الأول منها في آذار (مارس) ١٩٥٥ . وكان ذلك بعد أكثر من عام من مشكلة الرئيس جمال عبد الناصر مع الإخوان المسلمين في مصر، والإعدامات التي نفذها بحق ستة من قادتهم، كان بينهم علماء ومجاهدون، إلى جانب الملاحقات والسجون والمعتقلات. وكانت افتتاحيات المجلة تحمل توقيع (أبو أيمن) أي سعيد رمضان[1]، بوصفه صاحب المجلة الحقيقي. وكانت متقطعة، وليست منتظمة. ثم جدد الأستاذ السباعي إصدارها عام ١٩٦٠م باسم (حضارة الإسلام) وصارت تعبّر عن آرائه وتوجهاته الخاصة .

والنقطة التي نود الإشارة إليها أنه رحمه الله خصص لفلسطين في هذه المجلة باباً ثابتاً لا ينقطع بعنوان: (الدرة المغتصبة) تتصدره صورة المسجد الأقصى، ويعنى بالقضية الفلسطينية وأخبارها وآخر تطوراتها . .

٣ ـ ذكر الأستاذ السباعي أن نواب الإخوان في المجلس النيابي اقترحوا جعل دراسة القضية الفلسطينية مادة دراسية مستقلة في فحوص الشهادات»[2]. ولا نعلم أن هذا الاقتراح تم الأخذ به، ولكننا نذكر أننا درسنا (قضية فلسطين) في صف الشهادة الإعدادية عام ١٩٥٣ ـ ١٩٥٤ في كتاب مفرد، في إطار مادة التاريخ، أو مقرر التربية الوطنية .

---

(١) جرى (مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية) على تصنيف هذه الافتتاحيات وسائر المقالات التي تحمل التوقيع المذكور على أنها للأستاذ السباعي، لأن المجلة كانت تحمل اسمه كرئيس مسؤول عن التحرير .

(٢) دروس في دعوة الإخوان، ص١٦١ .

في ميدان الصحافة:

وبمناسبة هذه الإشارة إلى مجلته العلمية الدعوية أو (الفكرية الجامعة) ـ حضارة الإسلام ـ: كما وصفها هو رحمه الله نستكمل هذا الحديث ـ الموجز ـ عن جهاد الكلمة عند السباعي وكفاحه في ميدان الصحافة والإعلام.

الجريدة اليومية (المنار):

١ ـ أصدر السباعي في دمشق جريدة (المنار) السياسية اليومية عام ١٩٤٦م[١]. وقد اقتبس هذا الاسم من الشيخ محمد رشيد رضا الذي أسس مجلة ومطبعة بهذا الاسم، بل كتب تفسيراً للقرآن الكريم يحمل هذا الاسم: (تفسير المنار) ويمكن عدّ (المنار) مدرسة سلفية إصلاحية عوّل فيها الشيخ رشيد رحمه الله على منهج الإمام محمد عبده وأفكاره الإصلاحية، أو انطلق منها.

ولاقتباس هذا الاسم دلالته فيما نقدر لأنني سمعت الأستاذ السباعي يثني على الشيخ رشيد، ويبدي إعجابه ودهشته بما كتبه عن تاريخ الإمام محمد عبده، ويبدو لنا أن تشابهاً في غزارة المادة، وقوة العرض كان يجمع بين الأستاذ السباعي والشيخ رشيد. وربما كان السبب في أن السباعي لم يختر اسم (الفتح) الذي أشاد به أيما إشادة في وقت سابق؛ أنّه عدّ المنار طوراً أعلى أو يحتل مواقع أكثر تقدماً ـ في حومة الصراع والصدام بين المناهج وطرق الإصلاح في ذلك الحين ـ من موقع (الفتح): يدل على ذلك أن الإمام حسن البنا نفسه عدّ مدرسته أو عمله استمراراً لمدرسة المنار ولو من بعض الوجوه[٢]. بالإضافة إلى الدلالة الخاصة أو (المطلوبة) لهذا الاسم في تلك المرحلة أو في ذلك الوسط؛ فلا غرو

---

(١) صدر العدد الأول منها في ١٩٤٦/٦/٢٢ وكانت لسان حال دعوة الحق والقوة والحرية. انظر حضارة الإسلام: مرجع سابق، ص١٤٦. وكان رئيس تحريرها المسؤول الأستاذ أحمد قدامة. انظر دليل الصحافة العربية لناجي نعمان، ص٣٤٨، دار نعمان للثقافة ـ لبنان ١٩٨٨.

(٢) بل أعاد الأستاذ البنا إصدار مجلة (المنار) على النحو الذي كانت تصدر به في حياة منشئها السيد محمد رشيد رضا رحمه الله، وذلك بدءاً من العدد الخامس من المجلد الخامس والثلاثين في جمادى الآخرة ١٣٥٨هـ ـ تموز (يوليو) ١٩٣٩. وكان ذلك باتفاق جماعة من الإخوان المسلمين مع دار المنار. انظر مجلة (الفتح) العدد ٦٦٠ في ١١ جمادى الأولى ١٣٥٨هـ (١٩٣٩/٦/٢٨)، العام الرابع عشر، ص٢٤١.

إذاً أن يحيي الأستاذ السباعي اسم (المنار) في جريدته اليومية التي كتب فيها عشرات الافتتاحيات التي تناول فيها القضايا الوطنية والعربية والإسلامية، ومختلف الشؤون الدولية. وكان قلم السباعي في ذلك الحين يتمتع بالألق والنضج من الوجهتين الفكرية والمهنية أو الفنية، فإذا أضفنا إلى ذلك: المعهودَ من حماسته وجرأته ـ وأسلوبه الخطابي في كثير من الأحيان ـ أدركنا مدى نجاح الجريدة في أداء رسالتها، ومدى الإقبال الجماهيري الذي تمتعت به وسط صحافة الأخبار أو صحافةٍ تفتقر إلى مزايا الأداء التي كان يتمتع بها السباعي، والذي لم يكن صحافياً فحسب[1]، بمعنى أن صلته بالجماهير لم تكن عبر الصحافة فقط، فقد كان خطيباً مفوّهاً.. بل لعله كما سنتحدث فيما بعد أحد الخطباء المعدودين في تاريخ البلاغة والبيان العربي..

ومن هنا فإننا لا نستغرب أن ينتظر جمهور عريض من الشعب هذه الجريدة كل صباح.. وأن تنفد أعدادها في كثير من الأيام في ساعة من ساعات الصباح الباكر، وأن يغالي بعض بائعي الصحف بثمنها في بعض الأحيان[2]!.

---

(١) بعد أن أقرت الجمعية التأسيسية (البرلمان) قانون الصحافة في الجلسة الخامسة والثلاثين التي عقدت في ٣ تموز (يوليو) ١٩٥٠م، أعطى رئيس الجمعية الكلمة لدولة رئيس الوزراء السيد ناظم القدسي، ثم للسيد مصطفى السباعي فقال: «أما وقد انتهينا من إقرار هذا القانون أريد أن أقول كلمة عامة حول مستوى الصحافة في بلادنا، إن مستوى الصحافة لم يصل إلى الدرجة التي يتوّخاها الصحفيون من الصحفيين أنفسهم»، وقد رَجَع ذلك إلى أسباب عديدة منها عدم تطبيق قانون المطبوعات تطبيقاً جدياً، وأشار إلى المادة الخاصة بفرض الرقابة المالية على وجه الخصوص.
قال: «وأنا كصحفي سابق اشتغلت بالصحافة زمناً قصيراً أعلن أنه من أكبر أسباب انحطاط المستوى الصحفي في بلادنا: عدم فرض الرقابة المالية على الصحف. ولقد دخل في الصحفيين المخلصين أناس لا يهمهم من الصحافة إلا أن يبتزوا، وإلا أن يشهّروا بالناس.. كما أن هناك مصادر أجنبية تغذي بعض الصحف في بلادنا لتشويه كرامة هذا الوطن، وللتشويش على العاملين في الحقل الوطني، وهناك أشخاص يغذون بعض الصحف بالأموال في بلادنا لأغراض يعلمها الناس جميعاً، ولذلك أرجو من دولة رئيس مجلس الوزراء أن ينتبه إلى هذه الناحية، وأن يطبق هذا المبدأ بفرض الرقابة المالية على الصحف تطبيقاً عملياً حازماً لا شكلياً، حتى تعلم الأمة الفرق بين الصحافي المخلص في مهنته الذي يعيش من الاشتراكات ومن وارد صحيفته، وبين الصحافي الذي يعيش من موارد أخرى لا تمت إلى مهنة الصحافة ومثلها العليا..».
(٢) راجع مجلة الحضارة: عدد سابق، ص١٤٦.

وقد تعرّض السباعي لهجوم شديد من قبل معظم الصحف التي كانت تصدر في دمشق. . ولكنني لا أستطيع تحديد الفترة الزمنية التي تم فيها هذا الهجوم. . أهو في هذا الوقت حتى قام حسني الزعيم بانقلابه عام ١٩٤٩م، أم في الفترة الدستورية عام ١٩٥٠م حين كان نائباً في الجمعية التأسيسية ـ لأن صحف ذلك العهد ليست تحت يدنا الآن ـ فقد حدثني مرة بأن فترة مرّت عليه كان يضع أمامه الصحف الصادرة صباحاً ليرى عناوينها الكبرى ـ المانشيتات ـ تتناوله جميعاً، وعددها نحو تسع صحف، بالشتم والنقد اللاذع! والذي نرجحه أنها كانت في هذا الوقت الذي اشتغل هو فيه بالصحافة، وحقق نجاحاً ساحقاً يخاف منه ويحسد عليه! وربما كانت في أوائل الفترة الدستورية أيام ترؤسه للجبهة الاشتراكية الإسلامية في البرلمان، ومعركته التي خاضها حول مسألة دين الدولة. واستمرت جريدة المنار حتى ١٩٤٩م حين قام الزعيم حسني الزعيم بانقلابه العسكري، أو بفاتحة الانقلابات العسكرية المشؤومة في البلاد العربية. وعُطلت الصحيفة بتاريخ ١٧/ ٥/ ١٩٤٩. . ثم تملّك امتيازها السيد بشير العوف واستأنف إصدارها كجريدة سياسية مستقلة بعد عهد الزعيم[١].

الصحيفة الأسبوعية (الشهاب):

٢ ـ في عام ١٩٥٥م ـ المشار إليه ـ وبعد عودة الحياة الدستورية للبلاد في أعقاب الإطاحة بالعقيد أديب الشيشكلي بنحو عام، عاد السباعي للعمل في ميدان الصحافة، حيث أصدر الإخوان جريدة أسبوعية باسم (الشهاب)[٢] ـ وربما استعاروا هذا الاسم من المجلة العلمية الدعوية التي أسسها الإمام حسن البنا بهذا الاسم ـ وكان السباعي مشرفاً على تحريرها وسياستها العامة[٣]. وكتب فيها كثيراً

---

(١) الصحافة السورية منذ الجلاء حتى انقلاب الزعيم تستحق أن تفرد بدراسة علمية، وكذلك: دور السباعي وأثره في الصحافة. ويذكر بعض الذين عاصروا تلك المرحلة أن السيد بشير العوف أعاد إصدارها في تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩٤٩ باسم المنار الجديد. وأنها أدمجت بعد ذلك بجريدة (بردى) في جريدة سميت (اللواء) عام ١٩٥٢. ثم صدرت باسم المنار عام ١٩٥٤ بعد رحيل أديب الشيشكلي، مع بقاء توجهاتها الإسلامية العامة.

(٢) صدر عددها الأول في ٢ رمضان ١٣٧٤هـ ـ ٢٤ نيسان (ابريل) ١٩٥٥؛ وكان البرلمان الجديد المنتخب قد عقد أولى جلساته في ١٤/ ١٠/ ١٩٥٤م.

(٣) مجلة حضارة الإسلام: مقال الأستاذ محمد بسام الأسطواني: مصدر سابق، ص١٤٧.

من المقالات، وشارك في تحرير أكثر من باب مثل(في مدرسة الروح) و(عظماؤنا في التاريخ). وقد كانت حملة هذه الجريدة على نظام عبد الناصر في مصر شديدة وممتدة، وكانت تتنبأ له بمصير كمصير ديكتاتور سورية المرتحل العقيد أديب الشيشكلي رحمه الله[(١)].

وقد استمرت في الصدور حتى خريف عام ١٩٥٧ حيث توقفت في ١٨ أيلول (سبتمبر) بين يدي الوحدة مع مصر، وفي الوقت الذي شهد المسرح السياسي السوري تصدعاً وانقسامات حادّة على صعيد القيادات العسكرية والمدنية، كما سنشير إلى ذلك فيما بعد، علماً بأن الإخوان في سورية أيّدوا قيام **هذه الوحدة بدون تحفظ، كما سبق للسباعي في عام ١٩٥٦م أن دعا للوقوف إلى جانب مصر عقب تأميم قناة السويس، وسارع هو بنفسه إلى الانخراط في المقاومة الشعبية حين وقع العدوان الثلاثي على مصر**، وقام بحض زملائه وتلاميذه على أن يحذو حذوه ويقوموا بالتدريب على استعمال السلاح، فكان صاحب الفضل الأول في تحويل الجامعة إلى ما يشبه الثكنة العسكرية، وظل يلبس زي المقاومة الشعبية العسكري أثناء العدوان الثلاثي، وكان يرغب في أن يجعل منه زياً شعبياً لعموم أبناء الشعب[(٢)].

بل إنه أجاب مندوب إحدى الصحف عندما سأله عن رأيه في التطوع لنجدة

---

(١) وتحدثت في أعداد كثيرة عن وقائع التعذيب البشعة التي تعرض لها المرشد العام للإخوان في مصر الأستاذ حسن الهضيبي رحمه الله وكبار الشخصيات الإخوانية، وعن صور التعذيب وأساليبه التي كانت تمارس ضد المعتقلين من أعضاء الجماعة. راجع على سبيل المثال سلسلة من المقالات تحت عنوان (مصر تحت وطأة الحكم الإرهابي) في الأعداد من(٦ ـ ١٠) تاريخ ١٦ شوال ١٣٧٤هـ و٥ حزيران (يونيو) ١٩٥٥م فما بعده من الجريدة المذكورة. وانظر في العدد الثامن كذلك (كلمة الشهاب) أي افتتاحية العدد التي تحدت (السلطات المصرية أن تنكر حوادث التعذيب. . وفي أن تسمح لوفد من صحفيي البلاد العربية أن يزور المعتقلين والمسجونين. ويكتب عما شاهده وسمعه من هؤلاء المعتقلين). يقول باتريك سيل: «إن الهجوم الصحفي المستمر في سورية، مع نشاطات اللاجئين من أعضاء الإخوان المسلمين قد دعا مصر إلى استدعاء سفيرها في دمشق في أوائل تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٤م. وفي الواقع فإن إحدى المهام الرئيسية التي كلف بها مبعوث مصر الجديد إلى سورية محمود رياض كانت امتصاص هذه الموجة من النقمة على مصر». الصراع على سورية، ص٢٣٩.

(٢) مجلة حضارة الإسلام: مرجع سابق، ص١٤٧.

مصر، بقوله: «.. إن كل مواطن في الأمة جندي في المعركة.. وإن الإسراع إليها ليس تطوعاً، وإنما هو فرض يحتمه الدين وتوجبه القوانين العامة»[1].

من صور نشاطه ضد العدوان الثلاثي على مصر:

لقد نشرت له الصحف السورية تصريحاً قال فيه: «إن صمود مصر في وجه الغزو البريطاني الفرنسي أضاف صفحة مشرقة في سجل صفحات المجد والخلود لأمّتنا، ولا شك في أن مصر في وقفتها الجبارة إنما كانت عنواناً للروح الجديدة التي تغمر أبناء الأمة العربية والعالم الإسلامي في هذا العصر، والثورة على الخضوع للاستعمار مهما كان الثمن..

... إن مصر لم تتوانَ لحظة عن إنجاد إخوانها في معاركها ونضالها ضد الاستعمار، فعلينا أن نسرع الآن إلى ضمد جراح إخواننا الذين أصيبوا هناك وهم في خط النار الأول من معركتنا الكبرى، ومن واجب الهيئات والأحزاب أن تبادر بالتعاون مع الحكومة إلى تنظيم حركة التبرعات والإسعافات الضرورية لمصر. وسيكون الإخوان أسبق الهيئات إلى القيام بهذا الواجب العظيم»[2].

كما أنه بعث إلى ملوك ورؤساء الدول العربية البرقية التالية، بوصفه رئيس المكتب التنفيذي لقادة الإخوان في البلاد العربية:

«العدوان الإنكليزي الفرنسي الإسرائيلي على مصر مقدمة للعدوان على حرية العرب والمسلمين وشرفهم ومستقبلهم. إخوّة الإسلام ووحدة المصير تحتم أن تسارعوا لنجدة مصر، وإلا فإن الله لا يرحم أمة تتخاذل عند النكبات»[3].

كما بعث بالبرقية التالية إلى الهيئات والأحزاب في كل من باكستان وإندونيسية وأفغانستان وإيران:

«مصر والبلاد العربية تخوض أخطر المعارك ضد الاستعمار والصهيونية، وتدافع عن شرف العالم الإسلامي وحريته. يجب أن يظهر تأييد العالم الإسلامي فعّالاً يثبت قوة الإخاء الإسلامي، ووحدة المصير بين البلاد العربية والإسلامية»[4]

---

(١) جريدة الشهاب ـ العدد رقم (٧٦) تاريخ ٦ ربيع الآخر ١٣٧٦هـ (٩/ ١١/ ١٩٥٦).

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

(٤) نفس المصدر.

وقد قام مع بعض قادة الإخوان بالطواف على السفارتين الروسية والأمريكية «وطلبوا منهما أن يكون التأييد لمصر عملياً سريعاً مطلقاً» وزاروا مفوضيات الباكستان وإيران وتركية، وطلبوا من الوزراء المفوّضين إبلاغ حكوماتهم رغبة العرب والمسلمين بإنهاء التحالف مع بريطانية، وقطع العلاقات معها ومع فرنسة؛ استجابة للشعور العربي والإسلامي العام، كما طلبوا الإسراع إلى نجدة مصر بكل وسائل النجدة العسكرية والمالية والطبيّة[١].

وبهذه المناسبة، فإن الجهد الذي بذله في التدريب العسكري الذي أشرنا إليه أثّر سلباً على صحته، لأنه كان يعاني منذ وقت طويل من تصلب الشرايين وارتفاع ضغط الدم[٢]. وقد قال لي مرة: إن الطبيب نصحه ذات يوم بأن لا يجهد نفسه، وبأن (يُؤَدِّم) في قلبه، على حد قول الطبيب - أي يقتصد في إجهاده بمنزلة من عنده (إدام) قليل - حتى تكتب له الحياة فترة أطول الله أعلم بها.. ولكن أين؟

ألم يقل أبو الطيب حين كان يضرب في الأرض ويسافر في العنفوان:

وإذا كانتِ النُّفوسُ كباراً   تعبتْ في مُرادِها الأجسام

رحمك الله يا أبا الطيب! تعبت.. فقط؟

لو شئت قلت: كثرت في جسومها الأسقام!
أو: شقيت في مرادها الأجسام!

* * *

---

(١) المصدر السابق.

(٢) في سياق الأحاديث التي قدمتها الإذاعة السورية، والتي عبّر فيها رجال الأحزاب والهيئات السياسية وقادة الفكر عن آرائهم في (المعركة التي تخوضها الأمة ضد الصهيونية والاستعمار) أيام العدوان الثلاثي الذي تحدثنا عنه: أعد الأستاذ السباعي كلمة صدّرها بقوله: «نحن أمة لها كيانها ورسالتها، فلن نكون تبعاً لأحد، وسيكون صراعنا مع الاستعمار عنيفاً حتى نطهر أرضنا من سلطانه». ولكنه لم يتمكن من إلقائها بنفسه، لأنه انتقل إلى المستشفى للمعالجة تحت إشراف نخبة من كبار الأطباء، فألقيت نيابة عنه» مساء ٣/١٢/١٩٥٦، رحمه الله؛ انظر جريدة الشهاب العدد (٨٠) في ٨ جمادى الأولى ١٣٧٦هـ و٨ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٥٦م.

السِّيَاسِيُّ وَالبَرلمانِيُّ



السياسي والبرلماني

لم يكن السباعي في معالم حياته السابقة أو التي عرضنا لها حتى الآن بعيداً عن السياسة والسياسيين منذ أن انطلق في كفاحه الوطني ضد الاستعمار الفرنسي والبريطاني في الشام ومصر إلى أن دخل البرلمان نائباً عن مدينة دمشق في أواخر عام ١٩٤٩ . . مروراً بكتاباته السياسية في مجلة (الفتح) ولقائه بممثلي الأحزاب والجمعيات في مكتب الكتلة الوطنية بحمص . . . ومتابعته لأعمال الكتلة وتعاطفه معها، ومقابلته للرئيس هاشم الأتاسي وإعجابه به وثنائه عليه . ثم دخوله المعترك السياسي من أوسع أبوابه . وأعني الصحافة حين أصدر جريدة (المنار) التي تحدثنا عنها . . وأخيراً وليس آخراً جهاده على أرض فلسطين والرؤية التي أتيحت له من خلال ذلك للواقع السياسي ليس في سورية ومصر فحسب، ولكن في الجامعة العربية والوطن العربي بوجه عام .

بل إن السباعي نجح ـ وأكاد أقول تفرّد ـ بعد أن مرّ بجميع هذه المراحل في إدراكه العميق لطبيعة الموقف السياسي، وفهمه لنفسية الطبقة السياسية التي قادت حركة الاستقلال قبل أن تبدأ الأحزاب الناشئة التي تحدثنا عنها في العمل وخوض غمار السياسة : الأمر الذي حدّد له طريقه، أو أعانه على تبين ملامحه . ففي مقالة له بعنوان : «يا شيوخنا في السياسة لقد آذانا ضعفكم فاتركونا نسير»[١] قال :

«ما أعتقد أن جيلين اصطدما في عصر واحد كما يصطدم الشباب العربي مع شيوخ السياسة العربية في عصرنا الحاضر؛ فشيوخ السياسة عندنا نشؤوا في عصر الضغط والإرهاق، وفي عهد التملق والحذر والمداراة؛ فلما خاضوا معركة السياسة ألفوا أنفسهم أمام دول طامعة قوية، تدل بقوتها وتتيه بكبريائها، ولم يحاولوا أن يكونوا خياليين في مطالبهم من هذه الدول، فقصروا حركتهم على ما يمكن تحقيقه من مطالب الأمة، ولم يشاؤوا أن يصطدموا مع المستعمرين إلا مكرهين! فإذا أصابهم نفي أو سجن أو عنت أو عذاب، كان ذلك نتيجة تعسف

---

(١) من افتتاحياته لجريدة المنار ـ العدد (١٦٨) السنة الأولى .

المستعمر أكثر من أن يكون نتيجةً عملوا لها بأنفسهم، وعرفوا خاتمتها، وهم في أول خطواتها . .

«ومن حسن حظ هؤلاء الزعماء أنْ كان في الأمة بقية من إيمان! حفزها للعمل والتضحية، ونفخ فيها روح الأنفة والكرامة، ثم ألقاها في أتون الثورات والمعارك والاصطدامات، فقوافل الضحايا والشهداء والجرحى والمشوهين، وآثار الخراب والثكل واليتم والفقر، إنما كان نتيجة لازمة لثورة الأمة النفسية، التي أجّج الإيمان أوارها، ولم يكن نتيجة روح أثارها زعماؤها الشيوخ، ولا خطط أحكموا وضعها!».

«ولما حاول المستعمرون أن يفاوضوا الأمة الثائرة لم يكن أمامهم إلا هؤلاء الشيوخ، وهم على وطنيتهم وإخلاص كثير منهم ورغبتهم في إنقاذ أمتهم لم يكونوا على قدر كبير من متانة الأعصاب؛ لأنهم في الواقع كانوا يجهلون حيوية الأمة، وطبيعة الاستعمار. **ومن ثَمَّ كانوا يعتقدون بضعف أمتهم وقوة أعدائهم**، فكان أقل ما يلوّح لهم به المستعمر كافياً لأن يعدّوه كسباً عظيماً ونصراً مبيناً. كذلك فعلوا عام ١٩٣٦م في سورية وفي مصر، إذ كانوا ينعتون ما حصلوا عليه من معاهدات يومئذ بينهم وبين المستعمرين بأنها وثائق الشرف والاستقلال! هذا بينما لم يتورعوا عن إضافة ذيول سرية للمعاهدة تفقد ما بقي للأمة فيها من مظاهر الاستقلال».

ويضيف ناعياً على هذا الجيل الضعيف، وداعياً إلى فسح الطريق أمام جيل الشباب الثائر الذي ينتمي هو إليه ويتحدث باسمه. . بعبارات غاية في القوة والثورة!.

«ذلك الجيل الضعيف في أعصابه، الشاك في حيوية أمته، الفزع من قوة أعدائه، البسيط الطيب الذي يخدع بالمواثيق. . بل بالابتسامات والتحيات! هو الذي يقف اليوم حائلاً دون اندلاع النار! نار الشباب الذي يستهين بالصعاب، نار الإيمان الذي يهزأ بقوى الأرض، نار الكرامة التي لا تعرف أنصاف الحلول ولا متوسط الأمور! هذه النار هي التي تضطرم في نفوس الجيل الجديد، ولكن شيوخ السياسة يحاولون إطفاءها، لأن الحكمة تقضي بالوقوف في وجه السياسة الهوجاء! ويريدون بالهوجاء كل تطرف في الوطنية، وتصلّب في الحقوق، واعتزاز بالكرامة. ويرون من مظاهر هذه السياسة الهوجاء: كل ثورة وكل تظاهر،

وكل عنف مع المستعمر، لأنهم أعطوه الموثق الأكيد أن يسيروا معه إلى نهاية الشوط، فكيف يتركون هؤلاء الشباب يغضبونه ويثيرون حفيظته، فتضيع الكراسي، ويذهب الجاه، وتفوت الغنائم، وذلك كله عندهم معناه: ضياع الاستقلال! . . ».

أطلنا في هذا النقل والاستشهاد لنعطي كذلك مثالاً أو صورة لكتاباته السياسية في جريدة (المنار) ولنقف على طرف من أسباب إعجاب الجماهير بها وتعاطفهم معها، وعلى المكانة السياسية المرموقة التي احتلها السباعي قبل أن يدخل البرلمان عام ١٩٤٩م نائباً عن مدينة دمشق، وليس عن مدينته حمص.

ولكن السباعي كان رجل دعوة، أي أنه كان أكبر من سياسي، أو أنه لم يكن سياسياً فحسب، بمعنى أن اشتغاله بالسياسة كان جزءاً من رسالته كداعية ومجدّد، أو جاء في هذا السياق.

الدعوة والسياسة والسياسيين:

وقد ضاعف من اهتمامه بالسياسة فيما يبدو: الظروفُ الانتقالية التي كانت تمر بها البلاد، والتي حتمت جعل السياسة قدراً مشتركاً بين جميع العاملين في الحقل العام، أو فرضت الكفاح الوطني كجزء من رسالة جميع المصلحين ورجالات الأحزاب.

يضاف إلى ذلك: أن المناخ السياسي السائد ـ والذي ألمحنا إلى طرف منه في أوائل هذا الكتاب، وقبل قليل على لسان الأستاذ السباعي نفسه ـ يجعل داعيةً مثل السباعي يلتفت إلى وجوب اشتمال الدعوة على السياسة، لا بوصفها جزءاً من الدعوة نفسها فحسب، بل لأن السياسة كانت كذلك بحاجة إلى إصلاح. ولطالما ربط كثيرون بينها وبين الألاعيب والأكاذيب. . أو ربطوها بالأهواء والمصالح على أقل تقدير.

ولعل هذا ما أشار إليه أستاذنا محمد المبارك حين قال عن أخيه السباعي إنه «لم يستغل الدين في سبيل السياسة، بل جعل السياسة خادماً للدين، محققاً لأهدافه السامية، ووسيلة لخدمة الشعب وتحريره من الشرور والمفاسد والمظالم»[1].

---

(١) مجلة حضارة الإسلام: مرجع سابق، ص١٧.

وربما كان السباعي يشير إلى هذا حين كتب في وقت لاحق ـ في حكمه أو كلماته المأثورة ـ «أصعب شيء على السياسي المستقيم أن يرى الدجّالين في السياسة يستهوون الغوغاء بكاذب من القول، ومعسول الوعود»[1] وحين قال: «بعض السياسيين في أمتنا يبدؤون حياتهم السياسية كالعاشقة، وينتهون إلى أن يكونوا كبائعة الهوى»[2] بل حين أشار إلى أطوار السياسة التي مرت على البلاد؛ قال رحمه الله: «كانت السياسة في بلادنا وطنية، ثم غدت استغلالاً، ثم حاولت أن تكون إصلاحاً، ثم أصبحت اليوم: إما تضحية تجعل صاحبها من الأبطال، وإما وصولية تجعل صاحبها من الأنذال»[3]!.

وقد عبّر عن سخطه وتبرّمه الشديد بالسياسيين الذين يخونون الأمانة، وبالرعاديد من أشباه الرجال! قال رحمه الله: «لنا الله من حراس يردعوننا، وأمناء يخونوننا، ووكلاء يتآمرون علينا، وعيون لنا يصبحون علينا، وأطباء أصبحوا مرضى، ومضمّدين انقلبوا جرّاحين، وأساة صاروا شامتين»[4] وقال: «لنا الله من أشباه الرجال! رعاديد حين يكون السلاح في وجوههم، أبطال حين يكون السلاح في ظهورهم»[5].

الحكم الصالح والسياسي الناجح:

وقد حدد في مقالة له بـ(المنار) مواصفات الحكم الصالح.. كتبها بلغة قانونية وأدبية معاً أو في وقت واحد، وأشار فيها إلى القادة والسياسيين.. فجعل من أبرز صفات الصلاح فيهم أن يعملوا في وضح النهار لا في الظلام، وأن تكون رجولتهم في أعمالهم أبين منها في خطبهم وأقوالهم. وأن «يكون الدهاء عندهم طريقاً لانتزاع حق الأمة من الغاصبين، لا للتغرير بها والتحكم في شؤونها، والتمكن من خيراتها وأموالها، ولو أدى ذلك إلى وضع القيود في أعناقها لتذل للظالمين والمستعمرين»!.

---

(١) الفقرة (٢٢١) من كتابه: هكذا علمتني الحياة: القسم الثاني.
(٢) الفقرة (٢٢٢) من المصدر السابق.
(٣) الفقرة (٢٢٣).
(٤) الفقرة (٢٢٤).
(٥) الفقرة (٢٢٥).

لقد رفض **الكذب** في مواصفات السياسي، وأقر **الوضوح والدهاء** معاً أو في وقت واحد. ولكنه وضع (الدهاء) في مكانه، وحدد له مهمّته، وقدم عليه في إحدى كلماته الأخرى: الأخلاق! قال رحمه الله: «الأخلاق أولاً ثم العلم والدهاء، هذا ما تنتفع به الأمة ممن يتصدّون لسياستها»[1]، والذي نراه في هذا السياق أنه كان ذا حظ وافر من هذه الأمور الثلاثة، وإن كان حظّه من العلم والأخلاق فوق حظّه من الدهاء، فقد بلغ في الأخلاق مرتبةً لا يدانيه فيها أحدٌ من رجالات عصره، وكان له في العلم ـ أياً كان نوعه أو المقصود به في هذا السياق ـ أقران ونظراء.. أمّا في الدهاء فقد وجد من يسبقه ويتقدم عليه![2].

وفي وسعنا أن نقول:

لقد كان للسباعي من الشجاعة وفرط الثقة بالنفس ما يدفع به إلى خوض أقسى المعارك على كل صعيد. ولكن لم يكن له من الدهاء والقدرة على المناورة ما يكتب له معهما الظفر في جميع معاركه السياسية التي خاضها رحمه الله، وبخاصة إذا ذكرنا القوى التي تألّبت عليه، أو وقفت ضدّه. وكان عبوسه وتجهمه في حال عدم الظفر يذكّر ببيت العقاد رحمه الله:

قطوبُ كريمٍ خابَ في الناسِ سعيُهُ أحبُّ من البُشرى بفوزِ لئيمِ[3]

وأياً ما كان الأمر فقد كان السباعي من ألمع السياسيين الذين عرفتهم البلاد.. وربما كان ألمع برلماني عرفته الجمعية التأسيسية السورية التي وضعت دستوراً للبلاد عام ١٩٥٠م، كما سنرى فيما يلي:

---

(١) الفقرة رقم (٢٢٨).

(٢) قال رحمه الله: البصر بالسياسة موهبة لا يكفي فيها الإخلاص ولا الاستقامة. الفقرة رقم (٣٢) من المصدر السابق.

(٣) من ديوان العقاد (وحي الأربعين) والبيت السابق قوله:

فما تحمد العينان كلَّ بشاشةٍ ولا كلِّ وجهٍ عابسٍ بذميم

وبهذه المناسبة فإن ما قاله العقاد في سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه في موضوع الدهاء الذي نتحدث عنه، ينطبق فيما نرى على الأستاذ السباعي، قال العقاد: «فليس من قصدنا أن نصف علياً بقوة الدهاء وسعة الحيلة، ولكننا قصدنا أن نبرئه من عجز الرأي وضعف التدبير...» عبقرية الإمام علي، ص١٠٥، المكتبة العصرية ـ بيروت. بدون تاريخ

في البرلمان

شارك الإخوان وبعض الشخصيات الإسلامية الأخرى في أول انتخابات جرت في سورية بعد الاستقلال، وكان ذلك في شهر تموز (يوليو)[1] ١٩٤٧م. وتم ذلك بالتنسيق والتعاون مع (رابطة العلماء) و(الجمعية الغراء) بدمشق.. اللتين كان لهما نشاط واسع في دعم هؤلاء المرشحين. وكان جامع تنكز

---

(١) جرت هذه الانتخابات يوم الإثنين ١٨ من شعبان ١٣٦٦هـ الموافق ٧ تموز ـ يوليو ١٩٤٧م. وقد وجه الإمام حسن البنا بهذه المناسبة نداء إلى الشعب السوري استهلّه بقوله: «إنّ الشعوب العربية في مختلف أوطانها تنظر إلى الشعب السوري نظرة ممتازة، لأن سلفه حمل الأمانات الأولى إلى شعوب الأرض في زمن التابعين.. ولأنه كان جرثومة (أصل) النهضة العربية الحديثة، لبعث العروبة ودعوتها إلى استئناف رسالتها من جديد» وأضاف: «وفي يوم الإثنين.. يدعى هذا الشعب النبيل لانتخاب نوابه الذين توضع بين أيديهم أمانة التشريع، وتوكل إليهم دفة السفينة، وتسير بدلالتهم القافلة، ويعلق بذمتهم مصير البلاد: في معايشها وإدارتها ونهضتها وعمرانها، وفي سياستها الخارجية، وروابطها بدول الجامعة العربية وتعاونها مع الحكومات الإسلامية».
وبعد أن أشار إلى أن جماعة الإخوان المسلمين في مصر «تحترم المرشحين جميعاً للنيابة عن الشعب السوري الشقيق، وأنها لا تتدخل في السياسة الداخلية لذلك القطر الحبيب» قال: «إن الثناء بالخير شهادة، والانتخاب ثناء عملي بالخير، فلينظر امرؤ على ماذا يشهد، وبماذا يشهد، ولمن يشهد..».
ولم يفته أن يشير إلى غير المسلمين من أبناء الشعب العربي السوري، ويذكّرهم بأن الإسلام نظامهم القومي. قال رحمه الله: «ونحن نعتقد أن المواطنين السوريين الفضلاء من غير المسلمين يرون في الإسلام وتعاليمه وشرائعه نظاماً قومياً يتصل بصميم مشاعرهم العربية وتقاليدهم التي ورثوها من آبائهم وأجدادهم العرب الأمجاد، فتحدرت في عروقهم مع الدماء الزكية لهذا الشعب العربي الكريم ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤] وبخاصة والإسلام الحنيف كدين قد آخى بين الأنبياء والرسل، ووحد بين الشرائع والكتب، وجعل من العقيدة الدينية سياجاً منيعاً للمصلحة القومية.. فلا عجب أن يكون حضراتكم أول المناصرين لدعاته، والمبتهجين لفوزهم في معركة التنافس الشريف التي تدور رحاها الآن في كل نواحي القطر الشقيق». مجلة (الفتح) العدد (٨٤٥) رجب ١٣٦٦هـ(حزيران ١٩٤٧) العام السابع عشر، ص٧٧٤.

(جنكيز) ـ مقر الجمعية الغراء ويقع وسط العاصمة السورية ـ مركز هذا النشاط. ولكن مصطفى السباعي لم يتقدم بالترشيح في هذه الانتخابات لا عن دمشق ولا عن مدينة حمص. في الوقت الذي كان أبرز الخطباء والمتحدّثين في المهرجانات أو الحفلات الانتخابية التي كانت تقام في الجامع المذكور، والتي كانت تستمر طيلة أيام الحملات الانتخابية حتى ساعة متأخرة من الليل. وقد عكست المشاركة الشعبية الواسعة في هذه الحفلات مدى التأييد الجماهيري للمرشحين، بل (الوجه الديني) لدمشق. . . حتى إن شكري بك القوتلي ـ رئيس الجمهورية ـ «حضر في الجمعية الغراء وأعلن بأسماء المرشحين» أي شارك في بعض تلك الحفلات ليضمن التأييد الشعبي لهؤلاء المرشحين![1].

ولكن هذا التأييد الواسع لم يظهر أثره في نتائج الانتخابات. . نظراً للتزوير الذي قامت به الحكومة، حتى إن السباعي اتهمها في مقال حاد كتبه في أعقاب هذه الانتخابات «بقلب الحقائق، وتشويه الواقع، وتخريب الذمم، وتزوير إرادة الشعب، واللجوء إلى أساليب المستعمرين» كما تساءل في المقال قائلاً:

«إن كانت النيابة وسيلة إلى الخير، فلماذا ارتضوا أن يسلكوا إليها سبيل الشر؟ وإن كانت جولة في نصرة الحق، فلماذا استعانوا بقوى الباطل؟ **أوَلَيس سقوط الإنسان في الميدان بحلبة الشرفاء الشجعان أفضل وأشرف من النجاح والغلبة بسلاح اللصوص و(الزعران)**[2].

وقد أشار إلى هذا التزوير الدكتور سامي الجندي حين قال: «إن الجيش تدخّل في هذه الانتخابات ضد الإخوان المسلمين لمصلحة نظام الرئيس القوتلي»[3].

---

(١) انظر كتاب مذكرات سائح في الشرق العربي للأستاذ أبي الحسن الندوي، ص٣٢١، ط٣ مؤسسة الرسالة، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

(٢) كتاب أحكام الصيام وفلسفته للدكتور السباعي، ص١١٥ ـ ١١٦ طبع دار الوراق والمكتب الإسلامي ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م. وقارن إشارة الأستاذ السباعي «للزعران» بـ(القبضايات) الذين أشار إليهم (باتريك سيل) في كتابه: الصراع على سورية، ص٤٨ عندما تحدث عن الحزب الوطني الذي تشكّل بين يدي هذه الانتخابات بهدف تمديد رئاسة القوتلي التي انتهت في ذلك العام. راجع فيما سبق، ص٦٣.

(٣) كتاب (البعث) للدكتور الجندي، ص٥٠، دار النهار للنشر، ١٩٦٩م، بيروت.

أما البرلمان الذي تمخضت عنه هذه الانتخابات فقد بقي نحواً من عام وسبعة أشهر حين قام الزعيم حسني الزعيم بفاتحة الانقلابات العسكرية بتاريخ ٣٠ آذار (مارس) ١٩٤٩. و(الزعيم) الأولى رتبته العسكرية في الجيش، ـ وقد دُعيت هذه الرتبة باسم آخر فيما بعد ـ وما أزال أذكر صوره ببزّته العسكرية وعمرته ونياشينه.. ونحن أولاد صغار ـ في المدرسة الابتدائية ـ نزهو بالحصول على صورة من هذه الصور التي كان يجري توزيعها في صبيحة ذلك اليوم البارد من أيام دمشق!

ولم يطل الأمر بالزعيم، الذي أثارت (إنجازاته!!) علامات استفهام كبيرة، حتى قام عليه انقلاب آخر في ١٤ آب (أغسطس) من العام نفسه. وسوف نشير إلى هذا الانقلاب الثاني في صفحات قادمة. ونكتفي هنا بالقول: إنه تم تحديد تاريخ ١٥/ ١٠/ ١٩٤٩ موعداً لإجراء انتخاب (مجلسٍ تأسيسيٍّ) أو جمعية تأسيسية يُعهد إليها بوضع دستور للبلاد، حيث تقدّم السباعي مع نفرٍ من إخوانه إلى هذه الانتخابات وقام بترشيح نفسه عن مدينة دمشق، ولما يمضِ على إقامته بها بضعة أعوام، وحقق فيها نجاحاً ساحقاً من الدورة الانتخابية الأولى[1]، ونجح معه كذلك الدكتور عارف الطرقجي، والأستاذ محمد المبارك..

وقد عكس هذا النجاح: الشعبية الكبيرة التي بات الأستاذ السباعي يحظى بها على مستوى البلاد السورية بوجه عام.. فإذا لاحظنا أن الدكتور الطرقجي حلبي المولد والنشأة، وأن ترشيحه عن مدينة دمشق يماثل ترشيح الأستاذ السباعي عنها.. أدركنا معنى الملاحظة التي سمعتها منه مرة، والتي نقلها عن دولة السيد ناظم القدسي ـ الذي رأس المجلس النيابي في معظم دوراته، وشكّل بعض الوزارات قبل أن يصبح رئيساً للجمهورية ـ وقد عبّر فيها عن دهشته من نجاح كلٍّ من السباعي والطرقجي عن مدينة دمشق. وقد رأى في ذلك دليلاً على قوة الحركة الإسلامية في بلاد الشام[2]. ولا شك في أن نمو حركة الإخوان في هذه

---

(١) أعلنت نتائج هذه الانتخابات بتاريخ ٨/ ١٢/ ١٩٤٩م، وافتتحت الجمعية بتاريخ ١٢/ ١٢/ ١٩٤٩م.

(٢) قارن هذا بفشل الأستاذ ميشيل عفلق الدمشقي ـ والذي كان ينتمي إلى طائفة الروم الأرثوذكس ـ في انتخابات عامي ١٩٤٧م و ١٩٤٩م مع الإشارة إلى أن دمشق كان لها=

البلاد، وبخاصة في دمشق كان مطرداً. . بل إن التيار الإسلامي أصبح هو الغالب بغض النظر عن عدد (المنتظمين) في سلك الإخوان المسلمين[1]. وقد مكّن هذا

= عشرة مقاعد للمسلمين ومقعدان للمسيحيين، وأن الانتخابات كانت تجري على أساس غير طائفي، بمعنى أن كل مواطن ينتخب اثني عشر نائباً على الوجه المذكور. يقول السيد أكرم الحوراني: «في أواخر شهر آب (أغسطس) ١٩٦٥م تم تعيين المجلس الوطني الموسع من خمسة وتسعين عضواً من ممثلي القيادة القومية والقطرية ومن أعضاء البعث والمستقلين، ومن ستة عشر ضابطاً من بينهم اللواءان صلاح جديد وحافظ أسد. وقد دخل ميشيل عفلق في اليوم الأول لانعقاد هذا المجلس بتاريخ ١/ ٩/ ١٩٦٥م قاعة المجلس النيابي السوري بمظاهرة احتفالية، هذا المجلس الذي حرمه الشعب من دخوله طيلة العهود الديمقراطية السابقة، لقد سقط ميشيل عفلق في الانتخابات مرتين في عامي ١٩٤٧ و١٩٤٩م فشكل هذا السقوط لديه عقدة نفسية من الطريقة الديمقراطية التي تقضي بانتخاب النواب من قبل الشعب»؛ انظر الحلقة (١٠١) من مذكرات أكرم الحوراني: جريدة القدس العربي ـ العدد (٣١٤٤) بتاريخ ١٧/ ٦/ ١٩٩٩م. ونضيف أيضاً أن حزب البعث الذي خاض انتخابات الجمعية التأسيسية في بعض المحافظات السورية لم يفز من مرشّحيه سوى جلال السيد من دير الزور، بالإضافة إلى السيد عبد العزيز حربول الذي أعلن انتسابه للحزب بعد انتخابه بقليل. راجع: حسن الجبوري: مصدر سابق، ص٢١٩.

(١) يقول الدكتور فايز المط: إن عدد المنتسبين للإخوان زاد على مئة ألف في السنوات الأولى (راجع كتاب حسني جرار، ص٥١) ونذكر بهذه المناسبة أن حزب البعث ـ الذي أشرنا إليه في المقدمات ـ كان وضعه في دمشق على النحو التالي، الذي ذكره الأستاذ سامي الجندي ـ أحد أعضاء الحزب الأوائل ـ قال: «كان جُلُّ المنتسبين للحزب في دمشق من العناصر الشابة الطلابية القروية، التي كانت تؤم الجامعات والثانويات بين ١٩٤٠ ـ ١٩٥٥م، حتى إذا انتهت عادت إلى مسقط رأسها فتوالي نشاطها. ولقد كانت الشروط الاجتماعية في الريف مواتية لنشوء الحزب وامتداده، فتضخم فيه وظل هزيلاً في المدن، وخاصة دمشق. ومع الزمن أصبح جسماً كبيراً برأس صغير». وينقل الدكتور نيقولاس فان دام عن التقرير التنظيمي للحزب عام ١٩٦٥م إعداد حنا بطاطو ـ أي بعد الفترة التي نتحدث عنها بنحو خمسة عشر عاماً ـ أنه لم يكن هناك سوى اثني عشر دمشقياً من بين حوالي ستمئة عضو بالحرس القومي البعثي بالعاصمة السورية عام ١٩٦٤م. راجع كتاب الصراع على السلطة في سورية لـ(فان دام)، ص(٣٩ ـ ٤٢)؛ وكتاب (البعث) للدكتور سامي الجندي، ص٣٨. وفي سياق حديثه عن وضع حزب البعث بين ١٩٤٣ ـ ١٩٤٩ قال: «أما الإخوان المسلمون فقد بدؤوا يكوّنون قوة شعبية وجدت في الجمهور مناخاً ملائماً لأفكارها، وجهدت في أن تحتكر تديّن سورية وخاصة دمشق» المصدر السابق، ص٤١.

السباعي من تشكيل جبهة سياسية إسلامية خاض بها الانتخابات المذكورة، وقد سمّى السباعي هذه الجبهة (الجبهة الاشتراكية الإسلامية) وأعلن برنامجها الانتخابي في خطاب ألقاه في اجتماع شعبي كبير عقد في مقهى الحجاز بدمشق في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩٤٩م. وقد بلغ من (تأثير) هذه الجبهة داخل البرلمان وخارجه أن الحزبين الكبيرين ـ أو التقليديين ـ كانا يحاولان استرضاءها، كما يشهد بعض الذين عاصروا تلك الفترة.

السباعي يدعو لسياسية عدم الانحياز:

وسوف نعرض لوصف هذه الجبهة بالاشتراكية في صفحات قادمة عند الحديث عن كتاب الأستاذ السباعي (اشتراكية الإسلام) مكتفين هنا بلفت النظر إلى هذه التسمية المبكرة، ومكتفين كذلك بالحديث عن موقف الأستاذ السباعي ـ والجبهة ـ من الشيوعية، **وتبنّيه لسياسة عدم الانحياز في بادرة غير مسبوقة في السياسة العربية**. وقد عاد للتأكيد على هذه السياسة أمام البرلمان في عام ١٩٥٥م الأستاذ محمد المبارك بعد زوال حكم أديب الشيشكلي[١].

قال الأستاذ السباعي في الاجتماع الشعبي المشار إليه، والذي أعلن فيه البرنامج الانتخابي للجبهة: «ولعل من أكبر أسباب الهزائم السياسية التي تتتابنا: انحيازنا إلى معسكر واحد من المعسكرين العالميين المتناحرين! ولا نعلم لذلك سبباً ـ مقبولاً ـ سوى ما يخوّفنا به من الشيوعية وسيطرة روسية على بلادنا»! قال: «أما الشيوعية كفكرة وعقيدة فلسنا نخاف أن تطغى على فكرتنا وعقيدتنا، وإن لنا من مناعة الإسلام ما يحول دون طغيان الأفكار المخالفة له في الاتجاهات والأهداف.. وأما الشيوعية كمذهب اقتصادي فنحن لا نخاف منها، إذ ليس عند جماهيرنا ما تأخذه الشيوعية وتقضي عليه!.. فليسفروا عن وجوههم،

---

(١) كان ذلك في شهر تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٩٥٥م في سياق حديثه أو دفاعه عن حق مصر في شراء السلاح من الدول الاشتراكية. وقد وصف سياسة بعض الدول الغربية في التدخل في هذا الشأن بـ«الوقاحة» ورفض التسوية بين الدول التي تصارحنا بالعداوة، ودول تسير معنا في كثير من القضايا في الميدان الدولي! وتساءل: «إذاً كيف يمكن أن تكون المساواة بين هذين المعسكرين، أو بين هذين النوعين من الدول»؟ مع الإشارة إلى أن الانتخابات للبرلمان المذكور جرت في جولتين: (٢٤ ـ ٢٥) أيلول و(٤ ـ ٥) تشرين الأول عام ١٩٥٤م وهو البرلمان الذي دخله الأستاذ المبارك كمرشح مستقل.

وليعلنوها لنا بصراحة: إن الخوف من الشيوعية ليس علينا نحن أبناء الشعب، بل على إقطاعياتهم وعروشهم وزعاماتهم وثرواتهم التي باعدت بينهم وبيننا! ألا إن ذهب (ترومان) و(أتلي) لو صُب علينا صباً لن يحول دون انتشار الشيوعية ما دامت الجماهير في هذه الحال المحزنة. كما أن استعمال العنف والقوة في مقاومة الشيوعية لن يزيدها إلا شدة، وما على الذين يخافون منها إن كانوا يغارون على مصلحة شعوبهم إلا أن يعملوا على رفع مستواها والقضاء على شكواها، وتحطيم قيود العبودية عن أفكارها وآرائها وأجسادها وبطونها!.

«وأما الشيوعية كغزو استعماري فنحن لنا من دمائنا ومن آيات الكرامة ما يجعلنا نقف في وجه كل اعتداء وغزو، وأمام أية قوة مهما عظمت. ولكننا نسأل هؤلاء الذين يخوفوننا بالغزو الروسي: لماذا لم يعملوا على جلاء القوى الاستعمارية عن أوطاننا وبلادنا إذا كانوا حقاً يكرهون الغزو الأجنبي؟».

وقال أخيراً: «إننا نعلن بكل وضوح: **إن علاقاتنا مع الدول الكبرى يجب أن تكون على قدم المساواة، لا أن نفضّل دولة على أخرى!**»[1].

وقال في الكلمة التي ألقيت عنه في الإذاعة السورية مساء ٣/ ١٢/ ١٩٥٦ والتي أشرنا إليها في ختام حديثنا عن السباعي المجاهد. قال رحمه الله: «إننا نعلن أننا **أحرار حياديون في هذا الصراع** ـ بين المعسكرين ولن نرضى لأنفسنا أن يكون همّنا الانتقال من دائرة نفوذ إلى دائرة نفوذ آخر.. نحن أمة لها كيانها، ولها فلسفتها، ولها رسالتها، ولن نستطيع تأدية هذه الرسالة إلا يوم نكون أحراراً،

---

(١) جريدة الشهاب العدد (٢٣) في ١٦/ ١٠/ ١٩٥٥م. وانظر فيه نص الكلمة المهمة التي ألقاها الأستاذ المبارك حول رأيه في السياسة الخارجية. ويذكر باتريك سيل أن السباعي قال في الاجتماع التي عقدته الجبهة الاشتراكية الإسلامية في الثاني من آذار (مارس) ١٩٥٠م: «نعتزم التوجه إلى المعسكر الشرقي إذا لم ينصفنا الديمقراطيون.. ونجيب أولئك الذين يقولون: إن المعسكر الشرقي هو عدونا: متى كان المعسكر الغربي صديقاً لنا؟ إننا سنربط أنفسنا بروسية ولو كانت الشيطان نفسه!»؛ قال باتريك سيل معلقاً: «كانت هذه واحدة من عدة انفجارات مشابهة. وما يجدر ذكره هنا هو أن الجبهة الإسلامية الاشتراكية على نقيض الإخوان المسلمين في مصر، بعيدة عن كونها تنظيماً شبه عسكري أو أداة سياسية، كانت وبحق ناطقاً أصيلاً عن الجماهير السورية التي كانت وستبقى مسلمة وغيورة»؛ الصراع على سورية، ص١٣٩.

وسنكافح في سبيل هذه الحرية كل معتدٍ علينا، مهما عزَّ الفداء، وغلا الثمن»[1].

ويمكننا عدّ هذه السياسة المتوازنة في العلاقات مع الدول الكبرى، والتي تحكمها مصالحنا واستقلالنا وموقف هذه الدول من هذا الاستقلال وتلك المصالح.. حجر الزاوية في السياسة الخارجية التي نادى بها السباعي رحمه الله. وقد لا نكون بحاجة إلى الحديث عن إنجازات الإخوان في الحقل السياسي. ولكننا قبل الحديث عن أبرز قضية داخلية دافع عنها السباعي وشغلت الرأي العام، وهي قضية دين الدولة التي برزت خلال وضع الدستور.. نشير إلى مساجلة برلمانية له حول **الوحدة العربية** تظهر مدى إيمانه بهذه الوحدة ودفاعه عنها، من جهة، و(**الطبيعة الديموقراطية الشعبية**) التي كان يطلبها لهذه الوحدة، من جهة أخرى:

دفاعه عن النظام الجمهوري:

في الجلسة الرابعة التي عقدتها الجمعية التأسيسية بتاريخ ٢٧ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٩م تقدمت (لجنة وضع صيغة القسم) الذي كان على أعضاء الجمعية أن يؤدوه، باقتراح الصيغة التالية: «أقسم بالله العظيم أن أحترم قوانين الدولة وأحافظ على استقلال الوطن وسيادته وسلامة أراضيه وأصون أموال الدولة وأعمل لتحقيق وحدة الأقطار العربية».

وطال النقاش حول المراد بقوانين الدولة، أهي القوانين الدستورية أم العادية؟.. وحول الفقرة الأخيرة المتعلقة بوحدة الأقطار العربية.. وشارك في هذا النقاش الكثير من النوّاب منهم الأستاذ أكرم الحوراني والأستاذ السباعي، اللذان شاركا أكثر من مرة.. وحسم النقاش تقريباً حين توجه الأستاذ الحوراني إلى النواب يرجوهم الموافقة ـ فقط ـ على وضع الفقرة المتعلقة بالحفاظ على النظام الجمهوري، وكانت هذه الفقرة قد اقترحت في سياق النقاش؛ قال الأستاذ أكرم: «لأننا نؤمن بأن هذا النظام هو النظام الأفضل لتحقيق الوحدة العربية الصحيحة. أما المشاريع الاستعمارية التي يراد فرضها على البلاد العربية فهي ليست لتحقيق هذه الوحدة، بل للحيلولة دون تحقيقها. ونحن نخشى أن نقيم عروشاً لنمنع وحدة صحيحة». كان السيد الحوراني يعرّض بما سمي مملكة

---

(١) الشهاب: العدد رقم (٨٠) مرجع سابق، راجع ص٢٥٢.

سورية الكبرى، أو مشروع الهلال الخصيب الذي كان يرمي إلى ربط سورية بالعرش الهاشمي في العراق! ثم تبعه في المساجلة والحديث الأستاذ السباعي . . وكان مما قاله: «**إننا دعاة وحدة عربية منذ الصغر** . . ولكن هذه الوحدة تحول دونها مطامع وأهواء. ومن هذه المطامع والأهواء مطامع دول أجنبية في بلاد العرب. ولقد علّمتنا تجربة فلسطين أن من أكبر أسباب الهزيمة التي منينا بها: تضارب أهواء الملوك والرؤساء والأمراء، ولذلك فإن في لفظ هذه الكلمة التي تدل على وحدة البلاد العربية دون الإشارة إلى المحافظة على نظامنا الجمهوري ما يفيد أن المجلس يريد القضاء على هذا النظام من أساسه.

«إن هذه البلاد أحبت النظام الجمهوري واعتنقته واعتقدت بصلاحه. وإننا نعلن بكلِّ إيمان وصراحة ووضوح بأننا لا نريد عن النظام الجمهوري بديلاً. . **إننا نريد لوطننا نظاماً شعبياً ديموقراطياً، يقوم على إرادة الشعب وتتمثل فيه إرادة الشعب**. . » ثم أضاف متحدثاً بلسان المجلس كله: «وليس هنا من أحد يكره الوحدة العربية، ولكننا نريدها وحدة شعوب لا وحدة ملوك، ولا وحدة عروش، ولا وحدة تيجان»!.

وكان في هذا القول تعريضٌ واضح بالسيد عصام المحايري، النائب عن الحزب السوري القومي، الذي كان يتبنى فكرة الأمة السورية وليس العربية، كما أسلفنا، فاعترض قائلاً «إن ثمة عائقاً يحول دون تحقيق الوحدة العربية، وهو عائق طبيعي فرضته الطبيعة بجعلها أقطار العالم العربي أقطاراً منفردة بعضها عن بعض»! فأحدث هذا القول ضجة في البرلمان، اضطر معها رئيس الجمعية السيد رشدي الكيخيا إلى مقاطعته وتوقيفه قائلاً: «إنَّ ما يثيره هو من المبادئ الحزبية التي لا مجال لها الآن». وكان الأستاذ السباعي نائباً لرئيس الجمعية أو أحد نائبي الرئيس.

* * *

المعركة الدستورية حول دين الدولة

قامت حول (المادة) المتعلقة بدين الدولة معركة كبيرة داخل أروقة البرلمان وخارجه كذلك. ولعل الشارع السوري والرأي العام لم ينشغل بقضية دستورية كما انشغل بهذه القضية. وكانت الجمعية التأسيسية قد انتخبت لجنة من تسعة أعضاء، سميت لجنة الدستور، عهدت إليها بوضع مشروع الدستور تمهيداً لمناقشته وإقراره من قبل الجمعية، وكانت برئاسة الأستاذ سهيل فارس الخوري نائب دمشق، ومقررها الأستاذ عبد الوهاب حومد نائب حلب.

وكان الأستاذ السباعي أحد أعضاء هذه اللجنة، ولهذا كان رحمه الله «يؤثر أن يظل النقاش حول دين الدولة محصوراً بين أعضاء لجنة الدستور والمجلس التأسيسي» كما قال: حتى إنه «أوقف كل نشاط في الدعاية لهذه الفكرة - قضية دين الدولة - سواء في أوساط الجمهور أو الأندية العامة أو على صفحات الصحف» قال: «ولم أبد رأيي من قبل إلا حين طلبت مني (المنار) الإجابة عن أسئلة تتعلّق بهذه الفكرة، فأجبت بما أعتقد أنه في غاية الصراحة واللياقة ومراعاة شعور المعارضين لنا، وخاصة أبناء الطوائف الأخرى».

ولكنه وجد نفسه مضطراً إلى أن يكتب في ذلك بياناً - تاريخياً - يتوجه به إلى أبناء الأمة حين وجد أولئك المعارضين ينشرون البيانات التي تعبر عن رفضهم لإقرار المادة المذكورة في الدستور. وفي ذلك يقول الأستاذ السباعي:

«ولكني قرأت أول أمس بياناً نشرته بعض الصحف لمن أسموا أنفسهم خريجي الجامعات العليا، وزعموا أنهم كلهم مسلمون، **وقد خانتهم الجرأة والشجاعة، فلم يذكروا لنا اسماً من أسمائهم لنعرف مبلغ الصدق فيما ادعوه من تخرجهم في الجامعات العليا، ومن انتسابهم إلى الدين الإسلامي.**

وقرأت أمس بياناً من بطريركية الروم الكاثوليك بدمشق، كما قرأت مثله في معناه لبعض أحبار النصرانية في المدن السورية[1].

---

(١) يقول باتريك سيل: «وقد نشرت صحيفة البعث بأن (٢٣٥) طالباً جامعياً قد التمسوا من=

«وحيث نزل أصحاب الرأي الثاني إلى الميدان الصحفي الشعبي يدلون بآرائهم وحججهم، أصبح من واجبنا أن ندلي بحججنا وآرائنا، وأن نطلع الرأي العام على حقيقة فكرتنا، وأن نناقش أدلة المخالفين ونفندها. والأمر بعد ذلك كله للشعب؛ إذ هو مصدر كل سلطة، وسيادته هي السيادة الحاكمة التي تتمثل في مجلسه التأسيسي وحكومته الدستورية».

وسوف نثبت نص هذا البيان بعد قليل، ولكننا نشير هنا إلى أن هذا البيان الصادر بتاريخ الثامن من شباط (فبراير) عام ١٩٥٠م **يُعدُّ المرافعة المكتوبة التي قدمها السباعي للرأي العام السوري الذي بقي مشغولاً بهذه القضية أكثر من سبعة شهور**.. وقد أوضح السباعي في هذه الوثيقة الأسباب التي تدعو إلى النص في الدستور على دين الدولة، ولماذا يجب أن يكون دين الدولة هو الإسلام.. فأبان عن ديموقراطية هذا النص، وعن المصلحة الداخلية والمصلحة القومية والمصلحة السياسية التي تدعو إليه، قبل أن يناقش اعتراضات الطوائف المسيحية في البلاد، واعتراضات كل من القوميين والعلمانيين وبعض الحقوقيين. وقد صيغت هذه الوثيقة أو هذه المرافعة بلغة علمية رفيعة، وبأسلوب بعيد عن الإثارة والنعرة الطائفية التي طالما كرهها السباعي، وندّد بها في مواقفه وكتبه وخطبه ومحاضراته.

ثم قام بعد هذا البيان بشرح موقفه في كثير من الخطب في الوقت الذي تقدم فيه الشعب (بآلاف العرائض والبرقيات) كما أشار هو إليها في بعض جلسات الجمعية التأسيسية، بل في أول جلسة عقدتها لمناقشة مشروع الدستور الذي تقدمت به اللجنة. فقد اضطر السباعي في هذه الجلسة التي عقدت بتاريخ ٢٤ تموز (يوليو) عام ١٩٥٠م أن يبدأ مرافعته في هذه القضية، بدلاً من أن تبدأ اللجنة بالحديث عن مشروع الدستور بصورة عامة، ثم تأخذ في مناقشته مادة مادة! فقد بادر نائب دمشق ـ عن الروم الكاثوليك فيما أعتقد ـ السيد الياس دمّر بإثارة هذه المسألة.. متهماً الذين ينادون بها بأنهم يعملون بوحي الأجنبي!!!.

ويبدو لنا ونحن ننظر الآن في هذه المسألة، ونتصفح المساجلات الطويلة

= رئيس الدولة أن يقضي على كل الفوارق الطائفية، واهتمت الطوائف المسيحية كثيراً بالأمر، وعالجت معظم عظات عيد الفصح هذا الموضوع، وقال بطريريك اليونان الكاثوليك لجموع المصلين: «عليكم أن تناضلوا لتبرهنوا على أن الحق إلى جانبكم، وأنكم لستم لاجئين في وطنكم». الصراع على سورية، ص١٢٩. مرجع سابق.

التي شهدتها تحت قبة البرلمان أن مثل هذه البذاءة من قبل دمّر كانت مقصودة حتى لا يتم النقاش في جوّ علمي ووطني هادئ ومسؤول! كانت المواد المقترحة كما جاءت في بيان الأستاذ السباعي المشار إليه، وكما أقرتها لجنة الدستور على النحو التالي:

١ ـ الإسلام دين الدولة.

٢ ـ الأديان السماوية محترمة ومقدسة.

٣ ـ الأحوال الشخصية للطوائف الدينية مصونة ومرعية.

٤ ـ المواطنون متساوون في الحقوق لا يحال بين المواطن وبين الوصول إلى أعلى مناصب الدولة بسبب الدين أو الجنس أو اللغة.

السباعي يرد على إلياس دمّر:

التفت الأستاذ السباعي إلى الزميل السيد الياس دمّر قائلاً إنه: «عبر عن معارضته بشكل بعيد عن الذوق واللياقة، إذ تعرض لزملائه تعرضاً غير جميل، ونعتهم بأنهم يعملون بوحي الأجنبي»، واستنكر الأستاذ السباعي إثارة هذه العاصفة في أول جلسة يعقدها المجلس لمناقشة الدستور بعد أن طال انتظار الشعب له، وقال: «أرجو أن يعتقد معي الزميل بأنه لم يكن موفقاً في موقفه هذا، وأنه كان أبعد الناس عن رعاية المصلحة العامة في هذه الجلسات التاريخية»! ثم قال: «**إنَّ الذين نادوا بمبدأ دين الدولة ولي الشرف أن أكون أحدهم في هذا المجلس، لم يكونوا يستوحون إلهاماً أجنبياً، وإنما استوحوا الأكثرية الساحقة من هذا الشعب**، الذي تجدون تصميمه على تسجيل هذه المادة في الدستور بآلاف العرائض والبرقيات والرسائل، هذا الشعب الذي تعلمون مقدار تمسكه بدينه وخاصة في دمشق التي جعلت رجلاً كإلياس دمر لا يستطيع أن ينجح في الانتخابات إلا بعد أن تقرب إلى المسلمين فيها بأن سمّى نفسه «محمد الياس دمر»! وعندما قاطعه السيد دمر قائلاً: «أنا لم أقل ذلك وإنما الشعب هو الذي سماني بذلك»! أجابه الأستاذ السباعي بقوله: «بل أنت الذي كنت تقول ذلك، وقد قلت لي منذ شهر في غرفة المحاسبة بهذا المجلس بأنك لا تزال تسمى محمد الياس دمّر، ولقد ذهبت في الانتخابات إلى أبعد من هذا، فكنت تقول للمسلمين بأنك رجل مسلم، وأنه لا يمنعك من إعلان إسلامك إلا خوفك من أذى المسيحيين.. بل ذهبت إلى أبعد من هذا وذاك..»!.

ثم توجه إلى أعضاء المجلس قائلاً:

«إنَّ الشعور الديني العميق لدى أكثر أبناء الشعب إذا أدى بالسيد الياس دمر إلى أن يتملّق له بكل هذه الأساليب إنما هو شعور بريء، ومن الظلم له ولممثليه في هذا المجلس أن يتّهم ويتهموا بأنهم حين يطلبون النص على دين الدولة يعملون بوحي أجنبي هبط عليهم»!.

وأضاف قائلاً: «أما الزعم بأن النص على دين الدولة تفرقة بين أبناء الشعب وإثارة للنعرة الطائفية فهو زعم باطل، لأننا لا نريد بهذا النص تمييز المسلمين عن غيرهم، ولا افتئاتاً على حقوق المواطنين المسيحيين. وحسبكم أن ترجعوا إلى نص المادة كما جاءت في المشروع، لتعلموا أنها كتبت بروح نبيلة تشعر بالإخاء بين المواطنين، وليس القصد منها إلا تحقيق أهداف سياسية وقومية واجتماعية هي في مصلحة هذا الشعب مسلميه ومسيحييه على السواء. ولو كان النص على دين الدولة يؤدي إلى التفرقة بين أبناء الوطن الواحد لما جاز لكثير من دول أوروبة وأمريكة أن تنص عليه في دساتيرها..»[1].

وبعد أن استعرض بعض هذه الدول، إلى جانب بعض الدول العربية.. وفنّد الدعوة إلى فصل الدين عن الدولة.. **عرض لحجةٍ أو لشبهةٍ أخرى كان يرددها الطرف الآخر، فقال:**

«وأما أن الغرب يسره أن نقيم دولتنا على أساس الدين، فهذا وهم خاطئ، وتجاهل لحقيقة موقف الغرب من الإسلام!.. إن أوروبة ما زالت تشنّ الحروب الفكرية والسياسية والأخلاقية لتبعدنا عن الإسلام وعن أدياننا.. إن تاريخ الشرق الحديث طافح بالثورات ضد الاستعمار، والغرب يعلم تماماً أن مبعث هذه الثورات هو الإسلام الذي قامت ثورته الكبرى على محاربة الظلم والطغيان والاستبداد، **وحسبكم أن تعلموا أن المغرب العربي، وأخص منه الجزائر ما برح منذ مئة وعشرين سنة يكافح الاستعمار الفرنسي بروح الإسلام وروح محمد ﷺ والقرآن».**

وختم كلمته بالحديث عن أهم مزايا المشروع من وجهة نظره، وعدّ منها:

---

(١) مذاكرات الجمعية التأسيسية ـ الجلسة الثامنة والثلاثون بتاريخ ٢٤/٧/١٩٥٠م، ص٦٣٧.

«النصوص المتعلقة بملكية الأراضي، ورفع مستوى الفلاح، وحماية العامل، والضمان الاجتماعي، مما يسبغ على دستورنا ثوباً اشتراكياً معتدلاً، هو في رأيي قريب من الاشتراكية الإسلامية المعتدلة»[1].

نقاش ومساجلات حول (دين الدولة):

الحديث عن مساجلات الجمعية التأسيسية حول دين الدولة طويل.. وقد انقلبت هذه المساجلات إلى معارك في بعض الأحيان. وهي جديرة بأن تفرد بالبحث، وقد كتب فيها فيما أذكر أكثر من مقالة الأستاذ الدكتور جورج جبور على صفحات جريدة (الحياة)، وليس في وسعنا متابعة هذه المساجلات، فضلاً عن تحليلها والتعقيب عليها، في هذا الكتاب. ولكننا نذكر أن الأستاذ السباعي والجبهة الاشتراكية الإسلامية وطائفة أخرى من النواب لم تنجح في إقرار المادة الأولى السابقة على هذا النحو، وهي المادة التي عرفت في بعض المداولات بمادة الكلمات الثلاث!! ولكنها نجحت في إقرار بعض المبادئ والنصوص الإسلامية المهمة الأخرى. ونرى لزاماً علينا أن نعرض ـ بعد قليل ـ لهذه النصوص، لنقف على مدح النجاح الذي حققه السباعي على صعيد الفكر والدعوة الإسلامية وعلى الصعيد السياسي.. أو الأمانة السياسية حين وفّى لجماهير دمشق التي أحبّته وانتخبته ليعبر عن أمانيها في وضع دستور ذي صبغة إسلامية يعبر عن دينها وقيمها. ولكننا نشير قبل ذلك إلى طرف عابر من العنت والمعاناة التي لقيها السباعي في سبيل ذلك داخل المجلس وخارجه على حد سواء!

حدثني ذات يوم أنه قام بزيارة الأستاذ أكرم الحوراني لإقناعه بالتصويت مع النواب الاشتراكيين لصالح المادة المذكورة ـ وكان الحوراني كما تشهد مذاكرات الجمعية التأسيسية شخصية فاعلة ومؤثرة، ونعتقد أنه في هذا كان لا يقل عن الأستاذ السباعي[2] ـ وبعد حديث طويل، قال السيد الحوراني: اسمع يا شيخ

---

(١) المصدر السابق، ص٦٣٨.

(٢) مع ملاحظة أن السباعي أسد والحوراني ثعلب، وأن أولهما كان يستند إلى الشعب، والثاني إلى الجيش والشعب (الريف على وجه الخصوص). وعلى الرغم من أن الحوراني يمكن عدّه من أبرز الشخصيات السياسية في تاريخ سورية الحديث؛ فإنه يأتي في طليعة المسؤولين عن إقحام الجيش في السياسة، وربما عن تكريس الطائفية في الحياة السياسية السورية، وقد عاد باللائمة على نفسه في ذلك في وقت متأخر، كما قال للأستاذ السباعي ذات يوم حين ذكّره بموقفه من مسألة (دين الدولة).

مصطفى أنا مسلم سنّي. . ولكنني لا أستطيع أن أجيبك إلى ما تريد، ولن أصوّت في المجلس لصالح المادة! لقد قرأتُ الدهشة التي ارتسمت على وجه الأستاذ السباعي وهو يحدث بهذا بعد عقد كامل من الزمان[1]!.

لقد كان ضغط الشارع والرأي العام كبيراً. . وارتقت المادة المذكورة ـ من عنف السجال وحساسية الموقف ـ إلى درجة الفروض لدى هذا الرأي أو في العرف العام. . حتى كأن عدم النص عليها في الدستور يعني التخلي عن الإسلام أو أن هوية الأمة والشعب قد جرى عليها العدوان. . في حين أن الأمر تحت قبة البرلمان لم يكن بهذه الحساسية على الرغم من المواقف التي أشرنا إلى بعضها ـ موقف الياس دمّرـ وربما كانت مثل هذه المواقف إلى جانب ما أشرنا إليه من بيانات بعض العلمانيين ورجال الطوائف هي السبب في تلك الحساسية الشديدة.

ثم انتهى الأمر في الجمعية إلى الموافقة على بعض النصوص التي عُدِّت من قبل الأستاذ السباعي والاتجاه الذي كان يمثله مقبولة بل جيدة، وهي النصوص التي سوف نعرض لها بعد قليل. . بدليل أن الأيام أثبتت نجاعتها وفاعليتها في حماية القيم الإسلامية والدفاع عنها، وفي شروع البرلمان في وضع قانون مدني مستمد من أحكام الشريعة الإسلامية!

حدَّثني والدي رحمه الله أن رأي (العلماء) ورأي الشيخ حسن تحديداً ـ ويعني فضيلة الشيخ حسن حبنكة رحمه الله ـ كان أن يقدم السباعي وإخوانه استقالاتهم من المجلس أو من الجمعية التأسيسية إذا رُفضت المادة المذكورة!

---

(١) عقد السيد أكرم الحوراني مؤتمراً صحفياً بتاريخ ١٥/ ٤/ ١٩٥٠م تحدث فيه عن قضية فلسطين، وعن مسألة دين الدولة. . وقال عن هذه المسألة: إن الجمعية التأسيسية عاكفة على وضع دستور البلاد، وهي حرة من كل تأثير وضغط مهما كان نوعه! وأكد أن هناك عناصر أجنبية ذات سياسة معينة تعمل في هذا المجال بشكل يهدد استقرار الشعب السوري(!!)، وقال: إن الحكومة ستضرب بيد من حديد على مثيري هذه الدعايات، ولذلك قررت منع كل مظاهرة سلمية كانت أم غير سلمية لهذا الغرض. قال: وهدفنا هو حماية الجمعية التأسيسية من كل ضغط. راجع كتاب: النكبات والمغامرات: تاريخ ما أهمله التاريخ من أسرار الانقلابات العسكرية السورية للكاتب الصحفي بشير فنصة، ص٢٧٥. وقد جاء عقد هذا المؤتمر الصحفي للسيد الحوراني في الوقت الذي كان السباعي في مصر، حيث ناقش أطروحته للدكتوراه بتاريخ ١٢/ ٤/ ١٩٥٠ علماً بأن البيان الذي تقدم به السباعي للأمة حول مسألة دين الدولة كان بتاريخ ٨/ ٢/ ١٩٥٠.

كتمهيد لتحرك شعبي واسع يجبر المجلس على تبني هذه المادة. . وأنهم أو أن الشيخ حسن كفيل بهذا التحرك وتحقيق هذه النتيجة. . ولكن النوّاب لم يقدموا استقالاتهم. . بل قبلوا بالنصوص الدستورية الأخرى! وكان لسان الحال ولسان المقال أيضاً ـ كما سمعته من بعض الأطراف ـ يلوم الأستاذ السباعي. . بل يعرّض به وينال منه رحمه الله!

وهكذا خرج الأمر من أن يكون خلافاً في الاجتهاد ووجهات النظر ـ وبخاصة مع اختلاف المواقع ـ من أجل تحقيق الغاية التي كان يسعى إليها الصف الإسلامي أو جمهور المتدينين، وعلى رأسهم الإخوان ورابطة العلماء ـ ولا أستطيع في هذا السياق أن أجزم برأي جميع أعضائها ـ إلى ضرب من الانتقاد الحاد. . الذي وصل في بعض الأحوال الشاذة أوالقليلة إلى ضربٍ من ضروب الاتهام والتشهير!.

كان مدخلي لاستيضاح صورة الموقف حول هذه القضية من وجهة نظر الأستاذ السباعي أن سألته ذات يوم عن مدى التعاون بينهم ـ أعضاء البرلمان ـ وبين العلماء أوالمشايخ، فقال: كان قائماً وكنا نطلعهم على ما كان يدور في المجلس! قلت: والأستاذ الشيخ حسن حبنكة؟ قال: كان من أبرز العلماء المهتمين بهذه القضية. . ولقد ذهبنا لزيارته مرة أنا والأستاذ المبارك. . ففوجئنا بأن الاجتماع ـ وكان معداً له فيما يبدو ـ كان أقرب إلى المساءلة والمحاكمة. . ولم يقل أكثر من ذلك في الوقت الذي ظهر أثر الامتعاض في وجهه. . لقد أثّر فيه فيما يبدو: خروج الموضوع من ساحة شورى وتبادل الرأي إلى دائرة الاتهام والتقصير على أقل تقدير! رحم الله الجميع.

* * *

نص البيان حول الدين والدولة

ونثبت فيما يلي نص البيـان الذي تقدم به السباعي إلى الرأي العام بتاريخ ٢١ ربيع الثاني ١٣٦٩هـ و ٨ شباط (فبراير) ١٩٥٠م، والذي استهله بقوله: «الحمد لله، والصلاة والسلام على رسله، وعلى دعاة الحق والخير إلى يوم الدين. لقد كنت أوثر بناء على رغبة لجنة الدستور ورغبة المصلحين جميعاً أن يظل النقاش حول دين الدولة محصوراً بين أعضاء لجنة الدستور والمجلس التأسيسي، ومن أجل هذا أوقفت كل نشاط . . . »إلخ. وقد نقلنا هذه المقدمة قبل صفحات. ثم جاء نص البيان على النحو التالي:

لماذا نطالب بالنص على دين للدولة؟

الدساتير تعبر عن رغائب الشعوب، واتجاه قادتها وممثليها في الإصلاح الذي يلزمها، ولا شك أننا نحن السوريين جزء من الأمة العربية، وإرادةُ الأمة العربية واضحة جلية في أنها تريد أن تشق طريقها إلى المجد في ظلال العقيدة والأخلاق، تلك هي طبيعة الأمة العربية في جاهليتها وفي إسلامها وفي حاضرها، وكل ادّعاء بغير هذه الحقيقة يكذبه الواقع، وكل محاولة للانحراف بالأمة العربية عن هذا السبيل ستصده إرادة الأمة الحازمة، **وكل دعـوة إلى اتجاه نحو العلمانيـة والإلحاد، تنذر بخطر جسـيم على حاضر العرب ومسـتقبلهم،** فالإنسـانية اليوم تتجه نحو الـروح والإيمان بعد أن حطمت الماديـة أعصابها، وجرّتها إلى الشـقاء، ولسنا نحاول التدليل على ميل الأمم الحديثة نحـو هذا الاتجاه بعد أن أقرت هيئة الأمم افتتاح حفلاتها بصلاتها لله، لأنها في حاجة إلى حمايته.

وسنذكر فيما بعد أن أحدث الدساتير الراقية من شرقية وغربية قد نصت على الدين في دستورها، وإذا كانت الإنسانية في حاجة إلى الأديان ترد إليها الثقة والطمأنينة، فنحن أحوج ما نكون إلى هذه الثقة والطمأنينة، خصوصاً بعد أن قامت بجوارنا دولة إسرائيل، وهي دولة تجند الدين لتجمع شمل اليهود في

العالم، وتستثير حماستهم، وتستدر أموالهم، وقد نصت في أول دستورها على أنها قائمة على المبادئ التي جاء بها أنبياء إسرائيل، كما نصت في آخر مادة من دستورها على أن القضاء رقيب على القوانين الحالية، بحيث يجب أن يردها إلى التشريع اليهودي، وأن كل تشريع سينشأ في المستقبل يجب أن يقوم على أساس التشريع اليهودي. . فإذا كانت هذه تجند الدين لتوطيد أقدامها في فلسطين، ثم لتمديد عدوانها إلى ما يجاورها، ونحن أول من يتعرض لعدوانها؛ أفلسنا ملزمين بأن نجند الدين لإلهاب الشعور العام واستثارة حماسة الشعب، وبذل ماله في التسلح وتقوية الجيش وبذل الجهد والطاعة والتنفيذ لكل نظام في الدولة يؤدي إلى قوتها وصيانتها؟! أفلسنا نحتاج إلى الدين بعد أن رأينا في معركة فلسطين أن الذين حاولوا أن يستثيروا العرب عن غير طريقه فشلوا، وأن الذين جاهدوا واستبسلوا واستشهدوا لم يدفعهم إلى ذلك إلا الدين، الذي يعدهم بالخلود في الجنة، إذا وهبوا أرواحهم لله؟. إننا نحاول أن نبني دولة، فلتكن على أسس قوية، ونحاول أن نعالج مشكلات، فلنعالجها بروح الواقعية، ونحاول أن نحل أزمة مستعصية، فلنعرف أقرب الطرق إلى حلها، ولست أرى أصدق من تصوير واقعنا وواقع الإنسانية اليوم من كلمة للوّرد صموئيل زعيم حزب الأحرار البريطاني إذ قال في خطاب له بتاريخ ٢٥ شباط (فبراير) ١٩٤٧م: «إن الأزمة الحالية التي تعانيها الإنسانية هي أزمة أخلاقية، ويجب انعاش الروح الدينية إذا أردنا التغلب عليها».

وما دمنا في حاجة إلى الإيمان لنتغلب به على الصعاب ونحلّ به أزمتنا النفسية والأخلاقية، فلنجعل هذه الرغبة في دستورنا واضحة جلية، حتى تكون الخطة واضحة لكل حكومة وكل مجلس وكل متزعم لهذا الشعب في المستقبل، ومن ثم فالنص على أن للدولة ديناً أمر ضروري تحتمه مصلحتنا الاستقلالية والوطنية والأخلاقية، ولا يعارض في هذا الأمر إلا من يريد أن نسبح في بحر العلمانية الملحدة، لنتردى في الشقاء أكثر مما نحن فيه، ونفقد البقية الباقية من الأمل بالمستقبل والثقة بالنفس، والقوة المعنوية، التي تحيل هزائم الشعوب إلى انتصارات خالدة.

ولماذا يجب أن يكون دين الدولة الإسلام؟:

إذا كان النص على أن للدولة ديناً أمراً تحتمه المصلحة العامة، فأي دين ينبغي أن يكون دين الدولة؟.

١ ـ القواعد الديمقراطية :

إن القواعد المتبعة في دساتير العالم وأنظمة الأحزاب ومداولات المجالس النيابية، بل في عرف الدنيا جميعاً أن رأي الأكثرية هو المتبع والمعمول به، فإذا قلنا: إن دين الدولة الإسلام وهو دين تسعة أعشار السوريين ودين ٩٨٪ من العرب أنكون في هذا قد تجاوزنا الحق؟ وأهدرنا المنطق؟ وخالفنا الديمقراطية؟ وهذه هي الدول التي نصت دساتيرها على دينٍ معين إنما اتخذت دين الأكثرية دينها الرسمي في كثير من الأحيان.

فجمهورية الأرجنتين نصت في المادة الثانية من دستورها الصادر في ٢١ آذار ١٩٤٩م أنها تدعم أو تؤيد أو تساند المذهب الكاثوليكي الرسولي الروماني. وهذه جمهورية إيرلندة تنص في دستورها الصادر في عام ١٩٣٧م أن الكنيسة الكاثوليكية هي الكنيسة المفضلة ذات الامتياز في الجمهورية.

هذا عدا عن دساتير الدول العربية والإسلامية، وليس في الدنيا دولة لا يدين شعبها إلا بدين واحد؛ **بل في كل دولة أكثرية في الدين وأقلية**، فهل نكون قد أتينا ببدع من الأمر إذا مشينا على القاعدة التي تمشي عليها دول العالم؟.

٢ ـ المصلحة الداخلية :

والدولة السورية اليوم في وضع داخلي مؤلم لا ينكره أحد، وعبثاً تحاول النظم والقوانين أن تصلح روح أمة مالم يكن معها وازع نفسي من دين وخلق، فإذا أردنا لهذا الشعب حياة كريمة، وتعلقاً بالدولة، ودفاعاً عن الوطن، كان النص على دين الدولة الإسلام حافزاً للشعب ـ وهو في أكثريته الساحقة مسلم ـ أن ينفذ النظم التي تسنّ له، والأوامر التي تصدر في مصلحته من حكوماته، إذ يرى في ذلك أمراً دينياً محتماً، لا يجوز التخلي عنه، **ولعمري إنّ أية حكومة في الدنيا مهما كانت قوية راقية تحتاج إلى هذا الوازع الديني النفسي**، فكيف تستغني عنه جمهوريتنا الناشئة المحاطة بالصعاب!؟.

٣ ـ المصلحة القومية :

ونحن السوريين دعاة وحدة عربية، نعتبر أنفسنا جزءاً من الأمة العربية، ووطننا السوري جزءاً من الوطن العربي الأكبر، وجمهوريتنا هي اليوم عضو في الجامعة العربية، وستكون غداً بفضل الله جزءاً من الدولة العربية الواحدة،

والعرب سبعون مليوناً على أقل تقدير، ثمانية وستون مليوناً منهم مسلمون واثنان مسيحيون، ودول الجامعة «ما عدا لبنان لوضعه الخاص به» تنص في دساتيرها على أن دين الدولة الإسلام كما في مصر والعراق والأردن، أويقوم واقعها على ذلك كالمملكة العربية السعودية واليمن، **فالنص على أن دين الدولة الإسلام عامل قوي من عوامل الوحدة الشعبية بيننا وبين إخواننا العرب، ومظهرٌ رسمي من مظاهر التقارب بين دول الجامعة العربية،** فلماذا نهمل أقوى عامل من عوامل الوحدة العربية شعبية ورسمية، ولماذا نتجاهل الواقع الملموس؟..

٤ ـ المصلحة السياسية:

والعالم اليوم ينقسم إلى كتل سياسية كبرى، وكل معسكر يسعى إلى توسيع نفوذه الثقافي والاقتصادي والفكري والاستعماري.. يبذل في سبيل ذلك الأموال الطائلة والجهود الجبارة.

ونحن العرب في واقعنا المؤلم، وفي حياتنا المقبلة لا بد لنا من ميدان نفوذ يساعدنا في الميادين الدولية، ويتصل بنا بعاطفة الحب أو الصداقة أوالتعاون، وقد جعل الإسلام لنا في العالم الشرقي ميدان نفوذ يضم أربعمئة مليون مسلم، كلهم يحبون لغتنا وتراثنا وكتابنا وثقافتنا، حتى إن الباكستان قد قررت اعتبار اللغة العربية لغة رسمية لها، وقد رأيناها في هيئة الأمم تدافع عن حقنا في فلسطين دفاعاً حاراً قوياً استحق شكر الدول العربية وشعوبها، من حيث كانت الدول الغربية المسيحية تتآمر على مهد السيد المسيح ومبعث رسالته، فهل وقفت الباكستان هذا الموقف، وهل اتخذت لغتنا لغة رسمية إلا من أجل الإسلام الذي آمنت به، وبنت دولتها وحياتها على أسسه؟ وقل مثل ذلك في أندونيسية المجاهدة، وقد نصت هاتان الدولتان الكبيرتان اللتان يبلغ عدد سكانهما مئة وخمسين مليوناً في مشروع دستوريهما على أن دينهما الإسلام، **أفليس مما يقوي الرابطة بيننا وبين هذه الدول والشعوب أن نعترف بالإسلام ديناً،** وهو ديننا الذي **صدرناه إليهم، ونشرناه في ربوعهم؟** ألسنا في حاجة إلى أسواق تجارية لمنتوجاتنا؟ ألسنا في حاجة إلى معونات اقتصادية؟ ألسنا نجد في هذه الشعوب ميدان نفوذ طبيعي بريء للغتنا وثقافتنا وتراثنا وحضارتنا؟ فلمن نترك ذلك كله؟ لمن نتخلّى عن مصلحتنا السياسية والاقتصادية والثقافية؟ هل يستطيع أحد أن يقول لنا ذلك بصراحة وجرأة؟!.

وبعد، فهذه هي بعض الفوائد التي نجنيها من النص على هذه المادة في الدستور، وهي كما يرى القارئ فوائد محققة لا نستغني عن واحدة منها في حياتنا المليئة بالمتاعب والمشكلات.. فما هي المساوئ التي تنشأ عن هذه المادة؟ سنحاول تلخيصها والإجابة عنها بإيجاز على أن نعود إلى هذا الموضوع بالبسط والتوضيح.

اعتراض الطوائف المسيحية:

يتضح مما قرأناه لرؤساء الطوائف المسيحية، ومما سمعناه منهم أن اعتراضهم ينصب على ناحيتين اثنتين:

١ ـ أن معنى دين الدولة الإسلام، أن أحكام الإسلام ستطبق على المسلمين والمسيحين. ولما كانت للمسيحيين عقائد وأحكام وأحوال شخصية تختلف عن الإسلام فكيف يجبرون على أحكام الإسلام؟.

وهذا الفهم خاطئ من نواحٍ عدة، أهمها: أن الإسلام يحترم المسيحية كدين سماوي، ويترك لأهلها حريةَ العقيدة والعبادة دون أن يتدخل في شؤونهم، أما أحوالهم الشخصية فلا يتعرَّض لها بحال، ولا يمكن أن يطبق عليهم أي حكم من الأحكام التي تخالف شريعتهم أو تقاليدهم، وأحكام الإسلام في ذلك واضحة، وكتب التشريع الإسلامي بين أيدينا، ووقائع التاريخ لا ينكرها إلا مكابر، وقد ظل المسيحيون العرب منذ عصر الإسلام حتى الآن يتمتعون بعقيدتهم وعبادتهم، وأحوالهم الشخصية، لم تتعرض لها دولة ولا حكومة، في الوقت الذي كان الحكم فيه للإسلام خالصاً، فكيف يتوهم الآن أن يطبق عليهم أحكام تخالف دينهم، ونحن في دولة برلمانية شعبية، الحكم فيها للشعب ممثَّلاً في نوابه المسلمين والمسيحيين؟..

ونزيد على ذلك أنه مع احترام الإسلام لكل ما ذكرناه، فنحن لم نكتف بذكر هذه في الدستور بل اقترحنا أن تنص على احترام الأديان السماوية وقدسيتها واحترام الأحوال الشخصية للطوائف الدينية، فكيف يخطر في البال بعد هذا أن هنالك خطراً على عقيدة المسيحيين وأحوالهم الشخصية؟!.

٢ ـ إن معنى دين الدولة الإسلام العداء للأديان الأخرى، وانتقاص غير المسلمين في حقوقهم والنظر إليهم نظراً يختلف عن أتباع الدين الرسمي.

وهذا خطأ بالغ أيضاً، فليس الإسلام ديناً معادياً للنصرانية حتى يكون النصّ عليه عداءً لها، بل هو معترف بها، ومقدس لسيدنا المسيح عليه الصلاة والسلام، بل هو الدين الوحيد من أديان العالم الذي يعترف بالمسيحية، وينزه رسولها الكريم وأمه البتول، وقد أمر القرآن الكريم أتباعه أن يؤمنوا بالأنبياء جميعاً ومنهم عيسى عليه السلام، فأين العداء وأين الخصام بين الإسلام والمسيحية؟! **أوليس النص على أن الإسلام دين الدولة الرسمي، يتضمن أن المسيحية دين رسمي للدولة باعتبار الإسلام معترفاً بها ومحترماً لها؟.**

وأما توهم الانتقاص من المسيحيين، وامتياز المسلمين، فأين الامتياز؟ أفي حرية العقيدة، والإسلام يحترم العقائد جميعاً، والدستور سيكفل حرية العقائد للمواطنين جميعاً؟ أم في الأحوال الشخصية والإسلام يحترمها والدستور يضمنها؟ أم في الحقوق المدنية والتساوي في الواجبات، والإسلام لا يفرق بين مسلم ومسيحي فيها، ولا يعطي للمسلم في الدولة حقاً أكثر من المسيحي، والدستور سينصّ على تساوي المواطنين جميعاً في الحقوق والواجبات؟.

إني سأضع أمام القراء وأمام أبناء الشعب جميعاً نص المادة المقترحة في هذا الشأن ليروا بعد ذلك أي خوف منها وأي غبن يلحق المسيحية فيها:

١ ـ الإسلام دين الدولة.

٢ ـ الأديان السماوية محترمة ومقدسة.

٣ ـ الأحوال الشخصية للطوائف الدينية مصونة ومرعية.

٤ ـ المواطنون متساوون في الحقوق، لا يحال بين مواطن وبين الوصول إلى أعلى مناصب الدولة بسبب الدين أو الجنس أو اللغة.

إني أسأل المنصفين جميعاً، وخاصة أبناء الطوائف الشقيقة: إذا كانت المادة التي تنص على أن دين الدولة الإسلام هي التي تتضمن هذه الضمانات كلها، فأين الخوف، وأين الغبن، وأن الامتياز للمسلمين وأين الانتقاص لغيرهم؟؟

اعتراض القوميين:

ويعترض بعض القوميين بأن النص على دين معين للدولة ينفي الوحدة بين أبنائها، وأن سورية ذات أديان مختلفة فلا يصح أن ينص على دين معين.

والواقع أنه ليس في سورية إلا مسلمون ومسيحيون، وقليل جداً من اليهود، أماالطوائف فهي كلها ترجع إلى هذين الدينين، وفي النص الذي ذكرناه سابقاً ضمان لحقوق المواطنين جميعاً وتساويهم، وضمان عقائدهم وأحوالهم الشخصية، فأي تفرقة في هذا النص؟.

وهل في الدنيا دولة ليس فيها إلا دين واحد أو مذهب واحد؟ فهل منع تعدد الأديان أو المذاهب كثيراً من الدول على أن تنص على دين معين ومذهب معين؟

إن الوحدة القومية بين العرب ليست باطراح عواطف ثمانية وستين مليوناً وإهمال هذا الرابط الديني القوي بينهم، وإذا كان مفهوم القوميات في أوروبة يحتم إخراج الدين من عناصرها الأساسية، فذلك لا ينطبق علينا نحن العرب. إن ألمانية النازية قد تجد في المسيحية ديناً غريباً عنها، وإن تركية الطورانية قد تجد في الإسلام ديناً غريباً عنها، **ولكن العرب لن يجدوا في الإسلام ديناً غريباً عنهم، بل هم يؤمنون بأن قوميتهم العربية لم تولد إلا في أحضان الإسلام، ولولاه لما كانت ذات وجود حي قائم.** . فليفرّق دعاة القومية بين أوروبة والشرق، وبين نصرانية الغرب وإسلام العرب.

وإذا أضفنا إلى ذلك أن الإسلام يحترم المسيحية، ويؤمن بها ديناً سماوياً لم يبق عندنا في القومية العربية دينان يصطرعان حتى نطرحهما لتسلم لنا قوميتنا، وإنما هناك دينان يتعاونان على بناء القومية العربية بناء سليماً عالمياً خالداً.

اعتراض العلمانيين:

ويعترض دعاة العلمانية في بلادنا كما جاء في البيان المنسوب إلى خريجي الجامعات العالية بأن (الشعوب التي سبقتنا في ميدان الحضارة مرت من مرحلة الدين في التنظيم والحكم، حيث كان رجال الدين يسيّرون أمور الدول، إلى مرحلة القومية، ثم هي تنتقل اليوم إلى مرحلة التنظيم على أساس التكتل السياسي والاقتصادي ذي الصبغة العالمية).

ونحن نجيبهم بأن النص على دين الدولة ليس معناه أن يسيِّر رجال الدين أمور الدولة، ولو كان كذلك لما وضعت هذه الأمم التي سبقتنا في ميدان الحضارة في دساتيرها النص على دين الدولة.

وفيما يلي بيان لبعض الدول الحديثة التي تنص في دساتيرها على دين معين.

أسوج، نروج، دانيمرك، إنكلترة، بلغارية، بيرو، كوستاريكة، بانامة، إسبانية، بوليفية، الأرجنتين، إيرلندة، إيطالية، اليونان (قبل الحرب الأخيرة) بولونية (قبل النفوذ الشيوعي) جميع دول شرق أوروبة (قبل النفوذ الشيوعي)، مصر، العراق، الأردن، ليبية، إيران، الأفغان، باكستان، إندونيسية، إسرائيل المزعومة!.

فما قول العلمانيين في صنيع هذه الدول الحديثة؟ ألا يدل على أن النص على دين الدولة لا يتنافى مع تطور الحضارة وتقدم المدنية؟ أم يعتبرونها دولاً رجعية لا تزال متأخرة؟.

وأيضاً فقد اعترف هؤلاء بأن الأمم انتهت من مرحلة القومية إلى مرحلة التكتل السياسي الاقتصادي، فلماذا يرون من الأمور الطبيعية أن تتكتل بلغارية وهنغارية وتشيكوسلوفاكية وألبانية ورومانية والمجر والصين وغيرها على أساس الشيوعية، وهي عقيدة حديثة لديهم، ولا يرون من الطبيعي أن تتكتل مصر وسورية والعراق واليمن والحجاز والأردن على أساس الإسلام وهو عقيدة هذه الأقطار؟ أليس الإسلام نظاماً اجتماعياً شاملاً كالشيوعية، ولكنَّه أسمى منها مبدأً وأنبل غايةً؟ أم أنتم لا ترونه كذلك أيها العلمانيون؟ فلماذا لا تصارحون الشعب بسوء ظنكم بالإسلام وصلاحه للحياة؟.

ومن العجيب أن يحرص العلمانيون في بيانهم على الروابط التي تربط ما بين السوريين وبين المغتربين في الخارج، وهي روابط نحرص عليها، ثم لا يبالون بالروابط بين السوريين وبين سبعين مليوناً من إخوانهم العرب، ولا ندري متى كان النص على دين الدولة سيقطع ما بيننا وبين إخواننا المغتربين؟. أليسوا يعيشون في دول قد نصت في دساتيرها على دين الدولة؟.. أليسوا حريصين على قوة هذه البلاد ومصلحتها؟ ولو فرضنا أن النص سيجعل فتوراً بيننا وبينهم (وهذا فرض مستحيل) ولكنه سيربط ما بيننا وبين العرب، فهل تريدون منا أن نُغضب سبعين مليوناً من العرب؟ **لئن أردتم ذلك كنتم قد كفرتم بالعروبة رابطة قومية، بعد أن جحدتم الإسلام نظاماً اجتماعياً صالحاً**.

وأعود فأقول لهؤلاء إن (البعبع) الذي يخوّفون به بعض المثقفين من أن النص على الإسلام ديناً للدولة يجعل لرجال الدين الكلمة الأولى في البلاد، هو (بعبع) لا يخيف إلا من خيم الوهم والباطل على عقولهم، فليس في الإسلام

رجال دين تكون لهم الكلمة العليا، ونحن لا نريد بهذا النص أن نلغي البرلمان، ونطرد ممثلي الأمة، ونمحو القوانين. كلا كونوا مطمئنين! فسيظل كل شيء على حاله. سيبقى لنا مجلسنا ونوابنا وقوانينا وأنظمتنا ولكن. . مع سمو الروح ونظافة اليد، واستقامة الأخلاق وعيش الإنسان الكريم!.

اعتراض الحقوقيين:

ويعترض بعض الحقوقيين بأنّ جعل دين الدولة الإسلام يلغي القوانين الحالية، ويضطرنا إلى تنفيذ الحدود الإسلامية من قطع يد السارق وجلد الزاني، وهذا قول خاطئ، **فنحن لا نفكر قطعاً بالدعوة إلى تنفيذ الحدود، لأن الإسلام نظام كامل لا يظهر صلاحه إلا في مجتمع كامل**، ومن كمال المجتمع أن يشبع كل بطن، ويكتسي كل جسم، ويتعلّم كل إنسان، ويكتفي كل مواطن، فإذا وقعت السرقة مثلاً بعد ذلك وقعت شراً محضاً لا يقدم عليه إلا العريقون في الإجرام، والإسلام يريد أن يرهب هؤلاء الذين لم يردعهم العلم ولا الشبع ولا العيش الكريم عن الوقوع في الجريمة.

على أن الإسلام قد حف تلك الحدود بشروط شديدة جداً يكاد يكون من المتعذر تنفيذ الحكم في حادثة واحدة من بين ألف حادثة، مما يدل على أن قصد الإسلام من ذلك الإرهاب والتخويف، وحسبكم القاعدة المشهورة (ادرأوا الحدود بالشبهات).

وخلاصة القول إننا لا نريد انقلاباً في قوانينا الحالية، وإنما نريد التقريب بينها في التشريعات المدنية وبين نظريات الإسلام الموافقة لروح هذا العصر، ولأصدق النظريات الحقوقية السائدة فيه، فإذا اتفق التشريع الإسلامي مع النظريات الحديثة فهل تجدون حرجاً في الأخذ به تراثاً قومياً عربياً تعتزون به وتفاخرون؟!.

هذا مع العلم بأن مسألة التشريع غير مسألة دين الدولة، فليس لوضع دين الدولة من غرض إلا صبغ الدولة بصبغة روحية خلقية تجعل النظم والقوانين منفّذة من الشعب بوازع نفسي خلقي، ومن أغراض هذه المادة تقوية الصلات بيننا وبين إخواننا العرب، والتعاون بيننا وبين الشرق الإسلامي.

أما الحدود الإسلامية، فلا تستلزمها هذه المادة بدليل أن مصر والعراق

وضعتـا هذه المادة في دستوريهما منذ ربع قرن، ولم تفكرا بإقامة الحدود الإسلامية . . هذا ما نصرح به علناً لا مجاملين ولا مواربين.

وبعد، فهذه خلاصة الأدلة التي تحتم علينا وضع هذه المادة في الدستور، وخلاصة الأجوبة على ما يخاف منها، ونحن نرجو أن يبحث هذا الأمر بحثاً واقعياً بعيداً عن العصبية الطائفية والأهواء المستحكمة. ونعتقد أن الأحبار الأجلاء رؤساء الطوائف المسيحية يشعرون معنا بخطر الإلحاد على الأديان جميعاً، ونحن نعلن أننا نفضل أن يكون دين الدولة المسيحية على دولة علمانية ملحدة، فهل هم يفضلون الإلحاد على الإسلام؟ . . ونريد أن نذكرهم أن **العلمانية لا تضمن حقوق الطوائف، ولا تزيل التعصب الطائفي**[1]، وإنما الذي يضمن ذلك: الدين الذي جعل من تعاليمه أن يترك الناس وما يعتقدون، وأن الناس جميعاً عباد الله، أكرمهم عنده أتقاهم وأنفعهم.

أما إخواننا القوميون فنحب أن يكونوا قوميين عرباً حين يبحثون هذه الناحية، وأن لا يفضلوا مراعاة شعور وهمي محصور في ناحية ضيقة على حقيقة ثابتة شائعة في دنيا العرب، **نحب أن لا يكونوا قوميين سوريين بل قوميين عرباً** . .

أما العلمانيون فلسنا نقول لهم بعدُ أكثر من أن نتوجـه إليهم بالرجـاء أن لا يحولوا بين الأمة ومصادر قوتها . . نحن شعب نريد أن نرجع إلى الله، فـلا تحولوا بيننا وبينه، ونريد أن نمد أيدينا إلى إخواننا العرب، فلا تحولوا بيننا وبينهم، ونريد أن نستند إلى أصدقاء أقوياء فلا تحرمونا منهم، ونريد أن نتعاون مسلمين ومسيحيين، مستمعين إلى صوت السماء وتعاليم الإنجيل والقرآن فلا تملؤوا عقولنا بالباطل، ولا تصكوا أسماعنا بأغنية الشيطان! . . ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ .

دمشق في ٢١ ربيع الثاني ١٣٦٩هـ و ٨ شباط ١٩٥٠م.

مصطفى السباعي

* * *

---

(١) راجع كتابنا: (جذور الفكر القومي والعلماني)، الفصل الخاص بآثار العلمانية في العالم الإسلامي، حيث عددنا من هذه الآثار: التخلف والطائفية والتغريب والتغرب. . . إلخ.

المبادئ والنصوص الإسلامية في الدستور

لقد جاء في مقدمة الدستور «إن هذه المقدمة جزء لا يتجزأ من الدستور، وضعت لتذكر المواطنين بالمبادئ التي قام عليها قانونهم الأساسي».

وعلى هذا الأساس جاء في المقدمة النصوص التالية:

١ ـ (**إن الدولة تعلن استمساكها بالإسلام ومثله العليا**)[١]. وقد عد الأستاذ السباعي هذا نصاً صريحاً في دين الدولة، لأن الاستمساك بالدين أقوى من الانتساب إليه، أي إن هذا النص مقدَّم على النص القائل: الإسلام دين الدولة، أو أن دين الدولة الإسلام؛ لأنه ـ أي النص الوارد في مقدمة الدستور السوري ـ لا يكتفي بأن يلزم الدولة بالإسلام كدين تنتسب إليه، بل يلزمها به كدين تتمسك بتعاليمه ومثله وشرائعه.

ويبدو أن هذا الارتقاء في التعبير ـ إن سلَّمنا به ـ تم القبول به حين تحول النص من صلب الدستور إلى مقدمته.

٢ ـ «وإننا نعلن أيضاً أن شعبنا عازم على توطيد أواصر التعاون بينه وبين شعوب العالم العربي والإسلامي».

٣ ـ «وعلى بناء دولته الحديثة على أسس من الأخلاق القويمة التي جاء بها الإسلام والأديان السماوية الأخرى».

٤ ـ «وعلى مكافحة الإلحاد وانحلال الأخلاق»[٢].

---

(١) جاء هذا النص على النحو التالي:
(ولما كانت غالبية الشعب تدين بالإسلام، فإن الدولة تعلن استمساكها بالإسلام ومُثله العليا).

(٢) راجع مقالة بقلم الدكتور السباعي بعنوان: المبادئ والنصوص الإسلامية في الدستور المصري الجديد: مقارنة بينها وبين النصوص والمبادئ الإسلامية في الدستور السوري. جريدة الشهاب، العدد (٤٣) في ٢١ رجب ١٣٧٥هـ (٤/ ٣/ ١٩٥٦م)؛ وانظر كذلك (الشهاب) العدد (١٩) إيلول ١٩٥٥.

أما المبادئ والنصوص الإسلامية في صلب الدستور، فقد تجلت في المواضيع التالية:

أ ـ في التشريع:

نصت المادة الثالثة على ما يلي:

١ ـ دين رئيس الجمهورية الإسلام[1].

---

(١) حلّت هذه المادة محل المادة التي أقرتها اللجنة الدستورية بتاريخ ٢٤/ ١/ ١٩٥٠م والتي تنص على أن الإسلام دين الدولة. وقد أعرب السيد جلال السيد ممثل حزب البعث في الجمعية عن ارتياحه لهذا التعديل، كما ورد ذلك صراحة في ضبط الجلسة. راجع كتاب: النكبات والمغامرات للكاتب الصحفي بشير فنصة، ص ٢٨٠. وقد سبق للمؤتمر السوري أن شهد مثل هذا الحل بعد الجدل الطويل حول هذه المسألة. ومعلوم أن المؤتمر المذكور الذي دعي كذلك: (مجلس الشورى) تم تشكيله في أيار (مايو) ١٩١٩م عن طريق الانتخاب في المناطق الداخلية (دمشق وحلب وحماة وحمص) وعن طريق الترشيح والتسمية من قبل التجمعات والجمعيات المحلية في المناطق الأخرى (لبنان وفلسطين) وكان ذلك بعد وصول الأمير فيصل بن الحسين إلى دمشق في ٣/ ١١/ ١٩١٨ والإعلان عن قيام الحكومة العربية في سورية. فقد بدأ المؤتمر المذكور في دورته الثانية مناقشة مشروع الدستور الذي أعدته لجنة تم انتخابها من قبل المؤتمر في ١٩/ ٧/ ١٩١٩م لوضع هذا المشروع، وكانت برئاسة السيد هاشم الأتاسي. وكان مقررها محمد عزة دروزة أحد ممثلي فلسطين، وكان من أعضائها الشيخ عبد القادر الكيلاني والشيخ عبد العظيم الطرابلسي. وقد طالب الأعضاء من غير المسلمين وبعض المسلمين بأن ينص في الدستور على أن حكومة سورية لا دينية (لائيكية)، في حين طالب الأعضاء الآخرون بضرورة النص على أنها حكومة إسلامية عربية، وأن دينها الرسمي هو الإسلام، واحتدم الخلاف، وتأجل إقرار المادة الأولى المتعلقة بنظام الحكم.. واقترح الشيخ محمد رشيد رضا نائب طرابلس السكوت عن هذه المسألة، لأنه: «إذا أعلنت حكومة لا دينية يفهم منها جميع المسلمين أنها حكومة كفر وتعطيل لا تتقيد بحلال وحرام». وقال: «ومن لوازم ذلك أنها غير شرعية، بل يجب إسقاطها عند الإمكان». ووافقت غالبية الأعضاء على هذا الاقتراح، وعلى الاكتفاء باشتراط أن يكون دين ملكها هو الإسلام. وهكذا جاء نص المادة الأولى من الدستور على الشكل التالي: «حكومة المملكة السورية العربية حكومة مدنية نيابية، عاصمتها دمشق الشام، ودين ملكها الإسلام». وتجدر الإشارة إلى أن من أبرز أعضاء المؤتمر المذكور، ومن أبرز نواب مدينة دمشق العلماء: الشيخ عبد القادر الخطيب، والشيخ تاج الدين الحسني، والشيخ مسلم =

٢ ـ الفقة الإسلامي هو المصدر الرئيسي للتشريع .

٣ ـ حرية الاعتقاد مصونة ، والدولة تحترم جميع الأديان السماوية ، وتكفل حرية القيام بجميع شعائرها ، على أن لا يخل ذلك بالنظام العام .

٤ ـ الأحوال الشخصية للطوائف الدينية مصونة ومرعية .

ونحن مع الأستاذ السباعي حين يقول: «إن النص على اعتبار الفقه الإسلامي المصدر الرئيسي للتشريع هو في نظر جميع المخلصين من حملة الإسلام أعظم انتصار للتشريع الإسلامي في البلاد العربية والإسلامية في العصر الحديث» .

ب ـ في التعليم:

نصت الفقرة الأولى من المادة الثامنة والعشرين على أن «تعليم الدين إلزامي في جميع مراحل التعليم الابتدائي والثانوي والمهني» كما نصت الفقرة الثانية من المادة المذكورة على أهداف التعليم على النحو التالي :

«يجب أن يهدف التعليم إلى إنشاء جيل قوي بجسمه وتفكيره ، مؤمن بالله ، متحلٍّ بالأخلاق الفاضلة ، معتز بالتراث العربي» . ثم نصت على أنه يحظر كل تعليم ينافي هذه الأهداف . قلت : ولا خلاف على إسلامية التراث العربي في جميع الأحوال .

= الحصني . كما تجدر الإشارة إلى أن المؤتمر المذكور الذي عقد أولى جلساته بتاريخ ٣/٦/١٩١٩ تم تعليقه في آخر الحكم الفيصلي عام ١٩٢٠ . راجع محمد م. الأرناؤوط: جريدة الحياة العدد ١٣٤٠٥ تاريخ ٢٠/١١/ ١٩٩٩م؛ وذيل الأعلام لأحمد علاونة، ص١٩٠ ، دار المنارة؛ وكتاب: سورية والعهد الفيصلي للسيد يوسف الحكيم، ص٩٤، دار النهار للنشر، ط٣ بيروت ١٩٨٦ . وذكر الأستاذ السباعي في الكلمة التي كتبها عن «سماحة العلامة الشيخ عبد المحسن الإسطواني شيخ المعمرين في بلاد الشام» بعد وفاته أنه كان عضواً بمجلس الشورى «الذي كانت مهمته تنظيم سياسة البلاد وإدارتها وتأليف حكومتها» . وقال: «ثم عين رئيساً لهذا المجلس، واستمر في رئاسته حتى عام ١٩٢٤م حيث حله الفرنسيون بعد أن ضاقوا ذرعاً بوقوفه في وجه سياستهم الغاشمة وقوانينهم الجائرة» . مجلة حضارة الإسلام، ص٥٠ السنة الرابعة ـ العدد (٥) كانون الأول (ديسمبر) ١٩٦٣م . ونشير أخيراً إلى أن دستور سورية المنشور بقرار من المفوض السامي نص في مادته الثالثة على ما يلي : (سورية جمهورية نيابية دين رئيسها الإسلام، وعاصمتها مدينة دمشق) راجع : ذوقان قرقوط ، ص٣٤٢ .

جـ ـ في الأوقاف:

نصت المادة الرابعة والثلاثون على أن الأوقاف الإسلامية ملك للمسلمين، وهي مؤسسة من مؤسسات الدولة العامة تتمتع باستقلال مالي وإداري.

قال الأستاذ السباعي: «وفي ذلك صيانة للأوقاف الإسلامية من أن تعتدي عليها حكومة من الحكومات، كما حصل في عهد الشيشكلي، فلقد حذف هذا النص من دستوره، وسن تشريعاً يجعل أملاك الخط الحجازي ملكاً للدولة. وهذا ما تعمله كل حكومة تنوي الشر للإسلام ومؤسساته الخيرية».

د ـ في القوانين:

نصت المادة الثانية والستون بعد المئة على أن ينتخب مجلس النواب لجنة خاصة من أعضائه تستعين بعدد كاف من المختصين والخبراء لتقديم اقتراحات القوانين اللازمة للتوفيق بين التشريع القائم وأحكام هذا الدستور. وجعلت لهذا العمل مدة لا تتجاوز سنتين منذ تنفيذ الدستور.

وهذا يعني أن قوانين الدولة يجب أن تنسجم مع أحكام الدستور، فما كان منها مخالفاً أُلغي، وما كان يحتاج إلى تعديل عُدّل. يقول الأستاذ السباعي: «ولقد نفذ المجلس النيابي هذه المادة، فألّف لجنة للقوانين العامة تفرعت إلى عدة لجان، **كان منها لجنة لوضع قانون مدني مأخوذ من الفقه الإسلامي، وفقاً للفقرة الثانية من المادة الثالثة من الدستور**.. وبدأت اللجنة عملها وسارت فيه شوطاً بعيداً، وجاء انقلاب الشيشكلي فأوقف هذا العمل العظيم..»[١].

* * *

(١) العدد (٤٣) من جريدة الشهاب المصدر المشار إليه قبل قليل.

صورة برلمانية مجملة

لا يخفى على من يراجع مذاكرات الجمعية التأسيسية ـ مجلس النواب فيما بعد ـ أن يلاحظ الحضور المكثف للسيد (مصطفى السباعي) والفاعلية والتأثير الذي يتمتع به من حيث المشاركة والمناقشة والإسهام الإيجابي في المسائل المعروضة، ومن حيث أخذ زمام المبادرة وتقديم الاقتراحات في قضايا كثيرة مالية وسياسية.. أو من حيث الحديث باسم المجلس أو نيابة عنه.. حتى إن رئيس المجلس في بعض الأحيان كان يسأل: «هل يكتفي المجلس بما قاله الأستاذ مصطفى السباعي». بل إنه كان يقاطع من قبل الأعضاء بالتصفيق في بعض الأحيان الأخرى.

وكان كثير منهم يكتفي بما قال حين يأتي دوره في الحديث بعده، بوصفه قد وفّى الموضوع حقه[١].

ويتجلّى في مواقفه كلها: الرجولة والإخلاص والصدق والحماسة والتجرد[٢]. إلى جانب حضور البديهة، وسرعة الرد على ما ينشأ في وجهه أو يقاطع به كلامه من اعتراض.. أو ما يمسّ شخصه من تعريض! وكانت إجاباته أو تعليقاته السريعة تمتاز بالبلاغة والموضوعية وأدب الحوار. نحن هنا نكتب للتاريخ.. ولكن مصطفى السباعي لم يكن يقوم بما يقوم به ليُذكر أو ليقال إنه قد فعل! ولكنه قام بما قام به بوحي الإيمان والضمير.. ومن منطلق الحرص على المصلحة العامة أو مصلحة الشعب! ولهذا فإنه لم يجد بداً من التعريض ـ في بعض الجلسات ـ بالسيد رزق الله أنطاكي[٣] حين قال: «إنه قدم اقتراحه ليذكر

---

(١) انظر على سبيل المثال وقائع الجلسات التالية: الجلسة الثانية بتاريخ ١٢/ ١٢/ ١٩٤٩م، والسابعة بتاريخ ٢٧/ ١٢/ ١٩٤٩م، والرابعة عشرة بتاريخ ٣١/ ٢/ ١٩٥٠م، والسابعة عشرة في ١٨/ ٣/ ١٩٥٠م، والثالثة والثلاثين... إلخ.

(٢) تحدث في إحدى الجلسات عن (معنى الثقة بالنائب) بوصفها (تفويضاً بالنيابة عن الأمة في حراسة عقائدها وأخلاقها وأموالها ومصالحها) كما تحدث في جلسة أخرى عن (التجاوب النفسي بين الزعيم وبين الشعب) ووصفه بأنه (من أولى شروط الزعامة الحقيقية).

(٣) الأستاذ الدكتور رزق الله أنطاكي كان أحد نواب حزب الشعب عن مدينة حلب، وشغل=

التاريخ إنه قدم والسلام»! .

وجاء هذا القول في سياق مناقشة المجلس لاقتراح قدمه الأستاذ السباعي بأن يتنازل النواب عن جزء من رواتبهم لمساعدة صغار الموظفين!! وكانت الكلمة بعد الأنطاكي للسيد رئيف الملقي ـ من بضعة أسطر ـ فلما انتهى تحدث الأستاذ السباعي فقال: «لي تعليق على كلمة الأخ رزق الله الأنطاكي، فنحن ليست مهمتنا أن نقدم اقتراحات ليسجلها التاريخ، فالأعمال التي يسجلها التاريخ تعرفها أنت أيها الأخ الأستاذ أنطاكي، وإنما نحن هنا نتكلم بحقيقة نؤمن بها، ولم نقف في حياتنا موقفاً نجامل به الناس ليقال عنا إننا تكلمنا!! فلا مجال أن أحتكم وإياك إلى ماضيّ وماضيك حتى تقول مثل هذا القول.. فقال الرئيس: لا يجوز التعرض للأشخاص! فأجاب السباعي: ليس هناك تعرض، ولكنه هو الذي تعرَّض لي يا سيدي؛ فأنا لم أقدم اقتراحي ليسجله التاريخ! وأرجو أن يفهم الأخ أنني أقول وأقترح عن عقيدة! فإن شاء أن ينظر إلى الأمر من ناحية أخرى فله رأيه»[1].

كانت الفئات ذات الدخل المحدود من الموظفين وغيرهم، وكذلك المناطق الفقيرة والمهمّشة والأحياء الشعبية تشكل واحداً من أبرز همومه وقضاياه التي تبنّاها وطالب بإنصافها داخل المجلس النيابي ـ وخارجه ـ كما تجلّى في حياته البرلمانية حرصه على المال العام ومناقشاته المطولة لمشاريع الميزانية التي تقدمت بها الحكومات. قال في الجلسة الحادية عشرة التي عقدت في الأول من شباط (فبراير) ١٩٥٠م: «والذي أراه أنه يجب الاقتصاد إلى أقصى حد في النفقات العامة التي تنفق على استئجار دور الحكومة وعلى أثاثها وعلى الحفلات.. فنحن لسنا بحاجة إلى دور فخمة، بل نحن بحاجة إلى دور تنتج! ولأن العدو متربص على الأبواب، ونحن في حاجة لتوفير المال للجيش أولاً، وللتعليم ثانياً، وللصحة ثالثاً، ولطرق المواصلات رابعاً... هذه هي الأبواب الرئيسة التي ينبغي أن تنفق منها موارد الموازنة وأموال الأمة!

فقال السيد حسني البرازي (مقاطعاً) والزراعة يا أستاذ!

فقال السباعي (متمماً): «أما الزراعة فلها دوائر خاصة ومشروعات

= بعض المناصب الوزارية. وكان أستاذاً بكلية الحقوق بجامعة دمشق.

(١) الجلسة السابعة عشرة بتاريخ ١٨/ ٣/ ١٩٥٠م، ص٢٥٣ ـ ٢٥٤.

خاصة، وهي أمر إنتاجي، أما الإنفاق على الصحة فهو مال مستهلك. . وكذلك الجيش والتعليم وطرق المواصلات. ونقول: الزراعة أيضاً. . وأرجو أن تكون حاصلات السيد البرازي منها وافرة جداً إن شاء الله!»[1].

وقد كان لتفريقه الذي أشرنا إليه بين الخصوم والأعداء، حيث عدّ من يختلف معهم من أبناء الوطن ـ من أي اتجاه كان ـ خصوماً لا أعداء. . كان لهذا التفريق أثره لا في سعة صدره وتقبله للرأي الآخر فحسب، بل في محاولة البحث ـ كذلك ـ عن الصيغ (الوطنية) الواحدة، أوالتي يلتقي عليها جميع أبناء الوطن. . وبخاصة في الأزمات الكبرى أو المفاصل التاريخية. .

يذكر السيد خالد بكداش أنه التقى بجوار المجلس النيابي ـ في حديقته أو على بعض مداخله فيما يبدو ـ وكان ذلك أيام العدوان الثلاثي على مصر، بالأستاذ مصطفى السباعي؛ يقول بكداش: «الذي حصل، أن فرزت المملوك، وكان نائباً أيضاً، كان ذا اتجاه يميني. يميني جداً! وفيما أعتقد كان له صلات مع الإنكليز، وفي هذا الصدد لم يتخذ موقفاً من احتلال قناة السويس! التقيت أنا ومصطفى السباعي وتحادثنا، ومن جملة ما قال لي: كيف يتجرأ فرزت المملوك ويأخذ هذا الموقف؟ ألا يرى الرأي العام؟ فقلت له: اذهب واسأله!»[2].

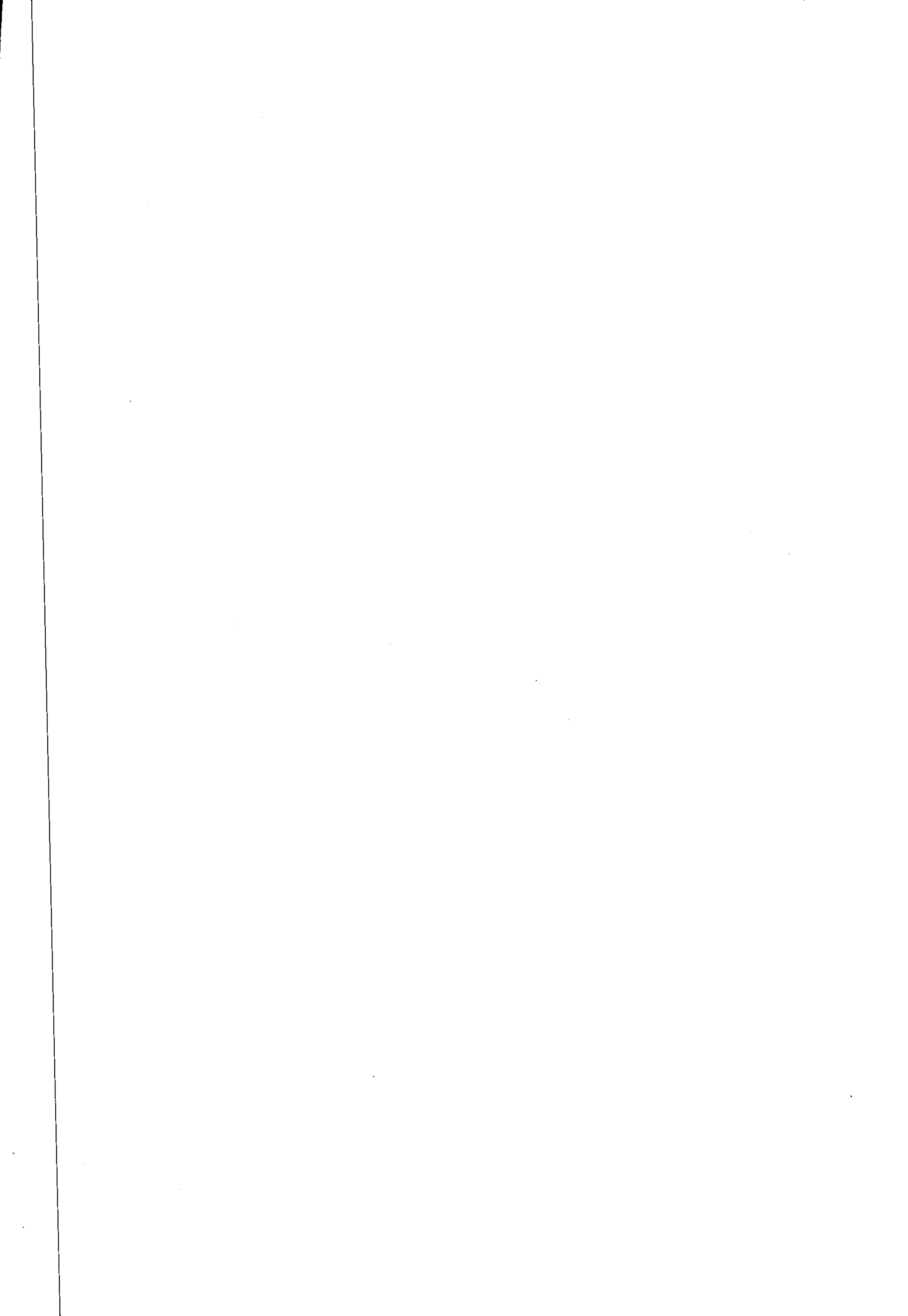
لقد أراد السباعي أن يمد مع السيد خالد بكداش حبال الوطنية أو أن يوحي إليه بأن الشعور الوطني نحو مصر والوطن العربي يجمع بينهما في هذا الوقت العصيب إذا فرقت بينهما العقائد والأفكار. موقف من السباعي كبير، ولكنه لم يتلقَّ في الرد عليه سوى جواب عابر أو جواب صغير!.

* * *

---

(١) ص ١٣٤، وفي الجلسة الرابعة عشرة في ١٣/ ٢/ ١٩٥٠م ناقش وزير المالية، مبيناً أسباب العجز المالي. ومقترحاً للحلول، ص(١٨٣ ـ ١٨٥) ومنها (تخفيض مرتبات النواب والوزراء وموظفي المرتبة الممتازة والأولى والثانية بنسبة ٢٠٪ ومؤكداً على ضرورة تحسين حالة صغار الموظفين) وقال: «إن رواتب الآذنين وموزعي البريد ورجال الشرطة والدرك وغيرهم من أمثالهم لا يصح أن تبقى على ماهي عليه إذا أردنا أن ننشئ وطناً يشعر أبناؤه بالكرامة».

(٢) كتاب: خالد بكداش يتحدث: إعداد عماد نداف، ص٣٧ الطبعة الأولى ـ دار الطليعة.



تحدّياتٌ وأخطاءٌ



تحدِّيات وأخطاء

العسكر:

شهدت سورية انقلابها العسكري الأول ـ كما أشرنا سابقاً ـ في ٣٠ آذار (مارس) ١٩٤٩م ولم يمض على حكم الزعيم حسني الزعيم الذي قام بهذا الانقلاب مئة وستة عشر يوماً حتى شهدت انقلابها الثاني على يد الزعيم سامي الحناوي في ١٤ آب (أغسطس) ١٩٤٩م. أو شهدت «حركتها الانقلابية الأخيرة» كما دعُيت في ذلك الحين.

وقد وصفت هذه الحركة بأنها «سالمة من كل غرض شخصي مريب» وقد وقف السيد أكرم الحوراني إلى صف الانقلابيين الجدد كما وقف إلى جانب حسني الزعيم في أيامه الأولى. وقد شارك هو والسيد ميشيل عفلق في الوزارة التي شكلها الحناوي بمرسوم. وكان عفلق وزيراً للمعارف (التربية) والحوراني وزيراً للزراعة. كما كلف ـ أي الحوراني ـ بتوجيه أعمال مديرية الدعاية والأنباء (لم يكن في ذلك الحين وزارة للإعلام).

ثم صدر مرسوم بتحديد يوم الثلاثاء الواقع في ١٥/ ١٠/ ١٩٤٩ موعداً لانتخابات الجمعية التأسيسية التي نتحدث عنها. ولم يمض على جلستها الأولى أسبوع واحد حتى قام العقيد أديب الشيشكلي بتحريك دباباته نحو دمشق في ١٩/ ١٢/ ١٩٤٩م، وأذيع من إذاعة دمشق البيان رقم(١) الذي جاء فيه أن الجيش اضطر للتدخل حرصاً على سلامته وسلامة البلاد، وحفاظاً على نظامها الجمهوري، وأنه ليست له غاية أخرى، والذي أعلن فيه أنه «يترك البلاد في أيدي رجالها الشرعيين، ولا يتدخل إطلاقاً في السياسة» وفسّر هذا الانقلاب ـ على نطاق واسع ـ بأنه جاء ليدافع عن نظام سورية الجمهوري، وينقذها من النفوذ البريطاني والوحدة مع العراق الملكي فيما كان يعرف بمشروع سورية الكبرى أو الهلال الخصيب، والذي قيل إن حزب الشعب ـ الذي هيمن على الجمعية التأسيسية ـ كان يسعى إليه، فقد أحرز هذا الحزب (٥١) مقعداً من (١١٤)

وانتخب زعيمه رشدي كيخيا لرئاسة الجمعية.

وكان الخلاف على نص القسم الذي سيؤديه رئيس الدولة ـ السيد هاشم الأتاسي ـ وأعضاء الجمعية التأسيسية، والذي أشرنا إليه في موضع سابق، يعكس الخلاف بين المؤيدين للوحدة مع العراق ومعارضيها. وبعد أن اجتمع بعض الضباط بالرئيس الأتاسي وبكل من السيدين رشدي كيخيا وناظم القدسي عقد اجتماع في القصر الجمهوري حضره بضعة عشر عضواً من أعضاء الجمعية التأسيسية منهم ناظم القدسي، وفيضي الأتاسي، وسامي كبارة، ومصطفى السباعي، ومحمد المبارك وصبحي العمري ورئيف الملقي وغيرهم أوضح فيه الرئيسان الأتاسي وكيخيا للسادة أعضاء الجمعية تفصيلات الحركة واتجاه القائمين عليها في إبقاء الأمور تسير سيرها الطبيعي. وبهذا طلب منهم تقديم ما يمكنهم لتأليف الوزارة المقبلة.

وقيل لهم: إن الجيش سيحافظ على الدستور، وإن اللواء الحناوي طلب إحالته على التقاعد![1].

وقد عُدَّ السيد أكرم الحوراني شريكاً للعقيد أديب الشيشكلي في هذا الانقلاب ـ وكانا من أصدقاء الطفولة في حماة[2] ـ ويذهب بعضهم إلى القول بأن لهجة البلاغ الأول تدل على أن «كاتبه ومنشئه هو الأستاذ الحوراني بالذات، كما سبق وكتب البلاغ رقم (١) للزعيم حسني الزعيم»[3].

وهكذا مارس الجيش أو الشيشكلي ـ والحوراني ـ حق النقض على أقل تقدير في تشكيل الوزارات واتخاذ القرارات؛ خصوصاً وأن الوزارة الأولى التي تشكلت بعد بلاغ الشيشكلي برئاسة السيد خالد العظم كان فيها أكرم الحوراني وزيراً للدفاع الوطني!.

ثم قام الشيشكلي بانقلابه الثاني بتاريخ ٢٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥١م بعد سنتين من لعبة القط والفأر مع البرلمان والحياة السياسية المدنية بوجه عام، ومع حزب الشعب بوجه خاص. وحل البرلمان في ٢/ ١٢/ ١٩٥١م وأخضع

---

(١) بشير فنصة: النكبات والمغامرات، ص٢٣١. وكان من الشائع أن العراق كان وراء انقلاب الحناوي، وأن السعودية ومصر كانتا وراء حركة الشيشكلي.

(٢) باتريك سيل: الصراع على سورية، ص١٢٠.

(٣) فنصة: مصدر سابق، ص٢٣٤.

البلد لحكم عسكري صارم، ثم أسس ما دعاه بحركة التحرير العربي التي انضم إليها نفر من السياسيين البارزين، ولم يعدها هو حزباً سياسياً، بل عدها «محاولة صادقة مخلصة لجمع العناصر الطيبة من جميع الأحزاب والطبقات لصبها في قالب واحد قوي». وبدأ يتحدث في الفكرة العربية بعد المساعدة ـ والتعاون ـ التي كان قد تلقاها من القوميين السوريين.

يقول باتريك سيل: «وللقضاء على أية معارضة أمرت الحكومة في منتصف كانون الثاني (يناير) ١٩٥٢م بحل الإخوان المسلمين، وأغلقت مكاتبهم ومدارسهم في جميع أنحاء القطر[١]، واتخذت إجراءات مشابهة ضد الحزب التعاوني الاشتراكي وزعيمه فيصل العسلي[٢]، ومُنع الموظفون المدنيون والاتحادات التجارية من المساهمة في النشاط السياسي. وفي شهر نيسان (إبريل) تبع هذا الإجراء حظر عام على كل الأحزاب السياسية، وطرد عدد من كبار الموظفين من وظائفهم، بينما سُرح عدد من أساتذة المدارس ومحاضرو الجامعة لأنهم رفضوا أن يقسموا يمين الولاء للحكم.

«لقد أقام الشيشكلي في ستة أشهر ـ في النصف الأول من عام ١٩٥٢م ـ ديكتاتورية مركزية صارمة، وأسكت منتقديه بطرق بوليسية تقليدية» كما يقول باتريك سيل. وكان من أبرز إجراءاته في هذا الإطار، بالإضافة إلى حل الأحزاب

---

(١) صدر قرار الحل كما يقول د. إسحاق موسى الحسيني بتاريخ ١٧/ ١/ ١٩٥٢ بدعوى اشتغال الإخوان بالسياسة، وهم في الأصل هيئة دينية صرفة. كتاب الإخوان المسلمون كبرى الحركات الإسلامية الحديثة، ص١٤١، ط٢ دار بيروت للطباعة والنشر ١٩٥٥.

(٢) كان فيصل العسلي نائباً عن منطقة الزبداني، وزعيم فئة يمينية صغيرة، لكنها كثيرة الصخب، أطلقت على نفسها (الحزب التعاوني الاشتراكي). وكان لأعضاء الحزب طريقة مميزة في التحية تقرب من الأسلوب النازي. وكان العسلي أحد الذين قبض عليهم عقب انقلاب حسني الزعيم، نظراً للهجوم الذي شنه العسلي في البرلمان على الجيش وعلى طاقاته القتالية، وحسب أوامر الزعيم حلق له شعره الغزير الطويل الذي كان يعتز به، وألحقت به بعض الإهانات! (انظر باتريك سيل، ص٦٦). ولم يمنعه الاستخذاء الذي أظهره ـ والذي قلّل من حماسة بعض أتباعه ـ من ترشيح نفسه لانتخابات عام ٩٥٤ وفوزه! وكان من أبرز مساعديه: الدكتور رشيد الدقر والدكتور سيف الدين المأمون. انظر كتاب: الأحزاب والجمعيات السياسية في القطر السوري لعبد الجبار حسن الجبوري، ص٢٢٤، دار الحرية بغداد ١٩٨٠.

وإبعاد السياسيين عن العمل؛ إخضاع المراسلات غير الدبلوماسية للرقابة، في الوقت الذي فقدت كل من الجامعة والمجمع العلمي ومصلحة الآثار حق الاتصال المباشر بمؤسسات أجنبية. بالإضافة إلى إلزام علماء الدين وخطباء المساجد بارتداء عمامة خاصة وزي موحَّد[1].

ولكن في الوقت نفسه منع هؤلاء من ارتياد المقاهي وأماكن اللهو، وأمرت دوريات الشرطة في اليوم الأول من شهر رمضان، الموافق للرابع والعشرين من شهر أيار (مايو) بإلقاء القبض على أي شخص يرى وهو يخرق حرمة الصيام! كما مُنع افتتاح المدارس التبشيرية، وجعل تلقي تبرعات من الخارج لأغراض تربوية منوطاً بموافقة وزير التربية، بالإضافة إلى إعادة تنظيم الجمعيات الكشفية والرياضية لكي يستبعد إمكانية وجود أعضاء ذوي اتجاهات طائفية أو عنصرية[2].

بين الشيشكلي والدواليبي والسباعي:

نحن لا نؤرخ هنا لهذه الحقبة من تاريخ سورية، لكننا أردنا فقط أن نشير إلى الأزمة التي نشبت بين الجيش والبرلمان، أو بين العقيد الشيشكلي والدكتور الدواليبي (ومن ورائه حزب الشعب والبرلمان) والتي انتهت إلى حل البرلمان، وتصدي الشيشكلي للحكم على نحو مباشر، من أجل الحديث عن المحاولة التي قام بها مصطفى السباعي لحل هذه الأزمة.. قبل أن يصطدم بالشيشكلي حين رفض أن يقسم يمين الولاء للحكم.. ويخرج بعد ذلك إلى لبنان، وما لقيه من المصاعب في نطاق جماعة الإخوان المسلمين التي كان يقودها في ذلك الحين.

ولكن الاضطهاد الذي لحق بالسباعي ـ ومعظم السياسيين ـ يفرض علينا مرة أخرى أن نقول أو نقرر ـ ونحن نستعرض سيرة الشيشكلي وأعماله منذ أن

---

(١) اشترط في العمامة ـ أو العِمّة ـ أن تكون على طاقية بيضاء، وليس على الطربوش الأحمر، كما جرت عادة العلماء في ذلك الحين. وقد استجاب بعض العلماء لهذا الشرط، منهم الأستاذ الشيخ حسن حبنكة رحمه الله، فقد صادف أن عمامته في سابق عهدها كانت على هذا النحو، فعاد إلى ما كان عليه، في حين أن بعض العلماء الآخرين هجروا العمة البيضاء بالكلية إلى العمة الصفراء التي كانت معهودة في أوساط بعض التجار في ذلك الحين، وبقوا عليها حتى بعد زوال عهد الشيشكلي.

(٢) راجع باتريك سيل، ص١٦٤.

شارك في القتال على أرض فلسطين عام ١٩٤٨م ضابطاً في جيش الإنقاذ، وحتى تاريخ تقديم استقالته من رئاسة الجمهورية في ٢٥ شباط (فبراير) ١٩٥٤م[١] ـ أن الرجل لم يكن بسوء الديكتاتوريين المعهود! وأن سورية في عهده باتت أكثر بلدان الشرق الأوسط تنظيماً، فوق ما حققته من نهضة زراعية وصناعية وجيش قوي.. بل إننا نميل إلى الرأي القائل إنّ دخوله النادي السياسي على هذا النحو الكثيف والمباشر لم يكن هو راغباً فيه حتى هذا الوقت على أقل تقدير. ولكن عداوته لحزب الشعب الذي قال فيه إنه لم يكن يمثل الشعب لم تكن خافية، وقد أضحت الآن معلنة بعد أن تحداه الدكتور الدواليبي بتشكيل وزارة (شعبية) احتفظ فيها لنفسه بوزارة الدفاع! ولم يسندها إلى شخصية عسكرية كما كان يريد الشيشكلي[٢].

وفي الوقت الذي كان يخشى من السياسة (العراقية) لهذا الحزب، وإن شئت قلت: الهاشمية؛ على الرغم من أن الدواليبي لم يكن يميل إلى الهاشميين، وكان (أكبر زعيم عربي معاد للأمريكان كما وصفته الصحافة الأمريكية؛ ومن أوائل الذين طالبوا بإقامة معاهدة عدم اعتداء مع روسية، وشراء السلاح من الشرق لكسر احتكار السلاح الغربي)[٣].

يقول باتريك سيل: «حذر الشيشكلي الدواليبي بأن القائمة الوزارية التي قدمها ليست مقبولة، وستضطره إلى أن يحل المجلس النيابي، وهذا على ما يبدو

---

(١) جاء في كتاب الاستقالة قوله: «رغبة مني في تجنب سفك دماء الشعب الذي أحب، والجيش الذي ضحّيت بكل غالٍ من أجله، والأمة العربية التي حاولت خدمتها بإخلاص صادق؛ أتقدم باستقالتي من رئاسة الجمهورية إلى الشعب السوري المحبوب، الذي انتخبني والذي أولاني ثقته؛ آملاً أن تخدم مبادرتي هذه قضية وطني. وأبتهل إلى الله أن يحفظه من كل سوء، وأن يوحده ويزيده منعةً، وأن يسير به إلى قمة المجد» باتريك سيل، ص١٩٢. ومعلوم أن الشيشكلي كان في مقدوره مقاومة العناصر التي بدأت الانقلاب عليه في حامية مدينة حلب شمال سورية؛ راجع سيل، ص(١٩٠ ـ ١٩٣)؛ كما أنه أبدى استعداده للعودة إلى البلاد والمثول أمام المحاكم رحمه الله. انظر باتريك سيل، ص٢٢٦.

(٢) راجع: الصراع على سورية لباتريك سيل، ص١٥٦.

(٣) المصدر السابق. ويضيف باتريك سيل أن الدواليبي نادى أيضاً بالإصلاح الزراعي، وتوسيع التسهيلات التربوية، وإعادة توزيع الثروة.

ما كان يود أن يتجنبه كلياً، ولكن الدواليبي لم يرض بأي تسوية. . وهكذا أمر الشيشكلي في ليلة ٢٨ ـ ٢٩ تشرين الثاني بالقبض على رئيس الوزراء وأعضاء الحكومة والأمين العام لحزب الشعب ناظم القدسي وعدد من ذوي الميول الهاشمية أمثال حسني البرازي. . »[١].

ثم دعا الشيشكلي خمسة نواب يمثلون حزب البعث، والعربي الاشتراكي، والجبهة الإسلامية الاشتراكية، وجبهة الجمهوريين، والقوميين السوريين، وأبلغهم بالإجراءات التي اتخذها الجيش[٢].

وحاول السباعي إقناع الشيشكلي بإعادة الحياة البرلمانية إلى البلاد والإفراج عن الدكتور الدواليبي، وتردد أياماً بينهما، لكنه لم يوفق، على الرغم من أن الدواليبي وافق على تقديم استقالته وهو لا يزال رهن الاعتقال. . ولكن المشكلة كانت عند الشيشكلي في البرلمان وفي سيطرة حزب الشعب عليه. . وانتهى الأمر باعتقال السباعي وضمّه إلى صديقه الدكتور الدواليبي. . وبقي السباعي في السجن نحو أربعة أشهر[٣]، قام الشيشكلي خلالها ـ في منتصف كانون الثاني ١٩٥٢م ـ بحل جماعة الإخوان كما أشرنا قبل قليل، ثم أفرج عن الأستاذ السباعي، ودعاه

---

(١) الصراع على سورية، ص١٥٦.

(٢) المصدر السابق، ص١٥٧.

(٣) أشارت بعض المصادر إلى هذا السِّجن جاء في سياق المعارك التي قامت في منطقة قناة السويس بمصر عام ١٩٥٢م، والذي خاضها ضد الاحتلال البريطاني، ومعسكراته التي تجثم على أرض القناة: نفرٌ من الشباب الجامعي الذين انتظموا في عصابات مسلّحة كانت تقوم بالإغارة على هذه المعسكرات، وتنسف الجسور وقطارات المؤونة للجيش البريطاني، وكانت في معظمها من شباب الإخوان في مصر. «فهب السباعي يدعو الشعب السوري لمؤازرة مصر، وقدَّم إلى وزير مصر المفوض كتاباً يعرض فيه تطوع الألوف من شباب الإخوان المسلمين في سورية للقتال إلى جانب إخوانهم على ضفاف القنال. . فألقت السلطات السورية القبض عليه، وزجته في سجن المزة المدة المذكورة» ونحن لا ننفي الاعتقال، ولا هذا التحرك الجماهيري من قبل السباعي، ولكن يصعب التسليم بأنه كان السبب وراء الاعتقال. . اللهم إلا أن يكون هذا التحرك أغرى الشيشكلي بسجنه، لأن جماعة السباعي كانت قد مُنعت من النشاط، ولم يكن في وسعه أن يتحمل منه مثل هذا النشاط أو هذا التحدي؛ راجع مجلة حضارة الإسلام: مرجع سابق، ص(١٤٨ـ١٤٩).

لمقابلته. وقد كانت هذه المقابلة على النحو التالي:

قال الشيشكلي: يؤسفني يا أيها الأستاذ أن تصدر عني إساءة نحوك، وأنا الذي أقدِّر جهادك، وأثق بإخلاصك ومن معك.. وقد كان الأحرى بنا أن نأتلف بدلاً من أن نختصم ونختلف، ومع ذلك فإن المجال لا يزال أمامنا متسعاً، لذلك فلننسَ الماضي ولنتعاون!.

فقال السباعي: ولكن الذي وجدته منك أكد لي ألا سبيل إلى التلاقي.

قال الشيشكلي: ولم لا؟.. إنك تدعو إلى الإسلام، وأنا والله مسلم، يملأ قلبي الإيمان بالله ورسوله وكتابه، فكيف لا يتم تلاقينا؟.

قال الأستاذ السباعي: لعلك تفهم الإسلام عبادة وعقيدة! أما نحن فالإسلام في مفهومنا نظام يشمل الحياة، ويقدر لكل شيء حسابه.. ومعنى ذلك أننا لا نستطيع القبول بالواقع الذي تفرضه القوة، ولا بد لنا من النضال بكل الوسائل المشروعة حتى نعيد إلى هذه الديار نظامها الإسلامي الذي به دخلت أمتنا التاريخ، وبه تسنّمت مركز القيادة العالمية من أوروبة إلى أقصى الصين!.

وهنا لم يبق متسع لاستمرار المحاولة، فأعلن صاحب الانقلاب أسفه لإصرار السباعي على معارضته، ونهض ليودّعه وهو يقول: «إذاً فنحن معذورون باتخاذ كل ما نراه ضرورياً لحماية أهدافنا. ولكنني آمل ألا نيأس من إمكان التلاقي في وقت آخر.. عندما تتضح لكم حقيقة أغراضي يا دكتور!».

يقول الأستاذ محمد المجذوب ـ الذي نقل هذه المقابلة ـ: «وكان طبيعياً أن يفرض الحصار على تنقلات الفقيد، وعلى داره التي أخذت تزدحم بالزائرين من مختلف أنحاء دمشق وغيرها. ثم رأى الشيشكلي أن دمشق لا تتسع له وللفقيد، فأخرجه إلى لبنان، حيث بقي في منفاه هذا إلى نهاية ذلك العهد»[1].

قلت: إن نظرة عابرة في هذه المقابلة وفي سائر الوقائع والأحداث تدل على أن الشيشكلي كان يحاول كسب الأستاذ السباعي بتاريخه الناصع وألقه البرلماني وجماهيريته الواسعة على مستوى البلاد السورية بوجه عام وفي دمشق

---

(١) كتاب: علماء ومفكرون عرفتهم للأستاذ محمد المجذوب ١/ ٣٦٤ ـ ٣٦٥ الترجمة رقم (١٧). والواقع أن الشيشكلي فرض عليه الإقامة الجبرية في بيته بدمشق قبل أن يخرجه من سورية ليقيم في لبنان.

بوجه خاص، إلى جانب ما أشار إليه الشيشكلي من إخلاص السباعي وإخوانه وجهاده الذي عاصره وشاهده على أرض فلسطين. . ولعله قد التقى به في ذلك الحين. ولكن السباعي من خلال القيم الإسلامية التي أشار إليها. . إلى جانب ما استقر في وعيه وعبّر عنه في مناسبات كثيرة من كراهية الانقلابات العسكرية والانقلابيين لم يستطع أن يتعاون مع الشيشكلي! حتى إنه لم يلتفت إلى القدر الذي تحدث به الشيشكلي عن الإسلام. . والذي نحسب أنه كان فيه من الصادقين. هذا في الوقت الذي كان الشيشكلي قد كسب أكرم الحوراني ـ أو بالعكس ـ قبل أن ينضم إليه فيما بعد نفر من السياسيين البارزين في حركة التحرير التي أسسها، والتي أشرنا إليها قبل قليل. وكان منهم المحامي والأستاذ الجامعي الدكتور مأمون الكزبري[1]. وربما كان السباعي ـ والأمر متروك للمؤرخين ـ في موقفه هذا من المتشددين؛ فقد كان في وسعه أن يهادنه بعض الوقت أو يغادر منطقة التشهير به ومناصبته العداء، دون أن يصل معه إلى درجة التنسيق والتعاون. وربما كان لموقفه هذا أسباب أخرى قدرها هو في ذلك الحين، رحم الله الجميع.

* * *

---

(١) انتخب الدكتور الكزبري رئيساً للمجلس النيابي الذي تم انتخابه في عهد الشيشكلي. وقد افتتح أولى جلساته بتاريخ ٢٤/ ١٠/ ١٩٥٣م.

حملة تشويه

بدأ السباعي يواجه بعض المتاعب الداخلية أو في نطاق جماعته في هذا العام الذي خرج في أواخره ـ كما يبدو من سياق الأحداث ـ إلى لبنان؛ فقد شهدت الفترة التي قضاها رهن الإقامة الجبرية بعد الإفراج عنه من السجن ولادة حركة انشقاقية بلغت أوجها في عام ١٩٥٤م، وقد جاءت هذه البداية والولادة في سياقٍ فكري وسياسي، كما سنشرح بعد قليل. وحاول أصحابها الإفادة من خروجه إلى لبنان في محاولة توطيد أركان دعوتهم وتوسيع دائرتها. ولكننا نشير قبل ذلك إلى لون من ألوان الأذى الشخصي، الذي حاول بعض هؤلاء أن يلحقوه بالأستاذ السباعي ـ في سبيل الدعوة إلى الخروج أو الانشقاق ـ يتعلّق بمصروفه أو نفقاته المالية، بعد أن سرح من وظيفته بمرسوم من أديب الشيشكلي، ولم يبق له مورد رزق! ولا يصعب علينا تفسير هذه المحاولة التي تعتمد (الفضيحة) أسلوباً مختصراً، وطريقاً قصيرة للحرب والتشهير، والتي تجد لها صدًى في طبائع الأغرار والجهلاء، وربما كذلك في نفوس الشانئين والحاسدين.. علماً بأنّ هذا الأسلوب غالباً ما يؤدي عند التمحيص والتدقيق لا إلى تقرير البراءة فحسب، بل إنه يكشف فوق ذلك عن أبواب من الفضل والنبل كان يتمتع بها من استهدف بتلك (الفضيحة).. وربما بقيت مثل هذه الأبواب في حياته متوارية أو مجهولة لولا تلك الشبهات والمزاعم، كما حدث تماماً في الشبهات التي أثارها نفر من المستشرقين حول النبي ﷺ في مسألتي الزواج والحرب.. ـ وبخاصة مسألة زواجه بهذا العدد من النسوة[1] ـ من أجل إظهاره بمظهر لا يتلاءم وشرف النبوة.. يختصرون بذلك الطعن في عقائد الإسلام وشرائعه وتاريخه وحضارته.. حتى إذا تفحصنا الأمر في أمر زواجه عليه الصلاة والسلام وقفنا على أبواب جديدة من الفضل والنبل، وما جُبلت عليه نفسه الشريفة من الخلق

---

(١) انظر حول هذه المسألة الفصل الذي كتبه الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد بعنوان (زواج النبي) في كتابه القيم: حقائق الإسلام وأباطيل خصومه.

الرفيع، والبُعد عن مطالب الحسّ وشهوات الجسد!.. وكذلك استُهدف السباعي الداعية لإظهاره بمظهر لا يتلاءم وشرف الدعوة ومنصب القيادة!.

وندع الحديث في هذا إلى الأستاذ الأديب الشاعر محمد المجذوب الذي يرى أولاً أن ما لقيه السباعي إنما جاء عن طريق شباب كانوا أحق الناس ببرّه وحبّه! ثم قال: «وكان يوم عاد إلى سورية ليستأنف نشاطه في خدمة الحق، فإذا هو يواجه سلسلة من التدابير حيكت في غيابه للتسلط على الجماعة! إنها محاولة انقلاب بدأت خفية وراء الستور، **ثم ما لبثت أن خرجت إلى الملأ تواكبها وتؤرثها تحريشات الصحف المشبوهة، التي لم يعرف لها سابق اهتمام بقضايا الإسلام، إلا عند مهاجمة دعاته، والدعوة إلى عدائه!**».

ويضيف الأستاذ المجذوب: «وأشهد لقد تحمل أبو حسان من ظلم هذه الفئة ـ سامحها الله ـ ما تنوء به كواهل العصبة أولي القوة! وحسبي أن أذكر مشهداً واحداً من هذه المأساة. ولولا خشية الإساءة لمن لا نحب إيذاءهم من إخواننا الأحياء، لوجدت متسعاً لعرض الكثير من هذه المشاهد، التي لا أشك أنها كانت من العوامل التي انتهت به إلى الشلل».

وقد عَرض هذا المشهد على النحو التالي: قال:

«حدث ذلك في دمشق، وفي اجتماع ضم طائفة من قادة الجماعة، بينهم من مصر الأستاذان صالح أبو رقيّق، وحسن العشماوي، ومن سورية الأساتذة عصام العطار، وعبد الكريم عثمان، وحضر الاجتماع الأستاذ (فلان) عن الفئة (الأخرى).

وطرحت الأفكار بصراحة، وفسح مجال القول لمن شاء. ووجد الأخ (فلان) الفرصة مواتية لتفجير ما حمل من ألغام، فإذا هو يقول في لهجة مضغوطة لم يستطع أن يلطّفها: «هناك أسئلة تطلق، ولا نعرف بماذا نجيب عليها.. أولاً مصروف الأستاذ السباعي أثناء وجوده في لبنان طوال زمن النفي.. من أين أتى به؟ ثم هناك مبلغ من المال كان قد قبضه من الأستاذ (أمين..) قبل سفره إلى فرنسة لنوال درجة الدكتوراه.. كيف تصرّف به؟ وبأي حق؟»».

ووجمت الألسن، وغامت الوجوه تحت غشاء الدهشة المرّة؛ إذ لم يكن أحد منا يتوقع أن تصل الخصومة في القوم إلى حد اتهام الرجل الذي وهب كل شيء في سبيل الدعوة.

يقول: «ولكن وجهاً واحداً لم تزده هذه الجرأة إلا إشراقاً وابتساماً، هو وجه السباعي، الذي ظل محتفظاً بهدوئه واطمئنانه المألوف في مثل هذه المجالس الخاصة، كأن شيئاً مؤسفاً لم يحدث!، وكان عليه أن يجيب فقال: «أما مصاريف المنفى فيخجلني أن أضطر لكشف الستر عن وضع لا يخص أحداً سواي، وهو أنني كنت أقترضها من ابن عمي عبد السلام السباعي في بيروت، حتى بلغت ديوني بسبب ذلك قرابة العشرين ألف ليرة. وقد كان في وسعي أن أنجو من هذه الديون لو قبلت معونة أخ واحد من الكويت.. لقد بعث إلي ـ هذا الأخ ـ بالسيد رفعة الإيتوني يقول: إنك موقوف عن العمل، ولا مورد لك ولأسرتك، وإن أخاك هذا كلّفني أن أقدم إليك راتباً شهرياً ريثما تنكشف محنتك. ولكني رجوت من السيد الإيتوني أن يرفع إلى الأخ الكويتي شكري على مروءته، ويؤكد له أنني في غير حاجة إلى شيء من ذلك، فألح وطلب إليَّ أن أعدَّ ذلك من باب الاقتراض، فقلت: إنني أقترض من ابن عمي، ولا أحب أن أكون مديناً لغيره!.

«وهنا طلب الأستاذ عبد الكريم عثمان ـ رحمه الله ـ الإذن بالكلام، والتفت إلى الأستاذ(فلان) يقول: أتذكر يوم كذا.. وكنا نتحدث عن الأستاذ السباعي فقلت لي: حقاً إن الرجل مظلوم.. وضربت لي مثلاً على ذلك بأنه قد تلقى من الدكتور (أمين..) هبة باسم الدعوة فدفعها إليك بدوره، لتنفقها على مصالح الجماعة، وقد فعلتَ، ثم قلت: ومع ذلك فإن بعض الألسنة غير النظيفة تريد أن تتحرك بالباطل لتتهم الرجل بأنه استأثر بالهبة لنفسه! وأطرق (فلان).. وقد تذكر كل شيء، ولكنه لم ينطق بحرف.. ثم انفض الاجتماع لصلاة الجمعة، ففارقنا إلى غير رجعة!»[1].

قلت: ليس هذا كيداً رخيصاً فحسب، بل هو كذلك كيد مشبوه، لأنه قائم على خلط الأوراق وتعمد الكذب! ولقد شهدته ـ علم الله ـ ينفق على بعض طلبة العلم وعلى مجلة (حضارة الإسلام) من ماله. ولا نتحدث هنا عن بذله وكرمه وترفعه عن الصغائر.. ولكن هل نلوم السباعي إذا أخذ هذا الكيد ـ ونحوه كثير ـ من نفسه أو أثر في صحته التي لم تكن في الأصل أو منذ أمد بعيد.. على مايرام؟

* * *

---

(١) علماء ومفكرون عرفته للأستاذ محمد المجذوب ١/ ٣٦٦ـ٣٦٨.

حركة انشقاق

شهدت دمشق ـ وبعض البلاد السورية ـ في أعقاب المعركة الدستورية البرلمانية الشعبية التي دارت حول مسألة دين الدولة في النصف الأول من عام ١٩٥٠م ـ والتي عرضنا لطرف منها ـ شهدت حركة جدل واسعة دارت داخل صفوف الإسلاميين بغض النظر عن انتماءاتهم التنظيمية أو الحزبية، أي سواءً أكانوا من الإخوان أم من العلماء والمشايخ وتلاميذهم وطلابهم، أم من سائر المتعلمين والمثقفين. . ويمكن عدّ هذا الجدل من ذيول الجدل والخلاف الذي دار حول هذه القضية، أو استمراراً له من بعض الوجوه؛ لأنها حُسمت ـ برلمانياً ـ على وجه لم يرضَ عنه الجميع، أو لم يُرض كافة الطموحات والتطلعات. وقد أشرنا فيما سبق إلى النقد الذي بدأ يُوجّه إلى الأستاذ السباعي من بعض الجهات. . وهكذا بدأت بعض الأسئلة تطرح عن جدوى المشاركة البرلمانية بل السياسية. . وعن مفهوم الحكم الإسلامي. . وعن جدوى الأساليب المتبعة في العمل الإسلامي، أو عن مدى نجاعتها في تحقيق أغراض هذا العمل، والوصول به إلى أهدافه. . خصوصاً وقد اعتمد أسلوب التربية الفردية الأخلاقية والإيمانية، وهذا ـ كما قيل ـ يحتاج إلى وقت طويل! وأسلوب الخطابة والدعوة العامة أو الجاهيرية. وهذا الأسلوب ـ مع تقلب الجمهور واضطراب مقاييسه ـ ليس مضمون النتائج!.

في أعقاب هذا الجو، أو هذا المناخ وصل إلى دمشق ناشطون من (حزب التحرير) الذي أسسه الشيخ محمد تقي الدين النبهاني رحمه الله[1]. . حضروا

---

(١) ولد النبهاني عام ١٩٠٩م بقرية (إجزم) ـ بصيغة الأمر ـ من أعمال حيفا، وتخرج في كلٍّ من الأزهرو دار العلوم بالقاهرة، وعمل في فلسطين بالتدريس ثم بالقضاء الشرعي، ثم مدرساً في الكلية الإسلامية بعمّان. وفي عام ١٩٥١م أنشأ (حزب التحرير الإسلامي) الذي قام على الدعوة إلى استئناف الحياة الإسلامية وقيام الخلافة الإسلامية. ومعظم الكتب التي نشرها الحزب في الفكر والسياسة والاقتصاد والمفاهيم من تأليفه. وكان =

إليها من الأردن، وبدؤوا حملة واسعة في الدعوة إلى (مفاهيمهم) الفكرية والسياسية. . وكانوا متابعين للشأن السياسي العربي والدولي على نحو غير معهود في صفوف الإسلاميين في سورية، ونشروا في ذلك عدة بيانات. وكانت هذه البيانات والنشرات مميّزة بلون غلافها الأبيض وعناوينها الحمراء! وعقدوا الاجتماعات، واتصلوا بكثير من (العناصر) الإخوانية وسواها. . فأحدثوا (صدمة) لدى هذه العناصر، وفي صفوف الإخوان والإسلاميين على وجه العموم! وقد تأثر بدعوتهم نفر قليل، وأعرض عنها الكثيرون. . ولكنها أثارت جدلاً واسعاً، ونقاشاً حاداً في الصف الإسلامي بوجه عام، وبينهم وبين شباب الإخوان على وجه الخصوص. . ولم يكن جميع هؤلاء الشباب بأعدادهم الغفيرة يتمتعون بالقدرة على الجدل التي أوتيها أولئك النفر القليل من التحريريين، ولم يتبين أن معظم جوانب هذا الجدل بيزنطي إلا بعد مدة من الزمن. . وأن الخلافة الإسلامية التي كانوا يتبنّون الدعوة إلى إحيائها بكل الوسائل ليست في متناول اليد، ويبعد أن تأتي في أول الطريق! وإن كان الإعراض عنهم في وقت سابق جرى على خلفية بعض (الأحكام) الشرعية التي كانوا يتبنونها أو يدعون إليها، وعلى خلفية سلوكيات بعضهم التي لم تكن ترتقي فوق مستوى الشبهات التي ينبغي أن يترفع عنها الدعاة والعاملون في الحقل الإسلامي.

ولكن بعض الشباب المتحمس أو الذي كان يتمتع بفضل من النشاط، وقد استهواهم أسلوب الجدل والنقاش، والذي كان يستمر لساعات في بعض الأحيان، بدؤوا ينتقدون الأستاذ السباعي، ويتهمونه بالتفرد في القيادة، والاستبداد بالرأي، ودخل بعض الشباب الآخرين في مهاترات مع هؤلاء، لم يكن وراءها طائل سوى قدر من البلبلة لحق بصفوف الجماعة.

ولكن ذلك كله لم ينته إلى أكثر من ذلك، إلى جانب ظفر (حزب التحرير) بعدد قليل من الأتباع أو الأنصار من صفوف الإخوان وسائر الإسلاميين.

وساد اعتقاد على نطاق واسع أن نشاط الحزب يراد به شق صفوف الإخوان! أو لا يراد به إلا هذا! ولا نعتقد أن هذا كان صحيحاً، وإن كانت فكرة وجود حزب آخر أو تنظيم (إسلامي) آخر إلى جانب الإخوان سوف يلقى التشجيع، أو يكون

= ـ كما حدثنا الدكتور الشيخ عبد العزيز الخياط ـ شديد المراس، بارعاً في الجدل، توفي عام ١٩٧٧م رحمه الله.

موضع ترحيب، كما كان يعتقد البعض في ذلك الحين، لأنه سوف يجعل بأس الإسلاميين بينهم، وبخاصة إذا كان في الصف قومٌ خَصِمُون!.

وحين وصل من مصر ـ هارباً من السجن كما كان يزعم ـ السيد نجيب جويفل، كان الجو مهيئاً لدخول طرف ثالث أو لتوظيف هذا المناخ لإحداث شرخ في جسم دعوة الإخوان، وهي المهمة التي جاء هذا الرجل لتحقيقها في سورية إذا سلمنا بأنه نُدب إلى ذلك، أو أن طبيعته وقدراته (النقدية) أو الهدامة ـ إن صح التعبير ـ هي التي انتدبته إلى ذلك أو دفعته إليه! ونحن نميل إلى الرأي الأول، وهو الرأي السائد، لأن نقد جويفل (الأخ المصري)! انصب بشكل أو بآخر على شخص مصطفى السباعي أولاً، ولأنه ثانياً حاول تشكيل نظام سري أو نظام خاص ـ في نطاق جماعة الإخوان ـ مماثل للنظام الخاص لدى إخوان مصر! أو الشدّ من أزر أولئك الذين استهواهم هذا النظام في وقت سابق، في ظل المناخ السائد من جهة، وإعجاباً منهم بالبطولات التي أبداها أفراد هذا النظام على أرض فلسطين وعلى ضفاف القنال ـ الواقع منها والمبالغ فيها! ـ من جهة أخرى. ونستعيد هنا ما نقلناه عن باتريك سيل، وهو أن «الجبهة الإسلامية الاشتراكية» ـ التي كان يقودها السباعي في البرلمان ـ على نقيض الإخوان المسلمين في مصر، بعيدة عن كونها تنظيماً شبه عسكري، أو أداة سياسية، كانت وبحق ناطقاً أصيلاً عن الجماهير السورية التي كانت وستبقى مسلمة وغيورة»[1]!

والسؤال الذي يطرح نفسه عند هذه النقطة: من الذي (رصد) دور السباعي في هذه المسيرة للإخوان في سورية حتى لكأنها تستعصي على التعطيل أو التحطيم مع وجود السباعي على رأس هذه الحركة، وبكل طاقاته القيادية وإخلاصه وجماهيريته و(روحه الوطنية) ومنزلته في الدعوة والفكر الإسلامي؟ أو مع خلوّ هذه الحركة من النظام الخاص والتنظيمات شبه العسكرية، وبُعدها عن حمل السلاح إلا في وجه اليهود على أرض فلسطين؟.

وأتذكر عند هذه النقطة ما حدثني به **أستاذنا الدكتور مصطفى زيد**، وكان معاراً من جامعة القاهرة للتدريس في كلية الشريعة بجامعة دمشق ـ وأستبق بهذا الحديث الحوادث ـ وكنت أسير معه في نفر من زملائي الطلاب، بعد خروجنا من محاضرة مسائية له رحمه الله ـ وكان يعلّق على الانتخابات التكميلية التي خاضها

---

(١) الصراع على سورية، ص١٣٩.

الأستاذ السباعي عام١٩٥٧م وعلى دور السفارة المصرية بدمشق فيها، قال رحمه الله: إن التقارير التي رفعت إلى السيد الرئيس تقول: إن الإخوان المسلمين في سورية هم مصطفى السباعي! وأبدى أسفه الشديد، لأن السفارة المذكورة أنفقت حوالي مليون جنيه ـ أو «شاركت» بهذا المبلغ ـ في سبيل إسقاط السباعي في الانتخابات المذكورة!.

لم ينجح نجيب جويفل إذاً، ولكن إذا كان هذا الذي حدثنا به أستاذنا مصطفى زيد قد جاء بين يدي تهيئة الأجواء والظروف ـ السياسية والنفسية ـ لقيام الوحدة بين سورية ومصر، أو للفزع واللجوء إلى عبد الناصر. علماًبأن الإخوان أيدوا قيام هذه الوحدة ـ كما سبقت الإشارة إلى ذلك[1] ـ كما لقي الأستاذ السباعي بعد ذلك تكريماً ورعاية صحية في مصر أيام الوحدة؛ فماذا يدرينا أن أسباباً من هذا النوع أو من نوع آخر كانت تقف وراء نجيب جويفل وأمثاله في وقت سابق[2]؟.

وحين نجح هذا في ربط بعض العناصر الإخوانية به سراً.. بدأ هؤلاء محاولاتهم الاتصال بعدد من الشباب، لربطهم بمجموعتهم وإقصائهم عن الأستاذ السباعي، حين كان يقيم في بيته بإقامة جبرية، كما حدثنا الأخ الفاضل

---

(١) بل إن الإخوان رفضوا ـ بعد انفصام عرى هذه الوحدة ـ التوقيع على وثيقة الانفصال التي وقّعت عليها سائر الأحزاب السورية.

(٢) ذكر (باتريك سيل) ـ كما سنشير إلى ذلك في صفحات قادمة ـ أن المحاكمات التي تمت في قضية اغتيال العقيد عدنان المالكي عام ١٩٥٥ كشفت عن أن الحزب القومي السوري جرى على تزويد مكتب المعلومات الأمريكي في دمشق بتقارير عن نشاطات الإخوان المسلمين في سورية. ونعتقد أن الإيقاع بهم أو شق صفوفهم بين يدي «مدّ» النفوذ الأمريكي إلى سورية بات ضرورياً، أو أنه لا يستعصي على التفسير على أقل تقدير! وبخاصة أن سياسة عدم الانحياز التي كان يدعو إليها السباعي والجبهة الاشتراكية الإسلامية من عام ٤٩ ـ ١٩٥٠ كانت (استراتيجية) حقيقية، ولم تكن مجرد مناورة سياسية أو شعارات استهلاكية! بدليل أن الأستاذ محمد المبارك عاد للتأكيد عليها في برلمان ١٩٥٤. ويبدو أن سبيل عبد الناصر للإيقاع بالسباعي والإخوان في سورية كانت في (تعميم) النظام الخاص أو في نقل تجربته من إخوان مصر إلى إخوان سورية. ومعلوم أن عبد الناصر عوّل على هذا النظام عندما نجح في استمالة رئيسه عبد الرحمن السندي في اختراق الإخوان هناك وفي محاولة توريطهم؛ تمهيداً للانقضاض عليهم. ومن ثم فإن حركة نجيب جويفل نحو إقامة مثل هذا النظام في سورية أضحت مفهومة الدوافع والغايات..

السيد عدنان طباع، الذي عاصر هذه الأحداث، وعاشها كذلك بحكم قربه من الأستاذ السباعي، وإخلاصه الشديد له، وللعمل تحت قيادته. وندع خلاصة الأحداث هنا للأخ السيد الطباع الذي قال: «وبعد إخراج الشيخ السباعي من سورية، وإقامته في المنفى ببيروت ازداد نشاطهم، وأشاعوا بين الإخوان أن الجماعة أصبحت مرتبطة بمصر مباشرة، ولم يعد الشيخ مصطفى مسؤولاً! وعلى إثر ذلك تشكل مكتب في دمشق مرتبط بالشيخ السباعي لتسيير العمل، وطلب من الشيخ العودة سريعاً إلى دمشق، حتى ولو أدى إلى دخوله السجن، فعاد الشيخ إلى دمشق في أواخر ١٩٥٣م»[1].

وخرج الصراع إلى العلن بعد هذه العودة وقيام المكتب التنفيذي للإخوان ـ في سورية ـ بفصل بعض العناصر، وتحقق الإخوان من أن كل ما أُرجف به ضد الأستاذ السباعي ـ الذي عرضنا لطرفٍ منه ـ باطل ولا أساس له من الصحة. وهكذا صار اسم(المنشقّين) عنواناً على جميع الأفراد الذين فصلوا، وأولئك الذين تركوا الجماعة أو جسمها الرئيسي، مع إصرارهم على أن يحملوا اسم (الإخوان المسلمون)!.

يقول السيد الطباع: «وتقدم المنشقون ـ في الخفاء ـ بطلب ترخيص من أمانة العاصمة باسم جمعية الإخوان المسلمين (جمعية خيرية) وأخذوا الموافقة، وتسلموا مركز باب الجابية رسمياً (وكان أحد مركزين للإخوان في دمشق)..

---

(١) أصدر الشيشكلي عفواً عاماً بمناسبة انتخابه رئيساً للجمهورية عبر استفتاء شعبي مباشر (نظام رئاسي) بتاريخ ١٠/ ٧/ ١٩٥٣م. وعاد إلى سورية بمناسبة العفو المشار إليه عدد من السياسيين الذين كانوا في لبنان في ٢١/ ١٠/ ١٩٥٣م قبل أن يفتتح البرلمان الجديد جلساته بثلاثة أيام. وربما كانت عودة السباعي نحو هذا التاريخ أو قريباً منه. ويؤكد بعض الشخصيات الإخوانية أن السباعي تردد على سورية سراً أكثر من مرة، قبل أن يعود إليها بشكل نهائي عقب القرار المذكور فيما يبدو. وقد أصدر في دمشق بتاريخ (١) ربيع الثاني ١٣٧٣هـ الموافق ٧/ ١٢/ ١٩٥٣م بحثه عن (مشروعية الإرث وأحكامه في الإسلام) ضمن السلسلة التي كان يصدرها باسم(هذا هو الإسلام)؛ راجع باتريك سيل، ص(١٧٤ ـ ١٧٥). والمجموعة الأولى من السلسلة المذكورة ـ البحث الثالث، ص٤.
كما قام الشيشكلي بإطلاق سراح جميع المعتقلين السياسيين قبل إعلان دستوره. راجع مصطفى السباعي: جريدة الشهاب، العدد ٤٣، تاريخ ٢١ رجب ١٣٧٥هـ (٤/٣/١٩٥٦).

وبلغ الأمر بهم إلى أن هددوا بقتل الشيخ مصطفى إذا ألقى حديث الثلاثاء (المحاضرة أو الحديث الأسبوعي المفتوح للأستاذ السباعي) في مركز باب الجابية، فوقف السباعي موقفاً حازماً، وذهب إلى رئيس الوزراء السيد صبري العسلي ـ وكان أيضاً وزيراً للداخلية ـ وتقدم بطلب ترخيص باسم الحزب الوطني ـ الذي ينتمي إليه العسلي ـ وحزب الشعب قائلاً: نريد فتح مراكز باسم هذين الحزبين كما سمحتم بفتح مركز لغيرنا باسم الإخوان.. فاضطر رئيس الوزراء لسحب ترخيص المنشقين. وفي هذه الأثناء تم فتح مركز عام باسم المكتب التنفيذي للإخوان ـ في سورية ـ في دمشق (الشهداء ـ طريق الصالحية)، واجتمعت الهيئة التشريعية وانتخبت مكتباً تنفيذياً يمثل الجماعة، وأُغلق مركز (باب الجابية)، فقام المنشقون برفع دعوى قضائية أمام المحكمة العليا ضد الحكومة، لأنها سحبت الترخيص، فحكمت برد الدعوى[1]. وقد وصفت جريدة (الشهاب) قرار المحكمة العليا «بردّ اعتراضهم ونفي دعواهم بأنه قرار حكيم»[2].

لكن هذا السحب للترخيص، أو بعبارة أدق: لترخيصٍ معطىً باسم الإخوان المسلمين أوهَم أن الحكومة السورية أوقفت نشاط الجماعة في سورية،

---

(١) انظر: الدكتور مصطفى السباعي للسيد حسني جرار، ص(٦٥ ـ ٦٨) ويضيف السيد عدنان طباع قائلاً إنه بعد الصدام الذي وقع بين الإخوان وعبد الناصر عام ١٩٥٤م: «اختلف المنشقون بعضهم مع بعض، وتبين لبعضهم أن نجيب جويفل كان عميلاً للسلطات المصرية، وأن مهمته كانت تمزيق صفوف الإخوان.. حتى إنه ظهر في بعض السجون في مصر مع المكلفين من قبل الدولة بالتوعية..» ويقول: «وكانت نهاية المنشقين أن منهم من اعتزل العمل، ومنهم من انحرف عن الإسلام وتعامل مع خصوم الحركة الإسلامية، ومنهم من اتصل بالسباعي وطلبوا منه أن يسامحهم ففعل رحمه الله»؛ وقد أقر هؤلاء بأنهم كانوا مخدوعين ومضلّلين.

(٢) العدد (٣١) تاريخ ١١/ ١٢/ ١٩٥٥م. وانظر العدد (٢٨) تاريخ ٢٠/ ١١/ ١٩٥٥ حيث قالت الجريدة تعليقاً على القرار المذكور: «... وهكذا وضعت المحكمة العليا بقرارها الحكيم هذا حداً لاستغلال هذا الأمر من قبل صحف معينة وأشخاص معروفين بعدائهم للإسلام، كانوا دائبين على الهدم في جماعة الإخوان والفتّ في عضدها. وقضت على النغمة التي رددها الكثيرون من أن في دمشق جمعيتي إخوان: إحداهما في الشهداء، والأخرى في باب الجابية» وكان القرار المذكور قد صدر قبل ثلاثة أو أربعة أيام من التاريخ المذكور.

الأمر الذي استغلته بعض الجهات.

وقد سئل الأستاذ السباعي نفسه بوصفه المراقب العام للإخوان المسلمين عن هذا الموضوع، لأن بعض (الجهات خارج سورية حاولت إيهام العالم الخارجي بأن الحكومة السورية أوقفت نشاط الإخوان، وسحبت منهم الترخيص الممنوح لهم) في الوقت الذي كانت مراكزهم تقوم بنشاطها المعتاد في جميع أنحاء سورية. فأجاب بقوله:

«كانت الهيئة التشريعية لجماعة الإخوان المسلمين في سورية قد أنذرت أعضاء مكتب دمشق السابق بوجوب تنفيذ قرارها الذي نفذ في جميع مراكز المحافظات السورية، وهو الذي يقضي بتجديد الانتساب، وأداء القسم المنصوص عليه في النظام الأساسي للجماعة، ولما رفض أعضاء مكتب دمشق الخضوع لقرار الجماعة، اعتبر مكتبهم منحلاً، واعتبر الأعضاء المتمردون مفصولين عن الجماعة، وباشر المكتب التنفيذي أعمال مكتب دمشق إلى أن يجري انتخابات جديدة في دمشق ينبثق عنها مكتب إداري جديد (وقد تمت هذه الانتخابات وانتخب المكتب الجديد لمركز دمشق في ١٩ شوال ١٣٧٤هـ الموافق ٩ حزيران (يونيه) ١٩٥٥).

«ولم يرق ذلك لأعضاء المكتب القديم المنحل، فتقدموا بطلب رخصة باسم الإخوان المسلمين إلى محافظة دمشق الممتازة، وجعلوا من عداد الأعضاء المؤسسين بعض الأعضاء الذين فصلتهم الجماعة من قبل. وظن موظفو المحافظة أن الأمر يتعلق بجماعة الإخوان المسلمين حقيقة، ولم يعلموا حقيقة وضعهم، فيسّروا لهم إعطاء الرخصة، دون أن تقترن بموافقة وزارة الداخلية.

«ولما اطلعنا على ذلك اتصلنا بالمسؤولين في وزارة الداخلية، وبالمحافظة الممتازة، وأفهمناهم أن كيان الجماعة قائم، وشأنه كشأن بقية الهيئات والأحزاب التي لم تخضع لقانون الشيشكلي، وأنه لا يجوز أخذ اسم الجماعة والترخيص به لأفراد مهما كانت صلتهم بجماعة الإخوان من قبل، فاقتنع المسؤولون ببطلان تلك الرخصة، وصدر القرار بإلغائها، وأبلغ أصحابها ذلك، ومنعوا من أن يتكلّموا فيما بعد باسم الإخوان المسلمين».

ويضيف الأستاذ السباعي: «هذه هي حقيقة المسألة، ونحن لا نزال ننتظر إقرار القانون الجديد للجمعيات والأحزاب الذي تدرسه لجنة القوانين العامة في

المجلس النيابي، بعد أن أجمعت مختلف أحزاب المجلس وكتله على وجوب إلغاء قانون الشيشكلي للجمعيات والأحزاب، وأقرت ذلك اللجان المختصة في المجلس»[١].

قلت: حاول (المنشقُّون) إذاً أن يستفيدوا من الفراغ القانوني الذي كان قائماً بعد زوال حكم العقيد أديب الشيشكلي، فتقدموا بالطلب المذكور، وحين اعترض المراقب العام للجماعة أصدر محافظ مدينة دمشق الممتازة قراراً ينص على مايلي: «١ ـ يسحب الإيصال النهائي المعطى إلى جمعية الإخوان المسلمين بتاريخ ١٩/ ٥/ ١٩٥٥م ورقم (٤٨١١).

٢ ـ يكلف أمين السر العام بتنفيذ أحكام هذا القرار»[٢].

وسحب هذا الترخيص لا يعني أن الجماعة التي كانت قائمة فعلاً وتمارس نشاطها المعتاد، بحكم وجودها قبل حكم الشيشكلي ـ كسائر الأحزاب الأخرى ـ قد سحب ترخيصها، ولكن الإشارة كانت للترخيص المذكور والمعطى بتاريخ ١٩/ ٥/ ١٩٥٥م، والذي تقدم بطلبه أولئك الذين تحدث عنهم الأستاذ السباعي.

ولكن أجهزة الإعلام المصرية ـ أو الناصرية كما كانت تُدعى ـ هي التي حاولت إيهام الرأي العام العالمي أن الحكومة السورية أوقفت نشاط الإخوان، وسحبت منهم الترخيص الممنوح لهم.

وقد وصف الأستاذ السباعي هذا بأنه «أمر مضحك لا نجد بنا حاجة إلى الرد عليه، فمراكز الإخوان في جميع أنحاء سورية قائمة بنشاطها المعتاد في خدمة الإسلام والدعوة إلى الإصلاح، وهي مفتوحة الأبواب لكل من أراد أن يساهم في نشاطها المحمود».

ثم ختم تصريحه قائلاً: «وأما أولئك الإخوان القلائل المنشقون من الجماعة، المفصولون منها، فنحن يسرّنا أن يوفقوا في خدمة الإسلام بالأسلوب الذي ارتضوه لأنفسهم»[٣].

---

(١) جريدة الشهاب الدمشقية: العدد (٧) السنة الأولى تاريخ ٢١ شوال ١٣٧٤هـ الموافق ١٢ حزيران (يونيو) ١٩٥٥م.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق، ص٢.

السباعي يتلقى التأييد من قيادات الإخوان:

وأخيراً، فقد تلقّى الأستاذ السباعي ـ في أعقاب حركة الانشقاق هذه ـ تأييد قادة الإخوان جميعاً، وتجديد ثقتهم بقيادته. وقد أصدروا في ذلك البيان التالي الذي كان أحد مقرراتهم الصادرة عن المؤتمر الذي عقدوه بدمشق يومي الخميس والجمعة الواقعين في ٢٦ و٢٧ شوال ١٣٧٤هـ الموافق ١٦ و١٧ حزيران (يونيو) ١٩٥٥م[١].

«إن جماعة الإخوان المسلمين في سورية بمناسبة مؤتمر قادتهم المنعقد في دمشق بدار المركز العام للإخوان المسلمين بالشهداء ليعلنون وحدة صفهم واجتماع كلمتهم في جميع مراكز الدعوة، وثقتهم وتأييدهم للمراقب العام الدكتور مصطفى السباعي في قيادته للدعوة في خلال مراحلها المتتابعة. وإن ما وقع من بعض أعضاء الجماعة من خروج على صفوفها، ليس إلا حادثاً عادياً يقع مثله في كل هيئة وحزب وجماعة. وما وقع من هؤلاء الأفراد ليس نتيجة خلاف مع شخص المراقب العام، وإنما هو نتيجة لعدم استطاعتهم الانسجام مع أنظمة الجماعة ومقرراتها.

«وإن جماعة الإخوان تعلن أن فضيلة المراقب العام كان ولا يزال أميناً على مبادئ الجماعة، وتنفيذ مقرراتها، كما تعلن أنه هو وحده الذي يمثّل الجماعة في مختلف مراكزها وشؤونها.

«والجماعة تقرر أن خطتها ما زالت كما أعلنتها في بيانها الصادر في ٥ آذار ١٩٥٤ من أنها ستظل عاملة في الحقل الاجتماعي والميدان الإصلاحي، معنيّةً بشؤون العرب والمسلمين في مختلف أقطارهم، دون أن تتبنى سياسة حزبية أو تشترك في حمل أعباء الحكم ومسؤولياته، وبهذه الروح تمد يدها إلى جميع العاملين في مختلف الميادين، متعاونة معهم في ظل الإسلام، على كل ما فيه خير الأمة والبلاد. والله أكبر ولله الحمد»[٢].

---

(١) وقد شهد هذا المؤتمر أعضاء الهيئة التشريعية والمحكمة العليا للجماعة، والمكتب التنفيذي، ومكتب دمشق، ورؤساء مراكز الجماعة في المحافظات السورية.

(٢) انظر العددين (٨) و(٩) من جريدة الشهاب تاريخ ١٩ و٢٦ حزيران (يونيو) ١٩٥٥م.

نظرة تحليلية لواقعة الانشقاق:

ونختم هذه الفقرة بلمحة عن رؤية الكاتب السوري محمد جمال باروت وتحليله لواقعة الانشقاق التي رأى فيها نشوءاً أو تأسيساً لمدرسة (راديكالية) في مواجهة مدرسة السباعي (التقليدية) ـ كما دعاهما ـ في الوقت الذي حاول رصد وقائع الصراع بين هاتين المدرستين بدءاً من الانشقاق المذكور، وحتى أواخر عام ١٩٩٨. ونقف من هذه الرؤية أو العرض على حديث الأستاذ باروت عن مسألة الانشقاق، الذي قال أولاً إن الاستقطابات الحادة الراهنة ـ عام ١٩٩٨ ـ في التنظيم السوري للإخوان المسلمين تجذب اهتمام المتابعين لتطورات الحركة الإسلامية السورية والمعنيين بها. ثم قال:

«وتبدو هذه الاستقطابات استطراداً لصراعٍ قديم ما بين مدرستين في الإخوان المسلمين، هما المدرسة (التقليدية) التي تعمل بالوسائل السياسية، والمدرسة (الراديكالية) التي تعمل بالوسائل الاعتراضية. ويكاد يكون تاريخ الجماعة تاريخ الصراع ما بين هاتين المدرستين.

«وقد ظهرت أولى معالم التمايز ما بينهما في انشقاق ١٩٥٣ ـ ١٩٥٤ الذي قادته الكوادر الراديكالية في قيادات الصف الثاني ضد سياسة مؤسس الجماعة في سورية وأول مراقب عام لها الدكتور مصطفى السباعي، في تحويل الجماعة من النمط التضامني (ويشمل الجماعات السياسية التي ترفض النسق التعددي ـ التنافسي كأساس للحياة السياسية، أو تستخدم آليات للوثوب عليه وإلغائه) إلى النمط التمثيلي (الذي يعمل في إطار آليات النسق التعددي ومعاييره، ويشكل جزءاً منه). ومحاولته إكساب الجماعة صورة حزب ديمقراطي إسلامي على غرار الأحزاب الديمقراطية المسيحية في أوروبة.

«من هنا تمركزت موضوعات الانشقاق حول إدانة النهج الليبرالي لقيادة السباعي، **وتمريرها لدستور ١٩٥٠ العلماني** ودفاعها عنه بوصفه من أكثر الدساتير إسلامية. إلا أنه تمفصل مع الموضوع الأساسي للانشقاق الحاد في الجماعة المصرية حول الموقف من جمال عبد الناصر: ما بين الجناح الإخواني المصري المؤيد له، والذي كان يقف على رأسه عدد من أعضاء مكتب الإرشاد وقيادات الجهاز الخاص، وبين الجناح المعارض له، والذي كان يقف على رأسه المرشد العام الثاني حسن الهضيبي. ويفسّر ذلك أن هذا الانشقاق في وجه من

وجوه استطراد سوري لانشقاق الجماعة المصرية».

ويضيف الأستاذ باروت: «وعلى رغم أن قيادة السباعي طوّقت الانشقاق، وفصلت رؤوسه، **وأحبطت عملية تشكيله لجهاز خاص على غرار الجهاز المصري**؛ فإنه عبّر عن مدلول بعيد، وهو تشكيل أولى معالم التمايز ما بين المدرستين: التقليدية السياسية، والراديكالية الاعتراضية؛ إذ سيتعزّز نفوذ المدرسة الراديكالية في الجماعة طرداً مع تآكل النسق التعددي - التنافسي (الليبرالي) كأساس للحياة السياسية، ونسفه كلياً من مفاهيم التنمية السياسية»[1].

ثم يلاحظ الكاتب أن هذه المدرسة الراديكالية لم تقتصر على مركز حماه، وإن ارتبطت به تاريخياً. . بدءاً من أحداث حماه في نسيان/ إبريل ١٩٦٤ . . .

ونعتقد - تعقيباً على هذا التحليل - أن التمثيل بالأحزاب الديمقراطية المسيحية في أوروبة بعيد، ولا تشهد له (الطبيعة الشمولية) للإسلام التي انطلق منها السباعي وأكد عليها. والتي عرضنا للحديث عنها في موضع سابق.

كما أن القول إن قيادة السباعي (مرّرت دستور عام ١٩٥٠ العلماني) جانبه الصواب. وما قدمناه في الفصل السابق عن معركة الدستور، وعن المواد الإسلامية التي نص عليها في عدة حقول، وفي مقدمتها حقل التشريع وحقل التربية، تنفي هذا القول أو الاعتقاد.

أما موضوع الانشقاق فإننا لا نملك عنه معلومات واسعة ودقيقة، ولكن لا يبدو أن حجمه وأثره، فضلاً عما وقفنا عليه من أسبابه، تسمح لنا بالحديث عن بروز مدرستين متمايزتين تمام التمايز على النحو الذي (أسسه) الأستاذ باروت. وربما جاز مثل هذا الحديث بعد رحيل السباعي عام ١٩٦٤، غير أن هذا خارج عن حدود هذا الكتاب، بالإضافة إلى حاجته لدراسة ومتابعة للوقوف على أسبابه الثقافية والتنظيمية وغير ذلك من الأسباب.

وأخيراً، فإن غاية ما يمكننا قوله - أو إضافته - بعد الاطلاع على المزيد من الروايات والآراء: أن الانشقاق السوري يمكن عده استطراداً لانشقاق الجماعة

---

(١) مقالة بعنوان: صراع المدرستين التقليدية والراديكالية لدى الإخوان المسلمين في سورية، للكاتب السيد محمد جمال باروت. جريدة الحياة، العدد ١٢٩٧٢، تاريخ ١٨ جمادى الأولى ١٤١٩هـ الموافق ٩ إيلول (سبتمبر) ١٩٩٨، ص١٤.

في مصر، على النحو الذي ذهب إليه الأستاذ باروت، وربما من أكثر من وجه. وأن دور نجيب جويفل فيه كان محورياً، وبخاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار ما أشرنا إليه من صلة عبد الناصر بـ(النظام الخاص) حتى إنه كلّف عبد الرحمن السندي رئيس هذا النظام باغتيال المرشد العام حسن الهضيبي وأعضاء مكتب الإرشاد (كما ذكر بعضهم نقلاً عن كتاب: نقاط فوق الحروف لأحمد عادل كمال، أحد أعضاء النظام المذكور) وبغضّ النظر عن أن هذا لم يتم بعد الاستعداد له والشروع فيه، وذلك لأسباب عارضة ذكرها الأستاذ كمال.

بالإضافة إلى أن جويفل بعث ببعض القيادات والعناصر الإخوانية السورية التي ارتبطت به إلى مصر للتدرب على حمل السلاح وبعض الأعمال الأخرى.

ومن اللافت في هذا السياق أن مركز (حماه) الذي أشار إليه الكاتب السيد محمد جمال باروت لم يكن من بين المراكز التي استجابت لجويفل! وأن (ثقل) الانشقاق - إن صح التعبير - كان في مراكز دمشق وحمص وإدلب! أي أن الخروج على السباعي كان في بلده حمص، وفي دمشق الذي أعطته ذلك الزخم الانتخابي. الأمر الذي يسمح لنا أن نضيف إلى كل ما قيل في أسباب هذا الانشقاق: الأسباب النفسية لدى القيادات في هذه المراكز!!

لقد تحدثنا في فصل سابق عن الارتباط بمصر، وعن أسبابه الثقافية والفكرية![1] ولا نعتقد أن هذه الأسباب كانت بحاجة إلى ارتباط تنظيمي.. وإذا كان مثل هذا الارتباط - التنظيمي - فاعلاً أو إيجابياً في عهد الإمام حسن البنا؛ فإن آثاره ونتائجه كانت بعد رحيله سلبية في كل العهود التي مرّت على دعوة الإخوان في سورية، وإن شئت قلت: على الدعوة الإسلامية في بلاد الشام. وربما كان على الأستاذ السباعي والإخوان أن يعيدوا النظر في هذا الارتباط (التنظيمي) بعد رحيل البنّا من جهة، وفي ضوء ما ظهر أو جدّ من وقائع وملابسات تتصل بإخوان مصر، من جهة أخرى.

* * *

---

(١) راجع الصفحات ٢٠٣-٢١٨

السباعي في لبنان

أقام الأستاذ السباعي في لبنان بضعة عشر شهراً كانت حافلة بالنشاط والعطاء العلمي المتميز.

ويبدو أن هذه الفترة أتاحت له فرصة أفضل للبحث والدرس والتأمل، على الرغم من عدم تخلّيه عن الشأن السوري الدعوي والسياسي على النحو الذي عرّجنا عليه قبل قليل.

ويبدو أن مثل هذه الفرصة لم تتح له بعد ذلك إلا في سنوات مرضه الأخيرة، اللهم إلا خلال زيارته للجامعات والمكتبات الأوروبية عام ١٩٥٦م. علماً بأن الفروق بين هذه الفرص الثلاث لا تحتاج إلى بيان. يقول الأستاذ محمد المجذوب.

«ولقد حدثني عدد من المثقفين في لبنان من مختلف الطوائف أن للسباعي الفضل الأكبر في تعريفهم حقائق الإسلام التي ما كانوا ليعلموا عنها من قبل شيئاً»[١].

وليس في وسعنا في هذا السياق تأكيد مدى علاقة السباعي أو أثره في تأسيس الحركة الإسلامية في لبنان، ولكننا نستطيع التأكيد على دوره الفاعل والبنّاء في دعمها ورفدها فكرياً وثقافياً، وبخاصة إذا لاحظنا الجديد والقيّم والعميق الذي حملته محاضراته وأحاديثه في لبنان.

بين يديَّ الآن ثلاث من هذه المحاضرات، أُلقيت الأولى منها في (الخليّة الاجتماعية في بيروت مساء الخميس في الخامس من جمادى الثانية ١٣٧٢هـ و١٩ شباط - فبراير ١٩٥٣).

وقدمت لها (لجنة الطلاب الجامعيين في - جماعة - عباد الرحمن) بمقدمة قالت فيها:

---

(١) علماء ومفكرون عرفتهم للأستاذ محمد المجذوب، ص٣٦٦.

«إن موضوع المحاضرة **(الدين والدولة في الإسلام)** من الموضوعات التي تشغل بال الشباب في شرقنا العربي والإسلامي» وإن الأستاذ السباعي ألقى هذا الموضوع «على فريق من طلاب الجامعات والمعاهد العليا في بيروت. وقد **تحدّث عنه كعادته حديثاً شافياً وافياً**». وقالوا: لقد بدا أثر هذه المحاضرة واضحاً لدى كثير من معتنقي فكرة فصل الدين عن الدولة؛ إذ لم يسعهم بعد أن سمعوا هذا البيان المستفيض، والتعليل العلمي التاريخي لتلك الفكرة، إلا أن يعلنوا اقتناعهم ببطلانها وبطلان ما تستند إليه من حجج وبراهين»[(١)].

أما المحاضرة الثانية وعنوانها: **(المرونة والتطور في التشريع الإسلامي)** فقد قدم لها الأستاذ محمد عمر الداعوق رائد عباد الرحمن في لبنان، وختم التقديم بقوله؛ «وها هو الدكتور السباعي حفظه الله يبين لنا في هذا المقال القيم خلود الإسلام وعظمة تشريعه المرن، ليزيل كل لبس، ويوضح كل إبهام. جزاه الله عن الإسلام كل خير، وختم له بخاتمة السعادة إنه سميع مجيب»[(٢)].

أما المحاضرة الثالثة وعنوانها: **(نظام السلم والحرب في الإسلام)** فقد قالت (لجنة الطلاب الجامعيين في عباد الرحمن) في تقديمها إنها واحدة (من **سلسلة المحاضرات التي ألقاها الدكتور السباعي في أندية لبنان العلمية**) وقالت في هذه المحاضرة: «إنها أحدثت أثراً قوياً تردد صداه بين مختلف المواطنين؛ إذ كانت فتحاً جديداً في عالم الدعوة إلى الإسلام بأسلوب علمي أخّاذ..» وقد ألقيت هذه المحاضرة في ندوة دار الأيتام الإسلامية في بيروت بدعوة من اللجنة النسائية للهيئة العليا لدار الأيتام مساء الجمعة في (٣) شعبان ١٣٧٢هـ الموافق (١٧) نيسان (أبريل) ١٩٥٣م، وقد أكدت اللجنة المذكورة التي قامت بطبع هذه المحاضرة على «أثرها البالغ في جمهور المستمعين، حتى إن فريقاً كبيراً منهم وبعضهم أساتذة في الجامعات العليا، رغبوا بطبعها وتوزيعها لما تضمنته من حقائق يجهلها كثير من المثقفين، عدا عما تضمنته من تصحيح لكثير من الأخطاء الشائعة في البيئات العلمية والدينية البعيدة عن الإسلام»[(٣)].

---

(١) الرسالة الثانية من كتاب أو سلسلة: «هذا هو الإسلام» ـ المجموعة الأولى، ص٣، طبع المكتب الإسلامي.

(٢) الرسالة الثانية من السلسلة السابقة ـ المجموعة الثانية، ص٣.

(٣) الرسالة الثالثة من المجموعة الثانية. وانظر كذلك من نشاطه الثقافي في لبنان نص =

ونعود اليوم لقراءة هذه المحاضرات وأمثالها في فكر الأستاذ السباعي لنجد أن الشيخ رحمه الله تمتع بفكر ثاقب، واجتهاد سابق! بل إن كثيراً مما قرره وذهب إليه مايزال موضع جدل ـ ولا أقول شك أو رفض ـ من قبل جمهور عريض من الإسلاميين بعد مايقرب من نصف قرن! وحسبي أن أشير من محاضرته الأخيرة هذه ـ على سبيل المثال ـ إلى قوله: إن «ما فعله الرسول محمد ﷺ ومن بعده من الاسترقاق إنما هي ضرورة سياسية اقتضتها الأوضاع الاجتماعية العالمية يومئذ، لا تنفيذاً لتشريع ثابت في الإسلام لا يجوز التخلي عنه..» وقوله: «وحسبك أن الإسلام اعتبر الرق أمراً طارئاً كعقوبة للعدوان على حريات الشعوب»! لأنه فُرض على الأسرى والمغلوبين[1].. وقوله في **الجزية**: «إنها إنما تفرض على المحاربين من أعداء الأمة، أما المواطنون من غير المسلمين فلا تفرض عليهم! وقد أوضح بجلاء أنه إنما يتكلم عن نظام الجزية في الإسلام لا عن تاريخ الجزية في الدولة الإسلامية[2].

من آرائه في الجزية:

وربما كان حديثه عن الجزية في معظم جوانبه جديداً في ميدان الفقه أو القانون الدولي. وقد رتب الكلام عن الجزية في ست نقاط، ودفع بعد ذلك بعض الشبهات التي ربما أثيرت حول هذا النظام. وأرى من الضروري أن نعرض هنا لرأيه في النقطة المشار إليها قبل قليل. قال رحمه الله: «وكانت الجزية قبل

= الكلمة التي ألقاها في احتفال الهيئة الوطنية ببيروت مساء السبت في ٥ رجب ١٣٧٢هـ الموافق ٢١/٣/١٩٥٣م بمناسبة الذكرى الثامنة لتأسيس الجامعة العربية وكانت بعنوان: «لماذا أخفقت الجامعة العربية؟ وكيف تصبح أداة نافعة للعرب؟». وقد حضر الحفلة رئيس المجلس النيابي ورئيس مجلس الوزراء والنواب والعلماء وفريق كبير من وجوه العاصمة وشبابها وسيداتها؛ راجع كتاب الأستاذ السباعي: هكذا علمتني الحياة ـ القسم السياسي، ص٧٨.

(١) الرسالة المشار إليها من المجموعة الثانية، ص٣٢. وأضاف أن الإسلام «فتح أبواباً كثيرة لتحرير الأرقاء لم تسبقه إليها شريعة، وألزم الدولة أن تخصص جزءاً من ميزانية العدالة الاجتماعية لتحرير الأرقاء.. على أن الشيء العظيم الذي فعله الإسلام مع الأرقاء تمشياً مع روحه الإنسانية السلمية هو أنه ألغى احتقارهم وامتهانهم ورد لهم إنسانيتهم، وأوجب معاملتهم كمعاملة الأحرار في توفير الكرامة الإنسانية لهم» ص٣٢ـ٣٣.

(٢) المصدر السابق، ص٣٩ـ٤١.

الإسلام تفرض على من لم يكن من الفاتحين عرقاً أو بلداً أو ديناً، سواء حارب أم لم يحارب. أما في الإسلام فلا تفرض إلا على المحاربين من أعداء الأمة، أما المواطنون من غير المسلمين ممن لم يحاربوا الدولة فلا تفرض عليهم الجزية، كما فعل عمر بن الخطاب مع نصارى تغلب».

قال: «ولو رجعنا إلى آية الجزية في القرآن لوجدناها تقول: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ [التوبة: ٢٩]، فهي كما ترون تجعل الجزية غاية لقتال أهل الكتاب حين نتغلب عليهم، وليس كل أهل الكتاب يجب علينا أن نقاتلهم، بل إنما نقاتل من يقاتلنا ويشهر علينا السلاح ويعرّض كيان الدولة للخطر، وهذا هو صريح الآية الكريمة: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٠]، فالأمر بالقتال في آية الجزية ليس إلا لمن قاتلنا، فقتال من لم يقاتلنا عدوان لا يحبه الله تبارك وتعالى. ويؤيد هذا: قوله تعالى: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ﴾ [الممتحنة: ٨ ـ ٩].

فلا شك في أن الذين يعيشون في الدولة مع المسلمين من أهل الكتاب ويشاركونهم في الإخلاص والولاء لها، ليسوا ممن يجوز قتالهم، فلا تفرض عليهم الجزية التي هي ثمرة القتال بعد النصر، وهذا ما يفهم من آيات الجزية والقتال من غير تأوّل ولا تعسّف..».

هذا، وقد فسّر (اليد) في آية الجزية بالقدرة. قال: «وفي نصوص القرآن واللغة ما يؤكد هذا المعنى» وهذا هو ما ورد في عهد خالد بن الوليد لصاحب قس الناطف: «وإني عاهدتكم على الجزية والمنعة.. فإن منعناكم فلنا الجزية، وإلا فلا حتى نمنعكم» قال السباعي: «وهذا هو ما قررناه من أن الجزية لا تفرض إلا على القادرين على دفعها، لذلك أعفي منها الصغار والعاجزون والرهبان والفقراء والنساء».

أما الصَّغار فقد فسَّره بالخضوع لا بالذلة والمهانة، وهو أحد معانيه في اللغة، ومنه أطلق (الصغير) على الطفل لأنه يخضع لأبويه ولمن هو أكبر منه.

قال: «والمراد بالخضوع حينئذ: الخضوع لسلطان الدولة، بحيث يكون في دفع الجزية معنى الالتزام من قبل أهل الذمة بالولاء للدولة، كما تلتزم الدولة لقاء ذلك بحمايتهم ورعايتهم واحترام عقائدهم. وليس في الخضوع لقوانين الدولة وسلطانها غضاضة على المواطنين مهما اختلفت عقائدهم».

ثم قال: «هذا هو التفسير الصحيح الذي ينسجم مع نصوص القرآن ومبادئ الشريعة، وواقع التاريخ في عصور الإسلام الذهبية الأولى»[1].

ولا يتسع المجال للإشارة إلى سائر آرائه في الجزية، ولكن من الملاحظ أن الزعم القائل إنها مظهر استلاب لأموال غير المسلمين؛ قد عرض للرد عليه في أكثر من مناسبة. وخلاصة رأيه أو رده على هذا الزعم ـ بعد أن فصّل القول في مقدار الجزيـة، وعلى من تفرض ـ أنها كانـت (مظهر رحمة وحماية وعفّة عن أموال غير المسلمين، مع تمتعهم بكل ما يتمتع به المسلمون من حماية لأموالهم وأرواحهم وممتلكاتهم وعقائدهم. وتمتعٍ بحق التكافل الاجتماعي مثلهم، عند العجز والشيخوخة والمرض والطوارئ).

وقد دلَّل على تمتعهم بهذا الحق الأخير ـ التكافل الاجتماعي ـ بهذا النص الذي جاء في إحدى معاهدات خالد بن الوليد مع أهل الذمة في فتوحات العراق: (وجعلت لهم أيما شيخ عجز عن العمل، وأصبح أهل دينه يتصدقون عليـه، جعلت له من بيت المال ـ أي من خزينة الدولة الإسلامية ـ ما يكفيه وعياله حتى يستغنوا).

وكان قد استشهد، في سياقات شتى، بما فعله أمير المؤمنين عمر رضي الله عنـه مع الشيخ الذمّي الذي رآه يسـأل الناس! قال السـباعي: «لقد كان الحاكم المسلم في صدر الإسلام يتسع صدره لآلام الإنسانية جميعها... فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يمر يوماً في أزقة المدينة فيرى شيخاً كبيراً يسأل الناس المعونة على ما يقوم بشؤون حياته، فسأله عمر: ما أنت يا شيخ؟ فأجاب: رجل من أهل الذمة عجزت عن العمل فأنا أطلب من الناس ما أستعين به على قوت أهلي

---

(١) المصدر السابق، ص٣٩ ـ ٤٣. وإذا لاحظنا الربط بين الآيات ـ الذي ذكره الأستاذ السباعي ـ وأن الأمر بالقتال في آية الجزية ليس إلا لمن قاتلنا؛ فإن معنى الصغار يمكن التعبير عنه بأنه: الخضوع للحكم الإسلامي، أو النزول على حكم المسلمين بلا شرط ولا قيد.

وعيـالي، فقال عمر: ما أنصفناك يا شيخ! أخذنا منك الجزية شاباً، ثم ضيّعناك شيخاً. وأخذ بيده إلى بيته فأمر أن يقدم له من الطعام ما يقوته، ثم أرسل إلى خازن بيت المال يقول له: انظر إلى هذا وأضرابه فافرض لهم من بيت المال ما يكفيهم وعيالهم حتى يستغنوا. . .».

هذا، وقد أبدى استغرابه الشديد للزعم القائل إن الجزية كانت سبباً في دخول كثير من أهل الذمة في الإسلام تهرباً منها، أو من (هذا الاستيلاء على أموالهم)! قال السباعي: «وإنه لأمر مضحك هذا القول الذي يقولونه! فلو كان هؤلاء مطمئنين إلى دينهم، مقتنعة به عقولهم، راضية به نفوسهم، لما تركوه خشية من دفع اثني عشر درهماً في السنة، أو أربعة وعشرين، أو ثمانية وأربعين» ثم تساءل: (وأي إنسان يترك دينه لو كان مطمئناً إليه خوفاً من دفع هذا المبلغ الزهيد؟) وقال أخيراً في مقارنة بعيدة الدلالة: (ولو خُيِّر أي مسلم اليوم واقع تحت حكم الاستعماريين أن يخرج عن أمواله كلها، أو أن يخرج عن دينه! لما وجدنا مسلماً واحداً في الأرض يفضّل الاحتفاظ بملايين أمواله على الخروج عن دينه)[1].

الدين والدولة بين المسيحية والإسلام:

وأشير من محاضرته الأولى عن الدين والدولة ـ وهي بحث طويل ـ إلى بعض مقارناته بين الإسلام والمسيحية، والتاريخ الأوروبي والتاريخ العربي الإسلامي[2]. قال: «إن المناداة بفصل الدين عن الدولة في تاريخ المسيحية عود بها إلى وضعها الأول الصحيح، وإن انحرافها عن هذا المبدأ جرّ عليها وعلى شعوبها البلاء والشقاء، وأما في الإسلام فإن المناداة بفصل الدين عن الدولة انحراف به عن وضعه الصحيح، وأن وقوع هذا الفصل في بعض مراحل التاريخ ـ الطور الثالث الذي فصّل فيه القول ـ جرّ على الإسلام والمسلمين البلاء والشقاء.

٣ ـ إن فصل الدين عن الدولة في تاريخ أوروبة كان في عصر نهضتها الكبرى، ولقد سارت من بعده حرة طليقة تسيطر على شؤون العالم وتتحكم في مصائره.

---

(١) مجلة حضارة الإسلام: السنة السابعة، العدد السابع، كانون الأول (ديسمبر) ١٩٦٦، ص١٢ ـ ١٣.

(٢) انظر هذه المقارنات في الرسالة المشار إليها من المجموعة الأولى، ص٧٠ ـ ٧٢.

أما في الإسـلام فإن أزهى عصور حضارتـه، وأحفلها بالقـوة والمجد، وأجداها على الإنسانية، هي العصور التي قامت فيها دولته على مبادئ الشريعة. وما حدث الجفاء بين الدين والدولة إلا في عصور الضعف والجمود والفوضى.

٤ ـ إن ربـط الدولـة بالدين في أوروبـة أدى إلى اضطهاد الفكـر وخنـق الحريات، وقيام الحروب الدينية المفجعة، وخضوع الناس لكابوس الخرافة والجهالة والبؤس.

أما ربط الدولة بالدين في عصور الإسلام الزاهرة، فقد أدت إلى انطلاق الفكر، وحماية الحريات الدينية، وإشاعة الرغد والسلام بين أبناء الديانـات، وتحرير الناس من أوهام الخرافات والشعوذة، وتحقيق الكرامة الإنسانية والعدالة الاجتماعية بين أبناء الشعوب.

٥ ـ إن علاقة الدين بالدولة في تاريخ المسيحية في القرون الوسطى، جعل من رجال الدين طبقة تمثل السيطرة والاستعلاء والاضطهاد والتعصب. ولكن علاقة الدين بالدولة في عصور الإسلام الزاهرة لم تخلق مثل هذه الطبقة، إذ الإسلام نفسه لا يعترف بوجودها، فكيف يعترف بحقها في السيطرة والاستعلاء؟»

هذا، وقد امتازت هذه المحاضرات ـ وسواها ـ بجودة الترتيب وقوة التعليل.. فوق ما عرف عن الشيخ من عذوبة اللغة أو السرد، كما سنتحدث عن أسلوبه وبيانه فيما بعد.

* * *

استراحة المحارب: هل كانت من السياسة أم من القيادة؟

بعد رحيل العقيد ـ الرئيس ـ أديب الشيشكلي في ٢٥ شباط (فبراير) ١٩٥٤م عاد الرئيس هاشم الأتاسي إلى سدة الرئاسة في (١) آذار (مارس) وشكّل السيد صبري العسلي حكومة ائتلافية لم يشترك فيها البعث والحوراني. وشارك فيها الدكتور الدواليبي بحقيبة الدفاع[١]. وبعد أسبوعين دعي المجلس النيابي للانعقاد، وهو المجلس المنتخب عام ١٩٤٩م والذي كان جمعية تأسيسية، وتمّ تجاوز المجلس الذي انتخب في عهد الشيشكلي.

وعلى الرغم من أن هذه الوزارة كان منوطاً بها إجراء انتخابات لمجلسٍ جديد؛ فإنها سقطت بعد مئة يوم، وتشكلت حكومة جديدة برئاسة السيد سعيد الغزي ـ المحامي الدمشقي ذي النزعة المستقلة ـ بتاريخ (٩) حزيران (يونيو) ١٩٥٤م[٢]. وقامت هذه الحكومة الحيادية بإجراء انتخابات عامة في (٢٤ ـ ٢٥) أيلول (سبتمبر) و(٤ ـ ٥) تشرين الأول (أكتوبر) بعد أن حصلت على موافقة البرلمان على قانونٍ انتخابي جديد، يلغي قانون الشيشكلي، ويعيد قانون ١٩٤٩م مع بعض التعديلات[٣].

ومعنى ذلك أن الأستاذ السباعي عاد لمزاولة نشاطه السياسي خلال الفترة الممتدة بين رحيل الشيشكلي وحتى انعقاد مجلس النواب الجديد في ١٤/ ١٠/ ١٩٥٤م أو قبل هذا الانعقاد بقليل. والملاحظ هنا أمران:

---

(١) راجع باتريك سيل، ص٢٢٠ ـ ٢٢١، وكان ذلك بعد أن قبل الرئيس الأتاسي استقالة الدكتور الدواليبي رئيس الوزراء الأسبق، الذي قام الشيشكلي بالانقلاب ضده في ٢٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥١م.

(٢) المصدر السابق، ص٢٢٧.

(٣) نص القانون على أن يكون عدد النواب (١٤٢) وأن يمثل كل نائب منهم ثلاثين ألفاً من المواطنين. وعلى المرشح أن ينال ٤٠٪ من أصوات الاقتراع حتى يفوز في الجولة الأولى، ص٢٢٩.

تأسيس كلية الشريعة:

الأول: أن السباعي في هذه الفترة كثّف جهده حتى ظفر بإقرار البرلمان بتاريخ ٢٩/ ٥/ ١٩٥٤م (٢٧ رمضان ١٣٧٣هـ) بتأسيس كليةٍ للشريعة في الجامعة السورية (قانون كلية الشريعة) أي في ظل رئاسة السيد هاشم الأتاسي، وقبل أن تسقط حكومة السيد صبري العسلي بنحو عشرة أيام. وحين تأخر المرسوم الرئاسي بالقانون المذكور إلى ما بعد انعقاد المجلس الجديد! قام الأستاذ السباعي بزيارة القصر الجمهوري بتاريخ ٢٤/ ١٠/ ١٩٥٤م طالباً من الرئيس الأتاسي إصدار المرسوم المذكور حتى تتمكن الكلية من فتح أبوابها لاستقبال الطلبة في العام الجامعي ١٩٥٤ ـ ١٩٥٥م. وقد غضب الأستاذ السباعي غضبة مضرية كما يقال، واحتدّ على الرئيس الأتاسي، لأنه رأى أن هذا التأخير غير مبرر، بل ربما راودته حوله الشكوك، ووقع في نفسه أنه تأخير مريب. والطريف أن الصحافة التي دأبت على تجريح السباعي اتهمته بأنه زار القصر الجمهوري ليستعجل قرار تعيينه عميداً للكلية!! وقالت بحقه أوصافاً تليق بأصحابها[1]. وصدر المرسوم، وبدأت الدراسة بالكلية في ١٨/ ١٢/ ١٩٥٤م.

وحين تم الاحتفال الرسمي بافتتاح الكلية على مدرج الجامعة بتاريخ ٢٠/ ٤/ ١٩٥٥م. كان الرئيس الأتاسي ما يزال في سدّة الرئاسة[2]. وكان هذا

---

(١) راجع كتاب: النكبات والمغامرات للصحفي بشير فنصة، ص٣٦٠ يقول الدكتور حسن هويدي: «وأذكر مرة، حينما أسس كلية الشريعة، وقد أوجس من أكبر المسؤولين خيفة، وأحس أن في الأمر ريبة، بعد الوعد القاطع والعهد المبرم؛ فثار ثورة الأسد الهصور، وغضب لله غضبة من لا يخشى لومة لائم. وكأني أرى حمرة عينيه، واحتقان وجهه، وحركة شدقيه، وتقلّص جبهته، وتوتر غرّته. واندفع في تلك الثورة العارمة إلى حيث يبغي مجاهداً مصرّاً، فلم يرجع إلا بالنصر والظفر. وأسست كلية الشريعة، وأعظم به من نصر وظفر، وخير باق ما بقي الدهر إن شاء الله». كتاب مصطفى السباعي لعبد العزيز الحاج مصطفى، ص١٢.

(٢) انتخب السيد شكري القوتلي رئيساً للجمهورية خلفاً للرئيس هاشم الأتاسي في ١٨/ ٨/ ١٩٥٥م وتسلم منصبه في ٥/ ٩/ ١٩٥٥م. وكان الانتخاب ـ في ظل النظام البرلماني ـ يتم عن طريق البرلمان. وقد نافسه في هذه الانتخابات السيد خالد العظم الذي كانت تدعمه (الكتلة الاشتراكية الديمقراطية) ـ مؤيدوه مع أكرم الحوراني ونواب حزب البعث ـ وقد فاز القوتلي بواحد وتسعين صوتاً مقابل ٤١ صوتاً للعظم.

الاحتفال برعايته وحضوره. وقد حضر معه رئيس المجلس النيابي ورئيس الحكومة والوزراء، كما حضر الحفل: السفراء والعلماء ولفيف من أساتذة الجامعة. وكان السباعي قد قام بمهام عمله التأسيسي كعميد للكلية خلال الفترة السابقة، وألقى كلمة في الاحتفال قال فيها: «كان قيام كلية الشريعة في الجامعة السورية حاجة دستورية، وضرورة تاريخية وقومية وعلمية، كما هي ضرورة اجتماعية أيضاً؛ فالذين يعانون دعوات الإصلاح ويعملون مخلصين في ميادين السياسة، يشعرون بالانحدار الكبير الذي بلغته أخلاقنا، وبالانحراف المؤسف الذي طبع به سلوكنا الاجتماعي العام، ومادام للشريعة سلطانها القاهر على الجماهير؛ فإن من الخير لوطننا وأمتنا أن ينبعث هذا التشريع من جديد ليأخذ مكانه الموجه للسلوك الأخلاقي العام المنشئ لنظام اجتماعي يخضع لتطور الحياة، كما يُخضع الحياة لمقاييس الحق والخير والكمال».

وقال فيها أيضاً: «إنه ليثقل من خطورة المهمة: تزايد الشعور بالحاجة إلى علماء يزيلون عن الأبصار حجب الجهالة، ويطهرون المجتمع من أوزار التعصب الطائفي الذميم، ويعلّمون الناس أن شرائع الله حبٌّ لا بغض، وإخاءٌ لا عداء، وتعاونٌ لا تقاطع، وحياةٌ لا موت، وقوةٌ لا ضعف، وإخلاصٌ لا استغلال، وإصلاحٌ لا نفاق ولا إفساد...».

وقد ختمها بقوله: «لقد قال التاريخ قبل قليل: في (٢٧) رمضان ١٣٧٣هـ ولدت كلية الشريعة، وسيقول التاريخ بعد قليل: وفي ذلك اليوم أيضاً عرفت الأمة سبيلها الصحيح إلى تحقيق حلمها الجميل، حلم العيش في وطن تحكمه شريعته، ويسود فيه قانونه، والسير في طريق أوله الخلود.. وآخره الجنة»[1].

بين العلم والسياسة:

الأمر الثاني: أن الإخوان لم يتقدموا للترشيح لانتخابات المجلس النيابي الجديد، واكتفوا بتأييد بعض الشخصيات التي عدّوها (من المسلمين الجيّدين أو من هم معادون للغرب) بحسب عبارة (باتريك سيل) الذي وصف الإخوان في هذا السياق بأن «تأثير حركتهم كان واسعاً، لكن انتشارها السياسي لم يكن فعّالاً»[2]. حتى إن من رغب من الإخوان في المشاركة في ترشيح نفسه تقدم كمرشح

---

(١) جريدة الشهاب، العدد ٦ من السنة الأولى تاريخ ٤ شوال ١٣٧٤هـ الموافق ٥/ ٦/ ١٩٥٥م

(٢) الصراع على سورية، ص٢٣٨.

مستقل، بل اضطر إلى تقديم استقالته من الجماعة، كما فعل الأستاذ محمد المبارك، الذي نجح هذه المرة أيضاً نائباً عن مدينة دمشق، بعد نجاحه السابق في الجمعية التأسيسية.

ويبدو أن الجماعة اتخذت قرارها بعدم المشاركة هذه في ضوء الهزّة التي تعرضت لها نتيجة حركة الانشقاق التي تحدثنا عنها، ورغبة من القيادة في التفرغ للإصلاح الداخلي، ومحاولة إعادة تنظيم الصفوف[1].

وربما جاء العزوف الشخصي للأستاذ السباعي في ضوء هذه الاعتبارات، ورغبة منه ـ فيما نرجح ـ في التفرغ للعمل العلمي بعدما شعر بمدى أهمية الريادة

---

(١) بقيت المعضلة السياسية تواجه الإخوان لمدة طويلة فيما يبدو؛ فدعوتهم ذات بعد سياسي واضح، كما رأينا في سيرة السباعي، ومن منطلق أن الإسلام عقيدة وشريعة دولة ودين، ولكن إذا لاحظنا الافتراق الذي حصل بين هذين على أرض الواقع، والذي أخذ شكلاً من أشكال العداء للدين بعد انحلال الرابطة العثمانية ـ وعلى نحو غير معهود في التاريخ الإسلامي ـ أدركنا مدى صعوبة المهمة التي نهض لتحقيقها السباعي والإخوان، وبخاصة إذا أخذنا برأي بعض علماء الاجتماع السياسي القائل: إن الدولة كانت في التاريخ الإسلامي هي الوسيط الضروري لتحويل الجماعة الإسلامية ـ بمفهومها العام ـ إلى جماعة سياسية. ولهذا وجد بعض الإخوان ـ والإسلاميين على وجه العموم ـ أنفسهم يمارسون العمل السياسي ـ في ظل المناخ العلماني ـ من منطلق التدرج في تحقيق أبعاد الإسلام، أو على قاعدة فقه الأولويّات، وربما عرّضهم هذا للنقد من جهاتٍ شتى ولأسباب كثيرة! في حين آثر فريق آخر العمل في حدود التربية الدينية والخلقية. وربما كانت الدعوة الإسلامية تتردد بين هذين الخيارين، وترى نفسها تجنح نحو خيار الدعوة الدينية والتربية العقائدية والخلقية أمام كل إخفاق وفشل سياسي.
لقد كان استمرار العمل السياسي من قبل الإخوان في سورية كفيلاً ـ فيما نقدر ـ بإنضاج فكرهم السياسي وممارساتهم، أو كان في وسعه على أقل تقدير أن يرشّد العمل السياسي العام ويؤطّره بالثوابت الدينية والخلقية للأمة والجماعة في نهاية المطاف. مع التأكيد في هذا السياق على الأثر السلبي الذي تركه غياب السباعي، كداعية وقائد يتصف بالجرأة والوضوح والأريحية والشجاعة ـ وكزعيم سياسي يحظى باحترام واسع ـ على حركة الإخوان بوجه عام، وعلى الممارسة السياسية التي استؤنفت بعد انفصام عرى الوحدة بين مصر وسورية، بوجه خاص. راجع كتاب: نظام الطائفية: من الدولة إلى القبيلة. للأستاذ الدكتور برهان غليون، (ص١٣٦ ـ ١٤٠) الطبعة الأولى ١٩٩٠ ـ المركز الثقافي العربي بيروت.

الفكرية والعلمية عندما أعدّ سلسلة بحوثه ومحاضراته التي ألقاها في لبنان. وقد رجح عنده هذا التوجه: عملُه الجديد الذي أنيط به في كلية الشريعة التي كان يعلّق عليها آمالاً كبيرة، والتي كانت في مرحلة البناء والتأسيس. مع الإشارة إلى أن السباعي ضحّى في سبيل هذا العمل أو هذه الكلية بمركزه ووظيفته في كلية الحقوق، وكان قد عُيّن فيها قبل وقت قصير أستاذاً أصيلاً لمادة (الأحوال الشخصية).

وهي التضحية التي قصرت عنها همّة كلٍّ من الأستاذ مصطفى الزرقا والدكتور معروف الدواليبي ـ كما سنفصل في ذلك القول عند الحديث عن أخلاقه وسجاياه ـ فقبل بالانتقال إلى كلية ناشئة غير معروفة المستقبل أو المصير، وسط الأنواء والأعاصير[1]!.

وعلى أية حال، فقد يكون العزوف الشخصي للأستاذ السباعي عن خوض الانتخابات عام ١٩٥٤م، مبرراً أو مفهوماً بوجه من الوجوه الخاصة أو العامة[2]، وبخاصة إذا لاحظنا أن مسيرة السباعي القيادية بدأ يلفّها شيء من الاضطراب أو الغموض. ونتحدث هنا عن هذه المسألة، قبل أن نتابع الحديث عن امتناع الإخوان ـ كذلك ـ عن خوض هذه الانتخابات.

طلب إجازة أم محاولة إقصاء:

تقدم الأستاذ السباعي بعد الاحتفال الرسمي بافتتاح كلية الشريعة بنحو أربعة أشهر بطلب إجازة من عمله القيادي في صفوف الإخوان لمدة سنة (وذلك نظراً لحالته الصحية، وحاجته للاستراحة من العمل)، وقد جاء في (بيان من

---

(١) راجع الكلمة التي كتبها الأستاذ مصطفى الزرقا عن السباعي بعنوان: «الأستاذ الدكتور مصطفى السباعي أول عميد لكلية الشريعة ورئيس للجنة موسوعة الفقة الإسلامي كان رمز التضحية والإيثار»، مجلة حضارة الإسلام (العدد الخاص: ٤، ٥، ٦) عام ١٣٨٤هـ.

(٢) ذكر لنا الأخ الأستاذ هاني طايع أن الأستاذ السباعي كان يرى ألا تترك الجماعة ميدان العمل السياسي، وأنه أشار على القيادات والمسؤولين فيها ـ بين يدي رحيل العقيد الشيشكلي ـ أن يستعدوا للنزول إلى هذا الميدان، ولكن هؤلاء لم يروا ذلك.
ولا نعتقد أن هذا يتعارض مع العزوف الشخصي للسباعي عن البرلمان والعمل السياسي، ومع تفسيرنا الذي قدمناه لهذا العزوف.

المكتب التنفيذي للإخوان المسلمين) مايلي: «اجتمعت الهيئة التشريعية.. ونظرت في الطلب المقدم من فضيلة المراقب العام الدكتور مصطفى السباعي، الذي يرغب في إعطائه إجازة من المراقبة العامة في الجماعة لمدة سنة، وذلك نظراً لحالته الصحية وحاجته للاستراحة من العمل، وبعد أن قررت(!) الهيئة هذه العوامل المرضية، وبناء على الرغبة الملحّة من قبل فضيلته، فقد قررت إجازته من المراقبة العامة مؤقتاً، ولمدة سنة واحدة فقط، على أن يبقى المراقب العام للجماعة وقائد الدعوة فيها»!!.

ويتابع البيان قائلاً: «وحيث وقع الاختيار على أن يكون نائبه عن مدينة حلب الأستاذ عبد الفتاح أبو غدة، وتسهيلاً لسير أعمال الجماعة فقد تقرر نقل المكتب التنفيذي إلى حلب، على أن يبقى المركز العام للإخوان في مدينة دمشق».

ثم ختم بالعبارات التالية: «والجماعة إذ تقدر في فضيلة المراقب العام الجهاد المتواصل، والعمل الدائب في سبيل الدعوة الإسلامية، ترجو له الشفاء العاجل للعودة إلى نشاطه في حقل الدعوة والإسلام» ـ المكتب التنفيذي ـ[1].

نحن لا نحيل أن يطلب الأستاذ السباعي استراحة المحارب لمدة عام بعد هذا العمل الدائب بوجه عام، وبعد حملة التشويه، وحركة الانشقاق، وما صاحبهما من جهد، وتركا في نفسه من أثر، بوجه خاص، وإن كنا نستبعد ذلك من خلال ما وقفنا عليه وعرفناه من طبيعته التي دلّ عليها عملُه وتاريخه حتى الآن.

ومما يؤكد ذلك: الوصفُ الذي أطلق عليه أو التسمية التي جاءت على لسان جريدة (المختار) حين قامت بزيارة للجامعة السورية في اليوم الذي أعلنت فيه البلاد إضرابها احتجاجاً على تقسيم فلسطين وسلخ لواء إسكندرون، فقد زار مندوبها الأستاذ السباعي ـ عميد كلية الشريعة ـ وطرح عليه بعض الأسئلة، ووصفه بأنه «**الرئيس الروحي لجماعة الإخوان المسلمين في سورية**...»[2]

---

(١) جريدة الشهاب: العدد ١٨ في ٢٣ محرم ١٣٧٥هـ و١١ أيلول (سبتمبر) ١٩٥٥م. ولا يحمل البيان المذكور أي تاريخ، وربما كان تاريخ نشره في الجريدة يكفي في هذا المقام. علماً بأن بدء هذه السنة يجب أن يكون من تاريخ إصدار هذا البيان أو إقراره بطبيعة الحال. ونشير هنا إلى أن حركة الإخوان كانت قد شهدت حتى هذا الوقت ستة مؤتمرات والسباعي على رأس الحركة بوصفه المراقب العام.

(٢) الصفحة ٢ من جريدة الشهاب: العدد (٢٨) تاريخ ٢٠/ ١١/ ١٩٥٥.

وقد نقلت جريدة (الشهاب) هذه المقابلة، أو هذا الوصف البارز بدون أي تعليق. بل إن الأستاذ السباعي في مقابلة صحفية أجرتها(الشهاب) نفسها. ودارت حول (مأساة الإخوان) في مصر، صدّر إجاباته بقوله: «إن أعمالي في كلية الشريعة **تحول بيني وبين مزاولة نشاطي كمراقب عام للإخوان، وأنا من الناحية العملية والرسمية في إجازة غير محدودة المدة من أعمالي في الإخوان، ولذلك فلا يؤخذ رأيي في شيء، ولست أشير بشيء!!»**.

وقد جاء كلا هذين الوصفين في وقت واحد أو متقارب بين أواخر تشرين الثاني وأوائل كانون الأول، أي بعد حوالي ثلاثة شهور من نشر بيان المكتب التنفيذي؛ الأمر الذي يجعل ما ورد فيه محل شك أو موضع تساؤل على أقل تقدير. علماً بأن جريدة الشهاب نشرت في صدر صفحتها الأولى بتاريخ ٢/ ١٠/ ١٩٥٥م (يوم الأحد) أن فضيلة الدكتور مصطفى السباعي المراقب العام للإخوان المسلمين قابل ظهر الخميس الفائت دولة رئيس الوزراء ومعالي وزير الداخلية وبحث معهما زيارة أحمد حسن الباقوري لدمشق، واحتمال إلقائه بعض الخطب العامة.. مما يترك أثراً غير مستحب في الرأي العام الإسلامي، وخاصة في أوساط الإخوان، فأكدا مراعاتهما للوضع العام في البلاد، وحرصهما على أن تكون زيارة الباقوري عادية لا ينتج عنها أي مساس بشعور الإخوان والهيئات الإسلامية»[1].

ولكن هذا الذي تم بعد بضعة عشر يوماً من تاريخ نشر بيان المكتب التنفيذي لم يستمر لبضعة شهور![2] حيث قال الأستاذ السباعي ما قال، ويبدو أن هذا الذي تم كان يعدّ له منذ بعض الوقت. وربما أمكن عدّه من رواسب أو ذيول

---

(١) العدد ٢١ تاريخ ١٤ صفر ١٣٧٥هـ ـ ٢ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٥٥م. وقد كتب الأستاذ محمد المبارك ـ نائب دمشق ـ في هذا العدد افتتاحية تحليلية دقيقة عن الشيخ الباقوري بعنوان: «مسكين هذا الشيخ! لا تلوموه!».

(٢) ربما كان هذا النشاط السياسي الذي قام به السباعي ـ على هذا المستوى ـ موضع نقد، أو لم يكن على الأقل موضع ترحيب من بعض عناصر المكتب التنفيذي الذي اتخذ قراره بالتجميد، أو (منحه) الإجازة المطلوبة! الأمر الذي دفع بالأستاذ السباعي إلى بيان حقيقة الموقف ـ وقد استبدّ به الغضب، أو أدركه السأم والضجر.. ـ فصرَّح بأنه من **الناحيتين العملية والرسمية في إجازة غير محدودة من أعماله في الإخوان**.

حركة الانشقاق، حيث بقي ممن حول السباعي من يطمح إلى محاصرته، أو يطمع في تحجيم دوره وأثره. فقد سأل مندوب جريدة (الشهاب) في عددها الصادر بتاريخ ٣/ ٧/ ١٩٥٥م الأستاذ محمد خير الجلاّد نائب المراقب العام للإخوان المسلمين في سورية عما نشرته بعض الصحف عن إجازة المراقب العام الدكتور مصطفى السباعي من الأعمال الإدارية(!) فأجاب بأن المراقب العام كان ولا يزال المسؤول الأول عن الجماعة والناطق باسمها، ولا يزال يباشر جميع صلاحياته فيها كمراقب عام»[1]. وربما كان إشاعة مثل هذا الخبر أو تسريبه تم عن طريق هؤلاء كتوطئة أو تمهيد لما وافق عليه المكتب التنفيذي بعد ذلك بنحو شهرين!.

وليس تحت أيدينا من الوثائق والمعلومات غير هذا، وقد لا نستطيع من خلالها أن نتبيّن حقيقة ما كان يجري على وجه الدقة أو اليقين. ولكن الذي يمكن تقديره ـ وربما فهمه من صيغة بيان المكتب التي لا ترقى إلى المستوى المطلوب ـ أن الفئة التي كانت تحاول تحجيم الرجل، أو إقصاءه، كانت تلقى معارضة شديدة، وأن النص على أن الإجازة من المراقبة مؤقتة ولمدة سنة واحدة، والتأكيد في الوقت نفسه على أن «يبقى المراقب العام للجماعة!! وقائد الدعوة فيها» يشير إلى ضرب من الخلاف وتباين وجهات النظر، في الوقت الذي أصرّت معظم عناصر القيادة فيما يبدو على أنه ما يزال المراقب العام للجماعة، وليس فقط قائد الدعوة فيها. وهو الأمر الذي كانت تسلّم به جماهير الجماعة بطبيعة الحال.

ويبدو أن الأمر بقي يكتنفه الغموض أو عدم قدرة المعارضة على الحسم، في الوقت الذي باتت نفس الأستاذ السباعي تعاف الإداريات، وتجنح إلى التعمق بقضايا الفكر والتنظير. ولهذا فقد بقي كما تدل الوقائع والأحداث مراقباً عاماً للجماعة ـ سواء تخلى عن مهامه الإدارية جميعاً، أم بقي موضع استشارة واستنارة في بعضها ـ وقد ساعد على استمرار هذا الوضع، ربما إلى قبل وفاته بقليل، المرض الذي استبد به في أواخر عام ١٩٥٧م وبقي يعاني منه لأكثر من سبع سنين رحمه الله.

وعلى أية حال، فإنّ من الملاحظ تماماً أن رأس السباعي كان هو

---

(١) العدد العاشر في ١٢ ذي القعدة ١٣٧٤هـ الموافق ٣ تموز (يوليو) ١٩٥٥م.

المطلـوب! بل لعلّه كان هو المطلب الوحيـد في جميع مـراحل الخروج على الجماعة، أو الكيد له. بدءاً من حملة التشويه والتشهير وحركة الانشقاق، وانتهاء بالانتخابات التكميلية التي خاضها في شهر أيار (مايو) ١٩٥٧م، وكما سنرى بعد قليل[1]. ولكننا نورد هنا قبل الحديث عن هذه الانتخابات، بعض كلماته التي بثها في كتابه (هكذا علمتني الحياة) والتي تصوّر ما كان يعتلج في نفسه من ألم ومرارة مما لقيه من طعن أو كيد أو نكران للجميل.. والذي لم يكن متصلاً بفترة الانشقاق وحدها بكل تأكيد.

قال رحمه الله: «٧٢١ ـ ما يلقاه الرجل من حسد أقرانه أشد مما يلقاه من كيد أعدائه».

«٧١٩ ـ كلّما عظم نفع الرجل لقومه كثر حاسدوه، وكثر محبّوه أيضاً».

«٣٠٣ ـ لا تستعجل الرئاسة، فإنك إن كنت أهلاً لها قدّمك زمانك، وإن كنت غير أهل لها كان من الخير لك أن لا ينكشف نقصانك».

وقال في بضع خواطر جاءت على نسق واحد(الفقرات ٧٣٨ ـ ٧٤١) وهي:

«مشكلات الطائر وهو يحلّق في السماء لا يفهمها إلا طائر مثله».

«الأعرج بين المقعدين فرس لا يشق له غبار».

«مقصوص الجناح بين الطيور حبيس الأقدار عن تحليق الأطيار، ولعله كان أسرعها طيراناً».

«إذا مشيت في طريق معبّدة فاذكر فضل الذين تعبوا قبلك في تعبيدها، قبل أن تفاخر بسبقك من سار معك فيها، فلولا أولئك ما سبقت هؤلاء».

وقـال كذلك في خواطر مماثلـة جاءت على نفس النسق الواحد (الفقرات ٩٧٩ ـ ٩٨٥) وهي:

«لا تنتصر دعوة الحق بستّة: مستعجل في الشهرة متهالك عليها، وجريء

---

(١) وقد لا يخرج عن هذا كله: ما جرى التعبير عنه حول موقفه من (اشتراكية الإسلام) على أنه موقف يلامس سلامة الاعتقاد! وربما جرى مثل هذا التعبير في نطاق محدود، ولكن الغرض منه فيما يبدو لا يعدو محاولة خدش صورته القيادية، أو أحقيّته بهذه القيادة مع ذلك (الانحراف)!! وبخاصة أن هذا كان بعد واقعة مرضه رحمه الله.

في القول جبان عند العمل، وعاميّ في ثقافته ملتوٍ في أساليبه، ومؤثر للسلامة على التضحية، ومغرور يقدّر نفسه بأكثر مما هي عليه، وضعيفٍ يسيّره من هو أخبث منه».

«خُبث نية القائد تقود الجنود إلى الهزيمة، ولو كانت نواياهم حسنة».

«قيادة الأغرار تؤدي إلى الانهيار، وقيادة المتهورين تشعل النار أو تلحق العار».

«الذي لا وفـاء عنده لإخوانـه عند نزول المحن بهم، لا وفاء عنده لأمّتـه عندما تحتاج إليه».

«لو عمل العاملون انتظاراً للجزاء في الدنيا لماتوا هماً وكمداً!».

«أقل الناس قياماً بحق الأخوّة أكثرهم ادعاءً لها، أولئك هم المتاجرون».

* * *

الإخوان وانتخابات ١٩٥٤م وأوضاع سورية

لم يشارك الإخوان في الترشيح لهذه الانتخابات كما أشرنا قبل قليل. ويبقى هذا الأمر من المواقف السلبية التي ليس في وسعنا فهم دوافعها الحقيقية تماماً أو من كل وجه. وبخاصة إذا لاحظنا الفقرة الأخيرة التي جاءت في البيان الذي أصدرته قيادة الجماعة تأييداً للسباعي، والتي نصّت ـ كما نقلناها قبل قليل ـ على أن «الجماعة تقرر أن خطتها مازالت كما أعلنتها في بيانها الصادر في ٥آذار (مارس) ١٩٥٤ من أنها ستظل عاملة في الحقل الاجتماعي والحقل الإصلاحي، معنيّة بشؤون العرب والمسلمين في مختلف أقطارهم».. بل التي تابعت تقول: «دون أن تتبنى ـ الجماعة ـ سياسة حزبية أو تشترك في حمل أعباء الحكم ومسؤولياته..».

فقد يرقى هذا النص إلى درجة الاستقالة من العمل السياسي ـ في هذه المرحلة على الأقل ـ الأمر الذي يمكن أن تتعدد معه التفسيرات والتأويلات. ولكننا لا نملك في هذا السياق سوى أن نربط الأمر بحركة الانشقاق التي نمت في ظل الحكم العسكري، لأن بيان آذار (مارس) المشار إليه لم يكن بينه وبين رحيل الرئيس العقيد أديب الشيشكلي سوى تسعة أيام! كما أن المدة بين هذا الرحيل والانتخابات التي نتحدث عنها لم تزد عن ستة أشهر.. يبدو أنها لم تكن كافية لتزجّ الجماعة بنفسها في المعترك السياسي الانتخابي مرة أخرى، وهي أقرب إلى الجماعتين لا جماعة واحدة! بدليل أن الرخصة التي حصل عليها المنشقّون أو (جمعية المفصولين) لتمارس عملها تحت اسم (الإخوان المسلمون) كانت بتاريخ ١٩/ ٥/ ١٩٥٥ أي في هذه الفترة، وبعد نحو تسعة أشهر من إجراء تلك الانتخابات.

ولكن مثل هذا التعليل قد يكون قاصراً عن تفسير عبارة: «ودون أن تتبنى سياسة حزبية»! فهل وُضع (التكتل الحزبي) ـ بحسب عبارة حزب التحرير ـ على الرفّ، في مقابل مدّ اليد (إلى جميع العاملين في مختلف الميادين متعاونة معهم

في ظل الإسلام على ما فيه خير الأمّة والبلاد) على حد قول البيان.

نذكّر هنا بالتعليل الذي كتبناه في الهامش ـ في الطبعة الأولى ـ قبل صفحات. لأن هذا الوضع أو الموقف يمثل صورة من صور العودة إلى (الدعوة) وترك (السياسة) أو بعبارة أدق: تأجيل هذا البُعد من أبعادها إلى وقت أفضل! ولكن أليس في وسع المعترض أن يقول ألم يكن من شأن الانخراط في العمل السياسي نفسه أن يساعد في تأمين هذه الظروف، أو في جعلها بشكل أفضل؟

وعلى أية حال، فإن في وسع المتتبع لنشاط الإخوان المسلمين في هذه المرحلة ـ أو بعد البيان المذكور ـ أن يقف على نشاطهم الدعوي الشعبي الواسع، في الوقت الذي كانت السياسة جزءاً لا يتجزأ من هذا النشاط، حتى ليمكننا القول أو التأكيد على أن الإخوان (كحزب أو جماعة) لم يتركوا الاشتغال بالسياسة إلا تحت قبة البرلمان، على الرغم من البيان المشار إليه!! لقد بدؤوا بإصدار جريدتهم الأسبوعية (الشهاب) في ٢٤ نيسان ١٩٥٥، وكانت هذه الجريدة تعكس رؤيتهم السياسية والفكرية. وكان رصدها للأحداث وقراءتها لها، وتعليقها عليها، بارزاً وقوياً. وربما لخّصت عبارة (باتريك سيل) التي نقلناها قبل قليل وضع الإخوان في هذه المرحلة ـ أو في الأعوام ٥٤ ـ ١٩٥٧ ـ أحسن تلخيص، حين قال: «إن تأثير حركتهم كان واسعاً، ولكن انتشارها السياسي لم يكن فعالاً».

أما النشاط الثقافي والفكري للسباعي فقد كان كبيراً، بل لقد مثّلت الأعوام المذكورة أفضل أوقات كتاباته ومحاضراته و(حضوره) العلمي، كما سنرى عند الكلام على حياته كعالم ومؤلف رحمه الله.

وأخيراً، فإن الفراغ الذي تركه غياب السباعي والإخوان عن الساحة البرلمانية وما يتصل بها من العلاقة مع الجيش، والوقوف على (إملاءاته)! إزاء الأحداث، أو توجهاته (السياسية) بوجه عام، ربما كان من الأسباب الكثيرة التي أدت إلى فساد الحياة السياسية. ولم يكن في وسع صحيفتهم الأسبوعية (الشهاب) أن تؤثر في هذه الحياة على النحو الذي يستطيعه نواب الحركة أو الجماعة في البرلمان، مع التسليم بأن الأحداث التي شهدتها سورية خلال أربعين شهراً ـ وهي الشهور التي سبقت قيام الوحدة مع مصر ـ والتقلّبات التي مرت عليها لا يمكن تحليلها بهذه البساطة لأنها تحتاج إلى متابعة وربط دقيقين قبل أن ينتهي المرء إلى الوقوف على جملة العلل والأسباب. علماً بأن مثل هذه المتابعة أو قريباً منها

هي التي انتهت بـ(باتريك سيل) إلى رسم أوضاع سورية أو تصويرها على النحو التالي:

قال: «في أواخر صيف عام ١٩٥٧م أصبحت سورية على شفا الانحلال كمجتمع سياسي منظم، ولم يقتصر الأمر على عدم وجود اتفاق حول القواعد التي تحدد السلوك السياسي، ولكن ـ وهذا الأسوأ ـ فقد الكثيرون من السوريين الثقة بمستقبل بلادهم ككيان مستقل!!.

«لقد كانت هناك أسباب معقدة لانهيار التقاليد السياسية.. فقد كانت سورية في فترة ثورية مسرحاً لصراع حقيقي بين مصالح الفئات الاجتماعية، كما أنها كانت محوراً لسلسلة أحقاد وعمليات انتقام عربية وداخلية متزايدة الشراسة والوحشية، زادتها سوءاً الصراعات بين الدول الكبرى، التي لم تمكنها من التمتع بفترة أمن واستقرار منذ الحرب الفلسطينية.

كما حازت على اهتمام الهاشميين المتزايد بها، ومحاولاتهم إقامة اتحاد عراقي ـ سوري، خلال المناقشات التي جرت في فترة الخمسينيات حول الدفاع عن الشرق الأوسط ضد روسية، ووصل الأمر إلى ذروته خلال أزمة حلف بغداد وقضية المالكي، تبع ذلك تغلغل مصري وسوفييتي وإثارات حرب السويس، والمؤامرة العراقية عام ١٩٥٦م. وأخيراً التدخل الأمريكي في ١٩٥٧م. وكانت أموال الرشاوى والضغوط الخارجية المختلفة الأنواع قد قضت في فترة سنوات على كل أساس أخلاقي يمكن أن تمتلكه الحياة السياسية السورية، في الوقت الذي تعرّض فيه الشعب لحملات دعاوية مختلفة من محطات الإذاعة المتنازعة، مما جعله في حالة تشبه الهستيريا بأخبار المؤمرات والانقلابات والتهديدات بالغزو. ولم تكن هذه بالشروط المثالية لازدهار الفضائل المتمدنة، أو لحسن سير المؤسسات الديمقراطية المنتخبة.

«وهناك عامل آخر داخل الجيش، عامل محدد أدى إلى انهيار الحكومة المنظمة.. لقد لعب التدخل العسكري المستمر في السلطة ـ أو فلنقل التهديد بالتدخل ـ دوراً معرقلاً إلى حد كبير. فكان الجيش أشد القوى المنفردة بأساً في السياسة السورية.. وقد أدى ضغط الجيش إلى توجه سورية بشكل حاسم إلى مصر في منتصف فترة الخمسينيات.. كما قدمت انقسامات الجيش على المسرح السياسي عاملاً من العنف لا يمكن تصوره.. وأدى بذلك إلى زيادة حدة التصدع

في سياسة المدنيين، وهذا عين ما حدث في خريف عام ١٩٥٧م»[١].

أشار باتريك سيل إلى حلف بغداد الذي (دوّل) الصراع على القوة في المنطقة. وكان الصراع على أشده بين دول هذا الحلف (العراق ـ تركية)[٢] والائتلاف أو الميثاق المصري ـ السوري ـ السعودي، وقد سمح قرار بريطانية بالجلاء عن قناة السويس ـ بعد سبعين سنة من الاحتلال ـ لمصر بأن تبرز كدولة رئيسة في المنطقة[٣]. . وكان هذا حال سورية قبل ذلك وفي عهد الشيشكلي على وجه الخصوص.

كما أشار باتريك سيل إلى قضية اغتيال عدنان المالكي نائب رئيس أركان الجيش في مبارة كرة قدم في ٢٢/ ٤/ ١٩٥٥م في الملعب البلدي بدمشق. وقد نشر قرار الاتهام الموجه إلى (١٤٠) عضواً من أعضاء الحزب القومي السوري بتاريخ ٢٩/ ٦/ ١٩٥٥م. اعتبروا مسؤولين عن ارتكاب جنح وجنايات تتعلق بمقتل المالكي، وكانت الصورة العامة وراء مقتله تمثل الصراع من أجل السيطرة على الجيش بوصفه العامل الحاسم في السياسة السورية، وكانت قوى الحزب في الجيش تقدر بثلاثين ضابطاً ومئة ضابط صف[٤].

أما التغلغل السوفييتي فقد بدأ خلال الأزمة حول حلف بغداد في شباط

---

(١) الصراع على سورية لباتريك سيل، ص٤٠١ ـ ٤٠٢.

(٢) وقع حلف بغداد ـ أولاً ـ من قبل العراق وتركية بتاريخ ٢٤ شباط (فبراير) ١٩٥٥ ـ ثم انضمت إليه المملكة المتحدة وباكستان وأخيراً إيران. ثم شاركت الولايات المتحدة في اجتماعات اللجنتين العسكرية والاقتصادية التابعتين للحلف، على الرغم من عدم انضمامها إليه كعضو كامل العضوية، ومشاركتها في مجلسه الوزاري. وقد سمّي هذا الحلف عام ١٩٥٩ بعد انسحاب العراق منه بمنظمة المعاهدة المركزية.

(٣) المصدر السابق، ص٣٠٦.

(٤) باتريك سيل، ص٣١٤. وقد أدان الإخوان بشدة على صفحات جريدتهم (الشهاب). جريمة اغتيال العقيد عدنان المالكي، الذي كان من دعاة الوحدة العربية، ويحظى باحترام واسع. ونشروا وقائع الاحتفال الذي أقيم لتأبينه رحمه الله. «وقد أعلن قرار الاتهام أيضاً أن شبكة للتجسس قد جرى كشف النقاب عنها، وهي تتألف من أعضاء الحزب العاملين في الجيش، وأن الوثائق التي صودرت قد كشفت عن أن الحزب قد جرى على تزويد مكتب المعلومات الأمريكي في دمشق بتقارير عن نشاطات الإخوان المسلمين في سورية، والحزب الشيوعي في سورية ولبنان منذ بداية عام١٩٥٥م» باتريك سيل، ص٣١٥.

(فبراير) ١٩٥٥م، حين أعلنت روسية حمايتها لسورية أيام تولي خالد العظم وزارة الخارجية السورية[١]، ثم تسلسل عبر صفقات السلاح، وتوقيع الاتفاقيات الثقافية والاقتصادية، واعتراف سورية بالصين الشعبية. وقد وقعت الاتفاقيات الثقافية بعد شهرين من الاستقبال الضخم الذي حظي به ديمتري شيبليوف وزير الخارجية السوفييتي لدى زيارته لدمشق في ٢٢/ ٦/ ١٩٥٦م. ثم عقدت الاتفاقية الاقتصادية الكبرى في شهر آب (أغسطس) ١٩٥٧م، وفي (٣) تموز (يوليو) اعترفت سورية بالصين الشعبية[٢]..

وقد انعكس ذلك على الأوضاع الداخلية التي يطول أمر شرحها في هذا السياق، حتى أصبح (للشيوعيين في سورية اليد الطولى)[٣]، كما يقول باتريك سيل. الذي أضاف أيضاً: «وبدا للكثير من المراقبين الغربيين أن سورية في لحظة التحول إلى دولة شيوعية تابعة. وازدادت المخاوف هذه باستقالة الزعيم الركن شوكت شقير رئيس الأركان العامة من منصبه. وقد أشيع أن تنحيته من منصبه خطط لها عبد الحميد السراج تحت ضغط العناصر اليسارية، في الوقت الذي كان السراج يشغل فيه منصب مدير المخابرات العسكرية»[٤].

أما التغلغل أو (التقارب) المصري، فقد تطور في مناخ التوجه المشترك نحو الاتحاد السوفييتي ـ مع اختلاف الدوافع والأثر الداخلي أو على الأرض ـ وبعد أن كشف ذهاب شقير (تفكك الضباط وتسلل مختلف الفئات السياسية المتنازعة إلى صفوفهم)، وهكذا جاء الإعلان عن هذا التقارب بصورة حاسمة في خطاب تأميم شركة قناة السويس الذي ألقاه عبد الناصر في الإسكندرية بتاريخ

---

(١) باتريك سيل، ص٣٠٦.

(٢) المصدر السابق، ص٣٦٥.

(٣) المصدر السابق، ص٣٦٩. وتكفي الإشارة هنا إلى أن السيد خالد العظم نائب دمشق وأحد رؤساء الوزارات البارزين في تاريخ سورية، تحالف في العام المذكور ـ ١٩٥٧ ـ مع الشيوعيين، حتى صار يدعى بالمليونير الأحمر ـ وكان واحداً من كبار رجال الإقطاع ـ وحتى «أخاف العالم ـ بهذا التحالف ـ حين أدخل في روعه أن سورية في خطر السقوط تحت التسلط السوفييتي» على حد قول باتريك سيل، ص٥٧. ومن الجدير بالذكر أن صوره أيام الترشيح للانتخابات كانت تحمل العبارة التالية: مرشح دمشق: دولة خالد العظم باني صرح الاقتصاد السوري.

(٤) المصدر السابق، ص٣٤٠.

٢٦/ ٧/ ١٩٥٦م بعد ثلاثة أسابيع من تنحية رئيس الأركان السوري، قال عبد الناصر في هذا الخطاب: «وأنا اليوم أتجه إلى إخوان لنا في سورية، سورية العزيزة، سورية الشقيقة، لقد قرروا أن يتحدوا معكم(!!) اتحاداً حراً سليماً عزيزاً كريماً، لندعم سوياً مبادئ الكرامة، ولنرسي سوياً القومية العربية والوحدة العربية، نرحب بكم أيها الإخوة. . . »[١]. وقد ازدادت علاقات سورية مع روسية عقب العدوان الثلاثي على مصر الذي جاء نتيجة لتأميم شركة قناة السويس[٢].

أما المؤامرة العراقية عام ١٩٥٦م التي أشار إليها (باتريك سيل) ـ وقد عشنا نحن وقائعها عبر جلسات المحاكمة التي نشرت على الملأ، ومن خلال البث الإذاعي بوجه خاص ـ فقد جاءت في سياق حلف بغداد أو عبر قناعة بعض السياسيين السوريين بضرورة التحالف مع العراق. . وقد أشرنا إلى هذا الموقف في أكثر من مناسبة. . ولهذا تم إقصاء حزب الشعب والجبهة الدستورية ـ وهي كتلة برلمانية كان يقودها نائب دمشق الدكتور منير العجلاني ـ من حكومة الوحدة الوطنية التي شكلها السيد صبري العسلي في ١٤/٦/١٩٥٦ وضمت الحزب الوطني ـ أو جناحه الذي لم يقاطع انتخابات ١٩٥٤م ـ وحزب الشعب وحزب البعث، وكتلة خالد العظم الديمقراطية، وكتلة العجلاني الدستورية. وقد تم هذا الإقصاء في حكومة صبري العسلي الجديدة التي شكلها في ٣١/ ١٢/ ١٩٥٦م، بسبب تورطهما فيما سمي (التآمر مع العراق). وقد احتفظ حزب البعث في الوزارة الجديدة بوزارتي الاقتصاد والخارجية، بينما دخلها السيد خالد العظم وزيراً للدفاع، والدكتور مأمون الكزبري وزيراً للعدل[٣].

* * *

---

(١) باتريك سيل، ص٣٤١ وقارن تاريخ إلقاء هذا الخطاب بالتاريخ الذي جرت فيه الانتخابات التكميلية التي نتحدث عنها، وبما حدثنا به أستاذنا الدكتور مصطفى زيد عن موقف السفارة المصرية بدمشق من هذه الانتخابات. وانظر كذلك موقف صحافة القاهرة من الدكتور السباعي ـ ومدى تشنيعها عليه ـ بين يدي هذه الانتخابات وفي أعقابها كذلك، والذي بلغ إلى حد السفاهة «والسقوط» في تعليق أحد محرري مجلة المصور على نتائج هذه الانتخابات.

(٢) باتريك سيل، ص٣٤٢.

(٣) المصدر السابق، ص٣٣٨.

الانتخابات التكميلية: مصطفى السباعي ورياض المالكي

لقد شغر في البرلمان نتيجة لهذه المحاكمات أربعة مقاعد نيابية في كل من دمشق وحمص والسويداء وجبل العرب (أو بادية السويداء) منها مقعد منير العجلاني عن مدينة دمشق. ودعي لإجراء انتخابات تكميلية في شهر أيار (مايو) ١٩٥٧م لملء هذه المقاعد[1].

وكان الجو أو المناخ في سورية كما أشرت، في الوقت الذي عبرت وزارة العسلي الجديدة عما سُمِّي الجبهة القومية؛ المؤلفة من مجموع الأحزاب الباقية في الائتلاف الوزاري بعد خروج الكتلة الدستورية وحزب الشعب. وكانت جبهة هشّة، لا تتمتع في البرلمان سوى بأكثرية صوت أو صوتين. . ولهذا كانت شديدة الحرص على نجاح مرشحيها في هذه المقاعد، وبخاصة في مدينة دمشق.

وحين تقدم مصطفى السباعي للترشيح عن مدينة دمشق جرى أكبر اختبار للقوة. . بل أكبر عملية للتزوير[2] وشراء الضمائر. ونأسف أن نقول في هذا السياق: إن ما كتبه السيد أكرم الحوراني عن هذه المعركة الانتخابية وعن تصوير الحالة في سورية في هذا الوقت على أنها أزهى الفترات! وأن الخط التقدمي كان من الممكن أن يحتل معظم مقاعد البرلمان لو جرت انتخابات عامة في موعدها عند انتهاء مدة المجلس القائم[3]. أنّ هذا كله يقوم على التدليس وتغلب عليه

---

(١) راجع مذكرات الحوراني وباتريك سيل، ص٣٨٠.

(٢) حدّث العقيد حيدر الكزبري ـ قائد قوات البادية (الهجّانة) ـ أن قوّاته تدخلت في تبديل مجموعة من صناديق الانتخاب لصالح المالكي. قال ذلك لمن كانوا معه في سجن تدمر. وكان أحد الذين سمعوا منه هذا الحديث قد اعتقل في هذا السجن في الفترة من تموز (يوليو) ١٩٦٦ حتى حزيران (يونيو) ١٩٦٧. و(المقدّم) الكزبري هو الذي قاد حركة الانفصال عن مصر عندما حاصر بقواته منزل المشير عبد الحكيم عامر بدمشق صباح يوم الخميس في ٢٨ إيلول (سبتمبر) ١٩٦١. انظر كتاب (البعث) للدكتور الجندي، ص٨٧.

(٣) قال الحوراني: «ولو قدر للانتخابات العامة أن تجري في موعدها عند انتهاء مدة هذا المجلس، وهي الانتخابات التي حال دون إجرائها قيام الوحدة بين سورية ومصر، لا احتل حزب البعث العربي الاشتراكي بالدرجة الأولى والقوى التقدمية الأخرى معظم المقاعد في المجلس النيابي السوري، ولشهد العالم آنذاك قيام التجربة الرائدة في العالم=

المغالطات. . وقد يكون بعضه من باب الأماني! وأنا أتحدث عن انطباع رجل الشارع، أو انطباعي كمواطن عشت تلك المرحلة، فأقول: لولا قيام الوحدة: لاجتاحت الشيوعية سورية، أو لقامت في البلاد حرب أهلية. . ولأتت النار على السيد أكرم الحوراني الذي كان يلعب بها، قبل أن يتفرغ أو يجلس ليكتب التاريخ كما يريد! وإذاً لحقَّ عليه في علاقته مع الشيوعيين قول أبي الطيب:

ومن يجعل الضرغام بازاً لصيده   تصيّدَهُ الضرغام فيما تصيّدا

لقد نقل السيد الحوراني عن الأستاذ محمد المبارك ـ نائب دمشق ـ أنه عقد مؤتمراً صحفياً (اتهم فيه البعث العربي الاشتراكي بفتح أبواب سورية أمام الغزو الشيوعي). وكان أستاذنا المبارك محقاً فيما قال، وهو الذي كان على الصعيد السياسي يقول كلمة الفصل في الوقت المناسب.

لقد نقلنا قبل قليل كلمة باتريك سيل: «إن الشيوعيين آنئذ قد أصبح لهم في سورية اليد الطولى»[(١)] بل لقد بلغ الأمر ـ على سبيل المثال ـ إلى حد تدخل السفارة السوفييتية لضمان انسحاب المرشحين الشيوعيين في دمشق وحمص لصالح مرشح يساري أكثر قبولاً عند الناس![(٢)].

لا أناقش هنا ما أقدم عليه الأستاذ السباعي أو رضي به من ترشيح نفسه للانتخابات، مع اعتقادي واعتقاد الكثيرين أنه كان خطأً فادحاً. . لأن الخط الذي كانت تسير فيه سورية ـ والذي ألمحنا إلى طرف منه ـ كان لا بد أن يبلغ مداه، بالإضافة إلى أن الأستاذ السباعي ليس رجل حزبيات ومهاترات كما دلّ على ذلك تاريخه حتى الآن. . فضلاً عن شخصيته وأخلاقه؛ بمعنى أن الرأي العام الإسلامي والوطني في دمشق أو في سورية إذا كان راغباً في كسر التجمع ـ الذي كان يقوده أكرم الحوراني، وكان على رأس وزارته صبري العسلي[(٣)] ـ حتى يحول دون

= العربي التي يحقق فيها الشعب العربي في سورية مطامحه بالديمقراطية السياسية والديمقراطية الاجتماعية كأساس لبناء الإنسان والمجتمع»!!.

(١) الصراع على سورية، ص٣٦٩.

(٢) المصدر السابق، ص٣٨٠.

(٣) في الوقت الذي أصبح للشيوعيين في ظل هذه الحكومة (اليد الطولى) فإن العسلي تعهد ببدء مفاوضات فورية مع مصر لإقامة وحدة فدرالية بين البلدين. راجع سيل، ص٣٦٩.

وقوع سورية في براثن الشيوعية. . أو حتى يخلّصها من حالة الانهيار الوشيك الذي بات ينتظرها، والذي صوره (باتريك سيل) على النحو الذي نقلناه عنه قبل قليل. . . فإن في وسعه أن يفعل ذلك من خلال ترشيح شخصية ـ إسلامية ـ أخرى غير السباعي! ولكن كيف ذلك والمطلوب هو السباعي بتجربته البرلمانية وشخصيته القيادية وحضوره الجماهيري. . . وهكذا كان ترشيحه مطلب من حوله ولم يكن رغبته هو. . . ولقد شاهدته يطوف على مراكز الاقتراع في دمشق ـ في جوٍّ محموم ـ ومعه الدكتور معروف الدواليبي، الذي كان أحد نواب حزب الشعب عن مدينة حلب، وأحد الأصدقاء المقربين من الأستاذ السباعي رحمه الله، وكان التحدي المشوب بالقلق والانزعاج يظهر على محيَّاه!.

يقول أكرم الحوراني: «لم يكن ترشيح رياض المالكي موضع خلاف كبير بين أطراف الجبهة القومية. فقد تمكنتُ من إقناع الحزب الوطني بسحب مرشحهم عن دمشق ظافر القاسمي.

أما الحزب الشيوعي فقد كان لا يأمل بطبيعة الحال أن ينجح مرشحه عن دمشق مصطفى أمين، وهكذا أصبح ترشيح المالكي عن دمشق موضع اتفاق جميع الأطراف»[1]، ونشير هنا إلى أن الأستاذ رياض المالكي سبق له أن تقدم بترشيح نفسه عن حزب البعث العربي الاشتراكي في انتخابات عام ١٩٥٤م. . . ولم يكتب له النجاح[2].

ويذكر الحوراني بعد ذلك أن الخلاف كان يدور حول مرشح الجبهة في مدينة حمص. . يقول: «وقد استفحل هذا الخلاف وكاد يؤدي إلى شق الجبهة القومية». . ولا نقف عند مراكز الاقتراع الأخرى بطبيعة الحال، لأن الذي يهمنا في هذا السياق هو ما قاله الحوراني عن كل من الأستاذ السباعي والسيد المالكي، وما عرض له من بعض وقائع الانتخابات وملابساتها. . قبل أن نعقب

---

(١) راجع مذكرات الحوراني، الحلقة (٨٢) جريدة القدس العربي العدد (٣١٢٥) تاريخ ٢٦/ ٥/ ١٩٩٩م. والنقول التالية عن الحوراني من هذه الحلقة.

(٢) لم ينجح من مرشحي البعث الثلاثة سوى الأستاذ صلاح البيطار؛ وكان وراء نجاحه في ذيل القائمة ـ في البالوتاج أو دورة الاقتراع الثانية ـ أسباب تتصل بعائلته الكريمة في حي الميدان الفوقاني، وبمجالس عائلات الحي وزعماء بعض الأحياء الأخرى. وقد شاهدنا ذلك وعايشناه. مع الإشارة إلى أن كاتب هذه السطور من أبناء هذا الحي.

ـ بإيجاز ـ على عرضه وقراءته أو تفسيره. مع الإشارة إلى أننا نكنّ للأستاذ المالكي ـ الذي كان في ذلك الحين محامياً شاباً ـ كل احترام وتقدير.

يقول الحوراني: «كانت دمشق في الأيام السابقة للانتخابات في مهرجانات انتخابية مستمرة، وقد لعبت شخصية رياض المالكي ووطنيته وطيبته وأخلاقيته دوراً مهماً في هذه المعركة، كما أنه من أسرة دمشقية عريقة، وقد عرف بنضاله الصارم الحاد(!) أيام ديكتاتورية أديب الشيشكلي، وبالإضافة إلى ذلك كله فهو شقيق الشهيد عدنان المالكي»!.

ويتابع السيد الحوراني قائلاً: **«ولإعطاء الصورة الحقيقية عن أبعاد المعركة التي خاضتها القوى التقدمية في دمشق لا بد أن نذكر شيئاً عن الشيخ مصطفى السباعي؛ فقد كان خطيباً مُفوَّهاً، وقد فاز بالنيابة سابقاً عن دمشق فوزاً ساحقاً، وكان يتمتع على الصعيد الشعبي بمركز لا يتمتع به أحد من علمائها وقادتها.**

«كان السباعي من أسرة حمصية، ولكن مصاهرته لعائلة الطباع، الأسرة المعروفة في الطبقة التجارية والدينية، قد سهلت أمامه فتح الأبواب في أحياء دمشق. وكان يتمتع بمكانة علمية ودينية مرموقة، وكان معروفاً ومشهوراً باتصالاته الواسعة وعلاقاته المتشعبة بصفته مراقباً عاماً للإخوان المسلمين بصورة مستمرة. وكانت تسعفه في أحاديثه وخطبه عاطفة جياشة، وحماسة متأججة. ولا أشك في أنه كان من أكثر من عرفت من رجال الدين صدقاً في عقيدته».

ويضيف: «كان نجاح السباعي في نظر اليمين داخلياً وعربياً مضموناً ضماناً أكيداً، إذ من يصدق بأن الشيخ مصطفى نال من أصوات الناخبين في حي القصاع المسيحي أكثر مما ناله الأستاذ رياض المالكي؟».

قلت: نحن ياأستاذ أكرم نصدّق ذلك! أونصدق هذا الذي حصل[1] وهذا يدل على المكانة الوطنية والسياسية المرموقة التي كان يحتلها السباعي، وأنها

---

(١) يبدو أن الحكومة كانت على قناعة بأن هذا الحي المسيحي المشهور من أحياء مدينة دمشق لن يحصل فيه (زعيم الإخوان المسلمين) على أصوات انتخابية تفوق ما يحصل عليه مرشح حزب البعث أو المرشح الآخر، ولهذا لم تقم فيه بالتزوير! وقد فاتها ما أشرنا إليه من أسباب تقدم السباعي. بالإضافة إلى براءته ـ وبراءة أبناء هذا الحي ـ من كل معاني التعصب والطائفية!

تفوق بكثير تلك التي كان يتمتع بها المالكي، كما يدل على أن الخوف من الإلحاد والإرهاب الشيوعي كان قائماً، وأن سخرية أكرم من تصوير بعضهم للمعركة الانتخابية بأنها كانت بين الإيمان والإلحاد، أو تعريضه بهذا التصوير على أقل تقدير.. ليس في مكانه، وإن كنا لا نعتقد بأن الأمر كان بهذا الإيقاع السريع، وربما لم يتجاوز حدود التخوف من شد أزر الشيوعيين والإرهاب الماركسي الذي كان حاضراً في المعركة بشكل بارز! فإذا ذكرنا أحياء دمشق الأخرى - وبخاصة الأحياء الإسلامية العريقة ذات الكثافة السكانية العالية - والتي صوتت بأكثريتها لمصطفى السباعي أدركنا مدى التزوير الذي قامت به حكومة التجمع أو «القوى التقدمية» بحسب عبارة الحوراني.. بل إن كثيراً ممن صوت للأستاذ المالكي في هذه الأحياء فعل ذلك بضغط من الحكومة.

وأكتفي في هذا السياق بذكر الحادثة التالية: دخلت المنزل في أحد الأيام السابقة للانتخابات التي أشار إليها الحوراني، وكان توزيع المنشورات - وليس فقط إقامة المهرجانات الانتخابية - على أشده.. دخلت ومعي إحدى هذه المنشورات، وكانت على شكل كراس صغير يشتمل على حياة السباعي وإنجازاته الوطنية والعلمية وجهاده ونحو ذلك.. وقد كتب على صفحة الغلاف الأولى: مصطفى السباعي نائب دمشق السابق.. وعلى صفحته الأخيرة: ونائب دمشق المقبل.. فوجدت (النجار) يعمل في المنزل، وكنا نقوم بعملية ترميم وإصلاح لبيت (عربي) مبني على الطراز القديم، لم يمضِ على انتقالنا إليه وقت طويل. وكان (المعلّم) النجار المشار إليه أحد سكان الحي - حي الميدان الفوقاني بدمشق - وكانت تربطني بابنه صداقة قوية، وقد توفي هذا الصديق شاباً بمرض القلب رحمه الله رحمة واسعة.. فما كان مني إلا أن دفعت بالكراس إلى العم النجار.. فقلّبه وقال: نائب دمشق السابق.. نعم، ولكن نائب دمشق المقبل.. لا. ففاجئني بذلك! فقلت: لمَ؟ قال: لأن الحكومة تريد ذلك؟ قلت: كيف؟ قال: أنا أعمل في الحكومة صباحاً، وتضمنا نقابة دعانا رئيسنا المسؤول، وحلّفنا اليمين على المصحف أن ننتخب رياض المالكي!! فقلت: أعدادكم كبيرة؟ قال: نعم!.. وحدث هذا في قطاعات أخرى!. قلت: وسوف تبرّ بقسمك؟ قال: نعم.. قلت: أتخاف مسؤولية الآخرة إن لم تفعل؟ قال: والدنيا[1]!.

---

(١) يبدو أن هذا الأسلوب كان معهوداً عند الأستاذ الحوراني في حزب البعث! وعلى سبيل المثال: «لقد شوهد أعضاء الحزب وهم يقدمون قائمة بأسماء المرشحين لعضو من =

ولم يكن تحيز الحكومة حتى قبل الانتخابات خافياً، حتى إن السباعي والدواليبي ومعهم السيد رشاد جبري والشيخ عبد الرؤوف أبو طوق قاموا بزيارة رئيس الوزراء «وشكوا إليه تحيز بعض الموظفين، وحمّلوه المسؤولية» كما يقول الحوراني نفسه الذي فسّر هذه الزيارة ـ في سياق خلط الأوراق أو ترتيبها كما يريد ـ بأنها «حملة ضغط وتهديد لرئيس الحكومة»!! وندع الرواية هنا للأستاذ الحوراني الذي قال: «وحدث أثناء اجتماعهم به أن وصلتُ لمقابلة رئيس الوزراء للاحتجاج على موقف بعض المسؤولين كمأمون الكزبري في الوزارة الحالية![1] ويوسف مزاحم ـ الذي كان مدير الشرطة والأمن العام ـ ورجال الأمن تجاه اعتداءات الإخوان المسلمين المتكررة! التي كان آخرها الاعتداء على الأهلين في حي باب السريجة (من أحياء دمشق القديمة) حيث سقط بعض الجرحى!».

ذهب الحوراني إذاً إلى رئيس الحكومة ليشتكي ضد أحد وزراء الحكومة. . وضد مدير الشرطة والأمن العام؟ وكأنّ الحكومة والأمن العام تابعان للمعارضة، أو يقفان في صفها ضد الحوراني والبعث والعسلي. . . إلخ. . إن الحوراني يناقض نفسه، كما ناقضها مرة أخرى حين صور سبب نجاح المالكي بشخصيته المتواضعة الطيبة، وإخفاق السباعي بما نسبه إليه من عبارات لا تدل على احترام المواطنين!! قال الحوراني: «لقد أثرت شخصية رياض المالكي المتواضعة الطيبة في جمهور دمشق تأثيراً كبيراً، بينما كان مصطفى السباعي يخطب بالجماهير!! قائلاً: كنت أنتظر أن يقبّل الناس يدي لأكون نائباً عنهم، ولكن موجة الإلحاد التي عمَّت دمشق والعياذ بالله قد جعلتني مضطراً لأن أطرق بيوت الناخبين. لا عجب إذاً أن يفوز مرشحو الجبهة القومية على خصومهم فوزاً ساحقاً، فقد زادت الأصوات التي نالها المالكي عن الأصوات التي نالها السباعي

= الفلاحين ـ في انتخابات الحزب المحلية ـ طالبين منه حلف اليمين على القرآن الكريم بأنه سوف ينتخب هذه القائمة»!؛ كتاب الصراع على السلطة في سورية للدكتور نيقولاس فان دام، ص٤٩. فإذا كان هذا في نطاق الحزب، فما بالك بالانتخابات العامة؟ وفي مثل هذه الظروف والأجواء التي تحدثنا عنها.

(١) دخل الدكتور الكزبري وزارة العسلي الجديدة وزيراً للعدل كما أشرنا سابقاً، ممثلاً عن حركة التحرير العربي التي أسسها أديب الشيشكلي وأراد لها أن تحل محل الأحزاب، فتحولت بعده إلى حزب، وكان الدكتور الكزبري أستاذاً بكلية الحقوق بجامعة دمشق.

بـ(٢٤٤٧) صوتاً . . »[1] .

قلت : إن السباعي لم يتحدث اطلاقاً عن «موجة إلحاد عمت دمشق»! حتى كأنّ الإلحاد وقف عليها من بين سائر البلاد والعباد . . ونحن لا نحيل أن يتبرم السباعي بالجو غير المعهود الذي يسود الانتخابات ، ولكننا نستبعد هذا القول ، أو هذه الصيغة على أقل تقدير! ونستبعد أكثر أن (يخطب) به في الجماهير[2] . . كما نحيل أن يكـون هذا وذاك من أسـباب النجاح والفشل في انتخابات يعلم الخاصة والعامة أنها مهمة! حتى إن الحوراني نفسه أثنى من كبار رجال حزب البعث على الأستاذ عبد الكريم زهور الذي «اندفع بكل حماسة لتأييد رياض ، تسعفه قدرة خطابية وشعور بالمسؤولية ، ووعي **لأهمية المعركة ، وانعكاس نتائجها على الوضع في سورية**» بحسب عبارات الحوراني .

ونعتقد هنا أيضاً أن الحوراني وقع أيضاً بنوع من التناقض حين قال إن مصاهرة السباعي لعائلة الطباع الدمشقيّة سهلت أمامه فتح الأبواب في أحياء دمشق . . لأن السباعي حين فاز في الانتخابات السابقة(فوزاً ساحقاً) كما وصفه الحوراني لم يكن قد تزوج بعد! فقد دخل البرلمان عازباً . . حتى إنه في إحدى الجلسات التي اقترح فيها تخفيض مرتبات الوزراء والنواب وكبار الموظفون لصالح صغار هؤلاء . . ذكر بعض النواب أن السباعي عازب ونفقاته تختلف عن نفقات المتزوجين . . فقال السباعي : إن نسبة الإنفاق لا تقاس بهذا المقياس[3] .

---

(١) مذكرات الحوراني : الحلقة المشار إليها سابقاً .

(٢) قال السباعي في أعقاب حركة الانشقاق التي تحدثنا عنها : «فما تنكرت دمشق لدعوة الإسلام ولن تتنكر لها ، ولن تكون دمشق إلا تربة صالحة للإسلام الحي الكريم . وإذا غفت دمشق فقد يغفو اليقظ ، وإذا كبت دمشق فقد يكبو الجواد ، وإذا زلّت دمشق فقد يزل العالم . .». جريدة الشهاب العدد رقم (٦) تاريخ ١٤ شوال١٣٧٤هـ الموافق ٥/٦/١٩٥٥م .

(٣) قال السباعي : «أنا لا أدري ما هو ذنبي إذا كنت لم أتزوج حتى الآن ، وإذا كانت الظروف قد منعتني من الزواج وحرمتني من أن أكون مثل إخواني رب عيال ، إلا أنني أعتقد أن نسبة الإنفاق لا تقاس بالنسبة إلى المتزوج والأعزب ، فكثير من غير المتزوجين أمثالي ينفقون أكثر من المتزوجين» ، وعندها ضحك بعض أعضاء المجلس ، فتابع السباعي قائلاً ؛ «أعتقد أن في وضعي ولباسي ما يدفع كل ما قد جال في خاطر بعضكم! ويظهر أن البعض منكم استعرض حالته عندما كان عازباً وشاء أن ينقلها إليّ»! الجلسة السابعة =

بين السباعي والحوراني:

ويبقى هنا للتاريخ: **هذا الحديث الذي جرى بين الحوراني والسباعي في الاجتماع الذي ضمهما عندما ذهبا للشكوى لدى رئيس الوزراء بغض النظر عن (الوقت) الذي قرر فيه الحوراني الذهاب للشكوى!.**

يقول الحوراني: «تشعب الحديث بيني وبين الشيخ مصطفى السباعي في هذا الاجتماع الذي تم صدفة، فقلت له: إنني أحترمك رغم ما بيننا من خلاف سياسي أكثر من رفاقك هؤلاء، وإنني بإخلاص أنصحك وأقول لك بمواجهتهم: إنهم يسخرونك لأغراضهم السياسية، وسوف تكشف لك الأيام ما أقول. **وسوف تكون الخاسر الوحيد** في هذه المعركة. وبشكل عفوي قال الشيخ مصطفى: والله ما كنت أفكر أبداً في خوض هذه المعركة، فقد كنت منصرفاً لشؤون التدريس، شاعراً أن صحتي لا تسمح لي بخوضها، ولكن الإخوان أصرّوا عليَّ، فنزلت عند إرادتهم. قلت له: **إنك ستخسر هذه المعركة وستخسر صحتك أيضاً**. وقد أصيب المرحوم السباعي بعد هذه المعركة بالجلطة التي كانت سبباً في وفاته فيما بعد».

ويضيف الأستاذ الحوراني قائلاً: «أراد معروف الدواليبي في تلك المقابلة أن يبرر خوضهم المعركة إلى جانب السباعي بسبب انتشار الشيوعية في سورية. والحقيقة أن الحزب الشيوعي قد استغل معركة رياض المالكي نظراً لما يتمتع به وأخوه الشهيد عدنان من سمعة حسنة لدى الرأي العام، فحاول مؤيدو السباعي بالمقابل أن يظهروا المعركة الانتخابية وكأنها معركة بين الإلحاد الشيوعي والإيمان. ولا شك أن ذلك كان سبباً من الأسباب التي جعلت المملكة السعودية تدخل المعركة لصالح الشيخ مصطفى»!.

قد يطول التعليق على كل ما قاله الحوراني في هذا اللقاء، ونكتفي بالقول إنه فيما قاله للشيخ أو فيما أشار عليه به كان من الصادقين.. ولهذا صارحه

= عشرة من مذاكرات الجمعية التأسيسية بتاريخ ١٨/ ٣/ ١٩٥٠م، ص٢٥٣.
ونشير هنا إلى أن الأستاذ السباعي تزوج في وقت لاحق من هذا العام (١٩٥٠) وأنه كان يكبر زوجته الكريمة بنحو عشرين عاماً. وقد رأى ـ عندما قام بشرح قانون الأحوال الشخصية بعد ذلك ـ أن فارق السن بين الزوجين يحسن ألا يزيد عن عشرة أعوام.

السباعي بما في نفسه، أو حكى له حقيقة الموقف الذي لم يكن ليخفى على مثل الحوراني. ولكن العجيب حقاً أن يؤكد الحوراني للسباعي أنه سوف يخسر المعركة! وقد خسرها فعلاً بفارق الأصوات الذي ذكره الحوراني.. والعجيب - مرة أخرى - أن يذكر الحوراني عدد هذه الأصوات بدقة، ولا يذكر نسبة الأصوات التي حصل عليها، بعد كل هذا، كلٌّ من المرشحين.

لقد كان (باتريك سيل) أكثر موضوعية حين قال: إن السباعي حاز على (٤٧٪) من مجموع الأصوات.. أو على الأقل إن الحديث عن نسبة الأصوات وليس عن أعدادها أبعد عن حدود الإيهام والتلبيس، خصوصاً وأن هنالك بلاداً كثيرة ينجح فيها المرشح ببضعة ألوف أو بضع مئات من الأصوات..

قال باتريك سيل: «لقد جرى أكبر اختبار للقوة في دمشق حيث فاز رياض المالكي من حزب البعث على الشيخ مصطفى السباعي زعيم الإخوان المسلمين بأغلبية ضئيلة، لقد حاز السباعي على (٤٧٪) من مجموع الأصوات. وهذا يدل على أن الإسلام لم يكن قد انتهى كقوة سياسية من على مسرح السياسة السورية، هذا على رغم أن منافسه قد تلقى دعم البعثيين والشيوعيين وجميع (التقدميين)، وحزب الشعب والحزب الوطني، كما أفاد من كونه أخاً لعدنان المالكي..»[(١)].

ومما يؤيد هذا الذي ذهب إليه باتريك سيل أن الإخوان المسلمين الذين استأنفوا نشاطهم السياسي بعد الوحدة تقدموا في انتخابات ١٩٦٢م - وكانت أنزه انتخابات عرفتها البلاد - بثلاثة مرشحين عن مدينة دمشق، فازوا جميعاً، وهم السادة عصام العطار وعمر عودة الخطيب - الذي انتخب قبل ذلك نقيباً للمعلمين في سورية - وزهير الشاويش[(٢)].

تعقيب على هذه الانتخابات:

١ - الحوراني وأصوات الناخبات:

لقد أطلنا في موضوع الانتخابات التكميلية هذه، ومع ذلك بقيت هنالك عدة فصول أو مواقف ذكرها الحوراني وأنفق - فيما نقدر - بعض الوقت حتى تأتي

---

(١) الصراع على سورية، ص٣٨٠.

(٢) في الوقت الذي سقط مرشحا حزب البعث وهما السيد صلاح البيطار والسيد نذير النابلسي، وعلى الرغم من المناصب التي شغلها السيد البيطار أيام الوحدة!.

على النحو الذي يرغب، أو يعطيها التفسير الذي يريد، وإن كان لا يصعب على القارئ: الوقوف على ما فيها من تناقضات مثل حديثه عن أصوات الناخبات اللاتي كان يقدّر وقوفهن إلى جانب الأستاذ رياض (لِمَ؟!) ثم قوله: «وقد أدى حذف مئات الأصوات من قوائم الانتخاب (يقصد إسقاطها من القوائم الانتخابية عن طريق التلاعب وبمساعدة أمين العاصمة السيد بشير القضماني كما قال!) إلى زيادة طفيفة في الأصوات التي نالها الشيخ مصطفى في مركز الانتخاب النسائي». وفي الوقت الذي قال: «إن عنف المعركة الانتخابية قد تجلّى في المركز النسائي حيث شوهدت السيدة أسماء الخوري زوجة (رئيس الوزراء الأسبق الأستاذ فارس الخوري) وهي تحمل بيدها عدداً كبيراً من هويّات الناخبات (بطاقاتهن الشخصية) بينما كان المئات(!!) من نصيرات المالكي محرومات من الإدلاء بأصواتهن، لعدم ورود أسمائهن في جداول الانتخابات؛ مما أدّى إلى مشادّات عنيفة في المركز النسائي، **وإلى تدخل رجال الأمن لحماية وكيلات الشيخ مصطفى السباعي بسبب النقمة الجارفة**»!.

قلت: هل أدرك القارئ من المعتدي ومن المعتدى عليه؟ حتى تدخَّل رجال الأمن.. ولكن على القارئ أن يصدق أن هذا كان بسبب النقمة الجارفة التي اجتاحت نصيرات الأستاذ المالكي.. وأن يصدق أن سبب هذه النقمة هذا الأمين للعاصمة الذي عرف مسبقاً، منفرداً أو بالتواطؤ مع وزارة التربية[1]، من ستدلي بصوتها للمالكي، فقام بإسقاط اسمها من جداول الانتخاب.. ومن ستقوم بانتخاب السباعي فتركه[2].

إن حديث السيد أكرم الحوراني عن هذه المعركة مليء بالمغالطات،

---

(١) كان حصول المرأة على شهادة الدراسة الابتدائية شرطاً لتمتعها بحق التصويت في الانتخابات البرلمانية.

(٢) أشار الأستاذ السباعي ـ عَرَضاً وبعباراته المهذبة المعهودة ـ إلى ما جرى: «في مراكز اقتراع النساء في دمشق من شد شعور بعضهن لبعض، واتهام المتحمسات لأحد المرشحين لكرام السيدات بتهم تأنف من سماعها المروءات، وما كان من هجوم بعضهن على بعض وضربهن بالأحذية!». كتاب المرأة بين الفقه والقانون للدكتور السباعي، ص١٥٨ . الطبعة السادسة تاريخ ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م المكتب الإسلامي. مع الإشارة إلى أن المرحوم فارس الخوري كان قد اختير ثلاث مرات ـ بعد الاستقلال ـ رئيساً لمجلس الوزراء؛ وكان من أبرز رجالات سورية في تاريخها الحديث.

وأحياناً بالألاعيب! شأنه في ذلك شأن مذكراته المطوّلة كلها، تعرف منها وتنكر . . . وكان الله في عون المؤرخين.

٢ ـ الشيخ أحمد كفتارو:

بقي علينا أن نشير من صفحات هذه المعركة إلى ما ذكره الحوراني عن سبب انحياز **الشيخ أحمد كفتارو** فيها إلى جانب المالكي على الرغم من كل ما ذكرناه عنها وعن الجو الذي تمت فيه؛ قال السيد الحوراني: «كان الشيخ أحمد كفتارو يطمح إلى مركز الإفتاء للجمهورية السورية، وكان يأمل أن يصل في المستقبل إلى هذا المركز، فقمت بزيارته، وبحثنا معاً الوضع الانتخابي في دمشق، وضرورة تأييد المالكي ضد مرشح الإخوان المسلمين، فأبدى استعداده للمساهمة في المعركة، لأنه لم يكن على وفاق مع الإخوان المسلمين، وقد برّ الشيخ كفتارو بوعده».

يومئ الحوراني إلى أنهم (وعدوا) الشيخ بهذا المنصب . . في سياق حملة (تأمين) الأصوات الانتخابية للمالكي . . والتي اشتركت فيها حتى بعض السفارات كما أشرنا في موضع سابق. ولكن هذا ليس مهماً عندنا في هذا السياق، وفي وسع سماحة المفتي أن يسكت على هذا، أو أن يقوم بتصحيحه، والرد عليه إن شاء. ولكن الذي نحب أن نؤكد عليه أن كفتارو الداعية يختلف منهجه وأسلوب عمله عن الأستاذ السباعي، فضلاً عن الفروق البينة بين الشخصيات والطبائع . . ونحن نعتقد أن مواصفات الإسلام ـ العقلي والاجتهادي ـ الذي يدعو إليه السباعي يفترق عن مواصفات الإسلام ـ الصوفي والطُرُقي ـ الذي يمثّله أو يجسّده كفتارو. ولا أريد أن أذهب أبعد من ذلك، فأقول إن عروبة الشيخ السباعي الظاهرة أو شديدة البروز لم تكن تروق للشيخ كفتارو فيما يبدو! بدليل الصداقة التي كانت تربط هذا الأخير بالأمين العام للحزب الشيوعي خالد بكداش . . وهما أبناء حي واحد، وأرومتهما (الكردية) واحدة. وقد وصف الكاتب السيد عماد نداف ـ صاحب كتاب (خالد بكداش يتحدث) ـ الصداقة بين خالد بكداش والشيخ كفتارو بأنها «لم تكن صداقة عادية أو بروتوكولية كما يمكن أن يترامى إلى الذهن لأول وهلة» وهذا المعنى، أو هذا العامل، هو الذي حمله على الكتابة عن هذه الصداقة؛ قال: «وكان هذا العامل الأهم في الكتابة عنها، في وقت تغيب فيه مثل هذه الشخصيات عن الحياة يوماً بعد يوم، وخصوصاً بعد وفاة أكرم الحوراني

وخالد بكداش وغيرهما ممن عمّروا إلى أيامنا هذه»[١] .

وبهذه المناسبة، فقد أشار السيد نداف إلى مسألة الانتخاب هذه، فقال عن الشيخ كفتارو: «واشتهر أيضاً بأنه رجل دين وسياسي محنّك، منذ أن أيّد المرشح البعثي رياض المالكي ضد منافسه المرشح الشيخ مصطفى السباعي زعيم الإخوان المسلمين في سورية في الخمسينيات. وهذا كان يعني الكثير في ذلك الوقت، وتسبب بحملة تشهير واسعة من الإخوان المسلمين ضد الشيخ كفتارو ربما لم تنته إلى الآن»[٢] .

٣ ـ نشرات الشيوعيين:

ونشير أخيراً ـ بكلمات عابرة ـ إلى سيل الشتائم والأكاذيب التي حوتها نشرات الشيوعيين بحق الأستاذ السباعي، علماً بأن هذه النشرات كانت تدور في الغالب حول السباعي، فتطعن في علمه، وتكذبه في جهاده.. بل تسخر حتى من (تديّنه)!.. بحجة أنه تخلّى عن زي العلماء أو (رجال الدين) وذلك من أجل تشويه صورته عند بعض البسطاء[٣].. ولم تكن تلك النشرات تدور حول الدعاية (الإيجابية) للمالكي.. لقد بلغ الشيوعيون في إسفافهم يومذاك حداً دونه كل رقاعة وإسفاف! وفي وسع المؤرخ أن يعود إلى تلك النشرات ليتأكد من صحة ما نقول.. وهو إسفاف لا يشرّف الحوراني أو العسلي أو كفتارو أو الجبهة القومية، أو الميثاق القومي وحكومة التجمع!.

* * *

ويمكننا القول في نهاية المطاف إنه بانتهاء هذه المعركة الانتخابية انطوت صفحة حافلة من صفحات الأستاذ السباعي، وهي الصفحة السياسية والبرلمانية.. لتحل محلها وتطغى عليها حياة علمية زاخرة كما سنرى في الصفحات التالية.

---

(١) انظر مقالته بعنوان: «الشيوعي والشيخ في سورية، صداقة من نوع خاص» في العدد (١٢٧٥٧) تاريخ ٥/ ٢/ ١٩٩٨؛ من جريدة الحياة.

(٢) المقال السابق.

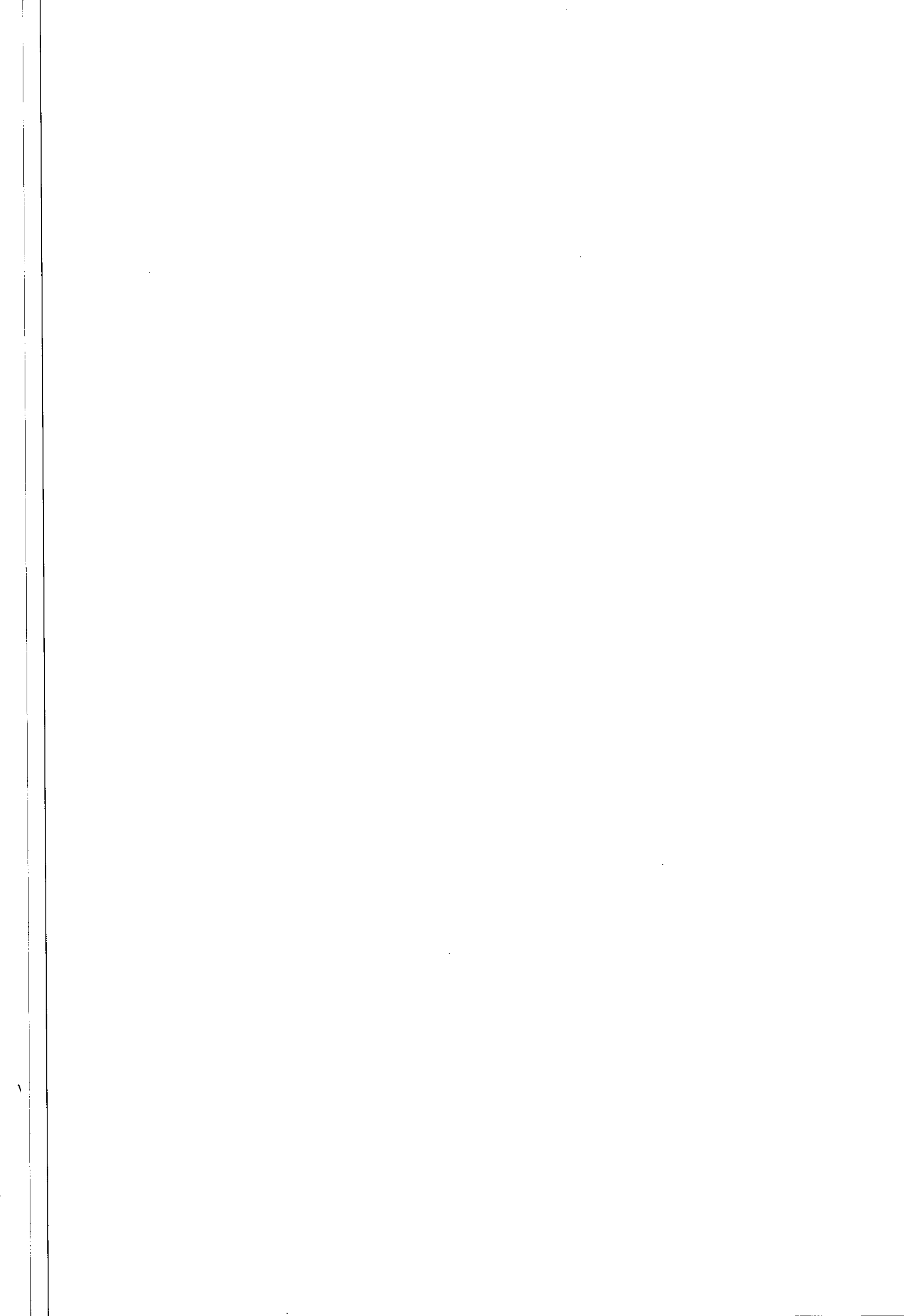
(٣) لا نعتقد على كل حال أن الأستاذ السباعي، وقد بدأ حياته العلمية والسياسية والدعوية، وهو يرتدي العمامة والجبّة (الشاميّين) وكان هذا زي المشايخ أو علماء الدين.. لا نعتقد أنه كان على صواب حين تخلّى عنه، بغضّ النظر عن الأسباب والدوافع.

والكلمة التي نختم بها هذا الفصل: أن السباعي كان رجل دعوة ورائد إصلاح، أي أنه كان أكبر من سياسي؛ ولم تكن السياسة أكثر من همٍّ واحد من همومه الكبيرة والكثيرة. وقد جاء على هذا النحو الواسع.. حتى كاد أن يجور على عمله (الدعوي) وتكريس بعض أساليبه، وتطوير بعضها الآخر في ضوء تطور الظروف والأحداث.

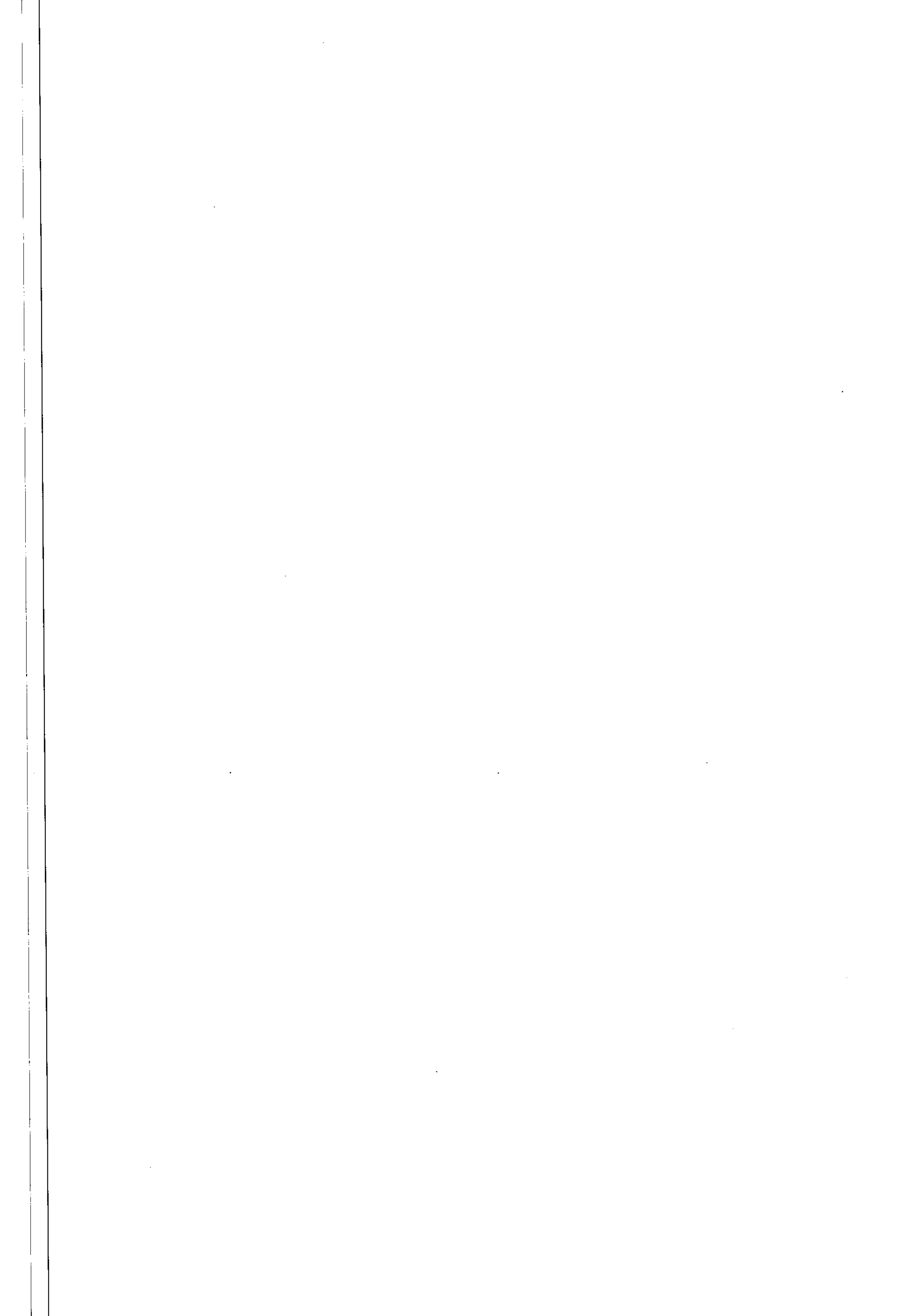
وإذا كان مثل هذا التطوير لا يقع عبئه على الأستاذ السباعي وحده؛ فإن من الملاحظ أنه ـ رحمه الله ـ بقي في إطار هذه الدعوة محور النشاط الفكري والثقافي؛ حيث لم ينقطع عن تأليف الكتب وإلقاء الأحاديث والمحاضرات.. ولم ينقطع عن تقديم الزاد الفكري لشباب الدعوة الإسلامية في حديث الثلاثاء من كل أسبوع.

حتى إذا فرغ من السياسة وأوهاقها لم يمهله المرض طويلاً حتى داهمه في شلل تشنّجي نصفي، كان يسبب له آلاماً حادّة! لقد كان مرضاً يشغل عن خاصّة النفس.. لولا البطولة والرجولة التي رأينا أنها كانت ناضجة في سن العشرين.. وهي تهيب بصاحبها اليوم ألا يلقي السلاح.. وقد فعل رحمه الله حين تفرَّغ للكتابة والتأليف، والمحاضرات والتدريس، كما سنرى في حياته العلمية الحافلة رحمه الله.

* * *



العَالِم وَالمؤَلِّفُ



العالِم والمؤلِّف

تحدثنا عن نشأته العلمية ودراسته في مصر، ونذكر هنا أنه توّج دراسته فيها بالحصول على شهادة (العالمية من درجة أستاذ) ـ الدكتوراه ـ في الفقه والأصول وتاريخ التشريع الإسلامي. وكانت رسالته بعنوان: (السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي). وقد فرغ من إعدادها في السادس من شهر رجب ١٣٦٨هـ الموافق للرابع من شهر أيار (مايو) ١٩٤٩. ولكنه لم يتمكن من مناقشتها إلا في ٢٤ من جمادى الآخرة ١٣٦٩ الموافق ١٢/ ٤/ ١٩٥٠م.

وكان في هذا الوقت عضواً في الجمعية التأسيسية (البرلمان) كما رأينا[١].

وقد عدّ هذه الرسالة أول مؤلفاته العلمية، كما أشار في (الإهداء) الذي صدر به الرسالة، وتقدم به إلى أبيه الشيخ حسني السباعي رحمه الله.

وتشير التواريخ المذكورة إلى أنه حين عاد إلى سورية، وقاد شباب محمد وجماعة الإخوان أولاً، ثم خاض معركة الجهاد في فلسطين وترشح عن مدينة دمشق.. كان قد فرغ من بعض مراحل الدراسة العليا في مصر. أما إعداد الأطروحة الجامعية، أو متابعة هذا الإعداد فقد قام به في وقت لاحق.

ويبدو أن كثرة مشاغله والأعباء التي كان ينهض بها لم تتح له الفرصة لهذا الإعداد.. بل إنها شغلته حتى عن خاصّة نفسه! فهو لم يتزوج إلا في الخامسة والثلاثين، وفي الوقت الذي كان مراقباً عاماً للإخوان، وعضواً في الجمعية التأسيسية ومحاضراً في كلية الحقوق.

ولهذا فقد عاد مرة ثانية إلى مصر ـ بعد سبع سنوات مرت على ترحيله عنها من قبل السلطات البريطانية[٢] ـ وكان ذلك في أواخر عام ١٩٤٨م بعيد إقدام حكومة مصر على حل جماعة الإخوان المسلمين في مصر، والذي تم وكتائبهم

---

(١) ولما عاد إلى دمشق ـ عن طريق ميناء بيروت ـ بعد مناقشة رسالته خرجت أحياء دمشق ووفود كبيرة من المحافظات لاستقباله، كما حدثني بعض الأقارب من رجالات حي الميدان بدمشق.

(٢) انظر كتابه: السنة، ص٢١.

ما تزال في فلسطين كما أشرنا إلى ذلك في موضع سابق[1].

وقد ذكر الأستاذ السباعي أنه كان «على مقربة من حسن البنا في أيام محنته الأخيرة، ثم في أيام استشهاده..»[2]. أي أنه كان في القاهرة خلال الفترة التي أعقبت حل الجماعة، وحين تم اغتيال حسن البنا في الثاني عشر من شباط (فبراير) ١٩٤٩م. بل إنه تعرَّض للملاحقة بعد هذا الاغتيال، فتوارى عن الأنظار فترة قبل أن يتمكن من بعض الحركة والتنقل بسبب تخلّيه عن زيّه المعهود ـ العِمّة والجبّة الشاميّين وعنايته الشديدة بلباسه (الإفرنجي)! ـ وبفضل ملامحه ـ وشُقرته ـ التي ساعدته على أن لا يكون مطلوباً أو معروفاً من قبل البوليس المصري.

وقد أشار الأستاذ الدكتور محمد أديب صالح في المقدمة التي صُدِّرت بها الطبعة الثانية للأطروحة المذكورة إلى تلك الظروف، فقال: «ولعل من الإنصاف أن أشير إلى أن الأستاذ رحمه الله قد ألّف الكتاب في ظروف قاسية شهدها الذين

---

(١) معلوم أن حكومة النقراشي هي التي نفذت الأمر، فأصدرت قرارها بحل الجماعة ومصادرة جميع مؤسساتها التعليمية والخدمية، وقام البوليس السياسي باعتقال الآلاف من شباب الإخوان، وأعيد المتطوعون من ميادين الجهاد في فلسطين إلى السجون والمعتقلات. انظر مقالة بعنوان: «بعض الذكريات عن الإمام الشهيد حسن البنا» للكاتب الأستاذ عمر عودة الخطيب. مجلة حضارة الإسلام، ص٢٦ ـ العدد (٨) من السنة ٣ في آذار (مارس) ١٩٦٣؛ وراجع فيما سبق ص٢١٤.

(٢) انظر كتابه: عظماؤنا في التاريخ، ص٢٤٧. ويبدو أن الأستاذ السباعي توجّه إلى القاهرة بعد عودته من فلسطين، وفراغه من المحاضرات التي ألقاها في مختلف المدن السورية، معرّفاً الجمهور بحقيقة أوضاع القضية الفلسطينية ـ كما تحدثنا عن ذلك فيما سبق ـ وذكر الأستاذ الشيخ منّاع القطّان رحمه الله أنه التقى بالأستاذ السباعي أول مرة في القاهرة عام ١٩٤٨م وقال: «حين امتحنت الدعوة الإسلامية في عهد فاروق، ونزل برجالها من عسف وتعذيب وسجن وقتل وتشريد، حيث كان السباعي رحمه الله في آخر مرحلته الدراسية يقدم رسالته للحصول على الشهادة العالمية بدرجة أستاذ، وكان يسكن مع زملاء له في كلية أصول الدين من سورية». ويضيف الشيخ مناع أن الإمام الشهيد حسن البنا كلّفه أن يتصل بالأستاذ السباعي ليلتقي مع البنا في دار الشبان المسلمين ضحى يوم معين، وقد استشهد البنا بعد هذا اللقاء بيومين. قال الأستاذ الشيخ مناع رحمه الله: «وتحدّث معي السباعي في الكارثة، وعرض الحلول، فلمحت فيه بريق الذكاء، ودقة الملاحظة، وبُعد النظر، وشدة الحذر، وخفة الروح، ولطف الدعابة». مجلة حضارة الإسلام: العدد الخاص، ص٢٣٥ نقلاً عن صحيفة (الجزيرة) السعودية: العدد (١٩).

كانوا يسكنون معه في القاهرة من إخوانه، حين اضطرته تلك الظروف وهو يجمع المادة العلمية للموضوع أن يغادر الشقة إلى مكان آخر، حيث لا يجد المراجع إلا بصعوبة، ويتصل ببعض أساتذته بصعوبة أشد»[1].

وقد أشار الأستاذ السباعي إلى هذا ـ باقتضاب ـ في التمهيد الذي كتبه لهذه الرسالة، في طبعتها الأولى عام ١٣٧٩هـ ـ ١٩٦٠م، فقال: إنه ألف هذا الكتاب: «في ظروف صعبة كانت تضّطره إلى الإيجاز في كثير من الأبحاث»، وقد عرض في التمهيد المذكور للدفاع عن السنّة في وجه الشبهات والمطاعن التي أثارها محمود أبو رية، في كتابه الذي أسماه: (أضواء على السنة المحمدية) وعوّل فيها على آراء الشيعة والمعتزلة والمستشرقين، الأمر الذي اضطر معه الأستاذ رحمه الله إلى بيان موقف هؤلاء ـ وأمثالهم ـ من السنة.

١ ـ كتاب «السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي» ومكانته العلمية:

مايزال الباحثون والدارسون منذ أن نشر هذا الكتاب يعوّلون عليه ويرجعون إليه في التأريخ العلمي للسنّة النبوية، وفي بيان حجيّتها، وفي الدفاع عنها في وجه الشبهات والمطاعن أو الأعاصير التي قامت في وجهها قديماً وحديثاً أو في مختلف العصور. قال الأستاذ أبو الحسن الندوي: «وكتاب صديقنا المجاهد الداعية مصطفى السباعي: (السنّة..) هو أفضل ما كتب في الموضوع وأجمعه»[2]. **قلت**: وبخاصة في قضية الدفاع عن السنة وتنزيهها، وتنزيه كبار رواتها مثل الصحابي الجليل أبي هريرة.. عن المطاعن.

وكان من الملاحظ أن بعض هؤلاء الباحثين أفاد من ردود الأستاذ السباعي وأفكاره دون أي إحالة أو عزو.. وقد ساعدهم علي ذلك: أن هذه الأفكار والردود أفاد منها، ونقل عنها ـ بنحو هذه الطريقة ـ مؤلّفو الكتب التعليمية سواء منها كتب الثقافة الإسلامية، أو كتب السنة ومصطلح الحديث.

يقول الأستاذ الدكتور محمد رجب بيومي: إن الأستاذ السباعي بلغ في هذا الكتاب «مبلغاً كان السابق المجلّي فيه، حيث تبعه كثير من الباحثين حين لمسوا

---

(١) صفحة (و) من الطبعة الثالثة ببيروت تاريخ ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.

(٢) الإسلام والمستشرقون للأستاذ أبي الحسن الندوي. طبع المجمع الإسلامي العلمي (ندوة العلماء) لكنو ـ الهند ١٩٨٢م.

سلامة المنهج، وقوة الاستنتاج، ووضوح الدليل» قال: «وهذا نجاح لا يتحقق إلا بتوفيق كبير من الله، فهو الملهم إلى الصراط القويم»[1].

أما الأستاذ السباعي رحمه الله فإن الذي أنضج عنده (بحوث) هذا الكتاب: تنبهه المبكر لأخطاء المستشرقين وشبههم التي أثاروها حول السنة النبوية.. وكيف أن هذه الأخطاء والشبهات وجدت طريقها إلى بعض أساتذته في الأزهر.. وفي هذا يحدثنا الأستاذ رحمه الله فيقول: «لما كنا طلاباً في السنة الثانية والثالثة في قسم تخصص المادة في الفقه والأصول وتاريخ التشريع في كلية الشريعة، وكان ذلك عام ١٩٣٩م، عينت مشيخة الأزهر في عهد الشيخ المراغي رحمه الله الدكتور علي حسن عبد القادر أستاذاً لنا يدرّس تاريخ التشريع الإسلامي، وكان قد أنهى دراسته في ألمانية حديثاً.. وكان أول درس تلقيناه عنه أن بدأه بمثل هذا الكلام: إني تعلمت في الأزهر قرابة أربعة عشر عاماً فلم أفهم الإسلام! ولكني فهمت الإسلام حين دراستي في ألمانية».

يقول الأستاذ السباعي: «فعجبنا ـ نحن الطلاب ـ من مثل هذا القول، وقلنا فيما بيننا: لنستمع إلى أستاذنا لعله حقاً قد علم شيئاً جديراً بأن نعلمه عن الإسلام مما لا عهد للأزهر به. وابتدأ درسه عن تاريخ السنة النبوية ترجمة حرفية عن كتاب ضخم بين يديه، علمنا فيما بعد أنه كتاب جولد زيهر (دراسات إسلامية) وكان أستاذنا ينقل عباراته ويتبنّاها على أنها حقيقة علمية، واستمرّ في دروسه نناقشه فيما يبدو لنا ـ نحن الطلاب ـ أنه غير صحيح، فكان يأبى أن يخالف جولد زيهر بشيء مما ورد في هذا الكتاب. حتى إذا وصل في دروسه إلى الحديث عن الزهري، واتهامه بوضع الأحاديث للأمويين، ناقشته في ذلك ـ بحسب معلوماتي المجملة عن الزهري من أنه إمام في السنة، وموضع ثقة العلماء جميعاً ـ فلم يرجع عن رأيه، مما حملني على أن أطلب منه ترجمة ما قاله جولد زيهر عن الزهري تماماً، فترجمه لي في ورقتين بخط يده. وبدأت أرجع إلى المكتبات العامة للتحقق من سيرة الزهري، وفي حقيقة ما اتهمه به هذا المستشرق، ولم أترك كتاباً مخطوطاً في مكتبة الأزهر، وفي دار الكتب المصرية من كتب التراجم إلا رجعت إليه ونقلت منه ما يتعلق بالزهري.. فلما تجمعت لدي المعلومات الصحيحة، قلت لأستاذنا الدكتور عبد القادر: لقد تبيّن لي أن جولد زيهر قد حرّف نصوص

---

(١) مصطفى السباعي بأقلام محبيه وعارفيه، ص٢٧٦.

الأقدمين فيما يتعلق بالزهري، فأجابني بقوله: لا يمكن هذا! لأن المستشرقين ـ وخاصة جولد زيهر ـ قومٌ علماء منصفون، لا يحرفون النصوص ولا الحقائق! . . ».

يقول الشيخ رحمه الله: «عندئذٍ أزمعت على إلقاء محاضرة في الموضوع في دار جمعية الهداية الإسلامية ـ قرب سراي عابدين قديماً ـ وأرسلت إدارة الجمعية بطاقات الدعوة لهذه المحاضرة إلى علماء الأزهر وطلابه، فاجتمع يومئذ عدد كبير منهم ما بين أساتذة وطلاب، ومن بينهم أستاذنا الدكتور علي عبد القادر الذي رجوته حضور هذه المحاضرة، وإبداء رأيه فيما أقول، فتفضل مشكوراً بالحضور، وأصغى إلى المحاضرة كلها التي كانت تدور حول ما كتبه جولد زيهر عن الإمام الزهري، وختمتها بقولي: هذا هو ما أراه في هذا الموضوع، وهذا هو رأي علمائنا في الزهري، فإن كان لأستاذنا الدكتور عبد القادر مناقشة حول هذا الموضوع إن لم يقتنع بما ذكرته، فأرجو أن يتفضل بالكلام. فنهض الدكتور حفظه الله وقال بصوت سمعه الحاضرون جميعاً: إني أعترف بأني لم أكن أعرف من هو الزهري حتى عرفته الآن، وليس لي اعتراض على كل ما ذكرته، وانفض الاجتماع. ثم دخلنا إلى غرفة الأستاذ السيد محمد الخضر حسين رحمه الله رئيس الجمعية ـ الإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر فيما بعد ـ فكان مما قاله لي أستاذنا الدكتور حفظه الله، وكان ذلك بحضور السيد الخضر حسين رحمه الله: إن بحثك هذا فتح جديد في بحوث المستشرقين، وأرجو أن تعطيني نسخة من هذه المحاضرة لأبعث بها إلى المجلات العلمية التي تعنى ببحوث المستشرقين في ألمانية، وإني أعتقد أنها ستحدث دوياً في أوساط المستشرقين، فشكرته على ذلك واعتبرته تشجيع أستاذ لتلميذه».

ويضيف الأستاذ رحمه الله: «وبعد أيام دعاني لزيارته في البيت، فكان مما اتفقنا عليه أن نتفرغ معاً في الصيف لترجمة كتاب جولد زيهر والرد عليه، ولكنني اعتقلت بعد ذلك من قبل السلطات العسكرية الإنكليزية في القاهرة في بدء قيام الحرب العالمية الثانية، وأقصيت عنها سبع سنوات، وفي خلال هذه الفترة أصدر الدكتور عبد القادر كتابه (نظرة عامة في تاريخ الفقه الإسلامي) ولم يتح لي الاطلاع عليه إلا بعد ثلاث سنوات حين أفرج عني في أواسط الحرب الأخيرة»[1].

---

(١) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، ص١٩ ـ ٢١، الطبعة الثالثة ببيروت تاريخ ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.

وهكذا كان التأريخ للسنة وتنزيهها عن مثل هذه الشبهات والشكوك دافعه لاختيار الموضوع المذكور موضوعاً لرسالته الجامعية! لا غرو أن ردوده على المستشرقين فيها جاءت على درجة عالية من النضج والتمحيص. بل إن الأستاذ أضاف إلى هذه الرسالة عند الطبع ملاحظات إضافية مهمة حول الاستشراق والمستشرقين ارتقت بتلك الردود إلى درجة الكمال المستطاع. وقد أفاد هو هذه الملاحظات المهمة أثناء زيارته لعدد كبير منهم خلال رحلته العلمية التي قام بها بتكليف من الجامعة السورية (جامعة دمشق فيما بعد) عام ١٩٥٦م. فقد أوفدته الجامعة في العام المذكور لزيارة الجامعات الغربية والاطلاع على مناهج الدراسات الإسلامية فيها، ووصفها هو نفسه بأنها (رحلة استطلاعية للجامعات والمكتبات العامة)؛ فزار كلاً من تركية وإيطالية وبريطانية وإيرلندة واسكتلندة وبلجيكة وهولندة والدانمرك والنرويج والسويد وفنلندة وألمانية والنمسة وسويسرة وفرنسة[١]. وبدأ بتركية حيث وصل إلى إستانبول يوم الأربعاء في ٤/ ٤/ ١٩٥٦م وغادرها في ١٥/ ٤/ ١٩٥٦م إلى رومة[٢]..

وقد أتاحت له هذه الرحلة العلمية التي استغرقت نحواً من أربعة أشهر، فرصة الالتقاء بعدد كبير من المستشرقين ومحاورتهم ومجادلتهم بشأن التاريخ الإسلامي والحضارة والثقافة الإسلامية. وقد أشار في كتابه (السنة) إلى طرف من تلك المجادلات مع نفر منهم، مثل (أندرسون) من معهد الدراسات الشرقية بجامعة لندن، و(آربري) من جامعة كمبردج، و(روبسون) من جامعة مانشستر، و(نيبرج) من جامعة أبسلا بالسويد، والمستشرق اليهودي (شاخْت) في جامعة

---

(١) حضارة الإسلام: مقالة الأستاذ الأسطواني: مرجع سابق، ص١٥٣. وانظر كتاب السنة الذي نتحدث عنه ص١٢ فما بعدها. وقد زار في بريطانية واسكتلندة كلاً من جامعة لندن وجامعة أكسفورد، وجامعة كامبردج، وجامعة مانشستر، وجامعة أدنبره، وجامعة جلاسكو.

(٢) جريدة الشهاب: العدد (٥٢) تاريخ ٢٦ رمضان ١٣٧٥هـ الموافق ٦/ ٥/ ١٩٥٦م وقد بقي في رومة ثلاثة أيام، وغادرها إلى لندن حيث وصلها في ٧ رمضان الموافق ١٨ نيسان حيث استغرقت زيارته للجامعات البريطانية أكثر من شهر. وانظر حواره مع الدكتور (ماثيوس) فيلسوف الكنيسة الإنكليزية في العدد (٥٨) من جريدة الشهاب تاريخ ١٥ ذي القعدة ١٣٧٥هـ الموافق ٢٤/ ٦/ ١٩٥٦م؛ وانظر كذلك رسالته من لندن إلى الأستاذ الداعية أبي الحسن الندوي، والمؤرخة في ٩ شوال ١٣٧٥هـ و٢٠ أيار (مايو) ١٩٥٦.

ليدن . . وغيرهم[1] .

وأخيراً، فإن هذا الكتاب القيم يتجلّى فيه أمران: الأول: الاطلاع الواسع على الكتب والمصادر، مع حسن الإفادة و(التوظيف) لما انطوت عليه من نصوص وآراء. الأمر الثاني: الملكة النقدية التي تمتع بها المؤلف، والتي دلَّت على آفاقه الفكرية والعقلية. وربما أمكننا عزو المكانة التي تمتع بها الكتاب ـ في المقام الأول ـ إلى هذين الأمرين، أو إلى الجمع بينهما في وقت واحد[2] .

* * *

---

(١) السنة، ص١٢ ـ ١٦ .

(٢) راجع على سبيل المثال ردوده على شبه مؤلف (فجر الإسلام) على أبي هريرة: الصفحات ٢٩٨ ـ ٣١٩ .

موقف الشيعة من الحديث: السباعي وقضية التقريب

أشـرنا قبل قليل إلى أنَّ أبو ريّـة الذي ردّ عليه الأستاذ السباعي طعنه على السنة عوّل على مصادر الشيعة كما اعتمد على كتب المستشرقين؛ الأمر الذي اضطره للحديث عن موقف الشيعة من الحديث. ولكنه أشار إلى أنَّ هذا البحث جاء أولاً: «في حدود النطاق العلمي التاريخي. وحقائق التاريخ لا مجاملة في الحديث عنها حين يكون المجال مجال علم ودراسة وتحقيق». كما جاء ثانياً «لتصحيح الأخطاء التاريخية التي استمدها من كتب الشيعة»[1].

وقد مهَّد لذلك كله بكلمة صريحة حول أسباب الشقاق وعوامل التقريب بين السنة والشيعة.. وكانت كلماته ـ رحمه الله ـ تنضح بالإخلاص والتجرد، والرغبة الصادقة في طي صفحات الماضي! لقد رفض بشدّة الطعن في صحابة رسول الله ﷺ! قال: «وأعتقد أن جمهور المسلمين ـ وهم أهل السنة ـ كانوا أكثر إنصافاً وتأدباً مع صحابة رسول الله ﷺ، وهم الذين أثنى الله عليهم في كتابه ورضي عنهم، ونوّه بفضلهم في الهجرة والنصر، فليس من الجائز ولا المعقول ولا اللائق بكرامة دين الله ورسوله ﷺ أن ينقلب هؤلاء الأصحاب بعد وفاة الرسول إلى الحالة التي تصورهم بها مصادر الشيعة..»[2].

وتحدث بعد ذلك عن ضرورة «**توحيد كلمة المسلمين على أمر سواء، وإعادة النظر في كل ما خلفته معارك الماضي من أحاديث مكذوبة على صحابة رسول الله وأصفيائه، وحملة شرعه وحاملي لوائه**».

وأشار إلى أن علماء السنة أخذوا بالتقارب عملياً «فاتجهوا إلى دراسة فقة الشيعة ومقارنته بالمذاهب المعتبرة عند الجمهور» قال رحمه الله: «وقد أُدخلتْ هذه الدراسة المقارنة في مناهج الدراسة في الكليات وفي كتب المؤلفين في الفقه الإسلامي، وإنني شخصياً ـ منذ بدأت التدريس في الجامعة ـ أسير على هذا النهج

---

(١) المصدر السابق، ص١٠ ـ ١١.

(٢) المصدر السابق، ص٧ ـ ٨.

في دروسي ومؤلفاتي» ولكنَّ أكثر علماء الشيعة ـ في المقابل ـ لم يفعلوا شيئاً. قال: «وكل ما فعلوه جملة من المجاملة في الندوات والمجالس، مع استمرار كثير منهم في سبّ الصحابة وإساءة الظن بهم، واعتقاد كل ما يروى في كتب أسلافهم من تلك الروايات والأخبار، بل إن بعضهم يفعل خلاف ما يقول في موضوع التقريب! . .».

يقول: «في عام ١٩٥٣ زرت عبد الحسين شرف الدين في بيته بمدينة (صور) في جبل عامل، وكان عنده بعض علماء الشيعة، فتحدثنا عن ضرورة جمع الكلمة، وإشاعة الوئام بين فريقي الشيعة وأهل السنة، وأن من أكبر العوامل في ذلك أن يزور علماء الفريقين بعضهم بعضاً، وإصدار الكتب والمؤلفات التي تدعو إلى هذا التقارب، وكان عبد الحسين رحمه الله متحمساً لهذه الفكرة ومؤمناً بها. وتم الاتفاق على عقد مؤتمر لعلماء السنة والشيعة لهذا الغرض، وخرجت من عنده وأنا فرحٌ بما حصلت عليه من نتيجة، ثم زرت في بيروت بعض وجوه الشيعة من سياسيين وتجار وأدباء لهذا الغرض، ولكن الظروف حالت بيني وبين العمل لتحقيق هذه الفكرة، ثم ما هي إلا فترة من الزمن حتى فوجئت بأن عبد الحسين أصدر كتاباً في الصحابي أبي هريرة مليئاً بالسباب والشتائم». وقد انتهى فيه إلى القول «بأن أبا هريرة ـ رضي الله عنه ـ كان منافقاً كافراً، وأن رسول الله ﷺ قد أخبر عنه بأنه من أهل النار»[1].

وأذكر ـ بهذه المناسبة ـ أن الأستاذ السباعي طلب مني ذات يوم أن أعرّف على صفحات مجلته (حضارة الإسلام) بكتاب عنوانه (أبو هريرة راوية الإسلام) صدر في القاهرة لأحد الزملاء، وكان ذلك عام ١٩٦٣م. ولما قرأت الكتاب هالني ما نقله المؤلف عن الشيخ عبد الحسين هذا من أقوال شنيعة في حق راوية الإسلام. . فعرَّضت به في المقالة التي كتبتها بعبارات حادّة، فلما اطّلع الأستاذ السباعي على هذه المقالة لامني بشدة[2]. وذكر لي ما كان من زيارته له،

---

(١) المصدر السابق، ص٨ ـ ٩. وتندرج محاولة السباعي هذه للتقريب بين السنة والشيعة في إطار نشاطه في لبنان حين خرج إليه إبّان حكم العقيد الشيشكلي. وقد أشرنا إلى هذا الخروج في صفحات سابقة.

(٢) انظر العدد الخامس من السنة الرابعة، ص٨١ تاريخ رجب ١٣٨٣هـ الموافق كانون الأول (ديسمبر) ١٩٦٣م.

وما جرى بينهما من حديث التقريب. . وقال: لا يليق في جميع الأحوال أن ننزل إلى مستوى التجريح والمهاترات. .

ولهذا فقد تعجب رحمه الله من موقف عبد الحسين (في كلامه وفي كتابه). وقال في هذا الموقف إنه لا يدل على رغبة صادقة في التقارب ونسيان الماضي. . خصوصاً وأن موقفاً قريباً أو مماثلاً ما يزال يتخذه فريق دعاة التقريب من علماء الشيعة: يقول الأستاذ السباعي: «إذ هم بينما يقيمون لهذه الدعوة الدور، وينشئون المجلات في القاهرة، ويستكتبون فريقاً من علماء الأزهر لهذه الغاية، لم نر أثراً لهم في الدعوة لهذا التقارب بين علماء الشيعة في العراق وإيران وغيرهما. .». ثم قال تعقيباً على كتاب (أبي هريرة) المذكور: إنه لا يحصر المثال بهذا الكتاب «فهنالك كتب تطبع في العراق وفي إيران، وفيها من التشنيع على عائشة أم المؤمنين، وعلى جمهور الصحابة ما لايحتمل سماعه إنسان ذو وجدان وضمير»[1].

بل لقد قال لي مرة في لحظة من لحظات اليأس والغضب: إن مفهوم (التقريب) عندهم هو تقريب السنة من الشيعة! أي وليس التقارب المبني على البحث الموضوعي، والمستند إلى شواهد العقل وحقائق التاريخ.

مساجلة علمية:

ونذكر هنا أنه قد جرى التعريض مرّة بما كتبه حول موقف الشيعة من الحديث، وبموقفه من قضية التقريب، بل بلغ الأمر إلى حدِّ اتهامه بأنه (يتلاعب بالسنة للنيل من الطوائف الأخرى) كما اتُّهم معه صاحب مجلة (المسلمون) ـ حين كانت تصدر في القاهرة ـ بأنه (يبذر السموم في مجلّته) لأن بعض المقالات التي كتبها السباعي فيها حول الحديث النبوي دافعت عن رأي أهل السنة الرافض لبعض الأحاديث التي يعوّل عليها الشيعة.

ونثبت فيما يلي خلاصة الرسالة التي تضمنت هذه الاتهامات، ثم نعقب عليها برد الأستاذ السباعي، ونكون بهذا قد جلّينا موقفه من قضية التقريب، من جهة ـ علماً بأنه قد مضى على هذا الموقف نحو نصف قرن ـ في الوقت الذي يقفنا هذا الرد على طرفٍ من آفاق السباعي العلمية والموضوعية، ويعطينا صورة من

---

(١) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، ص١٠.

(أدبه) في الردود والمناقشات من جهة أخرى. وسوف نستغني بهذا عن عقد فقرة خاصة لهذا النوع من أدبه في الصفحات القادمة.

قال محرر مجلة المسلمون[1]: «بعث إلينا فضيلة الأستاذ السيد تقي الدين القمي بهذه الرسالة التي جاءته من السيد محمد حسن الحسيني:

تحية إسلامية مباركة.. كنا نودّ أن نكاتبكم في غير ما نتناوله الآن، كنا نود أن نكاتبكم في معاني الود والإخاء التي رأينا آثارها بين زعماء المسلمين ممن عرفوا رسالة التقريب، بل كنا نود أن نكاتبكم عن المؤلفين وأصحاب الصحف الذين اعتنقوا هذه الفكرة وسخروا أقلامهم لخدمة تلك المعاني السامية. إلا أنه لايزال مع الأسف بعض أقلام لا تؤدي لهذه الرسالة حقها، بل وتنتهز كل فرصة للنيل من الغير، وهي وإن لم تكن تجرؤ على مهاجمة الغير بصورة طائفية فإنها تنال من مبادئهم أو ما هو ثابت عندهم؛ من ذلك ما قرأته في مجلة (المسلمون) بعنوان السنّة، وهي مجلة تطبع في مصر البلد الذي فيه المركز العام لجماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية الموقرة، مجلة نعتبرها امتداداً لمجلة الشهاب للمغفور له الشهيد حسن البنا أحد الأعضاء المؤسسين لجماعة التقريب، تلك الجماعة المؤلفة من مذاهب أهل السنة ومن الإمامية والزيدية من الشيعة، مجلة بمقتضى اسمها تعتبر للمسلمين عامة لا لطائفة خاصة؛ فما أغرب أن نجد فيها مقالات في السنة كنا نود أن تكون لا تسيء إلى شعور الآخرين.

«ولا أعرف أي داعٍ أو سببٍ خفيّ يجعل الكاتب حين يذكر الأحاديث غير المعتبرة أو على حد قوله الموضوعة (!!) يمثل بحديث الغدير. وإليك ملخص ما يقول: «وما وجدنا قط رواية عن أحد في هذا النص البدعي إلا رواية واهية عن مجهول إلى مجهول يكنى أبا الحمراء لا نعرف من هو في الخلق» هذا بجانب ذكر كلمات مثل الرافضة... وكاتب المقال يرى انفراد الرافضة (كذا) بنقل الحديث دون جماهير المسلمين دليلاً على كذبهم فيه... نريد أن نلفت نظر صاحب مجلة (المسلمون) بأن يدقق في مقالات تصله ولا يسمح ببذر السموم في مجلته.

حديث خم لا تنفرد به طائفة دون أخرى، وليس راويه مجهول نقل عن مجهول». اهـ.

---

(١) مجلة (المسلمون) العدد السادس من السنة الثانية، نيسان (إبريل) ١٩٥٣، ص٨٢ـ٨٧.

ثم نقل جزءاً مما كتب حول هذا الحديث وعن رواته، قال: «**ليعلم كاتب المقال أن الحديث يكاد يكون كالمتواتر**». وقد استشهد في هذا السياق «بمحمد ابن جرير الطبري صاحب التفسير والتاريخ المشهورين، وبكل من الحافظ الذهبي وابن عقده في «كتابه القيم: فتح الملك العليّ بصحة حديث باب مدينة العلم عليّ» ـ على حد قوله ـ والإمام أحمد في مسنده وأبي إسحاق الثعلبي في تفسيره، وبغضّ النظر عن خلطه في هذا الاستشهاد بين حديثين، وعن بعض الروايات التي عوّل فيها على مصادر مجهولة أو لا يُعتدّ بها عند أهل السنة.

قال المحرر:

وقد كتبنا إلى فضيلة الأستاذ **الشيخ مصطفى السباعي** فتفضل مشكوراً بهذا الجواب:

«تعرضت في المقالة السادسة من مقالات السنة، وهي المنشورة في العدد السادس من السنة الأولى من مجلة (المسلمون) للبواعث التي أدت إلى وضع الحديث والكذب فيه. وذكرت من جملة البواعث: الاختلافات السياسية التي وقعت في عهد الصحابة فمَن بعدهم.. وقلت حينئذ: ومن أمثلة ما وضعوه من الأحاديث حديث الوصية في غدير خُمّ، وخلاصته أن النبي ﷺ في رجوعه من حجة الوداع جمع الصحابة في مكان يقال له غدير خُم، وأخذ بيد علي رضي الله عنه ووقف به على الصحابة جميعاً وهم يشهدون وقال: «هذا وصيِّي وأخي والخليفة من بعدي فاسمعوا له وأطيعوا» ثم قلت: **وهو حديث مكذوب بلا شك وضعته الرافضة وسيأتي بيان كذبه**».

وفي المقالة الثامنة المنشورة في العدد الثامن من أعداد السنة الأولى تعرضت لعلامات الوضع في الحديث، وذكرت من علامته أن يتضمن الحديث أمراً من شأنه أن تتوفر الدواعي على نقله لأنه وقع بمشهد عظيم ثم لا يشتهر ولا يرويه إلا واحد، وبهذا حكم أهل السنة على حديث غدير خم (وهو الذي ذكرت نصه في المقالة السابقة) بالوضع والكذب، قال العلماء: إن من أمارات الوضع في هذا الحديث أن يصرح بوقوعه على مشهد من الصحابة جميعاً ثم يقع بعد ذلك أن يتفقوا جميعاً على كتمانه حين استخلاف أبي بكر رضي الله عنه، ومثل هذا بعيد ومستحيل في العادة؛ ثم نقلت قول ابن تيمية: «إن هذا النص لم يبلغه أحد بإسناد صحيح فضلاً عن أن يكون متواتراً» ونقلت قول **ابن حزم**: «ما وجدنا قط

رواية عن أحد في هذا النص المدَّعى إلا روايةً واهية عن مجهول إلى مجهول يُكنى أبا الحمراء لا نعرف من هو في الخلق».

وبهذا يتبين أن الحديث الذي نقلت أقوال العلماء بتكذيبه هو الذي ورد فيه النص على استخلاف علي رضي الله عنه على ملأ من جمهور الصحابة في غدير خم، وهذا ما لم يرد في كتاب من كتب السنة المعتمدة عند علماء الحديث، وهو عندي مكذوب لاشك فيه إذ لم نجد أحداً من الصحابة ـ حتى علياً رضي الله عنه ـ استشهد به في أحاديث السقيفة فما بعدها يوم استُخلف أبو بكر رضي الله عنه، ولو صح أن النبيَّ أوصى في غدير خم بالخلافة صراحة إلى علي لما خفي ذلك على الصحابة بعد وفاته، ولما أمكن في نظر العقل أن يتواطؤوا جميعاً على كتمانه، **ويوافقنا في هذا الرأي أفاضل علماء الشيعة ومنصفوهم**، فقد قال ابن أبي الحديد: «واعلم أن الآثار في هذا الباب ـ في خلافة الرسول بعد وفاته ـ كثيرة جداً، ومن تأملها وأنصف علم أنه لم يكن هناك نص صريح». إلى أن قال: «**ولا ريب أن المنصف إذا سمع ما جرى لهم بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله يعلم قطعاً أنه لم يكن هذا النص**[1]».

أما ما أشار إليه الفاضل «**محمد حسن الحسيني**» في اعتراضه من أنه حديث مشهور أفرد له الطبري مؤلفاً خاصاً ورواه من خمسة وتسعين طريقاً، فهو حديث آخر روته كتب السنة، **وهو بلفظ يختلف تماماً عن الحديث الذي حكمنا بوضعه، ولفظه: «من كنتُ مولاه فعليٌّ مولاه» وهذا هو الذي صححه الذهبي وغيره، وادعى السيوطي أنه متواتر**. ونحن نقول به ونشهد أن علياً رضي الله عنه مولانا وإمامنا وابن عم رسولنا ﷺ.

وأريد أن أصحح ما ورد في اعتراض الفاضل الشيعي من أن ابن جرير الذي ألف كتاباً في هذا الحديث هو ابن جرير المشهور صاحب التاريخ والتفسير المشهورين، فهذا وهمٌ وخطأ، بل **محمد بن جرير هذا هو غير ابن جرير المشهور**، وهو كما يقول ابن أبي الحديد عنه من رجال الشيعة، وأظن أن أمه من بني جرير من مدينة أهل طبرستان، وبنو جرير الآمليون شيعة مشتهرون بالتشيع، فنسب إلى أخواله، ويدل على ذلك شعر مروي له وهو:

---

(١) شرح نهج البلاغة: ١/ ١٣٥.

فــآمــل مــولــدي وبنــو جــريــر فــأخــوالــي ويحكــي المــرء خــالــه
فمـــن يـــك رافضيـــاً عـــن أبيـــه فـــإنـــي رافضـــيٌّ عـــن كـــلالـــه[1]

وبهذا يتبين أن ما ادّعاه الأخ المعترض من أننا «نتلاعب بالسنة للنيل من الطوائف الأخرى، وأننا ننشر السموم ونعمل على التفرقة» غير صحيح، بل هو الذي تلاعب بكلامنا وادّعى أن الحديث الذي حكم العلماء بوضعه، حديث صحيح مشهور بل متواتر، **فَمَن المتلاعب بالسنة ومن الذي ينال من الطوائف الأخرى؟!**

أما ذكر «**الرافضة**» في صدد بحث علمي لا علاقة له بالسياسة ولا بالعاطفة، فهو اصطلاح خاص يطلق على غلاة الشيعة الذين كفَّروا أبا بكر وعمر وعثمان وأبا عبيدة وعبد الرحمن بن عوف وجمهور الصحابة، ولم يستثنوا من الكفر إلا خمسة أو ثلاثة عشر منهم فقط، وهم الذين اعترف ابن أبي الحديد ـ وهو من كبار علماء الشيعة ـ بأنهم كانوا أول من كذب في الحديث عن النبي ﷺ ليزيدوا في فضائل علي رضي الله عنه ما ليس بحاجة إليه.

فإذا أطلقنا لفظ «الرافضة» على من يكفِّر هؤلاء الصحابة، وهم حملة الشريعة ونَقَلَة الإسلام، وهم الذين وصل إلينا القرآن والتشريع عن طريقهم، **فإنما نريد بذلك أن نبرئ جمهور الشيعة من أكاذيبهم ومغالاتهم**، ولا أظن أن الكاتب الفاضل ومن عداه من أفاضل علماء الشيعة يرضون أن ينسب إليهم تكفير أبي بكر وعمر وجمهور الصحابة الذين لم ترَ الإنسانية أكمل من أخلاقهم ولا أرضى لله من دينهم.

أما التقريب بين المذاهب والدعوة إلى اجتماع شمل المسلمين فالله يعلم أننا ممن يدعو إلى ذلك ويعمل له، وحياتنا العملية شاهد صدق. ولكننا لا نفهم التقريب ستاراً يخفي وراءه التعصب ضد الصحابة والثبات على إساءة الظن بدينهم وتقواهم وأمانتهم، بل نحن لا نرى في ذلك إلا شعوبية خبيثة دخلت على الإسلام لتشكك المسلمين في نقلة دينهم وخلفاء نبيهم وحملة رسالته إلى أمم العالم، **وإن أول شروط التقريب بين المذاهب أن نحتكم إلى القرآن والثابت من سنة رسوله ﷺ، فهل في كتاب الله أم في سنة رسوله الصحيحة ما يجعل الصحابة**

---

(١) انظر شرح نهج البلاغة: ١/ ٢٢٧.

كلهم كفاراً إلا خمسة أو ثلاثة عشر؟

أخرج الإمام أحمد في مسنده عن علي رضي الله عنه قال: قال لي النبي ﷺ: فيك مَثَلٌ من عيسى ابن مريم: أبغضه اليهود حتى بهتوا أمه، وأحبته النصارى حتى أنزلوه بالمنزلة التي ليس به، ثم قال: يهلك فيَّ رجلان: محب مفرط يقرظني بما ليس فيَّ، ومبغض يحمله شنآني على أن يبهتني». اهـ.

ونحن نشهدك اللهمَّ أنَّا نحب علياً ابن عم نبيك محمد ﷺ حباً يملأ شغاف قلوبنا، ونراه بالمنزلة التي تحلّه مكان الصدارة بين جمهور الصحابة؛ ولكنا نبرؤ إليك من أن نكون في حبه من المفرطين!».

مصطفى السباعي

ملاحظات وإضافات:

ونضيف إلى ما ذكره أستاذنا السباعي الملاحظات والنقاط التالية:

١ ـ إن ابن جرير الذي أشار إليه هو أبو جعفر محمد بن جرير بن رستم الطبري من أعلام الشيعة في القرن الرابع وصاحب كتاب (دلائل الإمامة) ـ قلت: على قياس: دلائل النبوّة ـ وقد جمع في هذا الكتاب الكثير من غرائب الروايات وعجيب الحكايات. ويكفي للدلالة على عدالته وعقله (خبر الطيب) الذي بعث به (رضوان خازن الجنان مع جوارٍ من الحور العين، وإن فيهن جارية حسناء كأنها القمر ليلة البدر!!) إلى السيدة فاطمة رضي الله عنها يوم زواجها من سيدنا عليّ كرَّم الله وجهه. أما (خبر مصحفها) فأعجب في هذه الدلالة! قال إن هذا المصحف نزل به عليها (بعد موت أبيها)!! جبريل وميكائيل وإسرافيل (فهبطوا به وهي قائمة تصلّي، فما زالوا قياماً حتى قعدت، ولما فرغت من صلاتها سلّموا عليها.. ووضعوا المصحف في حجرها..) قال: (وإن ورقه من درٍّ أبيض، وله دفتان من زبرجدتين..) وقال في وصف هذا المصحف: إن فيه أسماء البلدان، وصفة كل بلد (وخبر سماء سماء!) وعدد ما في السموات من الملائكة.. وأسماء جميع خلق الله من المؤمنين والكافرين من الأولين والآخرين.. وفيه كذلك (خبر ما كان وما يكون إلى يوم القيامة) ولكن(ما فيه شيء من القرآن)!!! ـ قلت: والله لا يدري المرء إذن ما هذا الذي نزل به ثلاثة ملائكة ـ لا جبريل وحده! ـ أهو مصحف وليس فيه شيء من القرآن؟ أم هو كتاب في الجغرافية والإحصاء وعلم سكان الأرض

والسماء؟ وقارن إن شئت خبر هذا المصحف برواية الكليني التي قال فيها: إن الله تعالى أرسل إلى فاطمة (ملكاً يسلّي غمّها ويحدّثها) بعد أن دخل عليها من الحزن بعد وفاة النبي ﷺ ما لا يعلمه إلا الله عزَّ وجلّ، قال: (فشكت ذلك إلى أمير المؤمنين عليه السلام، فقال: إذا أحسست بذلك وسمعت الصوت قولي لي، فأعلمته بذلك، فجعل أمير المؤمنين عليه السلام يكتب كل ما سمع، حتى أثبت من ذلك مصحفاً! !)[1]. قلت: هذا المصحف إذن أثبته سيدنا علي خلسةً! ونزل به على السيدة فاطمة ملك واحد لا ثلاثة ملائكة، ويوماً بعد يوم لا مرّة واحدة تسليةً لها من الغم رضي الله عنها!

٢ ـ ما قام به السيد الحسيني من التمويه و(الخلط) بين الطبريّين، يقول بعض العلماء إنه من طرائق الشيعة، وقد سمّى ذلك (مكايد)، ونسمّيه نحن تدليساً، وقد يمكننا إلحاقه ـ بقدر كبير من التجاوز ـ (بتدليس الشيوخ) بمعناه الاصطلاحي عند المحدّثين؛ قال شاه عبد العزيز غلام حكيم الدهلوي: «ومن مكايدهم أنهم ينظرون في أسماء الرجال المعتبرين عند أهل السنة؛ فمن وجدوه موافقاً لأحد منهم في الاسم واللقب، أسندوا رواية ذلك الشيعي إليه؛ فمن لا وقوف له من أهل السنة يعتقد أنه إمام من أئمتهم فيعتبر بقوله ويعتد بروايته، كالسدّي، فإنهما رجلان: أحدهما السدي الكبير، والثاني السدّي الصغير، فالكبير من ثقات أهل السنة، والصغير من الوضّاعين الكذّابين، وهو رافضي غال. وعبد الله بن قتيبة رافضي غال، وعبد الله بن مسلم بن قتيبة من ثقات أهل السنة، وقد صنّف كتاباً أسماه بالمعارف، فصنّف ذلك الرافضي كتاباً وسمّاه بالمعارف أيضاً! قصداً للإضلال. .»[2].

هذا كلام الدهلوي، ونحن قد نقبل منه التسمية بالرافضة بالمعنى الذي قال به أو ذهب إليه أستاذنا السباعي رحمه الله.

٣ ـ على هامش موقف السباعي من قضية التقريب، وحماسته لذلك ـ وفي سياق نشاطه في لبنان ـ نذكر أنه شارك في عام ١٩٥٢م في حفل التأبين الذي أُقيم

---

(١) راجع دلائل الإمامة للطبري الشيعي، ص٢٦ ـ ٢٧، الطبعة الثانية ١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٣م منشورات المطبعة الحيدرية بالنجف؛ وانظر كتاب الكافي للكليني: ١/ ١٨٥ ـ ١٨٦.
(٢) مختصر التحفة الإثني عشرية، ص٣٢، ط استانبول ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

في بيروت بمناسبة مرور أربعين يوماً على وفاة السيد محسن الأمين من علماء الشيعة الكبار، وألقى كلمة بهذه المناسبة، وقد ذكر سماحة السيد محمد حسين فضل الله أنه ألقى قصيدة في الحفل المذكور، ودعا إلى الوحدة الإسلامية في ذلك الوقت؛ قال: «حتى إن الدكتورمصطفى السباعي المرشد العام للإخوان المسلمين، وكان حاضراً وله كلمة، اهتزَّ لهذه القصيدة». وأضاف سماحة السيد فضل الله قائلاً: «إنني أرى أن يفكر المسلم الشيعي كمسلم، لا كشيعي يعيش في دائرته الضيّقة التي يختنق فيها بعصبيّته، وأن يفكر المسلم السنّي كمسلم قبل أن يفكر في سنّيته»[1].

٤ ـ لم يفت الأستاذ السباعي، في سياق رده على أبي ريّة وحديثه عن الشيعة الغلاة، التأكيد على دور (قادة الفرس الوثنيين) في الانتقام من الإسلام الذي خلّص (شعوبهم من حكمهم الظالم، وعقيدتهم الوثنية، وفتح عقولها وعيونها لرؤية النور، والتعرف على الحق) قال رحمه الله:

«فهؤلاء حين انهزموا أمام كتائب الجيش الإسلامي المنقذ، لم يجدوا وسيلة للانتقام من هؤلاء المحررين إلا أن يشوّهوا سمعتهم وسيرتهم في بثّ الأخبار الكاذبة عنهم بما يزري بمكانتهم حقاً لو صحّت هذه الأخبار، ومما يحط من شأن هذا الدين وحضارته؛ إذ كان هؤلاء حملته وقادة جيوشه».

وأضاف رحمه الله: «وليس أدل على ذلك من أن نقمة هؤلاء الحاقدين قد انصبّت على مفاخر الحضارة الإسلامية علماً وحكماً وقيادة؛ أي على جميع القادة العسكريين الذين خلّصوا العراق من حكم الفرس، وعلى رؤسائهم الإداريين الذين كانوا يوجّهون هذه الحملات التحريرية، وعلى علمائهم الذين نشروا علم الإسلام وشريعته، وأدّوا أمانة العلم إلى من بعدهم بتجرّدٍ لا يعرف أولئك الحاقدون له مثيلاً في تاريخهم أو تاريخ غيرهم»[2].

وقد تحدَّث أيضاً ـ في كتابه السنة ـ عن حديث غدير خم، فقال فيه: «هو عند أهل السنة حديث مكذوب لا أساس له، لفّقه غلاة الشيعة ليبرّروا به هجومهم وتجنّيهم على صحابة الرسول» وأضاف: «وهل يليق برسول الله ﷺ أن يكون

---

(١) من مقابلة في جريدة القدس العربي، العدد (٣٠٣٥)، ص١٨، تاريخ ٢٤ شوال ١٤١٩هـ ـ ١٠ شباط (فبراير) ١٩٩٩م.

(٢) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، ص٤٦١ ـ ٤٦٢.

صحابته كذّابين مخادعين، اجتمعوا كافّتهم على كتمان الحق، ومناصبة صاحبه العداء؟»[1].

٥ ـ تعقيباً على (أول شروط التقريب) الذي أشار إليه الأستاذ السباعي في آخر رده على السيد الحسيني، نشير إلى أن بعض علماء الشيعة ـ من روّاد التقريب ـ يصوّب أن عدد الصحابة الذين لم يرتدوا ثلاثة فقط!! فقد كتب السيد إبراهيم الراوي البغدادي أحد علماء أهل السنة في العراق ـ وكان متعلقاً بأمنية التقريب ـ إلى علاّمة الشيعة محمد مهدي السبزواري برسالة جاء فيها: «فلو أن أبا بكر وعمر وباقي الصحابة الذين يزيدون عند وفاة رسول الله ﷺ على مئة ألف كانوا كفّاراً أو منافقين أو مرتدين كما ارتدت الأعراب؛ لأعلنوا دين الجاهلية، ولم يقاتلوا أهل الردّة ليردّوهم للدين الإسلامي..» وقال: «وهذا النبي ﷺ مدة ثلاثة وعشرين سنة يصحبه أصحاب كفار! ومدة طويلة أيضاً تصحبه زوجة كافرة لا يعلمهم، وقد علّمه الله تعالى علم الأوّلين والآخرين، وأطلعه على ما سيكون مما هو معدود في معجزاته...»إلخ.

فأجابه العلاّمة السبزواري بالقول: «قلتم أدام الله ظلكم: وإذا صدق قول الشيعة في ارتداد الصحابة كلهم الذين يتجاوز عددهم مئة ألف إلا خمسة أو ستة أو سبعة (والصواب ثلاثة) فلم يقاتل أبو بكر أهل الردّة، ويردهم إلى الإسلام؟» والجواب أنه «كفر كفر حكمي لا كفر واقعي كعبادة الوثن والصنم!.. وقلتم وفقنا الله وإياكم: وهذا النبي مدة ثلاث وعشرين سنة يصحبه أصحاب كفار، ومدة طويلة أيضاً تصحبه زوجة كافرة لا يعلمهم!.. أقول: لم يعتقد الشيعة كفر الصحابة وعائشة في حياة النبي، وإنما قالوا إنهم ارتدوا بعد النبي ﷺ»[2]!!

قلت: وقد حان الوقت لينفي جمهور الشيعة عن أنفسهم هذه الاعتقادات الضالّة التي تخالف الحسّ والعقل قبل أن تخالف الكتاب والسنّة وحقائق

---

(١) المصدر السابق، ص١٣٢.

(٢) مجلة الفتح ـ العام الخامس عشر، ص٧٣٧ ـ ٧٣٨، من مقالة بعنوان: (أبو بكر الصدّيق كافر! والصحابة كلهم ـ إلا ثلاثة ـ في حكم الكفرة المرتدين.. هكذا يقول شيعي من دعاة التقريب وترك التعصب) مع الإشارة إلى أن السيّد الراوي بعث برسالته بتاريخ ١٤ صفر ١٣٤٧هـ، وكان تاريخ جواب العلامة السبزواري بعد عشرين يوماً في ٤ ربيع الأول. وقد بلغت دار التقريب التي افتتحها الشيعة في القاهرة ذروة نشاطها في هذا الوقت!!

التاريخ، أو أن يُخرجوا القائلين من صفوفهم! وعلى أية حـال، فـإن من المأمول بعد أن انتقل الشـيعة من قواعـد المعارضة ـ كما يصور كثير منهم حال الطائفة في التاريخ ـ إلى مقاعد الحكم في أعقاب الثورة الإيرانية التي لم يشهدها الأستاذ السباعي رحمه الله.. المأمول أن تكون دعوة التقريب أو التقارب أخلص نيّة وأكثر موضوعية إن شاء الله.

وأحب أن أنوه أخيراً بتحقيق الأستاذ السباعي حول **موقف الخوارج من الوضع في السنة**، وتأكيده على أنه لم يعثر على أي دليل علمي يؤيد نسبة الوضع إليهم، بل إنه رأى الأدلة العلمية على العكس تنفي عنهم هذه التهمة. فقد كانوا يكفّرون مرتكب الكبيرة. والكذب كبيرة فكيف يقعون فيها مع رسـول الله ﷺ نفسـه؟! «وكانوا في جمهرتهم عربـاً أقحاحاً لا يقبلون الدسائـس، صرحـاء يواجهون الخصم بما يعتقدون. وكل ذلك يدل على أنهم من الكذب بمكان بعيد»[1]. وإلى نحو هذا ذهب ابن تيمية في وقت سابق، قال رحمه الله: «.. فإن الخوارج وإن كانوا مارقين فهم يَصْدقون لا يتعمدون الكذب، وكذلك المعتزلة يتديّنون بالصدق، وأما الشيعة فالكذب عليهم غالب من حين ظهروا»[2].

* * *

---

(١) المصدر السابق، ص٨٢ـ٨٣.

(٢) منهاج السنة النبوية: ٤/ ٢٠٩.

كتب السباعي الأخرى

لا يتسع المجال للتعريف بالكتب والرسائل التي خلّفها الأستاذ السباعي رحمه الله، لأنَّ هذا يحتاج إلى صفحاتٍ مطوَّلة لا تتسع لها فصول هذا الكتاب، الذي لا يعدو أن يكون تاريخاً لمراحل حياته، وإطلالةً على رحاب شخصيته من جهة، ولأنَّ تلك الكتب والرسائل سوف تكون محلَّ دراساتٍ جامعية معمّقة من جهة أخرى. ولهذا فإننا نعرِّف بأهم هذه الكتب تعريفاً أقرب إلى التاريخ أو المدخل، ونشير إلى سائرها إشاراتٍ أقرب إلى العدِّ والإحصاء.

كتب الأستاذ السباعي إلى جانب كتابه القيّم الذي تحدَّثنا عنه (السنَّة ومكانتها في التشريع الإسلامي) الكتب التالية:

١ ـ من روائع حضارتنا.

٢ ـ عظماؤنا في التاريخ.

٣ ـ أخلاقنا الاجتماعية.

٤ ـ شرح قانون الأحوال الشخصية السوري (ثلاثة أجزاء).

٥ ـ المرأة بين الفقه والقانون.

٦ ـ دعوة الإسلام واقعية لا خيال.

٧ ـ هذا هو الإسلام (جزءان).

٨ ـ هكذا علمتني الحياة (قسمان: الاجتماعي والسياسي).

٩ ـ أحكام الصيام وفلسفته.

١٠ ـ اشتراكية الإسلام.

١١ ـ السيرة النبوية (دروس وعبر).

١٢ ـ القلائد من فرائد الفوائد (مختارات من كتب التراث).

١٣ ـ العلاقات بين المسلمين والمسيحيين في التاريخ[١].

---

(١) يضاف إليها بعض الكتب التي مضى في تأليف بعضها وكاد أن يفرغ من تأليف بعضها =

وقد أشرنا في موضعٍ سابق إلى أنه ألقى عشرات المحاضرات ومئـات ـ وربما ألوف ـ الخطب رحمَه الله .

وأبدأ هنا بالإشارة إلى هذا الكتـاب الأخير: **(العلاقات بين المسـلمين والمسيحيين في التاريخ)** الذي لم يرَ النور على الرغم من أنَّ الأستاذ كان قد فرغ من تأليفه في وقتٍ مبكر؛ منذ أن عنيَ بالرد على مسألتين أو فريتين وهما اتهام الدعوة الإسلامية بالطائفية، والزعم بأنَّ الإسلام انتشر بالسيف .

وقد عرض لنقد هذا الزعم الثاني في أكثر من موضعٍ من كتبه، كما بحث فيه في محاضراتـه أو رسالته (نظام السلم والحرب في الإسلام) ـ إحدى رسـائل المجموعة الثانية من كتاب: هذا هو الإسلام ـ في حين جاء كتابه المشار إليه: (العلاقات . .) لبيان أنَّ عصور الازدهار الإسلامي لم تعرف الطائفية[1] . . وأنَّ المسـلمين كانوا على الدوام أو في مختلف مـراحل التـاريخ هم الضحيـة أو المظلومين! . . وقد سمعته يتحدث عن هذا الكتاب في أكثر من مناسبة . . وأذكر أنه قال مرةً ما فحواه: إنَّ الوقائع التي جمعها من بطون الكتب حول تلك العلاقة تحمل أقوى دلالات الحضّ على ترك المواقع الطائفية التي تتحصَّن بها الأقليّات، وما اتّسمت به ممارسات بعض قادتها ورؤسائها وأفرادها أيام التتار وفي زمن الغزو الصليبي وعصر الاستعمار الحديث من جهل وتعصُّب. وقال: أخشى أن تفهم رسالة الكتاب على غير وجهها ـ علماً بأنَّ التاريخ لا يُمحى ولكن يُتَّعظ به ـ فأرجو أن يطبع الكتاب بعد موتي. . . وربما حمله على هذا الإرجاء أيضاً: عزوفه عن المراء والجدل، ورغبتـه في البعد عن الخصومات. ويشـاء الله ألا يعثر لهذا الكتاب على أثرٍ عقب وفاته رحمه الله! .

ونذكر هنا ـ تعقيباً على هذا الكتاب ـ أن محرر مجلة (المسلمون) التي كان يصدرها في القاهرة الأستاذ سعيد رمضان قال في عددها الصادر في تشرين الأول

= الآخر، مثل: النظام الاجتماعي في الإسلام، وقانون النفقات في الفقه الإسلامي (أو في الإسلام) والظن أنه قد جمع كلَّ ما له صلةٌ بهذا القانون ـ والمسألة المالية ـ من نصوص الحديث النبوي من الكتب الستة وغيرها .

(١) انظر مقالته (بين الدين والطائفية) من كتاب: أخلاقنا الاجتماعية، ص٨٩، الطبعة الخامسة ١٩٨٧ . وانظر من مقالاته القديمة في مجلة (الفتح) افتتاحيةً بعنوان: (المسلمون وحفلات المولد) العدد (٤٥٢) ربيع الثاني ١٣٥٤ (١٩٣٥م) .

ـ نوفمبر ١٩٥٢ إن «فضيلة الأستاذ مصطفى السباعي يعكف الآن على بحث مشكلة من أهم مشكلات المجتمع العربي في العصر الحديث، وهي تعدد الأديان في الشرق العربي وموقف غير المسلمين من الإسلام، وموقف القوميين منه أيضاً» وذكر أنه آثر أسرة (المسلمون) بأحد بحوث هذا الكتاب. وهو بعنوان:

لماذا حاربت القوميات الدين في أوروبة؟

ونثبت فيما يلي هذا البحث الموجز، نظراً لأهميته ومدى دلالته على فكر السباعي وأسلوبه معاً، من جهة، فضلاً عن إشارته إلى متابعة السباعي لأحدث الآراء والاتجاهات، واستشرافه آفاق المستقبل، من جهة أخرى. ونأمل بهذا أن نكون قد عرَّفنا بالكتاب الذي لم نقف عليه، أو الذي لم يرَ النور، مثل كتابه (العلاقات بين المسلمين والمسيحيين في التاريخ).

والراجح أن السباعي لم يتابع فيه، أو لم يتمكن من إنجازه، وربما كان بين الكتابين تداخل أو قدر مشترك.

قال رحمه الله:

«انتهى الصراع العنيف الذي كان قائماً في أوروبة منذ عصر النهضة حتى نهاية القرن الثامن عشر بين الكنيسة ورجال النهضة بانهزام الأولى وانتصار الثانية، وهذا أمر لم يكن منه بد بعد أن طغت الكنيسة في العصر الوسيط على كل شيء، وتحكمت في شؤون الدول والملوك والشعوب، وكممت الأفواه، وحجرت على العقول والأفكار، وأذاقت الناس ـ على عهد محاكم التفتيش ـ شر ما منيت به الإنسانية من ظلم وعسف واضطهاد وتنكيل وحشي، كل ذلك فعلته الكنيسة الغربية باسم الدين، وفعله رجالها باسم السيد المسيح، وبررته ضمائرهم بالدفاع عن الإيمان والإنجيل.. أفلا ترى معي أن موقف القوميات التي انتعشت بعد ذلك الصراع المرير من إقصاء الدين عن الحياة العامة، وعدم اعتباره من العناصر الرئيسية في حياة الأقوام والشعوب أمر ضروري لا مفرّ منه في تلك الأحوال والظروف؟.

«**ومما زاد في نفرة الناس من الدين يومئذ أنه** لم يكن يروي ظمأ الشعوب في إقامة مجتمع حر كريم سعيد تتوفر له جميع وسائل الرفاهية والتطور.. والناس دائماً تلجأ إلى أديانها عند الشدائد؛ فإذا لم تجد عندها طلبتهاأعرضت عنها جانباً، وسلكت كل سبيل يؤدي بها إلى ما تريد.. وليس أدل على ذلك من أن

شعوب أوروبة في مطلع عهد النهضة كانت تتطلع إلى نظام ينقذها من تحكم الملوك والأمراء والأشراف ورجال الكهنوت، ويزيح عن جماهيرها كابوس البؤس والحرمان والشقاء، وينقلها إلى نصيب من العدالة الاجتماعية تشعر معه هذه الجماهير بكرامة الإنسان وشرف الحياة، فلم تكن تجد هذا في ظل الدين الذي كان يمثله يومئذ رجال الكنيسة، مما دعاها إلى أن تشيح بوجهها عنه، وتلتمس النجاة منه بشكله الجامد الجاف كما كان يصوره رجال الكنيسة بأعمالهم ومواقفهم. وهل كانت روسية ترتمي في أحضان الشيوعية الماركسية لو أنها وجدت الدين الذي ينقذها من ظلم القياصرة وتألههم واستعبادهم للجماهير وازدرائهم بكرامتها، بل إنها وجدت على عكس ذلك ديناً يشد رجاله عجلاته بمركبة القياصرة، ويبسط ظل حمايته على أولئك الذين امتصوا دماء الشعب، وكانوا يبيعونه مع أرضه التي يعيش عليها كما تباع الحيوانات والسلع؟!

«**وثمة سبب آخر لازورار القوميات عن الدين! ذلك أنها وقد رأت فيه مثبطاً** لعجلة الحضارة وتقدمها، أخذت تفكر في المسافة التي تفصل ما بين نفسيتها الأصلية وبين هذا الدين الغريب! . . فالمسيحية ليست ديانة غربية، وإنما هي ديانة شرقية نبتت على شواطئ البحر الأبيض من مدن فلسطين، ومن هناك امتدت إلى رومة فإلى أمم الغرب، ولقد ظلَّت المسيحية الشرقية كما جاء بها يسوع الناصري بعيدة بعداً شاسعاً عن طبائع الغربيين ونفسياتهم، فكيف وقد جمدها رجال الدين بشكل أصبحت تنفر منه طباعهم في مستهل نهضتهم وانبعاثهم؟! وخذ لك مثلاً «الألمان» فلقد كانت ديانتهم في عهد الوثنية «ديانة رجولة يلعب المعبد بها والكاهن والقرابين دوراً تافهاً، وكانت آلهتها شبيهة بالرجال أو بضرب من القوَّامين بالمدارس (عمداء المدارس ورؤساء طلابها) فهم مخلوقات أشد قوة من الناس يتدخلون في الشؤون الإنسانية حسبما تمليه عليهم دوافعهم لا وفق قاعدة سارية»[1] فهؤلاء الذين كانوا في ديانة يلعب فيها المعبد والكاهن والقرابين دوراً تافهاً، ظلوا بعد تنصرهم غرباء عن ديانة يلعب فيها المعبد والكاهن والقرابين دوراً رئيسياً.

فما كاد يتاح لهم فرصة التخلص من سيطرة الكاهن والقرابين في عهد الإصلاح اللوثري حتى كانت اللوثرية تنتشر فيهم انتشار النار في الهشيم. . لقد

---

(١) ويلز في كتابه معالم تاريخ الإنسانية، ترجمة عبد العزيز جاويد: ٣/ ٦٧٨.

وجدوا في اللوثرية ـ على قصورها في الإصلاح ـ الكوة التي تنفذ منها أرواحهم إلى عالم الانطلاق والتحرر. . ثم ما كاد يتاح لهم فرصة التخلص من فلسفة التسامح الذي عبّر عنه المسيح بقوله: «من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الخد الأيسر» حتى وجدوا في «نيتشه» بطل الروح الألمانية التي تقوم على تمجيد القوة والبطولة، وفي «هتلر» بطل القومية الألمانية التي تقوم على الصراع والكفاح، ومن ثم لم يكن «هتلر» يطيق روح المسيحية المسالمة المتسامحة، بل كان يرى فيها عامل إذلال وضعف لقوميته المحاربة المكافحة، فليس غريباً أن يعلن عداءه لها، وأن ينأى بقوميته بعيداً عن مغانيها ومعالمها! . . .

ولا ننسى أن نضيف إلى ذلك كله ما جرّه النزاع الديني على أوروبة من الخراب والدمار والفناء في القرنين السادس عشر والسابع عشر، وما جرته الحروب الصليبية من قبل ضد المسلمين، ثم الحروب الصليبية التي كان يعلنها البابا ضد الهراطقة في بوهيمية وما جاورها. . وضد الألبيين ومن نحا نحوهم. . . فهذا كله حال دون جعل الدين رابطة مشتركة بين شعوب أوروبة في عصر النهضة، وأضفى عليه في نظر رجالها رداءً مرعباً يلوح من خلاله شبح الضحايا وأنهار الدمار. . حتى غدوا يعتقدون أن من طبيعة الدين القسوة على المخالفين، والحرب على العقلاء المتحررين، وخراب المدنيات الزاهرة على يد رجال الدين المتحمسين. . وما كانت هذه في الحق طبيعة المسيحية السمحة كما جاء بها يسوع الناصري عليه السلام، ولكنها ثمار تلك الكهنوتية الدنيوية المتسلطة المتعصبة التي تمثلت في رجال الكنيسة في العصور الوسطى ولازمتهم حتى العصر الحديث. .

وما ينبغي لنا أن ننتظر من منطق الثورة أن يقيم قسطاس العدالة في حكمه على طبيعة الأشياء، وأن يفرق بين عمل رجال الدين وطبيعة الدين نفسه؛ ذلك لأن منطق الثورة ـ دائماً ـ منطق متطرف منتقم، لا يهمه أن يعدل بقدر ما يهمه أن يهدم، والثورة التي بدأت على رجال الدين يومئذ لم يتح لها من ينصفها من رجال الدين أنفسهم إلا بعد أن لجّت الثورة في تمردها حتى وصلت إلى الدين نفسه! . . وهيهات أن يكبح جماحها وهي تحمل معول التهديم إلا بعد أن يلقي خصومها السلاح وتشعر بهزيمتهم هزيمة الأبد. . عندئذ يرجى منها أن تنصف بعد أن أتيح لها أن تنصف.

وهكذا كان. . فبعد أن كان القرن السابع عشر والثامن عشر عصر شك وإلحاد وتطرف في الأفكار، غدا القرن التاسع عشر قرن هدوء وتفكير في

المسالمة. . وما وافى القرن العشرون حتى كانت النفوس مستعدة بل ظامئة إلى العودة للدين ـ لا دين محاكم التفتيش والحروب الصليبية ومكافحة الطب ودوران الأرض والتلسكوب ـ بل دين الحب والرحمة. . دين الروح العالية المشرقة. . دين الضمير المتيقظ المخفف من شهوات النفس وكبرياء المادة وطغيان القوة. . دين الحضارة الإنسانية المتقدمة في ظل الله العادل الكريم.

موقف القوميين في بلادنا:

لا أعتقد أني جانبت الحق في تصوير النزاع بين الدين والقوميات في أوروبة، وأعتقد أن النتيجة التي عرضتها عليك كافية لأن تقنعك أنه ليس من طبيعة القومية في حد ذاتها أن تتنكر للدين، بل هو دعامة من دعائمها الكبرى إن أرادت لنفسها الحياة والبقاء. . فإذا اضطرت لمعاداته كما فعلت القوميات الأوروبية كان ذلك أمراً عارضاً خارجاً عن طبيعة القوميات وتكوينها، وعن طبيعة الدين الصحيح وفلسفته.

وكان من المنتظر أن يقف من الدين دعاة القومية في البلاد العربية غير الموقف الذي وقفه منه بناة القوميات في أوروبة، نظراً لاختلاف الظروف والأوضاع وطبيعة الدين في البلاد العربية ـ وخاصة الإسلام ـ وطبيعة المسيحية التي كانت تصورها الكنيسة الغربية في القرون الوسطى. . زد إلى ذلك أن القومية قد بدأت عندنا في العهد الذي انتهى فيه أو كاد ينتهي ذلك الصراع الحاد العنيف في أوروبة بين الدين والنهضة، وقد بدأ العلماء والفلاسفة هناك يعلنون أن لا تعارض بين العلم والدين، وأخذ علماء النفس وعلماء الأخلاق يجهرون بوجوب الرجوع إلى الدين ليمسك على الإنسانية بناء الأخلاق الكريمة التي أوشكت أن تطمس معالمها في هذا الطوفان الهائل من الحروب والمشاكل العالمية. . ولكننا مازلنا نرى جمهرة الدعاة إلى القومية في بلادنا يقفون من الدين ذات الموقف الذي وقفه علماء النهضة في عصر القوميات من الدين وتعاليمه. .

وقبل أن أبسط حججهم في هذا الشأن وأناقشها نقاشاً علمياً هادئاً أرى من واجبي أن أنبّه القارئ إلى أن دعاة القومية في بلادنا يتأثرون إلى حد كبير بروح الثورة التي قامت في القرن الثامن عشر وفلسفتها وأعلامها، وأن الذين تولوا الترجمة والتعليم عندنا في العصر الحديث كان أكثرهم من رواد المدرسة اللاتينية، فكانوا لا ينقلون إلينا إلا بقية التيار العارم الذي توج بثورة فرنسة عام

١٧٨٩ ، ثم ماتزال بقية من العقول تنضح من ثمالته حتى الآن . . أما التيار الجديد الذي بدأ في أواخر القرن التاسع عشر وأخذ يقوى في هذا القرن، وهو الذي يعترف بما للدين من أثر في الحياة، ويعلن أنه لا تناقض بين الدين وبين الاتجاه الجديد للعلم والفلسفة، فهذا ظل مطموس الأثر لا ينقل إلينا منه تلامذة تلك المدرسة اللاتينية العلمانية قليلاً ولا كثيراً، ولولا أن بعض رواد الثقافة الحديثة في مصر تأثروا باتجاهات المدرسة الحديثة في العودة إلى الدين والدعوة إلى الصفاء والتعاون بينه وبين العلم والفلسفة فنقلوا إلينا أثمن ما أنتجه رجال تلك المدرسة من آثار اتجاهها وآرائها في كل من فرنسة وإنكلترة وأمريكة، لولا هؤلاء لظلَّت حركة الترجمة في ثقافتنا العربية الحديثة مطبوعة بطابع القرن الثامن عشر: عصر الشك والإلحاد والثورة على الكنيسة . . . »[1].

* * *

(١) مجلة المسلمون: السنة الثانية ـ العدد الأول، نوفمبر ١٩٥٢، الصفحات ٨١ ـ ٨٤. القاهرة.

اشتراكية الإسلام

لم يثر كتـابٌ من الكتب التي ألَّفها الأسـتاذ السباعي من المشـكلات أو التساؤلات مثلما أثار هذا الكتاب. لا لعنوانه الذي لم يتفق معه فيه كثيـرٌ من الإسلاميين فحسب، بل لبعض ما انطوى عليه من اجتهاداتٍ من جهة، ولأنه جرى توظيفه أو إشاعته من قبل نظام الحكم في مصر في ذلك الحين؛ من جهةٍ أخرى. علماً بأنَّ الأستاذ السباعي عُني بموضوع (اشتراكية الإسلام) من سنواتٍ طوال، وألقى فيه عشرات المحاضرات في المدن السورية، ودخل على أساسه الجمعية التأسيسية عام ١٩٤٩، قال: «وكان دخولي باسم الجبهة الاشتراكية الإسلامية التي اشترك في تأليفها ثلاث جمعيات إسلامية، وخاضت الانتخابات يومئذٍ على أساسها، وهي: (الإخوان المسلمون) و(الجمعية الغرَّاء) و(جمعية الأنصار) ولما نجحت في الانتخابات كنت أعمل مع إخواني ممثلي الجبهة على وضع مبادئها في الدستور الذي صدر بعد ذلك عام ١٩٥٠، وكنت ممن ينادي بوجوب تحديد الملكية الزراعية تحقيقاً للإصلاح الاجتماعي الذي كان يشعر بوجوب القيام به جميع أعضاء الجمعية التأسيسية حتى أقرُّوا بالإجماع النصَّ الذي ورد في ذلك الدستور حول تحديد الملكية الزراعية»[١].

موضوع الكتاب كما حدَّده المؤلف: القوانين والأحكام التي جاءت في الإسلام لتنظيم حقّ التملُّك وتحقيق التكافل الاجتماعي. لقد سـمَّى الأسـتاذ السـباعي هذه القوانين والأحكام باشتراكية الإسلام، ولم يكنِ يخفى عليه وقع هذه التسـمية على (بعض الغيُورين على الإسلام) كما لم يخفَ عليـه منذ وقتٍ طويل ـ أو منذ أن دخل الجمعية التأسيسية بالجبهة المشار إليها ـ أنَّ بعض الناس ينكرون أن تكون في الإسلام نزعةٌ اشتراكية؛ سواء في ذلك الشيوعيون الذين يقولون هذا القول تشويهاً لسمعة الإسلام وصدّاً عنه، لأنَّ مصلحتهم الحزبية تحتم عليهم أن يؤكدوا في الأذهان أنَّ الشيوعية وحدها هي الاشـتراكية (العلمية) الصحيحـة، وأنَّ ما عداها زيفٌ وباطل! أو من يظنّ أنَّ الإسلام دينٌ (رأسمالي)

---

(١) مجلة حضارة الإسلام: السنة الثانية ـ العدد الثامن، ص٥٥، شباط (فبراير) ١٩٦٢.

وهؤلاء ـ كما وصفهم ـ هم «الجاهلون بالإسلام مع حبهم له»، أو من يقول ذلك خدمةً للغربيين ومن يدور في فلكهم من الأغنياء وذوي الثروات والملكيات الكبيرة، قال: «وهؤلاء هم المتاجرون بالدين، الذين يضعون أنفسهم في خدمة من يستأجرهم»[1].

يقول السباعي: «لقد اخترت القول باشتراكية الإسلام مع العلم بكلِّ ما يقول هؤلاء، لأني لا أعتقد أنَّ الاشتراكية (موضة) ستزول، بل هي نزعةٌ إنسانية تتجلَّى في تعاليم الأنبياء ومحاولات المصلحين منذ أقدم العصور، وتسعى شعوب العالم الحاضر ـ وخاصةً الشعوب المتخلفة ـ إلى تحقيقها لتخلص من فواجع الظلم الاجتماعي والتفاوت الطبقي الفاحش المزري بكرامة الإنسان. وليست حقيقة الاشتراكية هي (التأميم)، ولا (انتزاع رأس المال)، ولا (تحديد الملكية)، ولا (الضرائب التصاعدية)، بل هذه كلها وسائل يراها دعاتها الطريق الصحيح لتحقيق هدف الاشتراكية»، وقد حدَّد هو هذا الهدف بقوله:

«إنَّ هدف الاشتراكية على اختلاف مذاهبها هو منع الفرد من استغلال رأس المال للإثراء على حساب الجماهير وبؤسهم وشقائهم. وإشراف الدولة على فعالية الفرد الاقتصادية ومراقبتها له، وتحقيق التكافل الاجتماعي بين المواطنين، بحيث تمحي مظاهر الفاقة والحرمان وتفاوت الثروات تفاوتاً فاحشاً، يقترن فيه الجوع والفقر والمرض والمهانة بجانب الترف والرفاهية والقسوة والانحلال الخلقي»[2].

بل إنَّ الأستاذ السباعي يرتقي في حماسته الشديدة لهذه التسمية إلى حدِّ عدّها باباً من أبواب الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة؛ إذ ما هي هذه الحكمة إن لم تكن دعوة الناس إلى الحقّ والخير بأسلوب يُصغون إليه ويأنسون

---

(١) كتاب اشتراكية الإسلام، ص١٠، مطبوعات الشعب بالقاهرة. علماً بأنَّ كاتب هذه السطور كان قد تلقَّى وهو ما يزال على مقعد الدرس في جامعة دمشق نسخةً مهداة من هذا الكتاب ـ وغيره ـ بخطِّ المؤلف رحمه الله. ولكن ليس في وسعي أن أعود إليها الآن.

(٢) المصدر السابق، ص١١، ويقول عباس محمود العقاد: «ولكني أومن إيماناً جازماً بصحَّة رأيٍ واحد يتفق عليه جميع الاشتراكيين وهو إنكار الاحتكار والاستغلال» يوميات: ٣/ ٦٧٩، دار المعارف بمصر.

به؟«ومادام الناس في مختلف الشعوب يتوقون إلى تحقيق ذلك الهدف، ويتهافتون على المذاهب الاشتراكية المعروفة، اعتقاداً منهم بأنها هي الطريق الوحيد لتحقيقه، أفلا يجب علينا أن ندلَّهم على (طريق آخر) لا يعرفونه لتحقيق ذلك الهدف العظيم، وهو طريقٌ أكملُ منهجاً وأكثر استقامة، وأبعد عن مساوئ تلك المذاهب الاشتراكية وعيوبها؟ وماذا يفعل الذين يعتقدون بالحق حين يجدون الناس يبحثون عنه؟ ألا يسلكون كلَّ سبيلٍ مشروع للدعاية له ولفت الأنظار إليه؟ فلماذا نحجم عن لفت أنظار الناس إلى طريق الإسلام في تحقيق هدفهم، الذي هو هدف الإنسانية الكريمة في كلِّ عصورها؟»[1].

هذه أبرز الأسباب التي دعت الأستاذ السباعي إلى هذه التسمية. . في الوقت الذي ترك الباب مفتوحاً لمن يريد أن يسمي هذه النزعة أو تلك القوانين والنظم الإسلامية بـ (العدالة الاجتماعية) أو التكافل الاجتماعي أو محاربة الفقر. . وما أشبه ذلك[2].

ولا يخفى في هذه الأسباب ـ والدوافع ـ أمران: **الأول**: خوف السباعي على العمال والفلاحين وسائر جماهير الفقراء من أن تجرفهم الدعاية الشيوعية بعناوينها البرَّاقة في وقتٍ تمتعت فيه الماركسية بشيءٍ من البريق أثناء الحرب العالمية الثانية وفي أعقابها في الفترة الممتدة لنحو عقدين من الزمان؛ فأراد أن يستعير كلمة (الاشتراكية) ويجعلها علماً أو عنواناً على مبادئ التملُّك وقوانين العدل الاجتماعي وألوان التكافل في الإسلام. . ليصرف تلك الجماهير عن الشيوعية وما كانت تستبطنه من الإلحاد وفساد الأخلاق. فضلاً عما تظهره من الأحقاد، وتدعو إليه من صراع الطبقات!

وقد كان لتعاون الحلفاء مع روسية في الحرب العالمية الثانية أثر في ذلك «حتى كانت سفاراتهم هي التي تنقل النشرات الشيوعية في سياراتها الرسمية،

---

(١) اشتراكية الإسلام، ص١٢.

(٢) قال رحمه الله: «إن من الممكن بكل سهولة أن تنزع الورقة الأولى التي تحمل اسم الكتاب، ويوضع بدلاً منها اسم آخر، مثل (العدالة الاجتماعية) و(النظام المالي والاقتصادي في الإسلام) و(التكافل الاجتماعي في الإسلام) إن من الممكن أن يسمى كتابنا بكل هذه الأسماء وما شابهها، من غير أن يتغيّر فيه حكم أو رأي. . » ص٤١٤ من الطبعة الجديدة لهذا الكتاب باسم: التكافل الاجتماعي في الإسلام. دار الوراق ١٩٩٨م.

وتوزعها على الناس بكل ما أوتيت من جهد ونفوذ» كما يقول الأستاذ السباعي، الذي أضاف: «وكان رجال الدولة عندنا يحضرون احتفالات الشيوعيين بتحرير لينغراد وستالينغراد وغيرهما، ويقفون عند ابتداء الحفلات بالنشيد الشيوعي الرسمي، كما يقفون تماماً عند النشيد السوري الرسمي» وقد حدثني يوماً أنه شاهد هذا بنفسه أكثر من مرة! وكان قد مضى على ذلك نحو عقدين من الزمان، ومع ذلك فقد ظهرت عليه أمارات الدهشة والاستصغار، وهو يتحدث ـ أو يتذكر ـ أولئك المسؤولين الكبار!!

وربما ضاعف هذا الوضع من شعوره بضرورة الوقوف في وجه (المدّ) الشيوعي، حتى كان في مقدمة من حمل لواء الدعوة إلى مناهضة الشيوعية، وقام بنشاط جماهيري واسع للتحذير من (هذه) الاشتراكية في معظم مدن بلاد الشام[1]

الأمر الثاني: يقف وراء هذا الاجتهاد ـ فيما أعتقد ـ نزعةٌ إنسانية عميقة انطوت عليها نفسية الأستاذ السباعي، وكراهيته ونفوره الشديدان من الجوع والفقر[2]، ولا شكّ في أنَّ هذه النزعة كان لها رفدٌ من أحكام الشريعة التي شُرعت للعناية بالفقراء والمساكين، ومبادئ الإسلام الإنسانية الرفيعة.. ونذكر هنا بدور التنشئة والتربية في إذكاء هذه النزعة في نفس السباعي يوم كان أبوه يصطحبه وهو صغيرٌ لتوزيع المواد الغذائية على الأسر الفقيرة في البيوت.. حتى رأيناه يخصِّص أيام قيادته لدعوة الإخوان يوماً أسماه (يوم الفقير) وحتى دخل الجمعية التأسيسية كما قلنا باسم (الجبهة الاشتراكية الإسلامية) لقد كان هذا الهاجس حاضراً في نفسه على الدوام.. ولقد شهدته في أكثر من موطن لا يقوى على رؤية سائلٍ أو معدم أو فقير!!.

لا أعرض هنا لشيءٍ من الاجتهادات التي وردت في الكتاب، والتي أثارت جدلاً أو كانت سبباً لمساجلاتٍ عديدة مع بعض العلماء[3]، ومع

---

(١) راجع مجلة حضارة الإسلام، السنة ٣، ص٧٦٦؛ وانظر في الصفحات التالية خطابه المشهور: جواب الإسلام على الشيوعية.

(٢) من الكتب التي كان يعدُّها من الروائع (كتاب المساكين) لمصطفى صادق الرافعي، وقد حدَّثني مرةً عن مدى تأثره بهذا الكتاب... وكان قد مضى على قراءته له سنوات طوال. رحم الله داعية الإسلام السباعي، وأديب العربية الرافعي.

(٣) أشير هنا فقط إلى موضوع (التأميم) الذي قال به الأستاذ السباعي، والذي قيل إنه تراجع عنه، فأقول: على الرغم من أنَّ بعض الأدلة التي استدلَّ بها الأستاذ السباعي ـ مثل =

فضيلة الداعية العلاّمة الشيخ محمد الحامد على وجه الخصوص، وقد كان الشيخ الحامد رحمه الله أقرب زملاء الأستاذ السباعي وأحبَّهم إلى نفسه أيام دراستهما المشتركة في مصر، وبقي حبل الأخوة والودّ والتقدير بينهما موصولاً على الدوام. وقد اتسعت صفحات مجلة (حضارة الإسلام) ـ وبعض المؤلفات ـ لهذه المساجلات العلمية القيمة[1]، وقد جمعت ردود الشيخ الحامد في كتابٍ بعنوان: (نظرات في كتاب اشتراكية الإسلام).

هذه التسمية أو هذا العنوان:

ولكنني أبقى في إطار العنوان أو اسم الكتاب.. لأذكّر بقول السباعي إن من كان خلافه معنا قاصراً على التسمية ففي وسعه أن ينزع غلاف الكتاب ويضع عليه العنوان الذي يشاء. وقد دخلت عليه مرةً وكان أمامه على الطاولة بضعة كتبٍ منها كتابٌ مترجم بعنوان: (الاشتراكية البنّاءة) ـ أظنّ أنه لكاتبٍ يدعى (هنري ديمان)ـ فقال لي: خذ وانظر في هذا الكتاب. إنَّ مؤلفه يقول: لقد ظهر للاشتراكية في الجزر البريطانية وحدها خلال فترةٍ محدودة من الزمان نحوٌ من مئة تعريف! فلماذا يستغرب الناس حديثي عن اشتراكية الإسلام؟ واستغرق الحديث عن هذه النقطة أو المسألة جزءاً كبيراً من الوقت.. حتى إذا استأذنت

= قياس التأميم على الوقف أو التسوية بينهما يصعب أو لا يمكن التسليم به، فإنَّ الناظر في جملة ما استدل به أو ذكره في هذا الموضوع ـ فضلاً عن الروح العامة التي تحكم الكتاب ـ لا يصعب عليه أن يعدّ هذا التراجع فيما يبدو إنما هو عن وضع تشريع التأميم بين يدي غير المؤهلين لاستخدامه، وليس عن أصل الحكم الذي قال به أو ذهب إليه، والله أعلم. راجع العدد الخاص مجلة (حضارة الإسلام): مقالة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله، ص١٧٣. وانظر كذلك ما كتبه الدكتور فهمي جدعان حول هذا الكتاب في مؤلفه: أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث، ص٥٢٩ ـ ٥٤٠.

(١) يضاف إليها دراسات أخرى كثيرة، نذكر منها الصفحات من (٢٧٤) إلى (٢٩٥) من كتاب: الفكر السياسي الإسلامي المعاصر تأليف أحمد عنايت، وقد ترجمه عن الفارسية وراجعه على النص الإنكليزي الدكتور إبراهيم الدسوقي شتاـ مكتبة مدبولي ـ القاهرة. وانظر كتاب: يثرب الجديدة: الحركات الإسلامية الراهنة للكاتب محمد جمال باروت. وقد تضمن فصلين مهمّين عن الأستاذ السباعي: الأول بعنوان (الخطاب الشعبوي الإسلامي: قراءة في (اشتراكية الإسلام)، ص٩٥ـ١٢٧ والثاني بعنوان: (مصطفى السباعي: الحركة الإسلامية ما بين الحركة المدنية والحركة الدينية، ص١٢٩ ـ ١٣٩) مع الإشارة إلى عدم اتفاقنا مع الكاتب الباحث في بعض التحليلات.

للذهاب ونهض رحمه الله ليشيِّعني إلى الباب ـ كعادته مع ضيوفه على الرغم من مرضه ـ توقَّف للحظاتٍ والتفت نحوي قائلاً: إنَّ من أروع ما قرأته لجمال الدين قوله: إنَّ الاشتراكية سوف تكون دين المستقبل بالنسبة لغير المسلمين! وأثنى على نفاذ الرؤية عند هذا المصلح وقد بدت عليه أمارات التأثُّر والانفعال[1]!.

ولكن السؤال الذي يطرح نفسه عند هذه النقطة: أليس في هذه الكلمة التي نقلها الأستاذ السباعي عن جمال الدين مايوحي بانفصال هذا المذهب ـ ولا أقول النزعة ـ عن الإسلام؟ لا نعتقد أنه كان في مقدور الأستاذ السباعي أن يتحدث عن (الاشتراكية) أو عن هذا (الاسم) أو المصطلح بوصفه دالاً على نزعةٍ إنسانية أو كنزعةٍ إنسانية بعد أن توضَّع كمذهبٍ أو مذاهب عرفها تاريخ الفكر الاجتماعي ـ السياسي والاقتصادي ـ في أوروبة![2] وربما كان هذا هو السبب الذي ساعد على طبع الكتاب و(توظيفه) من قبل الدولة ترويجاً لاشتراكيةٍ (هجينة) كان يجري تطبيقها في مصر.. كما بُدئ بتطبيقها في سورية أيام الوحدة[3]،

---

(١) نعت الأستاذ السباعي جمالَ الدين الأفغاني بـ (المصلح الإسلامي الكبير السيد جمال الدين) وعطف عليه بـ (تلميذه وزميله الإمام محمد عبده). انظر مقدمة كتاب اشتراكية الإسلام، ص٩.

(٢) وإنَّ مما يناسب الإسلام ـ أو رسالة الدين ـ أن يستوعب هذه المذاهب، وألاّ يستوعبه مذهبٌ منها، لأنها تأتي وتذهب، ويعتريها التعديل والتبديل جيلاً بعد جيل. وربما كان قريباً من هذا حديث الأستاذ السباعي عن النبي ﷺ تحت عنوان: (الاشتراكي العظيم)!! وحديثه عن إنجازات الإسلام التاريخية أو بعض هذه الإنجازات باسم إنجازات اشتراكية الإسلام. !! وقد لا نتردد في القول إن هذا فيه قصر وقصور.
انظر كتاب (اشتراكية الإسلام)، ص٣٦٤، وافتتاحية عدد ربيع الأول ١٣٨١ أيلول (سبتمبر) ١٩٦١ من مجلة (حضارة الإسلام).

(٣) كان ذلك عام ١٩٦١ أيام الوحدة مع مصر. حين صدرت ثلاثة قرارات تأميم ومصادرة. قامت بعدها إذاعتا القاهرة وصوت العرب بقراءة فصول من كتاب الأستاذ السباعي «لإفهام الرأي العام أن القرارات المذكورة يؤيدها الإسلام» لأن هذه القرارات كانت موضع استياء واستهجان على نطاق واسع ـ لأسباب كثيرة ـ قال الأستاذ السباعي: «وأحمد الله على أن الكتاب مطبوع متداول في الأيدي منذ ثلاث سنوات تقريباً، ويستطيع كل من يقرؤه أن يجزم بأن استغلال اسم الإسلام واشتراكيته لترويج اشتراكية غريبة عنا تستبيح مصادرة الأموال وقتل فعاليات الأفراد ونشاطهم الاقتصادي، استغلال غير شريف ولا سديد، ذلك لأن كل ما في الكتاب يخالف اتجاه تلك الاشتراكية..». مجلة حضارة =

فخسرت الصناعة وتعطّلت الزراعة، ولم يكسب العمال والفلاحون! فضلاً عن الاشتراكية العربية أو (العلمية) أو سواها من الاشتراكيات التي رفع شعارها بعض الأحزاب العلمانية ـ القومية أو الماركسية ـ والتي لم تكن في الواقع أكثر من وسيلةٍ للاستبداد السياسي، وكان دورها في تكريس المعاناة أو في إشاعة الظلم الاجتماعي أكثر من رفعه[1]، إلى جانب ما (أنجبته) من الطفيليين وطبقة المنتفعين.

وقد قال الأستاذ السباعي في وصف هذه الاشتراكية ـ تمييزاً لها عن اشتراكية الإسلام ـ إنها **«لا تلقي للقيم الدينية بالاً، وتعتمد على إثارة حرب الطبقات في المجتمع، وتصادر أموال الناس بغير حق، وتؤمم المؤسسات الصناعية والاقتصادية التي تعمل على ازدهار الاقتصاد القومي، وتشل حركة التجارة والإنتاج، وتقتل بواعث العمل والتنافس في الأفراد والجماعات، وتفقر الغني ولا تغني الفقير، وتنبعث من الحقد لا من الحب، وتتخذ من الشعب ستاراً بينما هي سلاح لإرهاب الشعب وإفقاره وإذلاله»**.

وأضاف: **«فمثل هذه الاشتراكية بعيدة كل البعد عن الإسلام، ولا تلتقي معه في قليل ولا كثير، بل إن الإسلام ليرى فيها الدمار المحقق لكل مجتمع تسود فيه أو تُفرض عليه»**[2].

قلت: من المحال إذن أن يكون السباعي قد وضع كتابه دعماً (للاشتراكية المصرية) أو الناصرية أو تبريراً لها كما توهَّم أو زعم بعضهم، فحديث السباعي عن الاشتراكية الإسلامية أسبق من الثورة المصرية ذاتها! كما رأينا في الجمعية التأسيسية، كما أن شخصيته ومواقفه الفكرية والسياسية لا يمكن أن توحي بشيءٍ من هذا القبيل! وقد أشرنا إلى موقفه من (حكام مصر) حين أقدموا على إعدام ستةٍ من قادة الإخوان في مصر، وإن كان هذا لم يمنعه من الإشادة بتأميم قناة السويس، وعدّه هذا الحدث حداً فاصلاً بين عهدين. وهذا استعلاءٌ على الخلاف، وضربٌ من الموضوعية والإنصاف لا يمتّ بصلةٍ إلى تبديل المواقف ومخالفة القناعات.

الكتاب وجائزة الدولة:

وربما استند أصحاب هذا الزعم إلى أنَّ الأستاذ السباعي مُنح على هذا

= الإسلام عدد شباط (فبراير) ١٩٦٢، ص٥٦.

(١) راجع كتابنا: جذور الفكر القومي والعلماني، ص٣٣ـ٣٥ المكتب الإسلامي ١٩٩٩.

(٢) حضارة الإسلام: المرجع السابق، شباط ١٩٦٢م.

الكتاب جائزة الدولة التشجيعية من قبل المجلس الأعلى للعلوم والفنون والآداب عام ١٩٦٠ علماً بأنَّ الكتاب كان في أصله محاضرةً تقع في (١١٢) صفحة أُلقيت على مدرج جامعة دمشق في (٢١) رمضان ١٣٧٨هـ ـ (٣٠) آذار (مارس) ١٩٥٩م وكان لها وقعٌ حماسيّ شديد التأثير[1] قبل أن يعاد طبعها في العام نفسه في كتابٍ بلغت صفحاته (١٧٥) ثم طُبع مرةً أخرى في مطلع عام ١٩٦٠ في كتابٍ جديد أو (تأليف جديد) ـ إن صح التعبير ـ زادت صفحاته على (٤٢٠) صفحة.

ولكن اللجنة العلمية المختصة في المجلس الأعلى قرَّرت منح الأستاذ السباعي الجائزة المذكورة لاعتباراتٍ علمية محضة لا صلة لها بأيِّ موقفٍ سياسي، وقد كان رئيسها يومذاك أستاذنا العلاّمة الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله.. الذي لم يكن يخفي عدم تعاطفه.. بل عدم وفاقه مع النظام الحاكم في مصر في يومٍ من الأيام، وكان يأبى دائماً أن يسحب الأحكام التي جعلها الفقهاء من حقِّ (وليِّ الأمر) على الحكام الذين عاصرهم، وبخاصةٍ العسكريين منهم! وكانت له في هذا الباب ـ أو على وجه الإجمال ـ آراء ومواقف دينية فقهية وسياسية اجتماعية تنأى به عن أيِّ مهادنةٍ أو مصانعة! وقد يتسع المجال هنا للإشارة إلى أنه كان (وفدياً) شديد الإعجاب بالزعيم سعد زغلول.. وقد بقي طيلة حياته يكنّ هذا الإعجاب للوفد ولسعد ولمصطفى النحاس من بعده ـ وما سمعته منه حول الوفد ورجالاته وحول الثورة المصرية ورجالاتها يحتاج إلى صفحات، وكله يندرج في الإطار الذي أشرنا إليه ـ حتى إنني على قناعةٍ تامة بأنَّ أبا زهرة، ولهذا السبب وحده دون سواه! لو كان يعلم أنَّ هذا الكتاب سوف يجري (توظيفه) أو استغلاله على هذا النحو؛ لتردَّد في الموافقة على منحه الجائزة أو لامتنع عن ذلك سداً للذريعة!.

على أنَّ الحديث تشعَّب بيني وبينه ذات ليلة ـ وكنت أتردَّد عليه في دارته

---

(١) استغرق إلقاء هذه المحاضرة نحواً من ثلاث ساعات، وقد شهدتُها مع عددٍ كبير من المستمعين وقوفاً على الأقدام بعد أن غصَّ المدرج بالحضور. قال السباعي:
«ولقيتُ من تأييد جمهور المستمعين وفيهم علماء وأدباء وجامعيون وتجار ما ملأ نفسي غبطة بأني استطعتُ لفت الأنظار إلى ما في تشريعنا الإسلامي العظيم من تشريع اشتراكي فريد في نوعه بين المذاهب الاشتراكية المعروفة في عالم اليوم يحقق مصلحة الأمة، ويؤلف بين قلوب أبنائها، ويحفظ لكل ذي حق حقه». حضارة الإسلام، السنة الثانية، العدد ٨، شباط ١٩٦٢، ص٥٥.

بضاحية الزيتون بالقاهرة ـ ووصل إلى الحديث عمَّن درس الشريعة أو القانون في الجامعات المصرية من طلبة الدراسات العليا من السوريين، وعن علماء سورية الذين عرفهم أو التقاهم ـ وكان قد زار سورية أكثر من مرة ـ فتوقَّف عند مصطفى السباعي، وقال إنَّ أثره في (الدعوة الإسلامية) كبير! . ثم أثنى على حسن إفادته من المصادر ومن النصوص. . وعلى (الملكة الفقهية) التي تجلَّت في كتابه: (اشتراكية الإسلام)! ثم قال: وأنا الذي رشَّحتُه لجائزة الدولة على هذا الكتاب! فجاءني جوابٌ عابر قاطع.

وأضيف هنا ـ بهذه المناسبة ـ أنَّ الأستاذ السباعي تلقَّى رسائل كثيرة تؤيده فيما ذهب إليه، منها رسالةٌ من الأستاذ الشيخ علي الخفيف ـ وهو من أكبر الفقهاء المعاصرين ـ قال فيها: «لقد قرأتُ كتابك مرتين، وأنا معجبٌ لهذه الروح العلمية والغيرة الشديدة على الإسلام، حتى استطعتَ أن تقنع كلَّ من يقرؤه بأنَّ الإسلام وحده الكفيل بحلِّ مشكلاتنا دون الحاجة إلى أيِّ مذهبٍ آخر»، ورسالةٌ أخرى من الأستاذ الداعية الشيخ أبي الحسن الندوي، قال فيها: «لقد بحثتَ هذا الموضوع بحثاً لم يسبقكَ غيرك إليه، وقد ساعدك على ذلك: إلمامك بالفقه الإسلامي وفروعه، فجاءت آراؤك مؤيَّدةً بنصوصٍ لا مجال للاعتراض عليها، فجزاك الله عن دينه وعباده خير الجزاء. إنني أرىً أن يترجَم هذا الكتاب إلى جميع لغات العالم الإسلامي، ليعرف المسلمون وخاصةً شبابهم أنَّ دينهم يغنيهم عن هذه المذاهب المستعارة الهدَّامة الملحدة»[١].

الكتاب ليس توفيقاً بين الإسلام والغرب:

ونضيف هنا كذلك، أو نؤكد مرة أخرى على أمر ربما اتضحت معالمه من

---

(١) انظر مقالةً بعنوان: (مهرجان علمي في جامعة دمشق) تحدث فيها كاتب هذه السطور عن ندوةٍ شهدتها جامعة دمشق مساء السابع عشر من كانون الأول (ديسمبر) ١٩٦٢، وكانت بعنوان: (اشتراكية الإسلام بين المؤيدين والمعارضين) وشارك فيها بالإضافة إلى الأستاذ السباعي رئيس قسم الفقه الإسلامي ومذاهبه: كلٌّ من الأستاذ محمد المبارك عميد كلية الشريعة، والأستاذ مصطفى الزرقاء رئيس قسم القانون المدني وأستاذ الشريعة الإسلامية في كلية الحقوق، والأستاذ محمد المنتصر الكتاني رئيس قسم علوم القرآن والسنّة، والأستاذ الدكتور صبحي الصالح أستاذ الإسلاميات بكلية الآداب.
مجلة (حضارة الإسلام): العدد السادس من السنة الثالثة، ص٨٤ شعبان ١٣٨٢هـ ـ كانون الثاني (يناير) ١٩٦٣م.

هذا الذي قلناه حتى الآن، ولكنه بحاجة إلى أن يفرد بالإشارة أو يُخصّ بالحديث أمام تفسير آخر خاطئ لهذا الكتاب. إن السباعي لم يتحدث عن (اشتراكية الإسلام) من موقع الهزيمة أمام شعارات الغرب أو قيم الحضارة الغربية، كما فعل بعض المفكرين الذين حاولوا في وقت سابق البحث عن مزايا الإسلام من خلال المزايا التي كانت معروضة أمام الناس في الحضارة الغربية، حين كان تقديم هذه الحضارة أو الشعور الخفي - والقوي - بتفوقها يحكم الحسّ الإسلامي، وحركة العقل - والمجتمع - الإسلامي نحو الإسلام وثقافته وحضارته[1].

ولهذا فإن الاستشهاد بكتاب الأستاذ السباعي (اشتراكية الإسلام) في سياق الحديث عن «**التوفيق بين الإسلام وبين الغرب في فلسفته وقيمه وأخلاقه**» ليس بصحيح، أو لم يصاحبه التوفيق على أقل تقدير، يقول الرئيس الإيراني الدكتور محمد خاتمي:

«إن المحاولات الواسعة التي ظهرت في العالم الإسلامي خلال القرن المنصرم من قبل بعض المفكرين أو أشباه المفكرين، في مجال التوفيق بين الإسلام وبين الغرب في فلسفته وقيمه وأخلاقه، ليست بخافية على الباحثين في تاريخ ما طرأ على المجتمعات الإسلامية».

ويتابع قائلاً: «وإلى ما تقدم، لقد بُذلت مساعٍ واسعة في العقود الأخيرة لبلورة صورة للاشتراكية الإسلامية لاقت إقبالاً واسعاً من قبل المسلمين الذين قهرهم الاستعمار، والشباب المنظّم منهم بخاصة؛ فالغرب الليبرالي هو الذي جاء بالاستعمار، والكثير من الشعوب الإسلامية والشرقية كان يمقت الاستعمار الغربي الرأسمالي للرزايا والفجائع التي حملها إلى تلك الشعوب، ولكن الكثير من تلك الشعوب كان مبتلئ بالتغريب الفكري فلم يرَ بالتالي سبيلاً للخلاص غير ذلك الذي اقترحه الغرب في صورةٍ ما. وهكذا فلقد اختار الاشتراكية تمثلاً باشتراكية الغرب واقتداءً بها.

يقول المرحوم الدكتور حميد عنايت في أحد مؤلفاته: «قال لي أستاذ

---

(١) راجع (الثقافة الإسلامية في الجامعات) للمؤلف، ص٧٩؛ وانظر الفقرة السابعة فيه بعنوان: (المراحل التي تدرجت خلالها الثقافة الإسلامية المعاصرة)، ص٦٥ ـ ٨٨، طبع المكتب الإسلامي ببيروت ١٩٩٠.

إحدى الجامعات المصرية: في الوقت الذي يسعى فيه اللادينيون بشكل خفيّ إلى تقديم الاشتراكية بلبوس إسلامي؛ فإن شيوخ الأزهر منهمكون في البرهنة على الإسلام عن طريق الاشتراكية»[1].

ويضيف الدكتور خاتمي قائلاً: «هذا ويعد كتاب (اشتراكية الإسلام) المنشور عام ١٩٥٩ لمؤلفه مصطفى السباعي، العالم السوري، من أشهر الكتب التي أُلِّفت للدفاع عن الاشتراكية التي اصطُلح على وصفها بالإسلامية. وعلى أن الكثيرين ساروا في هذا الطريق وجهدوا في إقامة الأدلة على صحة مزاعمهم، إلا أن «القيمة الحقيقية لكتاب السباعي تكمن في الإحصاء الدقيق واللغة الصريحة لهذه الاستدلالات» على حد قول الدكتور عنايت»[2]. اهـ.

قلت: نحن مع الدكتور المفكر الرئيس خاتمي في تحليله العام، وبخاصة إشارته إلى أن البعض «لم يرَ سبيلاً للخلاص غير ذلك الذي اقترحه الغرب في صورةٍ ما» ـ حيث شهد جيلنا شعارات مثل (حتمية الحل الاشتراكي)، وقرأ عن تطبيق الاشتراكية كشرط لدعم الولايات المتحدة للحركات الانقلابية في دول العالم الثالث ـ ولكننا لسنا معه في استشهاده بكتاب السباعي في هذا السياق. ولعل في جملة حديثنا عن هذا الكتاب ما يوضح أن هذا الاستشهاد ليس في محلّه، أو لم يصاحبه التوفيق. وبخاصة أن الرئيس خاتمي تابع قائلاً:

«ومع افتراض النية الحسنة لدى رواد هذه الحركة، إلا أن مثل هذه الحركة تؤدي، مع الأسف، وفي كثير من الحالات، بشكل طبيعي، إلى إنكار الإسلام والوحي، والتسليم الكامل بها لأنها صادرة عن ذهنيّة تسلّم للغرب سلفاً بالحق، دونما معرفة كافية ووافية بالإسلام ومعارفه وأساليبه في استنباط الأحكام الإلـٰهية، وتفتقر إلى الشمول والإحاطة عند خوضها في المتون الإسلامية»[3].

هذا السياق لا يمكن أن يرد فيه الاستشهاد بكتاب السباعي بوجه من الوجوه، لأن منطلقاته وأغراضه التي نتحدث عنها، والتي عبّر عنها السباعي

---

(١) عن كتاب د. حميد عنايت: الإسلام والاشتراكية في مصر، منشورات موج ١٩٧١، ص٢٧، وقد ورد اسم الدكتور عنايت (أحمد) قبل قليل، ولعله هو الصواب.

(٢) الدكتور خاتمي: بيم موج (في اللّجة)، ص٨٨ ـ ٨٩، دار الجديد، الطبعة الثالثة، ١٩٩٩، بيروت.

(٣) المصدر السابق، ص٨٩.

بنفسه رحمه الله، على العكس من هذا الذي ذهب إليه الدكتور خاتمي. وأعتقد أنه لو اطّلع على الكتاب بشكل مباشر لذهب إلى نحو ما قلناه أو حلّلناه في هذه السطور، ويبدو أن فكرة السيد خاتمي عن الكتاب جاءت ـ فقط ـ من خلال دراسة الدكتور حميد عنايت.

وفي الكلمة التي ألقاها الأستاذ السباعي تحت عنوان: (جواب الإسلام على المسألة الشيوعية) والتي سنشير إليها بعد قليل، ونثبت نصّها في آخر هذا الفصل.. مزيد من البيان.

وعلى أية حال، فإن الكتب والمحاضرات التي قرأناها للدكتور خاتمي ـ مع ملاحظة أن قراءته للحضارة الإسلامية كما تراءت لنا في كتابه (الدين والفكر في شراك الاستبداد) تكاد تكون قراءة فارسية ـ تؤكد لنا واسع اطلاعه، وبعد غوره، ولكننا نؤكد في الوقت نفسه على أسبقية السباعي وريادته في الدفاع عن الإسلام وتجلية حقائقه، وتربية الأجيال عليه؛ الأمر الذي كان يستدعي من الدكتور خاتمي اطلاعاً أدق على ما كتبه سلفه الدكتور السباعي، حتى يتمكن من النقل عنه والاستشهاد بأفكاره على نحوٍ أفضل!

وآخر ما أذكره حول هذا الكتاب: أنني قمت بزيارة الأستاذ السباعي في أواخر شهر أيلول (سبتمبر) عام ١٩٦٤ ـ وأظنّ في السابع والعشرين ـ عقب عودتي من القاهرة بعد انتهاء السنة التحضيرية لشهادة الماجستير.. وجرى الحديث عن الدراسات العليا وأثرها في تطوير البحث العلمي ونشاط حركة التأليف.. فسألني عن كتابه: (اشتراكية الإسلام).. فقلت إنه ما يزال يباع في القاهرة بثمنٍ زهيد في المكتبات وعلى سور الأزبكية! فبدت عليه بعض علامات الإحباط حتى وقع في نفسي أنه ربما كان قد تدخَّل لدى بعض الجهات ليحول دون ذلك ولكن دون جدوى! ولكني تابعت حديثي بشيءٍ من الحماسة فقلت: إنَّ الكتاب استُغِلَّ أسوأ استغلال! فقال لي: إنَّ قريباً لي عاد من القاهرة من قريب وحدثني عن معاناة الشعب الاقتصادية هناك، فقلت: إنَّ الأمر قريبٌ مما قال.. ثم عاد فقال: إني عازمٌ إن شاء الله على السفر إلى مكة المكرّمة، وإنَّ أول عملٍ سوف أقوم به هو أن أكتب كتاباً أفضح فيه اشتراكية هؤلاء المضلِّلين! واستأذنتُهُ ـ قبل أن أنصرف ـ في أن أعود لزيارته مع بعض الإخوة بعد عصر يوم السبت القادم لتوديعه قبل سفره... وحين كنّا نتأهَّب لهذه الزيارة بعد ظهر ذلك اليوم

جاءنا خبر نعيه فوقع علينا كالصاعقة . . رحمه الله وأعلى مقامه[1] .

---

(١) ألحق الأستاذ السباعي بكتابه (اشتراكية الإسلام) خطابه التاريخي (جواب الإسلام على الشيوعية) وهو الخطاب الذي ألقاه في (٢١) شعبان ١٣٧٣هـ ـ (٢٥) نيسان (إبريل) ١٩٥٤م في المؤتمر الإسلامي المسيحي العالمي الذي عُقد في (بحمدون) بلبنان، ونظَّمته جمعية أصدقاء الشرق الأوسط الأمريكية، ودعت إليه وفوداً من جميع أنحاء البلاد العربية وباكستان وإيران وتركية وغيرها من بلدان العالم الإسلامي. بالإضافة إلى وفد أمريكي، ووفود أوروبية من إنكلترة وفرنسة وإيطالية وإسبانية وغيرها. وقد أعدَّ الأستاذ السباعي كلمته هذه في اليوم المذكور من أيام المؤتمر (٢٢ ـ ٢٧ نيسان) بطلبٍ من الوفود الإسلامية التي رأت أن تلزم القائمين على المؤتمر بفسح المجال لإلقاء كلمةٍ عن الشيوعية في نظر الإسلام غير الكلمة التي أُلقيت! «فكُتبت كلمة السباعي وتُرجمت إلى الإنجليزية في بضع ساعات» ونجحت هذه الكلمة التي كان لها وقعُ القنبلة في تحويل المؤتمر إلى مظاهرةٍ للانتصار لفلسطين والقضايا العربية والإسلامية في الوقت الذي كان يهدف المنظِّمون للمؤتمر إلى الترويج للسياسة الغربية وإلى إنشاء كتلةٍ عالمية باسم الإسلام والمسيحية ضد الاتحاد السوفييتي. وقد تحدث في هذه الكلمة عن الجوانب التي تنظر من خلالها إلى الشيوعية، وعن الصهيونية كحركةٍ مادية ميكافيلية تقوم على العدوان وتدبير الحروب. وقد دان في هذه الكلمة بشدَّةٍ محاربة (الديمقراطيات الغربية) لشعوب الشرق في أمانيها التحررية والاستقلالية. وسوف نثبت نص هذا الخطاب في نهاية هذا الفصل إن شاء الله.

* * *

سائر كتبه

٣ ـ دعوة الإسلام واقعية لا خيال:

تعدّ هذه الرسالة من أبرز البحوث والمحاضرات الدالّة على شخصية الأستاذ السباعي الباحث والمفكر والداعية؛ لأنها انطوت على هذه العناصر جميعاً أو في وقتٍ واحد. وقد جاءت رداً على من قال في (الدعوة الإسلامية) إنها خياليةٌ لا يمكن لها أن تعيش. ويبدو أنَّ قائل هذا القول أو هذا الاتهام إنما حمله عليه أو ساقه إليه: سوء الأوضاع من حوله، والتراجع الذي ظنَّ أنَّ الأديان عموماً، والإسلام خصوصاً، قد وقعت فيه أو انتهت إليه.. فالأمر فيما نقدِّر: مصدره الهزيمة أو ضعف العزيمة من جهة، والخطأ في فهم حركة التاريخ من جهةٍ أخرى.. فضلاً عن الاستغراق في اللحظة التاريخية تلك وعدم الإلمام بخصائص الإسلام والدعوة الإسلامية من جهةٍ ثالثة.

نقدّم هنا مثل هذا التعليل ـ العابر ـ لأنَّ الذي أطلق هذا القول ـ كما وصفه الأستاذ السباعي ـ «لم يكن يُعهَد عنه ميلٌ سافر إلى محاربة الدعوة الإسلامية، وله في أوساطها أصدقاءٌ يحسنون الظنّ به» بالإضافة إلى أنَّ هذا القول جاء في سياق خطبةٍ أُلقيت في حفلةٍ أقامها حزبٌ سياسيّ كبير «لم يكن له سابقة عهدٍ في البحث في مثل هذه المواضيع، فعهدنا به ـ كما يقول الأستاذ السباعي ـ حزبٌ سياسيّ لا علاقة له بالدين، ولا ولع لأصحابه بمقارنة العقائد وتبنِّي بعضها ومهاجمة الآخر» وكان الهجوم قد تناول عقائد ثلاث كانت قائمةً في سورية آنذاك، يوم أُلقيت هذه الخطبة عام ١٣٧٤هـ ـ ١٩٥٥م في ذكرى العدوان الفرنسي على سورية في (٢٩) أيار (مايو) عام ١٩٤٥[١].

هاجم الخطيب الدعوات الثلاثة: القومية السورية، والشيوعية، والدعوة الإسلامية. ونعتَ الأولى بأنها ضيّقة الأفق، والثانية بأنها عالميةٌ تتأثّر بتوجيهٍ

---

(١) أغلب الظنّ أنَّ الخطيب المتحدث كان الدكتور عبد الوهاب حومد الأستاذ بكلية الحقوق في الجامعة السورية، وأنَّ الحزب المقصود هو حزب الشعب.

أجنبي، ونعت الدعوة الإسلامية بأنها خيالية لا يمكن أن تعيش، ولا بدَّ من أن تموت![1].

تساءل الأستاذ السباعي عن (مقياس) الواقعية والخيالية في الدعوات؟ وقال إنه لم يجد لذلك أصلاً «يرجع إليه في بحوث المعنيين بالدعوات والمذاهب الفكرية والاجتماعية» ولكنه استند إلى «التجربة في حقل الدعوة» وإلى استقراء التاريخ القديم والحديث.. إلى جانب «دراسة الدعوات والمذاهب التي قامت في مجتمعاتٍ متعددة ثم انقرضت وبادت، أو تحولت عن مبادئها وتبدَّلت في مناهجها».. ثم انتهى إلى القول إنَّ مقياس (الواقعية) في الدعوات وعلائم الحياة فيها: أن تجتمع لها ثلاثة عناصر رئيسية هي: **الذاتية والتقدمية والشمول**... وكشف في ضوء هذا المقياس أو من خلال البحث في هذه العناصر عن (مدى) تمتُّع الدعوة الإسلامية بالواقعية، وافتقار سائر الدعوات الأخرى التي أشار إليها المتحدِّث، وتلك التي لم يتعرَّض لها كذلك، وأعني القومية العربية.. إلى هذه الواقعية. وفرَّق في حديثه عن موقف القوميين العرب من الدين ـ في سياق التساؤل عن عناصر الواقعية في القومية العربية ـ بين قسمٍ من القوميين يحارب الدين، وقسمٍ يحسن الظنّ بالإسلام ولكنه يرى الدينَ خطراً على (الوحدة القومية)[2]... إلخ.

عنى الأستاذ السباعي بالعنصر الأول ـ الذاتية ـ «أن تكون الدعوة منبثقةً من طبيعة الأمة، منسجمةً مع خصائصها، مستوحاةً من حاجاتها.. حتى تكون تعبيراً روحياً صادقاً عن آمالها وطموحها» قال: «وهذا شرطٌ ضروريّ لاستجابة الأمة للدعوة وحياتها في قلوبها ومشاعرها».

وعنى بالعنصر الثاني ـ التقدّمية ـ «أن تكون الحركة الإصلاحية أو الدعوات الاجتماعية مسايرةً لتطور الحياة وتقدّم الحضارة...».

أما العنصر الثالث وهو الشمول، فمعناه «أن تحتوي الدعوات الإصلاحية مناهج الإصلاح لكلِّ نواحي الحياة في المجتمع الذي تقوم فيه، لأنَّ المجتمع

---

(١) راجع جريدة (الشهاب) العدد الثامن في (٢٧) شوال ١٣٧٤هـ ـ (١٩) حزيران (يونيو) ١٩٥٥م.

(٢) نذكِّر هنا بالنقد القديم للأستاذ السباعي لما قاله ميشيل عفلق عندما كان مدرِّساً للتاريخ بدمشق عام ١٣٥٦هـ. مجلة (الفتح) في ٢٣/ ١٢/ ١٩٣٧؛ وراجع فيما سبق، ص٩٣ ـ ٩٤.

وحدةٌ متماسكة؛ فالأخلاق لا تنفصل عن الاقتصاد، والسياسة لا تنفصل عن العلم. فالدعوة إلى إصلاح الأخلاق في أمةٍ لا يمكن أن تنجح إلا إذا رافقها إصلاحٌ في الأوضاع الاقتصادية فيها، والدعوة إلى تحرير الأمة سياسياً من الاستعمار أو الطغيان لا تنجح إلا إذا رافقها إصلاح الأخلاق ونشر العلم وتهذيب النفوس».

ويضيف الأستاذ السباعي قائلاً: «إنَّ حركتنا السياسية قد استنفدت من جهود الأمة نصف قرن، ولو رافقها إصلاحٌ أخلاقي واقتصادي وعلمي لكانت هذه المدّة كافيةً لأن تجعلنا في مقدمة الأمم قوةً وحضارة وكرامة. وجهود العرب في قضية فلسطين لو كانت منسجمةً في الميادين الأخلاقية والاقتصادية مع الميدان العسكري والسياسي لما كان في الدنيا اليوم شيءٌ اسمه إسرائيل. . ».

حول القوميين ونظرتهم إلى التاريخ العربي الإسلامي:

ونحبّ أن ننوِّه هنا ـ بهذه المناسبة، واستكمالاً لهذا الموضوع ـ بمحاضرةٍ قيّمة للأستاذ السباعي بعنوان: «نظرتنا إلى التاريخ العربي» جاءت رداً على نشرةٍ حزبية تحت نفس العنوان[1]. قال رحمه الله: إنَّ فكرة كاتب النشرة

---

(١) ألقى الأستاذ السباعي هذه المحاضرة في المركز العام للإخوان بدمشق مساء الثلاثاء في (٣٠) شوال ١٣٧٤هـ ـ (٢١) حزيران (يونيو) ١٩٥٥. والنشرة المذكورة صدرت باسم حزب البعث العربي الاشتراكي وكانت بقلم إلياس فرح، المدرِّس بدار المعلمين بحلب. راجع جريدة (الشهاب) الدمشقية العدد (٩) تاريخ ٢٦/ ٦/ ١٩٥٥.
وأشير بهذه المناسبة إلى أنَّ (علماء حلب) رفعوا مذكِّرة إلى رئيس مجلس الوزراء طالبوه فيها بعملٍ حاسم ضد هذا العمل درءاً للفتن. ومما جاء في هذه المذكرة أنَّ «هذا الرجل النصراني بسط لسانه في الإسلام وشرعته المطهَّرة كما يبسطه أشد الناس عداوةً وحقداً على حقائق الإسلام الثابتة، بحيث يقنع قارئها بأنه لو كان يملك هو ومن يرتاح لمثل مقالته من فئته أيَّ قوّةٍ لم يتأخر عن استعمالها في محاربة الإسلام ومحوه من البلاد؛ مؤازرةً للاستعمار وخدمةً للمستعمرين. . .» جريدة الشهاب العدد (٨) تاريخ (٢٧) شوال ١٣٧٤هـ ـ (١٩) حزيران (يونيو) ١٩٥٥م.
هذا، وقد تناول الأستاذ السباعي مسألة العرب والإسلام في محاضرات وأحاديث عديدة، منها (قاعة بحث) في كلية الشريعة بعنوان: (أثر القرآن في الحياة العربية) نُشرت في مجلة حضارة الإسلام في حلقتين. انظر العددين (٩، ١٠) من السنة الرابعة: نيسان وأيار ١٩٦٤. ومنها حديثان: الأول بعنوان: (الإسلام والعرب)، والثاني =

عن الإسلام تتلخَّص فيما يلي:

١ ـ أنه انقلابٌ عربيّ معبّر عن نفسية العرب في ذلك العصر، ومعناه أنه نابعٌ من نفس محمد، ومصنوع من العرب الذين كانوا في عصره.

٢ ـ أنه غير صالحٍ لكلِّ زمانٍ ومكان.

٣ ـ أنه إن كان فيه إنقاذٌ للعرب في الماضي، ففيه اختناقٌ لهم في الحاضر والمستقبل!.

وقد اتهم الأستاذ السباعي الكاتبَ بالجهل بالإسلام وبالاتجاهات العلمية الحديثة في سياق ردِّه وتفنيده لهذه المزاعم، وقال: «**إننا حين نعلن أننا جميعاً مواطنون في هذا الوطن متساوون في الحقوق والواجبات.. فهذا لا يعني أننا نسمح لأيِّ إنسانٍ أن يستغلّ هذه المواطنية ويستغل العروبة والقومية ليطعن في دين هذه الأمة ويسخر بتاريخها وحضارتها، ويحقِّق بذلك طائفيةً مستترة، وشعوبيةً مبطّنة!**»[1].

٤ ـ أخلاقنا الاجتماعية:

جمع الأستاذ السباعي في هذا الكتاب الأحاديث التي ألقاها من محطة الإذاعة السورية في الفترة الواقعة ما بين السادس من شعبان ١٣٧٣هـ (٩/ ٤/ ١٩٥٤م) والسادس من المحرم ١٣٧٥هـ (٢٥/ ٨/ ١٩٥٥م) أي خلال أربعة عشر شهراً. وقد بدأ بإلقائها بعد زوال حكم أديب الشيشكلي (في ٢٥/ ٢/ ١٩٥٤م) بنحو أربعين يوماً. وقد تناول الأستاذ في هذه الأحاديث ما طرأ على الأخلاق الاجتماعية أو أخلاق المجتمع من ضعفٍ وانحراف «بأسلوبٍ سهل يفهمه الناس على اختلاف ثقافتهم» وقد استند الأستاذ السباعي في هذه الأحاديث كما قال في المقدمة المقتضبة للكتاب «إلى القرآن والسنّة والتاريخ والتجربة والمشاهدة لأخلاقنا وأوضاعنا الاجتماعية بعد أن أصابني بعض لأوائها وأذاها». وأضاف: «وقد كان لي من حياتي العملية ـ سواء في **ميادين التربية أو السياسة أو الدعوة** ـ

= بعنوان: (أثر الإسلام على العرب). نشرا في المجلة المذكورة بعد وفاته رحمه الله. انظر العددين الثاني والثالث من السنة السابعة ١٩٦٦.

(١) انظر فقرةً بعنوان: (تجاوزات الفكر القومي)، ص٧٨ ـ ١١٠ من كتابنا: جذور الفكر القومي والعلماني.

ما جعلني أتحدث عن أخلاقنا حديثاً فيه القسوة أحياناً وفيه الصراحة، ولكني كنت أبغي الخير والقيام بالواجب الذي ألقاه الله على دعاة الإصلاح».

وقد ألحق بهذه الأحاديث الستة والعشرين مقالةً مهمة بعنوان: (رسالة العلماء) ـ الصفحات (١٩٧) إلى (٢١٣) ـ والتي صنَّف فيها علماءَ عصره إلى خمسة أصناف. ولعلنا لا نملك أن نعدل في هذا التصنيف الذي مضى عليه الآن نحو نصف قرن.. إلا القليل! وبخاصةٍ الصنفان الرابع والخامس... فإنَّ وجودهما لم ينقطع فيما يبدو خلال العصور. قال رحمه الله في علماء الصنف الرابع: إنهم علماءٌ فجّار أشرار، يتكسَّبون بالدين، ويتاجرون بالشريعة، ويتقرَّبون إلى كلِّ فاجر وطاغية وظالم وسارق بالتأييد والدعاء..» وقال في الصنف الخامس: إنهم «**علماء مصلحون يفهمون الشريعة على أنها نظامٌ للمجتمع، وإسعادٌ للناس، وتحرُّرٌ للجماهير..**».

ويبدو في هذا الكتاب: سلاسة القول وعذوبة البيان التي عُرف بها السباعي.. ولا أزال أذكر حديثه الذي كان بعنوان «بين الحزم والاستبداد» والذي كنت أستمع إليه في أواخر حزيران ١٩٥٤ وقد فرغت من امتحانات الشهادة الإعدادية.. وكانت لهجته آسرةً محبَّبة.. حتى إذا تحدث عن مآسي الاستبداد وجعل منها أنه يلبس الحقّ بالباطل، فيظلم وهو يزعم أنه عادل، ويهدم وهو يزعم أنه يبني.. أشار إشارةً واضحة إلى عهد أديب الشيشكلي.. فقال: «وليس أدلّ على ذلك من ماضٍ قريب كانت تسير فيه البلاد بخطًى سريعة نحو الإفلاس والانهيار، من حيث يزعم الطاغية أنه يسير بها نحو القوة والمجد..»[1]، وقد أدركت هذه الإشارة في ذلك الحين.. وإن كانت حماستي الشديدة لها لم تبقَ على حالها فيما بعد.

وأذكر هنا بمناسبة هذا الحديث عن الحزم والاستبداد أنَّ الأستاذ السباعي أبدى شكَّه في صحة نسبة المقولة الشائعة: «لا يُصلح الشرقَ إلا مستبدٌّ عادل» لجمال الدين الأفغاني رحمه الله «**فإنَّ المستبدَّ لن يكون عادلاً أبداً، والعادل لن يكون مستبداً أبداً. وما يقع الاستبداد إلا مقترناً بأبشع أنواع الظلم والبغي وانتقاص حقوق الأمة وإهدار كرامتها**». وقال رحمه الله: «ولعل الكلمة الصادقة هي أنَّ الشرق لا يُصلحه إلا حازمٌ عادل لا مستبدٌّ عادل؛ فإنَّ الحزم والعدل صنوان

(١) أخلاقنا الاجتماعية، ص٧٨ الطبعة الخامسة ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

لا يفترقان. . ونحن في أشد الحاجة إلى عدلٍ يصون الحقوق من استبدادٍ يهدر الحقوق ويزري بالكرامة»[1].

٥ ـ من روائع حضارتنا:

بعد أن فرغ الأستاذ السباعي من أحاديث كتابه السابق، أتبعه بأحاديث هذا الكتاب، أو بهذه الأحاديث التي جمعت في هذا الكتاب، وقد قدّمها من الإذاعة السورية في الفترة الواقعة بين (٢٠) من المحرم ١٣٧٥هـ (٨ أيلول (سبتمبر) ١٩٥٥) و(٢٣) من ربيع الثاني ١٣٧٥هـ (٥/ ١٢/ ١٩٥٥م) وذكر أنَّ الوقت لم يسعفه لمتابعتها، لأنه كان يستعدّ للسفر في رحلته العلمية الطويلة إلى ديار الغرب[2]، والتي تمت عام ١٩٥٦.

ومعنى ذلك أنَّ السباعي بعد نشاطه العلمي المتميز الذي قام به في لبنان ـ والذي سبق أن أشرنا إليه ـ تابع هذا النشاط بعيد رجوعه إلى دمشق في أواخر عام ١٩٥٣، حيث نشر بحثه القيم (مشروعية الإرث وأحكامه في الإسلام) ثم أتبعه بعد زوال حكم أديب الشيشكلي بهذه الأحاديث الإذاعية خلال عامي ١٩٥٤ و١٩٥٥ في الوقت الذي لم ينقطع عن كتابة بعض الأبواب الثابتة في جريدة (الشهاب) التي بُدئ بإصدارها في (٢) رمضان ١٣٧٤هـ الموافق (٢٤) نيسان (إبريل) ١٩٥٥م والتي جمع بعضها ـ أي بعض هذه الأبواب ـ في كتاب. . هذا عدا المحاضرات المتصلة وألوان النشاط الثقافي والدعوي. وقد أشرنا قبل قليل ـ على سبيل المثال ـ إلى محاضرته (نظرتنا إلى التاريخ العربي) التي ردَّ فيها على إلياس فرح في حزيران (يونيو) ١٩٥٥. كما أشرنا قبل ذلك إلى (أسبوع الخطر الصهيوني) الذي دعا إليه، وإلى خطبته وتأثيره في أسبوع التسلّح في عام ـ ١٩٥٦ ـ كما تحدثنا كذلك عن نجاحه في تأسيس كلية الشريعة في الجامعة السورية في هذا الوقت (زار القصر الجمهوري في ٢٤/ ١٠/ ١٩٥٤ وبدأت الدراسة بالكلية في ١٨/ ١٢/ ١٩٥٤) قبل أن يقوم على تأسيسها وإدارتها كذلك[3].

---

(١) المصدر السابق، ص٧٩.

(٢) من روائع حضارتنا، ص١٨ الطبعة الخامسة.

(٣) قال الأستاذ الدكتور ـ الطبيب ـ إسماعيل عزت وكيل جامعة دمشق: «أنشأَ في الجامعة كلية، وإنشاء كلية ليس بالأمر الهيّن. ورعاها حتى آتت أُكلها وأينعت ثمارها، واستمرَّ=

ثم اتصل هذا النشاط العلمي المكثّف برحلته العلمية الغنية إلى الجامعات الأوروبية ـ وهي رحلةٌ جديرة بأن تفرد بالبحث والتأليف ـ وهذا ما حملنا في صفحاتٍ سابقة على القول إنَّ عزوف السباعي عن العودة إلى المعترك السياسي كان قائماً. . وكان شديداً كذلك.

وقد أشرنا إلى ما قاله للسيد أكرم الحوراني في ذلك حين التقى به قبل الانتخابات التكميلية التي خاضها في شهر أيار (مايو) ١٩٥٧، أي التي جرت بعد تلك الرحلة العلمية الطويلة التي لمس الأستاذ السباعي آثارها وثمارها على الفكر الإسلامي والدراسات الاستشراقية، وعلى جموع الطلبة العرب والمسلمين الذين كانوا يدرسون في أوروبة، والذين استقبلوه بحرارة، وسألوه وحاوروه، واستمعوا إلى نصحه وتوجيهه، وتأثروا بآرائه وأفكاره.

لقد كان السباعي في قمة النضوج الفكري، وكان المأمول أن يتفرّغ لعمله الدعوي الكبير، مع ما يملكه من حسّ القيادة، وما بات يقف عليه من تجربتها، بل بما بات يملكه من القدرة على التنظير، ربما مع نفرٍ قليل جداً على مستوى العالم الإسلامي.

لقد كانت الدعوة الإسلامية في سورية ـ على وجه الخصوص ـ بأمسّ الحاجة إليه. . حين زُجَّ به في الانتخابات التي تحدثنا عنها وعن ملابساتها ومقدِّماتها! ولا نعتقد أنَّ الإخوان المسلمين في سورية ارتكبوا أفدح من هذا الخطأ، واقترفوا أكبر من هذه الخطيئة[1]! وبخاصةٍ وهم يعلمون أنَّ الذي كان يقوم بكل هذا النشاط، ويقدّم كل هذه الأعمال لا يتمتع ـ منذ وقتٍ طويل ـ بصحةٍ

= يرعاها ويهبها من روحه وفكره وقلبه ما شاءت».
من الكلمة المؤثِّرة التي ألقاها الدكتور عزت في حفل تأبين السباعي، وهي بعنوان: (مات رجل الجامعة). انظر نص هذه الكلمة في العدد الخاص من حضارة الإسلام، ص٥٤ ـ ٥٦.

(١) حدّثني الأستاذ عادل كنعان أن الإخوان كانوا ضد ترشيح الأستاذ السباعي، وأن مراكزهم أرسلت وفوداً لإثناء الشيخ عن هذا الترشيح، وأنه ـ أي الأستاذ كنعان ـ كان أحد أعضاء الوفد الذي جاء عن مركز حلب يحمل هذه الرغبة أو هذا القرار. ولكن الأستاذ السباعي قبل بالترشيح المذكور نزولاً عند رأي بعض أصدقائه، وكان على رأسهم فيما يبدو أستاذنا الدكتور معروف الدواليبي.

جيدة!! إنَّ ما دُفع إليه الأستاذ السباعي أو أهيب به لكي يقدم عليه ـ تحت أيّ شعارٍ وبأيّ سبب ـ كان يقرب من جريمة قتل.. لم تُطلق فيها النار على العالم المفكر المنظّر ـ والقائد المجاهد ـ مصطفى السباعي، ولكن أُطلقت على مسيرة العمل الإسلامي والدعوة الإسلامية في سورية.

ابتعدت عن الحديث عن (روائع حضارتنا) فقد ساقتني محاولة الربط بين الأحداث والوقائع إلى هذا الذي كتبت. وعلى الرغم من أنه جاء خارج السياق ـ كما يقال ـ فسوف أدعه في مكانه، وأعود إلى الحديث عن الكتاب المذكور، وإن كنت لست بحاجةٍ إلى مثل هذا الحديث وقد سبق لي أن قدّمت لهذا الكتاب القيم بمقدمةٍ مطولة تحت عنوان (بين يدي الكتاب) وسميتها (هوامش) وكان ذلك منذ أكثر من ربع قرن.

وقد سميتها (هوامش)[1] لأنَّ الأستاذ السباعي كان قد قدم لكتابه بنفسه حين تمّ نشره في حياته رحمه الله. لكن الرغبة في التعريف ـ الإضافي ـ بالكتاب، ومحاولـة الربط بين فصوله، مع التأكيد على تقديم العنصر الروحي في بنـاء الحضارة ـ أي حضارة ـ على العنصـر المادي.. بالإضافـة إلى الحديث عن الجسور التي عبرت عليها الحضارة الإسلامية إلى أوروبة... كل هذا جاء في الهوامش المذكورة في سياقٍ تعليميّ حين وقع اختيار وزارة التربية والتعليم في بعض البلاد العربية على هذا الكتاب ليكون «الكتاب ذا الموضوع الواحد» الذي يطالعه الطلبة في بعض صفوف مرحلة التعليم الثانوي. وقد وجدتني أقارن بين بعض آراء الأستاذ السباعي وآراء الطبيب الجراح الفيلسوف (ألبرت شفايتزر) في كتابه (فلسفة الحضارة) الذي كان قد ترجمه في ذلك الحين الدكتور عبد الرحمن بدوي.

وقد حملني على هذه المقارنة بوجه خاص ما وجدته من أن (شفايتزر) يلتقي مع الأستاذ السباعي في تقديم العنصر الروحي الأخلاقي في الحضارة، أو في عدّه هذا العنصر هو العنصر الحقيقي إذا ما قيس بالعنصر المادي! قلت: هذا مهم حتى لا يظن القارئ للكتاب أن تأكيد السباعي على العنصر الروحي الأخلاقي

---

(١) انظر الصفحات (٢١ ـ ٤٢) واخترت لها العنوان المذكور حتى تمهّد لمقدمة المؤلف كذلك، ولكن لم يراعَ هذا في طبعات الكتاب.

لا يعدو أن يكون نوعاً من (التعويض) أو القناعة بما تملكه العقيدة الإسلامية، أو نقدر نحن عليه أمام هذا التقدم العلمي الكبير الذي أصابته الحضارة المعاصرة.

لقد أوجز (شفايتزر) تعريف الحضارة بقوله: إنها التقدم الروحي والمادي للأفراد والجماهير على حدّ سواء. قبل أن يربط النوع الأول من هذا التقدم بسيادة الإنسان على نوازع الإنسان، والثاني بسيادة العقل على قوى الطبيعة. وهذا التقدم إنما يأتي في المرتبة الثانية في نظر شفايتزر لأنه لا يمثل في الحقيقة «تقدماً خالصاً، بل تقدماً تقترن فيه المزايا بالمساوئ التي يمكن أن تعمل في اتجاه البربرية.. فلابد أن تكون ثمت سيادة للعقل على نوازع الناس حتى لا يستخدم بعضهم ضد بعض القوة التي أعطتهم إياها السيطرة على هذه القوى؛ لأن ذلك يلقي بهم في كفاح للوجود أشد ترويعاً من ذلك القائم بين الناس الذين يعيشون على الفطرة والطبيعة البدائية»[1].

والذي نضيفه الآن: أنَّ هذا الكتاب جلّى بأسلوبٍ مشوِّقٍ صفحاتٍ مشرقةً من صفحات الحضارة الإسلامية، وعزَّز على نحوٍ غير مسبوق شعور الأجيال الناشئة بالانتماء إلى هذه الحضارة والافتخار بإنجازاتها.. ويكفي أن نذكر أنَّ هذا الكتاب تحدث عن (خصائص) هذه الحضارة، وأنَّ من فصوله الثلاثة عشر: الفصول التالية: **«النزعة الإنسانية ـ المساواة العنصرية ـ التسامح الديني ـ أخلاقنا الحربية..»** لنعلم مدى حاجتنا اليوم في ظل العولمة وشعارات حقوق الإنسان.. إلى مثل هذا الكتاب، وبخاصة أن هذه الفصول تضمنت مقارنات مهمة مع التاريخ الأوروبي والحضارة الغربية. وقد أبرزت هذه المقارنات ـ والوقائع ـ ما تمتعت به الحضارة الإسلامية من سبق وصدق.

والكتاب، بعد، يبرز مدى عناية الأستاذ السباعي ببحوث الحضارة والعمران، واطّلاعه على مصادر اللغة والأدب والتاريخ والاجتماع.. وربما بما يوازي اطّلاعه ـ الدراسي السابق ـ على كتب التفسير والحديث والعقيدة والفقه والأصول وتاريخ التشريع.

٦ ـ عظماؤنا في التاريخ:

سبق أن قدَّمتُ لهذا الكتاب عام ١٩٧٦ بمقدمةٍ جاءت في نحو أربعين

---

(١) انظر الهوامش المذكورة، ص٣٢.

صفحة، واحتوت على سبع عشرة فقرة، تحدثت في تسع منها عن المؤلف رحمه الله، وفي سائرها عن فصول الكتاب وعن دور العظماء والأبطال في صنع التاريخ لأنَّ حديث الأستاذ السباعي كان عن حظِّنا من عظماء التاريخ لا عن حظ عظمائنا في صنعه، بالإضافة إلى أنَّ حديثه في هذه الفصول كان من موقع الداعية والمربّي، فأحببتُ أن «أمتدّ» ببعض النقاط وأن أتعرض للاتجاه الجماعي في تفسير التاريخ أو صنعه، وهو الاتجاه الذي كان شائعاً أو يجري الترويج له في ذلك الحين، وربما كان الذي قدّمته أو ذهبت إليه في هذا الباب يمثّل اتجاهاً ثالثاً بين الفرديين والجماعيين. وقد حاولت في هذا الاتجاه أن أثبت دور (الفكرة) في صنع العظمة أو البطولة، بعيداً عن المذاهب الفردية والجماعية في تفسير التاريخ، وبعيداً عن المدارس الأوروبية في فهم خصائص العظمة والعبقرية.. تلك التي انطلق العقاد ـ على سبيل المثال ـ من إحداها في تحليله للعبقريات الإسلامية المشهورة (ص٢٢ من المقدمة).

لقد حاولت في بضع صفحات عرض الاتجاهين السابقين ونقدهما، مع التأكيد على «نقض مزاعم أصحاب المذهب المادي في التاريخ، الذين يؤمنون بالاقتصاد كدافع وحيد، وبالدهماء كصانع وحيد» وعلى ربط دور البطل أو العظيم ـ بوصفه طليعة للتاريخ ـ بالفكرة أو الأغراض والغايات ومع عدم إنكار دور الفطرة الموروثة والاستعداء في مواهب الخلق والتكوين «ولكن هذا بالقياس إلى الأغراض والأفكار شروط بجانب الأركان، بحسب تعبيرات الفقهاء.. وعلى هذا الأصل نفهم دعاء النبي ﷺ بأن يعزّ الله سبحانه الإسلام بأحب هذين الرجلين إليه: عمر بن الخطاب وعمرو بن هشام...» ص٢٥.

وأتابع الآن في قراءة هذه المقدمة التي مضى عليها ربع قرن لأرى فيها أثراً من المفكر الأستاذ عباس محمود العقاد، وأثراً من أستاذنا الشيخ العلاّمة محمد أبو زهرة.. وأتذكر الآن ملامحه ـ رحمه الله ـ وهو يحدّثني عن الأستاذ السباعي ويقول: «انتو بتعزّوه قوي!» ويقصد السوريين أو الشوام.. ثم يقول إنه لم يرَ هنا أعلى منه همّة، وأعظم منه نفساً، وأشد منه على الإسلام حرقة وألماً (ص٣٩).. رحم الله الجميع.

وقد طبع هذا الكتاب بعد وفاة الشيخ رحمه الله، لأنَّ الكتاب ـ كما قلت في الفقرة العاشرة من المقدمة المشار إليها ـ «مجموعة مقالات متفرقة كتب بعضها تحت هذا العنوان ـ عظماؤنا في التاريخ ـ وكتب بعضها الآخر تحت عنوان «في

مدرسة الروح»[1]، وكانا من الأبواب التي يكتب تحتها في جريدة (الشهاب) والتي أشرنا إليها في موضع سابق، في سياق الحديث عن نشاطه العلمي المكثَّف في عامي ١٩٥٤ و١٩٥٥ قبل رحلته العلمية.

وقد أشرت إلى هذا الكتاب في مقدمة كتاب (من روائع حضارتنا) ـ في الفقرة الأولى ـ حين قلت: «وليس كتابه رحمه الله عن (عظمائنا في التاريخ) إلا الصورة الأخرى لحديثه عن (روائع حضارتنا) والتعبير المقابل عن وجه الحضارة الإسلامية المشرق»[2]، وقد أضيف إلى هذا الكتاب بعض الفصول التي كان الأستاذ السباعي قد نشرها في (الشهاب) ليس تحت أحد العنوانين السابقين، أو التي نشرها فيما بعد في مجلّته (حضارة الإسلام).

الإمام حسن البنا:

وأحبّ أن أثبت هنا طرفاً مما قاله في **الإمام حسن البنا** أحد هؤلاء العظماء نظراً للصلة التي ربطته به ـ والتي تحدثنا عنها في موضعٍ سابق ـ واستكمالاً لهذه الصلة. قال رحمه الله: «ولقد كتب السيد رشيد رضا رحمه الله عن الإمام محمد عبده ثلاثة مجلدات في تاريخ أعماله ومآثره، فإذا أراد مؤرخٌ أن يؤرخ لحسن البنا على ذلك النمط، كان الحديث عنه في بضعة مجلداتٍ كبار...» ثم قال: «ولقد قُدِّر لي أن أعرف حسن البنا في أواخر حياته، وأن أكون على مقربةٍ منه في أيام محنته الأخيرة، ثم في أيام استشهاده. ثم قُدّر لي بعد ذلك أن أطوف في بعض أنحاء مصر، في مدنها وقراها، وفي ساحلها وداخلها، فوالله ما رأيتُ إنساناً أروع في الفداء، وأخلص في النصح، وأنبل في التربية، وأكرم في النفس، وأعمق أثراً في الإصلاح، من حسن البنا رحمه الله..»[3].

وأشير بهذه المناسبة إلى نقطةٍ مهمة ذكرها الأستاذ السباعي جاءت في سياق حديثه عن الإمام البنا وأشار فيها إلى الإمام محمد عبده، وتنطبق على معظم المصلحين والعظماء: قال رحمه الله: «وإذا غمط الناس قدرَ هذا المصلح الكبير في عصرنا الحاضر... فذلك شأن العظماء من معاصريهم في كلِّ زمان،

---

(١) انظر المقدمة المذكورة، ص١٨: عظماؤنا في التاريخ الطبعة الرابعة ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

(٢) من روائع حضارتنا، ص٢.

(٣) عظماؤنا في التاريخ، ص٢٤٧.

ألم ترَ الشيخ محمد عبده كيف كان في حياته متّهماً بالكفر والزندقة من علماء الأزهر، تجري الشائعات حوله في كل ناحيةٍ من نواحي شخصيته، لتبرز للناس بصورةٍ غير محبَّبةٍ إليهم، فما انقضى على موته نحو من ثلاثين سنة حتى كان الأزهر ـ علماء وطلاباً ـ يحتفلون بذكراه، ويمجّدون علمه ونبوغه وفضله»[١].

٧ ـ شرح قانون الأحوال الشخصية:

يقع هذا الشرح في ثلاثة أجزاء: الأول: في الزواج وانحلاله، والثاني في الأهلية والوصية، والثالث في أحكام المواريث. وقد ضمَّ الجزءان الثاني والثالث في مجلدٍ واحد يقع في اثني عشر وثلاثمئة صفحة، منها مئتان للجزء الأخير. ـ وأعني الطبعة المتداولة بعد وفاة الأستاذ السباعي رحمه الله ـ في حين تزيد صفحات الجزء أو المجلد الأول عن ثلاثمئة وثلاثين.

ويعدّ الكتاب بمجلّديه شرحاً موجزاً أو وسيطاً لقانون الأحوال الشخصية السوري. وهو الشرح الذي حلَّ في عام ١٩٦٠ محلّ الشرح المطوّل الذي كان الأستاذ السباعي قد بدأ فيه قبل ذلك بخمس سنوات، وأراد له أن يكون «شرحاً مستفيضاً للقانون مع المقارنة بين المذاهب الإسلامية، وبين القوانين الوضعية»[٢]، وقد وضعت (الملازم) الأولى من هذه الطبعة بين أيدي الطلاب، وكانت بين أيدي زملائنا المتقدمين علينا في كلية الشريعة، وقد اقتنيتها من بعضهم في الوقت الذي وضع الأستاذ بين أيدينا في العام الدراسي ٥٧ ـ ٥٨ الشرح المشار إليه، وقد سُمِّي في حينه (محاضرات مستعجلة) فقد حالت رحلته العلمية أولاً ثم مرضه الذي داهمه في أواخر عام ١٩٥٧ من متابعة الطبعة المطوّلة[٣].

ومع ذلك فإنَّ الشرح بصورته الحالية يحتوي على مقارناتٍ كثيرة مع المذاهب الأربعة، بل مع مذهب الشيعة الإمامية في بعض الأحيان.. بالإضافة إلى المقارنة مع بعض قوانين البلاد العربية وبخاصة القانون المصري، كما

---

(١) عظماؤنا في التاريخ، ص٢٢٤ الطبعة الرابعة ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م المكتب الإسلامي.

(٢) شرح قانون الأحوال الشخصية، ص١٨٩ المجلد الثاني ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م المكتب الإسلامي، ثم طبعت الأجزاء الثلاثة في مجلد واحد بدار الورّاق عام ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م.

(٣) المصدر السابق نفسه.

لا يخلو من المقارنة مع الشرائع السماوية في أحوالٍ نادرة.

ويقول الفقيه الثبت الدكتور وهبة الزحيلي: إنَّ السباعي «لم يكن مجرد ناثرٍ لمواد القانون أو مقلِّدٍ لكلٍّ ما فيه، وإنما كان مثال الفاحص الناقد، البصير بمواطن استمداده وأماكن استنباطه، فهيّأ له هذا: إبداءَ ملاحظاتٍ على القانون في نواحٍ شتى[1]... وملحظ السباعي في اجتهاده راجعٌ إما إلى مراعاة مبدأ المصالح المرسلة، أو العرف، أو حقّ الحاكم في تقييد المباح إذا كانت تترتب عليه أضرار، ونحو ذلك. وفي هذه السبيل لم يمنعه تمذهبه بالمذهب الحنفي وإيثاره له غالباً أن يفضّل حكماً فقهياً من مذهبٍ آخر إذا كانت أدلّته أقوى وسنده أرجح...» ويضيف الأستاذ الدكتور وهبة قائلاً: «ولم يقتصر على هذا، بل إنه قد لا يتقيد بمذهبٍ ما، كما فعل في تحديد عناصر الكفاءة في الزواج، حيث إنه ترك أمر ذلك إلى العرف، مما ينتج عنه أنه قد يوافق بعض الفقهاء وقد يخالفهم...»[2].

ثم يصف الدكتور الزحيلي الأستاذَ السباعي بأنه «ذو ملكةٍ فقهية كبيرة توافر له سعة الاطلاع، وحدّة الذكاء، وأصالة التفكير، وصفاء النفس والقريحة، وسعة الأفق والتجارب» وإنَّ كتابه «بالرغم من إيجازه بسبب مرضه: موضِّحٌ لكثيرٍ من دقائق الفقه، وحافل بجليل الفوائد..»[3].

ونضيف أخيراً أنَّ اهتمام الأستاذ السباعي بمقاصد الشريعة وفلسفة النظام، إلى جانب حرصه على الاجتهاد وإعادة تنزيل الأحكام الفقهية القديمة على الواقع المعاصر، أغنى كتابَه بنظراتٍ وبحوث ما تزال تخلو منها كتبٌ شرعية وقانونية مماثلة كثيرة.

٨ ـ المرأة بين الفقه والقانون

موضوع المرأة ولزوم نهضتها وتعليمها من الموضوعات التي لم تنقطع عناية الأستاذ السباعي بها منذ أن بدأ يكتب في مجلة (الفتح) عام ١٣٥٤ هـ (١٩٣٥م) وحتى أواخر حياته رحمه الله، وذلك كجزء مما نهض به وندب نفسه له

---

(١) انظر الفهرس الخاص بملاحظاته على القانون: المجلد الأول، ص٣٢٩ والمجلد الثاني، ص١٩١.

(٢) مجلة حضارة الإسلام ـ العدد الخاص (مرجع سابق)، ص٩٥.

(٣) المصدر السابق، ص٩٩.

كداعية ومصلح بوجه عام، وفي ضوء تدريسه لمادة (الأحوال الشخصية) في كلية الحقوق بوجه خاص. ونذكر أن المقالة السادسة التي كتبها في (الفتح) بتاريخ ٢رمضان ١٣٥٤هـ[1] كانت عن المرأة، وكانت بعنوان: **(المرأة المسلمة بين تعاليم القرآن وتسويلات الشيطان)**. ولا يُخفي هذا العنوان: تفريقه المبكر بين أحكام القرآن والعادات والتقاليد السائدة بشأن المرأة، ومعظم هذه التقاليد أو الكثير منها جاهلي، أو مما لا يمتّ لأحكام الإسلام بصلة! كما لا يخفى تفريقه بين النهضة والتأورب أو التغريب. وقد حمل في هذه المقالة حملة شديدة على إحدى زعيمات النهضة النسائية أو حركة تحرير المرأة، التي وقفت (على منبر جامعة تبشيرية في القاهرة) تتحدث عن هذه النهضة، وكان مما قالت: إن القانون السويسري لما حلّ محل القانون التركي القديم (!!) ربحت المرأة التركية حق المساواة في الميراث ومنع تعدد الزوجات! وقد ختم هذه المقالة بقوله:

«أنا ممن يعضد نهضة المرأة المسلمة، ولكن على أي أساس؟ أعلى أساس الدين أم على أساس التمرد عليه؟ أعلى أساس التمسك بتقاليد الشرق الصالحة، أم على أساس الاندماج في مدنية الغرب المتهتكة؟ أعلى أساس المحافظة على العفّة أم على أساس هتكها وإهدارها؟ وأخيراً: على أساس تعدد الزوجات بعقود شرعية، أم على أساس تعدد الزوجات والأزواج بغير عقود؟! بيّنوا لنا خططكم، وكلّمونا بعقولكم لا بشهواتكم»!

أما كتابه الذي نتحدث عنه **(المرأة بين الفقه والقانون)** فأصله محاضرة ألقاها الأستاذ السباعي على مدرج جامعة دمشق في الموسم الثقافي لعام ١٩٦١ ـ ١٩٦٢ بعد نحو عامين من إلقاء محاضرته في المكان ذاته عن (اشتراكية الإسلام). ولما أرادت الجامعة أن تضمَّها إلى مجموع محاضرات الموسم المذكور أعاد الأستاذ السباعي فيها النظر فبيَّن ما أجمل، وشرح ما أوجز «واستدلّ لكلِّ موضوعٍ من مواضيع هذه المحاضرة بالأدلة الشرعية، وبالوقائع التي تنشر عن حال المرأة الغربية، وبأقوال المنصفين من الغربيين في الدفاع عن تهجمات المتعصبين من مستشرقيهم ورهبانهم ودعاة الاستعمار البغيض الذين ما فتئوا يكرِّرون الهجوم على الإسلام والمسلمين لتبرير استعمارهم للبلاد الإسلامية، وإفهام السذَّج من الغربيين أنَّ الاستعمار الغربي لهذه البلاد نعمةٌ

---

(١) العدد رقم (٣٧٢) ـ العام العاشر، ص٥٥٢ ـ ٥٥٣.

وتمدين واقتلاع للتشريع ـ السيّئ في رأيهم ـ السائد في هذه البلاد»[1].

وكان من جملة ما أضافه أبيات للشيخ عبد الله العلمي الغزي الدمشقي أوردها في تفسيره لسورة يوسف يصوِّر فيها عذاب المتزوج باثنتين. . وأذكر أنه حذف بعض هذه الأبيات بناءً على اقتراح الأستاذ الدكتور أحمد السمان رئيس الجامعة في ذلك الوقت، بعد أن اطلع على نص المحاضرة أثناء زيارةٍ كان يقوم بها للأستاذ السباعي في منزله. . وقد أشهدني أستاذنا الدكتور السمّان ـ ضاحكاً ـ على هذا الاقتراح! وقد درسنا عليه (الاقتصاد السياسي) رحمه الله وقد جاءت الأبيات المذكورة في سياق حديثه عن (مساوئ) تعدد الزوجات، بعد أن عرض لتاريخ التعدد وضروراته الاجتماعية والشخصية، وما كان من سجالٍ بينه وبين المستشرق (أندرسون) رئيس قسم قوانين الأحوال الشخصية في معهد الدراسات الشرقية في جامعة لندن حول هذا الموضوع. وكان قد لقيه في زيارته العلمية إلى أوروبة عام ١٩٥٦. وقد أقام الأستاذ السباعي الحجَّة على (أندرسون) بأنَّ التعدد «نظامٌ صالح يفيد المجتمعات في كثيرٍ من الظروف إذا نُفِّذ بشروطه»[2].

وقد عدَّ الأستاذ السباعي قضية المرأة قضية المجتمع، بل «قضية كلِّ مجتمعٍ في القديم والحديث، فهي تشكل نصف المجتمع من حيث العدد، وأجمل ما في المجتمع من حيث العواطف، وأعقد ما في المجتمع من حيث المشكلات، ومن ثمة كان من واجب المفكرين أن يفكروا في قضيتها دائماً على أنها قضية المجتمع، أكثر مما يفكر أكثر الرجال فيها على أنها قضية جنسٍ متمِّم أو مُبهج»[3]، ولهذا صدَّر كتابَه بإحدى كلماته أو حكمه التي قالها في المرأة في كتابه (هكذا علمتني الحياة) وهي قوله: «قضية المرأة هي قضية كلِّ أبٍ وكلِّ ابن، وما دام في الدنيا آباءٌ وأبناء ففي الدنيا احترامٌ عميق لكرامة المرأة، والذين لا يفرِّقون بين الكرامة والابتذال

---

(١) المرأة بين الفقه والقانون، ص٧.

(٢) المصدر السابق، ص٨٧ ـ ٨٨ وقد ختم بحثه المقارن المطوَّل عن التعدُّد «بكلمة قيّمة للأستاذ العقاد» من كتابه: (المرأة في القرآن الكريم)، تبلغ صفحتين: ص١١٨ ـ ١٢٠ ثم قال: «وأخيراً فإنني أعلن بكل صراحة أنني من أعداء منع تعدد الزوجات تشريعاً وقانوناً، أو وضع العقبات في طريقه، وإن كنت من أنصار وحدة الزوجية في حياتي الشخصية. ولا غرابة في ذلك ولا تناقض، فإنَّ الإنسان العاقل يختار لنفسه الحياة الأفضل، والمتشرِّع الحكيم يختار لأمّته القانون الأشمل»، ص١٢٠.

(٣) المصدر السابق، ص٩.

هم غارقون في الأوهام والأوحال»! المرأة إذن هي حاضر الرجل ومستقبله! وقضيتها قضيّة المجتمع والأمة.

ويحتوي الكتاب عرضاً للمبادئ الإصلاحية التي جاء بها الإسلام في موضوع المرأة، والتي مثّلت تحريراً لها وتصحيحاً لأوضاعها أو ثورةً عليها. وقد أفضتْ به هذه المبادئ التي استخلصها من الموقف العام وجملة النصوص والأحكام إلى القول: إنَّ الإسلام أحلَّ المرأة المكانة اللائقة في ثلاثة مجالاتٍ رئيسة هي: المجال الإنساني، والمجال الاجتماعي، والمجال الحقوقي. ثم فصَّل القول في أسباب الفوارق التي قرَّرها الإسلام أو أقرَّها بين الرجل والمرأة في مسائل الشهادة والميراث والدية ورئاسة الدولة. وتحدث بعد ذلك عن مدى الحاجة إلى إصلاح أوضاع المرأة في ضوء التهميش الذي لحق بها عبر عصور التاريخ الإسلامي.

وأخذ في شرح الأحكام التي دخلت في قوانيننا أو أقرَّتها أوضاعنا المعاصرة للنهوض بهذه الأوضاع، وذلك في نطاق الأحوال الشخصية (بعض مسائل الزواج وقضايا الطلاق)، ونطاق الحقوق السياسية (حق الانتخاب وحق النيابة أو الترشيح)، وأخيراً في الحقوق والشؤون الاجتماعية (حق التعليم والعمل والتوظيف والاختلاط..)، وقد أسهب بعض الشيء في الحديث عن التعدد والاختلاط وحق العمل، وفي الوقت الذي قيَّد بعض هذه الحقوق والإصلاحات بقيودٍ أو وضع لها بعض الشروط؛ فإنه ذهب - في اجتهاده - إلى حجب حقّ النيابة عن المرأة في ضوء تجربته العملية التي تحدثنا عنها في الحقل السياسي. ولم يفُتْه أن يشير في مقدمة هذا الكتاب - أو هذه المحاضرة حين حوَّلها إلى كتاب - إلى أنَّ «الموضوع ليس هو عداوة المرأة أو صداقتها كما يلذّ لبعض الناس أن يصوِّروا ذلك لأغراضٍ غير خافية، وإنما الموضوع هو ما ينبغي أن يكون عليه وضع المرأة الصحيح في مجتمعٍ مسلم متماسك قويّ الأخلاق، متين الدعائم»[1].

بل إنه ختم مقدمة المحاضرة ذاتها بكلماته المعبّرة التالية: قال: «إنني سأخوض في بحثي هذا في بعض نواحي القضية مما يتصل باختصاصي ودراساتي وتجاربي كشخصٍ عالج القضايا العامة بالعيش فيها فترةً طويلة من حياته. وأنا قبل ذلك: مواطنٌ عليه أن يسهم في بناء كيان أمته الاجتماعي بما يستطيعه من

---

(١) المرأة بين الفقه والقانون، ص٨.

جهد. وقبل كلِّ شيءٍ فإني مؤمنٌ بأنَّ كرامة الإنسان مرتبطةٌ بحريته في تفكيره، وحريته في التعبير عن هذا التفكير. ولن يستهويني تصفيق الجماهير أو استهجانهم وإعراضهم بقدر ما يستهويني أن أخلص في توجيه التفكير في أمتي بدقّةٍ وعمق وإخلاص، ويخيفني أن أسكت عن الحقّ، وأساير في الخطأ، وأنجرف في التيار»[1].

٩ ـ هذا هو الإسلام:

وقد كتب تحت هذا العنوان: العبارة ـ التعريفية ـ التالية: «سلسلة رسائل تبحث عن الفكرة الإسلامية الحديثة» ولا ندري هل هي من وضع المؤلف أم لا؟ والراجح عندنا أنها ليست من وضعه؛ لأكثر من سبب، بخلاف العنوان الرئيس فهو من اختيار الأستاذ السباعي، وقد نشر تحته بعض هذه الرسائل منها بحث (مشروعية الإرث وأحكامه في الإسلام) من رسائل المجموعة الأولى[2]. وقد ضمَّت هذه المجموعة بالإضافة إلى هذا البحث: رسالتين أخريين هما: (منهجنا في الإصلاح) و(الدين والدولة في الإسلام).

أما المجموعة الثانية فقد احتوت على الكلمات والبحوث التالية: (جواب الإسلام على الشيوعية، المرونة والتطور في التشريع الإسلامي، نظام السلم والحرب في الإسلام، أصدق الاتجاهات الفكرية في الشرق العربي، العرب قبل الإسلام..)[3].

وقد تحدثنا عن أبرز هذه البحوث والمحاضرات فيما سبق، وبخاصةٍ عند الحديث عن نشاط الأستاذ السباعي في لبنان.

١٠ ـ أحكام الصيام وفلسفته:

يقع هذا الكتاب ـ في الطبعة التي بين يدي الآن ـ في نحو ستين ومئة صفحة من القطع المتوسط. ويخلو من مقدمة بقلم المؤلف على الرغم من أنه طبع في حياته رحمه الله[4].

---

(١) المصدر السابق، ص١٠.

(٢) انظر مقدمة المؤلف لهذه الرسالة ـ وهي الثالثة في هذه المجموعة، ص٤(٩٤).

(٣) لا تزيد المحاضرة الأخيرة ـ وقد ألقيت في حمص ١٣٦٣هـ ـ عن بضع صفحات.

(٤) كانت هذه الطبعة الأولى بدمشق ـ في المطبعة الهاشمية على ما أذكر ـ عام ١٣٧٦هـ، والطبعة التي رجعنا إليها نشر دار الوراق والمكتب الإسلامي عام ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

وقد استعرض المؤلف في القسم الأول من الكتاب ـ في نحو خمس وعشرين صفحة ـ آيات الصوم وأحاديثه (التي اشتملت على فضائل رمضان وأحكام الصوم) وأحاديث العيد. بالإضافة إلى هديه ﷺ في الصيام وشهر رمضان والعيدين.

أما القسم الثاني فقد تناول فيه المؤلف ـ في إحدى عشرة فقرة أو حديثاً ـ حكم الصوم وأسراره وفوائده وأثره في النفس والمجتمع والأمة. ويبدو أن هذا الشطر عبارة عن أحاديث ألقاها الأستاذ السباعي من الإذاعة السورية، أو أنه ألقى بعضها ونشر بعضها الآخر في الصحف والمجلات.

وبعض المعاني التي تضمنها هذا القسم يمكن عدّها امتداداً وتعميقاً لنظرات في الصوم سبق للأستاذ السباعي أن عبّر عنها في مقالات قديمة في مجلة (الفتح) نشرت في عامي ١٣٥٤هـ (١٩٣٥م) و١٣٥٦هـ (١٩٣٧م). وأقدم هذه المعاني التي قرأها السباعي في الصوم (القوة) والعدالة، والمساواة. بل إنني حين رجعت إلى هذه المقالات ـ واثنتان منها (١ ـ ٢) بعنوان (رمضان يحاضر)[1] وجدتني قد وضعت للثاني منهما عنوان (القوة) وكتبت معه العبارة التالية: أحد شعاراته فيما بعد: أسبابها وأصولها عنده.

وأنظر الآن في عناوين هذا القسم المهم لأرى فيها سائر الشعارات التي تبنّاها السباعي! لأن هذه العناوين تسلسلت على النحو التالي: (١ ـ الوافد الحبيب ٢ ـ رمضان شهر الحق ٣ ـ رمضان شهر القوة ٤ ـ رمضان شهر الحرية ٥ ـ فلسفة الصوم وأسراره ٦ ـ رمضان شهر المواساة... إلخ).

ولا يصعب على من يقرأ هذه الفصول الممتعة أن يلحظ ما فيها من روحانية غامرة، ومواساة (واشتراكية) تتراءى في معظم هذه الفصول، فوق ما فيها من رجولة مستعلنة وإرادة مستعلية، وقد وصف هو نفسه الصوم بأنه (شهر الرجولة المستعلنة التي تكبح جماح غرائزها، وشهر الإرادة المستعلية التي تأخذ باختيار وتدع باختيار) ـ ص٩١ ـ كما قال عن الصوم إنه (تربية روحية للشعب، يتعلم به الترفع عن الشهوات، والانطلاق في آفاق الخير، والتجرد عن أوضاع المادة) ص٩٠.

---

(١) انظر (الفتح) العدد ٥٧٧ في ٢٢ رمضان ١٣٥٦هـ (٢٥/ ١١/ ١٩٣٧) والعدد ٥٧٨ في ٢٩ رمضان ١٣٥٦هـ. وراجع مقالة بعنوان: من أحاديث رمضان في العدد ٤٧٥ تاريخ ١٦ رمضان ١٣٥٤هـ (١٢/ ١٢/ ١٩٣٥).

أما أبـرز معنيين بقيا في نفسي منذ قراءتي للكتاب يوم صدر، فيمكن تلخيص أولهما بعبـارة: رمضان شهر الإرادة. أما المعنى الثاني فهو كلمـة أحمد بن خضرويه التي صدّر بها الأستاذ السباعي فصل (رمضان شهر الحرية) وهي: «في الحرية تمام العبودية، وفي تحقيق العبودية تمام الحرية»!

ويمكن القول بـاختصار شديد إن هاجس مصطفى السباعي في هـذه الفصول، وربما في (فصول) حياته هو رحمه الله: **الحرية والعدل الاجتماعي**.

أما قراءة أوضاع الأمة في ضوء معاني الصوم وحكمه، ونعني الأوضاعَ التي كانت تعاني منها في تلك الفترة، وإن كان الكثير منها ماتزال تعاني منه حتى اليوم، فيكاد لايخلو منها فصل واحد من فصول الكتاب. وأكتفي منها في سياق حديثه عن رمضان شهر الحق، بقوله:

«أمن الحق أن تعيش جماهيرنا بالبؤس والشقاء، وأن يستأثر بالثروات نفرٌ من الأغنياء والماجنين؟

أمن الحق أن تكون السياسة كذباً وخداعاً وتضليلاً، وإثارة للغرائز، وقيادة للجماهير إلى منحدر الفساد والانحلال؟

أمن الحق أن يكون الدين تجارة عند بعض الفقهاء، وأن يكون العلم شَرَكاً عند بعض العلماء، وأن يكـون الحكم أداة للإذلال والاستغلال عنـد بعض السفاحين والجهلاء؟». ص٦٣.

لقد كان يقض مضجعه كذب الساسة وتفرق القادة، ودجل أدعياء الفقه والدين. وقال في فصل (فلسفة العيد): «**أريد أن لا ننسى فلسطين وطننا الجريح الذي يئن تحت أقدام الغزاة المتوحشين... وأن لا ننسى مغربنا العربي المجاهد الذي ستشرق عليه شمس العيد وهو يشيِّع الشهداء ويسعف الجرحى ويواسي المنكوبين.. وأن لا ننسى الأخطار التي تتهدد أمتنا في شتى أقطارها من مؤامرات للاستعمار، وقضاء على الحرية، واضطهاد للأحرار، واغتصاب للثروة التي تذهب إلى جيوب المستعمرين لتزيد في ترفهم ومجونهم وقوتهم على حساب شعبنا الفقير المسكين**». ص١٤٢.

وأخيراً فقد دعا (الحكام والقادة والمصلحين) ـ في سياق حديثه عن الزكاة ـ «إلى أن يعملوا على إيجاد مؤسسة شعبية باسم (**مؤسسة الزكاة**) تديرها خيرة أبناء الشعب، وتشرف الدولة عليها إشرافاً يمنع من تبديد أموالها، وتعمل على

تحقيق العدالة الاجتماعية، ورفع مستوى المعيشة والتعليم والصحة والأخلاق بين طبقاتها». ص١١٢.

١١ ـ السيرة النبوية: دروس وعبر:

بين يدي الآن الطبعة التاسعة من هذا الكتاب الصغير الحجم الجمّ الفوائد، ويعود تاريخ هذه الطبعة إلى عام ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م فقد كتب الله تعالى لهذا الكتاب الذيوع وسعة الانتشار، كسائر كتب الأستاذ السباعي. في حين أنَّ الطبعة الأولى تمت بعد وفاته رحمه الله بنحو أحد عشر عاماً. وكنت قد قدَّمت لها بمقدمةٍ مقتضبة (في ٤ شوال ١٣٩٢هـ، ٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٢) قلت فيها: «ما أروع الدروس التي طالعها الأستاذ السباعي في سيرة محمد ﷺ.. وما أروع الدروس التي أعطاها للدعاة وهو يتأسَّى بهذه السيرة، ويترسَّم خطاها في كلِّ حين».

وقد جاء التأخير المذكور بسبب أنَّ الأستاذ السباعي ترك هذا الكتاب على شكل (مذكّرات) أو أمالٍ كان قد وضعها بين أيدي طلبة كلية الشريعة حتى تكون مرجعاً قريباً بين أيديهم في مقرَّر (فقه السيرة) الذي كان يدرِّسه رحمه الله؛ ولم يفرغ رحمه الله لتفصيل القول في هذه المحاضرات على النحو الذي كان يلقيه على مسامع الطلاب والطالبات، يضاف إلى ذلك أنَّ هذه (المذكرات) التي انتهت بوفاة النبي ﷺ والتي شملت مقدمةً وستةَ فصول، كان ينقصها أربعة فصول حسب المنهج الذي رسمه المؤلف رحمه الله، ولم يكن من السهل أن تُضاف هذه الفصول بنفس الروح والآفاق التي حكمت هذه المحاضرات؛ فكان لا بدَّ من طبع هذه المذكرات، خصوصاً وأنَّ الأستاذ السباعي هو الذي صاغها ـ على هذا النحو الموجز ـ وقدَّم لها وعرَّف بها بنفسه من جهة، وأنَّ معظم الفصول الباقية يمكن عدّها بمثابة تعقيبٍ على وقائع السيرة، لأنها تدور حول (خصائص التشريع الإسلامي في المدينة) و(أخلاق النبي ﷺ ـ أو شمائله ـ وافتراءات المستشرقين والمبشّرين) و(أثره وأثر رسالته في العالم)[1].

وقد قال الأستاذ السباعي في مقدمته المشار إليها: «وبعد، فهذه مذكراتٌ كتبتها على عجلٍ وشدّةٍ من المرض بعد أن ألقيتها محاضراتٍ مفصّلة على طلاب السنة الأولى في كلية الشريعة، توخّيت فيها أن أبرز أوْضَح مظاهر الأسوة في سيرة

---

(١) انظر مقدمة الطبعة المشار إليها، ص١٣.

الرسول الكريم ﷺ، مما ينبغي على كلِّ مسلمٍ وداعية إلى الله عز وجل، وعالمٍ بالشريعة، وحاملٍ لفقهها، أن يتدبَّره ويجعله نصب عينيه، ليكون له شرف الاقتداء برسول الله ﷺ، وليفتح أمامه باب النجاح في دعوته بين الناس، وباب القبول والرضى من الله جلّ شأنه، وليكتب له شرف الخلود مع رسوله ﷺ في جنّات النعيم؛ فإنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [النساء: ١٣]».

يتضح من هذا: أن السباعي لم يقصد من هذا المؤلَّف أن يبسط القول في السيرة النبوية، فيسرد وقائعها ـ أو يعيد سرد هذه الوقائع ـ ويحقق في رواياتها، ولكنه اكتفى بعرض طرف من هذه الروايات بالقدر الذي يسمح له بالتعليق، واستنباط العبر والدروس، كما عبَّر هو نفسه عن ذلك في عنوان الكتاب، وفي مقدمته التي نقلنا عنها قبل قليل.

وأخيراً، أجد من حقّي ـ بل من واجبي ـ أن أعقِّب هنا بطرفٍ آخر مما جاء في مقدمتي المشار إليها: **قلت**: «يشهد الله: أننا، ونحن طلابه بُعيد تأسيس كلية الشريعة بجامعة دمشق، كنّا أحرص ما نكون على محاضراته وندواته في الجامعة، يوم كان المترفون يتمطّون في ردهاتها ويتثاءبون! وكان السباعي يحزم أمره ويعزم عزيمته، متوكِّئاً على عصاه، يعاني من آلام المرض ما تنوء بحمله الجبال، ويأخذ طريقه إلى قاعة الدرس في الوقت المحدد، يعلِّم طلاب الشريعة وروّاد المعرفة: الجندية الحقّة كيف تكون.. وشرف الانتساب إلى هذا النبي الكريم كيف يكون!... ما أروع ما علمنا من محاضرات السباعي أنَّ (القيادة) بكلّ معانيها، وجميع ميادينها وأبعادها، هي أبرز جوانب سيرة النبي ﷺ، وما علمنا من حياته وسلوكه هو ـ يرحمه الله ـ أنَّ (الجندية) هي أبرز جوانب هذه الحياة وذلك السلوك. والحقُّ أنه بروح هذه الجندية استطاع السباعي رحمه الله أن يجلِّي لنا صوراً رائعة من حياة الرسول القائد.. زعيم القادة، وبطل الأبطال»[1].

١٢ ـ هكذا علّمتني الحياة:

ينقسم هذا الكتاب إلى قسمين: اجتماعي وسياسي، وقد طبع القسم الأول في حياة الأستاذ السباعي رحمه الله، وقدّم له بنفسه في الأول من جمادى الآخرة ١٣٨٢هـ ـ الموافق (٢٩) من تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٦٢م واحتوى أكثر من

---

(١) المصدر السابق، ص٧.

ألف خاطرةٍ وحكمة من خواطره رحمه الله[1]. أما القسم الثاني الأقلّ حجماً، والذي لا تبلغ خواطره ربع القسم الأول، فقد طبع بعد وفاته بعد إضافة بعض مقالاته السياسية الموجزة.

وقد بدأ الأستاذ السباعي بتدوين (خطراته) هذه مجتمعةً أو بقسميها في شـهر ذي القعدة من عام ١٣٨١هـ الموافق لشهر نيسان (أبريل) ١٩٦٢م في مستشفى المواساة بدمشق، حين ألزمه أطباؤه بالركون إلى الراحة التامة، بعيداً عن القراءة والكتابة.. ومشكلات الحياة! لكنه لم يستطع أن يدفع عن نفسـه هاجس الكتابة والتدوين.. وقد جرت عادته (في السجون والأمراض والأسفار) بتدوين ما يعنّ له من خواطر وأفكار.. غير أنه فقد كلّ ما كان دوّنه من قبل[2]..

وقد وصف الأستاذ السباعي هذه الخواطر بأنها تمثّل تجاربه في الحياة، لم ينقل شيئاً منها من كتاب، ولا استعان فيها برأي أحدٍ من الناس.. قال: «وأعتقد أنَّ من حقّ الجيل الذي أتى بعدنا أن يطّلع على تجاربنا، وأن يستفيد من خبراتنا إذا وجد فيها ما يفيد. وهذا خير ما نقدّمه له من هدية؛ إننا لا نستطيع إن نملي عليه آراءنا إملاءً، وليس ذلك من حقّنا، وإنما نستطيع أن نقدم له النصح والموعظة.

«وخيرُ النصح: ما أعطته الحياة نفسها، وأبلغ الموعظة: ما اتصل بتجارب الحياة ذاتها.

«والناسُ وإن اختلفت مشاربهم وعقولهم وطباعهم؛ فإنهم يلتقون على كثيرٍ من حقائق الحياة، ويجتمعون على كثير من الرغبات والحاجات والأهداف»[3].

---

(١) رقم الخاطرة الأخيرة (١٠٦٠) ونأسف لأن ترقيم هذه الخواطر لم يبق على هذا النحو الذي تركه المؤلف فيما أسمي (الطبعة الأولى لدار الوراق) ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م. ورقم الخاطرة المشار إليها ـ في هذه الطبعة ـ (٩٨٠) ثم تتابعت الأرقام لتشمل القسم السياسي الذي جُمع مع القسم الاجتماعي في هذه الطبعة. والسبب في (تعديل) الأرقام يعود إلى ضم كل مجموعة من الخواطر تتناول (موضوعاً) واحداً تحت رقم واحد. وهذا في نظرنا عمل لم يصاحبه التوفيق، لأنه مخالف لما أراده صاحب الكتاب رحمه الله، فالسباعي لم يكتب (موضوعات) ولكنه كتب أفكاراً وخواطر، ومن حق كل فكرة أو خاطرة أن تفرد برقم مستقل على نحو ما فعل المؤلف الذي كان يعلم ما يفعل! والإحالات في كتابنا هذا على الطبعة الثالثة للمكتب الإسلامي.

(٢) ص٣ من مقدمة الكتاب.

(٣) ص٥ من المقدمة المذكورة.

هذا الكتاب المليء بالحكمة والتجربة، والذي يضع الأستاذ السباعي ـ فيما نرى ـ مع أصحاب الحكمة والبلاغة. . أو يرتقي به إلى منزلة الحكماء والبلغاء. يحتاج إلى دراسةٍ موسّعة مستقلة؛ لربطه برؤية الشيخ للحياة من حوله. . ولتاريخه هو الحافل بالدروس والعظات والتجارب. . فضلاً عن دلالته على ملامح شخصيته، وما كان يتمتع به من صفاتٍ نفسية وخلقية ـ وقد نستعين به أو نعود إلى طرفٍ منه عند الحديث عن مزاياه وعبقريته في القسم الثاني من الكتاب ـ وأكتفي هنا بطرفٍ مما علّقت به على هذا الكتاب في المقدمة التي كتبتها لكتاب (عظماؤنا في التاريخ) عام ١٩٧٦.

أشرت إلى مقابلةٍ صحفية كان قد أجراها معه محرر جريدة (الأيام) الدمشقية ـ التي كان يصدرها السيد نصوح بابيل ـ وحين سأله عن حكمته المفضلة؟ أجاب بأنها: «**الحياة طويلةٌ بجلائل الأعمال، قصيرةٌ بسفاسفها**» قلت: «فأكبرتُ يومها هذا الاختيار لما يدلّ عليه من علوّ الهمّة، وقوة الروح، وفهمٍ عميق لحساب السنين في عمر الإنسان. ثم علمت أنَّ هذه الحكمة التي قرأها الناس لأول مرّةٍ ليست إلا واحدةً من حكمه الغوالي التي خرج بها في عمره المديد بجلائل الأعمال، القصير بحساب السنين والأيام. . والتي كان في وسع أحدنا أن يقرأ حياة السباعي في ضوئها، قبل أن يقرأها له في صحيفةٍ أو كتاب!».

ثم قلت: «والدرس العميق الذي نخرج به من هذه الملاحظة هو أنَّ الحِكَم التي ضمَّها كتابه القيّم: (هكذا علّمتني الحياة) حِكمٌ عملية واقعية عاشها الشيخ رحمه الله بكلّ جوارحه وأحاسيسه وآلامه وآماله؛ اهتدى بنورها مرة، واكتوى بنارها مرة. . وعاش في دخانها وظلالها مراتٍ ومرات؛ بحيث يمكننا القول إنَّ هذا الكتاب يمثّل عصارة الفكر والروح في كلّ حكمةٍ من حِكمه، وكلمة من كلماته، وحرف من حروفه؛ لأنك تقرأ تحت ذلك كله تاريخاً حافلاً ـ أخذ طريقه إلى دنيا الواقع ـ من العمل الدائب، والعاطفة المشبوبة، والشجاعة المفرطة، والرجولة المستعلية، والتجربة الصادقة. . . والصبر الجميل»[1].

قلنا إنَّ الأستاذ السباعي دوّن هذه الخواطر جميعها في سياقٍ واحد. . ثم قام بعد ذلك بعزل الخواطر السياسية التي أرجأ نشرها إلى فرصةٍ أخرى تكون أكثر ملاءمةً من تلك الظروف: خصوصاً مع عدم رغبته أو استعداده ـ أيام مرضه ـ

---

(١) من مقدمتنا لكتاب (عظماؤنا في التاريخ)، ص٦ ـ ٧.

لإثارة المزيد من الخصومات. . وليس معنى ذلك أنَّ القسم الاجتماعي لم يُثر عليه بعض الخصومات، ولكنه كان يرى أنَّ ما يثيره هذا القسم ـ مع ندرته ـ شيءٌ يتقرّب به إلى الله عزّ وجل.

قال: «فالخصومات السياسية كثيراً ما لا يثاب الإنسان عليها، أما الخصومات الفكرية ـ وبخاصةٍ ما يتعلق منها بالدين والإصلاح الاجتماعي ـ فهي لا بدَّ واقعة، والثواب فيها متوافرٌ إن شاء الله لمن لم يبغِ في نقده إلا وجهَ الحقّ، وتخليص الناس من الأباطيل والأوهام»[1].

ولعل من المفيد أن أذكر بعد ذلك أنَّ فاتحة هذه الخواطر جميعاً كانت سياسية، وهي قوله: **«من اطمأنّ إلى القوة فهو مغلوب، ومن اطمأن إلى الجاه فهو مخلوع»** وقوله: **«في ضجيج الطبول تختنق أصوات الحرية، وفي صخب المواكب تطمس معالم الحقيقة»!**.

كتب ذلك وقد تناهى إلى سمعه وهو في المستشفى صخب الاستقبالات وضجيج المواكب!!.

والذي أذكره أخيراً أنه طلب منّي يوماً أن أجلس إليه حتى يملي عليَّ ـ في بضع جلسات ـ كلَّ قسمٍ من القسمين المذكورين على حدة، تمهيداً لطبع القسم الاجتماعي. . وحين بلغتْ منه الآلام مبلغها في الجلسة الأولى توقَّف. . فما كان منّي إلا أن استأذنته في أن يعطيني الكراريس التي كانت بين يديه ـ وكان يكتب بقلم الحبر الجافّ على كراريس من ورقٍ أسمر معهود ـ على أن أقوم بحسب اجتهادي بالفصل بين القسمين، وأترك له مكاناً يضع فيه عنوان الخاطرة، فوافق. . ولما عدتُ إليه بعد أيامٍ أبدى ارتياحه وسروره وهو يتصفّح ما بين يديه. . وقال: يبدو أنك لم تخطئ التقدير أو التقسيم ـ أو كلمة نحوها ـ ثم دعا لي رحمه الله.

وحين بعث إليَّ الأخ الناشر بالقسم الثاني لأضع لفقراته عناوين ـ تمهيداً لنشره ـ لأن الأستاذ السباعي لم يفعل ذلك قبل وفاته ـ لأنه لم يكن قد فرغ من إعداده بعد ـ وجدتُ أنَّ بعض الفقرات يصلح لها أكثر من عنوان. . فكتبتُ لبعضها عنوانين، ولبعضها الآخر ثلاثة ـ وكان ذلك في أحوالٍ قليلة ـ وتركت

---

(١) من مقدمته رحمه الله لكتابه: (هكذا علمتني الحياة)، ص٧.

فرصة الاختيار والترجيح للأخ الناشر الذي أشرف على الكتاب وقام بالتقديم له. . ثم طبع الكتاب وقد ترك أمر العناوين على ما هو عليه. . وقد أحببت أن أنبّه إلى هذه النقطة حتى لا يظنّ أنَّ ذلك كان من عمل الأستاذ السباعي رحمه الله.

وغنيٌّ عن البيان أن نشير هنا إلى أنَّ هذا الكتاب ـ بقسميه ـ لم يكن في أيام مرضه فحسب، بل كان من أواخر ما كتب من كتبٍ رحمه الله، لأنَّ كتاباته في مجلة (حضارة الإسلام) لم تنقطع حتى آخر يومٍ في حياته، فضلاً عن دروسه ومحاضراته التي لم تنقطع بدورها كذلك. لقد كان مضى على الأستاذ السباعي في المرض خمس سنين وبضعة شهور عندما قدّم القسم الاجتماعي من هذا الكتاب للطبع، أو عندما كتب مقدمته بتاريخ ١/ ٥/ ١٣٨٢هـ، ٢٩/ ١٠/ ١٩٦٢.

١٣ ـ القلائد من فرائد الفوائد:

وأخيراً فإنَّ كتاب (القلائد من فرائد الفوائد) الذي قدَّم له الأستاذ السباعي بتاريخ (١) ربيع الأول ١٣٨٢/ (١) آب (أغسطس) ١٩٦٢ كان قد نشر قسمٌ منه في مجلة (حضارة الإسلام) في بابٍ يحمل عنوان (فرائد الفوائد: جمع واختيار أبي حسان) وهو عبارة عن «فوائد مجموعة من كتبٍ متعددة في أبحاثٍ متنوعة» كما قال. أو اختيارات من كتب التراث «مزجت فيه الحكمة بالأدب، وضمّت فيه الطرائف والمُلَح إلى عيونٍ من مسائل التفسير والحديث والفقه والعقيدة وغيرها من علوم الشريعة، ولم يخلُ من عبرةٍ تاريخية، أو أثر أدبي، أو بحث لغوي. . » قال الأستاذ السباعي: «وها أنذا أُصدر الجزء الأول من هذه الفوائد، وهو يحتوي على ما نُشر في السنتين الأولى والثانية من (حضارة الإسلام) مضافاً إليها ما يعادل ضعفها من فوائد لم تنشر من قبل»[1].

* * *

(١) من مقدمة الكتاب، ص٤ ـ ٥، ويقع الكتاب في حوالي مئتي صفحة من القطع الصغير.

مرضه وإنتاجه العلمي خلاله

أصيب الأستاذ السباعي كما قلنا في مقدمة الكتاب بالشلل التشنّجي في كامل الطرف الأيسر، وكان يسبب له آلاماً حادّة.. وكانت تتشنّج أعصابه وعضلاته من النوبات التي تعاوده. وقد أجمع الأطباء على أنَّ السبب الأول لهذا المرض هو إرهاق الأعصاب بما لا تتحمّله! يقول الأستاذ السباعي: «وقد صبرت أعصابي على إرهاقي لها بضع عشرة سنة حتى ناءت بحمل ما أحمِّلها من هموم وأحزان، فكان منها أن أعلنت احتجاجها بإيقافي عن النشاط والعمل إيقافاً تاماً بضعة شهور، ثم استطعتُ بعدها أن أعود إلى نشاطي الفكري في التدريس والتأليف برغم إلحاح الأطباء عليَّ بترك ذلك، ولكني لم أستطع اتّباع نصائحهم لظروفٍ شتّى لا قِبل لي بدفعها..»[1].

وبقيت هذه النوبات الحادّة تعاوده بين الحين والحين وتسبب له صداعاً شديداً وآلاماً حادة في رأسه ويده ورجله وشقّه الأيسر.. ولقد أصاب أستاذنا العلاّمة الدكتور يوسف العش حين قال فيه: «ولقد عاش مريضاً سبع سنواتٍ سويّاً، ينخر المرض في جسمه نخراً: آلامٌ مبرحة تزهق منها النفس، وتسقط معها الهمّة، ويذهب العزم، لكنه لم يخنع للمرض، ولم يأتِ الألم على قوته، كان يتألّم لكنه كان يبتسم، وكانت تتشنّج أعصابه وعضلاته من النوبات التي تصيبه، فما أن تزول النوبة حتى يعود ضاحكاً لا يشكو ولا يتحسّر..».

وكنت قد أشرت إلى هذا في مقدمتي لكتابه (عظماؤنا في التاريخ) حين رسمت له هذه الصورة التي ما تزال مطبوعةً في خيالي حتى الآن.. فقلت: «ولطالما رأيته ـ رحمه الله ـ يمسك بيمينه القلم، ويرتجف تحت يساره القرطاس، يستجيب من قمة آلامه لما تمليه عليه القريحة النافذة، والروح العميقة.. والعقل القويّ، غير عابئ بما يقرؤه جليسه على وجهه من آثار الآلام العصبية الحادّة! وكأنها إنما ترتسم على وجهٍ آخر غير وجهه، وتحط على جسمٍ

---

(١) من مقدمة (هكذا علمتني الحياة) القسم الاجتماعي، ص٤.

آخر غير جسمه. . . كانت آلامه هي التي تحدثنا عن نفسها! أما هو ـ شهد الله ـ فلم يكن يجأر بالشكوى إلا بمقدار ما يعلّمنا الصبر على قضاء الله، والخضوع لحكمته، والصبر على بلائه. . »[1].

ويقول الأستاذ أبو الحسن الندوي: «وقد أخبرني رحمه الله بالمرض الذي لم يفارقه وكانت فيه وفاته، ولو ابتُلي به إنسانٌ عاديّ لم يرزق ما رُزق من قوة الإيمان وقوة الإرادة، ولم تملكه العقيدة والدعوة والتحرّق للمسلمين، لكان كافياً لتعطيله وتوقيف كلّ نشاطٍ له وانشغاله بنفسه، ولأعذره الناس. ولكن الأستاذ السباعي رحمة الله عليه لم يزده هذا المرض المرهق، وهو تشنّج الأعصاب وشلل نصف الجسم، لم يزده إلا نشاطاً وحركةً دائبة وإنتاجاً قيّماً. . »[2].

لقد داهمه المرض بعيد رجوعه من زيارةٍ قام بها للاتحاد السوفييتي مع وفدٍ من جامعة دمشق بدعوةٍ من جامعة موسكو، وقد كانت هذه الزيارة في شهر حزيران (يونيه) ١٩٥٧ بعد نحو شهرٍ من الانتخابات التكميلية التي تحدثنا عنها، وكانت وفاته في (٣) تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٦٤.

لقد كتب الأستاذ السباعي في أيام مرضه من الكتب التي تحدثنا عنها الكتب التالية: (شرح قانون الأحوال الشخصية ـ بطبعته الكاملة التي أشرنا إليها ـ واشتراكية الإسلام، والمرأة بين الفقه والقانون، والسيرة النبوية، وهكذا علمتني الحياة، والقلائد من فرائد الفوائد. يضاف إلى ذلك: الزيادات التي ضمّنها كتابه (السنّة ومكانتها في التشريع الإسلامي) والتي بلغت مئة وعشر صفحات، وجاءت في مقدمة أو تمهيد (من ص١ إلى ٤٤) وفصلٍ ضمن الكتاب بعنوان: مع أبي ريّة (ص٣٢٠ ـ ٣٧٣) وملحقين بآخر الكتاب (ص٤٥٩ ـ ٤٧١). وقد تضمنت هذه الصفحات ردود السباعي العلمية العالية على مطاعن أبي ريّة وتشكيكه في السنة بوجه عام، وفي الصحابي الجليل أبي هريرة بوجه خاص. علماً بأن هذه المطاعن قامت على التدليس والكذب وتحريف الأقوال والنصوص فضلاً عن سوء الفهم والقصد؛ بل تعدت ذلك كله إلى البذاءة التي يترفع عنها أدنى الناس مروءة وعلماً! حتى إن أحد العلماء الباحثين ـ الدكتور محمد رجب البيومي ـ قال إن أبا رية «لا يستحق الالتفات إليه»! ورأى أن الذي حمل الأستاذ السباعي على الرد عليه

---

(١) من مقدمتي لكتابه (عظماؤنا في التاريخ)، ص١٤.

(٢) مجلة حضارة الإسلام، ص١٤ العدد السابع/ السنة الخامسة كانون الثاني (يناير) ١٩٦٥.

أنه «رأى بعض الأقلام الشهيرة قد انخدعت به، فآثر نقده». وأضاف: «ولم ينقد فقط، بل دكّ الكتاب دكاً حتى سوّاه بالتراب»[1].

ونشير هنا مرة أخرى - أو ثالثة - إلى أن الأستاذ السباعي في رده على أبي رية، وجد نفسه مضطراً لإعادة الحديث عن كلٍّ من الشيعة والمستشرقين؛ لأن (آراء غلاة الشيعة التي جهروا بها في مؤلفاتهم)، و(آراء المستشرقين التي بثوها في كتبهم وفي دائـرة معارفهم)[2] كانت أهم المصادر التي عـوّل عليها أبو ريـة في مطاعنه وشبهاته وشتائمه!

وقد تحدثنا عن موقف الشيعة من الحديث، وموقف الأستاذ السباعي من قضية التقريب في أعقاب حديثنا عن كتاب (السنة...). أما رأي الأستاذ السباعي في الاستشراق، وموقفه من المستشرقين، فسوف نتحدث عنه بعد قليل؛ علماً بأنَّ جملة آرائه التي بثّها في مقالاته وأحاديثه الأخرى جمع (معظمها) بعد وفاته في رسالةٍ خاصة، وطبعت تحت عنوان: (**الاستشراق والمستشرقون: ما لهم وما عليهم**)[3].

مجلة حضارة الإسلام:

هذا، وقد كان للأستاذ السباعي في أيام مرضه عملٌ علميّ جليل آخر هو إصداره لمجلته الفكرية الجامعة: (حضارة الإسلام) التي أشرنا إليها في موضعٍ سابق بمناسبة الحديث عن جهوده في خدمة القضية الفلسطينية. وقلنا: إنها حلّتْ محلّ مجلة (المسلمون) التي كان يشرف عليها سعيد رمضان.

صدر العدد الأول من (حضارة الإسلام) في المحرم من عام ١٣٨٠ (صدر العددان الأول والثـاني معاً: المحرم وصفر - تمـوز وآب (يوليـو وأغسطـس) ١٩٦٠ - واستمرت بعد ذلـك في الصدور حتى عـام ١٩٨٠ - وبقي الأسـتاذ السباعي يرأسها ويشرف على تحريرها حتى وفاته رحمه الله، أي مدة تقرب من خمسة أعوام. وقد كتب فيها عشرات الافتتاحيات - ما يقرب من أربعين - وكانت

---

(١) السباعي بأقلام محبّيه وعارفيه، ص٢٧٨.
(٢) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، ص٤.
(٣) خلتْ هذه الرسالة من بعض الفقرات المهمة التي وردت في صلب كتاب (السنَّة ومكانتها في التشريع الإسلامي) راجع الصفحة ١٨٨ من هذا الكتاب على سبيل المثال.

الافتتاحية تتراوح بين ثلاث وخمس صفحات، وتتناول أهم أحداث الساعة فكرياً وثقافياً وسياسياً. . وتمتاز هذه الافتتاحيات بقوة الربط وعمق التحليل. . إلى جانب الرؤية الحضارية الشاملة، الأمر الذي يجعل جمعها وإعادة طبعها من جديد عملاً علمياً دعوياً مهماً، وله فوائده المعاصرة، وبخاصةٍ وقد دخلنا في عصر (صدام الحضارات) أو العصر الذي كاد يفرد فيه الإسلام من بين سائر الأديان، وتفرد حضارته وثقافته من بين سائر الحضارات والثقافات، بالنقد والتخويف! إنَّ **تحويل اسم المجلة من (المسلمون) إلى (حضارة الإسلام) ليس عملاً عابراً في هذا السياق**، لأننا ما نزال نقف على أهميته وفلسفته عاماً بعد عام. . حتى وصلنا اليوم إلى عصر (نهاية التاريخ) وصدام الحضارات الذي يتحدث عنه الآخرون.

قال الأستاذ السباعي في افتتاحية العدد الأول المذكور: «نحن أمةٌ لها ماض، وعندها تراث، وبين أيديها بناء، وفي عقولها فلسفةٌ ورسالة، وفي عيونها سناءٌ ونور، وفي قلوبها إيمان ويقين، وفي أخلاقها نبل وشرف، وفي نفوسها تقى وصلاح، فلنا من بين هذه الأمم الناهضة كلها شأنٌ غير شأنها، ومن ثمة كانت علينا واجباتٌ أكبر من واجباتها. والأمم الغنيّة لا تستجدي بل تعطي، والأمم البصيرة لا تُقاد بل تقود، والأمم القوية لا تُدفع بل تَدفع، والأمم المفكّرة لا تهدم بل تبني.

«. . . وإذا كنا أمّةً حضارية قد أسهمنا في بناء الصرح الحضاري بأنظف يد، وأكمل عقل، وأسلم قلب، وأكرم خُلُق، وأقوى مادة؛ فإنَّ تراثنا الحضاري لا يزال حيّاً تحتاج إليه هذه الإنسانية التي تعيش اليوم قلقةً معذّبة: تطعم وهي تشكو من الجوع، وتشرب وهي تعاني من الظمأ، وتدلّ على السعادة وهي تتيه في الشقاء، وتتعرف على الصحة وهي تئن من وطأة المرض! . .».

ولكن إعادة طبع هذه الافتتاحيات يستلزم التعليق عليها أو على كلِّ واحدةٍ منها أو التقديم لها بما يضعها في ظروفها ومناسبتها وإطارها الزمني أو التاريخي، لأنها تحمل طابعاً سياسياً أو تناولت أهم أحداث الشهر الذي كتبت فيه كما قلنا قبل قليل، وقد لا يخرج عن هذا الاعتبار أو هذه الضرورة سوى القليل من هذه الافتتاحيات.

وأذكر بهذه المناسبة أنه سافر مرةً للاستشفاء، وطالت سفرته بعض

الشيء، فقمت بكتابة افتتاحية أحد الأعداد[1] ـ بأسلوب الشباب الحماسي ـ فلما عاد سُرَّ بما أقدمتُ عليه ـ وكنت مع أخي الأستاذ محمد بسّام الأسطواني نتولى بعض شؤون المجلة بإشرافه وتوجيهه ـ وبعد بضعة أيامٍ حضر الأستاذ إلى كلية الشريعة بصحبة شخصيةٍ عراقية مرموقة، فمضيت معهما إلى مكتب الأستاذ محمد المبارك عميد الكلية ـ وكنت معيداً بها ـ فلم نلبث بعد أن استقر بنا المجلس، حتى أثنى الضيف على العدد الأخير من المجلة، ـ وقد اطلع عليه بعد وصوله إلى دمشق ـ وسأل الأستاذ السباعي عن كاتب الافتتاحية ـ لأنها كانت موقَّعةً بالحروف ـ فالتفت الأستاذ نحوي ضاحكاً وهو يقول: هل عندك مانعٌ أن أقول له إنك كاتبها؟ . . . وبقيت مع كثيرين غيري نلقى منه التحفيز والتشجيع في مناسباتٍ شتّى. . رحمه الله.

إنَّ المزايا التي تتمتع بها افتتاحيات المجلة، والتي أشرنا إلى طرفٍ منها قبل قليل، تجعل التنويه ببعضها أو محاولة الاقتباس من بعضها الآخر أمراً صعباً، وربما ليس بدقيقٍ أو موضوعي كذلك. . ومع ذلك فإنني أجد نفسي مدفوعاً إلى هذا وذاك في أقلّ سطورٍ ممكنة، لوضع القارئ في صورة هذه الافتتاحيات على وجه الإجمال، وللتنويه ببعض النقاط والمسائل لأغراضٍ تتصل ببحوث الكتاب مما لا يخفى على القارئ. أشير إلى افتتاحية العدد الثامن من السنة الثانية (شعبان ١٣٨١هـ وشباط (فبراير) ١٩٦٢م) بعنوان: (**أثر الدعوة الإسلامية في الإصلاح السياسي**) التي تصلح خلاصةً أو مقدمة لما تحدثنا عنه في المشهد السياسي والثقافي الذي صدَّرنا به هذا الكتاب، وإلى افتتاحية العدد الرابع من السنة الأولى (ربيع الثاني ١٣٨٠هـ وتشرين الأول ١٩٦٠) بعنوان (**الإسلام والحضارة**) والتي قال فيها:

«وفي غمار هذا الظلام الشامل الذي تعيشه البشرية اليوم، في إطارٍ من النور المصطنع، والتقدم العلمي الذي استغله صانعو الحروب ليكون أداة خرابٍ ودمار للقيم الإنسانية ومُثلها العليا واطمئنانها الروحي، ينبغي أن نتساءل: **لماذا لا يتقدم الإسلام اليوم ليقوم بدوره العظيم في إنقاذ الإنسانية من شقائها الحاضر**

---

(١) وكانت بعنوان: (مَن لتاريخ هذه الأمّة) ـ العدد الثاني من السنة الرابعة: ربيع الثاني ١٣٨٣هـ ـ أيلول (سبتمبر) ١٩٦٣م.

الأسود، ودمارها الشامل المرتقب؟ قد يكون ذلك ممكناً، بل ليس من سبيلٍ للإنقاذ سواه، لولا عائقان اثنان:

أولهما: المفهوم المؤلم الخاطئ الذي انتهى إليه الإسلام كعقيدةٍ ونظام.

ثانيهما: الواقع المتخلف الذي تعيش فيه شعوب الإسلام ودوله كمجتمعاتٍ ودول ذات قيمـةٍ محدودة بين المجتمعات والدول التي تحمل لـواء الحضارة اليوم.

«أما مفهوم الإسـلام فإنه بما تراكم عليـه من غبار القرون التي خطاها، وأوهام الشعوب التي اعتنقته، ومؤامرات الخصوم الذين ما يزالون يناصبونـه العداء.. **لم يعد له ذلك المفهوم الإعجازي الذي يخلق الحضارات، ويبدِّد عن المجتمعات الإنسانية سحب الظلمات..**».

ثم عدَّد المفاهيم السائدة للإسلام في عالم الإسلام وشعوبه، وهي المفهوم الصوفي والمفهوم العاميّ والمفهوم الرسمي والمفهوم الاستعماري[1]! وعرَّف المفهوم (الرسمي) للإسلام بأنه «الذي يتظاهر به أو يدَّعيه بعض الملوك والأمراء والمتسلِّطين، على أنه خطابٌ يمدح فيه الإسلام، وصلاةٌ تحشد لها الجنود والصحف والإذاعات، وصيامٌ تُمَدُّ فيه الموائد للكبراء والمتخمين والمفطرين! ومن وراء ذلك منكراتٌ يتندَّى لها الجبين، وظلمٌ اجتماعي تموت فيه (الملايين) جوعاً وبؤساً، من حيث تنفق فيه الملايين عربدةً ومجوناً!».

ثم تحدث عن مفهوم الإسلام الصحيح أو الفاعل، والذي أخرج أمةً وأقام حضارة؛ فقال في مواصفاته:

«أما الإسـلام الذي هو: (وحدانيـة) من أصفى عقائـد التوحيـد وأكملها وأروعها نقاءً.

و(عقل) من أنضج العقول وأوعاها للعلم وأكثرها للحضارات بناءً

و(روح) من أشرف ما تتصف به الروح علوّاً وسموّاً وعملاً في الحياة بنَّاءً.

---

(١) تناول هذه القضية على نحو آخر في افتتاحية عدد ربيع الآخر ١٣٨٤، آب (أغسطس) ١٩٦٤ بعنوان (تجزئة الإسلام) وهي من أواخر ما كتب قبيل وفاته رحمه الله. ويبدو أنها بقيت أحد همومه على الدوام.

و(خُلُق) من أنبل ما تعرفه الأخلاق سماحةً ورحمة وثورة على الظلم وإباءً.

و(تعاون) من أروع صور التعاون الاشتراكي عدالةً وحباً وإخاءً.

«أما هذا المفهوم للإسلام، وهو الذي جاء به محمد ﷺ وأقام به حضارته الخالدة، فهذا ما لم يعد معروفاً إلا عند أفرادٍ متناثرين هنا وهناك، إن كانوا يتكاثرون يوماً بعد يوم، فإنهم الآن أبعد وأضعف ما يكونون عن تقدم الركب لإنشاء الحضارة المرتقبة المنقذة».

وبمناسبة هذا الحديث عن الإسلام وحضارته.. أشير إلى الكلمة الأخيرة التي ختم بها أحد الصحفيين الألمان مقابلةً له أجراها مع الأستاذ السباعي في منزله في شهر تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٦٣، وهو الصحافي (غوستاف فيشر) المختص بشؤون الشرق الأوسط، والمكلَّف بإعطاء تقارير عن دراسته إلى خمسٍ من محطات الإذاعة والتلفزيون في ألمانية (الغربية في ذلك الحين). لقد تناولت هذه المقابلة مسائل كثيرة في الإسلام والمسيحية والحضارة الغربية، وبخاصةٍ مسألة المرونة والتطور بين الكنيسة الكاثوليكية والإسلام![١]..

قال (فيشر) في ختام هذه المقابلة: «أشكرك كثيراً، فقد نبَّهتني إلى حقيقةٍ كنّا غافلين عنها، وهي أننا لا نبهركم بمظاهر الحياة الاجتماعية عندنا، وأنكم تعرفون مساوئها فتحاولون الابتعاد عنها، كما أشكرك على تصحيح ما كنت أعتقده عن الإسلام، ولقد كنت من قبل أظنّ أنني أعرف الناس بالإسلام والمسلمين، وبمشكلاتهم الحضارية؛ فتبيَّن لي أنني أجهل الشيء الكثير، فشكراً لك..».

وأشير بعد ذلك إلى افتتاحيةٍ له بعنوان: (**نهضتنا بين الأصالة والتبعية**)[٢] استهلّها بقوله: «من سنن الله في الكون أن تستفيد كلُّ أمةٍ ناهضة من تجارب الأمم التي سبقتها في الحضارة، وأن تقتفي أثرها في ميادين العلم والصناعة والاقتصاد وغيرها، غير أنَّ الأمة ذات الشخصية المستقلة المعتزَّة بتراثها الحضاري

---

(١) انظر نص هذه المقابلة بعنوان: الإسلام والحضارة الغربية في مجلة حضارة الإسلام ـ السنة الرابعة ـ العدد الرابع، تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٣، ص٣٦.

(٢) العدد الرابع السابق من السنة المشار إليها.

ـ كأمتنا ـ تأبى أن تذوب في كيان الأمم القوية المتقدمة في الحضارة، وتأبى أن تتبعها في كلِّ مناهج حياتها ووسائل معيشتها؛ فلكلِّ أمةٍ ظروفٌ خاصة بها، وبيئة تنفرد بها عن غيرها، ولكل أمةٍ طرازٌ في التفكير قد تنفرد به عن غيرها وقد تلتقي معه. هذا عدا ما لها من تراثٍ حضاري وتشريعي خالد، فإنها تأبى لها كرامتها الشخصية أن تتبع غيرها كالببغاء دون أن تستفيد من تراثها وحضارتها. إنَّ أمةً كأمتنا في هذا الطور من أطوار نهضتها «تستفيد» و«لا تذوب» و«تأخذ» و«لا تستجدي» و«تنظر» ولا «تنبهر». هكذا تفعل الأمم التي تريد الحياة متصلةً بمن سبقها إلى الحياة من آبائها وأجدادها . . ».

وقد ختم هذه الافتتاحية بقوله:

«إننا لا نشكّ ـ وسيثبت التاريخ ذلك ـ في أنَّ كلَّ تجاهلٍ للإسلام في مرحلتنا الحاضرة جهلٌ أو مؤامرة! وليس في واحدٍ منهما ما يشرِّف هؤلاء الجاهلين أو الحاقدين، وإنَّ أمتنا لا تغتفر لهم صنيعهم هذا، والتاريخ سينحى عليهم بأكبر اللائمة؛ فما في الأرض اليوم دينٌ يحلّ مشكلات الحياة كالإسلام، ولا خُلقٌ ينشر الصفاء والسلام بين أبناء الإنسانية جميعاً كخُلقه. **وإنَّ الذين يتجاهلون هذا الدين وأخلاقه قومٌ لا يصلحون للحياة أبداً»**.

وقد لا يتّسع المجال بعد هذه اللمحات حول مسائل **الحضارة**، لأكثر من إشارةٍ أخرى لموضوع (**الدعوة**) الذي شغل الأستاذ السباعي وكان عنوان حياته.. وأكتفي من ذلك بهذه الكلمات أو العبر والنتائج التي أوجز فيها القول في افتتاحيةٍ بعنوان: (**الإسلام والدعاة**).

قال رحمه الله: «. . . وهذا تاريخ الإسلام منذ بزوغ فجره حتى اليوم، ما يزال تتلاحق فيه أفواج الدعاة جيلاً بعد جيل؛ كلما هلك منهم عَلَمٌ قام من بعده أعلام، وكلما هوى منهم في الطريق مصلحٌ تتالى من بعده مصلحون، وكلما هزَّتهم نكبةٌ ارتفعت رؤوسهم من بعدها شرفاء صادقين لا تزيدهم النكبات إلا صدق عزيمةٍ وشدّة مراس.

«ودعاة الإسلام اليوم مدعوون لمتابعة طريقهم الذي اختاروه لأنفسهم وهم عارفون بما يلحقهم من أذًى وحرمان وهجوم وعدوان، متَّخذين من الأحداث التي عاصروها فرأوا فيها ما أهوى بالضربات على رؤوسهم أحياناً، وما أحاط بسمعتهم وكرامتهم من افتراءٍ وتشويه أحياناً أخرى، عبراً تجنِّبهم

عثرات المستقبل، وتبصّرهم الطريق الصحيح إلى نشر الإسلام السمح النيّر الصافي ـ كما أنزله الله ـ بين أبناء أمتهم والآخرين الذين لا يزالون يُزرون به، ويكيدون له، وتمتلئ نفوسهم حقداً عليه.

«ولعلَّ من أكبر العبر التي أفادوها من تجارب الماضي وأحداثه: **أن يجعلوا الدعوة إلى الله خالصةً ـ ما استطاعوا ـ من كلِّ ما يجلب لها العداوات، ويؤلِّب عليها الخصوم، ويوصد قلوب الناس دون الاستماع إلى صوتها العذب، وهدفها النبيل، وغاياتها المثلى.**

«ولعل من أكبر تلك العظات أن يعرفوا كيف يحزمون أمرهم متعاونين غير مختلفين، قد حدَّدوا أهدافهم ووسائلهم بدقّةٍ وإحكام، وقدَّموا للناس ما جاء به الإسلام من حلٍّ لمشكلات المجتمع بتفصيلٍ ووضوح، وميَّزوا بين أصدقائه وأعدائه بعلاماتٍ لا مجال فيها للهوى ولا للحب ولا للبغض، ولا للمصلحة الذاتية؛ وإنما تستوحى من المقاييس الواضحة في كتاب الله وسنَّة رسوله، ومبادئ الإسلام الثابتة وأهدافه العليا؛ فلا يلتبس عندهم الأمر بين الصديق والعدوّ، ولا بين المسالم والمحارب، ولا بين المحبّ والمبغض.

«وقد يكون من تلك العظات: أن لا يُدلوا على الناس إن أحسنوا العمل، وبذلوا النصح، وصدقوا في الدعوة؛ فإنَّ الإعجاب بالعمل محبِطٌ للأجر، مجلبةٌ للذمّ. وأن لا يتهرَّبوا من علاج الأخطاء حين تتَّضح لهم؛ **فإنَّ الخطأ منارٌ يهدي السالكين إلى الطريق الصحيح**. وكثيراً ما أدى تتابع النجاح إلى غرورٍ يقود صاحبه إلى أوعر المسالك وأبعدها عن الهدى والرشاد.

«ومن أكبر تلك العظات: أن يدركوا **أنَّ تبليغ رسالة الإسلام إلى الناس وإقناعهم بها ليس بالأمر السهل، ولا بالمنال القريب** كما كانوا يتصوَّرون! فالأعداء كثر، والأهواء شتّى، والغفلة عميقة، وحبائل الشيطان تمتدّ ذات اليمين وذات الشمال، ولم تكن الضلالة في عصرٍ من العصور كما هي في عصرنا الحاضر، أشدّ سلطاناً وأكثر خداعاً وأقوى إغراءً وأبلغ فتنة».

وقد ختم هذه الافتتاحية بقوله:

«إنَّ الإسلام يخوض في عصرنا الحاضر معارك متلاحقة لا أغالي إذا قلت إنها أكثر المعارك التي خاضها الإسلام عنفاً وكيداً وبُعد مدى. ولسنا نشكّ في أنَّ الله تبارك وتعالى ناصرٌ دينه، ومعزٌّ كلمته، ومخزٍ أعداءه؛ فليشمِّر عن ساعده مَن

أعدَّ لهذه المعارك جلباباً من الصبر والتقوى والأمل، وليثق بوعد الله من آمن بالله واليوم الآخر: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [غافر: ٥١ ـ ٥٢].

أقول مرةً أخرى: إن هذه الافتتاحيات ـ بالإضافة إلى أعماله في المجلة ـ بحاجةٍ إلى جمعٍ ودراسة للخروج منها بالدروس والعبر، وبخاصة في نطاق (الدعوة الإسلاميّة) وما يتصل بها من أسباب الضعف وعوامل القوة، وفي مجال الوقوف على عوامل الكيد للإسلام وأسباب العداوة له من قبل بعض الجهات وأصحاب الدعوات الأخرى في الداخل والخارج على حد سواء.

وأكتفي أخيراً بهذه الكلمات التي جاءت في آخر افتتاحية العدد الأول من السنة الخامسة (ربيع الأول ١٣٨٤ ـ تموز (يوليو) ١٩٦٤) وهي من أواخر ما كتب من افتتاحيات[1]، قال رحمه الله: «ألا ليت الذين ينحرفون بنا عن الإسلام اليوم

---

(١) وهي بعنوان: (هل نحسن الاستفادة من ذكرى المولد؟) وقد أعقبتها فقط افتتاحيتان في شهري ربيع الآخر وجمادى الأولى (آب وإيلول) الأولى بعنوان: (تجزئة الإسلام) والثانية أو الأخيرة التي سبقت وفاته كانت بعنوان: (الطريق الصحيح لحلّ مشكلاتنا) وقد علّق فيها على مؤتمر القمة العربي الثاني. ومما جاء فيها قوله: «لقد كان القادة الذين درؤوا أخطار الأمس البعيد يؤمنون بالإسلام ديناً يحلُّ المشكلات، وبالمسلمين أمةً واحدة تجمعهم المصائب، وبالإيمان بالله واللجوء إليه، والاعتصام بالأخلاق المحاربة، أقوى وسيلةٍ من وسائل النصر. فهل هو الحال كذلك بالنسبة لقادة اليوم؟ ليس الجواب على ذلك صعباً على المراقب البصير!» أما الافتتاحية التي علّق فيها على مؤتمر القمة الأول، والتي كانت بعنوان: (رمضان ومؤتمر القمة) فقد ذكّر فيها المجتمِعين في القاهرة بالحقائق التي أعلنها الإسلام لتحقيق النصر في أيِّ معركة.
وقد جاء في الحقيقة الثالثة من هذه الحقائق قوله: «إنَّ للحرب أخلاقاً لا يُنال النصر إلاَّ بها، ومن أهمها وأقواها: شدَّة البأس، ورجولة الأخلاق، والصبر عند اللقاء؛ فإن انصرفت الأمة إلى حياة اللهو والعبث والمجون، واندفعت وراء غرائزها وشهواتها، وتركت لسفهائها أن يفسدوا أخلاقها، ولمجّانها أن يثيروا غرائزها، ولعابثيها أن يصرفوها عن حياة الجدّ والعمل والاستعداد، كان نصيبها الهزيمة المؤكّدة مهما تبجّحت بالأقوال، وقرعت الطبول، وملأت الدنيا صراخاً وغروراً وهياجاً! ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦].
العدد السادس ـ السنة الرابعة: شعبان ١٣٨٣هـ ـ كانون الثاني (يناير) ١٩٦٤م.

من حكام العرب والعجم . . . يفهمون أنَّ سلخ الشعوب عن دينها أمرٌ مستحيل، وبخاصةٍ إذا كان هذا الدين الذي يراد إقصاؤها عنه هو الإسلام . وأنَّ كلَّ تجربةٍ من هذا القبيل لا بدَّ من أن تفشل مهما طال الزمن، وإنَّ من الخير لشعوبهم أن يوفِّروا عليها هذا الزمن الذي تتيه فيه بين حقيقتها وبين الأوهام التي تفرض عليها، وأنَّ من الخير لمن كان حسن النية مخلصاً في تقدّم المسلمين أن يوفِّر هذا الزمن ليبني مجده ومجد أمته على أساسٍ حقيقي ثابت أصله في الأرض، وفرعه في السماء» .

مشاركات أخرى:

ولم تكن هذه الافتتاحيات كلَّ مشاركته في تحرير المجلة، فقد كان له بعض المقالات، والكثير من الردود والمناقشات والتعليقات، إلى جانب التعريف العلمي ببعض الكتب والإصدارات[1]، وكتابة تراجم بعض العلماء والشخصيات الذين كان يفتقدهم الوطن أو الأمّة، وتمتاز هذه التراجم بالإحاطة والنفاذ.

مع الإسلام:

وإذا كانت كلّ هذه الأعمال تعدل كتاباً أو كتابين يضافان إلى الكتب التي

---

(١) انظر على وجه الخصوص تعريفه بكتاب (الأمير شكيب أرسلان) تأليف الدكتور سامي الدهان رحمه الله. العدد التاسع من السنة الأولى: آذار (مارس) ١٩٦١ وقد وصف الأستاذ السباعي الأمير شكيب بقوله: «الأمير شكيب من أبرز أعلام الإسلام في النصف الثاني من هذا القرن (الرابع عشر الهجري): عالمٌ شاعر كاتب مؤرخ مجاهد مصلح، متعدِّد نواحي العظمة والعبقرية. أدركته في السنوات العشرين من أخريات حياته، واتصلت به عن طريق مؤلفاته ومقالاته التي كان ينشرها في مجلة (الفتح) القاهرية لصاحبها الأستاذ الكبير محب الدين الخطيب، ثم اتصلت بالأمير شكيب رحمه الله شخصياً منذ سُمح له بزيارة بلاده العربية والإسلامية، فاجتمعت به في القاهرة، ثم في بيروت في أيامه الأخيرة، وكلما امتدت المعرفة به والإصغاء إليه والقراءة له، ازددتُ إيماناً بعظمته ونبوغه وعلمه الواسع الغزير، وصادِق غيرته على الإسلام والمسلمين». وقال فيه أيضاً إنه «كان لسان العرب المبين، وكاتب الشرق الأكبر، وعلم الإسلام الخفَّاق، وسهم المسلمين المُشرَع في وجه الاستعماريين وأعداء العروبة والإسلام في كلِّ بقعةٍ من بقاع العرب والمسلمين». وانظر نص الكلمة البليغة المؤثرة التي ارتجلها الأستاذ السباعي على قبر الأمير شكيب ساعة دفنه ـ عليهما رحمة الله ـ بتاريخ ١٠/ ١٢/ ١٩٤٦ . مجلة حضارة الإسلام، ص٨٢، العدد الخاص.

أَلَّفها الأستاذ السباعي في أيام مرضه؛ فإنَّ المجلة احتوت كذلك على كتابٍ ثالث يتمثَّل في جملةٍ من المقالات تبلغ نحواً من عشرين نشر معظمها تحت عنوانٍ جانبي هو (مع الإسلام) وذكر أنها سلسلةٌ من الأحاديث المذاعة تنشر لأول مرة، وأنها سوف تطبع في كتاب تحت العنوان المذكور[1].

كما ذكرت المجلة أن هذه المذاعات (من آخر ما كتب فقيد الإسلام السباعي[2] ويبدو لنا الأمر كذلك، لأنه استشهد في عُرض حديثه عن تشويه الاستعمار لموقف الإسلام من المرأة بكتابه (المرأة بين الفقه والقانون)[3] ولأسباب أخرى تتصل بحصيلة التجارب وكثافة الاختصار والتركيز. وإن كان من الملاحظ أن النبرة الدعوية ـ الحماسية قد توحي بأنها من أحاديثه التي قدمها من الإذاعة السورية في أوائل الخمسينيات. ويعود السبب في ذلك إلى أنه كتب هذه الأحاديث لإذاعة المملكة العربية السعودية فيما يبدو، وتوجَّه بها ـ على وجه الخصوص ـ إلى شباب تلك الديار المباركة وفتياتها؛ توعيةً بأهداف الإسلام ومزاياه وحقائقه التي ربما غطّت عليها ثقافة عصر الركود أو قام الاستعمار بتشويهها في العصر الحديث. لقد عاد السباعي الذي أنهكه المرض ليلبس ثوب المحاماة، ولأمة المحارب!

ولهذا، فإنه في حين استهلّ هذه الأحاديث بخطاب (الإخوة المؤمنين والأخوات المؤمنات) فقد قال في أواخر الحديث الأول: «ذلك بعض الحديث عن أهداف الإسلام العظيم الخالد، وأنتم ياأبناء هذه البلاد المقدسة أعلم مني بما كان لهذه الأهداف من بالغ الأثر في تغيير مجرى التاريخ والحضارات، فمن بلادكم: من مكة أم القرى، من المدينة مثوى الرسول العظيم ﷺ ومقر الخلفاء الراشدين، ومن شتى أنحاء هذه الجزيرة العربية انطلقت كتائب الخير والتعليم والإنقاذ، لا مستعمرة ولا مستذلة ولا متجبّرة! بل هادية مرشدة تحطم الأغلال عن عقول الشعوب وإراداتها وحرياتها، وتذكرها بجلال الله الذي لا ينبغي أن يخضع أحد حق الخضوع إلا لجلاله وعظمته»[4].

---

(١) انظر العدد الأول من السنة السابعة: حزيران (يونيه) ١٩٦٦، والعددين ١ ـ ٢ من السنة ٨، حزيران وتموز (يونيه ويوليو) ١٩٦٧، والعدد السادس من هذه السنة كذلك.

(٢) انظر العدد ٦ من السنة ٨، تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٧.

(٣) المصدر السابق، ص١٣.

(٤) حضارة الإسلام، العدد الأول، السنة ٧، ص١٤ و٦٩.

كما أن معظم هذه الأحاديث لم يخلُ من مثل هذا التخصيص أو هذا الخطاب؛ ففي حديث بعنوان (أثر الإسلام في العالم) توجه في آخره بهذا الخطاب:

«يا شباب العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه، يا شباب العرب في كل ديار العرب، يا شباب هذه الديار المباركة ويا فتياتها، يا رجالها ونساءها، يا أيها المؤمنون من كل جنس ولون. . .

« . . لا يخدعنكم عن الإسلام مخادع، ولا يصرفنكم عنه ضال مبغض، بل استمسكوا بعروته، واستضيئوا بهديه، تكونوا خير أمة أُخرجت للناس، وخير أمة تنقذ الناس اليوم من ضلالاتهم وأوهامهم.

«يا شباب الإسلام لا تضلوا، فهذا هو الطريق، ولا تتحيروا فهذا هو القائد، ولا تتعثروا فهذا هو النور»[1].

وفي أحاديثه عن المرأة التي لم تخلُ من إضافات مهمة في تفسير بعض الآيات، ختم بعضها بهذا النداء: «يا فتاة الإسلام، وبخاصة يا فتيات العرب المسلمات، وبالأخص يا فتيات مكة والمدينة: إذا جاز لفتاةٍ أن تتحدث عن تحرير المرأة في العصور المظلمة؛ فارفعن رؤوسكن تيهاً وإعجاباً بأنه من بلادكن النائية، من جبالكن الجرداء، من رمالكن اللاهبة، ارتفع أول صوت في الدنيا يعلن كرامة المرأة ويحررها، وقام أول مصلح بتحطيم قيود المرأة وأغلالها»[2].

هذا، وقد أشار إلى (طبيعة) المخاطبين بهذه الأحاديث حين قال في حديثه الأول: «إني في حديثي هذا، والأحاديث التالية بعده إن شاء الله، لا أتحدث إلى جاهل يدّعي العلم، ولا إلى متعصب غلبه الهوى. وإنما أريد أن أتحدّث إلى شباب الإسلام وفتياته، إلى رجاله ونسائه، إلى خاصّته وعامّته؛ إبلاغاً لدعوة الله، وتحذيراً من مزالق الجهل، وتنبيهاً إلى ضغائن الصدور.

ومن أبرز موضوعات هذه المقالات: العناوين التالية: (الأهداف الكبرى لرسالة الإسلام ـ أثر الإسلام في العالم ـ مزايا الخُلق الإسلامي ـ أثر الخلق

---

(١) حضارة الإسلام، العدد ٤، السنة ٧، إيلول (سبتمبر) ١٩٦٦، ص١٢.

(٢) حضارة الإسلام، العددان ١ و٢، السنة ٨، حزيران وتموز ١٩٦٧، ص١١.

الإسلامي في نهضتنا وقوتنا) إلى جانب المقالات التالية التي ضمَّها موضوعٌ واحد أو دارت حوله، وهو: (**تشويه الاستعمار لحقائق الإسلام**) فقد ذكر في مقالاتٍ متعددة الصور التالية من صور هذا التشويه: (موقفهم من الرسول الكريم ـ حديثهم عن المرأة في الإسلام ـ تفسيرهم للقضاء والقدر ـ موقفهم من زواج النبي ﷺ ـ تشويه معنى الدين ـ تشويه مهمة الدين في المجتمع ـ تشويه معنى الجهاد. . .).

ولدى استعراضنا لهذه الأحاديث وجدنا أن الحديث الأول الذي لخّص فيه الأستاذ السباعي (الأهداف الكبرى لرسالة الإسلام) والأحاديث التي خصّها بـ(مزايا الخلق الإسلامي) تفرض نفسها في هذا السياق، لأن التعريف السريع بهذه الأحاديث ربما أسهم في رسم بعض الملامح الإضافية للأستاذ السباعي كمؤلف وعالم وداعية: وبخاصة أنه أشار في أول حديث من أحاديثه عن النظام الخلقي إلى كتاب أو مؤلَّف بعنوان (حقوق الحيوان في الإسلام) دعا الله تعالى أن يوفقه لإخراجه؛ أي أننا هنا أمام كتاب آخر كان يرغب في تأليفه، بعد أن أشار إلى فكرته وبعض ملامحه. وربما كان من واجبنا أن نشير إلى طرفٍ من هذه الملامح.

سمات الأهداف الكبرى لخاتمة الديانات:

لقد شاءت إرادة الله (لأسباب رتبها وعلم الناس بعضها) أن يكون الإسلام خاتمة الديانات والشرائع فلا دين بعده. وقد قال السباعي: «إن من شرائط الدين العالمي الذي يطلب من جميع الناس اتباعه والإيمان به:

ـ أن يحدد أهدافه العامة تحديداً لا يلتبس على أي إنسان.

ـ وأن تكون هذه الأهداف مسعدة للناس جميعاً، فلا تسعد بها أمة، وتشقى به أخرى.

ـ وأن يكون في هذه الأهداف من المرونة ما يجعل تطبيقها والسعي إليها ممكناً في كل العصور، فلا يستطاع تطبيقها في عصر دون عصر. ولا يعسر العمل بها في زمان دون زمان»[1].

وقد تختلف الآراء بعد ذلك في تحديد أو تعداد هذه الأهداف التي جاء بها

---

(١) حضارة الإسلام، العدد الأول، السنة ٧، حزيران (يونيه) ١٩٦٦، ص١١.

الإسلام لتحقيقها في الأرض، ولكن يبدو أن السمات الأساسية لهذه الأهداف قد جلاَّها السباعي بهذا الإيجاز، **وربما كان منهج هذه الأحاديث أو منطلقاتها في تصحيح صورة الإسلام هي التي حملته على هذا التلخيص**، فقد قال: «إن أعداء الإسـلام ينكرون عليه هذه الشروط، فمنهم من ينكر عليه توضيح أهدافـه وتحديدها. ومنهم من ينكر عليه قدرته على تحقيق السعادة لجميع الشعوب، بل هو يراه خاصاً بالعرب وحدهم، أو متفقاً مع عقلية الشرقيين وحدهم. ومنهم من ينكر عليه مسايرته لتطور الحياة! فيزعم له الجمود والعجز عن مسايرة ركب الحياة. . .» ثم قال: «ولا يشك معي كل من درس الإسلام دراسة واعية عميقة شاملة في أن هذا الذي يزعمونه عن الإسلام لا يخلو من جهلٍ به أو تعصبٍ عليه. وكلا الخلقين يشين صاحبه لدى العقلاء، ويحط من قيمته لدى العلماء. . .»[١]، وقد رأى أن الإسلام لا يحتاج اليوم إلا إلى «حسن عرضه على الناس عرضاً تقبله عقولهم وفطرتهم، وإلى حسن تطبيقه في المجتمعات تطبيقاً يزيل ما تشكو منه، ويحقق ما تصبو إليه» أما أهدافه فواضحة شاملة كفيلة بالسعادة لجميع شعوب الأرض إذا اتّبعت هديه، وفهمته على وجهه الصحيح، وطبقته على هذا النحو المشار إليه[٢].

حقوق الحيوان في الإسلام:

لقد أشار إلى رغبته في تأليف كتاب يحمل هذا العنوان في سياق حديثه عن (مزايا الخلق الإسلامي) ولدى شرحه للمزية الأولى من هذه المزايا، وهي الإنسانية؛ حين فرّع عليها: الحث على الرفق بالحيوان، كما جاءت به النصوص وأحكام الفقه. قال السباعي: «أستطيع أن ألخّص القول عن الخلق الإسلامي بأنه يتميز بأربعة ظواهر: فالخلق الإسلامي إنساني واسع الأفق في إنسانيته حتى يشمل كل مخلوق. وهو قوي مع إنسانيته، بحيث ينأى بصاحبه عن الذلة والمهانة. وهو مع إنسانيته وقوته: جماعي لا فردي؛ بحيث يخلق في صاحبه الشعور دائماً وأبداً بأنه فرد في أمّة، وعضو في جماعة، ليس منفرداً عنها لا يعنيه خيرها أو شرها. وهو مع إنسانيته وقوته وجماعيته واقعي لا مثالي خيالي؛ فيمكن

---

(١) المصدر السابق، ص١١ـ١٢.

(٢) المصدر السابق، ص١٣.

أن يتخلق به كل إنسان في كل زمن، وفي كل بلد، وفي كل بيئة»[1].

وقد تحدث عن وضوح الصفة الإنسانية أمام عدّ الإنسان أحد مخلوقات الله الكثيرة في هذا الكون، ومع اشتراكه معها جميعها في أن الله تعالى ربّها وخالقها. قال: «ومعنى ذلك أن للإنسان أخوة مع كل مخلوقات الله من حيوان ونبات وجماد. انظروا إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨]، أي عوالم مثلكم إن تميزتم عنها بالعقل والمعرفة فأنتم تشتركون معها فيما عدا ذلك من الخصائص والطباع» وقد عدَّ هذا المعنى الإنساني الذي أشارت إليه هذه الآية الكريمة معجزة من معجزات القرآن. وذكر أن هذا المعنى منبعث في جميع نصوص الشارع كتاباً وسنة، بل إن المسلم يتذكره في كل يوم ثلاثين مرة وهو يقرأ في كل ركعة من ركعات صلاته: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

قال: «ومن هنا جاء الحث على الرفق بالحيوان بما يقف المنصف أمامه حائراً من عظمة هذا الخلق الإنساني العظيم! فلا يجوز إيذاء الحيوان غير المؤذي ولا منع الشراب والطعام عنه حتى يموت جوعاً، وكلنا يعلم الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ: «دخلت امرأة النار في هرّة حبستها، فلا هي أطعمتها، ولا هي تركتها تأكل من خَشاش الأرض» أي هوامّها وحشراتها.

وقد أخبر رسول الله ﷺ أن رجلاً رأى كلباً يلهث فيأكل الثرى من شدة العطش، فجعل يغرف له الماء بخفه من بئر قريب حتى روي، ثم قال رسول الله ﷺ: «فشكر الله له فغفر له فأدخله الجنة» فعجب بعض الصحابة من ذلك، فقالوا يارسول الله أَوَإنَّ لنا في البهائم لأجراً؟ فقال لهم عليه الصلاة والسلام: «في كل كبدٍ رطبةٍ أجر»!

أما الحيوانات المؤذية فتُقتل دفعاً لضررها، ولكن قال الفقهاء: يجب أن تقتل قتلاً لأنه أقل لها عذاباً، ولا يجوز أن تحبس فيمنع عنها الطعام والشراب حتى تموت جوعاً وعطشاً، لأن في ذلك تعذيباً لها يتنافى مع خلق الإسلام في الرحمة وتحريم التعذيب لكل ذي روح».

وذكر بعد ذلك أن فقهاء الإسلام استلهموا هذه المبادئ فقرروا للحيوان

---

(١) مجلة حضارة الإسلام، العدد ٥، السنة ٧، تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٦٦، ص١١.

(حقوقاً) يذهل المرء حين يطّلع عليها. وبعد أن عرض لطرف من هذه (الحقوق) قال:

«فهل سمعتم يا شباب الإسلام بمثل هذا الخلق الإنساني في دين أو أمّة أو تاريخ؟ وألا ترون أن **حقوق الحيوان في الإسلام أوسع وأسمى من حقوق الإنسان في هذا الحضارة؟** إني لأرجو من الله أن يوفقني لإخراج كتاب بعنوان (حقوق الحيوان في الإسلام) ليعلم أي خلق جاء به هذا الإسلام العظيم»[1].

موسوعة الفقه الإسلامي:

ونشير أخيراً إلى عملٍ علميّ آخر من أعمال الأستاذ السباعي، وهو إنشاء موسوعةٍ للفقه الإسلامي تضمّ مختلف المذاهب والآراء الفقهية بأسلوبٍ علمي معاصر يسهِّل على الباحثين ورجال التشريع والقانون الرجوع إلى الثروة الفقهية الإسلامية الموزَّعة في بطون الكتب والمراجع القديمة، خصوصاً وأنَّ قسماً كبيراً منها له طريقته الخاصة التي لم تعد مألوفةً الآن في الكتابة والتأليف وطريقة العرض.

قال رحمه الله: «حين أُنشئت كلية الشريعة عام ١٩٥٤ كان من أهم مشروعات القائمين عليها: عرض الفقه الإسلامي بجميع مذاهبه وآراء فقهائه عرضاً علمياً حديثاً يتجلّى فيه سعة هذا الفقه وعظمته وغناؤه، واحتواؤه ـ بمجموع هذه المذاهب والآراء ـ على ثروةٍ تشريعية تجد فيه الدولة وكلُّ شعبٍ المبادئ التشريعية لأرقى القوانين والأنظمة في كلِّ عصر»[2].

وهكذا تألَّفت لجنةٌ تضم المختصين بهذا الموضوع من رجال الفقه والقانون في كلّيتي الشريعة والحقوق بالجامعة السورية لوضع أسس العمل في هذه الموسوعة وطريقة إخراجها. وكانت هذه اللجنة برئاسة الأستاذ السباعي «وبعد جهودٍ متواصلة.. أصدرت اللجنة نشرةً عن الموسوعة وأهدافها ونظام الكتابة وأسلوب عرض الآراء الفقهية في مختلف المذاهب... ونصَّت على المذاهب الأربعة ومذاهب الظاهرية والإمامية والزيدية والإباضية، كما نصت

---

(١) المصدر السابق، ص١١ ـ ١٢.
(٢) مجلة حضارة الإسلام، ص٥٩ العدد التاسع من السنة الأولى آذار (مارس) ١٩٦١.

على أنها ستذكر آراء الفقهاء ولو لم تكن لهم مذاهب مدوّنة كالثوري والأوزاعي والطبري وغيرهم»[1].

وقد أشار الأستاذ الدكتور محمد الفاضل عندما كان عميداً لكلية الحقوق إلى هذا العمل العلمي من أعمال السباعي ـ وربما شارك هو في بعض اجتماعات وأعمال الموسوعة ـ فقال في كلمته (التأبينية) التي أشرنا إليها في موضعٍ سابق:

«إذا ما ذكرتم الفقيد الكبير مصطفى السباعي فاذكروا الداعية المصلح في زمنٍ عزَّ فيه الدعاة المصلحون، واذكروا فارساً من فرسان المنابر، وكاتباً أديباً، وفقيهاً مجدِّداً، وأستاذاً جامعياً عالماً... **واذكروا له فكرته الخلاَّقة المبدعة في إنشاء موسوعةٍ للفقه الإسلامي**، واذكروا له دفاعه عن (السنَّة ومكانتها في التشريع الإسلامي) وشرحه الرائع لقانون الأحوال الشخصية، واذكروا له (اشتراكية الإسلام) و(المرأة بين الفقه والقانون) وما باهى به الملأ (من روائع حضارتنا) وما نثره من خواطره وأفكاره الاجتماعية في كتابه المليء بالحكمة والتجربة (هكذا علمتني الحياة)، وما وقف له جهده العلمي القيّم من بحوثٍ وآراء في مجلّته (حضارة الإسلام)»[2].

هذه صورةٌ مجملة لمؤلفات الأستاذ السباعي وجهوده العلمية، وتعريف بمشاركاته الفكرية والدعوية والثقافية كما تجلَّت في مجلّته (حضارة الإسلام). ولم يبق أمامنا في نهاية هذا الفصل أو الجزء سوى الإشارة إلى خلاصة رأيه في التصوّف وفي الاستشراق.

* * *

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) مجلة حضارة الإسلام ـ العدد الخاص ـ ص٦٣.

حول رأيه في الاستشراق

أشرنا عند الحديث عن نشأة السباعي كيف وقف في وجه الاستعمار الفرنسي. . . وكيف قُبض عليه وسجن بدءاً من عام ١٩٣١، إنَّ هذا الاصطدام (السياسي/ الوطني) بجيش الاحتلال، أعقبه في مصر حين ذهب إليها للدراسة صدامٌ فكري/ ثقافي. .، إذ سرعان ما تبيّن له وهو طالبٌ في السنة الثانية في الدراسات العليا أنه أمام شبهاتٍ استشراقية أخذت طريقها إلى كتب بعض أساتذته في الأزهر وعقولهم، كما أوضحنا ذلك عند التعريف بكتابه (السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي)! وهكذا كُتب عليه أن يقاوم الغزو بوجهيه العسكري والثقافي في سنٍّ مبكّرة! ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إنَّ وعيه العلمي/ النقدي تشكّل في هذه المرحلة من خلال مقالاته التي كتبها عام ١٩٤٠ حول الإمام محمد بن شهاب الزهري (٥١ ـ ١٢٤هـ)[1]، ثم حول ما أسماه (تحريف الحقائق الإسلامية في كتاب «فجر الإسلام» لأحمد أمين) وقد وضع لمقالتيه الأولى والثانية حول ابن شهاب الزهري العنوان الهامشي الثابت التالي: (بيننا وبين المستشرقين). أما المقالة الثالثة فكانت بعنوان: «تذييل الحديث عن ابن شهاب الزهري».

أما مقالاته الأخرى التي حملت عنوان (تحريف الحقائق. .) المذكور فقد بلغت أربع عشرة حلقة[2]، وتناولت بالنقد جملةً من الآراء الاستشراقية التي انطوى عليها كتاب أحمد أمين رحمه الله؛ بالإضافة إلى ما تضمَّنه هذا الكتاب من أخطاءٍ علمية أخرى. وقد يكون من المفيد أن نذكر خلاصة ما وقف عليه من أخطاء وأغاليط في كتاب (فجر الإسلام) والتي عدَّدها في مقالته الأولى، نظراً لأهميتها من جهة، ولدلالتها على القدرة العلمية/ النقدية التي تمتَّع بها السباعي

---

(١) انظر الأعداد (٦٩٨) و(٦٩٩) و(٧٠٠) من مجلة (الفتح) تاريخ (١٢ و١٩ و٢٦) من شهر صفر ١٣٥٩هـ (٢١/ ٣ و٢٨/ ٣ و٤/ ٤/ ١٩٤٠) العام ١٤، الصفحات: ٩٢٦، ٩٤٦، ٩٦٠.

(٢) انظر العدد (٧١٢) تاريخ ٢١ جمادى الأولى ١٣٥٩ (٢٨/ ٥/ ١٩٤٠) وما بعده من المجلة المذكورة، العام الخامس عشر، الصفحات: ٢٠٢، ٢١٤، ٢٣٠، ٢٤٦، ٢٦٤، ٢٨٠، ٢٩٦، ٣١٠، ٤٠٧، ٤٥٥، ٤٨٦، ٧٠٩، ٧٧٤، ٨٠٨.

في وقت مبكر، من جهة أخرى. قال رحمه الله:

وسيرى القارئ في البحوث التالية أنَّ الأستاذ أحمد أمين:

«أولاً ـ تـأثَّر إلى درجةٍ كبيرة ببحوث المستشرقين وكتاباتهم عن علم الحديث.

«ثانيـاً ـ تأثر بـآراء رؤوس المعتزلـة وطوائف من الشـيعة في صحابـة رسول الله ﷺ.

«ثالثاً ـ استنتج من عنده بعض آراءٍ ليس لها أساسٌ علمي، ولا مستند تاريخي صحيح.

«رابعاً ـ لم يلتزم الأمانة ولا الدقة فيما نقله من النصوص والآثار.

«خامساً ـ لم يعتمد في تاريخ الحديث على كتب الحديث... ومن هنا أورد كثيراً من الأحاديث، منها ما لم يعثر له على أصلٍ في كتب السنَّة، ومنها ما جاء بأسلوبٍ مغاير لما في تلك الكتب. وقد كان يستطيع الرجوع في معرفة هذه النصوص إلى مراجعها الحقيقية لولا أنه يسعى إلى غرضٍ معيّن؛ فهو يتصيد له الأدلة من هنا وهناك من غير تحقيقٍ ولا تدقيق».

ثم قال: «سيرى القارئ هذا مدلّلاً عليه في مواضعه، وسيرى أيضاً أننا ناقشناه في عباراتٍ فهمها على غير وجهها؛ لأنَّ المقام مقام نقد، فمن حقِّه أن يكون تاماً من كل نواحيه»[1].

وقد أشار في مقالته الأخيرة ـ بعد الفراغ من الطعن الخامس من الطعون التي وجهها الأستاذ أحمد أمين إلى أبي هريرة رضي الله عنه ـ: إلى أن هنالك نقاطاً صغيرة لم يتعرض لها بعد أن طال البحث، وأنه لم «يتعرض لنقد ما في عبارات المؤلف من تفكك في كثير من المواضع، ومن أخطاء في التركيب والتعبير»[2].

كما أنـه تعرض بعد ذلك لتهمـة أخرى ألصقها أحمد أميـن بالصحابي أبي هريرة تتصل بالنقد الداخلي الذي مازال جولدزيهر وضرباؤه يقولون إن

---

(١) العدد المشار إليه (٧١٢) من مجلة الفتح، ص١٠ العام الخامس عشر، ص٢٠٢.

(٢) العدد الأخير من العام الخامس عشر من مجلة (الفتح) ص٨٠٨، تاريخ ٦ ربيع الأول ١٣٦٠هـ (٣/ ٤/ ١٩٤١م).

المحدّثين لم يُعنَوا به عنايتهم بنقد الإسناد. وقد حاول أحمد أمين (تطبيق) هذا الزعم في كتابه الآخر (ضحى الإسلام) على أبي هريرة، فردّ عليه الأستاذ السباعي، وبيّن مدى (تقوّله) على الإمام النووي، أو مدى عجزه عن فهم كلامه!! قال رحمه الله: «ولك بعد هذا أن تتساءل أهو لم يفهم عبارة النووي؟ أم فهمها ولكنه آثر رأي المستشرق اليهودي جولدزيهر في هذه المسألة أيضاً على رأي علماء المسلمين وأئمة الدين وأمانة أصحاب رسول رب العالمين؟». قال السباعي: «والأستاذ أحمد أمين مغرم جداً بمحاكاة المستشرقين ونقل أقوالهم. ولم أجد من فطن إلى اتصاف الأستاذ بهذا من أدباء العصر وأعلنه للناس إلا الدكتور زكي مبارك حيث يقول في العدد (٣٩٠) من مجلة (الرسالة): «إن الأستاذ أحمد أمين لا يهمه أن يردّ الحقوق إلى أربابها إلا في موطن واحد هو الموطن الذي يقول فيه إنه استأنس بآراء المستشرقين؛ ليقال إنه يطلع على أقوال المستشرقين. وقد حدّث الأستاذ قرّاءه في مقدمة الجزء الثالث من (ضحى الإسلام) بأنه كان ينوي تأليف جزء رابع عن الأندلس، ثم نهاه أحد المستشرقين فانتهى، ونصحه فانتصح! ومعنى ذلك أنه لا يتقدم ولا يتأخر إلا بوحي يصدر عن أمثال أولئك الناس».

وقد ختم الأستاذ هذه المقالات التي بلغت أكثر من أربعين صفحة من حجم صفحات المجلة الكبير بقوله: «وبعد، فهذا ما أردت تدوينه عما وقع من تحريف للحقائق الإسلامية في فصل واحد من فصول (فجر الإسلام) وكشفت به عن نواحٍ كثيرة في الأستاذ المؤلف لم يتعرض لها باحث من قبل فيما أعلم[1]. ولقد أبنت في المقالة الأولى (العدد ٧١٢) أن الغرض الأول من نشر هذه البحوث لفت أنظار الباحثين، وخاصة علماء الأزهر الشريف إلى ما في كتابي: فجر الإسلام وضحاه من أخطاء يعتبر السكوت عليها بعد الإحاطة بها جناية في نظر الدين والعلم. وقد كان لهذه البحوث التي قدمتُها ـ بفضل الله ـ بعض ما أردته من لفت الأنظار؛ فقد

---

(١) علّقت هنا مجلة الفتح بالقول: «ومما يؤسف له أن غير واحد من علماء الأزهر الذين كان يجب أن ينتبهوا لذلك وينبهوا عليه انزلقت أرجلهم فاعتمدوا على كتب الأستاذ أحمد أمين وأمثاله يتخذونها مراجع لمؤلفاتهم ومذكراتهم ودروسهم، لئلا يتعبوا بالرجوع إلى مصادرنا الإسلامية المؤلفة في عصورنا الذهبية الأولى. فلم يقتصر إثم عملهم على الأخذ من الكتب المريبة، بل زادوا على ذلك أن حملوا تلاميذهم الأزهريين على حسن الظن بها والاعتماد عليها، فلا حول ولا قوة إلا بالله». ص٨١٠.

رأيت ارتياح كثير من أهل الفضل والعلم إليها، وبلغني أن بعض علماء الأزهر راعه ما قرأه عن تلك التحريفات، فجرّد نفسه لبحث الكتابين، وتتبع ما فيهما من أخطاء، ثم ينشر ذلك في كتاب يتداوله قرّاء العربية ليضمّوه إلى ذينك الكتابين. وهذا توفيق من الله ومنّة، فله الحمد أولاً وآخراً. وأفضل صلواته على علم الهداية سيدنا محمد ﷺ، وعلى آله وأصحابه النجوم الهداة التقاة البررة الذين أدّوا إلينا شرع الله كاملاً بلا زيادة ولا نقص، وعلى التابعين وأئمة الدين الذين أجهدوا أنفسهم في تمحيص الحق، وتبيين صحيح السنّة من زائفها، فكانت لهم بذلك مِنّة في عنق كل مسلم إلى يوم الدين». اهـ.

قلت: وقد ارتقى هذا كلُّه في سلّم النقد والتقويم حين أصبح جزءاً من كتابه (السنّة) الذي تحدثنا عنه. على أنَّ النقطة التي كنت أودّ أن أوردها ـ والتي شكّلت عندي أهم الحوافز لبيان رأيه في حركة الاستشراق ـ وجدتها الآن تفرض نفسها من خلال هذه المقدمة.. وهي أنَّ زيارته العلمية للجامعات والمكتبات وأقسام الدراسات الشرقية في البلاد الأوروبية، واجتماعه بلفيفٍ من كبار المستشرقين ومحاورتهم، لم تُنشئ عنده تصوراً جديداً أو أحكاماً جديدةً على أعمال المستشرقين، بل (أكّدت) له ما سبق كشفه أو الوقوف عليه في وقتٍ سابق. وفي ذلك يقول في المقدمة التي أشرنا إليها فيما سبق، والتي اشتدَّ عليه المرض وبرّحت به الآلام عند كتابة بعض فقراتها ـ بسبب ردوده على العبارات الساقطة التي قالها أبو رية بحقِّ الصحابي أبي هريرة ـ:

«أما المستشرقون الذين اتّخذ منهم أبو رية تكأةً لآرائه، فقد كتبتُ عنهم كلمةً موجزة في كتابي هذا، قبل أن أزور أكثر جامعات أوروبة عام ١٩٥٦ وأختلط بهم وأتحدث إليهم وأناقشهم. فلمّا تمّ لي ذلك ازددت إيماناً بما كتبته عنهم، واقتناعاً بخطرهم على تراثنا الإسلامي كله، سواء أكان تشريعياً أم حضارياً، لما يملأ نفوسهم من عصبيةٍ تأكل قلوبهم حقداً على الإسلام والعرب والمسلمين..».

وقد اتضح له خلال هذه الرحلة الحقائق التالية:

«أولاً ـ إنَّ المستشرقين ـ في جمهورهم ـ لا يخلو أحدهم من أن يكون قسيساً أو استعمارياً أو يهودياً، وقد يشذّ عن ذلك أفراد.

«ثانياً ـ إنَّ الاستشراق في الدول الغربية غير الاستعمارية ـ كالدول الإسكندنافية ـ أضعف منه عند الدول الاستعمارية.

«ثالثاً ـ إنَّ المستشرقين المعاصرين في الدول غير الاستعمارية يتخلّون عن (جولد زيهر) بعد أن انكشفت أهدافه الخبيثة.

«رابعاً ـ إنَّ الاستشراق بصورةٍ عامة ينبعث من الكنيسة، وفي الدول الاستعمارية يسير مع الكنيسة ووزارة الخارجية جنباً إلى جنب، يلقى منهما كلَّ تأييد»[1].

وقد ربط نشأة الاستشراق بالحروب الصليبية التي انتهت بالفشل من الناحية السياسية والعسكرية.. حيث كانت دراسة الإسلام ونقده وسيلة الغرب في الانتقام من الإسلام.. ثم اتسع نطاق الدراسات الغربية عن الإسلام وتاريخه بعد الاستعمار الحديث واستيلاء الغرب على أكثر أقطار العالم الإسلامي.. بقصد تبرير سياستهم الاستعمارية نحو شعوب هذه الأقطار.

يقول الأستاذ السباعي: «وقد تمَّ لهم في القرن الماضي ـ التاسع عشر ـ دراسة التراث الإسلامي من جميع نواحيه الدينية والتاريخية والحضارية» **ولكن هذه الدراسة لم تستطع أن تصيب وجه الحقّ لسببين:**

الأول: التعصّب الديني الذي استمرّ لدى ساسة أوروبة وقادتها العسكريين.. والذي ما تزال آثاره باقيةً فيما يكتب الغربيون عن الإسلام وحضارته.

أما السبب الثاني فيمكن تلخيصه بالغرور والانطلاق من المركزية الأوروبية وعقدة التفوق التي حكمت نظرتهم إلى تراث جميع الأمم الأخرى! حتى وصل الأمر إلى حدّ الاعتقاد بأنَّ العقلية الغربية «هي العقلية الدقيقة التأمل التي تستطيع أن تفكر تفكيراً منطقياً سليماً! أما غيرهم من الشعوب ـ وخاصةً الإسلامية ـ فإنَّ عقليتهم بسيطةٌ ساذجة، أو بالأصحّ «ذريّة» كما عبَّر بذلك المستشرق (جب) في كتابه (وجهة الإسلام)»[2].

وكان المتوقع أمام هذه النشأة وتلك الحقائق أن يعرض مثقفونا عن كتب هؤلاء المستشرقين! لكن الأمر جرى ـ أيام الركود والشعور بالنقص والضعف ـ على خلاف ذلك؛ بسبب ما تتصف به كتبهم من أسلوبٍ معاصر وعرضٍ علمي (موثّق) فوق ما توحي به أو تدلّ عليه من دأبٍ متواصل وتفرُّغ علمي طويل. «ولم

---

(١) كتاب: السنَّة ومكانتها في التشريع الإسلامي، ص١٦.

(٢) المصدر السابق، ص٢٢.

يتح لهؤلاء المثقفين أن يرجعوا إلى المصادر الإسلامية التي استقى منها المستشرقون وغيرهم من الباحثين الغربيين، **إما لصعوبة الرجوع إلى مصادرنا، أو للرغبة في سرعة الإنتاج العلمي، أو لشهوة الإتيان بحقائق مخالفة لما هو سائدٌ في أوساطنا العلمية والدينية وغيرها**»[1]، وهكذا تم التعويل على بحوث المستشرقين ودراساتهم عن الإسلام من قبل الكثير من المثقفين والعلماء المسلمين، وبخاصةٍ من قبل أولئك الذين تلقّوا الدراسات العليا على أيديهم.

وكان الأستاذ السباعي قد لاحظ في صُلب كتابه (السنة) ـ وقبل اجتماعه بتلك الطائفة الكبيرة من المستشرقين ـ أنَّ بحوث هؤلاء تتسم بالظواهر الآتية:

«١ ـ سوء الظنّ والفهم لكلّ ما يتصل بالإسلام في أهدافه ومقاصده.

٢ ـ سوء الظنّ برجال المسلمين وعلمائهم وعظمائهم.

٣ ـ تصوير المجتمع الإسلامي في مختلف العصور، وخاصةً في العصر الأول، بمجتمعٍ متفكك تقتل الأنانية رجاله وعظماءه.

٤ ـ تصوير الحضارة الإسلامية تصويراً دون الواقع بكثير؛ تهويناً لشأنها، واحتقاراً لآثارها.

٥ ـ الجهل بطبيعة المجتمع الإسلامي على حقيقته، والحكم عليه من خلال ما يعرفه هؤلاء المستشرقون من أخلاق شعوبهم وعادات بلادهم.

٦ ـ إخضاع النصوص للفكرة التي يفرضونها حسب أهوائهم، والتحكم فيما يرفضونه ويقبلونه من النصوص.

٧ ـ تحريفهم للنصوص في كثيرٍ من الأحيان، تحريفاً مقصوداً، وإساءتهم فهم العبارات حين لا يجدون مجالاً للتحريف.

٨ ـ تحكمهم في المصادر التي ينقلون منها، فهم ينقلون مثلاً من كتب الأدب ما يحكمون به في تاريخ الحديث، ومن كتب التاريخ ما يحكمون به في تاريخ الفقه، ويصحّحون ما ينقله (الدميري) في كتاب (حياة الحيوان) ويكذّبون ما يرويه الإمام (مالك) في (الموطّأ). كلُّ ذلك انسياقاً مع الهوى، وانحرافاً عن الحقّ»[2].

---

(١) المصدر السابق، ص٢٣.

(٢) كتاب السنّة، ص١٨٨ ـ ١٨٩.

ولا يفوت الأستاذ السباعي بعد ذلك أن يشير إلى أمرين :

الأول: أنه إذا كان قد اشتدّ ـ في كتابه ـ على المحرِّفين والمضلِّلين من المستشرقين أمثال (جولدزيهر) فإنه لا يغمط حقَّ المنصفين منهم «في نشر نفائس كتبنا القديمة» وفي «دأبهم في البحث عن الحقيقة، فليس العلم محتكراً لأمةٍ دون أمة» ثم يقول: «والإسلام ـ وهو دين الله للعالم كله ـ لا يمكن أن يستأثر بفهمه قومٌ دون قوم، فليفهم منه من يشاء ما شاء، بشرط أن يتحلّى بصفة العلماء، وهي الإنصاف والإخلاص للحق، والبعد عن العصبية والهوى»[1].

الأمر الثاني: أنه تحدَّث عن يومٍ قريب ننقلب فيه نحن إلى دراسة تراث الغربيين ونقْد ما عندهم من دينٍ وعلومٍ وحضارة! ويتساءل الأستاذ السباعي في هذا السياق بقوله: «تُرى لو استعمل المسلمون معايير النقد العلمي التي يستعملها المستشرقون في نقد القرآن والسنة، في نقد كتبهم المقدسة وعلومهم الموروثة، ماذا كان يبقى لهذه الكتب المقدسة والعلوم التاريخية عندهم من قوة؟ وماذا يكون فيها من «ثبوت»؟ ويقول أيضاً: «لو أننا استعملنا هذه المعايير في نقد «تاريخ الحضارة الأوروبية ومقدَّساتها وفاتحيها ورؤسائها وعلمائها» ألا نخرج بنتيجةٍ من الشكّ وسوء الظنّ أكبر بكثير مما يخرج به المستشرقون بالنسبة إلى حضارتنا وعظمائنا؟ «ألا تبدو هذه الحضارة مهلهلةً رثَّة الثياب؟ وألا يبدو معظم رجال هذه الحضارة من علماء وسياسيين وأدباء بصورةٍ باهتة اللون لا أثر فيها لكرامةٍ ولا خلق ولا ضمير؟»[2].

* * *

---

(١) المصدر السابق، ص٢٥.

(٢) المصدر السابق، ص٢٤.

موقفه من التصوف

أشرنا في موضع سابق إلى أنَّ الأستاذ السباعي تساءل في بعض افتتاحياته لمجلة (حضارة الإسلام) بقوله: «لماذا لا يتقدَّم الإسلام اليوم ليلعب دوره العظيم في إنقاذ الإنسانية من شقائها الحاضر الأسود، ودمارها الشامل المرتقب؟».

وقلنا: إنه رجع ذلك إلى عائقين اثنين: الأول: «المفهوم المؤلم الخاطئ الذي انتهى إليه الإسلام كعقيدةٍ ونظام» والثاني: الواقع المتخلف الذي تعيش فيه شعوب الإسلام ودوله. . .[1].

وفي سياق حديثه عن العائق الأول عدَّد للإسلام بضعة مفاهيم منها: الصوفي والعامّي والرسمي والاستعماري! وأوجز القول في المفهوم الصوفي بأنه «الذي نأى عن صفاء العقيدة وتفتُّح العقل، وصنع الحياة كما يريدها الأنبياء والمصلحون والحكماء. . إلى مفهوم (التماوت) والفرار من الحياة، والشرك المقنَّع، والعقل المغلق، والزهد المصطنع الذي يحوي في برديه أبشع صور التكالب على المادة واللذة والجاه، واستغلال السذَّج والبسطاء»[2].

وعلى الرغم من أن الأستاذ السباعي كان يتحدث عن التصوف أو عن المفهوم الصوفي للإسلام كما عايشه أو رآه في كثيرٍ من المتصوّفين من حوله؛ فإنه تلقَّى رداً ـ شديداً ـ من بعض العلماء الأفاضل على هذا الذي قال! ومما جاء في هذا الرد: «إنَّ في الصوفية ضالّين وجاهلين ومُغرضين، وفي المتحرِّرين المصلحين ضالّين ومغرضين، وفي الوهابية السلفية أعداداً يجهلون الكثير الهامّ من أحكام الإسلام سوى الحكم على غيرهم من المسلمين بالشرك وحبوط الأعمال. فهل يصلح شرعاً تعميم الحكم الواحد على أفراد تلك الطوائف جميعاً؟»[3].

---

(١) مجلة حضارة الإسلام عدد ربيع الثاني ١٣٨٠هـ ـ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٦٠.

(٢) المصدر السابق، ص٤.

(٣) مجلة حضارة الإسلام، ص٢٠، العدد الثامن: شباط (فبراير) ١٩٦١ والردّ للأستاذ =

وقد عقَّب الأستاذ السباعي على هذا الرد ـ كل ذلك على صفحات مجلّته (حضارة الإسلام) ـ بذكر لمحةٍ عن التصوف الذي نشأ لتهذيب النفس وتصفية الروح. . فانقلب إلى طقوسٍ ورموز ورهبانية بعيدة عن روح الإسلام، قال: «والتصوف القائم اليوم في المجتمع الإسلامي إنما يمثّل بمجموعه كلَّ ما قلته عن المفهوم الصوفي للإسلام. . » وأضاف: «أما الدجل والتغرير بالسذَّج والبسطاء لاكتناز المال، والإثراء غير الشريف؛ فهذا إذا كان الأستاذ الألباني لا يعيش في وسطه لاستقامته وصحة عقيدته وصدق زهده؛ فإننا نحن الذين عشنا مع هؤلاء الذين يأكلون الدنيا باسم الدين، ويغرّرون بجمهور المسلمين، ويضلُّونهم وينحرفون بهم عن سنن الإسلام وأخلاقه. . »[1].

ثم عاد الأستاذ السباعي بعد اثنين وعشرين شهراً مضت على هذا التعقيب ليكتب خلاصة موجزةً جامعة عن التصوف، بمناسبة وفاة الشيخ أحمد الحارون، وكان رحمه الله من أفاضل الصوفية. . فكتب الأستاذ السباعي كلمة عنه في باب (رجل فقدناه) ـ أحد أبواب المجلة التي كان للأستاذ السباعي فيها نصيبٌ وافر كما أشرنا ـ وقدَّم لها بتلك الخلاصة الجامعة التي جاءت من خلال معايشته لنموذجين من نماذج الصوفية في عصره واطّلاعه على أوضاعهم، من جهة. . والتي اتَّسمت بأعلى درجات الموضوعية والإنصاف وتحرِّي وجه الحق؛ من جهةٍ أخرى.

قال رحمه الله: «الإسلام نظامٌ وخُلق، ويوم كان المسلمون الأوَّلون يحرصون على تنفيذ نظام الشريعة والتخلُّق بآدابها، كانوا من أرقى المجتمعات نظاماً، وأكمل الناس أخلاقاً.

«ومن أهم أخلاق الإسلام: المحبّة، والتسامح، والمراقبة لله، ومحاسبة النفس، والزهد في الدنيا مع العمل لها والتمتُّع بطيِّباتها.

«ولم يكن السلف الصالح من صحابة رسول الله ﷺ وتابعيه يفرِّقون بين شطري الإسلام، بل كانوا يحرصون على العلم والعمل، وإقامة نظام الإسلام، والتخلق بآدابه. ولم يكن للقسم الأخلاقي والتهذيبي فيه اسمٌ خاص عندهم،

= وهبي سليمان غاوجي الألباني.

(١) مجلة الحضارة، ص٧٢، العدد التاسع: آذار (مارس) ١٩٦١.

ولا أناس متخصصون فيه لا يدلون إلى العلم بسبب، ولا يقيمون وزناً لشرائع الإسلام وأحكامه.

«ولما اتسعت الحضارة الإسلامية وآتت ثمارها؛ أوشكت القلوب أن تشغلها الحضارة وعلومها عن أخلاق الإسلام، فتصدَّى نفرٌ من أجلَّة علمائه يومئذٍ كالحسن البصري رحمه الله للوعظ والتذكير بالله ومراقبته، والترغيب في جنَّته والترهيب من ناره.

ثم أُطلق بعد ذلك على هذا النوع من التذكير والموعظة اسم (التصوُّف)، ولم يكن في إطلاقه على الدعوة إلى الأخلاق الإسلامية وآدابها ضررٌ ما. ونشأ في المسلمين أجلَّةٌ عظماء يجمعون بين العلم والزهد والتصوف كالجنيد رحمه الله، فلم يكونوا في زهدهم وتصوفهم خارجين عن حدود الشريعة، ولا متجاوزين لأحكامها، ولم يكن التصوف يومئذٍ يعدو أن يكون تهذيباً للنفس، وتنشيطاً للروح، ودعوةً إلى مراقبة الله وحسن المعاملة بين الناس. وكان في **هذه الحدود وبهذا المعنى** أداةً صالحة لتخفيف انغماس الناس في طلب الدنيا، وإقبالهم على طيباتها وزينتها، ولتهذيب الأخلاق بما يتفق مع شرائع الإسلام وآدابه»[1].

قلت: يوضح هذا الإيجاز الشديد المنزلة العالية التي يحتلُّها السلوك الأخلاقي في منظومة الشمول الإسلامي، بوصفه شطر الإسلام والحياة الإسلامية، كما يوضح السبب المباشر الذي جعل بعض العلماء يركِّز على هذا الجانب أو الشطر، ويخصُّه بالرعاية والاهتمام.. والتذكير، قبل أن يطلق عليه اسم (التصوف) لأسبابٍ لا أهمية لذكرها في هذا السياق. كما توضح هذه السطور الأخيرة رأي الأستاذ السباعي في التصوف، أو في هذا التصوف؛ أي بوصفه «تهذيباً للنفس، وتنشيطاً للروح...» إلخ وهو رأيٌ إيجابي.. ولكن كما قلنا في الحدود التي ذكرها، وبالمعنى والدور الذي حدَّده، والذي ربطه بالنشأة كما هو واضح.

ثم تحدث الأستاذ السباعي عن الآفات التي عرضت للتصوف، فأفسدت صفاءه، وجعلت منه أداةً من أدوات الهدم للمجتمع الإسلامي وللحضارة الإسلامية. وقد حدَّد هذه الآفات في ثلاث هي:

١ ـ **«الأخذ بمفاهيم أعجمية للأخلاق الإسلامية»** من ترك الدنيا والفرار من

---

(١) مجلة حضارة الإسلام، ص٨٦، العدد الخامس ـ السنة الثالثة رجب ١٣٨٢هـ ـ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٦٢م.

العلم والعمل . . بل اللجوء إلى حياة التسوُّل (والشحاذة) في بعض الأحيان . وهكذا فسد معنى التوكُّل ومعنى الصدوف عن تعلُّق القلب بمفاتن الدنيا مع الأخذ منها بنصيب . . فأصبح كسلاً وتواكلاً ، وتركاً للدنيا في الظاهر ، مع تعلُّقٍ بها في الباطن ! .

٢ ـ **«اعتماد الصوفية على القسم الأخلاقي في الإسلام وإعراضهم عن القسم التشريعي»** . . حتى كان كثيرٌ منهم يرى أنَّ العناية بالأحكام ، وقد سمّوها علم الظاهر ، يصدُّهم عن (علم الباطن) . . فاستُغِلَّ هذا أسوأ استغلال «من قبل الزنادقة والشعوبيين وأعداء الإسلام ، حيث نشروا بين جماهير الصوفية عقائد باطلة يصل بعضها إلى حد إسقاط التكاليف الشرعية عمَّن بلغ درجةً معيَّنة عندهم! ونشأ عن ذلك أن جعلوا للتصوف حدوداً ورسوماً وتنظيمات أشبه ما تكون بالتنظيمات الكنسية ، وجعلوا الشيخ بمثابة النبي ، وأحياناً الإلـه بالنسبة إلى المريد (التلميذ) حيث حرَّموا عليه أن يشكَّ في أيِّ تصرفٍ للشيخ ولو كان مخالفاً للشريعة . . » ويقول الأستاذ السباعي : إنَّ هذه كهنوتيةٌ لايعرفها الإسلام ، ولا يعرفها الصحابة بالنسبة للرسول المعصوم ، فقد كانوا يسألونه ويناقشونه ، وكان الصحابة ينكر بعضهم على بعض ، ويردُّ بعضهم على بعض .

٣ ـ أما الآفة الثالثة فهي : **«استغلال التصوف للدنيا»** وأكل أموال الناس من (المريدين) وغيرهم ، مع التظاهر بالورع والدعوة إلى الزهد! «ويتعلَّل مشايخ الصوفية لذلك بأنَّ ما يأخذونه من الناس أقلّ مما يعطونه لهم! فهم يعطونهم هدايةً وإرشاداً يصلون بهما إلى الجنَّة ، بينما يأخذون منهم مالاً يفنى وعرضاً يزول! وقد انطلت هذه الحيلة على كثيرٍ من السذَّج والبسطاء والجاهلين بأحكام الدين» .

ويرى الأستاذ السباعي **أنَّ انتشار التصوف بهذه الآفات في العصور المتأخرة تسبب في «انهيار المجتمع الإسلامي وتخلُّفه عن مسايرة ركب الحضارة»** ـ أو في الركود وانطفاء الفاعلية الذي أصاب المجتمعات الإسلامية والعقل الإسلامي ـ **حتى «وقع في أنياب المستعمرين الذين كثيراً ما استغلوا أولئك المشايخ الدجالين لتخدير الجماهير وإقناعهم بالرضوخ للاستعمار ، كما يعلم ذلك من تاريخ البلاد الإسلامية في القرنين الأخيرين»**[1] .

---

(١) المصدر السابق، ص٨٨ ـ ٨٩. مع العلم بأن استعراض تاريخ هؤلاء الدجاجلة ـ ودراسته والتعليق عليه ـ يحتاج إلى أن يفرد بالبحث . ونكتفي هنا بالإشارة إلى موقف=

. . . .

= (التجانيين) من فرنسة ومن جيش الأمير عبد القادر في الجزائر. فقد نشرت جريدة (لابريس ليبر) ـ وهي جريدة فرنسية استعمارية يومية كبرى كانت تصدر في عاصمة الجزائر ـ في عددها الصادر يوم السبت ١٦ أيار (مايو) ١٩٣١م الموافق ٢٨ ذي الحجة ١٣٤٩هـ نص كلمة الشيخ (سيدي) محمد الكبير صاحب (السجّادة الكبرى) أي رئيس الطريقة الصوفية المسماة بالطريقة التجانية التي ألقيت بين يدي الكولونيل الفرنسي سيكوني في بلدة (عين ماضي) معقل هذه الطريقة. وقد استعرض في هذه الكلمة الخدمات الجليلة التي قدمتها الطائفة التجانية لفرنسة، ودورها في تسهيل مهمة الاستعمار الفرنسي وتوطيد أركانه! وقد تضمنت هذه الكلمة (قواعد) غير معهودة في الفكر السياسي ـ وإن شئت قلت: تضمنت فلسفة غير مسبوقة للذل والاستعباد وإعطاء الدنيّة! نحو قوله: **«إن فرنسة حملت عنّا ما كان يثقل كواهلنا من أعباء الملك والسيادة»!**

وقد استهل هذه الكلمة بقوله: «إني أقول على سبيل الاحتساب والتشرف بالقيام بالواجب إن أجدادي قد أحسنوا صنعاً في انضمامهم إلى فرنسة قبل أن تصل إلى بلادنا، وقبل أن يحتل جنودها الكرام (كذا) ديارنا. ففي سنة ١٨٣٨م كان جدّي سيدي محمد الصغير (رئيس التجانية يومئذ) أظهر شجاعة نادرة في مقاومة أكبر عدوٍّ لفرنسة الأمير عبد القادر، ومع أن هذا العدو (يعني الأمير عبد القادر) قد حاصر بلدتنا (عين ماضي) وشدّد عليها الخناق ثمانية أشهر، فإن هذا الحصار انتهى بتسليم فيه شرف لنا نحن المغلوبين، وليس فيه شرف لأعداء فرنسة الغالبين؛ وذلك أن جدي أبى وامتنع أن يرى وجه أكبر أعداء فرنسة، فلم يقابل الأمير عبد القادر!! وفي سنة ١٨٦٤ كان عمي سيدي أحمد (صاحب السجادة التجانية يومئذ) مهّد السبيل لجنود الدوك دومال الفرنسي وسهّل عليهم السير إلى مدينة بسكرة وعاونهم على احتلالها. وفي سنة ١٨٧٠ حمل سيدي أحمد هذا تشكرات الجزائريين للبقية الباقية من جنود (التيرايور) الذين سلموا من واقعة (ريش ـ هوفن) وواقعة (ويسابنور). ولكي يظهر لفرنسة ولاءه الراسخ وإخلاصه المتين، وليزيل الريب وسوء الظن اللذين بقيا في قلب حكومتنا الفرنسية العزيزة عليه (يعني: من حيث كونه مسلماً ولو بالاسم فقط) برهن على ارتباطه بفرنسة ارتباطاً قلبياً، فتزوج بالفرنسوية الآنسة أوريلي بيكار (وكان زواجه بها على يد الكاردينال لافيجيري على حسب الطقوس الدينية المسيحية، لأن قانون الزواج الفرنسي يومذاك كان دينياً مسيحياً لا مدنياً) وبفضل هذه السيدة الذي نعترف به مقروناً بالشكر تطورت منطقة كوردان هذه (ضاحية من ضواحي عين ماضي) من أرض صحراوية إلى قصر منيف. ونظراً لمجهودات مدام أوريلي التجاني المادية والسياسية فإن فرنسة الكريمة أنعمت عليها بوسام الاحترام من رتبة جوقة الشرف». وقد عُرفت هذه السيدة ـ التي بقيت على كاثوليكيتها ـ بـ (زوجة السيّدين) لأنه لما توفي عنها (سيدي أحمد) خلفه عليها وعلى

ثم عقَّب الأستاذ السباعي بعد حديثه عن هذه الآفات، أو عن انتشار التصوف بهذا المفهوم الفاسد والواقع السلبي بالقول إنَّ رحمة الله بعباده تأبى أن ينتشر الضلال والتدجيل باسمه وباسم دينه «فكان في كلِّ عصرٍ يصنع على عينه رجالاً عظماء يرجعون بالناس إلى شريعة الله، ويعملون على تهذيب النفوس

= السجادة التجانية أخوه سيدي علي، وكانت لاتزال حتى عام ١٩٣١ تقبض على زمام التجانية وتدير زاويتهم حسب مصالح فرنسة. وكان (الأحباب) التجانيّون يتبرّكون بها، ويتيمّمون لصلواتهم بالتراب الذي تمشي عليه!!

وقد تابع (شيخ السجادة) الحديث عن اشتراك رجالات التجانية في المعارك إلى جانب الفرنسيين ـ ضد الجزائريين ـ وعن (شهدائهم)!! في هذه المعارك، وعن الأوامر والطلبات التي كانوا يوجهونها للأعيان والزعماء يبشرونهم فيها بالاستعمار الفرنسي، وبأن (يتقبلوه بالسمع والطاعة وبالاستسلام والخضوع التام) وعدّد مآثرهم هذه!! في سنة ١٨٨١ وفي سنة ١٩٠٦ ـ ١٩٠٧ وفي سنة ١٩١٣ وفي سنة ١٩١٦ وفي سنة ١٩٢٥ مما يطول ذكره.. ثم ختم كلمته بقوله: «وبالجملة فإن فرنسة ما طلبت من الطائفة التجانية نفوذها الديني، إلا وأسرعنا بكل فرح ونشاط بتلبية طلبها وتحقيق رغائبها، وذلك كله لأجل عظمة ورفاهية وفخر حبيبتنا فرنسة النبيلة، والله المسؤول أن يخلّد وجودها بيننا لنتمتع برضاها الخالد!!».

راجع (الفتح) العدد (٢٥٧) تاريخ ١٦ صفر ١٣٥٠هـ العام ٦، ص٩٧ ـ ١٠٠، والعدد (٤١٥) في ٢٥ جمادى الآخرة ١٣٥٣هـ العام ٩، ص٣٥٦ ـ ٣٥٧. وانظر في هذه الصفحة (٣٥٧) ما قاله الصوفي العالم أو الصوفي الحقيقي الأمير النبيل المجاهد عبد القادر عن التجاني هذا، الذي (شق عصا المسلمين غير مرة) وكيف أنه ومن انتمى إليه (لما استشرفوا على الردى، وكادت أن تعمل فيهم المدى، طلبوا منّا الأمان، مع أنهم خدعونا مرات عديدة، فمنحناهم الصفح الجميل صوناً لدمائهم وحفظاً لأعراضهم لقوله تعالى: ﴿فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ﴾ وأمنّاهم على أن يخرجوا من الحصن ويتوجهوا حيث شاؤوا...) ـ نقلاً عن كتاب «تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر»، ص١٩٧.

وانظر كذلك افتتاحية العدد المذكور ـ ٤١٥ ـ للسيد محب الدين الخطيب رحمه الله بعنوان (ومن يتولهم منكم فإنه منهم) والتي صدّرها بطرفين متقابلين من خطبتين اثنتين: الأولى لـ«عدو الله التجاني»، والثانية لعدو الله القادياني. وقد قال القادياني خطبته في حق أسياده الإنكليز، كما قال التجاني خطبته في حق أسياده / وسيداته/ الفرنسيين! وقد ختم القادياني كلمته بالدعاء لإنكلترة قائلاً: «اللهم بارك لنا وجودها، واحفظ مُلكها.. قد رأينا منها الإحسان الكثير والعيش النضير، فإن فرطنا في جنبها فقد فرّطنا في جنب الله»!! ونستغفر الله.

مخلصين لوجه الله. . .» فكانوا لمجتمعاتهم «جنَّةً وارفة الظلال في صحراء مجدبة مهلكة»! وقد عدَّ الأستاذ السباعي **الشيخ أحمد الحارون** واحداً من هؤلاء؛ قال: «وممن أدركناهم واستفدنا منهم فائدةً نشهد بها أمام الله هو العارف بالله فقيد الإسلام الشيخ أحمد الحارون الحجار. .» وقد وصفه بأنه من ذلك الطراز من الرجال «الذين يحيون القلوب، وينعشون الأرواح، ويلتزمون حدود الشريعة، ويبتعدون عن استغلال التصوف لجمع المال. .».

ومن الجدير بالتأمل أنَّ الأستاذ السباعي الذي تردَّد على الشيخ الحارون في أول أمره معه «مختبراً ومراقباً» انتهى إلى أن أصبح «محبّاً ومعجباً ومريداً» فنصَّ رحمه الله على هذه «المفردة» أو هذا المصطلح الأخير. . . تمييزاً بين شيخ وشيخ ومريدٍ ومريد. . وهو التمييز الذي يحمل دلالة التفريق الحاسم في نظر الأستاذ السباعي بين تصوف الدجّالين وتصوف الزاهدين. يضاف إلى ذلك أنَّ هذا التردد على الشيخ كان قبل مرض الأستاذ السباعي وبعده. . . الأمر الذي يحمل أوضح الدلائل على أنَّ هذا الإعجاب وهذه الإشادة بصوفية الشيخ الحارون لم تكن بسبب المرض الذي استبدَّ به وأذكى في نفسه الجانب الروحي. . . وارتقى به في مقام الصلة بالله تعالى والأنس بالعبادة والتهجد إلى مقامٍ يفوق ما كان عليه أو ما كان وقته لا يتسع له في سالف الأيام! بل لعل العبرة الحقيقية تكمن هنا؛ فقد ذكر الأستاذ السباعي أنه قال له ذات مرة، وهو ـ أي الأستاذ السباعي ـ غارقٌ في القضايا العامة من سياسيةٍ ودينية: «إنني متألمٌ لحرماني من ساعات فراغٍ أتهجَّد فيها، أو أخلو فيها لنفسي، أو أقرأ القرآن قراءة تدبُّرٍ وتفهُّم» وسأله: «كيفَ السبيل إلى الجمع بين التعبُّد والعمل السياسي والإصلاحي؟ فقال له على الفور ـ وبنبرةٍ لا تخلو من الشدَّة والحزم ـ:

وهل يقلُّ أجر العمل الذي تقوم به عن أجر العبادة والتهجد والخلوة؟ إنَّ ما أنت فيه عبادةٌ من أكثر العبادات ثواباً، فلا تندم على ما أنت عليه!»[1].

وكان هذا الفهم الصحيح للإسلام من أهم ما حبَّبه إلى نفس الأستاذ السباعي، إلى جانب «تواضعه، وحسن خُلقه، وتهرُّبه من الشهرة، وزهده في

(١) حضارة الإسلام، المصدر السابق، ص٩١.

الدنيا مع إقبالها عليه، وسخاؤه الذي ليس له مثيل . . » وقد نعته بـ (شيخ الصالحين الصادقين، ومرشد النفوس والأرواح) وبأنه كان في حياته «مثلاً صادقاً لروح الإسلام، واستمراراً مؤثراً مثمراً لأخلاق الرسول ﷺ»[1].

ونشير أخيراً إلى أنَّ الأستاذ السباعي كتب عدة خواطر عن التصوف في كتابه (هكذا علمتني الحياة) قد لا تخرج في جملتها عن هذا الذي قدَّمناه من رأيه رحمه الله[2]. ونكتفي من هذه الخواطر بالخاطرة التالية التي كتبها تحت عنوان: (بين التصوف والشريعة)[3]: قال:

«الصوفي العالم وقَّافٌ عند حدود الشريعة، مهذِّبٌ لنفسه وأخلاقه. وهذه هي صوفية الصحابة والسلف الصالح، وتلك هي حياة المجتمع وروحه، وزهرته النّضرة الفوّاحة.

«والصوفي الجاهل منحرفٌ عن الشريعة، متظاهرٌ بما ليس فيه، وهو علّة المجتمع ومرضه، ومبعث انحراف الأخلاق فيه.

«والصوفي الزنديق هادمٌ للشريعة، مشكِّكٌ في الدعائم الراسخة للنظام الاجتماعي والعقائدي للأمة. وبهذين الصنفين أضاع الإسلام رفعتَه، وفقد المجتمع الإسلامي قوَّته».

* * *

---

(١) المصدر السابق، ص٩٢.

(٢) انظر الفقرات رقم: ٥٧١، ١٠١٥، ١٠١٦، ١٠١٩، ١٠٢٠ و٢٤٠ وهذه بعنوان (شيطان يتظلّم).

(٣) الفقرة رقم (٥٧١)، ص١١٤؛ وانظر مقالة لعلاّمة الشام وإمامها السلفيّ أستاذنا الشيخ محمد بهجة البيطار رحمه الله، رثى بها «فقيد مصر والشام الأستاذ الشيخ خالد النقشبندي» الذي توفي في شهر المحرم ١٣٥٨هـ (آذار/ مارس ١٩٣٩) والتي ضمّنها رأياً في التصوف يقرب من هذا الذي ذكره الأستاذ السباعي. إلى جانب إشادته بالشيخ النقشبندي الذي «بكته المنابر بأعوادها، والمساجد بروادها، والشام بشيوخها وشبابها، وأساتذتها وطلابها، بل بجميع طبقاتها. . .». مجلة (الفتح) القاهرية، العدد ٦٧٣ (العام الرابع عشر)، ص٥٣٠ في ١٤ شعبان ١٣٥٨هـ (٢٨/ ٩/ ١٩٣٩).

جواب الإسلام على الشيوعية

ونختم هذا الفصل بنص الخطاب الذي ألقاه مصطفى السباعي في المؤتمر الإسلامي المسيحي العالمي الذي عُقد في (بحمدون) بلبنان في نيسان (إبريل) ١٩٥٤ . وكان بعنوان: جواب الإسلام على المسألة الشيوعية. وكنا قد أشرنا إلى هذا الخطاب وإلى الأثر الذي أحدثه في المؤتمر في الهامش في آخر حديثنا عن كتابه (اشتراكية الإسلام)، وقد حاولنا هنا تلخيصه، وأن نكتفي منه ببعض الفقرات، ولكن وجدنا في ذلك صعوبة شديدة؛ نظراً لوجازة الخطاب وتلاحم أجزائه، وأهمية كل ما ورد فيه. من جهة، ولأنه يمثل موقفاً تاريخياً مهماً يحسن الاطلاع عليه كما هو من غير أي تدخّل، من جهة أخرى.

والكلمة التي نقدمها بين يدي هذا الخطاب هي أننا حين عدنا إلى استعراضه، وجدنا أن في وسعنا أن نصنفه كذلك ـ أو قبل ذلك ـ تحت عنوان:

(موقفنا من الصهيونية والاستعمار)[1]

لأن ما تضمنه من حديث عن الصهيونية وجرائمها وأخطارها، ومدى ما لقيته من الغرب المسيحي و(الديمقراطيات الغربية) من دعم وتأييد.. يعدّ من أهم الأمور التي عرّفت هذه النخبة التي شاركت في المؤتمر من مختلف دول العالم بالموقف الإسلامي من الصهيونية، وهو الموقف الذي لم يكن يصل إليها غالباً في ذلك الحين.

إن هذا الخطاب لا يتأتى إعداده على هذا النحو من الدقة والشجاعة والموضوعية لأي مفكر وسياسيّ بارز، وزعيم وطني غيور.. إلا في وقت طويل، وقد توفر السباعي على كتابته ـ كما أشرنا ـ في جلسة أو ساعة من ساعات المؤتمر.

---

(١) وهذا يعني أن أهمية الخطاب قائمة ومستمرة، وأنها لم تنقطع بسقوط النظام الشيوعي، لأن تعويل الغرب على الصهيونية و(إسرائيل)! يمثل استراتيجية ثابتة.

ويبدو لنا أن هذا الخطاب، والمؤتمر الذي ألقي فيه، والجوّ الذي أحاط به وأحداثه.. ضاعف الشعور بمدى التأثير الذي يتمتع به السباعي ليس جماهيرياً فحسب، بل على مستوى النخبة من المثقفين والسياسيين ورجال الدين كذلك. ومن ثم مدى خطورته ـ على أرض الواقع ـ على مطامح الصهيونية ومطامع الاستعمار. وبخاصة إذا ذكرنا سيرته وجهاده حتى الآن. وقد أشرنا فيما سبق عند الحديث عن اغتيال العقيد عدنان المالكي بتاريخ ٢٢/ ٤/ ١٩٥٥ (أي بعد عام كامل من هذا الخطاب) إلى أن محاكمة أعضاء الحزب القومي السوري قد كشفت عن أن الحزب «قد جرى على تزويد مكتب المعلومات الأمريكي في دمشق بتقارير عن نشاطات الإخوان المسلمين في سورية» ونعتقد أن رصد حركة السباعي ومحاولة محاصرته وإقصائه وتشويه سمعته إن كانت قد بدأت في وقت سابق فإنها تضاعفت الآن، أو زادت بعد هذا الموقف وهذا الخطاب.

لم يكن السباعي (رجل دين) بالمعنى المعهود عند الأوروبيين والأمريكيين من أتباع الكنيسة، كما أنه لم يكن مجرد سياسي ـ وكان في ذلك الوقت عضواً في البرلمان الذي عاد للانعقاد بعد رحيل الشيشكلي ـ وقد أشار السباعي نفسه، في آخر كلمته، إلى أنه لم يقله بوصفه سياسياً فحسب، بل (كرجل مسلم يشترك في أكبر حركة إسلامية في العصر الحديث، ينضوي إليها ملايين الشباب الأقوياء المؤمنين في دنيا العرب والإسلام).

فأشار بهذا إلى حركة الإخوان المسلمين التي كان يقودها في سورية في ذلك الحين! ولم تخلُ هذه الإشارة من التهديد المبطن ـ في هذا المقام ـ أو من استعراض القوة على أقل تقدير!

يضاف إلى ذلك أن هذا الخطاب يمكن عدّه صورة أو نموذجاً من سياسة عدم الانحياز الذي تبنّاها السباعي ودعا إليها في البيان الانتخابي الذي قدمته (الجبهة الاشتراكية الإسلامية) عام ١٩٤٩ ـ والتي أشرنا إليها فيا سبق ـ في الوقت الذي أدان أمام هذا التجمع سياسة المعسكر الغربي في تأييده للصهيونية ومحاربته (لشعوب الشرق في أمانيها التحررية والاستقلالية) حتى إنه قد انسحب من المؤتمر في بعض المراحل «احتجاجاً على التوجهات التي يراد فرضها لمصلحة أمريكة والدول الغربية فيما يتعلق بقضية فلسطين» ـ على حدّ قول جريدة الشهاب ـ.

ولما دعي لهذا المؤتمر بعد عامين (١٥ ـ ١٦ حزيران/ يونيو ١٩٥٦) كان

السباعي في رحلته العلمية إلى أوروبة، وقد وصفت جريدة الشهاب البيان الذي صدر عن هذا المؤتمر ـ الثاني ـ بأنه «غامض ومشبوه» وذكرت أنه قدم قرار بإرسال برقية احتجاج (بصورة خاصة) على المذابح البربرية في الجزائر إلى الحكومة الفرنسية، فعارض المستشرق (ماسينيون) وهدد بالانسحاب في حال إرسال مثل هذه البرقية!!

وجاء في كلمة لرئيس تحرير (الشهاب) تحت عنوان: هل هو مؤتمر نظيف؟ قوله: «... إنا لا نرضى أبداً أن تسخر تعاليم السماء، سواء أكانت إسلامية أو مسيحية، لخدمة سياسة العالم الغربي الذي لم يجلب إلينا إلا الكوارث والنكبات!! هذا العالم الذي يسمونه: (العالم الحر) هو الذي أقام في قلب البلاد العربية (إسرائيل) وهو الذي يقوم بهذه المذابح الرهيبة في الجزائر.. هو جميعه مسؤول عن هذه الجرائم المنكرة.. لأن فرنسة إنما تقوم بحملة الإبادة في الجزائر بجيوش حلف الأطلسي وسلاح أمريكة وعون أوروبة ودول العالم المسيحي الغربي...»[1].

نص الخطاب:

قال السباعي: «من الواجب أن نبحث هذا الموضوع بكثير من الصراحة والحكمة والصدق، فنحن هنا رواد حق في مؤتمر علمي محصور بين لفيف من أقطاب الفكر في العالمين الإسلامي والمسيحي، لا في اجتماع عام يُقصد به الاستيلاء على عاطفة الجماهير بالخطابة المؤثرة والبيان البليغ.

إننا نحن المسلمين ننظر إلى الشيوعية من جهات ثلاثة:

١ ـ **ننظر إليها كعقيدة ذات فلسفة مادية تنكر الروح وما وراء المادة**، وهي في ذلك تختلف عن الإسلام في أسسها وجوهرها، ولا يمكن أن تلتقي معه في عقيدته وفلسفته. وجواب الإسلام على الشيوعية في هذا الناحية، هو جوابه على كل فكرة خاطئة: أن يفنّدها بالحجة والمنطق، وأن يبين ما فيها من انحراف عن الحق وخطأ في الواقع.

---

(١) جريدة الشهاب: العدد ٥٨، السنة الثانية في ١٥ ذي القعدة ١٣٧٥هـ و٢٤ حزيران (يونيو) ١٩٥٦م وقد أعادت الجريدة بهذه المناسبة نشر خطاب الأستاذ السباعي الذي ألقاه في المؤتمر عام ١٩٥٤.

٢ ـ **وننظر إلى الشيوعية كنظام اقتصادي اشتراكي، يسعى إلى تحقيق العدالة** بين طبقات الشعب، ويمنع تحكم المال ووسائل الإنتاج في العمل والعمال على أسلوب خاص به. وجواب الإسلام على الشيوعية في هذه الناحية: أنه وضع نظاماً اشتراكياً واضح المعالم مستقلاً عن الشيوعية وعن الاشتراكية وعن الرأسمالية، وهو في ذلك لا يحارب الشيوعية في كل اتجاهاتها الاشتراكية ولا يقرّها في كل اتجاهاتها أيضاً، كما أنه لا يحارب النظم الاقتصادية الأخرى ولا يقرها في كل تفاصيلها واتجاهاتها.

وأعتقد أن الأديان كلها سبقت الشيوعية إلى الرحمة بالبائسين، والإنصاف للناس، والرغبة في تحقيق العدالة بين الجماهير، ولكل ديانة وسائلها الخاصة بها في تحقيق هذه الأهداف؛ فلا ضير على كل من الإسلام والمسيحية أن تتفق معه الشيوعية في أهدافه الإنسانية النبيلة، وإن كانت تسلك لذلك طريقاً لا تقرّها المسيحية، أو لا يقرها نظام الإسلام الاشتراكي.

٣ ـ **وننظر إلى الشيوعية كدولة ذات قوة وأهداف سياسية**. وجواب الإسلام على الشيوعية من هذه الزاوية، هو جوابه على كل قوة مسلحة تجاوره؛ فإن سالمت عقيدة المسلمين وكرامتهم واحترمت إرادتهم وسلطانهم على ديارهم، سالمها الإسلام ولو كانت مخالفة له في العقيدة والنظام؛ لأن الإسلام لا يفرض الحرب على كل من خالفه، وإنما يضع هذا المبدأ الخالد العادل: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [الممتحنة: ٨]، وإن حاربت المسلمين في عقيدتهم وكرامتهم وديارهم أعلن عليها الحرب، وأمر المسلمين بإعداد كل وسائل القوة لرد العدوان، وشعاره في ذلك هو المبدأ الذي لا يزال شرعة الأمم حتى اليوم ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ ﴾ [البقرة: ١٩٤].

وإذا كان جواب الإسلام على الشيوعية المعتدية هو الحرب، كان ذلك جوابه أيضاً على الديمقراطية المعتدية، وعلى الصهيونية المعتدية، وعلى كل قوة تعتدي على أرضه وحقه، بل تعتدى على الأمن والنظام العام ولو كانت من أبنائه ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الحجرات: ٩].

وقد يقال: إن الشيوعية تتبنى الثورة والحرب كوسيلة من وسائل انتشارها،

وقد يكون هذا صحيحاً وواقعاً، ولكني أتساءل: أليس هنالك بجانب الشيوعية أنظمة ودول تعتمد على القوة وتثير الحروب؟ ألم تعتمد الديمقراطية في بلاد الشرق العربي والإسلامي على القوة والبطش لتحقيق حكمها وسيطرتها؟ ألم تسلك الصهيونية كل وسائل الحرب والتدمير والتقتيل للوصول إلى أهدافها؟ وإذا كان من حق الديمقراطي الغربي أن يزعم بأنه يسعى للسلم، وأن ينكر على الشيوعي إعداده للحرب؛ فإن من حق رجال الدين وقادة الفكر أمثالكم في هذا المؤتمر أن ينكروا كل وسائل البغي والعدوان، وأن لا يخصوا بنقمتهم فريقاً دون فريق؛ فذلك شأن السياسيين الذين لا يرون أنفسهم ملزمين بالتقيد بمبادئ العدالة والحق والأخلاق دائماً وأبداً.

وقد يقال: إن الشيوعية بفلسفتها المادية تحمل مبادئ التدمير لكل القوى الروحية والأخلاقية في العالم، وقد يكون هذا صحيحاً أيضاً وواقعاً، ولكن من حقنا أن نتساءل هنا: ألم تنحرف الديمقراطية في عصرنا عن القيم الروحية والأخلاقية للشرائع والديانات؟ ألم تسعَ الديمقراطية السياسية لتحقيق مطامعها وأهدافها بشره مادي يُجانب روح الأنبياء ومبادئ الكتب المقدسة وشرائع الله؟

أليست الصهيونية في مطامعها السياسية حركة مادية تجانب كل القيم الروحية والأخلاقية حتى في الشريعة اليهودية ذاتها؟ فلماذا يقتصر مؤتمركم على بحث الشيوعية المادية ولا يتناول الديمقراطية المادية والصهيونية المادية؟ . . . ولماذا يُطلب منا نحن سكان هذا الشرق الأوسط من عرب ومسلمين وشرقيين أن نحارب الشيوعية وحدها، بحجة أنها مادية تحارب القيم الدينية والأخلاقية، بينما نجد العالم الغربي المسيحي تسيطر على سياسته روح مادية لا تأبه إلا بمصالحها وسيادتها، حتى إنها تبنت الصهيونية المادية وخلقتها وزرعتها في بلادنا زرعاً بقوة الحديد والنار، وبإغراء الذهب والدولار؟ . .

أمن الممكن أن نطلب من جماهيرنا أن تكتوي بنار الصهيونية، وتعاني فظائع الظلم والإرهاب الاستعماري في بلادها، أن تصدق بأن الغرب المسيحي مخلص في محاربته الشيوعية لماديتها وخطرها على الأديان والأخلاق، بينما هي تشاهد كيف تزدري الدول الغربية بكل مبادئ الحق والعدالة في علاقاتها معها، وتحتضن الحركة الصهيونية الباغية المادية كوليد مدلل ينزل أبواه عند كل رغباته ومطالبه؟ . . .

أيها السادة:

لست أبعد عن الحديث حين أنتقل من الكلام عن الشيوعية إلى الصهيونية؛ ذلك لأن الصهيونية تعتمد على الشيوعية وتنشرها، كما تعتمد على الديمقراطية وتدافع عنها، لأن الصهيونية لا دين لها إلا تحقيق مطامعها، وإنكم لتعلمون أن الصهيونية كانت دعامة الحركات الشيوعية في أوروبة وأمريكة، وأن الجاسوسية التي أقضّت مضاجع أمريكة وإنكلترة وغيرهما من دول الغرب؛ إنما يديرها ويسهر عليها صهيونيون كبار، استطاع التحقيق أن يكشف القناع عن وجوه كثيرين منهم فأسلمهم إلى يد العدالة، ولا يزال القناع قائماً على وجوه كثير من كبار الصهيونيين المواطنين في أمريكة وأوروبة، **وسيعلم الشعب الأمريكي والشعوب الأوروبية ولو بعد حين، أن هؤلاء الصهيونيين الكبار لم يكونوا إلا خونة ومجرمين كباراً في حق أمريكة وأوروبة على السواء. وهذه العناصر الصهيونية القوية هي التي توجه سياسة الدول الغربية وتبسط سلطانها ونفوذها على كثير من الرؤساء والزعماء والنواب ودور الصحافة وبيوت التجارة في بلاد أوروبة وأمريكة**.. وهي هي التي تتصل بأمثالها في الشرق العربي والإسلامي عندنا وتتبنى الشيوعية لا إيماناً منها بالشيوعية، ولكن استدراراً لعطف الشيوعية الدولية وتأييدها كما فعلت في إقامة دولة إسرائيل...

من أجل ذلك، كان الحديث عندنا نحن في الشرق العربي والإسلامي عن الخطر الشيوعي مقترناً بالحديث عن الخطر الصهيوني.

إنكم أيها الأمريكيون والإنكليز والفرنسيون والكنديون والإيطاليون وغيرهم من زملائنا أعضاء هذا المؤتمر، قد لا تشعرون بخطر الصهيونية ومحاربتها للأديان والشرائع، وخاصة رجال الدين وأساتذة الجامعات منكم، ممن لا يمارس السياسة ولا يعاني مشاكلها، فاسمحوا لنا إذاً نحن أبناء هذه البلاد، أن نكاشفكم بحقيقة هذا الخطر، وعليكم أنتم يا رجال الدين وأساتذة الجامعات وأصدقاء الشرق الأوسط أن تفسحوا صدوركم لآلامنا مادمتم تريدون منا أن نتعاون معاً على الخير، وأن نسير في طريق واحدة تؤدي بالإنسانية إلى السعادة والسلام.

إن الصهيونية حركة مادية لا تؤمن بالله ولا باليوم الآخر ولا بالقيم الروحية والأخلاقية، وهي حركة سياسية تستغل كل الشرائع والقوانين والمثل العليا

لتحقيق مطامعها في السيادة والملك.

وهي سياسة ميكافيلية تستبيح كل الجرائم الخلقية والاجتماعية من قتل وتخريب وتشريد للوصول إلى غاياتها.

وهي حركة عدوان تدبر الحروب، وتثير العداوة والبغضاء بين الشعوب.

هذه هي الصهيونية في فكرتها وفي واقعها، فإذا شككتم في ذلك فتعالوا لتروا الصهيونية بأعينكم خراباً ويتماً وتشريداً وإجلاءً وإفناءً، تعالوا بنا نزر معكم أماكن اللاجئين لتروا آثار الصهيونية في جولتها الأولى، وهي الآن تستعد للجولة الثانية والثالثة وغيرها حتى تصل إلى ما تريد من إفنائنا كشعب، والقضاء علينا كأمة ذات دين وحضارة روحية ومُثُل عليا.

ومن أجل ذلك نعتبر الصهيونية خطراً قائماً في قلب وطننا العربي والإسلامي، ونعتبر كل من يساندها عدوّاً للحق وللأخلاق وللأديان، ونحن حين نخوض ضدها معركة الدفاع، إنما نخوضها لا من أجل أنفسنا وتراثنا وقيمنا الأخلاقية فحسب، بل نخوضها من أجل الإنسانية كلها، من أجل القيم الروحية والخلقية التي جاءت بها شرائع الله. ولئن كان الغرب المسيحي وقف حتى الآن موقف المؤيد الممد لهذه الحركة بكل ما يستطيع من نفوذ ومال؛ فإن العالم المسيحي ليطلب منكم يا قادة الروح في الغرب أن تحيوا شعور أممكم وشعوبكم، وتوقظوا الضمير العالمي لإيقاف هذه الكارثة التي نشأت عن أكبر غزوٍ إفنائي لنا في تاريخنا القديم والحديث.

أيها السادة:

لقد كان من الحق حين وضع في برنامج أبحاث المؤتمر موقف الإسلام والمسيحية من الشيوعية، أن يذكر بجانب ذلك أسباب انتشار الشيوعية ووسائل مكافحتها، وهو أمر لا بد منه ليكون لبحث هذا الموضوع نتائج عملية مثمرة. إن المريض لا يكتفي من طبيبه أن يقول له بعد معاينته «إنك مريض» ولكن يطلب منه أن يكشف له عن أسباب مرضه وأن يصف له علاجه الناجع، وإذا كانت فلسفة الإسلام والمسيحية تجانبان الفلسفة الشيوعية المادية، كان لابد لانتشار الشيوعية في بلاد المسيحية والإسلام من أسباب أدّت إلى هذه النتائج...

١ ـ وأول هذه الأسباب ـ في رأيي ـ **فساد الأنظمة الاجتماعية** وخاصة في

الشرق الإسلامي؛ فإن انحطاط مستوى المعيشة والعلم والصحة، والتفاوت الفاحش بين الطبقات، وفساد أنظمة الحكم وانحراف الحكام عن سنن العدالة، وطغيان روح التحكم والاستبداد في نفوسهم. ذلك كله من أكبر أسباب التذمّر الذي يؤدي بالجماهير إلى اعتناق أية فكرة تظن فيها الخلاص من حالتها السيئة. إن الجماهير إنما تعنى بمصالحها المادية قبل كل شيء، وهي تفتش عن تحقيق هذه المصالح في دائرة أديانها، فإذا رأت فيها العجز والإعراض عن تحقيق ذلك تولّت عنها وهي تفتش عن مذهب يعدها بالإنقاذ، وهي ستتبعه حتماً ولو كان آتياً عن طريق الشيطان.

٢ ـ وثاني هذه الأسباب **محاربة الديمقراطية الغربية لشعوب الشرق في أمانيها التحررية والاستقلالية**، ومحاولة إبقائها تحت نير الجهل والظلام والعبودية، وإشاعة حكم الإرهاب والبطش في كثير من الأقطار المتحفزة للتحرر، والقضاء على الحركات الشعبية النظيفة، وتشويه سمعتها بالاتهام بالشيوعية والانصياع لتحريض أجنبي.. كل ذلك كان له أثره في اتجاه الجماهير إلى نظام يعدها بالتحرر من سلطان الديمقراطيات وبطشها وإرهابها.

٣ ـ وثالث هذه الأسباب ـ وهو سبب خاص ببلادنا ـ **ذلك التأييد الذي لقيته الصهيونية من الديمقراطيات الغربية**؛ حتى أصبح لها كيان مفروض في قلب الوطن العربي رغم إرادة سكانه وشعوبه، مما شرد مليوناً من سكان فلسطين، وأشاع المرارة والخيبة في نفوس العرب والمسلمين، وجعل أوساط اللاجئين أمكنة صالحة للشيوعية تزداد يوماً بعد يوم، واعذروا هؤلاء اللاجئين أيها السادة، اعذروهم إذا تلفت أحدهم إلى زوجته فرآها أسيرة أو مفقودة، وتلفت إلى أولاده فرأى البرد والمرض والسل يفترس واحداً منهم بعد آخر، وتلفت إلى نفسه فرأى خيمته تقتلعها الرياح وتغطيها الثلوج، ورأى جسمه تهده الأمراض، ورأى نفسه عاجزاً عن توفير الكرامة لنفسه وأطفاله.. إنه ليعاني هذا كله وهو يرى بعينه أرضه تُزرع، وداره تُسكن، وأثاثه يُنهب، ويرى أن ذلك كله نتيجة سياسة الديمقراطيات الغربية وحكمها وتأييدها للصهيونية المحتلة لأرضه وداره، فكيف تستطيعون أن تقنعوه مع ذلك بأن يؤمن بأن هذه الديمقراطيات تحمل لواء الحق، وتمثل المعسكر الذي يعتقد بالله وبالروح والقيم الأخلاقية والدينية؟

إن اضطراب الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في أوروبة جعل نصفها

يميل إلى الشيوعية أو يقع تحت قبضتها، فكيف لا تؤدي سوء أوضاع اللاجئين، وهي أسوأ بآلاف المرات من تلك، إلى اعتناق الشيوعية أو غيرها وهم في تلك الحالة من البؤس والشقاء؟

هذه هي الأسباب الرئيسية لانتشار الشيوعية، وبذلك يعرف الطريق الواضح لمكافحتها.

إنه لا سبيل لكم - لتكونوا عمليين مخلصين في نصرة القيم الروحية والأخلاقية - من أن تعلنوا إنكاركم لاستمرار الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في أوساط الشعوب والجماهير، ومن أن تعلنوا إنكاركم لسياسة الديمقراطيات الغربية في موقفها من أماني الشعوب العربية والإسلامية، ومن أن تعلنوا استنكاركم للصهيونية كحركة مادية فيها كل الخطر على السلم وعلى الأمن وعلى الأخلاق والدين في هذه المنطقة الحساسة من الشرق الأوسط. كونوا جريئين مخلصين أيها السادة في إعلانكم هذه الحقائق، وسنكون نحن جريئين مخلصين حين نعلن لكم أنه من العبث أن تفكروا بحمل شعوبنا على محاربة الشيوعية والوقوف ضدها، وهي ترى الدبلوماسية الشيوعية تنتصر لقضايانا في المحافل الدولية من حيث تخذلها الدول الديمقراطية الغربية.

لقد قال المستر (تشرشل) كلمة ذهبت مثلاً في التاريخ يوم اعترض عليه بعض الناس حين مدّ يده إلى روسية في الحرب ليتعاون معها على حرب ألمانية، قال: «إنني مستعد لأن أتحالف مع الشيطان في سبيل الوصول إلى النصر» وتعاون الحلفاء يومئذ مع الشيوعية خلال مدة الحرب العالمية الثانية، وما كان تحالفهم مع الشيوعية الفكرية ولا مع الشيوعية الاقتصادية، وإنما كان مع الشيوعية القوية المسلحة لأن مصلحتهم التقت مع مصلحتها في هذا التعاون، ونحن اليوم لا نريد أن نفرض سيطرتنا ولا انتصاراتنا على الشعوب، وإنما نريد أن نصل إلى حقنا.. نريد أن نطمئن على حرياتنا وكرامتنا.. إن من حقنا أن نعيش أحراراً في فلسطين وسورية ولبنان والأردن، وفي العراق وفي مصر وفي ليبية ومراكش وتونس والجزائر وفي كشمير وفي أندونيسية وفي كل بلادنا العربية والإسلامية. نريد أن نصل إلى هذا الحق الذي تحاربه الديمقراطيات الغربية المسيحية حرباً تنكرها مبادئ الديانات وشرائع الله، فهل نُلام إذا نظرنا إلى مصلحتنا المشروعة في مهادنة كل من يعترف لنا بهذا الحق؟...

سيذهب كل جهد لكم عبثاً ما لم تعلنوا قراراً في هذا المؤتمر جريئاً واضحاً في هذه القضايا كلها، وعندئذ تنالون احترام العالم وثقته، وتسيرون في طريق التعاون المثمر المفيد بين الإسلام والمسيحية، لرد الإنسانية الجامحة إلى الله، ولتدعيم القيم الروحية التي لا يقوم بناء العالم الحر الكريم إلا على أساسها.

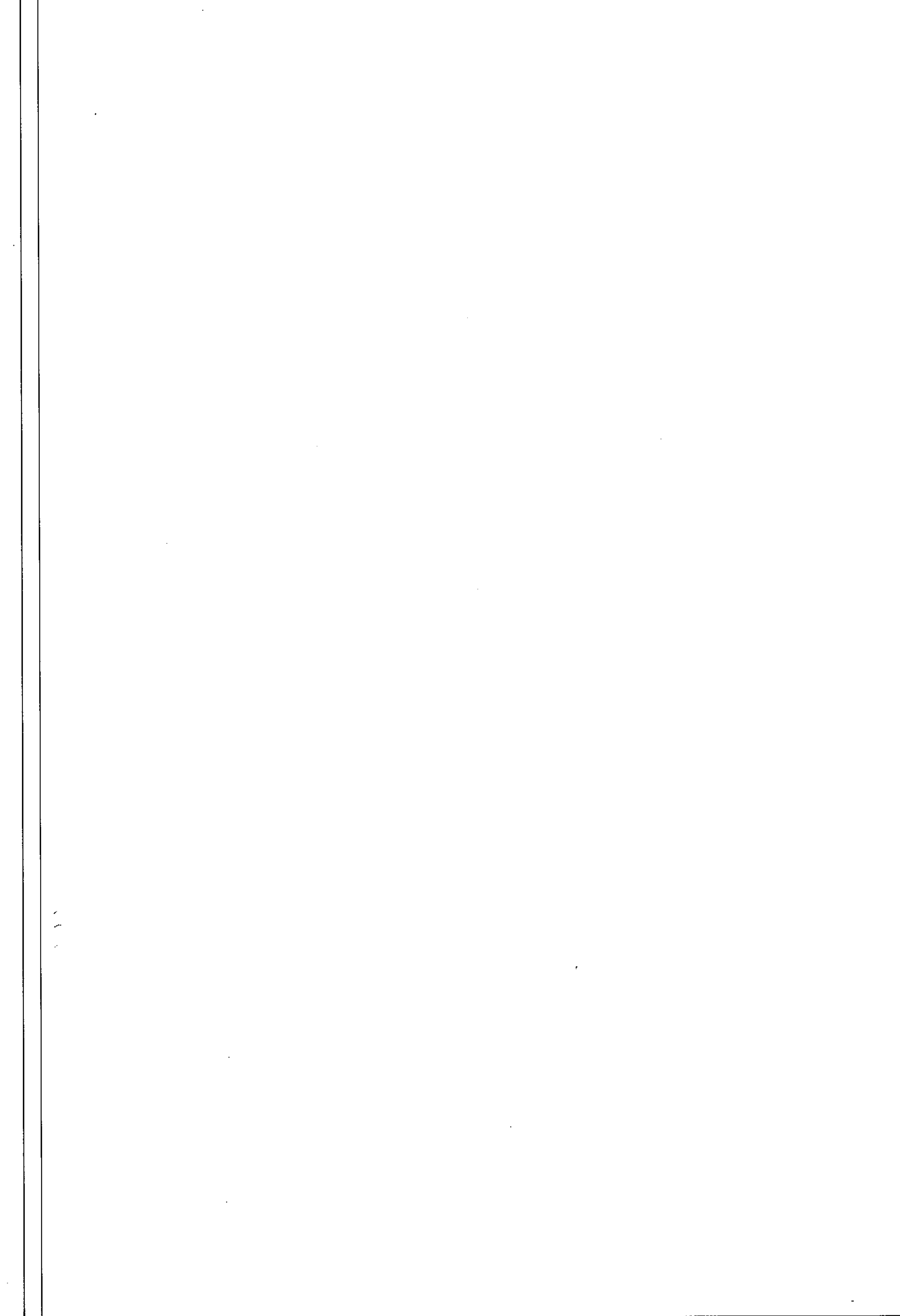
وإذا لم تفعلوا فثقوا ـ وهذه كلمة لا أقولها كسياسي فحسب، بل كرجل مسلم يشترك في أكبر حركة إسلامية في العصر الحديث، ينضوي إليها ملايين الشباب الأقوياء المؤمنين في دنيا العرب والإسلام ـ أقول لكم: ثقوا أننا لن نسير مع الغرب خطوة واحدة في مكافحة أية حركة مادية كقوة سياسية، ما لم يُثبت لنا الغرب عملياً حسن نيته وصدق إخلاصه في التخلي عن مناصرة الصهيونية حتى ندرأ أخطارها عن بلادنا وعن العالم كله، وفي الاعتراف بحقوقنا كاملة في السيادة والاستقلال، حتى نتعاون معه تعاون الحر مع الحر، والكريم مع الكريم، لا تعاون العبد مع السيد، والذليل مع العزيز، والمظلوم مع الظالم.

هذه كلمة نقولها اليوم رجاء أن تحتل من قلوبكم مكان الاقتناع والتأييد، فتكونوا أنصاراً للحق في أوساط شعوبكم، تجهرون بكلمته القوية على مسمع حكوماتكم ورؤسائكم، وإلا فإننا نقولها اليوم للتاريخ.. وسيقول فيها التاريخ كلمته فيما بعد..

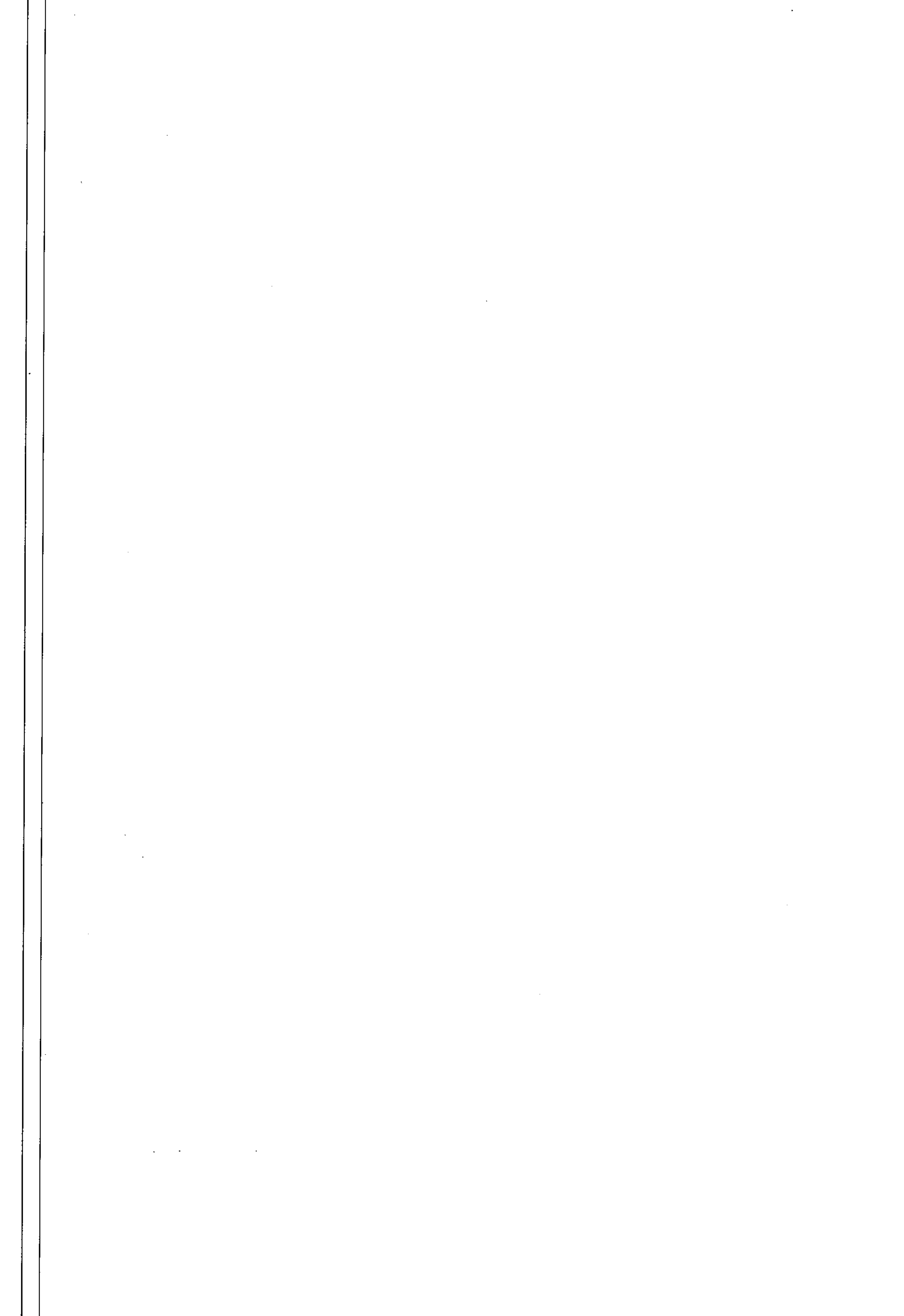
اللهمَّ وفّقنا جميعاً للخير والحق، وألهمنا رشدنا، وهيئنا لإنقاذ الإنسانية من طغيان السياسة على شرائع الله وآدابه»[1].

* * *

(١) مجلة (المسلمون) العدد السابع، السنة الثالثة، ص٨١ ـ ٨٨، أيار (مايو) ١٩٥٤، القاهرة؛ وانظر كتاب: اشتراكية الإسلام: الصفحات ٣٧١ ـ ٣٨١.



الكاتبُ والأديبُ
كلمةٌ في أُسلوبهِ وبَيانِهِ



الكاتب والأديب
كلمة في أسلوبه وبيانه

نقدِّم هنا لمحةً عابرة عن أسلوب السباعي في الكتابة والتأليف، ولا نعني بذلك أكثر من الإشارة إلى المسحة البيانية الغالبة أو الظاهرة في كلِّ ما خطَّه رحمه الله، منذ كتاباته الأولى في مجلة (الفتح) لمحب الدين الخطيب.. وحتى كتاباته الأخيرة في مجلّته هو (حضارة الإسلام).. مروراً بعد ذلك بكلِّ كتبه وبحوثه ومقالاته.. حتى تلك التي لم تجرِ العادة بأن تُعرَض بأسلوبٍ أدبي أو بياني مثل شرحه لقانون الأحوال الشخصية، ولأحكام الميراث منه على وجه الخصوص.. ويعكس هذا مدى انفعاله بالقرآن وتأثره بأسلوبه وبيانه المعجز.. في جميع أبواب القرآن التي شملت كلَّ شيء. وقلَّما وُجدت كتبٌ فقهية وقانونية، قديمة أو حديثة، تحمل مثل هذا الطابع الأدبي أو البياني. وربما كان أولى من يلحظ ذلك: الفقهاء وشرَّاح القانون؛ يقول الأستاذ الفاضل الدكتور وهبة الزحيلي: «وأما موضوعات الميراث فإنه رحمه الله رغم صعوبتها قد ألبسها ثوباً قشيباً من بيانه الساحر...»[1].

ويعود هذا فيما نقدّر إلى طبيعته الشاعرة وذوقه الأدبي الرفيع، وإلى اشتغاله بالدعوة والخطابة الجماهيرية، والكتابة والتأليف في حقول الأدب والتاريخ والاجتماع، أي في غير حقل الفقه والتشريع. فضلاً عن اطّلاعه الذي لم ينقطع على كتب التراث ودواوين الشعر، فلقد كان له إلى «الشعر ميل، وبقراءته هوى»[2] كما قال هو عن نفسه رحمه الله.

---

(١) حضارة الإسلام: العدد الخاص، ص٩٩.

(٢) انظر مقدمة كتابه (هكذا علمتني الحياة)، ص٨. يضاف إلى ذلك ما أشار إليه الأستاذ محمد المبارك حين قال عنه: «وإنك لتعجب حين تجده رحمه الله وهو في أشدّ ما يكون انشغالاً وانهماكاً في عملٍ اجتماعي أو معركة انتخابية، وعلى منضدته كتبٌ جديدة مما ترجم من روائع الأدب الأوروبي، أو أخرج من موضوعاتٍ حضارية أو تاريخية من المؤلفات الحديثة» انظر مقالته عنه في مجلة حضارة الإسلام: العدد الخاص، ص١٥. =

ويذكرنا الأستاذ السباعي في هذا بالإمام ابن حزم الأندلسي، الذي يمكن أن ننعتـه في هذا السياق بأديب الفقهاء، وهو الوصف الذي يمكن أن ننعت به كذلك الأستاذ السباعي.. بل يمكن أن نضيف إلى الأستاذ السباعي أنه كان كذلك فقيه الأدباء.. نظراً لتكافؤ إنتاجه الفقهي والقانوني مع نتاجه (الأدبي) الواسع في حقول المجتمع والحياة!.

وقد أشار الأستاذ أبو الحسن الندوي إلى (بيان) الأستاذ السباعي حين قال في وصفه: إنه «متّزن الفكر، متدفق البيان يجري كالسيل، يمتاز حديثه وخطبه بنصاعة البيان، ووضوح الفكرة، وجمال اللغة، وحلاوة الجرْس»[1].

قلت: ولكن الفرق ما بين ما كتبه في (الفتح..) وهو في أوائل العشرين من العمر، وما كتبه في (الحضارة..) وهو في أواخر الأربعين: أنَّ أسلوبه الأول الذي غلبت عليه الحماسة، وجاء على هذه الدرجة العالية من البيان، لم يأتِ على هذا النحو بدون معالجةٍ وتنقيح.. في حين أنَّ أسلوبه التقريري الهادئ في كتاباته الأخيرة جاء عفو الخاطر كما يقال.. حتى كتابه (هكذا علمتني الحياة) وما تضمَّنه من بلاغةٍ وحكمة ـ يمكن أن تكون محلّ دراسةٍ أدبية أو نقدية ـ لم أقرأ في (أصوله) أو مسوداته أيَّ أثرٍ لتزويق أو تنميق يذكر.. لقد كان بيانه يسعفه، ولم يكن وقته ـ حال المرض ـ يسمح له. بل لطالما رأيته يكتب دون أيّ مراجعةٍ أو تعديل.

وأشدُّ ما عالجه من المقالات في سنٍّ مبكرة: مقالته التي كتبها بمناسبة وفاة أديب العربية مصطفى صادق الرافعي.. فقد اطَّلعتُ على (مسودات) مجموعةٍ من هذه المقالات ـ في أوراقه القديمة حين كنا نبحث عن كتابه (العلاقات بين المسلمين والمسيحيين في التاريخ) أو عن أصوله أو مسوداته ـ فوجدته قد (سوَّد) سطوراً كثيرة، وكتب تجارب عديدة حتى استوى له المقال المذكور من بين سائر المقالات.. ولعله أراد بذلك أن يأتي هذا المقال على مستوًى عالٍ من البلاغة وفاءً للرافعي وتكريماً لمنزلته الفريدة في الأدب العربي. وقد كان هذا المقال بعنوان: (هوى الكوكب الهادي)[2] واستهلَّه بالكلمات التالية:

---

(١) مجلة حضارة الإسلام، ص١١ العدد (٧) من السنة الخامسة ـ يناير ١٩٦٥.
(٢) مجلة (الفتح) العدد (٥٥٠) في ١٠ ربيع الأول ١٣٥٦هـ ـ (٢١/ ٥/ ١٩٣٧).

هوى الكوكب الذي تألَّق في سماء البيان العربي فبهر الأبصار بقوة ضيائه.

هوى النجم الذي هدى السارين في ظلمات الباطل ونجّاهم من بيدائه.

مضى العلَم الذي حمى الحقَّ من كيد خصومه ومكر أعدائه.

مضى الإمام الذي جمع حوله القلوب بحسن دفاعه عن القرآن وجميل ولائه.

مضى القائد الذي كان في المعارك حارس الإسلام وحامل لوائه.

مضى ناصر اللغة حين أزرى بها المستعجمون، ومؤيِّد القرآن حين هاجمه المضلِّلون، والمدافع عن الدين حين تألَّب عليه المفترون، والمنافح عن تراث الإسلام يوم ازدراه المفتونون.

فكان هو البطل الذي أحرز لقومه النصر في كلِّ موقعة، والجحجاح الذي ألحقَ بأعدائه الهزيمة في كلِّ معركة.

وبينما قومُه يحوطونه بالتأييد، ويتطلَّبون منه المزيد؛ لم يرعهم إلاّ هدوء الميدان وخفوت الحركة، فانطلقوا يتساءلون ما الخبر؟ فإذا هي النكبة المؤلمة التي أذهلت العقول، وإذا هي النازلة المفجعة التي أدمت القلوب. لقد استشهد البطل، لقد مات مصطفى صادق الرافعي، فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون»[1].

ويدلُّ سائر المقال، وما أشار إليه من ميادين الإصلاح التي ارتادها الرافعي، والمعارك التي خاضها دفاعاً عن القرآن ولغة العرب وشريعة الإسلام، بالإضافة إلى ما استشهد به من كلام الرافعي رحمه الله... يدل ذلك كلُّه على مدى عنايته بكتابات هذا الأديب الكبير، ومدى تأثره بآرائه ومواقفه.. بل بأسلوبه كذلك[2]. ويمكننا القول من خلال استعراض مقالات (الفتح) بوجهٍ خاص، وسائر ما كتبه السباعي بوجهٍ عام، أنه أحد أعلام مدرسة الرافعي وتلاميذها النجباء، مع تأثره الذي لا يخفى بكتب الشيخ عبد الرحمن الكواكبي

---

(١) وكتب السيد محب الدين الخطيب افتتاحية العدد السابق (٥٤٩) عن الرافعي، واستهلها بقوله: «من خمسمائة سنة وأكثر لم يحمل هذا القلمَ كاتبٌ أمتنُ في العربية قولاً، وأبلغ معنىً، وأغزر حكمة، وأوجز في التعبير عن دقائق الخواطر، من فقيد الأدب العربي مصطفى صادق الرافعي»، ص١١٦١ من العام الحادي عشر.

(٢) وقد بلغ شغف السباعي بكتاب (وحي القلم) أن قرأه أربع عشرة مرة. (ن)

وأسلوبه، وبخاصةٍ كتابه (أمّ القرى) الذي نسج الأستاذ السباعي كثيراً من المقالات على منواله[1].

ويمكن أن نميز في أدبه بين أربعة أنواع من الأدب أو الموضوعات الأدبية وهي أدب الرسائل، والأدب السياسي، وأدب الجهاد، والأدب الصوفي أو أدب الحكمة الذي يقرب من جوامع الكلم، وهو الأدب الغالب على كتابه: (هكذا علمتني الحياة).

وقبل أن نورد بعض الشواهد المقتضبة على هذه الأنواع. نقتطف بعض الكلمات من كتاباته الأولى على صفحات (الفتح) وكتاباته الأخيرة على صفحات (الحضارة).. لندلّ بها على بيانه ومنزلته العامة في الأدب على النحو الذي أشرنا إليه قبل قليل.

أمامي الآن مقالة بعنوان (خير مولود عرفه التاريخ) نشرها في شهر ربيع الأول ١٣٥٤هـ (حزيران ـ يونيه ١٩٣٥م) ولما يكمل من عمره عشرين ربيعاً. ويمكن عدّ هذه المقالة نموذجاً وافياً لبيانه وفكره معاً في هذه المرحلة المبكرة من حياته. وفيها يقول رحمه الله:

---

(١) راجع على سبيل المثال: المقالات التالية: (تصريح خطير جداً لعام ١٣٥٥هـ) ـ مجلة الفتح العدد (٥٤٣) تاريخ (١٩) المحرم ١٣٥٦هـ. و(عام ١٣٥٦ يتحدث إلى إخوانه فيتخذون قراراً خطيراً) الفتح ـ العدد (٥٩٣) تاريخ (١٥) المحرم ١٣٥٧ و(رمضان يحاضر) ـ عدة مقالات ـ بدأها بتاريخ (٢٢) رمضان ١٣٥٦ ومقالة (العيد الأكبر) الفتح ـ العدد (٥٥١) تاريخ (١٧) ربيع الأول ١٣٥٦. ويظهر في هذه المقالة الأخيرة كذلك محاكاته للرافعي في ندائه بـ«يا بنت النبي العظيم» في قصة السيدة فاطمة حين باع النبي لها سوارين من فضة وتصدَّق بثمنهما على الفقراء؛ فقد خاطب السباعي يوم مولد النبي ﷺ بـ«يا يوم النبي العظيم» أكثر من مرة، في الوقت الذي لم يخفِ تأثُّره وانفعاله بقصة السوارين ـ وما أشدَّ تأثيرها في كلِّ نفس ـ حتى نقلها وعلَّق عليها فيما بعد في كتابه (اشتراكية الإسلام). وقدَّم لها بقوله: «ونستعير هنا بيان أديب العربية الكبير المرحوم مصطفى صادق الرافعي ليعلِّق على هذه الحادثة فيقول..». انظر كتابه اشتراكية الإسلام، ص٢٩٩ ـ ٣٠٠.

وربما كان قول الرافعي في تعليقه على هذه القصة: «تعالوا أيها الاشتراكيون فاعرفوا نبيكم العظيم» جديراً بالتنويه في هذا السياق وفي سياق (اشتراكية) مصطفى السباعي التي تحدثنا عنها، والتي تأثَّر فيها بالرافعي كذلك فيما يبدو.

«ثلاثة عشر عاماً أمضاها رسول الله ﷺ في مكة يدعوهم إلى الله وينهاهم عما كانوا عليه من شركٍ وضلال، فلم يلقَ من أكثرهم إلا عنتاً وإرهاقاً؛ كذَّبوه وقد كانوا له قبل النبوّة مصدِّقين، وآذوه وكانوا له من قبل مكرِمين، ورموه بالفحش وكانوا له عن ذلك منزِّهين. قذفوه بالتهم فصفح عنهم، ودعوا عليه فدعا لهم، وتمنَّوا له الموت فتمنى لهم الحياة، ورموه بالحجارة فرماهم بالهدى والرحمة، وقال: «اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون». عظمةٌ تتضاءل دونها كل عظمةٍ في الكون، وخُلُقٌ خضع له الكون إجلالاً وإكباراً، وأهوالٌ لو أُفرغت على الجبال لدكَّتها دكّاً. . ولكن نفس محمد ﷺ كانت أكبر من الدنيا، فلم تعبأ بكلِّ ما في الدنيا»[1].

وكان من أواخر ما كتب على صفحات (الحضارة) الافتتاحية التي صدَّر بها المجلة في موسم حجّ ١٣٨٣هـ وكانت بعنوان: (لبيك اللهمَّ لبيك)[2] ـ وهو العام الذي حجَّ فيه رحمه الله (حجة الوداع) لأنه توفي بعد ذلك ببضعة شهور. وقد استهلّ هذه الافتتاحية بقوله:

«ما بـال هؤلاء الناس يغدون ويروحـون؟ ما بـالهم طائريـن في الجو، مسـرعين في البر والبحر، هجروا رفاهيـة الحياة، وفارقـوا الأهل والأولاد، وتخفَّفوا من الهموم والأعباء، وتحرَّروا من المطامع والأهواء، وتناسوا الكراهية والبغضاء، واطَّرحـوا الترف والرخـاء، ولبسـوا الخفيف البسـيط من اللبـاس وتواضعوا فلا علوّ ولا كبرياء، وتساووا فلا أغنياء ولا فقراء، وابتسموا فلا هموم ولا أحزان، وتعاونوا فلا بغي ولا عدوان، واتقوا فلا رفث ولا عصيان، وتعارفوا فلا تقاطع ولا هجران، وتعارفوا وهم شتّى في لغاتهم لا يتكلمون إلا بلغة القرآن. أفئدتهم كأفئدة الطير، وأعمالهم كأعمال الملائكة، وأرواحهم كأرواح الأنبياء، وأخلاقهم كأخلاق الأولياء».

وقد ختمها بقوله: «لبيك، سنسرع إلى تلبية ندائك، وسنهرع إلى لقائك، وسنصغي السمع إلى أوامرك ونواهيك، وسنجدِّد في نفوسنا ذكريات المجد والخلود التي شاءت إرادتك أن تنطلق من حول بيتك المحرّم، وسنزور رسولك

---

(١) (الفتح) العدد رقم (٤٥٠) خاتمة العام التاسع.

(٢) العدد العاشر من السنة الرابعة ذو الحجة ١٣٨٣هـ ـ أيار (مايو) ١٩٦٤م.

وحبيبك المصطفى ﷺ؛ اعترافاً منّا بفضله، وتجديداً للعهد معه أن لا نلقي اللواء التي تسلمناه منه جيلاً بعد جيل، وتيمُّناً به ﷺ أن تُنعم بالشفاء على من أبطأ به المرض عن النشاط في الجهاد في سبيلك، والدعوة إلى هديك وشريعتك، واستمداداً منه ﷺ بعض عزماته التي بلّغ بها رسالتك، وأدّى بها أمانتك، عسى أن نسير على هديه، ونتخلّق بأخلاقه، ونكون معه في جنات رضوانك ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨ ـ ٨٩] ﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ۝ الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [غافر: ١٦ ـ ١٧].

لبّيك اللهمَّ لبّيك، لبيك لا شريك لك لبيك. إنَّ الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك»[(١)].

أما أدبه في الرسائل، فيتجلّى في الرسائل المتبادلة بينه وبين بعض العلماء على صفحات مجلة (الفتح)، وفيما نشره بعض العلماء أو أشاروا إليه من رسائله الخاصة إليهم. وقد يلحق بهذا النوع من الأدب: ردوده ومناقشاته مع بعض العلماء والقرّاء على صفحات مجلته (حضارة الإسلام)، وأكتفي من ذلك برسالته التالية التي كتبها ردّاً على رسالةٍ وجّهها إليه فضيلة الأستاذ الشيخ محمد إسماعيل عبد النبي، وعبَّر له فيها عن إعجابه بمقالاته في (الفتح)، فخاطبه الأستاذ السباعي قائلاً:

«تفضَّلتَ يا سيّدي الأستاذ فوجّهتَ إلى الفقير الضعيف كلمة ثناءٍ على صفحات (الفتح) الأغرّ ملأتَها بما فاضت به نفسك الطاهرة من أدبٍ وفضل وحسن ظنّ. ويشاء الله أن تكون كلمتك هذه في الوقت الذي كنت عزمت فيه على التعبير عن إعجاب قرّاء (الفتح) بمواقفكم المشرّفة في الدفاع عن الدين وردِّ السهام الموجَّهة إليه من أمثال طه حسين والحكيم والصعيدي، بينما نرى الغفلة قد عمَّت أكثر علمائنا، وتيار الفتنة قد جرف كثيراً ممن يُظنّ فيهم الغيرة على الدين، والعمل لصالح المسلمين. فضربتم المثل لهؤلاء الغافلين والمفتونين كيف تنتفع الأمة بالعلماء، وكيف يصمد العلماء في ميادين النضال بين الحق والباطل، والهدى والفتنة.

---

(١) قارن هذا بخواطره التي كتبها عن الحج، في موسم ١٣٨١هـ، في كتابه: (هكذا علمتني الحياة) الفقرات (٣٢٣ ـ ٣٢٥) ومن (٤٠٦ ـ ٤١١). وانظر خواطره التالية عن العيد: (٤١١ ـ ٤٢٥).

«أنا لا أريد يا سيدي أن أقارضك ثناءً بثناء؛ فإني أخشى أن نكون موضع تهمةٍ من حضرات القرّاء. وحسبي أن أقول: إنك ألبستني ثوباً أنت أحرى منِّي بلبسه، وأضفيت عليَّ ثناءً إن يكن هو عليَّ كثير وكثير؛ فلك في نفسي ونفوس القرّاء ما هو أكثر منه وأحقّ. فامضِ يا سيدي على جهادك في سبيل الله، ولك من الله عظيم المثوبة، ومن الأمّة حُسن الأُحدوثة، ومن التاريخ طيب الذكر وتخليد الأثر.

«أسأل الله أن يثبّتنا بالقول الثابت في خدمة دينه، ويوفقنا للعمل بالعلم، والإخلاص في العمل، ويجمعنا تحت لواء نبيه الأعظم ﷺ في يومٍ تنجلي فيه الريب، وتزول الأوهام، ولا يبقى إلا الحق. ولا ينجو إلا الذين دافعوا عنه لوجه الله لا يبغون جزاءً ولا شكوراً»[1].

مصطفى حسني السباعي

وكان فضيلة الشيخ محمد إسماعيل ـ أحد علماء الأزهر ـ قد كتب في مجلة الفتح (كلمة عتاب) «للصديق الفاضل الكاتب اللبق الأستاذ الشيخ مصطفى أحمد الرفاعي اللبان» تعقيباً على ردّه ـ أي الشيخ الرفاعي ـ على ما كتبه الدكتور طه حسين حول موضوع اختلاط الجنسين في التعليم الجامعي. كما كتب (كلمة ثناء وإعجاب)، ونصّها ما يلي:

«أما كلمة الثناء فهي التي نوجهها لله وفي سبيل الله إلى كلٍّ مِنْ حضرتي الكاتبين القديرين الغيورين: أما أحدهما فهو الفاضل المبدع صاحب القلم السيال، والعقيدة القوية السليمة، والأسلوب الممتع، والبيان الرائع، والتصوير الساحر، والبصيرة النافذة، والثقافة الإسلامية الواسعة: السيد مصطفى حسني

(١) مجلة (الفتح) العدد (٥٤٨) في (٢٥) صفر ١٣٥٦ (٦/ ٥/ ١٩٣٧) وانظر كذلك في العدد (٧١٥) في ١٢ جمادى الآخرة ١٣٥٩ (١٧/ ٦/ ١٩٤٠) العام ١٥، ص٢٤٨: رسالته إلى فضيلة الشيخ مصطفى الرفاعي اللبّان. وراجع الرسائل المتبادلة بينه وبين الأستاذ أبي الحسن الندوي في عامي ١٩٥٥ و١٩٥٦ في مقالةٍ له بعنوان: (بيني وبين فقيد الإسلام الأستاذ الدكتور السباعي) مجلة حضارة الإسلام ـ العدد السابع من السنة الخامسة رمضان ١٣٨٤هـ ـ كانون الثاني (يناير) ١٩٦٥ قال الأستاذ الندوي: «فكتب إليَّ من لندن كتاباً يكاد يسيل رقّةً وعذوبة وصفاء نفس، وقوة عاطفة..».

السباعي . . وإني أعلن إعجابي البالغ بكل مقالٍ يكتبه . وإني أتابعه منذ زمن بعيد؛ فلا أرى إلا المعجب المطرب مما يتناوله من الموضوعات الشائقة والتحليل الشامل . وإذا كان لنا عند الله رجاء فهو أن يزيده قوة، ويوفقه دائماً لخدمة الإسلام والمسلمين؛ **فإني أرى الإخلاص يتفجر من قلمه، كما أراه متمكناً من فهم دينه على الوجه الأكمل، فجزاه الله عن إخلاصه وجهاده أفضل الجزاء»**[1] .

أما أدب الحكمة و(جوامع الكلم) فقد تجلّى في كتابه: (هكذا علمتني الحياة). وقد سبق لنا الحديث عن هذا الكتاب ـ بقسميه الاجتماعي والسياسي ـ في موضع سابق. ونشير هنا إلى أنَّ هذا النوع من الأدب الذي تذكيه وتنضجه تجارب الحياة العميقة، لا يتأتّى إلا للحكماء وكبار الأدباء. ونورد فيما يلي شذرات من هذا الكتاب ـ القسم الاجتماعي ـ ننقلها من بعض الصفحات التي تتفق لنا ونحن نقلِّب أوراق الكتاب:

قال تحت عنوان: **(من مكر الشيطان)**:

(٤٦٥) ـ «من مكر الشيطان ببعض جنود الدعوة: أن يهيِّجهم لإنكار منكرٍ هو عند الله صغير، أو أمرٍ يرونه منكراً وهو عند صاحبه طاعة، فيقعون في كبائر

---

(١) الفتح، العدد (٥٤٦) تاريخ ١١ صفر ١٣٥٦هـ (٢٢/ ٤/ ١٩٣٧)، ص١٠٩٧ ـ ١٠٩٨ من العام الحادي عشر. وكان الشيخ إسماعيل ـ أحد كتّاب الفتح ـ قد ردّ على كلٍّ من طه حسين وتوفيق الحكيم في موضوع الاختلاط المشار إليه. رد أولاً على طه حسين في العدد (٥٤٢) تاريخ ١٢ المحرم ١٣٥٦هـ (٢٤/ ٣/ ١٩٣٧) الصفحات: ٩٩٦ ـ ٩٩٧ من العام المذكور. ثم رد على الحكيم في العدد (٥٤٣) ـ ١٩ المحرم ـ ما كتبه في جريدة المصري بتاريخ ١٦ آذار ـ مارس ١٩٣٧ تأييداً لطه حسين ومناصرة له في ردّه لمذكرة **مهمة قدّمها طلاب وطالبات كلية الحقوق طالبوا فيها بتعميم تدريس الثقافة الإسلامية في الجامعة، وبفصل الفتيان عن الفتيات**.
أما عبد المتعال الصعيدي المدرّس بكلية اللغة العربية بالأزهر فقد ناقشه الشيخ إسماعيل وردّ عليه رأيه واجتهاده الذي نشره في جريدة (السياسة) الأسبوعية ـ العدد رقم ٦ تاريخ ٢٠ شباط ـ فبراير ١٩٣٧هـ وزعم فيه أن الأمر القرآني الوارد في حد السرقة وحد الزنا إنما هو للإباحة وليس للوجوب!!
انظر مقالة الشيخ عبد النبي بعنوان: التشريع المصري وصلته بالفقه الإسلامي في العدد (٥٣٩) من الفتح تاريخ ٢١ ذي الحجة ١٣٥٥هـ (٣/ ٣/ ١٩٣٧): العام الحادي عشر، ص٩٢٨ ـ ٩٢٩ .

محقَّقة يتلو بعضها بعضاً من الغرور، والبهتان، واحتقار المسلم، وتجاوز حدود الله، وتفريق كلمة الجماعة، والغيبة، والكذب. وهم يتأوَّلون ذلك كلَّه بأنه حميّةٌ ودفاع عن دعوته! لطالما يقهقه الشيطان من حماقاتهم!».

وكتب تحت عنوان: (**رسول الله والأنبياء**):

(١١١) ـ «لئن شقَّ موسى بحراً من الماء فانحسر عن رملٍ وحصى؛ فقد شقَّ محمد ﷺ بحوراً من النفوس فانحسرت عن عظماء خالدين، ولئن ردَّ الله ليوشع شمساً غابت بعد لحظات؛ فقد ردَّ الله بمحمدٍ إلى الدنيا شمساً لا تغيب مدى الحياة، ولئن أحيا عيسى الموتى ثم ماتوا؛ فقد أحيا بمحمد أمماً ثم لم تمت».

وكتب تحت عنوان: (**إذا فوجئت**):

(٧٥٤) ـ «إذا فوجئتَ بنزول المصائب فلا تيأس من زوالها، وإذا فوجئت بتغيُّر الزمان فلا تلجأ إلى الشكوى منه، وإذا فوجئت بتغيُّر الإخوان فلا تكثر من انتقاصهم، وإذا فوجئت بالمرض المؤلم فلا ترفع صوتك بالأنين منه، وإذا فوجئت بارتفاع الأغمار فلا تستمرّ في استصغار شأنهم، وإذا فوجئت بتحكُّم الأشرار فلا تقنط من زوال حكمهم، وإذا امتدت بك العلة فلا تيأس من رحمة الله، وإذا رأيت في دنياك ما لا يعجبك فاعلم أنَّ هذه هي سنَّة الحياة، وإذا راعك انتشار الشرّ فاعمل على مكافحته إن استطعت، وإلا فتربَّص حتى تواتيك منه الفرصة، وإياك أن تيأس من انكماشه ولو غمر المجتمع الذي تعيش فيه. وإذا راعك رواج الكذب والباطل، فلا تشكّ في أنَّ الله سيفضحه ولو بعد حين».

وقال تحت عنوان: (**ذلّ الشهوة والطمع**):

(٩٥٣) ـ «كم أذلَّت الشهوة كرامة الرجال، وكم أذلَّ الطمع أعناق الأبطال».

وكتب تحت عنوان: (**لنا الله من هؤلاء**):

(٩٩٣) ـ «لنا الله من قوم لهم أحلام الملوك وعزائم الصعاليك! ولنا الله من قوم لهم دعاوى الصدِّيقين وأعمال الشياطين! ولنا الله من جماعات بألسنتهم شعارات الخلاص، وبأيديهم قيود العبودية! ولنا الله من صحبٍ كنَّا منهم ملء السمع والبصر، فأصبحنا معهم بلا شأنٍ ولا أثر.

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا ... أنيسٌ ولم يسمر بمكّة سامر»

وعطف على هذه الفقرة بأخرى تحت عنوان: (**ومن هؤلاء!**) قال فيها:

(٩٩٤) ـ «لنا الله من أشباه الرجال! رعاديد حين يكون السلاح في وجوههم، أبطال حين يكون السلاح في وجوه غيرهم».

وكتب تحت عنوان: (**تجلّيات الله**):

(١٧٩) ـ «تجلَّى للعارفين بفيوض الأنوار، وتجلَّى للواصلين بلطائف الأسرار، وتجلَّى للعابدين بلذَّة الإسرار، وتجلَّى للمريدين بحلاوة المزار، وتجلَّى للتائبين بإسدال الأستار، وتجلَّى للناظرين بحسن الاختيار، وتجلَّى للغافلين بتعاقب الليل والنهار».

ويمكننا أخيراً بمناسبة هذه الخاطرة الأخيرة أن نقول إنَّ هذا الكتاب (انفرد) كذلك بنماذج رفيعة من **الأدب الصوفي**، تمثَّلت في فقرات الأدعية والمناجاة وما جرى مجراها.. مع الإشارة إلى أنَّ الفقرات التي حملت عنوان: (**مناجاة**) وحدها تزيد عن اثنتي عشرة فقرة[1]. ونختم هذه الشذرات بواحدةٍ منها، أو اثنتين.

(٧٩٥) ـ «يا حبيبي! وحقّك لولا يقيني بحبّك لعتبت عليك، ولولا علمي برحمتك لشكوتك إليك، ولولا ثقتي بعدلك لاستعديتك عليك، ولولا رؤيتي نعمك لاستبطأت كريم إحسانك. ولكني ألجمت الشكّ باليقين، والتسخُّط بالرضى، والتبرُّم بالصبر. فلك مني يا حبيبي رضى قلبي وإن شكا لساني، وهدوء نفسي وإن بكت عيوني، وإشراق روحي وإن تجهَّم وجهي، وأمل يقيني وإن يئس جسمي. فلا تؤاخذني بصنيع ما يفنى مني، ولك مما أعود به إليك.. ما تحبّ».

(٧٩٦) ـ «يا حبيبي! ها أنا بعد خمس سنين لم ينفعني علم الأطباء، ولا أفادتني حكمة الحكماء، ولا أجداني عطف الأصدقاء، ولا آذتني شماتة الأعداء. وإنما الذي يفيدني بعد اشتداد المحنة: كسوة الرضا منك، وينفعني بعد القعود عنك: حسن القدوم عليك، ويخفِّف عني: جميلُ الرعاية لمن زرعتَهم بيدك، وعجزتُ بمحنتي عن متابعة العناية بهم، ومَن مِثلك يا حبيبي في صدق

---

(١) راجع الفقرات التي تحمل الأرقام التالية: (١٠٨، ١٠٩، ١٦٩، ١٨٣، ٤٧٩، ٥٨٣، ٦٦٨، ٦٦٩، ٧٩٥، ٧٩٦، ٩٠٩، ٩٩٢، ١٠٦٠) وهي الخاطرة الأخيرة في الكتاب بعنوان: (دعاء ومناجاة).

الوفاء، وجميل الرعاية، وحسن الخلافة؟ فإن قضيتَ فيَّ أمرَك ـ وهو نافذٌ فيَّ لا محالة ـ فهم وأرضهم الطيبة أمانةٌ عندك، يا من لا تضيع عنده الأمانات، ولا يخيب فيه الرجاء، ولا يُلتمس من غيره الرحمة والإحسان».

أما ما أسميناه **بالأدب السياسي**، فقد تجلّى في كلمات الأستاذ السباعي البرلمانية، والتي جاءت على شكل مرافعات أو مداخلات ومناقشات. كما تجلّى في الكثير من كلماته وأحاديثه الوطنية. ونعتقد أنَّ نصّ البيان الذي تقدَّم به إلى الرأي العام عام ١٩٥٠ حول (الدين والدولة) يمثّل هذا النوع من الأدب أفضل تمثيل، وقد سبق لنا أن نقلنا هذا البيان في موضعٍ سابق[1]. فنكتفي به.

ويلحق بهذا النوع: **القسم الثاني ـ السياسي ـ** من كتاب (هكذا علمتني الحياة) الذي جاء متساوقاً مع القسم الاجتماعي منه في الحكمة والبلاغة.. وبنهج (جوامع الكلم) وإن كان هذا القسم السياسي أكثر دقةً وحساسية لأنه دار حول موضوع واحد تختلف حوله الآراء.. بينما تناول القسم الاجتماعي موضوعاتٍ شتَّى قد تتفق حول بعضها أو كثيرٍ منها الآراء ووجهات النظر.

ونورد فيما يلي بعض الشذرات من القسم السياسي، نذكرها فقط بأرقامها دون عناوينها:

(٤) ـ اتهام الناس بالخيانة مرضُ الذين كانوا من قبل خائنين!.

(٥) ـ لا يغرَّنَّك امتداد سلطان المفسدين، فإنَّ من حكمة الله أن لا يأخذهم إلا بعد أن لا يوجد من يقول عنهم: يرحمهم الله!.

(٩) ـ أيهما أسوأ: الذي يضطهد الأحرار؟ أم الذي يحقد عليهم؟.

(١٢) ـ المستعمر يعمل على استغلالك ثم لا يبالي بسخطك، والطاغية يعمل على إذلالك ثم لا يعجبه إلا أن ترضى وتثني عليه!.

---

(١) وراجع كذلك ما نقلناه من مقالته: (يا شيوخنا في السياسة..) في فصل (السياسي والبرلماني)، وانظر نص الخطاب التاريخي الذي ألقاه في مؤتمر الجمعية الإسلامية لنصرة الجزائر الذي عُقد بلندن في (٥) أيار (مايو) ١٩٥٦. جريدة الشهاب، العدد (٥٤) تاريخ (١٧) شوال ١٣٧٥هـ (٢٨/ ٥/ ١٩٥٦). وكذلك مقالته عن (أعوان السوء) التي أذاعها من محطة الإذاعة السورية عشية انتخاب المجلس النيابي للسيد شكري القوتلي رئيساً للجمهورية. كتاب (أخلاقنا الاجتماعية)، ص١٨٣؛ وجريدة الشهاب، العدد (١٨) تاريخ ١١/ ٩/ ١٩٥٥.

(١٧) ـ الطاغية إلـه يعبد الشيطان.

(٢٣) ـ ليس الدهاء أن تخدع شعبك، فتلك خيانةٌ ونذالة. ولكن أن تحبط مكر أعدائك، فتلك وطنيةٌ ورجولة.

(٣٠) ـ الحزبية الرخيصة تدني اللئام، وتقصي الكرام، وتنظر إلى الجماهير نظر الأنعام.

(٤٩) ـ النظام الديكتاتوري: حاكمٌ له مظاهر الألوهية وأفعال الشياطين، وشعبٌ تعداده ملايين الأجسام وله عقل واحد، وأرضٌ تذرع ملايين الفدادين يسكنها ظالمٌ واحد، ودولة فيها ملايين العبيد يحكمها سيدٌ واحد، وتاريخٌ كان يكتبه الملايين من الصادقين فاحتكر كتابته كذَّابٌ واحد.

(٥٣) ـ الانقلاب أن تتكلم البندقية بدلاً من اللسان، ويُقنع المدفع بدلاً من البرهان، ويجتمع السياسيون في السجن بدلاً من البرلمان، وتتحكم الأحذية الغليظة في العقول والأذهان.

(١٦١) ـ أكثر السياسيين كذباً: أكثرهم احتقاراً لوعي الشعب، وأكثرهم تبدُّلاً: أكثرهم مهانـةً في نفسه، وأكثرهم حرصاً على الفتن: أكثرهم فقداناً للمؤهـلات، وأكثرهم جـرأةً على الحق والفضيلة: أكثرهم فقراً في الديـن والأخلاق.

(١٦٦) ـ الحقد الشخصي يقتل صاحبَه كمداً، والحقد السياسي يعوق المجتمع عن سيره الصحيح، وحقد الطاغية يدمِّر الأمة تدميراً.

(١٦٧) ـ الطاغية يحقِّق لأعداء الأمة من المكاسب، ما لا يستطيعونه بالانتصار في المعارك.

(١٦٩) ـ حسـب الأمة شـقاءً بالطاغية: أن يميت أحرارها، ويحيـي أشرارها!.

(١٧٥) ـ لا يتهافت على فتات عهد الطاغية إلا الذين لا يجدون ما يأكلون في عهود الحرية، ولا يعتزّ بالسير في ركاب الطاغية إلا الذين تدوسهم مواكب الأحرار.

(١٩٩) ـ حبّ المال يفضح أدعياء الدين، والوطنية، والإخلاص، والإصلاح، والحرية، والاشتراكية.

(٢٠٤) ـ أساس نكبة أمتنا في القديم والحديث: حكامها الظالمون، وأذكياؤها المنافقون، وعلماؤها الغافلون.

(١٨٩) ـ إياك وقيادة الأغرار في معركةٍ حاسمة، فإنهم إما أن ينشغلوا بك عن أنفسهم، وإما أن ينشغلوا بأنفسهم عنك، وفي كلا الحالين توقَّع الهزيمة!.

شعره:

نظم الأستاذ السباعي بضع قصائد ومقطوعات، جاء معظمها في سياق خواطره في كتاب (هكذا علمتني الحياة) ونُشر ثلاثٌ منها بعد وفاته في مجلة (حضارة الإسلام) منها قصيدةٌ بعنوان (مناجاة).. وهي آخر شعره رحمه الله وسوف نتحدث عن ظروف نظمها عند الحديث عن حجته الأخيرة ورحيله رحمه الله. وقد تلاها في الروضة النبوية المطهّرة قرب المنبر النبوي الشريف بعد صلاة العصر في اليوم العاشر من المحرم عام ١٣٨٤، وهي تحاكي قصيدة (البردة) للبوصيري.. أو على «نهجها» وقد نشر في المجلة أبرز أبياتها[١]. أما القصيدة الثانية فقد نشرت تحت عنوان: **(وداع راحل)**[٢]، وفيها يقول:

أَهَاجَكَ الوَجْدُ أم شَاقَتْكَ آثارُ ... كانتْ مغانيَ نعمَ الأهلُ والدَّارُ
وما لعينِكَ تبكي حُرْقةً وأسى ... وما لقلبِكَ قد ضجَّتْ بهِ النَّارُ
على الأحبَّةِ تبكي أم على طَلَلٍ ... لم يبقَ فيه أحبّاءٌ وسُمَّارُ
وهل مِنَ الدَّهرِ تشكو سوءَ عِشْرَتِهِ ... لم يوفِ عهداً ولم يهدأْ لَهُ ثَارُ
هيهاتَ يا صاحبي آسى على زمنٍ ... سادَ العبيدُ بهِ واقتيدَ أحرارُ

أما القصيدة الثالثة فعنوانها **(طريقي)**[٣]، ومطلعها:

دَعِيني وشَأني ليسَ عُذْري بشافعٍ ... لديكِ ولا حالي يَعِنُّ ببالِكِ

وفيها يقول:

دَعِيني ففي دنيايَ همٌّ ومِحْنَةٌ ... وقطعُ طريقٍ في المفاوِزِ شائكِ
وحِلٌّ وتَرْحَالٌ وحَرْبٌ وهُدْنَةٌ ... وتعليمُ أستاذٍ وعزلةُ ناسكِ

---

(١) حضارة الإسلام: العدد الخاص، ص٢٠٤.
(٢) المصدر السابق، ص٥١.
(٣) المصدر السابق، ص١٧٠.

وقد ختمها بقوله:

دَعِيني أعيشُ العمرَ في غُرْبَـةِ الهَوَى ... ففـي الحـقِّ مِحْرابي وفيـه مناسكي
وفي النّصحِ لذّاتي وفي الخيرِ ثروتي ... وفـي العلمِ محرابي وفيـه سبائكي

أما مقطوعاته في (هكذا علمتني الحياة)، فالأولى بعنوان: **(أراك جميلاً في فعالك كلها)**[1] وفيها تضرُّعٌ ودعاء، وإعلان الرضا بقضاء الله وقدره، والتوجه إليه سبحانه أن يهبه الصبر ويثبّته على الطريق. ومما قاله فيها يخاطب مولاه سبحانه:

أرك جميـلاً فـي فعَـالـكَ كلِّهـا ... فهل أنتَ راضٍ أم تُرى أنتَ مُغَضَبُ
ولكـنَّ ظَنّـي فيـكَ أنَّـكَ مُعْتِقِـي ... وأنَّـكَ تُـدْنيني ولسـتَ تُعَـذِّبُ

وقد ختمها بقوله:

وأنـزِلْ علـى قَلْبِـي الجَـرِيْـحَ سكينـةً ... وأحسِن ختامي ليسَ لي عنك مَذْهَبُ

وجاءت المقطوعة الثانية في سياق أشواقه التي أطلقها أو بثّها نحو مناسك الحج، وصدَّرها بخطاب ربِّه سبحانه بـ(إلٰهي ومولاي)[2]، ثم ختمها بأبيات من الشعر تحدَّث فيها أولاً عن معاني تلك المناسك وأثرها في النفس[3]، ثم خاطب ربَّه سبحانه بقوله:

ربِّ قـد حِلـتَ بينـي وبينهـمُ اليـومَ ... بـرغـمِ الأشـواقِ والحَسَـراتِ
فـاغفـرنْ زلَّتـي لـديـكَ وبـارِكْ ... عَـزَمَـاتـي ولا تُطِـلْ مِـنْ شَكـاتِـي
واكتبـنْ لـي عَـوْداً لتلـك الـدِّيَـا ... راتِ، وفيضـاً مِـنْ تلكـمُ الـرَّحَمـاتِ

وتضاف هاتان المقطوعتان إلى أدعيته ومناجاته التي تحدثنا عنها، ويمكن أن تُسلكا مع قصيدتيه السابقتين: (نهج البردة) و(وداع راحل) في سلك **الشعر الوجداني الرفيع**، أو ما سمَّيناه قبل قليل **بالأدب الصوفي**.

أما قصيدته الثالثة ـ وعنوانها **(أيها السائرون)**[4] ـ فقد عبَّر فيها عن شكاته

---

(١) الفقرة رقم (٣٤٨).
(٢) راجع الفقرات: (٤٠٦ ـ ٤١٠).
(٣) الفقرة (٤١٤).
(٤) الفقرة (٧٤٣).

من المرض الذي اقعده عن السير في موكب الحق، علماً بأنه لم يقعد عن هذا المسير، بل بقي رحمه الله على رأس هذا الموكب.. ولكنه عنى كراهته لراحة الجسم، وقعوده عن المنازلة في كلِّ ميدان. وقد خاطب أولئك السائرين بقوله:

عرِّجوا في الطَّريقِ نحوَ جريحٍ كانَ في اللهِ ثورةً لا تُسالِمْ
كافحَ الظُّلمَ في صولةِ الظُّلْـ ـمِ، وللشَّرِّ دولةٌ ومَعَالِمْ!

ومما قال فيها:

علمَ اللهُ كُرْهَهُ راحةَ الجسْـ ـمِ إذا البغيُ في المرابعِ جَاثِمْ
فانثنى يجرعُ العذابَ، وفي القلْـ ـبِ جِراحٌ، وفي الفؤادِ عزائِمْ

وختمها بقوله:

لكمْ مِنْهُ: رأيُهُ، وهواهُ ومروءاتُه.. وحَمْلُ المَغَارِمْ!

أما مقطوعته الرابعة فقد عبَّر فيها فيما يبدو عن شعوره نحو بعض الشامتين والحاسدين الذين كانوا يحسدونه على الحبّ والإعجاب والمكانة التي أولاها له: إخوانه وتلامذته وسائر عارفي فضله ـ وما أكثرهم ـ ولكن حتى لا يُساء فهم هذه الخاطرة الشعرية[1] وسائر خواطره التي بثَّها في كتابه (هكذا علمتني الحياة) فقد قال في مقدمة هذا الكتاب: «وأحبُّ أن أنبّه أيضاً إلى أنني فيما أوردتُ من خواطر تتناول فئاتٍ من الناس، لم أقصد أشخاصاً معيَّنين، وإنما قصدت كلَّ من اتَّصف بتلك الصفات، فالخواطر المتعلقة بهم خواطر نحو صفاتٍ معينة، لا أشخاص معينين، وأعوذ بالله من أن يكون في قلبي حقدٌ نحو أحد، أو عندي رغبةٌ في التشهير بإنسانٍ مهما اختلفت معه في اتجاهه وسلوكه»[2].

وأبيات هذه المقطوعة مطلعها:

ومنتظرٍ موتي لِيَشْفِي غيظَه رويدَك إنَّ المَوْتَ أقربُ مَوْعِدِ

وأعتقد أنَّ الأستاذ السباعي، إمعاناً في هذا الذي قال، أسقط من هذه المقطوعة أحد الأبيات، كما أجرى تعديلاً على الشطر الثاني من هذا البيت، فقد

---

(١) الفقرة رقم (٧٩٨) بعنوان: (رويدك!).
(٢) ص٨.

كان فيما أذكر: (رويدَك ليسَ الموتُ طُلْبَةَ مُنْشِدِ!) حتى لا يُظنَّ أنَّ هنالك رجلاً بعينه ينتظر موته ليعلو شأنه أو ليشفي غيظه! . . رحمه الله.

بقي أن أذكر أخيراً أنَّ الكتاب ـ بطبعته الأولى التي أشرت إليها ـ كان يتضمَّن قصيدةً مهمة تبلغ نحواً من خمسة وثلاثين بيتاً ولم أجد لها أثراً في الطبعة التي بين يديّ. وهي من أهم الخواطر التي جرت على كلِّ لسان، وأذكر منها الآن: ـ وعنوانها: **احملوني إلى الحبيب** ـ ما يلي:

احْمِلـونـي إلـى الحبيـبِ ورُوْحُـوا ... واطْـرَحُـوْنـي ببـابِـهِ واسْتَـرِيْحُـوا
أنـا مَـن هيَّـجَ الغـرامُ شَجَـاهُ ... وَبَـرَاهُ الهُيَـامُ والتَّبْـرِيْـحُ
طـالَ سُقْمِـي وطـالَ فيـهِ عَنَـائِـي ... ليـتَ شِعْـرِي! مَتَـى يَصِـحُّ الجَـرِيْـحُ
شِـدَّةٌ إثْـرَ شِـدَّةٍ تَتَـوالَـى ... هـا أنَـا اليـومَ فـي الفِـرَاشِ طَـرِيـحُ
لسـتُ آسـى علـى لـذائـذِ عَيْـشٍ ... أو علـى الجَـاهِ والشَّبـابِ أنُـوحُ
غيـرَ أنِّـي انتُزِعْـتُ مِـنْ بَيْـنِ صَحْبِي ... فَـارسـاً مُعْلَمـاً بِجِسْمِـي جُـرُوْحُ
قَـدَرُ اللهِ لا يُـرَدُّ بِسُخْـطٍ ... ليـسَ إلاّ الخُضُـوعُ والتَّسْبيـحُ
يـا سِهـامَ الأقْـدَارِ خَلِّـي ثَـلاثـاً ... هِـيَ عِنْـدِي وَجْـهُ الحَيـاةِ الصَّبِيْـحُ
أتْـرُكِـي لـي عَقْلِـي أُفَكِّـرُ فِيْـهِ ... وَعُيُـونِـي أغْـدُو بِهـا وأَروحُ
ويـدِي تمـلأُ الصَّحَـائِـفَ عِلْمـاً ... وبـلاغـاً وبـالشُّجُـونِ تَبُـوحُ

وقد كنت مرةً حاضراً حين قرأها على أستاذنا يوسف العش. . حتى إذا بلغ إلى هذه الأبيات أخذه تأثُّرٌ شديد. . وجعل يدعو الله له أن يبقى له ما طلب وأن يردَّ عليه صحَّته كاملةً بإذن الله!.

وحدثني الأستاذ السباعي أنه حين قرأها على الأستاذ الزرقاء قال له: إنَّ هذا المطلع (احملوني إلى الحبيب وروحوا) أو البيت الأول محفوظ، وأنه مما كان يُنشَد في الحلقات ومجالس الذكر . . . وقد أشار الأستاذ السباعي إلى هذا في هامش الكتاب، ولا أذكر أنه صرَّح باسم أستاذنا مصطفى الزرقاء رحمه الله، وقال: لعل ذلك مما حفظه وهو صغير، أو مما اتفق له. . لأنَّ هذا قد يقع في الشعر كما هو معلوم، وقديماً قالوا: ـ وقد استعاروا ذلك من ميادين الخيل ـ: قد يقع الحافر على الحافر!.

ليس من حقِّ أحدٍ أن يسقط شيئاً من كلام المؤلف ـ أي مؤلف ـ وقد يكون في وسع من شاء ـ لأيِّ سبب ـ أن يعلِّق عليه. ثم إنني لا أجد ما يدعو إلى إسقاط

هذه القصيدة. . اللهمَّ إلا أن يكون السبب هو ما أشار إليه الأستاذ الزرقاء، في نظر من فعل ذلك. . لأنَّ فيه تذكيراً أو تنويهاً بمجالس الذكر عند الصوفية، أو لأنَّ طلب الطالب أو المريض أن يُحمل إلى الحبيب المصطفى ﷺ ويُوقَف على بابه: غير جائز! وهذا فيما نقدّر ضربٌ من سوء الفهم، أو تحميلٌ للكلام أكثر مما يحتمل!! وهل يظن أحدٌ أنَّ السباعي يعتقد أنَّ النبي ﷺ يُقصد من دون الله بطلبٍ أو دعاء؟ ألم يقل السباعي في القصيدة ذاتها:

حَسْبِيَ اللهُ لا أريدُ سِوَاهُ ... هو أُنْسي وفي حِمَاهُ أريحُ
رَبِّ لولاكَ ما استطعتُ ثَبَاتاً ... في سَبِيْلي ولا سَمَتْ بيَ رُوْحُ!

وسواء أقال الأستاذ السباعي هذا أم لم يقله، ماذا في أبيات القصيدة من خطأ أو سهو أو مبالغة؟ ليس هذا من السباعي زلّة قلم! كما قد يُفهم من هذا الإسقاط غير الجائز![1]. علماً بأن السباعي ليس معصوماً عن الخطأ! ولكن الاستعلاء على الناس باحتكار فهم العقيدة أو الدفاع عنها، أمر مرفوض! سواء أصاحَبَه غرورٌ وضيق عَطَن وتوهم ورع أم لا!!

وأذكر بهذه المناسبة أنَّ شطراً من أحد أبيات هذه القصيدة، وهو الشطر الثاني من قوله:

وهوى الجسمُ بعدَ طُوْلِ عَناءٍ ... جَسَدٌ ناحِلٌ وقَلْبٌ صَحِيْحُ

ورد في مطلع قصيدةٍ أو أبيات للحاجري كنت قد قرأتها في بعض كتب التراث:

جَسَدٌ نَاحِلٌ وقلبٌ صَحِيْحٌ ... ودُمُوعٌ على الخُدُودِ تَسِيْحُ!
وَحَبيبٌ مُرُّ التَّجَنِّي ولكنْ ... كُلُّ ما يَفْعَلُ المَلِيْحُ مَلِيْحُ!

فقلت ذلك للأستاذ، فضحك، وقال: أما هذه القصيدة فسوف نراها إن شاء الله!.

وبعد، فإنَّ الأستاذ السباعي لم يقل عن نفسه إنه شاعر، أو أنَّ له بعض القصيد، كل ما في الأمر أن بعض خواطره جاءت (منظومةً) عفواً دون تعمُّد، فترك نفسه على سجيّتها، تعبِّر عما تريد بالأسلوب الذي تريد. قال: «فهذا هو

---

(١) راجع كتاب (علماء ومفكرون عرفتُهم للأستاذ محمد المجذوب)، ص٣٨٩.

عذري فيما أثبته من «منظومات» لا تُطرب الشعراء، ولا تهزّ أسماعهم. وحسبي أني طربتُ لها حين جاءت على لساني هكذا، فخشيت إن أهملتُ إثباتها أن يضيع على القارئ بعض ما فيها من خواطر وجدانية، وانفعالاتٍ نفسية، فرأيت أن أشركه معي فيها، على أن يعلم أنها ليست ـ في نظري ـ شعراً أعتدّ به، بل خواطر أرتاح إليها»[1] بل إنه مهّد للإشارة إلى هذه الخواطر بقوله: «وليست عندي موهبة الشعر وسليقته، وإن كان لي ميلٌ إليه، وبقراءته هوى».

وليست هذه بقضيةٍ نقف عندها في هذا السياق، الذي قلنا: إنه لا يُعنى بالدرس والنقد والتحليل، من جهة، وبعدما أومأت إليه هذه القصائد والمقطوعات أو (الكلمات المنظومة) من حسٍّ مرهف وذوق رفيع. . ـ فضلاً عن أسباب البلاغة والبيان ـ من جهةٍ أخرى. . ورحم الله الأستاذ السباعي الذي قال إنه لا يملك موهبة الشعر، وليست عنده سليقته. . فربما كان يستحضر في ذهنه شعر أبي الطيب. . الذي كان له عنايةٌ خاصة بشعره من بين سائر الشعراء! أما هو ـ أي الأستاذ السباعي ـ فقد قال شعراً يُطرب له، ويُتفاعل معه. . ويعتدّ به!

منزلته في الخطابة:

ونتحدث هنا عن منزلته في فنّ الخطابة، استكمالاً للحديث عن أدبه وأسلوبه وبيانه. وقد نومئ إلى هذه المنزلة، أو نذكِّر بها عند الحديث في القسم التالي عن مواهبه وصفاته وسجاياه رحمه الله.

إنَّ القدرة الفائقة على التأثير في الجماهير، ونفخ روح الحماسة، وتعبئة طاقاتها الروحية والمادية. . ألزم ما تكون للقادة والزعماء، وبخاصةٍ في مراحل التحول والتأسيس أو إعادة البناء من جديد! وقد عاش السباعي في هذه المرحلة التي كانت تمرُّ بها سورية والبلاد العربية والعالم الإسلامي، كما أوضحنا. وقلنا: إنه كان رجل دعوة، أي أنه أكثر من قائدٍ سياسي أو أكبر من زعيم. . فإذا كانت تلك القدرة على التأثير في الجماهير لازمةً لهذا الزعيم والقائد؛ فإنها للداعية المجدِّد الذي يطلب الإصلاح على كلِّ صعيدٍ ألزم وآكد!.

وكأنَّ الأمة كانت في ذلك على قدرٍ مقدور مع الداعية مصطفى السباعي. . فقد كان واحداً من أفذاذ الخطباء. . لا أقول في عصره، بل في تاريخ العربية منذ مئات السنين! وكان صوته حين يتحدث محبَّباً للنفوس، كما قال في وصفه

---

(١) ص٨ من مقدمة: هكذا علمتني الحياة.

أستاذنا العش، الذي أضاف: «والصوت المثير للعواطف إذا تكلم صاحبه تمنى السامع ألاَّ يسكت»[١]، فإذا أضفنا إلى هذا قدرته الفائقة على الخطابة، وبتلك الحماسة الشديدة والعاطفة الجيَّاشة، والبيان الرفيع.. أدركنا طرفاً مهماً من أسباب براعته الخطابية النادرة!

يقول الأستاذ المربِّي الداعية محمد خير الجلاد: «وطالما خطب الجماهير التي كانت تشرأب بأعناقها إليه، وترنَّح بجوارحها بين يديه!.. كان يملك ناصية الكلام الهادر، والبيان الساحر.. دون توقفٍ أو إبطاء، كأنما أعدَّه في نميقة، أو حفظه من صحيفة، وكان يمتلك القلوب يديرها كيف يشاء، ويتصرف بها كيف يريد.. يرسم الطريق، ويحدِّد الهدف، ويصل بالمستمعين إلى حيث يريد»[٢].

ويقول الأستاذ الشيخ منّاع القطان: «وزار السباعي مصر عام ١٩٥٢ ـ بعد أن فكَّ الله جماعة الإخوان من أسر الظلم.. وتجوَّل في الأقاليم لإلقاء بعض المحاضرات، فصحبته في زيارة إقليمي، واستمعت إليه خطيباً ومحاضراً ومحدّثاً، فإذا به يأسر القلوب بسحر بيانه، ويثيرها بوهج عاطفته، يتحدث الساعة تلو الساعة فلا يتلعثم له لسان، ولا يستعصي عليه تعبير، ولا يفوته ابتكار المعنى، ولا جودة السبك، ولا براعة المنطق»[٣].

وكان يخطب الساعة والساعتين والثلاث ساعات.. بل إنه في إحدى حفلاته الانتخابية عام ١٩٤٩ خطب لمدة أربع ساعات متواصلة، والقوم مشدودون إليه، مأخوذون بحديثه. دون سأم أو ملل؛ فقد كان يتصرف في فنون القول، ولا يدع لوناً من ألوان التأثير على المشاعر والأحاسيس[٤].

ويطول بنا المقام إن حاولنا الاستشهاد بآراء من تحدث عن السباعي أو كتب عنه حول منزلته في الخطابة، فقد كان هذا موضع إجماع.. لا أقول: لم يخالف في ذلك أحد! بل أقول: إنَّ أحداً لم يجد بدّاً من الحديث عن هذا والإشارة إليه.

---

(١) مجلة حضارة الإسلام: العدد الخاص، ص٦٥.

(٢) المصدر السابق، ص٨٠.

(٣) المصدر السابق، ص٢٣٥ـ٢٣٦.

(٤) راجع: مصطفى السباعي بأقلام محبيه، ص٣٣٠؛ ومصطفى السباعي: الداعية الرائد والعالم المجاهد للأخ عبد الله محمود الطنطاوي، ص٥٤.

وأكتفي من ذلك ببعض الشواهد المقتضبة الأخرى، يقول الأستاذ الدكتور محمد الفاضل: «ودعا لسانه الجريء الحر المتدفق إلى الوحدة تحت عَلم القرآن، فَنَدِيَت العربية بالحقِّ على لسانه، واعشوشبت المنابر بالمعين الثرّ من بيانه. وكان في ذلك كله عزمةً لا تسعها قدرة، وشعاعاً لا يحصره أفق، وحيويةً مؤمنة صمدت في وجه الشدَّة حتى خجلت الشدة ذاتها من الصمود»[1].

إنه الخطيب العلم الذي تشتاق إليه المنابر، لأنه فارسها الذي لا يُلحق!.

ولو انَّ مشتاقاً تكلَّف فوق ما   في وسعه لسعى إليك المنبر

بل كما قال الكاتب الصحفي الأستاذ عبد الله المشنوق تعقيباً على هذا البيت وقد استشهد به في كلمته التأبينية للسباعي:

ولو انَّ محزوناً تكلَّف فوق ما   في وسعه لبكى عليك المنبر![2]

وكأنّي به يريد أن يقول: إنَّ المنبر سعى إليه حيّاً.. وبكى عليه ميتاً.. رحمه الله.

وفيما يرويه في هذا الأستاذ الدكتور شوكت الشطي الأستاذ السابق في كلية الطب بجامعة دمشق، دلائل وعبر أخرى. قال: «لقد استمتعت بإحدى خُطب الأستاذ العلاّمة المغفور له مصطفى السباعي، في بيتٍ من بيوت الله، في إحدى كنائس دمشق، ولم أكن أعرفه من قبل، وكان حديثه وطنياً منصرفاً على ما أذكر إلى توحيد الصف الوطني في وجه الاستعمار الفرنسي الدخيل. ولقد سمعت من حسن بيانه وقوة برهانه ما جعلني أردِّد: «إنَّ من البيان لسحراً» وإني أذكر التفاتي حينها إلى مَن حولي في الساحة الرحبة المكتظَّة بالناس، فإذا بهم إلى كلام الخطيب السباعي منصتون، وبحديثه مأخوذون؛ فكان كالبلبل الصدَّاح يضع لسانه حيث شاء، وحيث يجب أن يكون؛ يواتيه الكلام فيحدِّثك بما في نفسك،

---

(١) مجلة حضارة الإسلام: العدد الخاص، ص٥٨. وقد بلغ الدكتور الفاضل في كلمته غاية التأثير حين قال وهو يشير بيده إلى صورة للأستاذ السباعي كانت تتصدر المدرّج:
«.. فلله أنت اليوم ما أفصحك ساكتاً، وما أعياني متكلماً، ما أحراك بالكلام، وأحراني بالصمت والإصغاء!!».

(٢) المصدر السابق، ص١٨٤.

ويسبغ على مفهومك بلاغةً تعبِّر عما يدور في خلدك، فيستميل بهذا وذاك القلوب النافرة، ويردّ الأهواء الشاردة، ويسهِّل العسير، ويقرِّب البعيد، ويدرك المنيع، ويصيب الممتنع..»[1].

لم أحظَ لوقتٍ طويل بسماع السباعي الخطيب أيام صحته، لأنَّ صلتي به لم تتوثَّق إلا في أيام مرضه، بدءاً من صيف عام ١٩٥٨، حين ندبتني إدارة كلية الشريعة ـ وكنت قد فرغت من امتحانات العام الجامعي ٥٧ ـ ١٩٥٨ لمعاونته في مكتبته، فقد كان وصوله إلى الكتب والمراجع يشقّ عليه.. ولكنني ما أزال أذكر واحدةً من خطبه في حيّ الميدان بدمشق في أواخر شهر كانون الثاني (يناير) أو أوائل شهر شباط (فبراير) ١٩٥٦ أي قبل مرضه بنحو عشرين شهراً، وكان ذلك في ذكرى شهداء طبرية، وهم مجموعةٌ من الضباط الذين استشهدوا في عدوان إسرائيلي على الحدود السورية لا أذكر تفاصيله الآن، وكان بعضهم من شباب الحي المذكور الذي نشأتُ فيه.

وقد تمَّ الاحتفال التأبيني المذكور في مسجد الرفاعي غير بعيدٍ عن جامع مَنْجَك الذي كنت أصلّي فيه الجمعة حتى أستمع لخطب فضيلة الأستاذ الشيخ حسن حبنّكة الميداني رحمه الله. بل أذكر أنَّ ابنه العالم الجليل الأستاذ الشيخ عبد الرحمن كان أحد الخطباء في ذلك الاحتفال.. وكان قد سبق لي سماعه في بعض المناسبات في جامع منجك خطيباً وشاعراً، وبأناقته الفكرية وطريقته الخاصة في الإلقاء.

وحين أعلن عريف الاحتفال عن كلمة الأستاذ السباعي تعالت هتافات التكبير من ألوف الحضور الذين كان يضيق بهم المسجد.. وكأنها صوتٌ واحد! وأذكر أنه خطب لمدة ساعة أو أكثر فأسر القلوب، وملك العواطف.. وقوطع خطابه مرات عديدة بالهتاف والتكبير.. حتى شعرتُ وكأنني في عالمٍ غير هذا العالم.. وتعلّقت عيناي بيده التي كان يشير بها وهو في غمرة الحماسة والانفعال، صعوداً ونزولاً.. ونظرت حولي فوجدت عشرات الوقوف ـ وربما المئات ـ تتحرك أجسامهم بنحو حركة يده! لقد سرَتْ فيها كلمات الشيخ وحماسته الملتهبة وبيانه الساحر فأحالتها كتلةً ملتهبة واحدة! تنفعل به وبحركته! حتى إذا طلب منهم في آخر الخطبة أن يعطوه العهد على البذل من أجل فلسطين، وعلى إيثار الشهادة

---

(١) المصدر السابق، ص١٠٤.

على الذلّ أعطوه بصوتٍ واحد ارتجَّت له جنبات المسجد! وسمعت وأنا خارجٌ من المسجد أحد الحضور يقول لزميله ـ ويبدو أنه كان يستمع إلى الأستاذ السباعي للمرة الأولى ـ إنَّ الشيخ السباعي يخطب رشّاً لا دراكاً! ومعلومٌ أنَّ هذا من مصطلحات إطلاق النار عند العسكر! لا عجب إذن أن لا يتمكن الصحفيون من كتابة نصِّ الكلمات التي كان يلقيها في البرلمان كاملةً في بعض الأحيان. . على خلاف سائر النواب!.

لقد كان عصر السباعي عصر **الخطابة السياسية**! وقد حاز السباعي فيها قصب السبق، وكان فارسها الذي لا يشقُّ له غبار، ولكن السباعي حاز هذه المكانة كذلك في **الخطابة الوطنية** التي تقترب منها أو تتقاطع معها، كما حدثنا الدكتور الشطي عن إحدى خطبه في بعض كنائس دمشق. . فضلاً عن **الخطابة الدينية**، وربما انفرد الأستاذ السباعي بنمطٍ جديد من الخطب لم يكن معهوداً في عصر الخطابة، وهي الخطب التي يمتزج فيها السياسي بالوطني والديني والجهادي والاجتماعي، أو التي تعبِّر عن جميع هذه المعاني والأغراض في وقتٍ واحد، وغنيٌّ عن البيان أنَّ الحاجة إلى هذا النوع من الخطابة جدَّت في هذا العصر، أو في مرحلة التحول التي شهدها جيل السباعي رحمه الله.

وأخيراً يلاحظ الأستاذ أبو الحسن الندوي أنَّ الأستاذ السباعي لم يكن دائماً خطيباً ثائراً ولم يكن تملكه الحدَّة في كلِّ موضع، حتى في بعض المواقف التي ينتظر منه بعض الناس ذلك. . كما حدث في الجلسة التي عقدها البرلمان السوري بتاريخ ٢١/ ٩/ ١٣٧٠هـ (٢٦/ ٦/ ١٩٥١)، وكانت قضية حفلة مدرسة (دوحة الأدب) ـ إحدى أشهر مدارس البنات الخاصة بدمشق ـ مطروحةً للنقاش، ويبدو أنَّ الحفلة المذكورة التي أقيمت في قصر العظم قد تضمنت بعض الفقرات غير اللائقة أو التي كانت موضع نقد! فقد قُدِّر للأستاذ الندوي حضور هذه الجلسة، وأثنى على الكلمة التي قدَّمها الأستاذ محمد المبارك نائب دمشق وعضو الجبهة الاشتراكية الإسلامية. . . ثم قال: «وكان من المنتظر أن تكون كلمة الأستاذ السباعي الذي عُرف بالحساسية وقوة العاطفة وحدَّة الخطابة أقوى وأكثر حماساً، ولكنها كانت كلمةً وادعة وجيزة لائقة للظروف المحيطة بالقضية»[١].

---

(١) مجلة حضارة الإسلام: العدد(٧) السنة(٥)، ص٦٤١ كانون الثاني (يناير) ١٩٦٥؛ =

لقد اكتفى الأستاذ السباعي بكلمة أخيه الأستاذ المبارك التي وصفها الأستاذ الندوي بأنها كانت «كلمةً قوية كُتبت في أسلوبٍ أدبي علمي في اللغة البرلمانية عن مكانة الأخلاق في حياة الشعوب».

كما أنَّ القضية من وجهة نظر السباعي المربِّي لا يناسبها الحماسة والتشهير، بمقدار ما يناسبها النصح والرفق.. فلكلٍّ مقامٍ مقال.. وقديماً قالوا في تعريف البلاغة: إنها مراعاة مقتضى الحال.. وإن دلَّ هذا الموقف فيما وراء ذلك على شيءٍ فإنما يدلُّ على أنَّ دغدغة عواطف الجمهور، أو ما يمكن تسميته بالانتهازية السياسية لم تعرف طريقها إليه في أيِّ موقفٍ من المواقف.

ونختم هذه الفقرة بالقول إنَّ الخطابة موهبة، وكان الأستاذ السباعي يقول إنها «عادة» بمعنى أنها تُصقَل وتنمو بالممارسات الطويلة..[1] وقد أشرنا ـ عند الحديث عن نشأته ـ إلى أثر والده رحمه الله في تشجيعه وتدريبه على الخطابة وهو صغير. ولكنها في جميع الأحوال: ضربٌ من الشجاعة والإقدام، أو سمةٌ من سماتها في غالب الأحوال.. وقد لا يندّ عن هذه الأحوال إلا الحالة التي تكون فيها الخطب خطبةً واحدة أو خطباً معدودة محفوظة أو مكرورة! فهي في هذه الحال أبعد ما تكون عن الشجاعة والإقدام، وأقرب ما تكون إلى الجبن والتردُّد! إنها ليست فحولةً أو بطولة في المواقف.. ولكنها فسولةٌ في الرأي والعزيمة! ولم يُؤثَر عن السباعي الذي خطب في أبوابٍ وأغراض كثيرة.. وألقى في كلِّ غرضٍ من هذه الأغراض عشرات، وربما مئات الخطب، لم يؤثر عنه أنه كان يكرِّر نفسه[2].

= وانظر ما كتبه الأستاذ الندوي عن حفلة مدرسة دوحة الأدب ـ وخطبة الشيخ علي الطنطاوي حولها ـ في كتابه: مذكرات سائح في الشرق العربي، ص٢٦٦، مؤسسة الرسالة، ط٣، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

(١) عبَّر عن هذا فيما كتبه بقوله: «ثلاثةٌ تسهل بالعادة: الصلاة والخطابة والكتابة» هكذا علمتني الحياة ـ الفقرة (٩٧٦). وحين سئلت والدته ـ التي توفيت بعده بحوالي أربع سنوات رحمها الله ـ عن طفولته، قالت: «كان طفلاً مميزاً، ولم يكن مثل أقرانه.. وكثيراً ما كنت أفتقده، فأجده قد اختلى في غرفة الضيوف، ووقف على كرسي وأخذ يقلد الخطباء وكأنه على منبر. ولم يطل به العهد حتى أخذ يخطب في الجامع الكبير في حمص، وهو في الثانية عشرة من عمره» انظر كلمة إحدى بناته الكريمات في كتاب مصطفى السباعي بأقلام محبيه وعارفيه، ص٤٢٢.

(٢) يقول الأستاذ عبد القادر السبسبي المحامي ـ وقد عرف السباعي وزامله نحواً من ثلاثين=

نحن أمة الخلود:

ونختم هذا الجزء بشطرٍ من كلمةٍ كتبهاالأستاذ السباعي تحت هذا العنوان: (نحن أمّة الخلود) وخاطب بها عبر الإذاعة السورية «أبناء الأمة وجنودها البواسل»، وذلك عام ١٩٥١[1] إبّان انخراطه في العمل السياسي الذي استغرق فترة أوائل الخمسينيات، وهي الفترة التي نشط فيها كذلك ـ كما ذكرنا ـ للكتابة الصحفية والإذاعية، وبأسلوبه الشيّق السلس المعهود، ، والذي يراه القارئ لتلك الكتابات والأحاديث بعد أن جُمعت في كتابَيه (أخلاقنا الاجتماعية) و(من روائع حضارتنا) على وجه الخصوص.

وتقع هذه الكلمة إذن بين أوائل ما كتب في (الفتح) وأواخر ما كتب في (حضارة الإسلام). . وربما وقعت كذلك بين النثر والشعر! وإن كانت نثراً بطبيعة الحال، **ولكنه نثرٌ من نوعٍ فريد، لأنَّ له لحن النشيد. . وإيقاع القصيد. .**

«نحن أمّة الخلود

خلدنا في التاريخ بجميل مآثرنا

وعُرفنا بنبل حضارتنا

وسبقنا الأمم في المجد بروائع بطولتنا

«نحن أمّة الخلود

أيُّ أمةٍ في الدنيا تضاهينا؟

أعلنَّا الحرية يوم كانت الأمم ترسف في قيود العبودية.

ونشرنا العلم يوم كانت العقول مصفَّدةً بأغلال الجاهلية

وأقمنا العدل يوم كانت فارس والروم تسخِّران الشعوب لمطامعهما الحربية.

= سنة ـ: «وقد ألقى من الخطب ما لو أنها جُمعت لكوّنت مكتبةً تضمّ عشرات المجلدات، هذا عدا عن محاضراته ودروسه التي كان يلقيها في الرحلات والمخيمات» ـ مجلة حضارة الإسلام العدد الرابع من السنة السابعة، ص٤٢ تاريخ ١٦/ ٩/ ١٩٦٦.

(١) انظر جريدة الشهاب، العدد (٥٩) ـ السنة الثانية، ص٣.

«نحن أمّة الخلود

بذلنا المال في المكارم . . حين كان يجمعه غيرنا من المظالم .

وصُنَّـا الأعراض والحرمـات . . حين كـان غيرنـا يروي ظمأه مـن دم الشعوب .

«نحن أمة الخلود

جباهنا : تخضع لله ، وتعلو عمّن سواه !

وقلوبنا : تهوى الجمال ، وتنفر من كل قبيح

وعقولنا : تؤمن بالحق ، وترفض كل باطل

وأيدينا : يدٌ مع الله ، وأخرى مع الناس .

«نحن أمّة الخلود

نؤمن بالدين لنرفع به الدنيا .

ونعمل للدنيا لنخدم بها الدين

ونجمع بين الدين والدنيا . .

لنكون في الحياة سعداء

وفي الآخرة من الخالدين

«نحن أمّة الخلود

أجسامنا في الأرض ، وأرواحنا في السماء !

وقلوبنا مع الله ، وعقولنا مع الأنبياء والعلماء

آخينا بين العلم والدين ، وجمعنا بين الدنيا والآخرة

وحكمنا فلم ننس مبادئ ثورتنا .

«نحن أمّة الخلود

لأطفالنا مروءة الرجال !

ولرجالنا كرامة الأبطال !

ولأبطالنا صفات الخالدين.

ولنسائنا عطر الأزاهير، وطهر الملائكة، وسحر الطبيعة في فجر الربيع.

«نحن أمّة الخلود

نحن نحكم الدنيا فنملؤها أمناً وسلاما

وتعصف بنا النكبات فنستقبلها صبراً وابتساما

ويراد لنا الذل فنثيرها حرباً ضراما

ويعتدى علينا في الأرض فنجعلها فوق المعتدين أطلالاً وركاما.

«نحن أمّة الخلود

نَغنى فلا نبطَر، ونقوى فلا نتجبَّر

ونضعُف فلا نذِلّ، ونُصاب فلا نيأس

ونُستشهد فلا نبكي ولا نصرخ.

«نحن أمّة الخلود

دماء الشباب عندنا عطر الشباب والرجال

وسهام الأعداء في صدورنا أوسمة العزاء والكمال

وخوض المنايا في سبيل كرامتنا أغنية النساء والأطفال.

«نحن أمّة الخلود

لمواكب الشهداء عندنا أفراح وأعراس

ولرصاص الأعداء في آذاننا موسيقى وأنغام

وللمعارك الحمر تربّينا أمّهاتنا في الأسرّة والمهود..

نحن أمة الخلود»

رحم الله سعد زغلول الذي قال في (بيان الرافعي): «بيان كأنه تنزيل من التنزيل، أو قبس من نور الذكر الحكيم». وإن من حقنا أن نستعيد هذه الكلمة في هذا (البيان الرافعي) الأخّاذ!

وما يزال في هذه المقالة الكثير من **أدب الجهاد والتحرير**: فبعد أن تحدث الأستاذ السباعي عن (عدوان اليهود) و(عدوان إسرائيل) قال: «إن إسرائيل تمثل التمرد على أحكام الشرائع، والاتجار بالأخلاق والمبادئ، والسيطرة على أساس الدس والكذب والإجرام» ثم أهاب بأبناء الأمة وجنودها البواسل أن يذكروا رسالة أمتهم في هذه الأوقات العصيبة، وأن يذكروا خصائصها في هذه المعركة الرهيبة.. بوصفها أمة سجّلت في تاريخ البطولات والتضحيات أروع المآثر.

ثم ختم هذه الكلمة بنداءاته.. أو بصرخاته الجهادية المدويّة التالية:

«**يا أمهاتنا!** هيِّئنَنَا لأعراسِ المجد في مواكب الشهداء! أعدِدنَ لنا ألبسة النضال موشحة بالدماء، واتركن فيها مكاناً للرصاص وشظايا القنابل..

«**يا شبابنا وجنودنا!**.. هذا وحده طريق المجد، هذا وحده طريق الحياة. إن شهداء الخلود ينتظرون بقيتهم فيكم، ينتظرون تمام موكبهم فلا تقطعوه. لا تجعلوا أعناقكم عاطلة من حلية الخلود وأوسمة الكرامة! لا تجعلوا الدنيا تلتفت إلى غيركم لتشنف آذانها بألحان النصر، وتمتع أبصارها بمرأى الخالدين.

«يا بطاح فلسطين: اصبري قليلاً لتلمع في الأفق رماحنا!

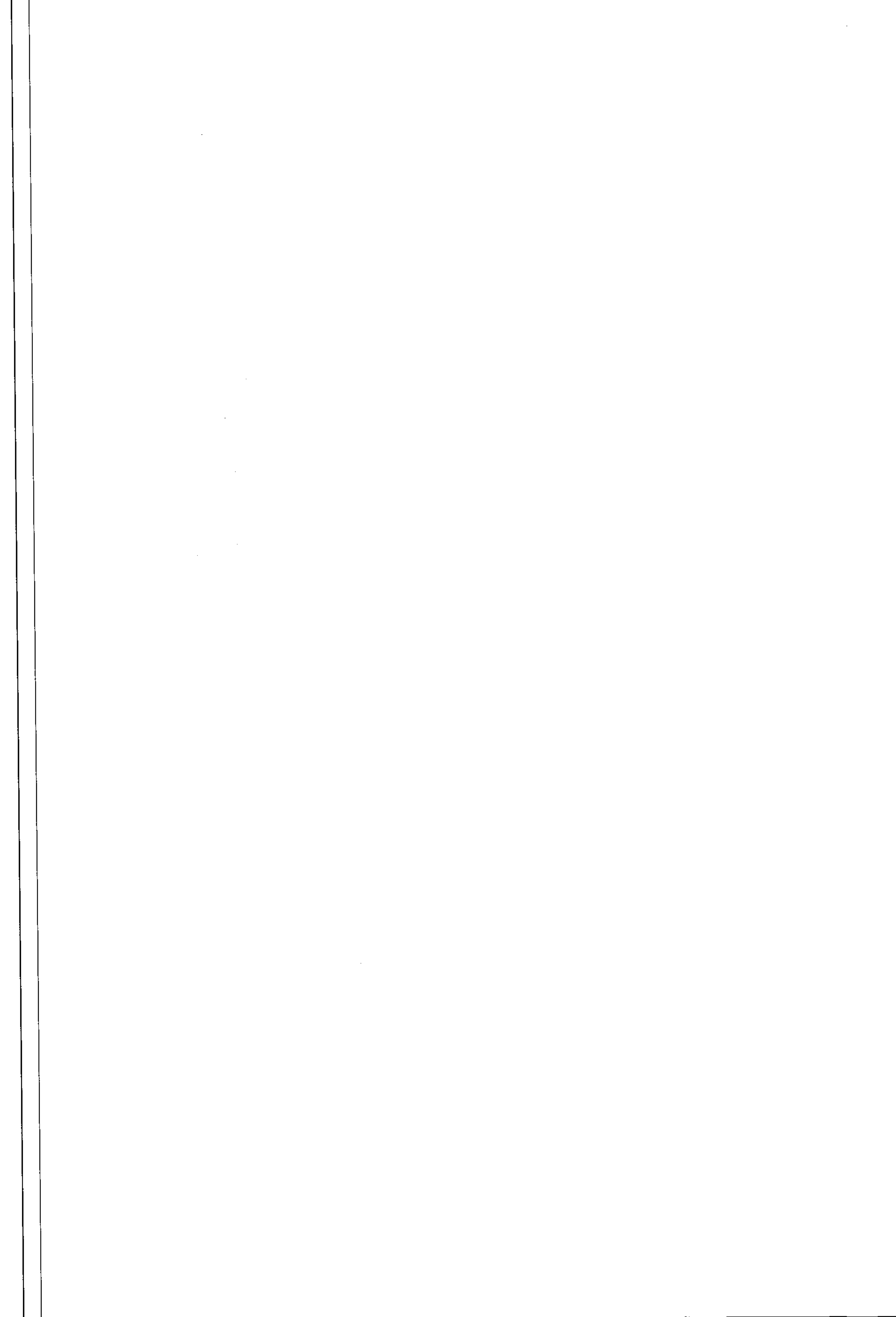
«يا رمال الصحراء: البثي قليلاً تتحرك للمجد كتائبنا!

«يا مواكب الشهداء: تمهلي قليلاً يُطرب الأجواء حادينا!

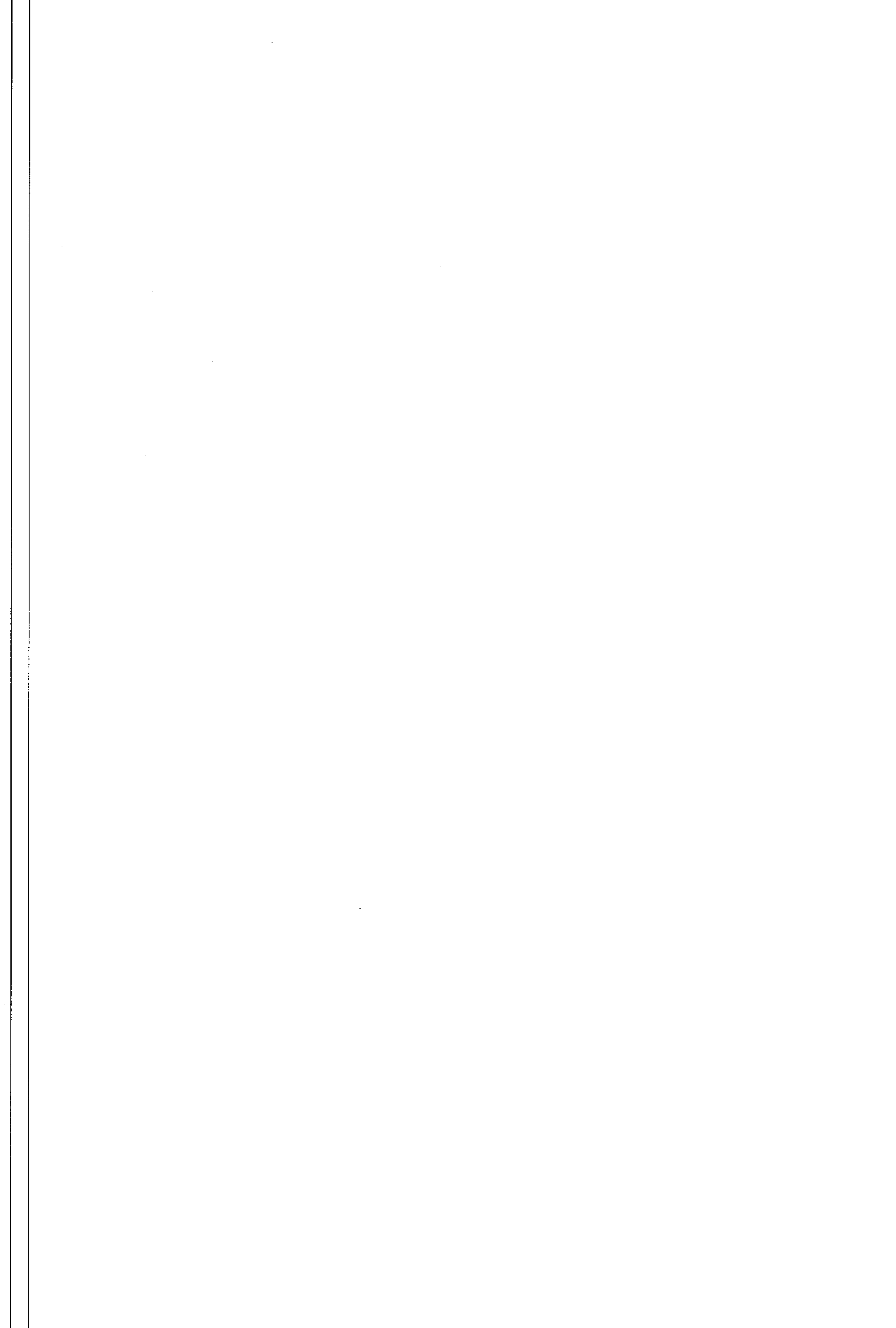
«يا أنصار الحق من أمم الدنيا! لا تجزعوا من نتائج معاركنا.. **نحن أمة البطولات! نحن أمة الشهداء! نحن أمة الخلود**».

إنها جذوة الكفاح لم تنطفئ في نفسه ـ بعدما وقف عليه في أرض فلسطين عام ١٩٤٨م ـ وإنه حبُّ الجهاد والاستشهاد بقي هاجسه حتى لقي وجه ربه..

* * *



الرَّجُلُ والإنسَانُ



الرجل

أو عنوان الشخصية

حاولنا قبل ربع قرن التماس عنوان لحياة السباعي الخصبة العميقة ـ أو الطويلة بجلائل الأعمال ـ فوجدناه في كلمة واحدة هي **(الجهاد)**. قلنا في مقدمتنا لكتابه (عظماؤنا في التاريخ):

«كانت حياته جهاداً متواصلاً في مقدمة الصفوف، وفي جميع الميادين.. ميدان الجهاد بالنفس، وميدان الجهاد بالمال، وميدان الجهاد باللسان، وميدان الجهاد بالقلم. لم يدع الجهاد في الموقف الذي يستطيعه والوجه الذي يقدر عليه، منذ اليوم الأول من حياة الفتيان، إلى آخر يوم من حياة الفرسان! توفي رحمه الله والمداد الذي كان يدافع به عن سنة رسول الله ﷺ لم يجفّ بعد! ليست هذه صورة العالم الذي يذود عن دينه بما يستطيع، لأنه كان على حالة من المرض والألم بحيث لو عاف معها القلم والكتاب ـ واللسان كذلك ـ لما لامه أحد.. بل كان محبوه وعارفوه من حوله يشيرون عليه بذلك رحمةً به وإشفاقاً عليه. ولكنها طبيعة المجاهد الذي لا يلقي سلاحه حتى اللحظة الأخيرة، ورسالة الداعية الذي يخشى أن يخرج من الدنيا قبل أن ينصر دعوته أو ينتصر لها.. ولو بكلمة يخطّها أو قول يقوله...»[1].

ولسنا نخرج عن هذا الذي كتبناه عام ١٩٧٦م أو نتجاوزه حين نرى اليوم أن مفتاح شخصية السباعي أو عنوان حياته هو **(الجرأة والإقدام)** لأنه عنوان أشمل لا يتّسع فقط للحديث عن جهاده الذي أشرنا إليه، بل يفسّره كذلك، في الوقت الذي يتسع هذا المفتاح أو العنوان الجديد لضروب من الخصال والأعمال الأخرى التي ربما لم يومئ إليها العنوان السابق أو القديم.

ولا ريب في أن الجرأة والإقدام تنطوي على جميع ضروب الشجاعة المعهودة أو التي وقفنا عليها في حياة السباعي، سواء أكانت بذلاً للنفس والمال ـ

---

(١) ص١٣.

أي شجاعة مادية إن صح التعبير. أم جرأة في الاجتهاد والانفتاح على الثقافات الأخرى وجميع ثمرات العقول، أي شجاعة نفسية وعقلية.

وقد ينطوي تحت هذا النوع الثاني من الجرأة: انفتاحه على مختلف الأحزاب والتيارات.. على قاعدةٍ من الحرية والديمقراطية والعمل الوطني المشترك. وحتى وجدناه ـ كما أشرنا ـ يطلق لفظ (الخصم) لا العدو، على كل[1] من خالفه أو اختلف معه في سُبُل هذا العمل، وفي كافّة سبل الإصلاح والتقدم.

ويمكننا أن نومئ هنا إلى أبرز صفاته التي تندرج تحت هذين الضربين من ضروب الشجاعة والإقدام جميعاً:

١ ـ الجهاد أو بذل النفس:

لقد قدمنا من سيرته في الجهاد على أرض فلسطين، والنزر اليسير الذي أشرنا إليه من خطبه وأقواله ما يشير إلى تمكن هذه الصفة من نفسه، بل من مصاحبتها له طيلة حياته حتى في أيام مرضه! لقد ترجّل الفارس حين نزل به المرض. فلم يأسَ في هذا الترجل على شيء أساه على حياة الفرسان!

لستُ آسى على لذائذِ عَيْشٍ   أو على الجاهِ والشَّبابِ أنوحُ
غيرَ أنّي انتُزِعْتُ من بَيْنِ صَحْبِي   فارساً مُعْلَماً بجسمي جروحُ!

وإذا كانت الجروح قد تكاثرت على هذا (الجسد الناحل) أو الذي استبد به المرض حتى غدا كذلك.. فإن النفس الشجاعة لم تفقد هذه الصفة في موقف من المواقف. وقد أشرنا قبل قليل إلى أن جزءاً كبيراً من (أدبه) يندرج في أدب الجهاد والتحرير..

ونضيف الآن: أن هذا الأدب كان يغرف من معين الشجاعة الذي لا ينضب

---

(١) بل يمكننا القول: إن (صحته النفسية) حجزته عن أن يصنّف هؤلاء العاملين أي تصنيف يشي بشيءٍ من الظلم والتطفيف، أو الحقد وإرادة الانتقام، مثل تصنيف هؤلاء بين من هم مع الشعب، ومن هم أعداء الشعب!! على الرغم من كفره بالشيوعية وعدم ثقته بالشيوعيين على سبيل المثال!

ولعل هذه الصحّة هي التي أوحت له بالقول: «اتهام الناس بالخيانة مرض الذين كانوا من قبل خائنين» الفقرة رقم ٤ من كتابه: هكذا علمتني الحياة: القسم الثاني. وربما كان لتاريخه الحافل بالمواقف الوطنية والجهادية أثر في هذا القول.

في هذه النفس الجريئة! إن الذي يخاطب الأمهات بعد ثلاث سنوات مرت على جهاده على أرض فلسطين بقوله: «هيئننا لأعراس المجد في مواكب الشهداء! أعددن لنا ألبسة النضال موشحة بالدماء واتركن فيها مكاناً للرصاص وشظايا القنابل» لم يفطر على الشجاعة وتعريض النفس للمهالك.. بل على إيثار الشهادة وحبّ بذل النفس! فمواكب الجهاد عنده مواكب شهداء... لأنها المواكب التي تتوشح ألبستها بالدماء! والتي يترك فيها المكان للرصاص وشظايا القنابل! لقد **عاش مصطفى السباعي طيلة حياته وفي داخله شهيد يخطب ويتحدث ويقود القوافل**. ولهذا فإنه «كثيراً ما كان يتمثل بقول الصحابي الشهيد:

ولستُ أبالي حينَ أُقْتَلُ مُسْلِماً   على أيِّ جَنْبٍ كَانَ في اللهِ مَصْرَعِي[1]

٢ ـ الكرم والسخاء:

لا تحتاج هذه الصفة إلى الحديث أو التأكيد بعدما أشرنا إليه من شجاعته، لأن الذي يبذل دمه يبذل ماله من باب أولى، بل إن بذل المال يعدّ مقدمة لبذل النفس، وإن كان بينهما تلازم إلى حد كبير، حتى إن العرب كانت تقول: كل كريمٍ شجاع، أو: كل شجاعٍ كريم!

ولطالما أنفت نفسه من البخل والجبن، وبرئت من النفاق والكفر؛ حتى رأى في هذه الصفات ذلاً لا يطيقه صاحب مروءة، وحتى صوّره على النحو التالي، قال: «لا تروى شجرة الذل إلا بماء الحرص، ولا تنمو إلا في ظلال الجبن، ولا تورق إلا بالنفاق، ولا تثمر إلا مع الكفر بالله أو نسيان حسابه»[2].

لم يكن السباعي من أصحاب المال واليسار.. بل كان واحداً من أبناء الطبقة الوسطى التي كانت تمثل معظم الشعب السوري في ذلك الحين، عاش على مرتبه كأستاذ جامعي وعلى ما كان يأتيه من كتبه وبعض أنشطته الثقافية.. ورفض كما رأينا أن يكون مديناً لأحد ـ سوى قريبه ـ حين اضطرته الظروف إلى الاقتراض على إثر تسريحه من عمله في عهد أديب الشيشكلي.. وخروجه إلى لبنان.

---

(١) الأستاذ عبد القادر السبسبي المحامي: مجلة الحضارة العدد ٤ السنة ٧، ص٤٠ أيلول (سبتمبر) ١٩٦٦.

(٢) الفقرة ٩٥٤ من هكذا علمتني الحياة.

ولكنه حين كان يدعى إلى البذل، أو حين تقوم أسبابه ودواعيه كانت يده أجود الأيدي! أو أكثر سخاء وبذلاً من أصحاب الأموال. . حتى كان يركبه الدَّين الثقيل في بعض الأحيان. . كما أشار الأستاذ المبارك وغير واحد ممن صحبه وعرفه عن قرب[1]. وقد كان يكره أن يعرف عنه ذلك، أو يشعر بحرج شديد إن عُرف أو وقف عليه أحد! رأيته مرة وهو يقطع الأمتار القليلة بين باب الجامعة وسلّم كلية الشريعة حين اندفع نحوه طالب من أحد البلاد الإسلامية يحدّثه، وسرعان بعد أن أصغى إليه لثوان قليلة علم منه أن المخصصات المالية لبعثته أبطأت عليه، ـ وقبل أن يتم حديثه طالباً منه أن يتوسط له لدى وزارة التربية لاستعجال تلك المخصصات القليلة ـ سرعان ما أدخل يده في (جيبه) بسرعة البرق ودسّ في يد الطالب ورقة مالية تساوي أو تعدل في ذلك الحين نحواً من خُمس مرتبه! ولما لمحني رحمه الله أرقب الموقف تورّد وجهه الأزهر! ثم قال لي الطالب الزميل بعد ذلك: ما رأيت مثل هذا الرجل، وقد حدّثتُ قبله أكثر من موظف ومسؤول فلم يحفل بي أحد! ولما سألته بعد أيام عن وزارة التربية؟ قال: إن الأستاذ السباعي اتصل بهم مباشرة بعد أن دخل مكتبه في ذلك اليوم. . وأن المخصصات أضحت جاهزة!

ولعل أهم ما يجب عليَّ ذكره في هذا المقام أن الأستاذ السباعي الذي كان يصدر مجلّته (حضارة الإسلام) كان يعمل فيها متبرعاً لا يتقاضى على عمله فيها أي أجر. . بل شهدته في بعض الأحيان ينفق عليها من ماله وهو أحوج ما يكون إلى هذا المال! ولما أبطأ مرّة أحد الكتّاب المرموقين في الكتابة إلى المجلّة! لأن الأجور لم تصل إليه! ولم يُجد معه معاودة الطلب والتذكير بالأوضاع المالية للمجلة ـ ولو شاء السباعي لأضاف: وأوضاع صاحبها كذلك ـ قال لي: من أين نأتي بالمال؟ دعه. . أغنانا الله عنه وعن مقالاته!

وأخيراً فإن السباعي يعدّ الكرم الحقيقي: **إشراك المحتاجين**، يقول: «أكثر الناس الذين يستقبلونك في بيوتهم بحفاوة هم بخلاء ولو رأيت منهم بعض مظاهر الكرم! إنه كرم إجباري رخيص الثمن. والكرم الخالص هو أن تشرك معك في

---

(١) انظر مقالتي الأستاذ محمد المبارك والشيخ عبد الفتاح أبو غدة عنه في العدد الخاص من مجلة حضارة الإسلام؛ قال الأستاذ المبارك: «فكثيراً ما كان يبذل أكثر مما عنده، ولو ركبه في سبيل ذلك: الدَّين الثقيل»، ص١٧.

مسرّاتك من استطعت أن تشركهم من المحتاجين، ببعض المال أو الطعام أو اللباس أو المواساة»[(١)].

٣ ـ الزهد في المال والمناصب:

إن أطمع ما يطمع فيه أكثر الناس ـ ولا سيما أصحاب المواهب منهم كما يقول الأستاذ المبارك ـ المال والمناصب: بوصف هذين الأمرين أو المطلبين أهم ما يميز الحياة أو يزيّنها في نظر هؤلاء.. ونظر السواد الأعظم من الناس، ولا سيما المال لأن سائر الرغائب والشهوات تنال به! فإذا كان السباعي يملك الجرأة على بذل الحياة ذاتها.. بوصفه شجاعاً! بل بوصف حياته في جميع مراحلها كانت تحمل طابع الموت والشهادة.. فأي أرب يبقى له بعد ذلك بالمال والمناصب! يقول الأستاذ المبارك: «وكثيراً ما رفض ما عرض عليه من رياسات ووزارات كما يعلم من رافقوه في تلك المجالات...»[(٢)].

ولا يندّ عن ذلك: قيادته للدعوة الإسلامية في سورية أو منصب عميد كلية الشريعة الذي شغله في عصر التأسيس، لأنهما كانا عطاء لا أخذاً. ومغرماً لا مغنماً!.. ولم يقبل بهذا المنصب العلمي وتلك القيادة ـ التاريخية ـ إلا لأنهما يضعان على كاهله عبئاً إضافياً يؤكد زهده.. ولا يناقضه أو ينفيه! وقد أشرنا إلى هذا المعنى في وقت سابق، فقلنا: «كان اللواء في يده، ولكنه حمله مغرماً لا مغنماً، ولو علم فيه الغنم لعافه مع ما عاف من المناصب والمغريات، وحمله بمقدار ما أدّى فيه أمر الله وواجب الدعوة إليه في ظروف حالكة السواد، تقحم في سبيله المعامع والقفار، وتحمل للدفاع عنه النصب والتعب والعتب..»[(٣)].

بل إن فيما ذكره أستاذنا الشيخ مصطفى الزرقا رحمه الله حول منصب عميد الكلية المذكور ما يؤكد أن قبول الأستاذ السباعي به كان **ضرباً من ضروب التضحية** التي تتجاوز مرحلة أو درجة الزهد بالمال والمناصب التي نتحدث عنها.

---

(١) الفقرة (٨١١) من كتاب هكذا علمتني الحياة.

(٢) حضارة الإسلام: العدد الخاص، ص١٧. وكان الدكتور منير العجلاني، نائب دمشق وأحد الوزراء البارزين، على معرفة بشخصية الأستاذ السباعي حين خاطبه في إحدى المناسبات بقوله: يا صانع الوزراء! ولكن السباعي الداعية ـ أو الذي كان أكبر من سياسي كما قلنا أكثر من مرة ـ أجابه بقوله: بل محطّم الأصنام!

(٣) مقدمة (عظماؤنا في التاريخ)، ص١٧.

يقول الأستاذ الزرقا: إن كلية الشريعة بعيد تأسيسها واجهتها مشكلة العمادة، وبعض الضغوط المتصلة بقضايا الترقيات العلمية والمالية! وكانت نقطة الارتكاز في مقاومة هذه الضغوط تبدأ «من إيجاد أستاذ جامعي لائق يقبل أن يترك كليته ويأتي عميداً لكلية الشريعة التي هي في مهب الرياح لا يعرف مصيرها بعد، دون أن يتطلب قفزة من مرتبته إلى مرتبة أعلى».

ويضيف الأستاذ الزرقا رحمه الله قائلاً: «وكان الأستاذ الدكتور مصطفى السباعي قد تم تعيينه قبل فترة قصيرة أستاذاً أصيلاً لمادة الأحوال الشخصية في كلية الحقوق. وإني لأعترف وأنا أغض من بصري أنني والأستاذ الدكتور معروف الدواليبي من أساتذة الشريعة الإسلامية في كلية الحقوق لم نقبل أن نضحّي بمراكزنا في كلية الحقوق وننتقل إلى كلية الشريعة لاستلام عمادتها، لاعتبارات عديدة تجعل هذه التضحية ثقيلة علينا، فضعفت نفوسنا عنها، ولكن الذي أقدم عليها غير مبال مهما كانت النتيجة عندما امتنعنا نحن، وضحّى بمركزه الجديد الثابت في كلية الحقوق إلى مركز في كلية الشريعة لم يكن من الممكن إذ ذاك أن يعرف مصيره، إنما هو الأستاذ الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله. فهو الذي من بيننا قبل أن ينتقل بمرتبته وراتبه دون أن يتطلب مرتبة أعلى، وهو في أشد الحاجة إلى زيادة المرتبة، وتملك لجنة الإشراف على الكلية ـ التي شُكِّلت بقانون وأعطيت سلطات مجلس الجامعة ـ إعطاءه إياها، ولكنه قال: أريد أن أضرب المثل بنفسي حتى لا يفكر في المجيء إلى هذه الكلية إلا من يريد منفعتها لا منفعة نفسه! وأن أجعل من تضحيتي هذه حاجزاً في وجه من يريدون أن يقفزوا إليها من أجل المراتب التي لا تتيسر لهم في سواها، أو من يريدون التسلل إليها ليقال إنهم أساتذة جامعيون وهم ليسوا بذاك!!..»[1].

لقد عدنا بهذا الذي قاله أستاذنا الزرقا والذي نقله عن أستاذنا السباعي إلى صفة **الجرأة والإقدام** التي طويت عليها نفسه! والتي عرّضته في ذلك الحين لضروب من العتب والتشهير التي لم يعبأ بها بطبيعة الحال! وأذكر بهذه المناسبة أن بعض من كانوا يرون في أنفسهم الكفاءة للتدريس في الكلية من المشايخ الذين لم يحصلوا على درجات علمية من الجامعات ـ وربما لم يتلق بعضهم تعليماً نظامياً ـ شنّوا عليه حملة شعواء على منابر المساجد، لأنه لم يوافق على دخولهم

---

(١) مجلة حضارة الإسلام: العدد الخاص، ص١١.

إلى الجامعة واعتلاء منبر الكلية.. ساخرين من شهاداته التي حصل عليها و(الدكتوراه) التي كان يحملها.. بوصفهم هم أخذوا الشهادات ونالوا الدكتوراه من مدرسة محمد!! على حدِّ قول أحدهم ـ وإن شئت قلت صيحته! ـ على منبر من تلك المنابر النائية. ولا يسعني الآن إلا أن أستغفر الله من ذلك الشعور الذي كان ينتابني والقناعة التي كانت تبعثها في نفسي تلك الكلمات الحماسية وأنا أستمع إليها في بعض المساجد.. حتى ظننت مع بعض المصلين أن السباعي رجل جاهل، وأن العلم كل العلم عند أصحاب العمائم! لقد ترجم هؤلاء ـ غفر الله لنا ولهم، ورحمنا ورحمهم ـ علم السباعي وإيثاره ونكرانه لذاته.. جهلاً وأثرةً وطمعاً في المغانم!

٤ ـ مضاء العزيمة وعلوّ الهمّة:

إن ما عرضنا له من معالم حياته، والميادين التي خاضها: يدل أوضح دلالة على ما كان يتمتع به من مضاء العزيمة وعلوّ الهمة، فعزيمته لم تكن تعرف الخوف أو التردد، وهمته لم تعرف التواني أو القعود، وأكاد أقول: المستحيل! بل إن ما نهض نفسه لتحقيقه يعدّ عند كثيرين ممن يدّعون الواقعية والحكمة: تهوراً أو مغامرة! سواء أكان ذلك في المجال السياسي حيث حارب الاستعمار والشيوعية والصهيونية، ووقف في وجه الطغيان والاستبداد، ودعا إلى الحياد بين المعسكرين... أم في مجال العقيدة والدين.. حيث حارب الجمود والخرافة، ووقف في وجه الانحراف، ودعا إلى الاجتهاد والتجديد.. أو في مجال الفكر والثقافة حيث فضح أساليب المستشرقين، ورد على القوميين والماركسيين، وتصدى لحملات المغرضين من سائر أصحاب الدعوات الأخرى أجمعين.. ودافع عن السنة والسيرة في وجه الأدعياء والمستغربين.. أو في مجال الدعوة إلى الإسلام وتأسيس الجمعيات وإصدار المجلات وقيادة الجماعات... إلخ.

إن الأعباء التي نهض بها الأستاذ السباعي والأعمال التي أنجزها ـ وقد سجن نحواً من ثلاث سنوات، ومات وهو في التاسعة والأربعين ـ لا تتأتى للرجال العظام من أولي العزم! حتى إن الداعية الدكتور حسن هويدي وهو يتحدث عن ثباته الخارق، وعلو همته النادر، قال: «فكأنما يريد أن يزيح بصدره الجبال، أو يذيب بصبره الحديد...»[1]، ثم يقول: «ولقد جاوز في ثباته وصبره حدود

(١) مجلة حضارة الإسلام: العدد الخاص، ص٧٧.

ما كلف الله به عباده من صبر وثبات، وتعرض للأخطار. . وإذا كان علو الهمة يقاس لدى الرجال بما يلاقونه من أهوال، وما يتصدون له من مخاطر، فأحسب أن رجلاً في هذا العصر لا يحلّق إلى ذلك المستوى الرفيع، ما لم يجر على منوال الأستاذ السباعي رحمه الله»[1] إنه إذن علوّ الهمة الذي يعدّ مضرب الأمثال، أو المقياس الذي يقاس به الرجال! نعم، هذا عين الحق والصواب. . وليس أدل على ذلك من أنه رأى في الآلام التي يقاسي منها حين نزل به المرض. . طريقاً لعلو الهمة لا لانكسارها وذبولها. . قال رحمه الله: «**الآلام طريق الخلود لكبار العزائم، وطريق الخمول لصغارها**»[2]! وهو لم يتجاوز هذا، بل أضاف إليه الطبيعة البشرية أو القانون الطبيعي حين قال: «**رأيت نفسي تسمو بالآلام! ولكن من يطيق استمرارها؟**»[3].

ولا بد هنا من هامش أو استطراد نؤكد فيه على أن همّة السباعي وقيادته هي التي أعطت لحركة الإخوان في سورية، وللدعوة الإسلامية بوجه عام، هذا الحضور، أو حققت لها هذه الأبعاد. . كما اتضح ذلك من هذا العرض لتاريخ حياته ومنجزاته رحمه الله. وليس معنى ذلك ـ بالطبع ـ أن تبقى هذه الحركة أو الدعوة مرتبطة به على الدوام! ولكن معناه أن محاولات تهميشه التي بدأت وهو بصحته وفي أوج عطائه عام ١٩٥٥م كما رأينا، وقبل أن تُبرِز الحركة نفسُها من خلال مسيرتها الطبيعة أو عبر تجربة الصواب والخطأ. . قياداتِها القادرةَ على تحمل الأعباء والاستفادة من هذه التجربة. . هذه المحاولات كانت من الأخطاء الشنيعة ولعلها أكبر الأخطاء التي لم يقتصر أثرها على السباعي وحده، بل تعداه إلى الجماعة نفسها! بل إن هذه المحاولات هي المسؤولة عن التردّي الذي آل إليه أمرها في نهاية المطاف بعد وفاة السباعي عام ١٩٦٤م. . حيث لم ترزق بقيادة مماثلة أو قريبة!

وفي هذا السياق لا بد من النظر إلى نجاح مرشحي الإخوان الثلاثة في انتخابات عام ١٩٦٢م عن مدينة دمشق، على أنه حصيلة لجهود السباعي التأسيسية والبنّاءة، والتي رعت الجماعة هذه السنوات الطوال، بالإضافة إلى أن دمشق التي زُيّفت إرادتها في الانتخابات التكميلية، وقد آلمها وحزّ في نفسها

---

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) هكذا علمتني الحياة: الفقرة ٨٢.

(٣) المصدر السابق: الفقرة ٢٠٠.

وضميرها العربي المسلم ما وقع للسباعي عام ١٩٥٧م ـ وخصوصاً في ضوء تردي الأوضاع، وما تكشّفت عنه ممارسات الأحزاب (العقائدية) ـ هبّت لتعطي مرشحي الإخوان الثلاثة هذا الزخم الذي لم يتمتع به أي حزب من تلك الأحزاب.

لا أجدني بعد هذا بحاجة إلى ذكر أية وقائع أو مشاهدات ـ وما أكثرها ـ تنبئ عن مضاء عزيمة السباعي وعلوّ همّته التي كان يعلو بها على المطامع، أليس هو القائل: «الارتفاع فوق مطامع الدنيا يحتاج إلى جناحي نسر لا إلى جناحي فراشة»(١)، ولهذا فإن الدكتور محمد الفاضل لم يُبعد حين قال ـ بعد أن استعرض طرفاً من حِكَم السباعي الغوالي ـ: «هذه قبسات يسيرة من الدعوة الإصلاحية الحرة التي حمل مشعلها نسرنا الصريع في آفاق دنيا العرب والمسلمين»(٢).

وبحسبي أن أذكر أنني استأذنت عليه في ضحى أحد الأيام، فأُدخلت إلى حجرة (المكتبة) ريثما يحضر.. ولم يلبث أن حضر بعد لحظات ثقيل الخطى متوكئاً على عصاه، وخلّف الباب الذي يدلف منه إلى غرف المنزل مفتوحاً، وبينما هو مشغول بالترحيب بي، وقبل أن يستقر في مجلسه تناهى إلى سمعه صوت التلفزيون ـ فيما يبدو ـ ينطق فيه المذيع بزخم شديد بكلمة (ثوار) ولا أذكر الآن، وربما لم أتبين في ذلك الحين، في أي سياق كان يتحدث عن هؤلاء الثوار! فما راعني إلا والأستاذ السباعي يشير بيده اليسرى مستخفاً، ويقول مغضباً ومستنكراً: ثوار؟!! هل علم هؤلاء معنى الثورة؟ ومن هم الثوار؟ ولم أشك في تلك اللحظة أنه قد مرّ بخاطره طرف من تاريخه الثائر هو رحمه الله.

إن نفسه الثائرة التي لم تعرف معنى الركود أو الإخلاد إلى الأرض لم تتحمل أن توضع كلمة (ثوار) في غير موضعها، أو أن يدّعيها من لا يستحقها أو من لم يدفع ثمنها ويقدم تضحياتها!

ويبقى السؤال المطروح أخيراً حول همّته التي فاق بها همم الرجال، وعزيمته التي تفوَّق بها على الأبطال: هل «جاوز السباعي بجهده طوق الطبيعة البشرية فأرهق نفسه» كما قال الأستاذ الدكتور عمر فرّوخ رحمه الله؟ والجواب عندنا: نعم. وإن كان قد «برهن لنا بصلابة نفسه أن الإنسان قادر بعزيمته على أن

---

(١) هكذا علمتني الحياة: الفقرة ٦٩٦.

(٢) مجلة حضارة الإسلام: العدد الخاص، ص٦٣.

يقوم بما يعدّه بعض الناس خارجاً عن طوق الطبيعة البشرية» كما يقول الدكتور فروخ كذلك[١].

ولقد علم السباعي حين وقع في براثن المرض أنه حاف على نفسه، وأنه كان بحاجة شديدة إلى الراحة والهدوء أو الخلوة، لأن القليل الدائم خير من كثير منقطع.. على الرغم من أنه قدم الكثير الكثير رحمه الله. قال في كتابه: (هكذا علمتني الحياة): «لو استقبلت من أمري ما استدبرت لأنفقت نصف أوقاتي في الراحة والخلوة»[٢]، كما كتب كثيراً من الخواطر المهمة حول الصحة والمرض، وحول ضرورة التوسط في كل شيء[٣].

٥ ـ الإيثار ونكران الذات:

نكران الذات من السمات التي لا يخطئها المرء في شخصية الأستاذ السباعي، لأنها من الصفات التي نشأ عليها، وبقيت معه في جميع مراحل حياته، وقد سبقت الإشارة إلى موقفه في المؤتمر الأول للعلماء الذي عقد في دمشق في خريف عام ١٣٥٧هـ (١٩٣٨م) الذي انتصف فيه للعلماء من رئيس الوزراء، وإلى قيادته للفوج الذي توجه إلى فلسطين.. ووقفته البطولية في معركة القدس الكبرى... وهو في جميع ذلك ـ وغيره كثير ـ لا يكتفي فقط بعدم التباهي بعمله، أو (تضخيمه) وجعله محور الأحداث أو أبرزها.. على عادة الكثير من القادة والزعماء.. بل يتعدى ذلك إلى غمط حق نفسه والحرص على عدم الإشارة أو الحديث عما قام به أو كان السبب المباشر أو الحقيقي في إنجازه وتحقيقه. وأعتقد أن عدم حرصه على كتابة (مذكراته) تندرج في هذا السياق كما أشرت فيما سبق[٤]، ولم أكن الوحيد الذي اقترح عليه أن يفعل ذلك، ولم أكف عن هذا الطلب حتى قال لي: إنني كلما فكرت في هذا وجدت أن تأليف كتاب أجدى وأنفع!

بل إن الأستاذ عبد القادر السبسبي المحامي، يلحظ أن السباعي «ما كان يفكر أن تكون له ترجمة تكتب أو سيرة تدوّن» أي أن الأمر عنده أبعد من عدم كتابة

---

(١) المصدر السابق، ص١٦٤.
(٢) الفقرة (٢٥٢).
(٣) راجع الفقرات: (٢٤٥ ـ ٢٦٠) من الكتاب المذكور.
(٤) ص٢٣٩.

مذكرات أو التأريخ للذات ـ إن صح التعبير! ـ ولكن الأستاذ السبسبي لا يفسر ذلك بما نتحدث عنه من إنكار الذات، بل بشيء من علو الهمة ومضاء العزيمة، أو بشيء ينطلق منها ويعلو عليها؛ قال رحمه الله:

«ما كان السباعي يفكر في أن تكون له ترجمة تكتب أو سيرة تُدوَّن، لأنه كان يستصغر عظائم أعماله، لتوجه همته إلى ما هو أعظم منها. ولا أعظم منها إلا غاياتها وثمراتها».

ثم يضيف في ملحظ دقيق مزج فيه علوّ الهمة بالتواضع ـ وهي السمة التي سنفردها بالحديث فيما بعد ـ فيقول:

«وأما علمه وأخلاقه وشمائله، فقد كانت محجوبة عنه بتواضعه، فلا يخطر في باله ما في إظهارها للناس من المثل الكامل، والأسوة الحسنة»[١].

وإذا كان الإيثار وإنكار الذات ضرباً من أبرز ضروب الشجاعة التي ينتصر فيها الإنسان على نفسه، وعلى رغباتها ومطامحها في العلوّ والظهور، وفي أن يذكر صاحبها أو يحتفظ له بالمكانة العالية أو القيادية.. فإن الدارس لا يصعب عليه أن يلتمس لهذا الخلق عند السباعي أصلاً مكيناً آخر يتمثل في الإيمان والإخلاص والرغبة في ثواب الآخرة.. بل إن السباعي، وقد كان همه العمل والإنجاز، بغض النظر عن الموقع الذي يحتله هو في هذا العمل، وسواء ذكر صاحبه أم لا.. كانت تستوي عنده القيادة والجندية.. حتى إنه جعل من هذه التسوية مقياساً يقيس به خيرية من كانوا معه، أو خيرية جميع العاملين في كل الحقول، «فخيارهم في الخمول خيارهم في الشهرة، وخيارهم في الجندية خيارهم في القيادة، وخيارهم في المرض خيارهم في الصحة...»إلخ، قال: «ولا تختل الخيرية في حالة إلا كان ذلك دليلاً على عدم وجودها في الحالة الأخرى!.»[٢].

أما الإيثار الذي يمكن عده درجة أعلى من نكران الذات، أو الوجه المقابل ـ الإيجابي ـ له، فقد كان الأستاذ السباعي فيما يبدو لا يقدم عليه ـ أو يؤثر عليه ـ في أعماله وأقواله خلقاً من الأخلاق أو فضيلة من الفضائل؛ حتى إن الأستاذ الزرقا حين كتب عن السباعي خصّه ـ كما رأينا ـ بالإيثار، بل جعله رمزاً للإيثار

---

(١) مجلة حضارة الإسلام، العدد ٤ من السنة السابعة أيلول (سبتمبر) ١٩٦٦، ص٣٩ـ٤٠.

(٢) الفقرة (٩٨٨) من كتاب هكذا علمتني الحياة.

والتضحية! قال الأستاذ السباعي، تحت عنوان: (كيف تعيش في الحياة): (لا تيأس، فاليأس كفر بنعمة الله. ولا تغضب، فالغضب قتل لفضائل النفس. ولا تحقد، فالحقد تشويه لجمال الحياة. ولا تحزن، فالحزن إتلاف لأعصاب الجسم والروح. وتحمّل من الهموم ما لا يضنيك، وما لا ينسيك سلطان الله وقضاءه وقدره في تصاريف الزمان. ولا تعش غير مبالٍ بما يجري حولك؛ فالمشاركة الوجدانية أنبل خصائص الإنسان. ولا تكن أنانياً؛ فالإيثار أجمل فضائل الإنسان»[1] نعم، فالإيثار أجمل فضائل الإنسان!

ويلحق بالإيثار ونكران الذات: **تشجيع المواهب** وتعهد من كان يتوسم فيهم الخير بالرعاية والتوجيه، بل بالدفع والرفع! وهذا من أبرز صفاته الدالة على ما كان يتمتع به من شجاعة وفروسية وإقدام.. كما يمكن عدّ هذه الصفة من أبرز **صفاته القيادية** كذلك. وقد لا توجد صفة ألزم من هذه الصفة للقائد أو الداعية، لأنها هي التي تسمح بظهور القيادات واستمرار الدعوات. كما لا توجد صفة دالة على مدى وصول القائد مرتبة القيادة بالكفاءة والقدرة الذاتية أو الحقيقية مثل هذه الصفة. ولا أدل على تمكن هذه الصفة من نفس السباعي من أنه لم يندم على أن شجع من توسم فيهم الخير ثم جحدوه وحاربوه! قال رحمه الله: «لا تندم على أن شجعت من توسمت فيهم الخير، فصنعت منهم رجالاً.. ثم جحدوك وحاربوك، فحسبك أنك قاومت في نفسك الأنانية، وحاولت زرع الورد، فما أنبتت التربة السبخة إلا شيحاً وقيصوماً»[2].

لقد ملك الشجاعة للانتصار على عوامل الأنانية في النفس الإنسانية مرتين؛ مرة حين شجع أصحاب المواهب ومن توسم فيهم الخير.. ومرة أخرى حين لم يندم على ما فعل حين لم يجد من بعض هؤلاء إلا الجحود ونكران الجميل!

٦ ـ الصبر والرضا:

لقد ضرب السباعي بصبره على المرض الذي استبد به سبع سنوات عجاف أروع الأمثلة في تاريخ الرجال، وفي تاريخ الإيمان. بل ارتقى في هذا الصبر ـ بوصفه حالة امتناع عن الجزع والضجر والشكوى أو موقفاً سلبياً إن صح التعبير ـ إلى درجة الرضا عن قضاء الله وقدره. وهو موقف إيجابي أو ليس مجرد حالة

---

(١) الفقرة (٥٧٦) من هكذا علمتني الحياة.
(٢) الفقرة (٨٢٠) من المصدر السابق.

امتناع.. وما كان له أنه يصل إلى هذه الدرجة لولا ثباته الطويل على الصبر، والذي عوّل فيه على إيمانه الراسخ، وعقيدته التي لا تتزعزع.. وقد أشار رحمه الله في بعض ما كتب إلى أن الثبات على الصبر أشد من الصبر نفسه؛ كما كتب خواطر كثيرة حول رحلته الطويلة في الصبر والتي بدأت فيما يبدو بقوله: «يا رب إذا كان في أنبيائك أولو العزم وغير أولي العزم، وجميعهم أحباؤك، أفلا يكون في عبادك أولو الصبر وغير أولي الصبر، وجميعهم عتقاؤك»[1] وقوله:

فيا رَبِّ هَبْ لي مِنْكَ صَبْراً ورَحْمَةً ... ويا رَبِّ حبِّبْنِي بِمَا فيَّ تكتبُ
ويا رَبِّ زِدْنِي عَنْكَ فَهْماً لِمِحْنَتِي ... وثَبِّت يقينِي فيكَ فالقلبُ قُلَّبُ[2]!

ولم يلبث أن اطمأنت نفسه بهذا التثبيت الإلـٰهي وبالفهم عن ربه سبحانه لهذا الذي امتحن به ـ (أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الصالحون) ـ حتى رأى في المرض مدرسة تربوية[3].. وحتى عمّق هذا المرض كثيراً من نظراته إلى النفس الإنسانية، وإلى المجتمع والناس.. وإلى مسائل العقيدة والإيمان والقضاء والقدر.. بل ارتقى في ذلك كما رأينا في أدبه الصوفي إلى ألوان من المناجاة مع الله، والأنس بما هو فيه من المرض على الرغم من شدته وقسوته التي لا تطاق! وكأني بجسده الذي كان يضيق بروحه الكبيرة في كل مراحل حياته.. لم يعد يعبأ بآلامه مع انطلاقة هذه الروح، واتصالها بالله، وأنسها به، ورضائها عن قضائه، وتسليمها بقدره! قال رحمه الله: «إذا أمرضك فأقبلت عليه منحك الصحة، وإذا عافاك فأعرضت عنه فقد أمرضك»[4]، وقال: «إذا أصابك بسوء فملأ نفسك صبراً، وقلبك رضاً، وأطلق لسانك حمداً، وغمر روحك إشراقاً وطمأنينة؛ فقد أعانك»[5] وقال تحت عنوان: «ستة تهوّن المصيبة».

«ستة أشياء إذا ذكرتها هانت عليك مصيبتك: أن تذكر أن كل شيء بقضاء وقدر، وأن الجزع لا يردّ عنك القضاء، وأن ما أنت فيه أخف مما هو أكبر منه، وأن ما بقي لك أكثر مما أخذ منك، وأن لكل قدر حكمة لو علمتها لرأيت المصيبة

---

(١) الفقرة (١٠٨) من المصدر السابق.
(٢) من أبيات له بعنوان: أراك جميلاً في فعالك كلها: الفقرة (٣٤٨) من المصدر السابق.
(٣) الفقرة (١١) من المصدر السابق.
(٤) الفقرة (١٩).
(٥) الفقرة (٨٤٢).

عين النعمة، وأن كل مصيبة للمؤمن لا تخلو من ثواب أو مغفرة، أو تمحيص، أو رفعة شأن، أو دفع بلاء أشد. وما عند الله خير وأبقى»[1].

وقال: «ربما كان بطء القدر في استجابة الدعاء وتحقيق الرجاء، رحمة بالمبتلى تدفع عنه مزيد البلاء، أو كرامة تُدَّخر له في يوم الجزاء»[2]، وقال في خاطرة بعيدة الدلالة، لأنها أشارت إلى أن المرض الذي يشغل عن خاصّة النفس لم يشغله كذلك عن الشأن أو الهمّ العام، فقد جمع بين هذين الشأنين على صعيد واحد! قال رحمه الله: «لا أزال أومن بحكمة الله وعدالة قدَره، مهما استعصى مرضي على الشفاء، واستشرى في أمّتي تحكّم الظالمين، ودَجل الكذّابين!»[3].

إن الأمور الستة السالفة التي رأى فيها تهويناً للمصائب والآلام.. والتي تعكس تجربته بطبيعة الحال نقف منها عند قوله: «وأن ما بقي لك أكثر مما أخذ منك» لنراها ماثلة في هذا الذي رواه **أستاذنا الدكتور يوسف العش رحمه الله**، علماً بأن كل من اتصل بالسباعي أو عرفه أيام مرضه لمس منه ذلك ورآه! قال رحمه الله: «ولقد زرته مرة في مستشفى المواساة فأردت أن أواسيه، فالتفت إليَّ بوجه مصفر من ليلة قضاها في الآلام المضنية، وقال:

«أشكرك على حُسن مواساتك، لكنك لو كنت تعلم كم أنا راض بحالي لما أشفقت عليَّ شفقتك التي تبدو عليك. إني بخير نعمة من الله» قال ذلك وهو يبتسم ابتسامة هادئة سكينة، فبدت الدهشة على وجهي، فقال:

«قد تجد قولي غريباً، لكني أقول الحق، وسأفسر ذلك، إني مريض أتألم ليس في ذلك ريب، وإنك لتشاهد الألم على وجهي وعلى يدي وفي حركتي، لكن انظر إلى حكمة الله فيّ. إن الله قدير على أن يشل حركتي، وقد شلّ بعض حركتي فانظر ماذا شلّ؟ لقد شلّ طرفي الأيسر وأبقى لي الطرف الأيمن، فما أعظم النعمة التي أبقاها لي! أكنت أستطيع أن أخط بالقلم لو شل اليمين منّي؟ إن الله قدير على أن يأخذ بصري وأنا محتاج إلى بصري أكثر من أي شيء آخر، لكنه أبقاه لي فهل أكثر من هذا لطفاً! إن الله قدير على أن يخمد قريحتي، لكنه أبقى لي قدرة الفكر والعقل فما ألطفه بي. إن الله قدير على أن يشل لساني فيمنعني من الكلام،

---

(١) الفقرة (٩١٤).
(٢) الفقرة (٦٢٢).
(٣) الفقرة (٧٥٧).

لكنه أكرمني ببقاء قدرتي على الكلام، أفليس ذلك منَّة منه وعفواً. لقد قضى الله عليَّ بأن تشل حركتي في السياسة، فشلّها لكنه أبدلها بنعمة خيرٍ منها: إنه فتح لي سبيل العلم والعمل للعلم. أكنت تراني كتبت وألّفت ما كتبت لو أن صحتي بقيت على ما كانت عليه قوية شديدة. فما أكثر لطف الله وكرمه ومنّته ونعمته، أفيحق لي بعد ذلك أن أشكو وأن أتذمّر؟ أو لا يجب عليّ أن أشكر الله على نعمائه؟»[1].

ثم يعقب أستاذنا العش على هذا بقوله: «بهذا الإيمان كان يعيش في ساعات غبطته، وبه كان يعيش في ساعات مرضه. لقد بلغ الإيمان ذروته عند السباعي، وبه نستطيع أن نفسّر حياته وعلمه وعمله».

أما نحن فنقول في تعقيبنا المقتضب على ذلك: إن السباعي ارتقى من درجة الصبر إلى درجة الرضا ومقام الشكر رحمه الله.

وعلينا أن نذكر أخيراً أنه قد راض نفسه على الصبر في مواطن كثيرة سابقة على المرض، حين لم يستجب للمغريات ـ من أي نوع ـ في مقتبل العمر وعنفوان الشباب، في بعض مراحل الدراسة، وفي مواقع القيادة! كما أنه صبر الصبر كله أو الصبر الجميل على أوهاق الدعوة والجهاد، وعلى الأمزجة المختلفة والطباع المتباينة ـ وكانت به حدّة ـ التي تعامل معها في إطار هذه الدعوة التي انطلق بها وحاول التأليف بين أبنائها وقادها لسنوات طوال! وفي كتابه: (هكذا علمتني الحياة) إشارات ودلالات كثيرة لا يتسع لها المقام.

وأكتفي فقط ببعض إشاراته إلى **الصبر عن هوى النفس** الذي بقي يعدّه أشق من الصبر في معارك الجهاد! قال: «الصبر على الهوى أشق من الصبر في المعركة وأعظم أجراً، فالشجاع يدخل المعركة يمضغ في شدقيه لذة الظفر، فإذا حمي الوطيس نشطت نفسه وزغردت! والمؤمن وهو يصارع هواه يتجرّع مرارة الحرمان، فإذا صمم على الصبر ولّت نفسه وأعولت. والشجاع يحارب أعداءه رياءً وسمعةً وعصبيةً واحتساباً، ولكن المؤمن لا يحارب أهواءه إلا طاعة واحتساباً»[2].

وقال: «بين المعصية والطاعة صبر النفس عن هواها لحظات»[3]. أما

---

(١) مجلة حضارة الإسلام: العدد الخاص، ص٦٧.

(٢) الفقرة (١٠٧).

(٣) الفقرة (١٠٦).

عاقبة هذا الصبر فقد تحدث عنها في الخاطرة التالية التي فرّق فيها كذلك بين الشهوة الآثمة والمباحة والصبر، قال: «الشهوة الآثمة حلاوة ساعة ثم مرارة العمر، والشهوة المباحة حلاوة ساعة ثم فناء العمر. والصبر المشروع: مرارة ساعة ثم حلاوة الأبد»(١).

٧ ـ الاجتهاد والجرأة في الحق:

ويمتاز السباعي ـ أخيراً ـ بهذا الضرب من ضروب الشجاعة العقلية والنفسية، فقد كان يملك الجرأة الأدبية على الاجتهاد وعلى الجهر بالرأي وما يعتقد أنه الحق في جميع المواقف. وتأتي هذه السمة في مقدمة السمات اللازمة للمجدّدين وقادة حركات الإصلاح. وقد امتدت هذه الجرأة واتصلت أسبابها عنده بالاطلاع على ثمرات العقول من مختلف الثقافات. وقد أصاب أستاذنا العالم المؤرّخ الدكتور يوسف العش حين قال: إن «عقل السباعي يمثل الثقافة الإسلامية التي جابهت المعارف كلها دون خشية منها»(٢)، وحين قال كذلك في وصفه: «إن العقل والعلم عنده صنوان»(٣)، فدلّ بذلك على الآفاق العقلية الرحبة التي تمتع بها، والتي هيأت له من خلال هذا الاقتران بالعلم أو مساواتها به أسباب الاجتهاد والتجديد، والقدرة على ريادة حركة الإحياء الإسلامي في سورية، والمشاركة في هذه الحركة في مصر والعالم الإسلامي.

والملاحظ هنا أن هذه الجرأة الأدبية أو الشجاعة العقلية أصيلة أو قديمة في نفس السباعي، وأنها لذلك كانت مصاحبة لجرأته وشجاعته في مقاومة الاستعمار البريطاني في مصر! ثم نمت مع علوّ كعبه في العلم، والاطلاع على ثمرات العقول والقرائح في الثقافتين العربية والأوروبية ـ فقد كان يعنى بالمترجمات والمنقولات عن الفكر الغربي كما ذكر الأستاذ المبارك ـ فقد قال في الكلمة التي كتبها بمناسبة وفاة مفتي حمص الشيخ طاهر الأتاسي في ١١ ربيع الأول ١٣٥٩هـ (١٩/ ٤/ ١٩٤٠م):

«وهو المفتي الوحيد في بلاد الشام الذي يزن الأمور بميزان المصلحة

---

(١) الفقرة (٢٦).

(٢) مجلة حضارة الإسلام: العدد الخاص، ص٦٥.

(٣) المصدر السابق، ص٦٨.

العامة، ويطبقها على المقاصد الشرعية السامية؛ فإذا تحقق في مسألة من المسائل المعروضة عليه مصلحة عامة تعود على العلم أو الدين أو الأمة، التمس لها الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة، أو أقوال مشاهير العلماء، ضارباً صفحاً عما هنالك من نصوص فقهية قد يحول الأخذ بظاهرها دون تحقيق تلك المصلحة المرجوّة». ثم قال: «وقَلَّ أن تجد في المفتين المعاصرين من له هذه الروح وهذه القوة، وهذا التمكن البالغ في فهم دقائق الفقه الإسلامي ومقاصده»[1].

إنها النزعة المبكرة نحو الاجتهاد بالعودة إلى الأصول، والبحث عن مقاصد النصوص! حتى إذا نهض في الحال أو بعد سنوات قلائل بحركة التجديد الديني والإصلاح الاجتماعي والسياسي، لم يعبء بالقيود ـ من أي نوع ـ ولم يجبن أمام ألسنة المبطلين والجاحدين، ولم يخالط نفسه يأس، ولم تصرفه عن وجهته الآلام والتضحيات. وقد كتب في ذلك الخواطر التالية: قال رحمه الله:

٣٩٢ ـ: «لولا جرأة المصلحين واستهزاؤهم بهزء الساخرين، لما تخلص المجتمع من قيوده وأوزاره».

٣٨٩ ـ «أقبح أنواع الجبن: الخوف من الجهر بالحق خشية من ألسنة المبطلين».

٣٨٧ ـ «لا تتأخر عن كلمة الحق بحجة أنها لا تسمع، فما من بذرة طيبة إلا ولها أرض خصبة».

٣٨٨ ـ «ليس عليك أن يقتنع الناس برأيك، ولكن عليك أن تقول للناس ما تعتقد أنه حق» «من عرف الحق هانت عنده التضحيات».

٣٨٦ ـ «الذين يجهرون بالصواب عند طوفان الخطأ هم الرجال الذين يقوم البناء على عقولهم وكواهلهم معاً».

٤٧ ـ «ليست الشجاعة أن تقول الحق وأنت آمن، بل الشجاعة أن تقول الحق وأنت تستثقل رأسك»

١٠٠١ ـ «ليست البطولة أن تقاتل وأنت آمن على ظهرك من الرماح، ولكن البطولة أن تقاتل وأنت تنوشك الرماح من كل جانب».

---

(١) مجلة (الفتح) العدد ٧١٥ تاريخ ١٢ جمادى الآخرة ١٣٥٩هـ (١٨/ ٧/ ١٩٤٠م).

ولهذا نجده يستخف بالنصر الذي يكسب في غير معركة! قال: «ليس النجاح أن تكسب النصر في غير معركة، فتلك فرصة واتتك فيها الظروف، ولكن النجاح أن تكسب النصر في معركة لم يكن يبدو للمراقبين لها شيء من تباشير النجاح» [الفقرة رقم ١٠٠٠].

وإذا تذكرنا هنا كتب الأستاذ السباعي، وميادين العلم والمعرفة التي خاضها أو عني بها.. وأعدنا النظر فيما نتحدث عنه من سائر خلائقه وصفاته.. أدركنا أنه لم يكن يفتقر إلى أداة من أدوات الاجتهاد، أو خلق من أخلاق الإصلاح والتجديد. وقد نلحق بهذا وذاك ما كان يتمتع به من **الموضوعية والنزاهة والتجرد**.. التي لا تعدو أن تكون ـ بدورها ـ من ضروب الشجاعة التي نتحدث عنها! وقد لا يعدل شجاعته أو جرأته في الحق أو ما يعتقد أنه الحق بعد كل هذه الموضوعية والنزاهة.. سوى الشجاعة في الرجوع عنه حين يتبين له أنه كان على خطأ، أو حين يبدو له من الأدلة والبراهين الجديدة أنه لم يكن في اجتهاده على صواب!

يقول فضيلة الأستاذ الشيخ عبد الفتاح أبو غدة:

«وإذا صادف أن اجتهد في أمر فكان له فيه رأي، ولسواه رأي، ثم روجع في ذلك ونُوقش: بسط حجته، ودافع عن وجهة نظره بروح المنصف المتحري الباحث عن الحق، حتى إذا تبينت له فيما كان يراه ويقوله وجهة جديدة محّص فيها الرأي، وكانت نتيجة ذلك: التزامه بالحق الصراح والمعالنة به، لا يهمه في أي جانب كان، دون تعصب لرأيه، أو حرص على انتصار وجهة نظره. بل إنه ليشد بقوة على الرأي الجديد الحق، مدافعاً عنه أشد من دفاعه عن رأيه الذي كان يراه، لأنه تبدت له معالم الحق فيه أكثر»[1].

* * *

---

(١) حضارة الإسلام: العدد الخاص، ص١٧٣.

الإنسان

أو سجايا النفس

كانت تلك صفات (الرجل) التي جابه بها الصعاب، وصمد في وجه الشدائد. . أو التي واجه بها رغائب النفس وأهواءها، وتصدى بها لمشكلات الأمة والمجتمع، وشؤون الدين والحياة! أما صفاته وأخلاقه وسجاياه الخاصة أو (الإنسانية) التي صدر عنها في حياته اليومية، أو عبّر بها عن (السباعي الإنسان)! فإننا نوجزها فيما يلي:

١ ـ الرحمة والرقة:

كان رحيم القلب لا يصمد أمام الدمع. . بل لقد كان هذا الدمع يغلبه و(يفضح) ما انطوت عليه نفسه المرهفة من رحمة ورقة! ولا عجب أن نرى هذه النفس الجريئة التي طلبت الموت والشهادة في مظانّها. . وخاضت معركة الحياة على أشد و(أشرس) ما تكون المعارك. . تنكسر أمام مناظر البؤس والفاقة والحرمان. . وأمام منظر الشهداء الشبان الذين سقطوا بين يديه في معارك فلسطين[1]. . وأمام المرض الذي ينزل بمن حوله من الناس. . فهذا من دلائل العظمة والاتساع في هذه النفس الكبيرة.

---

(١) يقول الدكتور سعيد رمضان ـ الذي شاركه في الجهاد ـ «فبينا هو من حول بيت المقدس يتحدى العدوان والغدر، ويقاتل قتال من حرفته الحرب وطلب الموت. . . إذا سمته ينقلب كلما قضى شهيد من شبابنا المؤمَّل في معركة الدعوة إلى الله، فتراه واجف النفس، دامع العين، مصعَّد الأنفاس. . على أنك لا تكاد تخطئ مع هذه الوجفة الدامعة، خفقة أخرى من قلبه الدافئ المليء: هي خفقة البشر لما أفاءه الله على الشهيد العزيز من خاصة الفضل، وكرامة الاستشهاد» كتاب مصطفى السباعي بأقلام محبيه وعارفيه، ص٢٢٧. والدكتور سعيد رحمه الله هو الداعية المصري الإسلامي صاحب مجلة (المسلمون) التي أشرنا إليها في موضع سابق، ص٢٤٦.

وآية الآيات في هذا أن السباعي الذي تغلّب على المرض الذي استبدّ به ورأى فيه طريقاً للسمو والخلود ـ كما أشرنا ـ كان يرِقُّ لصراخ المرضى يقولون: يا الله! وهم بجانبه في المستشفى! حتى وجد في رحمته هو لهم دليلاً على أن الله تعالى سوف يرحمهم وهم ينادونه ويستغيثون به! قال رحمه الله: «أسمع بجانبي صراخ مرضى يقولون: يا الله! علموا أن لهم رباً يرحمهم فاستغاثوا برحمته، إني لأرحمهم لآلامهم وأنا عبد مثلهم، فكيف لا يرحمهم الله وهو ربهم وخالقهم؟»[1].

بل لقد نعى على الذين يريدون للمرأة أن تعمل لتكسب قوتها! وقال: ما أقسى أفئدتهم، وأغلظ أكبادهم! لقد كان لرقته أثر في هذا القول أو في هذه الملاحظة أو الإضافة، قال: «ما أقسى أفئدة الذين يريدون للمرأة أن تعمل لتكسب قوتها ـ أي كأنهم نكلوا عن إعالتها أو أجبروها على العمل ـ وهي تعاني من شدائد الحمل والولادة والحضانة والإرضاع لطفل واحد، بله أطفال آخرين، وغير شؤون البيت وأعبائه! ما أقسى أفئدتهم وأغلظ أكبادهم! ولولا الحياء لقلت: إنهم متوحشون، يتلذذون بتعذيب المرهقين، واستعباد المستضعفين!»[2].

كما رأى في قساوة القلب مرضاً يستحق العلاج! أي أن **إنسانية الإنسان أو صحته النفسية في نظره تقتضي رقة القلب أو تستلزمها!** قال رحمه الله: «داو قساوة قلبك عند الموعظة، كما تداوي عُسر هضمك عند الأكل»[3].

وقد أشرنا في موضع سابق إلى أثر ما اتصف به من الرحمة والرقة والعطف على الفقراء والمساكين في اجتهاده البارز أو الأهم في باب العدل الاجتماعي و(اشتراكية الإسلام). . حتى إنه ذهب إلى القول إن صلاح المجتمع وفساده إنما يقاس بمدى رحمة هذا المجتمع بالفقراء وقيامه بشؤونهم، أو إهمالهم والتخلي عنهم، قال رحمه الله: «الفقير ميزان الله في الأرض، يوزن به صلاح المجتمع وفساده!»[4]، وربما كان يخامره ـ وهو يكتب هذا ـ شعور بأنه ليس في وسعه كفرد أن يرحم جميع الفقراء، أو يواسي جميع المحتاجين! فوضع ذلك على

---

(١) الفقرة (١٧٢) من (هكذا علمتني الحياة).
(٢) الفقرة (٩٢٥).
(٣) الفقرة (٣٤٧) من الكتاب السابق.
(٤) الفقرة (١٤٢).

كاهل الأمة والمجتمع. . ثم ارتقى في الحكم على هذا المجتمع بالصلاح والفساد ـ بوجه عام ـ من خلال هذا الميزان الذي لا يخطئ. . الفقير! فكأنه قال: إنه مقياس صلاح الفرد ـ أو النفس الإنسانية ـ والمجتمع جميعاً!

وأخيراً فإنه جعل الرحمة بالمستضعفين ـ أعم من أن يكونوا من الفقراء أو المساكين ـ أحد الأركان التي لا تتم (الرجولة) إلا بها! فإذا تذكرنا حظه هو من هذه الرجولة أدركنا مدى الرحمة التي طويت عليها نفسه الكبيرة رحمه الله، قال: «لا تكمل الرجولة إلا بثلاث: ترفع عن الصغائر، وتسامح مع المقصّرين، ورحمة بالمستضعفين»[١].

٢ ـ حرارة العاطفة، ورهافة الحسّ والشعور:

كانت ينابيع العاطفة والذوق والإحساس بالجمال تسري في تلك النفس الكبيرة وتترقرق في نواحيها! لم تحجبها صخور الجهاد والمواقف الدعوية والعلمية الصلبة أو الشديدة! بل إن عاطفته الجيّاشة هي التي كانت تمده بطاقة لا تكاد تنفد في مواقفه الخطابية المشهودة! وكانت في الوقف ذاته نبعاً من ينابيع الحسّ المرهف والذوق الرفيع. . ولهذا تبدو علاقته مع الناس هي الوجه الآخر لعلاقته مع الله سبحانه!

لقد أشرنا إلى أدبه وصفائه مع الله تعالى في شعره ومناجاته، والذي غذّته تلك العاطفة وهذه الينابيع، وعاش مع الناس بهذا الوجدان وهذه العاطفة وتلك الأحاسيس، فلم يؤذ أحداً من إخوانه أو أصدقائه أو من عامة الناس، أو جرح شعوره بكلمة أو موقف أو إشارة، سواء أكان ذلك في الحضور أم الغيبة! وقد عرفت في وجهه الكراهة والحسم جميعاً ذات يوم حين غُمز أحد إخوانه في مجلس من مجالسه.

ولا شك في أن الشيخ عبد الفتاح أبو غدة قد عرفه حق المعرفة حين قال فيه: «وكان رحمه الله يؤاخي الإنسان فيكون وفياً لأخوّته، محسناً الظن به، يذود عنه قالة السوء، ويحتفظ له بمنزلة الصادقين، ويلتمس لهفواته الأعذار ما دام يجد إلى ذلك سبيلاً، بعيداً عن التملق والنفاق والمجاملة بالباطل»[٢].

---

(١) الفقرة (٨٨٦).

(٢) حضارة الإسلام: العدد الخاص، ص١٧٤.

وكان حتى في أيام مرضه يكره أن يخدمه أحد في حاجات نفسه! ولكن إذا وقعت عصاه التي كان يتوكأ عليها. . ـ وكثيراً ما كانت تقع في المحاضرات ـ يضحك ويعتذر قائلاً: أنا أزعجكم دائماً بهذه العصا. . ثم يطلب من يتبرع لمناولته إياها! في الوقت الذي يكون قد هبّ أكثر من واحد ليفعلوا ذلك. . وكأن لسان حاله يقول: أما هذه فلا بأس!

ويبدو لي أنه اتخذ من رهافة حسّه هو وشدة تأثره بجمال الطبيعة وبعض الفنون دليلاً على أن هذه موهبة أو أمر فُطر عليه بعض الناس، وإن كان قد خصّ ذلك بالذوق، أو نصّ عليه من بين سائر الأحاسيس، أو بوصفه جامعاً لها، قال: «الذوق موهبة وراء العقل والفطنة والذكاء، وهو لهذه كالملح للطعام، والروح للجسم. . »[1]، ولهذا كان يضيق ذرعاً بغليظ الفهم وبليد الذوق، ويعدّ ذلك من أنواع المرض التي يبتلى به من كتب عليه أن يخالط هذا أو يعيش معه! قال: «أسوأ أنواع المرض: أن تبتلى بمخالطة غليظ الفهم، محدود الإدراك، بليد الذوق، لا يفهم ويرى نفسه أنه أفهم من يفهم، فكيف إذا كتب عليك أن تخالطه وأنت مريض؟»[2]. قلت: إنه مرض على مرض، وابتلاء فوق ابتلاء!

وقد حدثنا مرة أنه سمع صوت ناي شجيّ وهو صغير أو غلام حدث، فأُغمي عليه من شدة التأثر. .

ولهذا بقي جمال الطبيعة يأسره على الدوام. وكان يجد فيه الدليل على الإيمان والحكمة مرة، وربما واءم بينه وبين جمال المرأة، أو استعاره لها مرة أخرى. قال رحمه الله: «في جمال الأزهار وأرج الرياحين وهي من ماء وتراب، يتجلّى إبداع الخالق ودقة صنعه، فأي دليل بعد هذا على وجود الله وحكمته يريدون؟»[3]، إنه لا يتحدث عن (النظام) ولكن عن الجمال أو عن الجمال مقروناً بدقة الصنعة! ومن فاتته حاسة البصر أو عطّلها فلن تفوته حاسة الشم! قال: «تستطيع أن لا ترى الزهرة الفوّاحة، ولكنك لا تستطيع إلا أن تشمّ عبيرها»[4]،

---

(١) الفقرة (٩٣٣) من هكذا علمتني الحياة.
(٢) الفقرة (٩٣٥).
(٣) الفقرة (٣٣٩).
(٤) الفقرة (٧٥٥).

وقال تحت عنوان: (أين أنت)؟ «يتساءلون عنك: أين أنت؟ فيا عجباً للعُمي البُله! متى كنت خفياً حتى نسأل عنك؟ ألست في عيوننا وأسماعنا؟ ألست في مائنا وهوائنا؟ ألست في بسمة الصغير وتغريد البلبل؟ ألست في حفيف الشجر وضياء القمر؟ ألست في الأرض والسماء؟ ألست في كلِّ شيء كلَّ شيء؟ أليست هذه آياتك الدالّة عليك؟ أليست هذه من بدائع صنعك يا أحسن الخالقين؟»[1].

ولم يفته أن يذكر المرأة في سياق فروسيته ومباهاته بـ (أمة الخلود) ـ التي أوردنا طرفاً منها فيما سبق ـ حين قال: «**ولنسائنا عطر الأزاهير، وطهر الملائكة، وسحر الطبيعة في فجر الربيع**»! لا غرو أن يفرق، بعد هذا الحديث عن العطر والطهر والسحر، بين أدب الجنس وما أسماه أدب النفس! وأن ينعى على أدب الجنس، ويصفه بأنه (ليس فيه إبداع ولا كفاح ولا تضحية) وأنه (صنعة المجدبين الكسالى الأنانيين)[2]، وأن يتوجه بالتحذير إلى (الأم الفاضلة والبنت الفاضلة) من أن تنخدع بألفاظ التحرر من العبودية، وتحطيم قيود التقاليد! قال: «إنهم يريدون أن يضيفوا إلى عبوديتك للجهل الموروث، عبودية الشهوة الجامحة، وإلى قيود التقاليد البالية قيود الاستغلال الآثم الماكر!»[3]، وأن يقول أخيراً: إن «الأمة التي تنظر إلى المرأة نظر عبادة لها كشهوة، واحتقار لها كإنسان، تهزمها البغايا والراقصات في الحرب عن طريق الإغراء والتجسس»[4].

٣ ـ المروءة والسماحة:

أصيب الأستاذ الشيخ مناع القطان رحمه الله بحادث وهو في بيروت، وكان الأستاذ السباعي قد اصطاف فيها لبعض الوقت بعد منصرفه من الحج، ولما علم بإصابة الشيخ مناع ذهب إليه يعوده. يقول الشيخ مناع: «وكان رحمه الله ذا مروءة نادرة يحمل جسمه المنهك ما لا قِبَلَ له به، علم بحادث إصابتي في الأيام القريبة الماضية، فدلف إلى المستشفى في بيروت، ونظرت إلى باب غرفتي فإذا به يدخل متكئاً على عصاه، في خلق المسلم ومروءته، فلم أتمالك نفسي على فراشي! وأعلنت له ألمي، لما في ذلك من إرهاق له ومشقة: فأجابني بأن هذا واجب.

---

(١) الفقرة (١٤٥).

(٢) راجع الفقرة (٥٤٩).

(٣) الفقرة (٥٤٤).

(٤) الفقرة (٥٤٢).

وعادني مرة أخرى مودعاً قبيل عودته إلى الشام وجلس يواسيني وأنا أقوى صحة منه، ولم تمض سوى أيام معدودة حتى حملت إلينا أمواج الأثير نعيه»[1].

هذه المروءة النادرة ـ كما وصفها الشيخ منّاع رحمه الله ـ لم يستطع ألا يستجيب لندائها حتى في أيام مرضه الأخيرة هذه. . وهي التي كان ينبعث منها في أريحيته وكرمه طوال حياته. . فقد كان يكرم ضيفه ويخدمه إن استطاع. . وكان يجد من حق أي زائر كريم للبلد أن يدعوه إلى بيته ويجمع له من يأنس به من الضيوف. يقول الشيخ عبد الفتاح أبو غدة: «كان رحمه الله أريحياً كريماً، يتحرى النهوض بوجائب الأخوة والتكريم لكل وارد وصادر، حتى إنه ليتصدى لاستضافة فضلاء الرجال الذين يؤمّون البلاد، شاعراً بأن ذلك حق عليه، ما يسوغ له التخلي عنه ولو كان في ضيق من أوضاعه وأعماله وواجباته العامة والخاصة»[2].

وأذكر من هذه الدعوات التي شهدتها في بيته ـ وربما كان حضوري مع الزميل الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي، وكنّا معيدين بكلية الشريعة، من كمال مروءته ـ دعوته للأستاذ مالك بن نبي في إحدى الأمسيات، وحضر الأستاذ مالك في تلك الليلة وبصحبته شاب ليبي لم يوهب الكياسة ودقة الملاحظة! فحين تشعب الحديث للكلام عن الموسيقا، قال في شأن تحريمها ـ أو أفتى ـ بما ينبئ عن جهله بفقه النصوص قبل فقه الحياة! وكان الأستاذ السباعي يأنس بشيء منها في بعض ليالي مرضه وأرقه الطويلة. وكان في القوم الأستاذ مصطفى الزرقا والأستاذ محمد المبارك، وبعض الأساتذة الآخرين، فانزعج الأستاذ السباعي أشد الانزعاج، واشتدت عليه الآلام العصبية، حتى اعتذر عن متابعة الجلسة وغادر إلى فراشه داخل المنزل. فما كان من الدكتور عبد الرحمن الصابوني إلا أن لام الشاب لوماً شديداً، وعرّض ـ فيما أذكر ـ باجتهاده وعلمه[3]! . فشفى

---

(١) مجلة حضارة الإسلام: العدد الخاص، ص ٢٣٦ ـ ٢٣٧ .

(٢) المصدر السابق، ص١٧١ .

(٣) انظر الفقرة (٢٣٨) من هكذا علمتني الحياة، وعنوانها: (صفة أخ) فربما كانت في الأستاذ الدكتور الصابوني، قال السباعي:
«لي أخ صادق في حبّه، مخلص في قربه، سريع في نجدته، غيورٌ في مشهده وغيبته، سخيٌّ أكثر مما عرف عن بيئته، بصير بمواطن النفع والضر لمصلحته. غير أنه يشتد في=

النفس في تلك الليلة من ذلك (الفقيه) الذي سفّه رأي السباعي في الموسيقا، لأنه لم يفطن لشروط السماع!

أما ما كان يتمتع به من **السماحة وطيب الخاطر**، فأعتقد أنه صفحه عن النفر من المنشقين الذين قادوا ضده حملة التشويه التي تحدثنا عنها، وبعضهم ولغ حتى في عرضه!، ما يغني في هذا المقام عن أي موقف آخر. وقد يجوز لنا أن نقيس هذه السماحة بمقياس أولئك الذين كانوا يجدون في أنفسهم على السباعي - على البعد - لسبب أو لآخر؛ فإن الواحد منهم، كما شهدت، سرعان ما يسقط ما كان في نفسه عنه، بل سرعان ما يكبره ويحبّه إذا لقيه أو اجتمع به! ويبعد فيما نظن أن يكون هذا مع رجل لا يتصف هو نفسه بالسماحة وطيب الخاطر!

٤ ـ حدّة الطبع:

ولا تتعارض هذا السماحة مع ما عرف عنه من حدة الطبع - وعصبية المزاج في بعض الأحيان - لأن السماحة وطيب الخاطر يتجاوز فيها عن حقوقه، أو يصفح عمن أساء إليه! أما الغضب والحدة فكانت موقف دفاع عن الأوطان والحرمات. وإن كان في وسعنا أن نفسر هذه الحدة عنده بأمرين:

الأول: أنه كان يضيق ببرودة الطبع، لأنها تناقض ما طويت عليه نفسه من المبادرة والثورة، وما طبع عليه من التوهج والحرارة! قال رحمه الله: «كيف يمكن أن نصطحب في الطريق إذا كنت أطير براقاً، وتسير سلحفاة، فإما أن أسبقك وإما أن تؤخرني. وكيف يمكن أن نعيش معاً وحرارتي كالنار وبرودتك كالثلج، فإما أن أحرقك وإما أن تجمّدني»، وقد أتبع هذه الخاطرة بقوله: «من المستحيل تبديل الطبائع كما يستحيل تبديل الأشكال، ومن يخلقه الله كما أراد لا يبدّله الإنسان كما يريد»[1].

أما الأمر الثاني: فيعود إلى تلك السماحة والمروءة نفسها! لأنها لا تتسع لمواقف الكيد واللؤم.. أو لأنها تناقضها وتعارضها من كل وجه.. إن الصفح والسماحة وقبول الأعذار والتجاوز عن الهفوات والزلاّت شيء.. والإغضاء عن مواقف الكيد واللؤم شيء آخر! فسرعان ما كانت تشتعل في نفسه شرارة الحدة حين يواجَه بموقف من هذه المواقف، أو يُنبّه له.. أو يقف هو عليه!

= الخصام، ويسرف في الأوهام، ويبالغ في الأرقام!».

(١) الفقرتان (٧٣٦ و٧٣٧) من هكذا علمتني الحياة.

وأعتقد أن أستاذنا الدكتور يوسف العش رحمه الله أشار إلى نحو هذا حين قال في وصفه: إنه «كان ذا وجه مشرق منير تعلوه الابتسامة، ولا يغادره البِشر إلا أنفةً أو غضباً»[1]، وقد صوّر الأستاذ عبد الرحمن خليفة هذا الجمع في شخص السباعي بين السماحة والثورة، على النحو التالي: قال حفظه الله: «لقد كان السباعي رحمه الله كالبحر، عميقاً في فكرته، غنياً في مكنون جواهره، مهيباً في طلعته، جميلاً رائعاً في منظره، سمحاً كريماً لمن طلب رفده أو مدّ يده ليغترف من خيره. فإذا طمع فيه طامع، ولجّ في خصامه جهول، كان في موج كالجبال، ولجج كقطع الليل البهيم. يضع من ركب متنه مغتراً برقته وسماحة طبعه، مكبوباً على وجهه، غائراً تحت قدميه»[2].

وغني عن البيان أن نذكر أخيراً أن من كان على هذا الخلق من السماحة والمروءة، سواء أكان في طبعة حدّة أم لم يكن.. لا يعرف الحقد إلى نفسه من سبيل. وقد سبقت الإشارة إلى قوله: «لا تحقد، فالحقد تشويه لجمال الحياة» وقد قال في مقدمة كتابه: (هكذا علمتني الحياة): «وأعوذ بالله من أن يكون في قلبي حقد نحو أحد، أو عندي رغبة في التشهير بإنسان... ولست أقول كما قال أبو الطيب المتنبي:

ومن عرف الأيام معرفتي بها وبالناس روّى رمحه غير راحم
فلا هو مرحوم إذا ظفروا به ولا في الردى الجاري عليهم بآثم

ولكنني أقول: إن من بلغ من العمر ما بلغت، وأصابه من المرض ما أصابني، وعرف الناس معرفتي بهم، يرى نفسه أكرم من أن يحمل حقداً أو عداوة شخصية يجري وراءها متقطع الأنفاس.

«لقد هانت عليَّ الدنيا بما فيها من اللذائذ، وما تحتويه من عوامل الحسد والحقد والكراهية، ولم يبق في نفسي ـ شهد الله ـ إلا رغبة في الخير أفعله وأدل عليه، وإعراض عن الشر أهجره وأحذر منه»[3].

---

(١) مجلة حضارة الإسلام، ص٦٥.
(٢) المصدر السابق، ص٣٦.
(٣) هكذا علمتني الحياة، ص٨ ـ ٩، ورواية الديوان: فليس بمرحومٍ. انظر شرح ديوان المتنبي لعبد الرحمن البرقوقي: ٤/٢٣٨.

ويتصل بهذا ويلحق به: **ترفعه عن الصغائر واشتغاله بمعالي الأمور**.. يشهد له بذلك هذه الحياة الحافلة، وهذا الإنتاج الغزير! ثم أليس هو القائل: «الحياة طويلة بجلائل الأعمال، قصيرة بسفاسفها»[1] والقائل: «الصندوق الممتلئ بالجواهر لا يتسع للحصى، والقلب الممتلئ بالحكمة لا يتسع للصغائر»[2].

٥ ـ التواضع الشديد وحبّ البساطة:

قد تكون العوامل التي تضافرت على إبراز هذا الخلق عنده كثيرة، بيئية ودينية وأخلاقية وشخصية... ونكتفي من ذلك بالإشارة إلى عقله الممتلئ بالأفكار وثمرات المعارف؛ وقلبه هذا الممتلئ بالحكمة.. فإن الشجرة المثمرة أو الغزيرة الثمر هي التي تتدلّى أغصانها إلى الأرض. ونذكر مع هذا: حرصه الشديد على الهداية والإرشاد والتعليم، والتصاقه بعامّة الشعب، وانحيازه الواضح ـ إن صح التعبير ـ للضعفاء والفقراء والمساكين، وحدبه عليهم، وتبنيه لقضاياهم ومشكلاتهم، حتى وجدناه يقصر معنى (الكرم) على رفدهم ومواساتهم. ومن كان على هذه الشاكلة، أو من كانت فيه هذه الصفات ـ وغيرها كثير ـ فإنه لا يتكبر ولا يستكبر.. بل يتواضع ويميل إلى البساطة وكراهية التعقيد.

يقول الأستاذ كامل الشريف: «وكان أكثر ما يلفت النظر: بساطته وتواضعه ونزوله إلى مستوى أصغر الناس». ويستدرك الأستاذ الشريف مشيراً إلى **الملحظ القيادي** في شخصية السباعي مع هذا التواضع فيقول: «غير أنه يحتفظ ـ في الوقت نفسه ـ بهيبة الزعيم ومكانة القائد. وهذا المزيج بين التواضع والهيبة لا يجتمع إلا في القليل النادر من الرجال»[3].

قلت: ورحم الله أبا الطيب حين قال:

إذا بَدَا حَجَبَتْ عَيْنَيْكَ هَيبتُهُ　　　وَلَيْسَ يَحْجُبُهُ سِتْرٌ إذَا احْتَجَبَا

---

(١) الفقرة (٣٦) من المصدر السابق.

(٢) الفقرة (٧٩) من المصدر السابق.

(٣) السباعي بأقلام محبيه وعارفيه، ص١٩٦.

وعليّ أن أذكر هنا بشيء من الحسرة أن تواضعه الجمّ ـ إلى جانب إنكاره لذاته الذي تحدثنا عنه ـ لا أقول: حجبني أو كاد يحجبني عن المكانة العالية التي تسنّمها، والبطولة التي انطوت عليها نفسه في ميادين العلم والعمل والحياة.. بل أقول: كان يوهمني أو يزيّن لي أن ما كان عليه الرجل أمر عادي أو طبيعي، أو أن مثله في العلماء والمجاهدين كثير، ثم أدركت أن هذا نادر الوقوع، وأن مثله في العظماء قليل. وربما كان لصلتي الوثيقة به أيام مرضه سبب في هذا! فقد كنت أرى فيه الصابر على البلاء، والهمة التي لم يُقعدها المرض والألم.. فحجبت هذه الصورة عني معالم كثيرة من نبوغه المبكر، وأعماله الجليلة التي نهض بها أيام صحته وقوته وشدة شكيمته رحمه الله.

أما حبّه للبساطة وكراهيته للتعقيد فإن حياته اليومية في البيت وفي سائر المواقع كانت تعكس ذلك وتدل عليه (ببساطة) ويسر.. وقد قال هو عن نفسه في مقدمة كتابه: (هكذا علمتني الحياة):

«وأنا في هذه الخواطر لم أحاول الغموض في صياغتها، ولا التحدث عن المعاني الدقيقة التي تخطر في بال الفلاسفة، ويدعيها بعض المتفلسفين، لقد كتبتها بأسلوب تفهمه العامّة كما تفهمه الخاصة، وكنت فيها منساقاً مع طبيعتي التي تحب البساطة في كل شيء، وتكره التعقيد في أي شيء»[1].

٦ ـ المزاح وحبّ الدعابة:

(كان فكهاً يحب الدعابة، ويضحك من المزاح، ويكثر من قصص النوادر)[2] ـ كما قال أستاذنا العش ـ وكان لهذه القصص أثر بارز في اختياراته من كتب التراث، فلم تكن تخلو حلقة من حلقاتها التي كان ينشرها في المجلة تحت عنوان: فرائد الفوائد، من طرفة أو نادرة. بل لم يكد يخلو مجلس من مجالسه من طرفة يرويها، وأخرى يصنعها.. يسعفه في ذلك بديهة حاضرة، وظرف وعذوبة نفس. وكان للنكات التي تروى بين (الحماصنة) و(الحموية) حظ بارز من تلك الطرائف، وأطرف ما في هذا الباب عنايته بمرويات الحموية على الحماصنة، وليس العكس وهو الحمصي رحمه الله. وكانت طرفة الطرائف في أحد الأيام أنه

---

(١) مقدمة الكتاب، ص٧.

(٢) حضارة الإسلام: العدد الخاص، ص٦٥.

قال تعقيباً على مجموعة من النكات التي رويت أو قيلت في الجلسة في حق الحماصنة ـ وقد هدأ الجمع قليلاً ـ: لا تظنوا أن كل ما يقال عن الحماصنة لا أصل له أو أنهم لم يفعلوه! فقد حيّر بمقالته هذه الجلوس، وذهبوا بها ـ على اختلاف الفرقاء ـ بين الجد والهزل. . . والجمع غارق في الضحك، وهو يضحك من أعماقه!

يقول الشيخ عبد الفتاح أبو غدة ـ في هذا السياق ـ إن الأستاذ السباعي كانت «تتأتّى معه الطرف والنوادر الجميلة، فيحدث بها صحبه وهو يضحك ببراءة نقية قائلاً أضيفوها إلى نوادر الحمصيين»! قال: «ومن ألطف ما كان يصدر عنه في هذا الصدد: ذهولُه الذي يقع له بسبب كثرة مشاغله ودأب تفكيره وجسام مقاصده؛ كدعوته بعض إخوانه إلى طعام ثم نسيانه ذلك! وكدفع ثمن ما يشتريه مؤجلاً أكثر من مرة ظاناً أنه لم يفِ الذي عليه بعد».

وفي حين قال الأستاذ الشيخ عبد الفتاح عن الأستاذ السباعي: «إنه كان يستجيب للدعابة ويجيدها، ولا يبذلها إلا في موطنها»، فإنه أضاف **الملحظ التعليمي والدعوي** التالي في هذه الدعابة، حين قال: «وكم كان يستعين بذلك في محاضراته ودروسه عندما يتوقّع من مستمعيه أن وطأة الجد كانت تثقل عليهم، فتكون شواهده الطريفة بما فيها من ملاءمة للمناسبة درساً جديداً أبلغ من الدرس والمحاضرة، وأنفذ في نفوس السامعين إلى مقاصده ومراميه العالية التي يتحدث عنها، حتى إذا تابع درسه وإلقاءه بعد ذلك عاد حفله إلى متابعة سماعه بهمة جديدة، وذهن متفتح، ونشاط كبير»[1].

ويروى في هذا السياق أنه كان يلقي أحد دروسه في كلية الحقوق ـ وكان يدرّس كما أشرنا: مادة الأحوال الشخصية ـ فقال في معرض حديثه عن الزواج: إن من كان في سن الزواج ولم يتزوج فهو أخ للشياطين! فبادره أحد الطلاب بالسؤال: هل أنت متزوج يا دكتور؟ فأجابه السباعي على الفور: لا . . أنا أخوكم[2]!

كان هذا في الوقت الذي اعتقد كثير من الناس أن التجهم والعبوس جزء من الوقار الذي يجب أن يتحلى به العالم أو الفقيه ـ أو (رجل الدين) إذا أخذنا بمصطلحات الآخرين ـ بل ربما ظن في بعض الأحيان أن هذا هو الوقار بعينه!

---

(١) مجلة حضارة الإسلام: العدد الخاص، ص١٧٢.

(٢) الدكتور مصطفى السباعي لحسني أدهم جرار، ص٤١.

السباعي وصفات القيادة: كلمة أخيرة:

والكلمة التي نختم بها هذا الحديث عن السباعي (الرجل والإنسان) أن صفاته وسجاياه تلك أهّلته لقيادة حركة التجديد والإصلاح في بلاد الشام، أو للنجاح الباهر الذي حققه في هذه القيادة التي كانت عنده كما لاحظنا في نشأته وفي المراحل الأولى من حياته ملكة من ملكات الخلْق والتكوين. وجاءت هذه الصفات والسجايا لتخدم هذه الملكة، أو لتبرزها هذا البروز في نهاية المطاف. ولهذا فإننا نكتفي بهذا وذاك عن أي تأكيد أو حديث آخر عن صفاته القيادية، ولا نضيف إلى ما قدمناه سوى الإشارة إلى قيادته أو عمله القيادي في السجون والمعتقلات، لا لأننا لم نشر إلى هذا حتى الآن.. بل لأننا نرى في هذا العمل برهاناً من أوضح البراهين على مدى امتلاك السباعي لأهلية القيادة وشروطها.. وعلى أن إصلاح النفوس وتقويم العقول كانت المهمة التي أعدّه لها القدَر.. حتى لكأن ذلك كله يجري في عروقه مجرى الدم!

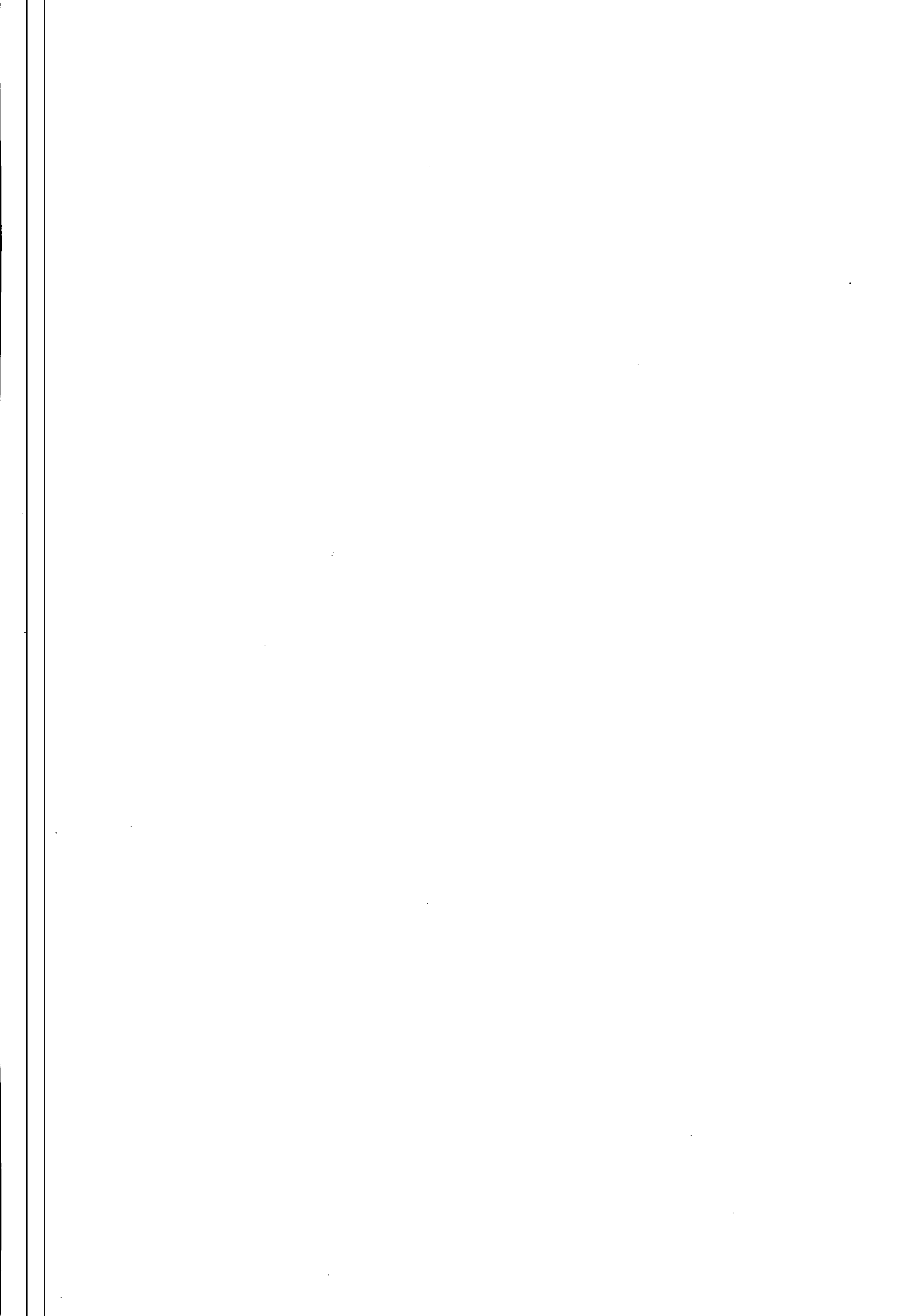
يقول الأستاذ عبد الله المشنوق، الذي سجن مع السباعي في لبنان في (قاووش واحد) وكان سريره إلى جانب سريره ـ لمدة ستة شهور ـ إن معرفة الأشخاص في السجن هي المعرفة الحقيقية، لأن المرء يتجرد فيه من الزخارف، ويظهر أمام زملائه على حقيقته يقول: «وهكذا عرفت الفقيد متجرداً من تلك الزخارف التي يحاط بها الناس في عالمنا» ثم يضيف في حديثه عن الأستاذ السباعي قائلاً:

«لقد نهض بالسجن عندما دخل إلى السجن! لقد كنا نضيع أوقاتنا فجاء رحمه الله وأشاع فينا التقوى، فبعد أن كنا نلهو بلعب النرد أو نلعب الورق أو بالكلام الفارغ، جاء رحمه الله ونهض بنا من هذه التفاهة إلى النباهة، ومن هذا الكلام الفارغ إلى الكلام المفيد، فأصبحنا نتذاكر وأصبح يلقي علينا دروساً في السجن، وأصبح رائدنا وإمامنا وشيخنا وخطيبنا، ومرجعنا في كل أزمة كانت تنتابنا في ذلك السجن..»، ويضيف: «.. لقد ظل صامداً وقضى ما كتب عليه من سجن بصبر عجيب، وكان من حظنا أن يطول به السجن حتى نستفيد منه، وحتى نفيد من علمه ومن فهمه للأمور، وحتى يسمو بنا، بما كان يرويه لنا من علم وأدب، وما كان يبثه من أخلاق عالية سامية أصبحنا نشعر وكأننا عائلة واحدة»[1].

* * *

(١) حضارة الإسلام: العدد الخاص، ص١٨٣.

الرّحيلُ



الرحيل

قام الأستاذ السباعي بأداء شعائر الحج مرتين قبل أن يصيبه المرض الذي تحدثنا عنه، الأولى عام ١٣٦٤هـ والثانية في عام ١٣٧١هـ - كما قام في شهر رجب من عام ١٣٧٥هـ قبل مرضه بعامين بزيارة البلاد المباركة في الحجاز مع بعثة من أساتذة كلية الشريعة وطلابها في الجامعة السورية - ويبدو من خلال الخواطر التي كتبها في اليوم التاسع من ذي الحجة عام ١٣٨١هـ، وكان قد مضى على مرضه أكثر من أربع سنين، مدى اشتياقه لأداء مناسك الحج مرة أخرى. ومدى رجائه في أن يستجيب الله تعالى لدعاء من يدعو له بالشفاء في عرفات وفي تلك الأماكن والأوقات..

قال في بعض تلك الخواطر: «إذا قسم الكريم عطاياه على المحرومين، وعفا الرحيم عن أسراه من المذنبين، ومنح القوي حمايته للعاجزين، وأضفى الحليم رحمته على المتمرّدين.. أبى له كرمه أن يخصّ الواصلين إليه دون المنقطعين، والقريبين منه دون البعيدين، والمسرعين إلى تلبيته دون المتخلّفين؛ فما سار من سار إليه إلا بعونه، ولا تخلف من تخلّف عنه إلا بقضائه، ولا عجز من عجز عن الرحيل إليه إلا ببلائه، ولا أسرع من أسرع في الوصول إليه إلا بمعافاته. وحسب من تخلّف عجزاً، وتلكأ ابتلاء: صدق الحبّ مع صفاء الودّ، وعظيم الشوق مع بالغ اللهفة، وإعلان الطاعة ولو مع العيِّ في البيان، وإخلاص النيّة ولو بعد لأي وتوان، وحسبنا منه أنه اللطيف الخبير المنّان»[1].

ومما قاله كذلك في خاطرة أخرى شِعرية ذكر فيها المناسك التي يقوم بأدائها الحجاج..

رَبِّ قَدْ حِلْتَ بَيْنِي وبَيْنَهُمُ اليَوْمَ ... بِرُغْمِ الأشْوَاقِ والحَسَرَاتِ
فَاغفِرَنْ زَلَّتي لَدَيْكَ وبَارِكْ ... عَزَمَاتي، ولا تُطِلْ مِنْ شَكَاتي
وَاكْتُبَنْ لِي عَوْداً لِتِلْكَ الدِّيَا ... رَاتِ وفَيْضاً مِنْ تِلْكُمُ الرَّحَمَاتِ[2]

---

(١) الفقرة ٤٠٧ من كتابه هكذا علمتني الحياة.

(٢) الفقرة ٤١١.

ثم قرر رحمه الله هذه العودة بعد عامين في موسم حج ١٣٨٣هـ بعد أن برّحت به الآلام في شهر رمضان من هذا العام (وبخاصة في أواخر لياليه المباركة) حتى كان يقضي كثيراً منها دون أن يستطيع نوماً، فاستغاث بالله جل شـأنه في قصيدة مطلعها:

يا سائقَ الظَّعْنِ نَحْوَ البَيْتِ والحَرَمِ ونَحْـوَ طَيبــةَ تَبْغِـي سَيِّـدَ الأُمَـمِ

قال: «وكنت في كل ليلة يؤرقني فيها شدة الألم أزيد في تلك القصيدة حتى تم منها حينئذ ما يقرب من مئة بيت» وحين جاءت أشهر الحج، وبدأ من لبّوا نداء الله بالسفر إلى بيته الحرام، وكانت معاناته من شدة المرض تزداد يوماً بعد يوم.. خطر له فجأة أن يشاركهم في عناء سفرهم، قال: «عسى أن أشاركهم في تنزل رحمات الله عليهم ورضوانه عنهم عشية عرفات كما وردت بذلك الآثار الصحيحة»، ولم يستطع الأهل والأصدقاء أن يثنوه عن عزمه لما يرونه من ضعفه وعجزه عن السير وحده في تلك الأيام التي اشتد عليه فيها المرض. قال رحمه الله: «لا بد من السفر إلى الحج، وليكن من أمر الله ما يكون، فإن كتب لي العودة سالماً عدت غانماً، وإن قضى فيَّ أمره هناك فيا حبذا الموت في ديار الأحبة، وأنعم به من لقاء اشتد الشوق إليه!»[1].

وهكذا غادر دمشق متوجهاً إلى المدينة المنورة في ٢٣ من ذي القعدة ١٣٨٣هـ ـ الموافق للخامس من نيسان (إبريل) ١٩٦٤م. ووجد من تيسير أسباب الحج في جميع مراحله، ومن تحسن صحته ما حمله على القول «إن الله أكرمني في إلهامي بفكرة الحج أنواعاً من الكرامة لم يخيب فيها أملي برحمته ومعونته» حتى إنه قضى في فترة الحج هذه أياماً لم يعرف مثلها خلال مرضه الطويل! يقول: «فلأول مرة منذ سبع سنين يهدأ الألم في دماغي، وأقوى على الصلاة واقفاً على قدميّ، وأجلس للتشهد فيها على الرخام القاسي كما يجلس الصحيح المعافى، ولقد قدمت مكة فطفت طواف العمرة محمولاً على المحفة، ثم غادرتها وطفت طواف الوداع ماشياً على قدميَّ...»[2].

---

(١) مقالته الأخيرة في مجلة حضارة الإسلام بعنوان: (رحلة إلى الله ورسوله)، ص٢٩، العدد الثالث من السنة الخامسة جمادى الأولى ١٣٨٤هـ، وأيلول (سبتمبر) ١٩٦٤.
(٢) المصدر السابق، ص٣١.

ويجدر بالذكر هنا أنه في الوقت الذي لم يستطع الالتزام بالحمية الغذائية الضرورية لمرضى السكري أثناء مقامه بالحجاز، كان يتصبح كذلك في كل يوم بسبع تمرات ـ من تمرات المدينة ـ إيماناً بصحة الحديث الذي ينص على أن من فعل ذلك «لم يضره في ذلك اليوم سمٌ ولا داء» بل ربما تناول في بعض الأحيان شيئاً من العسل.. ومع هذا كله ـ وبعد أن مضى على مغادرته دمشق نحواً من خمسة أشهر ـ لم يظهر أي أثر للسكري في تحليل البول أو الدم. لقد دافع السباعي في كتابه: (السنة..) عن الحديث المشار إليه في وجه من تكلم فيه وحاول التشكيك بصحته.. وكان سلاحه في ذلك: الرواية والعلم والعقل[1]، وها هو الآن يؤكد صحة هذا الحديث أو يدافع عنه بواقع التجربة، وإن شئت قلت: بلسان الروح، وسلاح العقيدة والإيمان.

لم يدر الأستاذ السباعي وهو يتحدث عن حجته الثالثة هذه، والتي دوّن بعض انطباعاته عنها في مقالته: (رحلة إلى الله ورسوله) ـ ووعد القرّاء في ختامها بأن يحدثهم في مقالة تالية عن مشاهداته في الحج ـ أن هذه المقالة سوف تكون المقالة الأخيرة.. وأن ما أكرمه الله تعالى به في هذه الرحلة أو في (حجة الوداع) هذه كان القنطرة الواصلة بين عالم الشهادة وعالم الغيب، وأن معالم الشفاء التي بدت عليه كانت الالتماعة الأخيرة التي تسبق انطفاء المصباح! لم يكن موعده القادم في رحاب مكة أستاذاً.. ولكن في رحاب الله عائداً إلى مولاه.. حيث ضم جسده الطاهر حفنة من تراب دمشق التي أحبّها وأحبّته رحمه الله.

توفي السباعي ظهر يوم السبت الواقع في السابع والعشرين من جمادى الأولى ١٣٨٤هـ ـ الموافق للثالث من تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٦٤م. وقد نشر مقالته المذكورة (رحلة إلى الله ورسوله) في العدد الثالث ـ السنة الخامسة ـ من مجلته (حضارة الإسلام) الصادر في الشهر السابق: أيلول (سبتمبر) أما افتتاحية هذا العدد فكانت بعنوان (**الطريق الصحيح لحل مشكلاتنا**) وذكر فيها ملاحظاته على مؤتمر القمة العربي الثاني، وقال فيها إن هذا العصر عصر الشعوب، وأن الحكومات ليست إلا ممثلة لإرادتها وناطقة باسمها، وقال كذلك: إن السلاح المادي وحده لا يكفي لإحراز النصر في معركتنا مع الصهيونية والاستعمار، ومن

---

(١) انظر دراسته للحديث المذكور برواياته المتعددة: الصفحات: ٢٨٢ ـ ٢٨٥.

أجل حل مشكلة العرب الأولى: مشكلة فلسطين. وقد ختم هذه الافتتاحية بقوله:

«يا شباب الإسلام! افتحوا أعينكم على الحقائق التي بصّركم بها ربكم في كتابه، ورسولكم في سنّته، وسار على هديها أسلافكم فكانوا قادة الدنيا وسادة العالمين ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٤].

لقد كان آخر نداءٍ للحياة قبل أن يودع هو الحياة، ويطوي شخصَه الموت.. رحمه الله.

أما جنازته التي انطلقت من بيته في حي أبي رمانة بدمشق قبل ظهر اليوم التالي لوفاته رحمه الله: فإن ألوف الشباب الذين تجمعوا في الشوارع والساحات المحيطة ببيته منذ الصباح الباكر وسط البكاء والأنين ـ وبعضهم حضر من الليل ـ مضوا بها محمولة على الأكف إلى جامع بني أمية الكبير، حيث صُلي على جثمانه الطاهر بعد صلاة الظهر. وقد غص المسجد على اتساعه بعشرات الألوف، وعلى نحو غير معهود منذ عشرات السنين.. وكان الشعور بالفجيعة وفراغ الساحة يملأ النفوس وموكب الجنازة يتقدم ببطء نحو مقبرة الباب الصغير التي ضمت الكثير من أجساد الصحابة والتابعين.. واختلط تكبير الشباب ـ الذين لم يستطيعوا السيطرة على مشاعرهم ـ وهتافاتُهم بأصوات الأنين والنشيج.. وكان يوماً كسيفاً دخل فيه الحزن على ما دخل عليه الليل. وكانت الجنازة بحراً زاخراً من البشر ابتعدت المسافات فيه بين النعش الذي كان يمشي بين يديه كوكبة من علماء الشام، وبين أفواج الشباب التي كانت تهتف وتعاهد السباعي على المضي من بعده على الطريق.

وقد صوّر الأستاذ عبد الرحمن خليفة أخو الأستاذ السباعي ورفيقه في الدعوة، طرفاً من موكب الجنازة، في هذه الكلمات المعبّرة التي خاطب بها أخاه ورفيق دربه الطويل. قال حفظه الله:

«شاهدت دمشق الفيحاء تشيعك إلى مثواك الأخير، وكنت إنسان عينها، وحبة القلب منها، تبصّرها الطريق، وتصول في سبيل حريتها وهدايتها.. لا تبالي بالنتائج كيف تكون، فضنّت عليك دمشق بالسفر الذي كنت تزمعه، والفراق الذي كنت تريده، والموطن الجديد الذي كنت تتمناه. وأبى عليها حبّها

لـك إلا أن تضمك في أحشـائها، وتغيّبك في سـويداء قلبها بجوار العلماء الصالحين من أبنائها . .

«وكأني ـ حين مشيت مطرقاً في موكب جثمانك الطاهر ـ كنت أشاهد الآكام المطلّة على مقبرة الباب الصغير تشيعك معنا بصمت الوقار، وتبكي مع الباكين، وتنطلق قائلة مع القائلين : إلـٰهي لقد جاءتك روح كريمة من أرواح الصالحين فأكرمها، ورجعت إليك بعد حياة حافلة بجليل الأعمال ومقبول الجهاد فارض عنها . . . »[١] .

ورحم الله الأسـتاذ الدكتور محمد الفاضل حين قـال في زميله الأسـتاذ السباعي : «فلا والله ما بقيت ريحانة من رياحين الغوطتين إلا تمنّت أن تكون ضفيرة من ضفائـر المجد على جبينه، ولا والله ما بقيت مزنة طيبة عطرة من سـحائب رياض الفيحاء إلا رَجَت أن يُضَمَّخ بها جثمانه، أو أن يُندّى بها ضريحه»[٢] رضي الله عنه وأرضاه .

أما هذا الضريح فلم يكن أكثر من جَدَث متواضع ضم هذا الفارس العلم من فرسان الدعوة الإسلامية إلى جانب نفر من العلماء والصالحين، منهم الشيخ عبد الكريم الرفاعي[٣]، والشيخ عبد الوهاب الصلاحي، والشيخ عبد الرزاق الحمصي . . وغيرهم، رحم الله الجميع .

. . . وشعرت وأنا أرى تراب القبر يُسوَّى على جسده الطاهر أن عالماً فسيحاً يمتد من حولي فيغرقني ـ في زحمة أصوات الداعين والمهلّلين ـ في سكونٍ أنيسٍ تشيع فيه البهجة ويملؤه الحبور . . حتى كأن ساحات المقبرة ودروبها أضحت روضة من رياض الجنة . . وقفلت راجعاً وكأن أرواحاً من الملأ الأعلى ومنازل الآخرة تظلّلني مع سائر المشيّعين .

---

(١) مجلة حضارة الإسلام : العدد الخاص، ص٣٧ .

(٢) المصدر السابق، ص٥٨ .

(٣) كانت وفاة الأستاذ الشيخ عبد الكريم الرفاعي في عام ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م وكان أحد علماء دمشق الذين شاركوا في تشييع الأستاذ السباعي، ودفن بعد ذلك إلى جانبه وجانب العلماء الآخرين، رحم الله الجميع . وانظر المقالة التي كتبناها عن أستاذنا المربي الداعية الشيخ عبد الكريم في مجلة حضارة الإسلام، العدد ٢، السنة ١٤ ربيع الثاني ١٣٩٣ وأيار (مايو) ١٩٧٣م .

رحم الله مصطفى السباعي . . وأعلى مقامه في عليّين .

* * *

. . وألقى الشاعر الأستاذ محمد الحسناوي قصيدة في تأبينه ساعة الدفن تبلغ نحواً من أربعين بيتاً وقد استهلّها بهذه الأبيات :

أرَحَلْتَ حَقّاً يا أبا حسَّانِ ... مِنْ غَيْرِ ما نَبَأٍ وَلا إعْلانِ
أرَحَلْتَ في وَضْحِ النَّهارِ ونحنُ أَعْـ ... ـدادُ النُّجوم وعُدَّةُ الأزمانِ
أرَحلْتَ لَولا شِئْتَ فَدّيناكَ يا ... حِبَّ القُلوبِ بأكْبُدِ الإخْوَانِ
لَو شِئْتَ عبَّدنا الطَّريقَ، فما مَشَيْتَ ... ولا اتَّجَهْتَ على سِوَى الأبْدَانِ
لَو شِئْتَ آنسنَاك آلافاً مُؤْ ... لَّفَةً، تهُزُّ مَعَاقِلَ الطُّغيانِ
أنَا لا أصدِّقُ، لا أطيقُ، ولستُ ... أسمعُ رَنَّةَ النَّاعينَ في الآذانِ

وختمها بقوله :

كيفَ العزاءُ وكنتَ أنتَ عَزاءَنا ... يا أيُّها المشدودُ بالأكفانِ!
أوَلستَ مَنْ هزَّ المنابِرَ والعُرو ... شَ، وزلزلَ الطَّاغوتَ بالإيمانِ
فانْهضْ فَدَيتُكَ لا تجاذِبْكَ الخُيو ... طُ، وأنتَ فارسُ حَوْمَةٍ وطِعَانِ
أنا لا أصدِّق، لا أطيقُ، ولستُ ... أسمعُ رنَّةَ النَّاعينَ في الآذانِ

ثم كانت له قصيدة تزيد على خمسين بيتاً بعنوان (الأمل الشهيد) نظمها بمناسبة مرور عام على وفاته رحمه الله، قال فيها :

أتحلو لي دمشقُ وقد تولَّى ... أبو حسانَ كالأملِ الشهيدِ
تولَّى فالأصائِلُ والأماسي ... يَتِيْمَاتٌ بأحداقِ الوجودِ
ودربي ذلك السَّامي إليه ... تطاولَ في الجَفاءِ وفي الصّدودِ
أقلِّبُ ناظري طيّاً ونشراً ... فتنشرُني وتطويني قيودي
فما للدَّارِ غامَتْ لا أراها ... وما للباب يَرسفُ بالحديدِ
وكنتُ أزوره نَهلاً وعَلاً ... فأرجِعُ بالنَّميرِ وبالرَّغيدِ
أقولُ لعَبرتي: هذي شآمي ... وأحبابي وتَذكارِ العهودِ
وهذا (قاسيونُ) يتيه مجداً ... وهذي الشمسُ تسطعُ من جديدِ
وتلك مطارحي ترنو اشتياقاً ... وذا (بردى) المصفِّقُ بالنَّشيدِ

فَتَشْـرَقُ عَبْـرَتِـي، وَيَطِيـشُ سَهْمِـي وَتَلطُمُنـــي تَبَـــارِيْـــحُ الجُحُـــودِ

. . . .

لئـن طلعـتْ شمـوسٌ سـاطعـاتٌ وأرسـلَ شـاعـرٌ أحلـى قصيـدِ

فمـا فـي الشَّـامِ مِـنْ لَحـنٍ يُغنَّـى ولا فـي الـرَّوْضِ مِـنْ طيـرٍ سعيـدِ

. . . .

نعم.. ولا يعلم إلا الله أعداد الذين يشاركون الأخ الشاعر أحاسيسه ومشاعره.. ويقولون معه مثل ما يقول...

* * *

وتتردد الآن في خاطري هذه الأبيات التي ختم بها كاتب الشرق الأكبر، وعلم الإسلام الخفّاق عطوفة الأمير شكيب أرسلان قصيدته في رثاء العلاّمة المحقق فقيد الإسلام والعربية أحمد تيمور باشا، وكأنها قيلت في رثاء الداعية المصلح فقيد العروبة والإسلام مصطفى السباعي:

رَحلتَ إلى الدَّار التي أنتَ أهلُها مكانُك فيها مشرقُ الوجهِ سافِرُهْ

ولا بأسَ مِنْ هَوْلِ الحِسَابِ عَلى امرئٍ لـه زَرَدٌ مِـنْ نَسْـج أيـديـه نـاصِـرُهْ

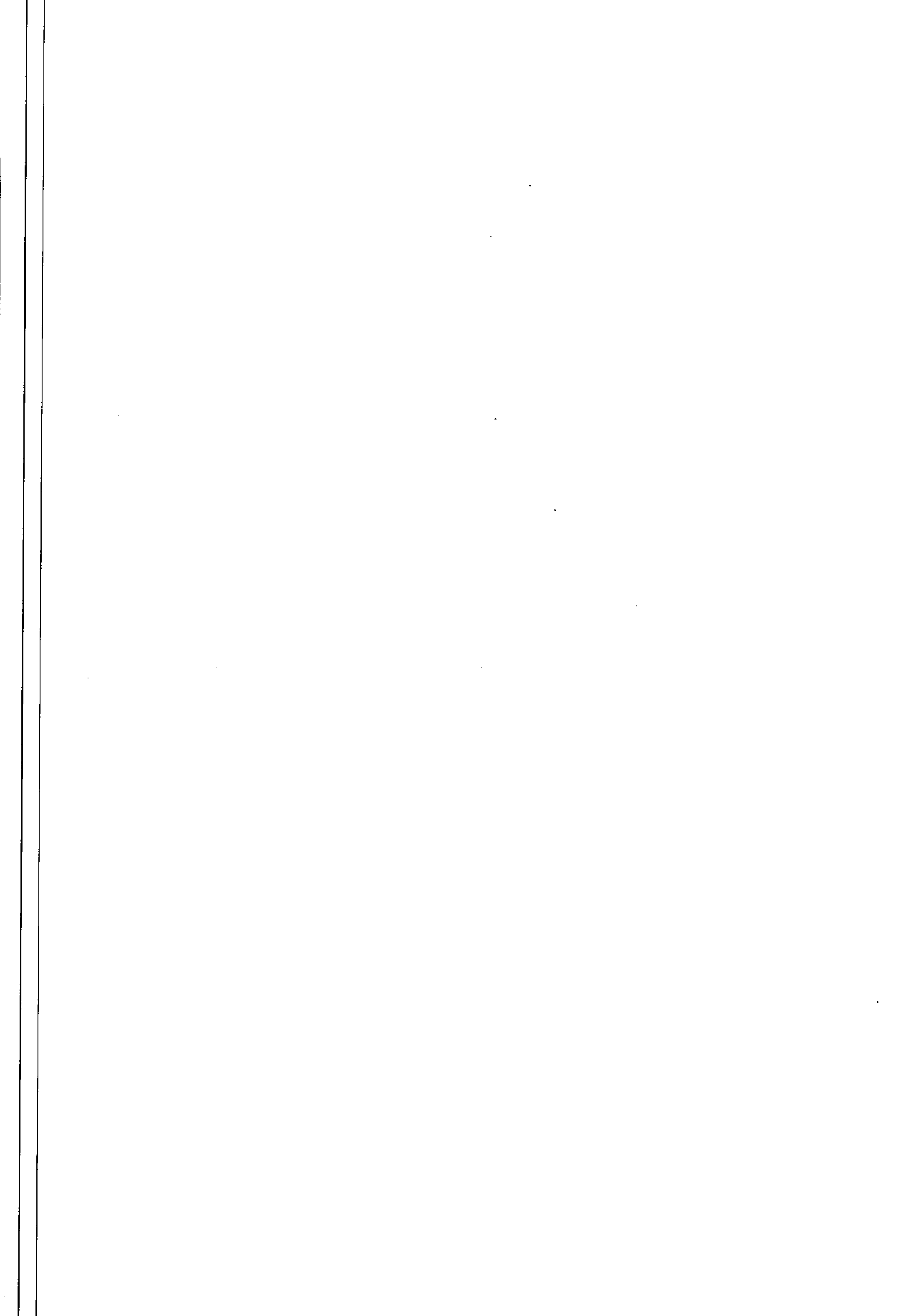
عليـكَ سَـلامُ اللهِ مـا لاحَ بَـارِقٌ وجَادَ ثراكَ الغيثُ ما سحَّ ماطِرُهْ

على النَّاسِ دَيْـنٌ مِـنْ ثَنـائِـكَ لازمٌ يـؤدُّونـه مـا يـذكـرِ الحَـقَّ ذاكِـرُهْ

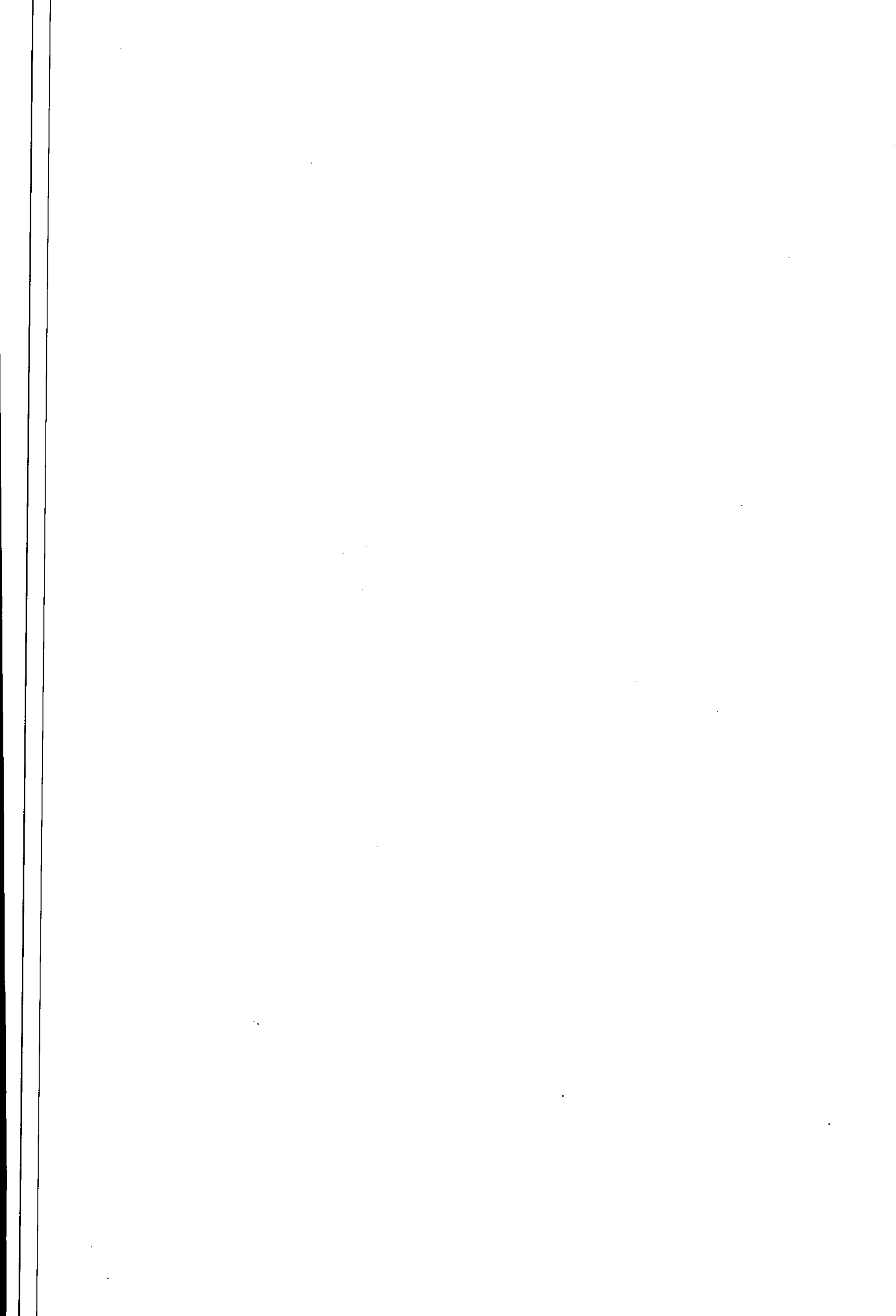
هذا، وما رأيتُني أشد كلفاً وإعجاباً منّي بهؤلاء الأعلام الثلاثة: شكيب أرسلان، وأحمد تيمور باشا، ومصطفى السباعي. ولم ألق منهم سوى شيخنا الدكتور السباعي، رحم الله الجميع.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

* * *



فهرس الأعلام والأحزاب والطوائف والجمعيات



المصادر والمراجع

١ ـ الكتب:

ـ الأحزاب والجمعيات السياسية في القطر السوري من أواخر القرن التاسع عشر إلى سنة ١٩٥٨، عبد الجبار حسن الجبوري، دار الحرية ـ بغداد، ١٩٨٠.

ـ الأحزاب والحركات والجماعات الإسلامية، إعداد المركز العربي للدراسات الاستراتيجية بدمشق، الطبعة الثالثة ـ دمشق، ٢٠٠٠.

ـ الأحزاب الشيوعية في البلاد العربية، لإلياس وقص.

ـ الإخوان المسلمون في حرب فلسطين: الجبهة المصرية: كامل الشريف، والجبهة السورية: د. مصطفى السباعي، دار التوزيع والنشر الإسلامية، الطبعة الثانية ـ القاهرة، ١٩٨٤.

ـ الإخوان المسلمون كبرى الحركات الإسلامية الحديثة، الدكتور إسحاق موسى الحسيني، دار بيروت للطباعة والنشر، الطبعة الثانية، ١٩٥٥.

ـ أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث، للأستاذ الدكتور فهمي جدعان، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الثانية ـ بيروت، ١٩٨١.

ـ الإسلام في رسالتيه المسيحية والمحمدية، أنطون سعادة، منشورات الحزب السوري القومي الاجتماعي، الطبعة الرابعة ـ بيروت، ١٩٧٧.

ـ الإسلام والمستشرقون، أبو الحسن الندوي، المجمع الإسلامي العلمي ـ لكنو، الهند، ١٩٨٢.

ـ الأعلام، للزركلي، الطبعة السابعة، ١٩٨٦.

ـ أكرم الحوراني: دراسة حول السياسة السورية ما بين عامي ١٩٤٣ ـ ١٩٥٥ جوناكان أوين.

ـ البعث، للدكتور سامي الجندي، دار النهار للنشر ـ بيروت، ١٩٦٩.

- بيم موج (في اللجّة)، للدكتور الرئيس محمد خاتمي، دار الجديد، الطبعة الثالثة - بيروت، ١٩٩٩.

- تاريخ المغرب الكبير، د. جلال يحيى، دار النهضة العربية - بيروت، ١٩٨١.

- تجديد التاريخ، للأستاذ الدكتور عمر فروخ، دار الباحث - بيروت، ١٩٨٠.

- تجربة عربي في الحزب الشيوعي، قدري قلعجي.

- الثقافة الإسلامية في الجامعات، د. عدنان محمد زرزور، المكتب الإسلامي - بيروت، ١٩٩٠.

- جذور الفكر القومي العلماني، د. عدنان محمد زرزور، الطبعة الثالثة، المكتب الإسلامي - بيروت، ١٩٩٩.

- حسن البنّا: مبادئ وأصول في مؤتمرات خاصة، المؤسسة الإسلامية للطباعة والصحافة والنشر، الطبعة الأولى - القاهرة، ١٩٨٠.

- حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، للأستاذ عباس محمود العقاد، دار الكتاب العربي، الطبعة الثالثة - بيروت، ١٩٦٦.

- خالد بكداش يتحدث، إعداد السيد عماد نداف، الطبعة الأولى - دار الطليعة.

- دروس في دعوة الإخوان المسلمين، د. مصطفى السباعي، منشورات قسم الطلاب - دمشق، ١٩٥٥.

- دلائل الإمامة، لابن رستم الطبري الإمامي، منشورات المطبعة الحيدرية بالنجف، ط٢، ١٩٦٣.

- دليل الصحافة العربية، ناجي نعمان، دار نعمان للثقافة - لبنان، ١٩٨٨.

- الدكتور مصطفى السباعي قائد جيل ورائد أمّة، للسيد حسني أدهم جرار، دار البشير - عمّان، ١٩٩٤.

- الدين والفكر في شراك الاستبداد، للرئيس الإيراني الدكتور محمد خاتمي، ترجمة ماجد الغرباوي، دار الفكر - دمشق، ٢٠٠١.

ـ ذيل الأعلام، للسيد أحمد علاونة، دار المنارة ـ جدّة، ٢٠٠٠ .

ـ سورية والعهد الفيصلي، للسيد يوسف الحكيم، دار النهار للنشر، الطبعة الثالثة ـ بيروت، ١٩٨٦ .

ـ شرح ديوان المتنبي، عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي ـ بيروت، ١٩٨٠ .

ـ الصراع على سورية، باتريك سيل، ترجمة سمير محمود فلاحة، طلاس للدراسات والترجمة والنشر ـ دمشق، ١٩٨٣ .

ـ الصراع على السلطة في سورية: الطائفية والإقليمية والعشائرية في السياسة: ١٩٦١ ـ ١٩٩٥، للدكتور نيقولاس ڤان دام، مكتبة مدبولي، ط٢، حزيران ١٩٩٥ ـ القاهرة.

ـ عبقرية محمد، للأستاذ عباس محمود العقاد، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ـ القاهرة، ١٩٩٩ .

ـ عبقرية عمر، عباس محمود العقاد، منشورات المكتبة العصرية، صيدا ـ بيروت، بدون تاريخ .

ـ عبقرية الإمام علي، عباس محمود العقاد، منشورات المكتبة العصرية صيدا بيروت، بدون تاريخ .

ـ علماء ومفكرون عرفتهم، للأستاذ محمد المجذوب .

ـ فتاوى معاصرة، للشيخ يوسف القرضاوي، الطبعة الثانية، دار الوفاء ـ مصر، ١٩٩٣ .

ـ فصول في علوم القرآن، د. عدنان محمد زرزور، المكتب الإسلامي ـ بيروت، ١٩٩٨ .

ـ الفكر السياسي الإسلامي المعاصر، د. أحمد عنايت، ترجمه عن الفارسية وراجعه على النص الإنجليزي الدكتور إبراهيم الدسوقي شتا، مكتبة مدبولي ـ القاهرة.

ـ الكافي، لأبي جعفر الكليني، علّق عليه علي أكبر الغفاري، دار الكتب الإسلامية ـ طهران.

- مختصر التحفة الإثني عشرية، لشاه عبد العزيز غلام حكيم الدهلوي - استانبول، ١٣٩٩هـ.

- مذكّرات الجمعية التأسيسية: المطبعة والجريدة الرسمية - دمشق.

- مذكَّرات أكرم الحوراني: حلقات نُشرت في جريدة القدس العربي - لندن.

- مذكّرات سائح في الشرق العربي، لأبي الحسن الندوي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة - بيروت، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

- المشرق العربي في مواجهة الاستعمار، للدكتور ذوقان قرقوط، الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة، ١٩٧٧.

- مصطفى السباعي بأقلام محبّيه وعارفيه، إعداد محمد بن مصطفى السباعي، دار الورّاق للنشر والتوزيع - بيروت/ الرياض، ٢٠٠٠.

- مصطفى السباعي الداعية الرائد والعالم المجاهد، عبد الله محمود الطنطاوي، دار القلم - دمشق، ٢٠٠١.

- معجم البلدان، لياقوت الحموي، دار صادر - بيروت، ١٩٨٤.

- من أصول الفكر السياسي الإسلامي، للدكتور محمد فتحي عثمان، مؤسسة الرسالة - بيروت، ١٩٧٩.

- من أعلام الحركة والدعوة الإسلامية المعاصرة، عبد الله عقيل، مكتبة المنار الإسلامية - الكويت، ٢٠٠١.

- منهاج السنّة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية، لشيخ الإسلام ابن تيمية، أعادت نشره مكتبة الرياض الحديثة.

- نشوء الأمم، أنطون سعادة، منشورات الحزب السوري القومي الاجتماعي - بيروت.

- نظام الطائفية: من الدولة إلى القبلية، للأستاذ الدكتور برهان غليون، المركز الثقافي العربي - بيروت، ١٩٩٠.

- النكبات والمغامرات: تاريخ ما أهمله التاريخ من أسرار الانقلابات السورية، للصحفي بشير فنصة - دمشق.

- يثرب الجديدة: الحركات الإسلامية الراهنة، للكاتب محمد جمال باروت، رياض الريّس للكتب والنشر - لندن، ١٩٩٤ .

- يقظة العرب، جورج أنطونيوس، ترجمة د. ناصر الدين الأسد والدكتور إحسان عباس، الطبعة السابعة، دار العلم للملايين - بيروت، ١٩٨٢ .

- يوم ميسلون، للأستاذ ساطع الحصري، منشورات دار الاتحاد، طبعة جديدة - بيروت، بدون تاريخ .

- يوميات، للأستاذ عباس محمود العقاد، دار المعارف بمصر، الطبعة الرابعة، ١٩٨٤ .

[بالإضافة إلى كتب الأستاذ السباعي ورسائله التي عرَّفنا بها في الكتاب] .

٢ - المجلات :

- الفتح، القاهرة .

- الرسالة، القاهرة .

- المسلمون، القاهرة - دمشق .

- حضارة الإسلام، دمشق .

- الثقافة العالمية، الكويت .

- أبواب، لبنان .

- الوسط، لندن .

٣ - الصحف :

- المنار، دمشق .

- الشهاب، دمشق .

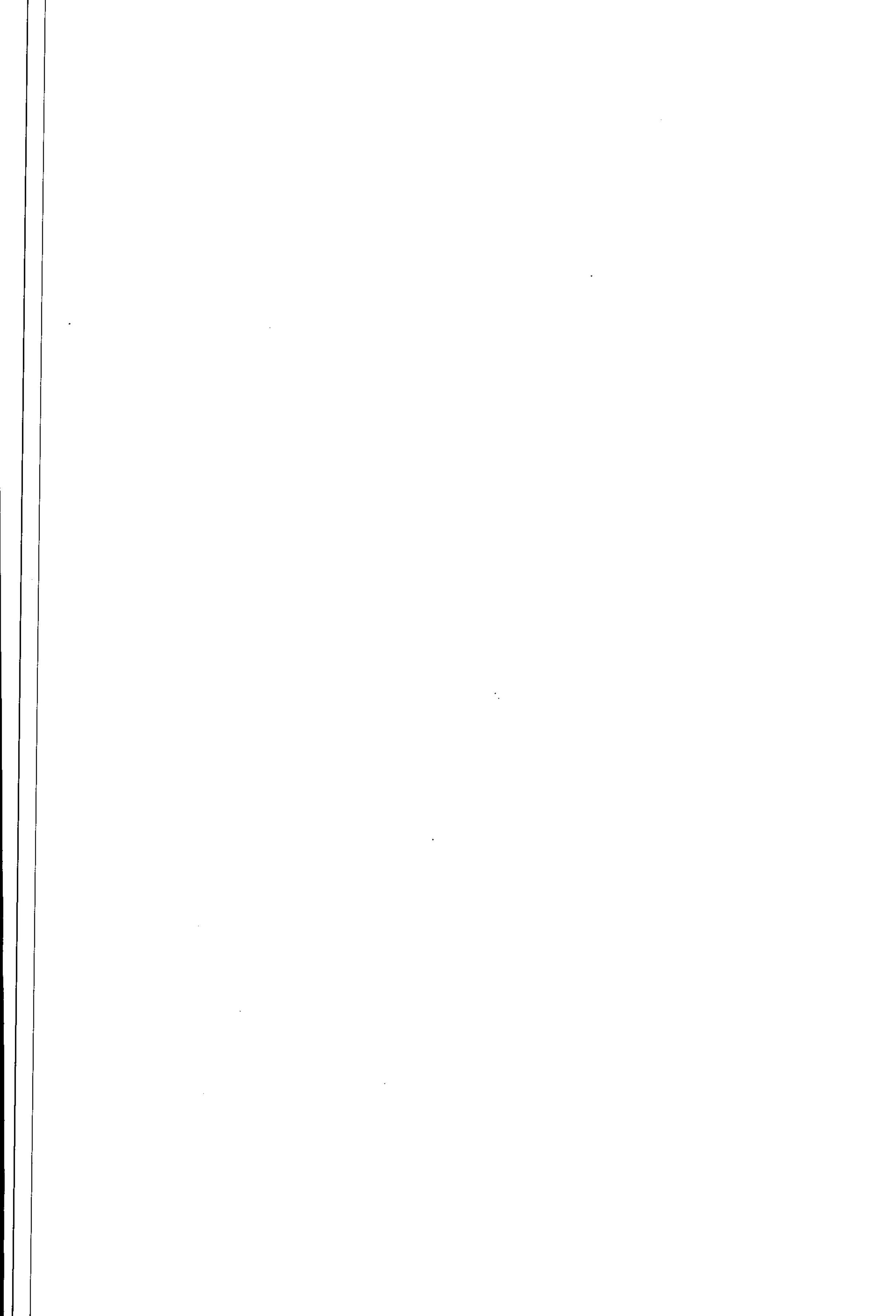
- الحياة، لندن .

- القدس العربي، لندن .

- الخليج، الشارقة .

- الشرق، الدوحة .

* * *



الفهرس

* * *

المؤلّف في سطور

● من مواليد مدينة دمشق: كانون الثاني (يناير) ١٩٣٩م

● تلقى تعليمه الأساسي في مدارس الجمعية الغرّاء التي كانت تعنى بالعربية والعلوم الشرعية.

● درس الشريعة والحقوق، وتخرّج في الشريعة من جامعة دمشق في حزيران (يونيه) ١٩٦٠م. وكان أول خريج يحصل على تقدير جيد جداً مع مرتبة الشرف الثانية.

● عمل في التعليم الإعدادي والثانوي لمدة عامين، ثم عُيّن معيداً في الجامعة.

● تفرّغ للدراسة العليا بدار العلوم ـ جامعة القاهرة من مطلع عام ١٩٦٤ وحصل منها على درجتي الماجستير والدكتوراه. وناقش رسالة الدكتوراه بتاريخ ١٠/ ٥/ ١٩٦٩م وكان على رأس المناقشين العلاّمة الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله، وقد أجيزت الرسالة بمرتبة الشرف الأولى بإجماع الآراء.

● عمل في التعليم الجامعي بدءاً من عام ١٩٦٩ ـ ١٩٧٠م في جامعة دمشق والجامعة الأردنية، ثم في جامعة الإمارات العربية المتحدة وجامعة قطر. وترقّى إلى درجة أستاذ عام ١٩٨٠م وشغل خلال هذه الفترة بعض المناصب الإدارية ـ العلمية، ويعمل الآن أستاذاً بقسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية ـ كلية الآداب بجامعة البحرين.

● أهم كتبه المنشورة: ١ ـ متشابه القرآن للقاضي عبد الجبار (مجلدان): تحقيق. ٢ـ الحاكم الجشمي ومنهجه في تفسير القرآن. ٣ـ مدخل إلى القرآن والحديث. ٤ـ فصول في علوم القرآن. ٥ـ جذور الفكر القومي والعلماني. ٦ـ في الفكر والثقافة الإسلامية. ٧ـ مقالة في المعرفة. ٨ـ إنسانية الثقافة

الإسلامية. ٩ـ الثقافة الإسلامية في الجامعات. ١٠ـ الثقافة الإسلامية وطبيعة التفكير والتجديد. ١١ ـ مدخل إلى تفسير القرآن وعلومه.

● وأهم بحوثه العلمية: ١ـ عالمان اثنان لا ثلاثة. ٢ـ التاريخ بين ثقافتين. ٣ـ التوجيه الإسلامي للعلوم: مفهومه وأهدافه. ٤ـ التأويل عند ابن تيمية في سياقه التاريخي. ٥ـ منهجية التعامل مع علوم الشريعة في ضوء التحديات المعاصرة. ٦ـ خصائص الخطاب الحصري ومقارنته بخصائص الخطاب العالمي في القرآن الكريم. ٧ـ سمات البلاغة النبوية بين الجاحظ والرافعي والعقاد. ٨ـ بين مفهوم المعجزة وإعجاز القرآن: نظرات نقدية. ٩ـ تكريم الإنسان في النظام التربوي في القرآن. ١٠ـ مفهوم (البدعة) في الثقافة الإسلامية. ١١ـ نظرات في البعد الزماني لنزول القرآن. ١٢ـ الجسور ونقاط الاتصال بين الحضارتين الإسلامية والأوروبية: (منهج ومثال). ١٣ـ رفد عقدي وثقافي لحضارة العصر. ١٤ـ سلامة القرآن من التحريف وتنزيهه عن الباطل. بالإضافة إلى عشرات المقالات في الصحف والمجلات.

* * *

مُلحق الصُّوَر



مصطفى السباعي



الخطيب الثائر.. الصرخة الحرة



السباعي يلقي كلمته على مدرج الجامعة السورية في حفل افتتاح كلية الشريعة



السباعي يلقي كلمة في مجلس النواب، وقد رأس الجلسة السيد رشدي كيخيا
وعلى يمينه الأستاذ محمد المبارك



السباعي يدوّن بعض الملاحظات، وعلى يمينه الشيخ أحمد الدقر
وعلى يساره الأستاذ محمد عبد الرحمن خليفة



السباعي يتوسط مجموعة من الطلبة العرب والمسلمين خلال زيارته لأوروبه



مجموعة أخرى من الطلبة مع الأستاذ السباعي في أوروبه



علّامة الشام الشيخ محمد بهجة البيطار يصغي إلى محدِّثه الأستاذ السباعي
وعلى يمينه الأستاذ محمد المبارك، وعلى يساره الشيخ أحمد القاسمي



الأستاذ مصطفى الزرقا يتحدَّث في ندوة عقدت بقاعة كلية التجارة بجامعة دمشق
حول كتاب الأستاذ السباعي (اشتراكية الإسلام)
وعلى يمينه الأستاذ السباعي والأستاذ محمد المبارك



في المؤتمر الإسلامي المسيحي: الأستاذ السباعي يشرب الشاي في الاستراحة والأستاذ محمد المبارك يتحدث مع أحد الأعضاء



السباعي يتحدث مع مندوب إحدى الصحف في لبنان



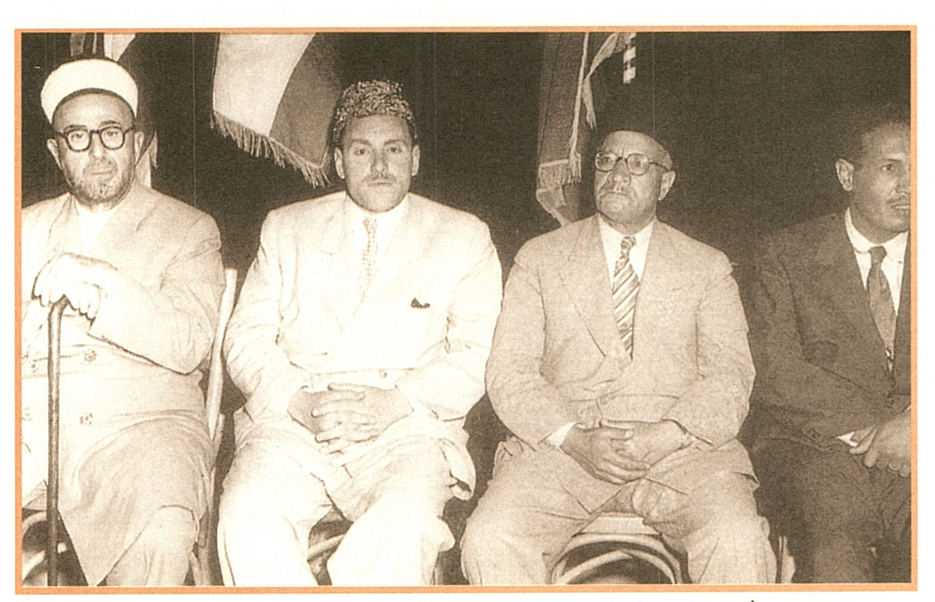
على أحد أبواب المجلس النيابي بدمشق، وفي الصف الأول من اليمين:
الشيخ عبد العزيز الرفاعي، الشيخ عبد الحكيم المنيِّر، نقيب الأشراف سعيد الحمزاوي، الأستاذ السباعي، الدكتور مأمون الكزبري، الأستاذ مصطفى الزرقا، الشيخ عبد الرؤوف أبو طوق، الشيخ عبد الرحمن الزعبي (بعمامته الصفراء).
وقد ظهر بين الكزبري والزرقا في الصف الثاني: محمد المبارك (بطربوشه)



عقب انتهاء الاحتفال بافتتاح كلية الشريعة: الجموع تغادر مدرج الجامعة والصورة من اليمين: رئيس الوزراء السيد صبري العسلي، رئيس الجمهورية هاشم الأتاسي، وزير المعارف السيد رئيف الملقي (وخلفه الأستاذ السباعي)
رئيس المجلس النيابي السيد ناظم القدسي



السباعي في عمادة كلية الشريعة يستقبل الأمير (الملك خادم الحرمين الشريفين) فهد بن عبد العزيز في زيارته لدمشق، وجلس بينهما الدكتور أحمد السمان رئيس الجامعة. وفي الصورة الشيخ بهجة البيطار والدكتور معروف الدواليبي



مع الأستاذ حسن الهضيبي في زيارته لسورية. وعلى يسار الهضيبي الأستاذ صالح أبو رقيق، وعلى يمين السباعي أحد شيوخ حلب



(خادم الحرمين الشريفين) الملك فهدبن عبد العزيز في زيارته لدمشق، وعن يمينه الدكتور أحمد السمان رئيس الجامعة، وعن يساره الدكتور السباعي عميد كلية الشريعة



السباعي في زيّ المقاومة الشعبية أيام التدريب العسكري حين وقع العدوان الثلاثي
على مصر عام ١٩٥٦م



مع المرشد العام حسن الهضيبي في دمشق



مع الإمام حسن البنا، وعلى يسار الصورة الزعيم المغربي علاّل الفاسي



الإمام البنا في دمشق، ومن خلفه السباعي والسيد نهاد القاسم



في حفل للهضيبي في دمشق

